

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الدكتور علي بن عبد العزيز الخضيري



علي ابن المقرب العيوني

حياته وشعره

مؤسسة الرسالة

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



علي بن المقرب العيوني

حياته وشعره

تأليف

الدكتور علي بن عبد العزيز الخضيري

مؤسسة الرسالة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتاب

رسالة نال بها المؤلف درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

لقد توالت على الجزيرة العربية حقب طويلة منذ أن نزح كثير من أهلها في عصر صدر الإسلام مع طلائع الفتح الإسلامي في الشام والعراق ومصر وغيرها من الأمصار. وكان المؤرخون منذ ذلك الحين وإلى عهود قريبة في غفلة عما يجري فيها، وبخاصة في قلب نجد وما يجاورها كالبحرين التي تضم البلدان الواقعة شرقيَّ الجزيرة العربية في الاصطلاح التاريخي القديم، ولم تكن غفلة المؤرخين عن تدوين الحوادث في هذه المناطق أمرا مستغرباً، إذ كانت الحوادث والوقائع تدور حـول الحـواضـر الإسلاميـة في دمشق وبغـداد والقـاهـرة وقـرطبـة والقيـروان وغيرهـا، ولم تقع في الجـزيـرة العـربيـة طـوال هـذه القـرون أحـداث ذات بـال تشـد انتبـاه المؤرخين عـدا حـركـة القـرامـطة التي استفحـل أمرهـا، وعظم شـأنهـا في البحـرين في مـطلع القـرن الـرابـع الهجري، وانتهت في منتصف القرن الخامس، ولو كانت هذه الحركة مقتصرة على هذه البلاد لما أولاها المؤرخون هذا الاهتمام كله، ولكنها استولت على مكة المكر ة ودمشق وبعض بلاد الشام لفترات قصيرة، وهددت العراق ومصر في فترات أخرى.

ومع أن الدولة العيونية قامت على أنقاض دولة القرامطة في سرقي الجزيرة العربية، وظلت مسيطرة على بلاد البحرين كلها منذ سنة ٤٦٦ هـ إلى سنة ٦٣٦ هـ فإن كثيرا من الناس اليوم لا يعرف شيئاً عن الأسرة العيونية وتاريخها في البحرين،

مع أن هذا التاريخ يمثل زمنا ليس بالقصير من تاريخ الجزيرة العربية في عصور نسيها فيها المؤرخون وبخاصة عندما توالت الأحداث العظيمة على حاضرة الخلافة الإسلامية في بغداد وغيرها من الأقطار الإسلامية إبَّان الغزو المغولي للمشرق الإسلامي .

وإذا كان التاريخ السياسي لهذه البلاد في تلك الفترة غامضاً أو شبه مجهول فإن تاريخ الحركة الأدبية فيها ليس بأحسن من تاريخها السياسي الذي يوليه المؤرخون عادة عنايتهم الأولى ، بل إن الحركة الأدبية في نجد وشرق الجزيرة العربية كادت أن تكون نسياً منسيّاً طوال ألف عام على وجه التقريب لولا ظهور شاعر ينتمي إلى الأسرة العيونية، وهو علي بن المُقرَّب العيوني (٥٧٢ هـ - ٦٣٠ هـ) الذي كان له الفضل في تدوين تاريخها وتسجيل أحداثها في شعره الغزير الذي يعد مرجعاً هاماً في التاريخ السياسي لهذه البلاد، ويعطي صورة واضحة مميزة عن الشعر العربي في قلب الجزيرة العربية آنذاك.

ولئن كان ابن المقرب ظاهرة أدبية فريدة من زمانها ، بل خلال قرون طويلة في هذه المنطقة فإن التاريخ لم ينصفه، كما لم ينصفه معاصروه في بلده من أقربائه وأمراء أسرته الذين آذوه، وصادروا أمواله وأملاكه، ثم سجنوه ، حتى إذا غادر موطنه مكرها مضى يجوب البلاد وهو يشكو زمانه، ويعاتب بني عمه، ويمدح رجالات عصره، علَّه يجد المعين والنصير، ثم تُقيِّض له العودة إلى بلاده، فيستقر بها سنوات قلائل، ثم ما يلبث أن يموت وفي قلبه حسرة وفي نفسه كمد، دون أن يجد من يواسيه ويعينه على نوائب الدهر. لقد ظُلم هذا الأمير الشاعر مرتين: مرةً في حياته بما لقيه من اضطهاد ومشقة وغربة، ومرةً بعد موته حين نسيه التاريخ، وتحيَّفه الأدباء، حتى أُضيع ديوانه، فلم يظهر إلا في مطلع هذا القرن، ثم ظل محدود الانتشار لا تعرفه إلا قلة من الناس، رغم أنه كان يعيش في أذهان الخاصة من أهل بلده، يرددون شعره، ويتمثلون حكمته الصادقة النابضة بالحياة والنابعة من أعماق

العقل والوجدان[1]. ومن هنا فإن هذا الشاعر جدير بالدراسة والبحث والاهتمام، وذلك ما دعاني إلى دراسة حياته وشعره، إضافة إلى جودة فنِّه وغزارة نتاجه الأدبي، فقد بلغت أبياته في ديوانه أكثر من خمسة آلاف ومائتي بيت من الشعر في أغراض شتى، أهمها المديح والشكوى والعتاب والحماسة والفخر والحكمة، وأمرٌ آخر أعانني على المضيِّ في هذه الدراسة وهو ازدياد إعجابي بشخصيته كلما تعمقت في دراسة شعره، حتى كدت أن أشاركه آلامه وأحزانه التي خلقت منه شاعراً ذاتياً مطبوعاً صادق المشاعر مرهف الأحاسيس وهو يشكو ما حلَّ به من صروف الدهر وخطوبه غير خوَّارٍ ولا مستكين:

إلامَ انْتِظَارِي أَنْجُمَ النَّحْسِ والسَّعْدِ ... وحَتَّامَ صَمْتِي لا أُعِيدُ ولا أُبْدِي

لَقَدْ مَلَّ جَنْبِي مَضْجَعِي من إقَامَتِي ... ومَلَّ حُسَامِي من مَجَاوَرَةِ الغِمْدِ

أَمِثْلِيَ مَنْ يُعْطِي مَقَالِيدَ أَمْرِهِ ... ويَرْضَى بأنْ يُجْدَى عَلَيهِ ولا يُجْدِي

يَظُنُّ نُحُولي ذُو السَّفَاهَةِ والغَبَا ... غَراماً بِهِندٍ واشْتِياقاً إلى دَعْدِ

ولَمْ يَدْرِ أَنِّي مَاجِدٌ شَفَّ جِسْمَهُ ... لِقاءُ هُمُومٍ خَيْلُها أَبداً تُرْدِي[2]

وكانت شخصية هذا الأمير الشاعر تتراءى أمامي في قصائده التي تنبض بالحماسة والفخر والاعتزاز والطموح، وتتجسَّم في خاطري صدىً حيّاً لشاعر العربية الكبير أبي الطيب المتنبي، ثم وجدتُني أُكبر إخلاصه لوطنه، وتعلقه بمفاخر قومه، وغيرته على دولة بني عمه، وإشفاقه على مملكة آبائه، وقد أصابها الوهن والضعف وهي التي قضت على القرامطة وردَّت خطرهم، وأماتت عقيدتهم

---

(١) يقول أمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب ٢/٨٤ المطبعة العلمية بيروت ١٩٢٥) في حديثه عن الملك عبد العزيز آل سعود: «وفي القصر بالرياض فوق الأبواب في رواق المجلس العام كتبت على الحائط بالحبر الأسود بخط رديء أبيات من الشعر منها:

إذا خَانَكَ الأدْنَى الذي أنت حِزبُهُ ... فواعجبا إن سَالمتْكَ الأبَاعِدُ»

وهذا البيت من قصيدة لابن المقرب ص ١٤٠ من ديوانه.

(٢) الديوان ص ١٣٢

الفاسدة، فما كان منه إلا أن نسي ما يقاسيه من محنة وضيم وراح يبكي مجد عشيرته وشرف قومه وقد أَفَلَتْ شمس دولتهم:

كَنتُ قَبْلَ اليَومِ أبْكي بشجىً ... هَمَّ نَفْسي وطَريفِي وتِلادِي
ثُمَّ قد أَصْبَحتُ أبْكي ناسِياً ... شَجْوَ إخْواني ورَهْطِي وبِلَادِي[2]

وكنت خلال هذه الدراسة استمتع بحلاوة نشيده، وأتغنّى بروائع أبياته التي تفيض فخراً واعتزازاً وثورةً وتمرداً على واقعه المؤلم ، وهو يجوب البلاد والآفاق غريباً طريداً، وقد ضاق ذرعاً بما لقي من الهوان والمذلة فآثر هجر وطنه الذي يحبه لتبقى كرامته مصونة وعزة نفسه موفورة:

مَتى لَمْ أضِقْ ذَرْعاً بأَرْضٍ فإنَّني ... لَدَى الهَمِّ جَوَّابُ المَوَامِي ذَرُوعُها
يُشَيِّعَنِي قَلْبٌ إلى العِزِّ تائِقٌ ... ونَفْسٌ إلى العَلْيَا شَدِيدٌ نُزُوعُها
أُشَرِّفُها مِنْ أن يَكُونَ إبَاؤُها ... لِواجِبِ حقٍّ أو لِضَيْمٍ خُنُوعُها
وَمَا أنَا في السَّرَّاءِ يوماً فَرُوحُها ... ولا أنَا في الضَّرَّاءِ يوماً جَزُوعُها
سأُنْزِلُها المَلْحُودَ أو رَأْسَ هَضْبَةٍ ... من العزِّ يُعْيي كلَّ راقٍ طُلُوعُها[2]

ومع تلك المتعة التي كنت أُحسها في دراسة نتاج ابن المقرب وتلك الصحبة التي جمعت بيني وبينه لم تخل هذه الدراسة من بعض العقبات والصعاب، وبخاصة فيما يتعلق بالمصادر التاريخية التي تعين على رسم صورة واضحة شاملة للحياة في عصره، فقد كانت هذه المصادر شحيحة في الكشف عن تاريخ الأسرة العيونية التي ينتسب إليها الشاعر، وتفاصيل الأحداث والوقائع خلال حكمها للبحرين. بل إن الكتب التاريخية المعروفة لم تشر إلى الدولة العيونية لا من قريب ولا من بعيد. ولهذا فقد اعتمدتُ في تاريخها على ثلاثة مصادر:

١ ــ شعر ابن المقرب وما حواه ديوانه من شروح ومقدمات لبعض القصائد ممّا

(١) الديوان ص ١٧٦
(٢) الديوان ص ٢٥٨

يكشف كثيرا من التفاصيل عن تاريخ الدولة العيونية، لا سيما شرح ميميته الطويلة التي يفتخر فيها بأسرته، ويورد الكثير من مناقب أمرائها[١]. ولهذا فإن ديوان الشاعر يُعدُّ أهمَّ مصدر لتاريخ العيونيين، وهي حقيقة لفتت ذهن عدد من كبار العلماء المحققين، ومنهم الدكتور شوقي ضيف الذي يقول[٢]: «ولعل من الطريف أن نعرف أن دولة العيونيين التي حكمت إقليم الأحساء والقطيف وهجر والبحرين نحو مائة وسبعين عاماً لم تُسجَّل أحداثُها وشئونُها التاريخية لا عند ابن الأثير ولا عند غيره من المؤرخين القدماء، ولولا أن شاعراً سجل كثيراً من هذه الشئون والأحداث في أشعاره لضاع منّا تاريخ هذه الدولة إلا قليلا»، ومنهم الشيخ حمد الجاسر الذي أشار إلى الأهمية التاريخية لشعر ابن المقرب فقال[٣]: «ولولا أن قيَّض الله لهؤلاء القوم شاعراً منهم سجل أخبارهم، ووصف كثيراً من أحوال حكمهم لجُهلت أنباؤهم، وخفيت على الباحثين في التاريخ سيرهم».

٢ ـ بعض أخبار البحرين نقلا عن نسخة من شرح ديوان ابن المقرب كتبها ناصر بن لاحق سنة ١١٩٤ هـ لشيخه صالح العتيقي من علماء المجمعة في نجد[٤].

٣ ـ مخطوط مجهول المؤلف يبيِّن تسلسل الحكم في الأسرة العيونية وأسماء أمرائها وبعض الحوادث الأخرى. وهو خاص بالتراجم، وأكثر من تُرجم لهم فيه من

---

(١) انظر الديوان ص ٥٢٦

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ جزء ٣٨ ذو القعدة ١٣٩٦ هـ ص ٢٥.

(٣) تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد لابن عبد القادر (المقدمة) الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ.

(٤) كانت هذه النسخة بيد محمد بن صادق الكردي مدير البعثات العلمية السعودية في الإسكندرية عام ١٣٧٩ هـ، وقد طبعت بعض شروحها التي تضم هذه الأخبار ضمن ملحقات تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد لابن عبد القادر ص ٢٥٦.

الشيعة، وقد عاش مؤلفه في القرن العاشر الهجري [1].

ولم تكن تفاصيل حياة الشاعر بأوضح من تفاصيل التاريخ العيوني ، إذ لم أجد منها في المصادر الأدبية وكتب التراجم إلا لمحات موجزة أوردها بعض معاصريه كابن الشعّار الموصلي وياقوت الحموي، بالإضافة إلى ترجمة مبتورة ومختصرة وردت في مقدمة ديوانه لكاتب غير معروف، وقد حملني هذا على أن أعتمد شعر ابن المقرب في نسج خيوط حياته واستظهار ملامح شخصيته.

أما الدراسات الحديثة عن حياته وشعره فهي قليلة مختصرة، وهي منثورة في بعض الكتب والمجلات والصحف، أو مبثوثة في بعض البحوث الجامعية المطويَّة، وأهم ما كتب عن الشاعر دراسة موجزة للأستاذ عمران العمران ألقى فيها الأضواء على حياته وشعره ودعا فيها إلى مزيد من الدراسة المستفيضة الوافية، وبحثُ للدكتور رزوق فرج رزوق عن عراقيات ابن المقرب. وكان آخر ما ترامى إليَّ ـ وأنا أُعدُّ هذه الدراسة ـ أن الدكتور صلاح نيازي أعد نشرة جديدة لديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية باللغة الانجليزية، وتقدَّم بهما لكلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن، ولما كان منهج البحث يقتضي أن أقف على كل ما كتب عن الشاعر فقد بذلتُ جهوداً متواصلة في سبيل الحصول على نسخة مصورة عن هذه الدراسة التي لم تنشر حتى اليوم، وقد تفضل الدكتور نيازي بتزويدي بتلك النسخة مشكوراً.

أما ديوان الشاعر فقد صدرت منه أربع طبعات، كانت الثلاث الأولى منها ناقصة ومضى على طباعة اثنتين منها زمن غير يسير، وقد حرصت على الاطلاع عليها فوجدتها كثيرة الأخطاء ظاهرة التصحيف غير مستوفية لشعره، كما ينقصها التحقيق

---

(١) وهذا المخطوط في دار الكتب المصرية (المكتبة التيمورية) برقم ٦٣٧، وقد حصلتُ على نسخة مصورة عنها، كما أنها قد طبعت ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٥٠ (تاريخ العيونيين فقط). وقد تبين لي فيما بعد أنه جزء من كتاب (زهر الرياض وزلال الحياض) للحسن بن علي بن شدقم (ت ٩٩٩ هـ) وهو لا يزال مخطوطاً (انظر رحلات الشيخ حمد الجاسر ٢٤٣/١) الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

الدقيق الوافي، أما الرابعة فهي الطبعة التي صدرت بتحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، وهي أفضل من سابقاتها وأشمل، وقد اعتمدتها في هذه الدراسة ورمزت إليها بلفظ (الديوان)، ولا يزال الديوان بحاجة إلى طبعة جديدة منقحة، تستوفي مخطوطاته المنتشرة في بلاد كثيرة.

وإني إذ أقدم هذه الدراسة عن شاعر الجزيرة العربية الكبير الذي لم ينل حظه من البحث والدراسة واهتمام المثقفين بالقدر الذي يتناسب مع عطائه الأدبي الجمّ وشاعريته الأصيلة المبدعة أرجو أن يكون في هذا الجهد القليل ما يسهم في التعريف به وتجلية مكانته، ممَّا يعطي صورة عن الحياة الأدبية في ذلك الجزء من بلادنا وفي تلك الفترة الغائمة من تاريخنا، وهي فترة تحتاج إلى بعث جديد، وإلى جلاء يكشف سحب الأوهام والظنون.

وإني لأتقدم بالشكر العميق إلى أستاذي المشرف الدكتور عبد القدوس أبو صالح الذي شجعني على القيام بهذه الدراسة، فكان لتوجيهاته وإرشاداته خلال أربع سنوات من البحث والكتابة الأثر البالغ في محاولة الوصول بها إلى المستوى المنشود[1]، وإني لأرجو أن يجد فيها القارىء ما يود أن يعرفه عن حياة ابن المقرب وشعره والله وليُّ التوفيق.

الدكتور علي بن عبد العزيز الخضيري

الرياض ١٥/ ٤/ ١٤٠٠ هـ

---

(١) كما أشكر كل من زودني ببعض المراجع وأخص بالذكر الشيخ حمد الجاسر الذي أفدت من علمه في تحقيق بعض الأماكن.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الأول

عصره وحياته

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

عصر الشاعر

تمهيد

لعل من الملائم قبل الحديث عن حياة ابن المقرب العيوني تقديم لمحة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر الشاعر ، لما لها من التأثير في حياة ابن المقرب وشعره ، وهو ما نراه واضحاً في أخباره القليلة ، وتضاعيف ديوانه الكبير . ويقتضي الحديث عن عصر الشاعر إيراد لمحة جغرافية وتاريخية عن المنطقة التي ولد فيها ، وعاش بين ربوعها ، وهي البحرين حسب تسميتها القديمة ، لأن ذلك مرتبط بتاريخ الأسرة العيونية التي ينتسب إليها الشاعر ، والتي حكمت هذه البلاد بعد زوال حكم القرامطة من سنة **٤٦٦** هـ إلى سنة **٦٣٦** هـ .

أولاً: جغرافية البحرين قديماً

إن ما يعرف اليوم باسم المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية مع بعض دول الخليج العربي هو ما يطلق عليه في الاصطلاح التاريخي القديم وإلى عهد قريب اسم (البحرين). ومن المناطق التي تدخل في تلك التسمية (جزيرة أَوال) و(القطيف) و(هجر) أو (الأحساء) وغيرها من المدن والقرى الواقعة على ساحل الخليج .

وكانت البحرين تمتد قديماً من البصرة وما جاورها شمالاً، إلى عُمان ورمال الربع الخالي جنوباً، وتنتهي حدودها الشرقية عند الساحل الغربي للخليج العربي مع بعض الجزر في هذا الخليج وأكبرها (جزيرة أَوال) التي اقتصر عليها اسم

(البحرين) في الوقت الحاضر. أما من الناحية الغربية فإنها تمتد إلى أطراف اليمامة وصحراء الدهناء. وهذا التحديد هو ما ذكره المؤرخون والجغرافيون مع اختلاف يسير. فقد ذكر ياقوت الحموي أن البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، ثم قال [1]: «والبحرين هي الخط والقطيف والآرة وهجر وبينونة والزارة وجواثا والسابور ودارين والغابة». ويقول ابن خلدون [2] : «وهذا الإقليم مسافة شهر على بحر فارس، وغربيُّها متصل باليمامة، وشماليها بالبصرة، وجنوبيها بعُمان». وإذن.. فلفظ «البحرين» لم يكن يطلق قديماً على الجزيرة المعروفة اليوم بهذا الاسم، بل كان يطلق على الأحساء والقطيف وما جاورهما. يقول الهمداني [3] : «وإذا أجملنا أرض البحرين وهي أرض المُشقَّر فهي هجر مدينتها العظمى والعقير والقطيف والأحساء، ومحلِّم نهرهم، وما يطوف بها ويقع بينها وبين البصرة، وبينها وبين اليمامة، وبينها وبين نجد فسفوان».

أما جزيرة البحرين التي تشكل اليوم «دولة البحرين المستقلة» فإنها كانت تعرف بجزيرة «أَوَال». وقد ذكرت المصادر أنها جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين فيها نخل كثير[4]، وأنها تبعد عن سيف البحر مقدار يوم[5]، أما «الخطّ» فأنه يطلق على القرى الواقعة على ساحل البحر كالقطيف وما جاورها، ويقال: إنه يطلق على مدينة القطيف نفسها [6]. ومن هذه القرى «دارين» التي ذكرها ابن خلدون بقوله [7]: «هي من بلاد البحرين ينسب إليها الطيب كما تنسب الرماح إلى الخطّ بجانبها فيقال: مسك دارين والرماح الخَطِّيَّة». وأما «هجر» فهو الاسم القديم لمنطقة

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٤٧/١ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٤ هـ.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٩٢/٤ دار الطباعة الخديوية بمصر ١٢٨٤ هـ.

(٣) صفة جزيرة العرب ٣٤٧/١ ـ تحقيق محمد الأكوع الحوالي ـ منشورات دار اليمامة بالرياض ١٣٩٤ هـ.

(٤) انظر معجم البلدان لياقوت ٢٧٤/١.

(٥) انظر صفة جزيرة العرب للهمداني ٢٧٩.

(٦) انظر تحفة المستفيد لابن عبد القادر ٢٧ الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ.

(٧) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٩٢/٤.

الأحساء، وكانت بها مدينة معروفة مشهورة، ولكنها اندثرت بعد أن خربها القرامطة، وبنوا مكانها، أو بالقرب منها مدينة الأحساء التي أسسها أبو طاهر القرمطي سنة ٣١٧ هـ وحصنها، وجعلها قصبة هجر (١)، وسميت الأحساء لما فيها من أحساء المياه (٢) .

ورغم أن بعض هذه الأسماء لم تعد في الوقت الحاضر أعلاماً على مسمياتها القديمة كهجر والخط وأوال، فإن معظم بلدان هذه المنطقة لاتزال معروفة إلى اليوم بأسمائها القديمة كالأحساء والقطيف والعقير وصفوى والظهران ودارين والعيون التي تنتسب إليها أسرة ابن المقرب العيوني، الذي يذكر بعض البلدان بقوله :

أَخَذُوا الحَسَاءَ من الكَثيبِ إلى مَحَا ... ديثِ العُيُونِ إلى نَقَا حلْوَانِ
والخَطَّ من صَفْواءَ حَاذَوْهَا فَمَا ... أَبْقَوا بها شِبْراً إلى الظَّهْرَانِ (٣)

ولقد كانت هذه البلاد في عصور متقدمة مركزاً تجارياً مهماً بما حباها الله من مياه ونخيل وزروع، وبحكم موقعها الجغرافي على ساحل الخليج، مما هيَّأ لها موقعاً تجارياً بحرياً، جعلها منتجعاً للأمم والقبائل حتى كثرت إليها الهجرات، وشهدت حضارات قديمة، كما دلت على ذلك المكتشفات الأثرية من المقابر والمدافن التي تشير إلى استيطان الكنعانيين والعمالقة والفينيقيين لهذه البلاد (٤) .

ويجد المتتبع لتاريخ العرب في الجاهلية أن القبائل العربية من أقدم الأمم التي سكنت هذه المنطقة. فقد ذكر ابن الأثير (٥) أن جماعات من قضاعة وإياد قد اجتمعوا بالبحرين وتعاقدوا على التناصر والتساعد، وتحالفوا على التنوّخ ـ وهو المقام ـ وضمهم اسم تنوخ، ولحقت بهم بطون من نمارة بن لخم، وأن نفوسهم قد تطلعت إلى ريف العراق فغلبوا الأرمن على بابل .

---

(١) معجم البلدان لياقوت ١/١١٢ .

(٢) الأحساء: جمع حسي وهي الأرض يستنقع فيها الماء، أو كثبان الرمل يجتمع حولها المطر .

(٣) الديوان ص ٦٣٨ .

(٤) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٢/٢٩٨ القسم السياسي بغداد ١٩٥١ م.

(٥) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٣٤٠ دار صادر وبيروت للطباعة والنشر ١٣٨٥ هـ .

ثم استوطنت هذه البلادَ قبائل عربية أخرى منها تميم وعبدالقيس وبكر بن وائل، ثم لم تلبث عبد القيس أن تغلبت على إياد وقضاعة وأصبحت القبائل العربية بعد ذلك تمثل السواد الأعظم من سكان هذه المنطقة مع وجود نفوذ سياسي فيها للفرس، وهنا تبدو المعالم البارزة لتاريخها السياسي .

ثانياً: الحياة السياسية

١ ـ تاريخ البحرين السياسي قبل الدولة العيونية

كانت منطقة البحرين قبل ظهور الإسلام تخضع بين الحين والآخر لنفوذ الفرس وسيطرتهم على كثرة القبائل العربية فيها، وكانت تتعرض لحملات الفرس وحروبهم، كما فعل أردشير بن بابك حينما زحف على بلاد البحرين وحاصرها ثم استولى عليها[١] .

ورغم ذلك فقد كان للقبائل العربية آنذاك شخصية مستقلة، بل إنها قامت بغزو بلاد الفرس منطلقةً من هذه المنطقة صوب الشمال حينما ضعفت دولتهم، بعد أن ورث سابور الملك عن أبيه، وكان صغير السن، والعرب يومئذ أقرب إلى بلاد فارس، فسار جمع عظيم منهم من عبد القيس وقبائل البحرين حتى وصلوا سواحل أرد شير خرّة من بلاد فارس، فغلبوا أهلها على مواشيهم ومعايشهم، وسكن بعضهم العراق، ثم مكثوا حينا لا يغزوهم أحد من الفرس لصغر ملكهم[٢] .

ثم لما كبر سابور قام بغزو القطيف، وقتل من وجد بها من العرب، ثم توجه إلى هجر وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، ثم قصد اليمامة وغوَّر مياهها وأسرف في القتل، وكان ينزع أكتاف الرجال وهم أحياء، فسُمي ذا الأكتاف[٣] . ثم إن العرب اجتمعت للانتقام منه، ودارت الحرب بينهم وبينه، فهُزم عسكره، وكثر القتل في جيشه فهرب مع من بقي من جنده[٤] .

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ١/٣٩٣ .

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الاثير ١/٣٩٢ وتاريخ الرسل والملوك للطبري ٢/٥٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية .

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/٣٩٣ .

(٤) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ٢/٥٩ .

ويذكر التاريخ [1] أيضاً حادثة أخرى قتل فيها الفرس بني تميم في حصن المُشقَّر بناحية البحرين يوم الصفقة كما سماه العرب، بعد أن غدر بهم عامل كسرى في هجر، وهو الملقب بالمُكَعبِر، وقد احتال في إدخالهم الحصن، وجعل يدعوهم عشرةً عشرة، ويضرب أعناقهم، حتى ضرب رجل منهم سلسلة الباب بسيفه ففطنوا للمكيدة وخرجوا .

وهكذا تعطينا هذه الحوادث لمحات عن التاريخ السياسي لهذه المنطقة قبل الإسلام، وهي أقدم ما ترويه كتب التاريخ فيما اطلعت عليه. وقد بقيت القبائل العربية تسكن هذه المنطقة ، شأنها شأن سائر القبائل العربية في الجزيرة العربية ، مع أنها تختلف عن بعض القبائل الأخرى في تحضرها ونزولها في بلاد زراعية مثل هجر التي كانت منتجعاً لكل القبائل ، كما تختلف عن سائر القبائل العربية الأخرى من حيث علاقتها بالفرس، وقيامهم بمهاجمتها أو قيامها بمهاجمتهم بين حين وآخر .

ولعل أهمَّ حدث تاريخي سجلته كتب التاريخ، وشاركت فيه قبائل هذه المنطقة من عبدالقيس وبني شيبان وغيرهما قبل بزوغ شمس الإسلام هو يوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفرس نصراً مؤزراً [2]. وكان هذا النصر إرهاصاً بمجيء الإسلام الذي قوَّض عرش الأكاسرة .

وحينما ظهر أمر الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، وبدأت القبائل العربية تفد إليها معلنةً إسلامها توجهت إلى المدينة وفود قبائل البحرين منقادةً لدين الله .

وكان أولَ الوافدين إليها أشجُّ عبد القيس المنذر بن عائذ العبدي ـ وقيل: اسمه المنذر بن الحارث [3] ـ مع نفر من قومه، وكان الأشجُّ على صلة ببعض الرهبان، فسمع منهم بقرب ظهور محمد ﷺ، فشجعه ذلك على سرعة الدخول في الإسلام [4]. وكان قدومه إلى المدينة قريباً من فتح مكة [4]، ثم عاد إلى بلاده يدعو

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١ / ٤٦٨ .
(٢) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ١٩٣/٢ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٤٨٢/١
(٣) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٥٩/٥ دار صادر وبيروت للطباعة والنشر ١٣٧٧ هـ .
(٤) انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٢٣٦/٣ المطبعة الشرقية بمصر ١٩٠٧م .
(٥) انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٢٣٦/٣ .

الناس إلى الإسلام، وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[١]. كما وفد إلى المدينة الجارود بن عمرو بن المُعلّى وكان نصرانياً، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم، وأسلم معه أصحابه، وعاد إلى البحرين يدعو أهلها إلى الإسلام، وكان له موقف كريم يوم الردة حين بقي مع قومه على الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ[٢].

وكان والي البحرين من قبل الفرس إبّان ظهور الإسلام المنذر بن ساوى العبدي، فوجه إليه الرسول ﷺ العلاء بن الحضرمي، يدعوه وقومه إلى الإسلام، وبعث معه كتاباً إلى المنذر، فأسلم وأسلمت معه العرب وبعض الأعاجم، وأما من فيها من النصارى والمجوس فقد صالحهم العلاء على دفع الجزية[٣]. وبقي المنذر والياً على هذه المنطقة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد مرض في الشهر الذي مرض فيه النبي ﷺ ومات بعده بقليل[٤].

وبعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتد كثير من أهل البحرين عن الإسلام كما ارتدت العرب في بعض بلاد الجزيرة العربية. فأمّا بكر فأصرت على ردَّتها، وأمّا عبد القيس فقد جمعهم الجارود بن المُعلّى وجادلهم حتى أقنعهم بالعدول عن الردة والثبات على الإسلام[٥]. ثم قام المرتدون بحصار من بقي على إسلامه من عبد القيس في جواثا[٦] إلى أن أرسل إليهم أبو بكر رضي الله عنه العلاء ابن الحضرمي في جيش من المسلمين فيهم أبو هريرة رضي الله عنه، فجرت بينهم

---

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ٥٥٧.

(٢) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ٣ / ١٣٦.

(٣) انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ٣ / ٢٣٦ ومعجم البلدان لياقوت ١ / ٣٤٨.

(٤) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ٣ / ٢٥٤.

(٥) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ٢ / ٣٦٨.

(٦) لا يزال موضعها معروفاً قرب قرية الكلابية في الأحساء وهي أطلال دارسة لم يبق منها سوى آثار عين الماء التي تراكمت على فوهتا الرمال، وآثار مسجدها وهو أول مسجد صُلِّيت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله ﷺ (انظر تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء لابن عبد القادر ص ١٠).

وقائع في جواثا ودارين نصر الله فيها المسلمين ، ورجع كثير من المرتدين إلى الإسلام ، وهرب منهم من هرب ، وقتل كثير منهم مع قائدهم الحطم بن ضبيعة ، وكتب العلاء إلى أبي بكر يخبره بهزيمة المرتدين بعد أن فُتحت الزَّارة وقتل فيها المُكَعبِر عامل كسرى ، وكان قد تحصن فيها وامتنع عن أداء الجزية[1] .

وبعد أن تم القضاء على حركة الردة في البحرين هدأت الأمور فيها، وتفرغ ولاتها في عصر الخلفاء الراشدين وبداية الحكم الأمـوي للإسهام في إعداد الجيوش وإمدادها إبَّان الفتوحات الإسلامية المتوالية إلى أن تغلب عليها سنة سبع وستين للهجرة أحد رؤوس الخوارج وهو نجدة بن عامر الحنفي [2]، وكان أول ظهوره باليمامة، ثم سار منها إلى البحرين في ثلاثة آلاف رجل، فسالمته الأزد، واجتمعت عبد القيس وقبائل البحرين الأخرى على محاربته، فالتقوا في القطيف، فانهزمت عبد القيس وقتل منها جمع كثير، وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف [3]. ثم أقام ومن معه من الخوارج في البحرين، فلما قدم مصعب بن الزبير إلى البصرة سنة ٦٩ هـ بعث إليه عبدَ الله بن عمير الليثي في أربعة عشر ألفاً، فقاتلهم نجدة فانهزموا وغنم منهم مغانم كثيرة، ثم بعث نجدة جيشاً إلى عُمان واستولى عليها وأرسل إلى البوادي، وأخذ منهم الصدقة، ثم سار إلى صنعاء فبايعه أهلها، وبعث أبافديك أحد أصحابه إلى حضر موت فجبى صدقات أهلها [4]. وحج نجدة بعد ذلك، وصَالَحَ ابن الزبير على أن يصلي كل منهما بأصحابه، ويكفَّ بعضهم عن بعض. ثم توجه إلى المدينة فتأهب أهلها لقتاله، وتقَّلد عبد الله بن عمر سيفه، فلما سمع نجدة بلبس ابن عمر السلاح رجع إلى الطائف، فبايعه عاصم ابن عروة بن مسعود الثقفي مع قومه، وبعد رجوعه إلى البحرين قطع الميرة عن أهل الحرمين، لكنه لم يلبث أن ردَّها بعد أن كتب إليه ابن عباس، وذكَّره بكتاب الرسول

(١) انظر المصدر السابق ٢ / ٣٧١ والبداية والنهاية لابن كثير ٦ / ٣٢٧ الطبعة الأولى ١٩٦٦م والسيرة لابن هشام ٤ / ٢٢١ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ / ٢٠١ .

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ / ٢٠٢ .

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ / ٢٠٣ .

ﷺ إلى ثمامة بن أثال حينما قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون [1] .

وقد اختلف أصحاب نجدة عليه فيما بعد، ووقع الخلاف بينهم، وانحازت فرقة منهم إلى أبي فديك عبدِ الله بن ثور، فهرب نجدة بن عامر إلى أخواله بني تميم، وأراد المسير إلى عبد الملك بن مروان، ولكّن أصحاب أبي فديك داهموه، فخرج عليهم وسيفه بيده، وحاول أحد مهاجميه أن يمكنه من الهرب، فأبى إلا القتال حتى غشيه أصحاب أبي فديك فقتلوه، وكان شجاعاً كريماً كما يقول ابن الأثير [2] .

ويذكر الطبري [3] أن خروج أبي فديك كان سنة ٧٢ هـ، وأنه من بني قيس بن ثعلبة. وقيل : [4] إنه لم يزل غالبا على البحرين حتى أرسل إليه عبد الملك بن مروان عمرَ بن عبيد الله بن معمر التيمي ومعه عشرة آلاف رجل حتى انتهوا إلى البحرين، وقاتلوه هو وأصحابه من الخوارج، فكادت الدائرة أن تكون على جيش عمر بن عبيد الله لولا استبسال أصحابه وفيهم المغيرة بن المهلَّب حيث تمكنوا من هزيمة عسكر الخوارج، وقتلوا أبا فديك، وحصروا أصحابه في حصن المُشَقَّر، فنزلوا على الحكم، فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة .

وفي سنة ١٠٥ هـ خرج مسعود بن أبي زينب العبدي بالبحرين على الأشعث بن عبد الله بن الجارود، ففارق الأشعث البحرين، وسار مسعود إلى اليمامة، وعليها سفيان بن عمرو العقيلي، فاقتتلوا قتالاً شديداً قُتل فيه مسعود، وقام بأمر الخوارج بعده هلال بن مدلج، فقاتلهم يومه كلَّه فقتل عدد من الخوارج، وقتلت زينب أخت مسعود، فلما أمسى هلال تفرق عنه أصحابه وبقي في نفر قليل، ودخل قصراً وتحصّن فيه، فنصبوا عليه السلالم وصعدوا إليه وقتلوه. وقيل إن مسعوداً غلب على

---

(١) انظر المصدر السابق ٤ / ٢٠٤.
(٢) انظر المصدر السابق ٤ / ٢٠٦.
(٣) انظر تاريخ الرسل والملوك ٦ / ١٧٤.
(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤ / ٣٦٢.

البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي [١] .

وبعد أحداث الخوارج هذه في البحرين لم يذكر لنا التاريخ أحداثاً ذات بال، وظلت تحت ولاية بني أمية ثم بني العباس إلى أن ظهر فيها صاحب الزنج سنة ٢٤٩ هـ، وقد ادَّعى أنه من أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى يجتمع الناس حوله ويناصروه. ويقال إنه من عبد القيس واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم [٢] . وقد دعا الناس بهجر إلى طاعته، فاتّبعه جماعة من أهلها ومن غيرهم، وقاتلوا إلى جانبه، وكان يتنقل في البادية لجباية الخراج، ثم سار إلى البصرة وجعل يدعو غلمانها للخلاص من الرِّق فاجتمع عليه منهم خلق كثير، وظهر العبيد على مواليهم، ولهذا سُمي صاحب الزنج، ثم دخل البصرة واستباحها، وتعاظمت فتنته إلى أن تولى الخلافة أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد، فسيَّر أخاه أبا أحمد الموفق لقتاله، فجرت بينهما وقائع كثيرة انتهت بهزيمة جيشه ومقتله سنة ٢٧٠ هـ [٣] .

وفي نهاية القرن الثالث الهجري ظهرت في البحرين حركة القرامطة. وقد بلغت هذه الحركة من القوة والخطورة حدّاً عظيماً جعل كثيراً من المؤرخين يعدُّها أهمَّ فترة تاريخية شهدتها هذه المنطقة. إذ لم تكن حركتهم مقتصرةً عليها فقط، بل شملت العراق والشام والحجاز ومصر حينما دخل القرامطة البصرة والكوفة ومكة ودمشق، وهددوا بغداد، ووصلوا إلى قلب مصر، وحاربوا فيها الفاطميين رغم اتفاقهم معهم في المبادىء، بل رغم تبعيَّتهم للفاطميين .

وقد عاث القرامطة في الأرض فساداً، وأخافوا السبل، وقتلوا الحجاج، واعتدوا على حرمة المسجد الحرام، وقتلوا الناس فيه، ونقلوا الحجر الأسود إلى هجر، وأرعبوا الناس، وأرجفوا في البلاد .

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ / ١١٨ .
(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧ / ٢٠٦ .
(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧ / ٢٠٥ .

ولقد كانت حركة القرامطة في حقيقتها دعوةً باطنيةً استغلت في بداية أمرها عواطف الشيعة في تطلعهم إلى ظهور المهدي المنتظر، واعتمدت في دعوتها للناس على الرموز والتأويل، وتحريف الآيات، واعتقاد أن لكل شيء ظاهراً وباطناً، وتأويل التأويل، وتبليغه إلى مراتب ينتهون بـه إليها يسمونها البلاغ (١) .

وأول من كان له شأن من القرامطة في البحرين رجل فارسيٌّ الأصل هو أبو سعيد الحسن بـن بهرام الجَنَّابي نسبة إلى «جنَّابة»، وهي قرية فارسية. وابرز من جاء بعده ابنه أبو طاهر سليمان، وحفيده الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الملقب بالأعصم.

ويذكر المؤرخون (٢) أن ابتداء ظهورهم بالبحرين كان سنة ٢٨٦ هـ عندما قصد القطيف رجل يعرف بيحيى بن المهدي، ونزل في بيت علي بن المُعلَّى بن حمدان مولى الزياديين وكان مغالياً في التشيع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي، وأن ظهوره قد قرب، فوجه ابن المُعلَّى إلى الشيعة من أهل القطيف، وأقرأهم الكتاب الذي قدم به يحيى من المهدي، يدعوهم إلى أمره والاستعداد لظهوره، فأجابوه بالتأييدإذا أظهر أمره، وبعث إلى سائر بلاد البحرين بذلك فأجابهوه، وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجَنَّابي، وكان يبيع للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم، ثـم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة، ثم عاد ومعه كتاب يزعم أن المهدي قد أرسله إلى شيعته يحضهم على التأهب لنصرته، ويأمرهم بدفع ستة دنانير وثلث عـن كل رجل إلى رسوله يحيى فامتثلوا أمره، ثم غـاب عنهم وعاد بكتاب آخر أن «ادفعوا إلى يحيى خمس أموالكم فدفعوا إليه الخمس» .

---

(١) انظر «التنبيه والإشراف» لأبي الحسن المسعودي ص ٣٩٥ مطبعة خياط ـ بيروت ١٩٦٥ م، وهو مؤرخ عاصر القرامطة وتوفي سنة ٣٤٦ هـ، وانظر أيضاً «كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة» لمحمد بن مالك الحمادي اليماني ص ١٩٢ ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٥ هـ وقد عاش في أواسط القرن الخامس الهجري، وعاصر أواخر أيامهم.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٧ / ٤٩٣.

ويروي ابن الأثير[1] أن أبا سعيد الجَنَّابي كان يخرج من بيته ويأمر امرأته أن تدخل إلى يحيى وأن لا تمنعه من نفسها إن أراد، فانتهى الخبر إلى الوالي فأخذ يحيى وضربه وحلق رأسه ولحيته، فهرب أبو سعيد إلى جَنَّابة، وسار يحيى بن المهدي إلى بني كلاب وعقيل والخريس، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد فعظم أمر أبي سعيد.

ويذكر ابن جرير الطبري[2] ـ وهو معاصر لأبي سعيد الجَنَّابي ـ أن أمر القرامطة قد عظم بالبحرين، وأنهم أغاروا على هجر وهددوا البصرة، فأرسل الخليفة المعتضدُ العباسَ بن عمرو الغنوي لمحاربتهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فلما كان الليل انصرف عن العباس بعض رجاله ثم اقتتلوا في اليوم التالي فأباد القرامطة ميسرة جيش العباس عن آخرها فانهزم، وأُسر مع الكثير من جنده، وأحضر الجَنَّابي الأسرى فقتلهم وأحرقهم إلا العباس فإنه أطلقه وأرسله إلى الخليفة ليخبره بما رأى. وقد أحدثت هذه المعركة اضطراباً في البصرة وهجر، وقوي بعدها شأن القرامطة بزعامة أبي سعيد الجَنَّابي.

وفي سنة **٣٠١هـ** قُتل أبو سعيد كبير القرامطة على يد خادمه الصقلبي في الحمَّام[3]، وَقَتَلَ معه خمسة من الخدم قبل انكشاف أمره. وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه سعيد وهو الأكبر، فعجز عن الأمر فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان، وكان أبوه قد استولى قبل مقتله على الأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين[4]، وعُمْر أبي طاهر حينئذٍ سبع عشرة سنة. وكان أبو طاهر يغزو بين حين وآخر البصرة والكوفة، ويقطع طريق الحاج، فقد سار سنة **٣١١ هـ** إلى البصرة في ألف وسبعمائة

---

(١) انظر المصدر السابق ٧/٤٩٤

(٢) انظر تاريخ الرسل والملوك للطبري ١٠ /٧٧ وذكر ذلك أيضا ابن الأثير في حوادث سنة ٢٨٧ هـ «الكامل في التاريخ ٧ / ٤٩٨» وابن خلدون في «العبروديوان المبتدأ والخبر» ٤ /٨٨

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ /٨٣

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ /٨٤

رجل[1]، وقيل في أربعمائة فارس وخمسمائة راجل[2]، وداهمها ليلا فهرب الناس منها، وقتل منهم خلق كثير وغرق بعضهم في الماء، وأقام فيها أياما ثم تركها عائدا إلى البحرين وقد حمل معه من المال والأمتعة ما قدر عليه، ثم اعترض للحجاج بعد انصرافهم من مكة وقتل قائدهم أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان وغيره من الرجال والنساء، وسلب أموالهم[3] كما لحق بالحجاج العائدين إلى الكوفة سنة **٣١٢** هـ فهرب منها عسكر الخليفة، فدخلها، ونهبها ثم عاد إلى الأحساء.

وفي سنة **٣١٥** هـ توجه أبو طاهر إلى العراق وهزم جيش الخلافة قرب الكوفة رغم قلة جنده وكثرة جند الخليفة، ثم قصد الأنبار فقطع أهلها الجسر، لكنه عبر إليهم النهر واستولى عليها وبنى الجسر، وقد أرهب الناس وأفزعهم حتى كان جند الخليفة ينهزمون لرؤيته فقط[4]. ويُروى أن الخليفة المقتدر لما بلغه هزيمة عسكره مع كثرتهم قال: «لعن الله نيّفا وثمانين ألفا يعجزون عن ألفين وسبعمائة». لكنّ أبا طاهر ترك الأنبار بعد أن ضعفت عزيمة جنده وعاد إلى الكوفة. وقد ساعد ظهوره في العراق على قيام من كان يكتم أمره من قرامطة العراق حتى بلغوا عشرة آلاف. ثم إن المقتدر سيَّر جيشاً قاتلهم في الكوفة فانهزموا، وقُتل كثير منهم، وأُخذت أعلامهم وكانت بيضاء مكتوباً عليها: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِينَ﴾[5] وأُدخلت بغداد منكوسة[6].

وفي سنة **٣١٧** هـ دخل أبو طاهر مكة المكرمة يوم التروية، وقتل قائد الحج

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ١٤٣

(٢) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣٨٠.

(٣) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣٨٠

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ١٧٠ - ١٧٣

(٥) سورة القصص الآية ٥

(٦) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ١٨٧.

العراقي منصوراً الديلمي، ونهب أموال الحجاج، وقتل الناس في المسجد الحرام، وطرحهم في بئر زمزم، وقلع الحجر الأسود وأرسله إلى هجر، كما اقتلع باب البيت الحرام وكان مصفحاً بالذهب، وأخذ من البيت محاريبه الفضية وما يُزيِّن به من مناطق الذهب، وجرَّد البيت من الكسوة وقسمها بين أصحابه، وقد بطل بذلك الحج في هذه السنة لأول مرة في الإسلام[1]، وحمل أبو طاهر ما قدر على أخذه من مكة ورحل عنها بعد أن أقام بها ثمانية أيام، فعرضت له هذيل وهم رجَّالة في المضايق والشعاب، وحاربوه بالنبل والخناجر، ومنعوه من المسير، فاشتبهت عليه الطرق، وهرب منه بعض الأسرى، وأخذت هذيل بعض ما كان معه، ثم دلَّه عبد من هذيل على طريق سلكه، وخرج من المضايق وسار راجعاً إلى بلده البحرين[2].

وفي سنة **٣٢٣** هـ قطع أبو طاهر طريق الحج ومنع الناس منه، ثم سار إلى الكوفة وأقام بها عدة أيام ثم رحل عنها[3].

وفي سنة **٣٢٦** هـ لزم أبو طاهر بلده (هجر) ولم يبرحها بسبب قيام فتنة بين القرامطة قتل فيها خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم، وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها كما يقول ابن الأثير[4].

ويورد ابن خلدون[5] بعض أخبار أبي طاهر فيذكر أنه بنى مدينة الأحساء سنة **٣١٤** هـ وسماها المؤمنية فلم تعرف إلا به، وأنه استولى سنة **٣١٥** هـ على عُمان وهرب واليها في البحر إلى فارس، ثم يقول[6]: «وأقام أبو طاهر بالبحرين وهو يتعاهد العراق والشام بالغزو حتى ضُربت له الإتاوة ببغداد ودمشق، ثم هلك أبو

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٢٠٧ والتنبيه والإشراف للمسعودي ٣٧٨ - ٣٨٦.

(٢) انظر التنبيه والإشراف للمسعودي ص ٣٨٧

(٣) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٣١١.

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٣٥٢.

(٥) انظر العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٤ / ٨٩.

(٦) المصدر السابق ٤ / ٨٩

طاهر سنة ثنتين وثلاثين (٣٣٢ هـ) لإحدى وثلاثين سنة من ملكه» . ويقال إن جسده قد تقطع بالجدري[١] . وقد مات عن عشرة من الولد كبيرهم سابور، وتولى الحكم بعده أخوه الأكبر أحمد بن الحسن، وهو الذي ردَّ الحجر الأسود إلى مكانه[٢] ثم قبض سابور على عمه أحمد سنة ٣٥٨ هـ وسجنه، ولكنه استطاع الخروج وقَتَل سابوراً ونفى إخوته وأشياعهم إلى جزيرة أَوَال، ثم مات أحمد بن الحسن سنة ٣٥٩ هـ ـ يقال مسموماً ـ على يد أنصار سابور، وولي الحكم بعده أبو علي الحسن بن أحمد الملقب بالأعصم فطالت مدته وعظمت وقائعه، وحج فلم يتعرض للحجاج ولا أنكر الخطبة للمطيع كما يروي ابن خلدون[٣].

وفي سنة ٣٦٠ هـ دخل القرامطة بقيادة الأعصم الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجَنَّابي دمشق، وقتلوا واليها من قبل الفاطميين جعفر بن فلاح وخلقا كثيراً من أهلها[٤]. ثم سار الأعصم إلى الرملة وباقي بلاد الشام وبسط نفوذه عليها، ثم توجه إلى مصر والتقى بعسكر جوهر والمغاربة[٥]، وقاتلهم في عين شمس وانتصر في كثير من المواقع، لكنه لم يلبث أن عاد إلى الشام. وكان سبب غزوه لمصر أن جوهراً قائد المعز لدين الله منعه الإتاوة التي كانت له، فخلع المعز، وخطب للمطيع العباسي في منابره ولبس السواد[٦]. ويورد ابن عساكر[٧] خبر الأعصم، فيذكر أنه

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٥٥ دار التراث ـ بيروت ١٣٨٩ هـ.

(٢) يذكر ابن الأثير (الكامل في التاريخ ٨/٤٨٦) أنه أعيد إلى مكة سنة ٣٣٩ هـ بعد أن حملوه إلى الكوفة، وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ثم حملوه إلى مكة بعد أن مكث عندهم اثنتين وعشرين سنة.

(٣) انظر العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤ / ٨٩.

(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٦١٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٣١٢ تحقيق إحسان عباس.

(٥) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٦١٦، وكان الأعصم يتهدد جوهراً والمغاربة بقوله:

زَعَمتْ رجالُ الغربِ أنّي هِبتُها ... فدمي إذاً ما بينهم مطلولُ

يا مصرُ إن لم أسقِ أَرْضَكِ من دمٍ ... يروي ثراك فلا سقاني النيلُ

(المصدر نفسه)

(٦) انظر العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٤ / ٩٠

(٧) انظر تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ٤ /١٤٨ مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ

ولد سنة ٢٧٨ هـ ، وأنه كان قصير الثياب ، وأنه قد مات بالرملة سنة ٣٦٦ هـ .

وقد ضعف شأن القرامطة في البحرين بعد موت الأعصم ، وخرج الأمر من ولد أبي سعيد الجَنَّابي إلى مجلس يتكون من ستة رجال يسمون السادة أو العَقْدانية ، ومن هؤلاء الستة إسحق وجعفر وهما اللذان دخلا الكوفة سنة ٣٧٥ هـ ، فانزعج الناس لذلك لما في النفوس من هيبتهم وبأسهم[١] . وكان لهما نائب في بغداد هو أبو بكر ابن شاهويه يتحكم تحكُّمَ الوزراء ، فقبض عليه صمصام الدولة ، فلما دخل القرامطة الكوفة كتب إليهما يتلطفهما ويسألهما عن سبب حركتهما ، فذكرا أن القبض على نائبهم هو السبب في غزوهم للكوفة ، وبثَّا أصحابهما وجبيا المال ، ثم حاربهم صمصام الدولة فهزمه القرامطة ، ثم التقوا ثانية فانهزم القرامطة ورحلوا عن الكوفة ، «وتبعهم العسكر إلى القادسية فلم يدركوهم ، وزال من حينئذٍ ناموسهم»[٢] .

ويرى بعض المؤرخين[٣] أن حكم القرامطة في البحرين قد انتهى بنهاية القرن الرابع الهجري بعد أن اختلف جعفر وإسحق[٤] ، وطمع كل منهما بالرئاسة ، ثم تلاشى أمرهم باستيلاء بني ثعلب على الأحساء سنة ٣٩٨ هـ ، ثم انتقل الحكم إلى بني عقيل . ولكن ما بين أيدينا من المصادر يدل على ان نفوذ القرامطة في البحرين كان قائما حتى العقد السادس من القرن الخامس الهجري ، فقد ذكر شارح ديوان ابن المقرب[٥] أن العيونيين قد حاربوا القرامطة في الأحساء أول الأمر . ولا يمنع ذلك من قيام سيطرة لبني ثعلب وبني عقيل قبل قيام العيونية ومع وجود القرامطة لأن

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩ / ٤٢

(٢) المصدر السابق ٩ / ٤٣

(٣) انظر العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون ٤ / ٩١

(٤) لم أهتد إلى نسبة هذين الرجلين .

(٥) انظر الديوان ص ٥٣٢

أمرهم قد ضعف في ذلك الحين. وكان غيرهم أيضا يحكم بعض بلاد البحرين وقت قيام الدولة العيونية فأبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف كان قد غلب القرامطة على جزيرة أوال، كما غلب يحيى بن العياش على القطيف، ثم ابنه زكريا ابن يحيى الذي أخذ جزيرة أوال من أبي البهلول.[1].

وفي هذا الوقت ومن بلدة العيون قرب الأحساء خرج رجل مغامر شجاع هو عبد الله ابن علي العيوني، فقضى على بقايا القرامطة، وانتزع الحكم من زكريا بن يحيى بن العياش وأسس ملكاً في سائر بلاد البحرين بقي في عقبه أكثر من مائة وسبعين عاماً.

٢ ـ تاريخ الدولة العيونية وأشهر حكامها:

لم تتطرق كتب التاريخ المعروفة إلى تاريخ هذه الدولة، ولم تشر إليه من قريب أو بعيد. ويبدو أن من أسباب ذلك اقتصار الدولة العيونية على منطقة البحرين، وعدم تهديدها للحواضر الإسلامية في العراق والشام كما فعل القرامطة، وعدم تبنِّيهم لمعتقدات تخالف إجماع المسلمين كما هو شأن القرامطة. ثم إن انشغال المؤرخين بتدوين الحوادث في العراق والشام ومصر بعد ضعف الدولة العباسية، وظهور دويلات كثيرة في العالم الإسلامي مع بوادر الغزو المغولي للشرق الإسلامي الذي يصادف أواخر العهد العيوني. كل هذه الأمور جعلت المؤرخين في غفلة عما يجري في هذه البلاد.

ولولا ديوان علي بن المقرب وشروحه التي تضمنت الكثير من أخبار الدولة العيونية لظل تاريخ هذه الدولة مجهولاً إلى حد بعيد، ولَبَقِيَ تاريخ البحرين ما يقارب قرنين من الزمان غير معروف على وجه التحديد. يقول الشيخ حمد الجاسر في تقديمه لتاريخ الأحساء[2]: «ولئن كان تاريخ القرامطة ـ في هذه البلاد ـ مظلماً

---

(١) انظر الديوان ص ٥٣٣ و ٥٣٩.

(٢) تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء لابن عبد القادر (المقدمة)

بحيث أصبح تاريخ هذه البلاد التي مُنيت بحكم هؤلاء القوم قرابة قرنين من الزمن مجهولاً في هذه الحقبة من التاريخ، فإن تاريخ العيونيين ليس بأحسن حظاً ـ من حيث الوضوح والبيان ـ من تاريخ القرامطة، ولولا أن الله قيَّض لهؤلاء القوم شاعراً منهم سجل أخبارهم، ووصف كثيراً من أحوال حكمهم لجُهلت أنباؤهم، وخفيت على الباحثين في التاريخ سيرهم».

لقد بدأ الحكم العيوني في البحرين في العقد السابع من القرن الخامس الهجري، ومرَّ بعدة مراحل، كان في الأولى منها قوياً متماسكاً خلال حكم مؤسسه عبد الله بن علي العيوني وولده الفضل وحفيده أبي سنان بن الفضل، ثم بدا ضعيفاً متداعياً في المرحلة الثانية بعد أن تنافس الأمراء العيونيون، واقتتلوا للظفر بالملك بعد موت أبي سنان، ثم استعاد في المرحلة الثالثة قوته وامتداده على يد محمد بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان بن الفضل بن عبد الله بن علي، بل استطاع السيطرة على بعض الجهات خارج حدود البحرين، ثم تلت هذه المرحلةَ مرحلةٌ شبيهة بالتي قبلها بعد مقتل محمد بن أبي الحسين، وتحوُّل الأمر إلى صراع بين الأمراء، أضعفهم، وأطمع فيهم الأعداء، ثم لم تلبث الدولة العيونية أن غابت شمسها إلى الأبد في العقد الرابع من القرن السابع الهجري.

أ ــ عبد الله بن علي العيوني (مؤسس الدولة العيونية)

حينما ضعف شأن القرامطة في البحرين، واقتطع منه الأمراء المحليون كأبي البهلول وابن العياش بعض أجزائه نهض عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم العيوني ـ الذي ينتهي نسبه إلى ربيعة، ويسكن بلدة العيون[1] على مشارف الأحساء وينسب إليها ـ فطمح إلى السيطرة على هجر (الأحساء)، وكتب إلى السلطان ملك شاه السلجوقي ووزيره نظام الملك، وشرح لهما أحوال القرامطة وما يعيثونه من

---

(١) لا تزال هذه البلدة معروفة باسمها إلى يومنا هذا في الأحساء.

الفساد في الأحساء، وطلب منهما أن يظاهراه على قيام الأمر فيها للعباسيين [١].
فوجد طلبه قبولا عند السلطان وأرسل إليه سبعة آلاف رجل بقيادة أَكْسَك سَلاَر، فتوجه إلى الأحساء، والتقى بعبد الله بن علي، وحاصروا الأحساء وطال الحصار حتى ملَّ من فيها من القرامطة وبقية العرب، فطلبوا الصلح من عبد الله وأكسك سلار مقابل مال يدفعونه ،وطلبوا مهلة شهر لجمعه مقابل ثلاث عشرة رهينة . وبعد أن فُكَّ الحصار عنهم راحوا يجمعون الطعام والمؤ ن استعداد للحرب، فعلم عبد الله وأكسك سلار أنهم قد رجعوا عن الصلح لعلمهم أن جنود بغداد لن يحتملوا الحرَّ الشديد مع نفاد الزاد، فقاما بقتل بعض الرهائن وحبس بعضهم وإحكام الحصار[٢]. ثم إن أكسك سلار لم يحتمل المقام مع جنوده، ورغب العودة إلى بلاده، واتفق مع عبد الله بن علي على بقاء مائتي فارس مع البَقُوش أخي أكسك عند عبد الله، وعاد أكسك سلار إلى البصرة ثم إلى بغداد حيث عرض على الخَليفة القائم بأمر الله ما حدث في الأحساء وضرورة عودته إليها لنصرة عبد الله، فأصدر الخليفة توقيعاً بالموافقة، وكان ذلك سنة ٤٦٩ هـ[٣]، وقيل سنة ٤٦٦ هـ، وقيل سنة ٤٦٧ هـ[٤].

وقد تمكن عبد الله بن علِي فيما بعد من الاستيلاء على الأحساء، ولم يُخرج من كان فيها، وقطع العوائد التي كان القرامطة يدفعونها لبني عامر، فكتب بعض أهل الأحساء إلى بني عامر وأغروهم بملك الأحساء، فقدموا وطلبوا من عبد الله أن يعيد لهم ما كان على عهد القرامطة فامتنع، فعزموا على حربه، فخرج إليهم عبد الله ومن معه، والتقوا قرب الأحساء، وقد ساقت بنو عامر الإبل أمامها ومن ورائها الخيل

(١) انظر مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦٠ (المكتبة التيمورية)

(٢) انظر أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٥٩.

(٣) انظر المصدر السابق ص ٢٦٠.

(٤) انظر المصدر السابق ص ٩٨ والمخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦٠ بدار الكتب المصرية.

لتداهم العيونيين، فلما رأى ذلك عبد الله أمر بضرب الدبادب والطبول والبوقات، وأمر الفرسان بملاحقة الإبل، وأوعز إلى من معه من العجم أن يشرقوها بالنشّاب، فرجعت الخيل على بني عامر وداست الرجال، وحمل عليهم العيونيون فهزموهم هزيمة منكرة، وفرَّ قائدهم أحمد بن مسعر واستقر الأمر في الأحساء لعبد الله بن علي، وكان ذلك سنة ٤٧٠ هـ[١].

وقد حاول البقوش قائد الكتيبة التي بقيت في الأحساء مع عبد الله انتزاع الملك منه، فقبض عليه عبد الله وسجنه، ثم قتله في السجن، فسار ركن الدولة إلى الأحساء مع ألفي رجل للانتقام من عبد الله، وحاصر الأحساء سنة كاملة حتى لم يبق مع الأمير العيوني سوى المقربين منه، ونزلوا جميعاً القصر حتى سئم ركن الدولة، فصَالَحَ عبد الله عن الرحيل عن البلاد بمن معه، فرحل ورحل معه من كان قد تخلى عن عبد الله لكنه عفا عنهم[٢].

وكانت القطيف يومئذٍ تحت ملك زكريا بن يحيى بن العياش، وكذلك جزيرة أَوَال التي كان أبوه يحيى قد استولى عليها من أبي البهلول العوام بن محمد بن الزَّجَّاج، فطمع زكريا في ضم الأحساء إلى ملكه، وجهز سرية لمحاربة العيونيين، وأغارت خيله على إحدى قرى الأحساء، وأتى الصريخ عبد الله بن علي فخرج إليهم مع أبنائه وجنوده وقاتلهم، فانهزم زكريا وقومه، وتبعهم عبد الله حتى وصل القطيف، فظن زكريا أن القطيف لا تمنعه فعبر إلى جزيرة أَوَال، فتبعه الفضل بن عبد الله بن علي، وقاتله حتى انهزم وركب البحر إلى العقير[٣] بعد أن قتل الفضلُ

---

(١) انظر أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٦١ نقلا عن نسخة من شرح ديوان ابن المقرب.

(٢) انظر المصدر السابق ص ٢٦٥.

(٣) العقير هو الميناء القديم للأحساء ولا يزال معروفاً بهذا الاسم.

أشجعَ أصحاب زكريا وهو رجل يسمَّى العكروت[١]. وفي ذلك يقول علي بن المقرب مشيداً بتوحيد البحرين تحت ظل الدولة العيونية[٢].

وَلَمْ يُنَجِّ ابْنَ عيَّاشٍ بمُهْجَتِه يَمٌّ إذا ما يَراهُ النَّاظِرُ ارْتَسَمَا
أَتَى مُغِيراً فَوَافَى جَوَّ نَاظِرَةٍ فَعَايَنَ المَوتَ مِنَّا دُون ما زَعَمَا
فَرَاحَ يَطْرُدُ طَرْدَ الوَحْشِ ليس يَرَى حَبْلَ السَّلامةِ إلَّا السَّوطَ والقَدَمَا
فانْصَاعَ نحوَ أُوالٍ يَبْتَغِي عِصَماً إذْ لَمْ يَجِدْ في نَواحي الخطِّ مُعْتَصَمَا
فأَقْحَمَ البَحْرَ مِنَّا خَلْفَه مَلِكٌ ما زال مُذْ كَانَ لِلأهوالِ مُقْتَحِمَا
فَحَازَ مُلْكَ أُوالٍ بعدما تَرَكَ الْـ ـعَكْروتَ بالسيفِ للبَوْغاءِ مُلتَزِما
فَصَارَ مُلْكُ ابْنِ عَيَّاشٍ ومُلكُ أبي م البَهْلُولِ مَعْ مُلكِنا عِقْداً لنا نُظِمَا

ثم إن زكريا حاول استعادة القطيف، فأغار عليها مع من اجتمع عليه من البادية وبقية جنوده، ودارت بينه وبين عبد الله معركة انتهت بمقتل زكريا[٣] وخضوع بلدان البحرين كافةً لحكم عبد الله بن علي.

وكان عبد الله بن علي مؤسس الدولة العيونية متَّصفاً بكثير من السجايا أبرزها الشجاعة والدهاء، مما مكنه من التصدي لجيمع أعدائه بالحرب تارة وبالحيلة والمكر تارة أخرى، كما فعل مع القاروني وهو أحد ملوك العجم، إذ حاول مهاجمة الأحساء فأرسل إليها جيشاً، وسيَّر أمامه رسولاً إلى عبد الله، فأنزله عبد الله منزل الإكرام وزيَّن له ولقومه امتلاك عُمان، فطلبوا منه أن يدلَّهم على الطريق، فأرسل عبد الله إلى قوم من بني خارجة من سكان الرمال الواقعة بين عُمان والأحساء، وأَسَرَّ

(١) انظر الديوان ص ٥٣٩.

(٢) انظر الديوان ص ٥٣٨.

(٣) انظر الديوان ٥٣٩.

إليهم أن يدلوهم على الطريق، وينزلوهم في متاهة على غير ماء، فإذا جنَّ الليل فلينسلُّوا منهم، ففعلوا ذلك، وتركوهم فهلك أكثرهم [1]. وإلى هذه الحادثة يشير ابن المقرب بقوله[2].

وَسَلْ بِقَارُونَ هَلْ فَازَتْ كَتَائِبُهُ   لَمَّا أَتَتْنَا وهَلْ كُنَّا لَهُم غُنُما

وقد طالت مدة حكم عبد الله بن علي، وتوفي في نهاية القرن الخامس الهجري أو في بداية القرن السادس[3] بعد أن دانت له سائر بلاد البحرين، وتولَّى بعده ابنه الفضل.

ب ــ الفضل بن عبد الله بن علي:

تسلم الفضل الحكم بعد أبيه واستمر في الملك أربع عشرة سنة كما حددها ابن المقرب بقوله[4].

هُمَامٌ حَمَى البَحْرين سَبْعاً ومِثْلَها   سِنِينَ وسَارَتْ في الفَيَافِي مَوَاكِبُهْ

وكانت القطيف مقراً لحكمه في السنوات السبع الأولى، ثم اتخذ جزيرة أَوَال داراً للملك في السنوات السبع الأخيرة[5]. وفي عهده ساد الأمن بلدان البحرين وبواديها إذ كان كثير التنقل والسفر، وأكثر إقامته في الفلاة بين الأحساء والقطيف وفي جزيرة أوال حتى يقطع غوائل البادية ويقضي على قطاع الطرق[6]. وكان قد حمى لإبله

---

(١) انظر الديوان ص ٥٣٨.

(٢) الديوان ص ٥٣٨.

(٣) انظر تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ١٠١ والمخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦١ بدار الكتب المصرية.

(٤) الديوان ص ٥٧.

(٥) انظر الديوان ص ٥٨.

(٦) انظر الديوان ص ٥٨.

بعض المراعي من ثاج[1] إلى قَطَر كما يقول ابن المقرب[2].

مِنَّا الَّذِي حَازَ مِن ثَاجٍ إلى قَطَرٍ ... وصَيَّرَ الرَّمْلَ مِن مَالِ العَدُوِّ حِمَى

وقيل إن الفضل خرج ذات مرة منفرداً في حماه في موضع يسمى «نَارَبَرْد» فصادف خروجه وجود أعرابي يرعى إبله وصاحب له يقول له: «ويحك أما تخاف من الأمير فضل بن عبدل على مالك ونفسك وأنت تعلم أن هذا المكان من حماه». فقال الرجل مستبعداً معرفة الفضل بذلك[3]:

مَتَى يَلْتَقِي مَنْ نَـارَ بَـرْدَ مَحلُّهُ ... وآخَـرُ سَـوْدِيٌّ بعيـدٌ مَـذَاهِبُـه؟

رافعاً بذلك صوته فسمعه الفضل، فقال: الساعة يا أخا العرب! . . فبُهت الرجل وتناقل الناس هذه الحادثة مثلا لشدة مراقبة الفضل لأحوال مملكته. وإلى ذلك يشير ابن المقرب بقوله:[4]

وَلَمْ يَرْعَ مِن ثَاجٍ إلى الرَّمْلِ مُصْرِمٌ ... على عَهْدِهِ إلَّا استُبِيحَتْ حَلَائِبُهْ

زَمَانَ يقولُ العَـامِرِيُّ لِمَنْ غَـدَا ... يُحَـدِّثُهُ عنـهُ وذُو الحُمْقِ غَالِبُـهْ

مَتَى يَلْتَقِي مَنْ نَـارَ بَـرْدَ مَحلُّهُ ... وآخَـرُ سَـوْدِيٌّ بَعِيـدٌ مَـذَاهِبُـهْ؟.

فَلَمْ يَسْتَتِمَّ القَـولَ حَتَى إذا بِـهِ ... يُسَـايِـرُهُ والـدَّهْـرُ جَمٌّ عَجَـائِبُـهْ

فَقَالَ له: الآنَ الْتَقَينا فأرعَـدَتْ ... فَـرَائِصُـه والجَهْـلُ مُـرٌّ عَـوَاقِبُـهْ

وَمَـنْ تِـلكُـمُ آبَـاؤُهُ وجُـدُودُه ... فَمَنْ ذَا يُسَامِي فَخْرَهُ أو يُقَـارِبُهْ

---

(١) ثاج: قرية أثرية تقع على بعد ٩٥ كيلا غرب الجبيل وعلى بعد ١٥٠ كيلا شمال الظهران بالمملكة العربية السعودية. وهي قرية تكاد تكون دراسة، وتوجد بها بيوت مبنية من الطين والحجر، وقد اكتشفت بها آثار قديمة. (انظر مجلة العرب ج ٧ محرم ١٣٨٨ هـ).

(٢) الديوان ص ٥٤١.

(٣) الديوان ص ٥٨ وقد جاء في القصة أن الرجل قال ذلك شعراً كما هو ظاهر. وعليه فإن ابن المقرب قد بَنَى على رويِّه في حكايته للقصة في الأبيات التالية. ويحتمل أن يكون البيت قد ضُمِّن في القصة بعد أن أشار إليها في قصيدته ظناً من الراوي أن هذا البيت من كلام الرجل.

(٤) الديوان ص ٥٧.

ولم أجد ما يشير إلى تاريخ وفاة الفضل، ولكن يستظهر من خلال تحديد ابن المقرب لسنوات حكمه بعد وفاة أبيه أنه توفي في العقد الثاني من القرن السادس الهجري. ويقال: إنه مات مقتولاً في تاروت على يد خادمه[١]. وقد تولى بعده ابنه أبو سنان. وتقول رواية أخرى[٢]: إن الفضل كان أميراً للقطيف وجزيرة أوال في زمن أبيه، وإن أبا سنان قد تسلم الحكم بعد جدِّه عبد الله بن علي.

ج ــ أبو سنان محمد بن الفضل:

ظل أبو سنان محمد بن الفضل بن عبد الله يحكم البحرين ثمانية عشر عاماً أو تزيد[٣] وكان يسكن القطيف، وعامله في الأحساء أبو مقدم شُكْرُ بن علي بن عبد الله. وفي عهده قام رجل يعرف بحماد النائلي بمحاولة السيطرة على الأحساء بعد أن أغراه بعض أهلها،ووعدوه بالنصر والتأييد، فحاصر الأحساء ثلاثين يوما حتى استطاع اقتحام الأبواب، فتصدى له الأمير أبو مقدم شكر بن علي مع بعض عشيرته، وحمل على أصحاب حماد في أثناء انشغالهم بالنهب، وقتل منهم الكثير حتى أخرجهم من الأحساء ثم تبعهم وقتل منهم مقتلة عظيمة في بستان سُمي فيما بعد بالخائس لكثرة من قتل فيه[٤].

وكان أبو سنان محبّاً للأدباء والشعراء مبالغاً في إكرامهم. وقد رُوي[٥] أن شاعراً عراقياً اسمه الثعلبي وفد على أبي سنان في الوقت الذي ورد إليه أحد عماله بمال كثير من الذهب واللؤلؤ والجوهر، فأمره أبو سنان أن يدفع هذه الأموال جميعها

---

(١) انظر تاريخ الولاة العيونيين في المخطوطة ٦٣٧ تاريخ ص ٦١ بدار الكتب المصرية.

(٢) انظر المصدر السابق ص ٦١

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦١.

(٤) انظر الديوان ص ٥٤٦ ويوجد الآن في الأحساء القديمة بالبطَّالية مكان يسمى الخيس بكسر الخاء وربما يكون هذا الاسم مُحرَّفاً عن الخائس.

(٥) انظر الديوان ص ٥٤١.

للثعلبي، ولم يصدِّق العامل ذلك ومات غمّاً كما يقال، وكما يفخر بذلك ابن المقرب[1]:

مِنَّا الَّذِي مِن نَدَاهُ مَاتَ عَـامِلُهُ غمّاً وأصْبَحَ فِي الأَمْوَاتِ مُخْتَرَمَا

وقد رثاه الثعلبي هذا فيما بعد بقوله[2]:

عـزيـزاً أَنْ أُعَـاتِبَ فَـيكَ دَهْـراً قـليـلاً هَـمُّـهُ بـمُـعَـنِّـفِـيـهِ
وأَنْ أَلْقَى المُلوكَ ولَسْتَ فِـيهِـم وأَنْ أَطَـأَ التُّـرابَ وأَنتَ فِيـهِ

وقد قتل أبو سنان بتدبير من أبي منصور علي بن عبد الله وأبى الحسن بن عبد الله وهما عمَّاه[3]، وبمقتله بدأ الصراع بين الأمراء العيونيين، وكاد الأمر أن يخرج من أيديهم.

د ـ النزاع بين الأمراء العيونيين:

يبدو أن الخلاف الذي حدث بين أمراء الدولة العيونية والصراع الذي أضعف حكمهم كان سببهما شعور أبناء عبد الله بن علي بأحقيتهم في الحكم بعد موت الفضل بن عبد الله الابن الأكبر لمؤسس الدولة، ومعارضتهم لبقاء الحكم في سلالته مما أدى إلى انقسام الحكم في البحرين إلى مركزين مستقلَّين: الأول في القطيف وجزيرة أوال، والثاني في الأحساء. ولئن كانت قد وصلت إلينا بعض التفاصيل لأحداث الصراع على الحكم في المركز الأول[4] فإن الغموض يكتنف أخبار المركز الثاني مع احتمال بقاء الحكم فيه متوارثاً في عقب علي بن عبد الله كما سيتبيَّن من مبايعة أهل الأحساء له ولولده، وإن كانت الأحساء غير بعيدة عمَّا يجري في القطيف وأوال إذ لا بد أن يؤثر فيها ما يجري من حوادث في هاتين المنطقتين قبل أن تتوحَّد الدولة العيوينية من جديد على يد محمد بـن أبي الحسين أحمد بن

(١) الديوان ص ٥٤١.
(٢) الديوان ص ٥٣٢
(٣) انظر تاريخ الولاة العيونيين في المخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦١ بدار الكتب المصرية.
(٤) انظر المصدر السابق ص ٦١.

محمد بن الفضل بن عبد الله.

أما في القطيف وجزيرة أَوَال فإن الحكم قد انتقل بعد موت أبي سنان محمد بن الفضل إلى أبي الحسن بن عبد الله بن علي، وبقي في الحكم إحدى عشرة سنة ثم توفي وخلفه غُرَيرُ بن مُقلد[1].

وأما في الأحساء فقد بايع أهلها أبا منصور عليَّ بن عبد الله بعد انتهاء حكم أبي سنان لكونه أكبر أفراد الأسرة وحيث كان يقيم فيها[2]. وقد قام غُرير بن مقلد حاكم القطيف وأوال بمحاربة أبي منصور في الأحساء، فحاصرها وقام جيشه المكون من أهل القطيف ومن معهم من البادية بإفساد ثمار النخيل والزروع في الأحساء، ثم جرت بينهم معركة السّليمات[3] في موضع يعرف بهذا الاسم لكثرة ما فيه من شجر السّلَم فانهزم أهل الأحساء، وقتل الأمير أبو منصور عليُّ بن عبد الله، وقتل ابن عمه أبو مذكور بن بطّال بن مالك أخو عبد الله بن علي لأمه، وكان ابن ثمانين سنة، وقد حمل على عسكر القطيف فقُتل وهو يقول: «لا خير في شيخ لا يجهل[4]». وقتل يومئذٍ من جند الأحساء ثمانون وأسر خمسمائة ورجع غرير إلى القطيف. وبايع أهل الأحساء شُكْرَ بن أبي منصور علي بن عبد الله[5].

وفي زمن غُرير قام باكرزا ملك جزيرة قيس بمهاجمة جزيرة أوال سنة **٥٤٩ هـ**، ونهبها ثم خرج منها[6]، ثم قُتل غُرير وتولّى الحكم بعده هِجرس بن محمد بن عبد الله، وتوفي بعد سنة، فخلفه شُكْرُ بن أبي الحسن بن عبد الله بن علي، وظل في

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٦١ والديوان ص ٥٤٣ و٥٤٤.

(٢) انظر تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ١٠٣.

(٣) انظر الديوان ص ٥٤٣.

(٤) انظر الديوان ص ٥٥٢.

(٥) انظر تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ١٠٣.

(٦) وردت هذه الحوادث وما بعدها في المخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ بدار الكتب المصرية ص ٦١ – ٦٢، وأما جزيرة قيس فلعلها جزيرة قشم أو كشم الواقعة في الخليج العربي والتابعة لإيران ويبلغ طولها ٦٨ ميلا وعرضها ما بين ١٠ إلى ٢٠ ميلا (انظر دليل الخليج ٥ / ١٨٩٣ طبعة الدوحة).

الحكم ثمانية عشر عاماً، ثم مات وجاء بعده علي بن الحسين، وفي عهده قام حاكم جزيرة قيس بمهاجمة جزيرة أوال مرة أخرى، فقاتله العيونيون في موضع يسمى سَتْرَة، وهزموه وأسروا أخاه نمساراً وقتلوا الكثير من جنده.

ثم قُتل علي بن الحسين، وتولى الحكم بعده أخوه الملقب بالزير، واستمر حكمه أكثر من سنتين، ثم مات بعد إصابته بسهم رجل أعجميٍّ في جزيرة أوال حين دخلها محمد بن أحمد بن الفضل الذي حكم بعده سنة واحدة ثم تنازل عن الحكم، وبايع أهل القطيف رجلا من غير الأسرة العيونية هو النقيب العلوي، ثم استقال من الحكم، وخلفه رجل يقال له: مُسيّب، فبقي شهرين، وتولّى بعده الحسن بن شكر، واستمر حكمه أكثر من ثلاث سنوات، ثم قُتل على يد عبد الله بن منصور وأخيه شكر، وملك عبد الله القطيف سبع سنين واستقدم بعض العساكر من جزيرة قيس، فرحل أكثر أهل أوال إلى القطيف.

وقد كاد الحكم العيوني أن يزول لولا عودة محمد بن أبي الحسن أحمد بن محمد بن الفضل إلى الحكم، وكان شجاعاً قوياً أعاد للدولة العيونية وحدتها وهيبتها، بل أعادها أقوى مما كانت عليه. وكان شاعرنا علي بن المقرب معاصراً لهذا الأمير ومن جاء بعده من الأمراء، وما جرى بينهم من خلاف ونزاع أدى إلى ضعف الدولة العيونية وزوالها، وقد حفل ديوان ابن المقرب بذكر بعض الحوادث التي عاصرها والتي كان لبعضها أثر واضح في مراحل حياته.

هـ ــ محمد ين أبي الحسين بن أبي سنان:

وهو«محمد بن أحمد بن الفضل» كما ورد اسمه مختصراً في بعض المصادر(١). وقد استظهرتُ ـ بعد المقارنة بينها وبين ما ورْد في ديوان ابن المقرب(٢) ـ ان الفضل لم يكن جدّه الأول بل الثانيّ، وأن جدّه الأول هو أبو سنان

---

(١) انظر المخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦٢ بدار الكتب المصرية.
(٢) انظر الديوان ص ٥٨٥.

محمد بن الفضل. وعليه فإن صلته بمؤسس الدولة تتبين من اسمه الكامل «محمد ابن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله بن علي».

ولعل أهمَّ عامل في استقرار الحكم بيد ابن أبي الحسين بعد تنافس الأمراء العيونيين على الحكم هو أحقيته فيه بعد جدِّه أبي سنان بن الفضل الابن الأكبر لمؤسس الحكم العيوني مع ما كان يتحلَّى به من شجاعة وحكمة وإقدام. وقد استتبَّ له الأمر في القطيف بعد معركة جرت بالقرب منها عرفت بيوم صفوى[1]. ثم فرض سيطرته على سائر بلدان البحرين، بل شمل نفوذه بعض الجهات خارجها بعد أن وصلت الدولة العيونية في عهده إلى قمة مجدها، ونشأت بعد ذلك بينه وبين الخليفة العباسي الناصر لدين الله صلات قوية. وكان الخليفة يُجِلُّه ويكرمه، وقد فرض له كل سنة من بغداد ألفا ومائتي ثوب من عمل مصر، كما فرض له من البصرة كل سنة ألفا وخمسمائة حمل من التمر والحبوب مدة حياته وفي هذا يقول ابن المقرب: [2]

مِنَّا الَّذِي كُلَّ عامٍ بـالعِراقِ لـه رَسْمٌ سَنِيٌّ إلى أَنْ ضُمِّنَ الرُّجَمَا

وقد نمت هذه العلاقة بينه وبين الخليفة بعد نجاحه في القضاء على قطاع الطرق الذين يعترضون الحجاج في طريقهم إلى مكة حين عهد إليه الخيلفة الناصر لدين الله القيام بهذا العمل، فكان يتعقَّبهم، ويوقع بهم حتى أمن الناس شرَّهم.

يقول شارح ديوان ابن المقرب[3]: «كان في زمانه قد أخذ على أيدي مفسدي العرب حتى صار الراكب يسير إلى عُمان من الأحساء وإلى العراق وإلى نجد وإلى الشام فلا يفزعه أحد وكذلك القافلة أين أدركها الليل باتت لا تخاف من أحد».

ويقول ابن المقرب[4]

---

(١) انظر أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد ص ٢٦٨ نقلا عن نسخة من شرح ديوان ابن المقرب، وتقع صفوى الآن بين الدمام والقطيف.

(٢) الديوان ص ٥٤٩، والرجما: جمع رجمة أي القبر.

(٣) الديوان ص ٥٤٩.

(٤) الديوان ص ٥٤٨ وأَدَمْ جبل بالحجاز، وجبل آخر باليمن، وناحية من عُمان

مِنَّا الَّذِي أَصْحَبَ المُجْتَازَ مِنْ حَلَبٍ إلـى الـعِـرَاقِ إلى نَجْدٍ أَدَمَـا

ومحمد بن أبي الحسين هذا هو الذي ضُربت له القباب الحُمْر في المشهدين بالعراق كما يقول ابن المقرب[1]:

مِنَّا الَّذِي ضُرِبتْ حُمْرُ القِبَابِ لَهُ بالمَشْهَدينِ وأَعْطَى الأَمْنَ وانْتَقَمَا

لَوْلَا عِيَاذُ بَنِي الجَـرَّاحِ مِنْهُ بـهِ لصَاحَبَتْ دَهْمَشَاً أو أُلحِقَتْ دَرِمَا

ويعني بالمشهدين مشهد علي بن أبي طالب ومشهد الحسين رضي الله عنهما، وذلك أن بني الجراح ومعهم دهمش بن سند بن أجود وبعض القبائل العربية بالشام قد ساروا إلى أرض بني غفيل[2] يريدون قطع طريق الحاج ونهب أموالهم، فرفع الأمر إلى الخليفة، وكان محمد بن أبي الحسين يومئذٍ في الأحساء، وهو يتمتع بقوة مرهوبة، فبعث إليه الخليفة رسولاً يحثه على النهوض إلى دهمش وقومه والتنكيل بهم، فخرج محمد على رأس قبائل البحرين إلى العراق، وانضمت إليه قبائل خفاجة والمنتفق وعبادة، وسار حتى لقيهم بظاهر الكوفة فقاتلهم وهزمهم، فناشدوه القرابة والرحم (تجمعهم ربيعة) فأجارهم جميعاً ولم يُجِر دهمشاً، فدخل مشهد علي رضي الله عنه واحتمى به، فأقام الأمير الحرَّاس على باب المشهد، وضربت لمحمد القباب الحمر ـ ويبدو أن الخليفة قد جعل المشهد أمناً لمن لاذ به[3] ـ ثم أحضر الخليفة دهمشاً واستتابه وأخلى سبيله[4].

وقد بلغ من قوة محمد بن أبي الحسين وامتناع جانبه أَنْ كانت القبائل التي حاربت معه في العراق لا ترد له رأياً ولا تنكر له عملاً كما فعل بعد هزيمة أعدائه

---

(١) الديوان ص ٥٤٧، ودرِمْ : رجل شيباني يقال إنه قتل ولم يدرك بثأره فضرب به المثل، ويقال إن درما رجل هرب من النعمان فطلبه فأخذ إليه فمات في أيديهم قبل أن يصلوا به فقال قائلهم أودى درم فصارت مثلا.

(٢) لم أجد فيما بين يديَّ من المصادر قبيلة بهذا الاسم ، ولعلها محرفة من عُقَيل .

(٣) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤١٧ ـ دار التراث ـ بيروت ـ ١٣٨٩ هـ .

(٤) انظر الديوان ص ٥٤٨.

حينما ركز رمحين ووقف عليهما بفرسه وأمر القبائل التي حصلت على مغانم أن يمرَّ كل فرد منها بين هذين الرمحين بغنائمه، فكانَ يجمع من الغنائم ويعطي منها من أراد ويمنع من أراد، ويعطي هذا من كسب ذاك فلا ينكر عليه أحد ذلك. وإلى هذه الحادثة يشير ابن المقرب بقوله[1]:

مِنَّا الَّذِي رَكَزَ الرُّمحَينِ ضَاحِيَةً وجَوَّزَ العَرَبَ العَرْبَاءَ بَيْنَهُمَا
حَتَّى احْتَوى ما اصْطَفَاهُ مِن عَقَائِلِهَا غَصْباً وهَانَ عَلَيهِ رَغْمُ مَنْ رَغِمَا

وقد انتهى حكم الأمير محمد بن أبي الحسين بمقتله غليةً على يد شيخ عُقيل[2] بالبحرين راشد بن عميرة[3]، ذلك أن بذور الكراهية التي كانت موجودة بين أبناء عبد الله بن علي كانت لا تزال قائمة في عهد محمد بن أبي الحسين حين تحالف الأمير غُرير بن حسن بن شكر بن علي بن عبد الله مع راشد بن عميرة - وكان صهراً لمحمد - على قتله بشرط أن يكون الحكم في القطيف لغُرير، وأن تكون الممتلكات من أموال وأرض ونخيل لابن عميرة وقومه، فقام راشد بقتل الأميرِ محمدٍ على هذا الشرط، فساءت أحوال القطيف بعد ذهاب الأموال والممتلكات لابن عميرة وقومه من البادية، فقام أبناء محمد بن أبي الحسين - وأكبرهم الفضل بن محمد - بطلب المعونة من الخليفة الناصر لدين الله، فأمدَّهم بالمال والسلاح. وقد شارك الشاعر علي بن المقرب في إحضار المؤن من الخليفة إلى الفضل سنة ٦٠٦هـ[4]، وكان قد مدح محمد بن أبي الحسين بقصيدة أنشدها إياه سنة ٦٠٢ هـ[5]. وإذا صح ذلك تبين لنا أن الأمير محمداً قد قتل بالتحديد بين هذين

---

(١) الديوان ص ٥٤٩.
(٢) عُقيل بضيم العين – وينتهي نسبها إلى بني عامر من بني عبد القيس.
(٣) انظر المخطوطة ٦٣٧ تاريخ ص ٦٢ بدار الكتب المصرية وقد ورد ذلك بتفصيل أكثر في أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٦٩ نقلا عن نسخة من شرح ديوان ابن المقرب.
(٤) انظر الديوان ص ٥٩٤
(٥) انظر الديوان ص ٥٨٥.

التاريخين، بعد أن استمر في الحكم ثمانية عشر عاماً[1].

و ـ ضعف الدولة العيونية وزوالها:

بعد مقتل محمد بن أبي الحسين انقسم الأمراء العيونيون على أنفسهم مرة أخرى، وظل الصراع والتناحر بينهم ما يقارب ثلاثين سنة قبل انتهاء حكمهم، وقد استقلَّ بعض الأمراء بحكم الأحساء، وبعضهم بحكم القطيف حتى تسلَّم الحكم خلال السنوات الثلاثين أكثر من عشرة أمراء، كان أولهم غُرير بن الحسن بن شكر الذي حكم القطيف بعد مقتل محمد بن أبي الحسين مدة سنة واحدة، ثم قام الفضل بن محمد للأخذ بثأر أبيه وانتزاع الملك من غرير، فاستعان بالخليفة الناصر لدين الله الذي أمده بالمال والأسلحة وبعض الرجال[2]، فتوجه إلى القطيف مع من تبعه من عامر، وحالفه قوم من أهلها على حرب قَتَلة أبيه، فاستولى عليها بعد شهور من الحرب وقَتَل غُريراً[3].

واستمر الفضل في حكم القطيف أكثر من عشر سنين، وفي عهده تمَّ الصلح بينه وبين ملك جزيرة قيس[4] غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد على أن يكون لملك جزيرة قيس بعض الجزر مع ضريبة قدرها خمسمائة دينار يدفعها الفضل كل سنة، وأن يكون الخراج والمقاسم والعشور بينهما بالتساوي، مع زيادة لملك قيس من مقاسم تاروت والقطيف[5] وغير ذلك من الشروط التي تدل على مدى ضعف الدولة العيونية حين أبرمت هذا العقد غير المنصف لتسلَمَ من غارات ملك قيس عليها. وظل عمال ملك قيس يقبضون الخراج من البحرين حتى ضاق أهلها بذلك،

---

(1) انظر المخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦٢ بدار الكتب المصرية.

(2) انظر المصدر السابق ص ٦٢ وأخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٦٩.

(3) انظر المخطوطة ٦٣٧ تاريخ ص ٦٣ بدار الكتب المصرية.

(4) انظر ص ٣٧ فيما تقدم.

(5) انظر المصدر السابق أيضاً ص ٦٣.

وخرج الفضل من القطيف بعد أن حاربته قبيلة العماير، وتولى الحكم بعدهُ مُقدَّم بن ماجد، ثم الفضل بن أحمد[١]، ثم فاضل بن معن وأخوه جعفر بن معن ، وقيل إن الأمير مُقلداً قد تولى الحكم قبلهما[٢].

وفي الأحساء[٣] تولى الحكم محمد بن علي بن عبد الله، ثم محمد بن ماجد ابن محمد، ثم إن محمداً قتله عمُّه أبو القاسم محمد بن مسعود، وتولى الملك بعده. ويقول شارح ديوان ابن المقرب[٤] : «إن أبا القاسم قدَّم رجالاً من أهل البلد من غير نسبه وألقى إليهم بالمقاليد، وكان رجلاً سليم القلب، بعيد الحسّ، عازب الفكر، عظيم الركون إلى أولئك النفر، وكانوا يعملون في هلاك دولته»، ثم يذكر أن هؤلاء النفر قد اتفقوا مع شيوخ العرب الذين حضروا لحرب البلد على طلب أملاك الأمير وأملاك أقاربه رهناً لمال يدفعه الأمير مقابل الصلح، حتى إذا استشار الأمير جلساءه في ذلك أشاروا عليه بالموافقة، فذهبت بذلك جميع أملاك الأسرة العيونية في الأحساء. وقد عظم ذلك على الشاعر علي بن المقرب الذي رجع من القطيف، ولام أبا القاسم على ما فعل بقصيدة يصف فيها الحال التي آل إليها أمر العيونيين[٥] .

ثم إن علي بن ماجد بن محمد بن علي تولى حكم الأحساء[٦] ، فبعث قوم من أهلها إلى مقدَّم بن غُرير بن حسن بن شكر، فقدم إليها، وهرب علي بن ماجد، وكان مقدم قد نشأ في البادية، ولا يعرف أهل البلد، وهو غير مكترث بنسبه وذوي قرباه، فألقى بعضهم في السجن بتدبير من بعض أكابر أهل الأحساء من عبد القيس الذين أدخلوه إلى الأحساء. وقد عاتبه ابن المقرب، وبعث من القطيف بقصيدة إلى

(١) انظر الديوان ص ٤٩٨.
(٢) انظر المخطوطة ٦٣٧ تاريخ ص ٦٣ بدار الكتب المصرية.
(٣) انظر الديوان ص ٦ ، ٩
(٤) الديوان ص ٦١٠.
(٥) انظر الديوان ص ٦١١.
(٦) انظر الديوان ص ٩ (المقدمة).

إبراهيم بن أبي جروان بهذا المعنى ، وهو من كبار رجال الأحساء الذين استقدموا مقدم بن غرير إليها[1] .

وتذكر بعض الروايات[2] أن ماجد بن محمد بن علي قد تولى حكم الأحساء أيضاً، وأنها ساءت في عهده، وعظم تحكُّمُ البادية بشئونها، وكان الأمير يميل إليهم ويحبهم، وقد أعطاهم الكثير من المال والممتلكات إلى أن بعث أهل الأحساء إلى الأمير علي ابن الحسين بن عبد الله ، فأدخلوه البلد، وحاصروا ماجد بن محمد، وأخرجوه منها وبايعوا عليّاً .

وفي القطيف خرج الأمر من يد محمد بن مسعود وأخويه حسن وحسين إلى الأمير منصور بن علي[3] الذي استمر حكمه أكثر من ثلاث سنوات ، وفي عهده استولى أبو المظفر الهرموزي على جزيرة قيس سنة ٦٢٦ هـ ، وأرسل نوابه إلى البحرين لاستلام القواعد التي كانت لملك قيس في عهد الفضل بن محمد ، ثم استولى على هذه الجزيرة السلطان المنصور أبو بكر بن سعد ، فأرسل نوابه للإشراف على جزيرة أوال[4] .

وفي هذه الفترة وصل حكم العيونيين في البحرين إلى سنواته الأخيرة. ويبدو أن الأحساء قد خرجت من أيديهم قبل جزيرة أوال والقطيف حيث لا تذكر المصادر شيئاً عنها سوى حالتها السيئة في عهد أبي القاسم محمد بن مسعود، وعهد مقدم بن غُرير بن حسن بن شكر، وانتقال ممتلكاتهم إلى أهل البادية وعرب البحرين .

أمّا في القطيف وجزيرة أوال فقد حاول الأمير محمد بن محمد آخر الأمراء

---

(١) انظر الديوان ص ٦٣١ وكذلك أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٧٠

(٢) انظر أخبار البحرين (المصدر السابق ص ٢٧١).

(٣) انظر المخطوطة رقم ٦٣٧ تاريخ ص ٦٤ بدار الكتب المصرية .

(٤) انظر المصدر السابق ص ٦٤ .

العيونيين أن يعيد بناء الدولة ويحقق وحدتها من جديد، وتمكن في البداية من الانتصار على السلطان المنصور [١] حينما أرسل إليه السلطان جيشاً هزمه محمد، ثم عبر إلى جزيرة أوال واستردها منه، ثم عاد السلطان المنصور لمهاجمته بعد سبعة أشهر سنة ٦٣٠ هـ فلم يفلح في الاستلاء عليها، وبقي فيها محمد بن محمد إلى سنة ٦٣٦ هـ حين عاد السلطان المنصور فجهّز جيشاً لحرب العيونيين، وجرت بينهم معركة انتهت بمقتل محمد بن محمد في تلك السنة ٦٣٦ هـ[٢]. وبمقتله طويت صفحة من صفحات تاريخ منطقة البحرين حكمت خلاله الدولة العيونية هذه البلادَ ما يقارب مائة وسبعين عاماً أو تزيد. وقد شهد شاعرنا علي بن المقرب العيوني الأحداث التي قضت على دولته في سنواتها الأخيرة فقد كانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ[٣]. وقد تضمن ديوانه تصويراً صادقاً لأسباب ضعفها ومظاهر اضمحلالها.

ولقد كان عصر ابن المقرب حافلا بالأحداث الجسام التي اهتزت لها الدولة الإسلامية، وأهم هذه الأحداث الغزوات التي شنّها الصليبيون والتتار على الثغور الإسلامية، وما تلا ذلك من ضعف الخلافة الإسلامية، ولم تحُل دون هذا الضعف تلك الروح الجديدة التي كادت تبعث في كيان الدولة العباسية بمحاولة بعض الخلفاء إحكام سيطرتهم وتقوية مراكزهم. ففي السنة التي ولد فيها ابن المقرب (٥٧٢ هـ) كان الخليفة في بغداد هو المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله الذي تولى الخلافة سنة ٥٦٦ هـ فأظهر العدل وفتح خزائن الدولة للناس، بعد أن استعاد شيئاً من النفوذ الذي سلبه الوزراء الأتراك من أسلافه[٤]، ثم توفي سنةَ ٥٧٥ هـ وبويع بعده ابنه الناصر لدين الله، وقد استمرت خلافته ستّاً وأربعين سنة تقريباً، فلم يلِ الخلافة من هو أطول منه مدة، وفي عهده قوي نفوذ

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٦٤.
(٢) انظر المصدر السابق ص ٦٥.
(٣) انظر الفصل الثاني ص ٩٧.
(٤) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١١/٣٦١.

الخلافة إلاَّ أنه لم يكن محمود السيرة كما يذكر بعض المؤرخين[1] .

وفي عهد الناصر لدين الله بلغ الأيوبيون في الشام ومصر أوج مجدهم بعد انتهاء حكم العلويين في مصر سنة ٥٦٧ هـ. ففي سنة ٥٦٩ هـ توفي نور الدين محمـود بن زنكي صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، وكان ملكه قد اتسع حتى خُطب له بالحرمين الشريفين واليمن، وكان عادلاً حسن السيرة، وشهد له التاريخ بالإصلاحات العظيمة والذود عن حياض الإسلام[2]، وقد تولى بعده ابنه الصالح، ثم ضعف ملكه بعد استيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب على دمشق سنة ٥٧٠ هـ، واقتصر ملكه على حلب وبعض حصونها وتوفي سنة ٥٧٧ هـ[3]. وكانت غارات الإفرنج قد اشتدت على بلاد المسلمين فتصدى لهم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وتوالت غاراته على معاقلهم وحصونهم بالشام حتى دحرهم بحطين سنة ٥٨٣ هـ، ثم قام بفتح بعض البلاد مثل عكا ويافا وعسقلان، وتوَّج انتصاراته باستعادة بيت المقدس[4] .

وفي سنة ٥٨٩ هـ توفي صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - بعد أن كسر شوكة الصليبيين، وقويت به معنويات المسلمين، وقد اختلف أولاده من بعده فبقي ولده الأكبر الأفضل نور الدين في دمشق والساحل وبيت المقدس وبعض بلاد الشام، وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها، كما استولى ولده الثالث الظاهر غازي على حلب وجميع أعمالها، وكان أخوه الملك العادل بالكرك فامتنع فيه[5] . وقد عاد الإفرنج يغيرون على الثغور الإسلامية بعد أن ضعف الأيوبيون من جرَّاء تناحرهم على الملك، وظلت الحرب سجالاً بين الصليبيين والمسلمين حتى مطلع القرن السابع الهجري حين ابتُلي المسلمون بحملات المغول والتتار الذين

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٢ /٤٤٠ .
(٢) انظر المصدر السابق ١١ / ٤٠٢ - ٤٠٤
(٣) انظر المصدر السابق ١١ /٤١٥، ٤٣١، ٤٧٢ .
(٤) انظر المصدر السابق ١١ /٥٣٩.
(٥) انظر المصدر السابق ١٢ / ٩٤ - ٩٧.

بدأت طلائع غزوهم للشرق الإسلامي سنة ٦١٧ هـ بسقوط الرَّي وهمذان وأذربيجان بأيديهم[١].

وقد توفي الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ، وتولى بعده ابنه الظاهر بأمر الله فأقام العدل ورفع المكوس وحمد الناس سيرته إلاَّ أن خلافته لم تدم أكثر من عشرة شهور فتوفي سنة ٦٢٣ هـ، ثم تولى الخلافة بعده ابنه المستنصر بالله، فنهج نهج أبيه في الإحسان إلى الرعية. وفي عهده عاد التتار لمهاجمة الثغور الإسلامية الشرقية حتى دخلوا ديار بكر والجزيرة، وعاثوا فيها فساداً سنة ٦٢٨ هـ، كما قوي نفوذ الإفرنج وهددوا بعض بلاد الشام[٢]. وظل المستنصر بالله يحارب التتار حتى توفي سنة ٦٤٠ هـ، وتولى بعده ابنه المستعصم بالله الذي سقطت بغداد في خلافته بيد المغول وقُتل سنة ٦٥٦ هـ[٣]. وكان ذلك حدثاً عظيماً في تاريخ المسلمين وتهديداً للحضارة الإسلامية، وهو حصاد السنوات الأخيرة من عمر الخلافة العباسية، وما شهدته من ضعف وتفكك وصراع بين الحكام المسلمين، وما تبع ذلك من اقتطاع أجزاء كبيرة من الممالك الإسلامية، واستقلال بعض المناطق كما هو الحال في منطقة البحرين التي عاش ابن المقرب في ربوعها، وقد أتيح له أن يشهد معظم الأحداث في الفترة الأخيرة من تاريخ الخلافة العباسية.

ثالثا: الحياة الاجتماعية والثقافية

لا نكاد نجد شيئاً من المصادر نتلمَّس فيها مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية في البحرين في عصر ابن المقرب. وليس هذا مستغرباً ما دامت الحياة السياسية التي يوليها المؤرخون عنايتهم نادرة المصادر. وليس أمامنا إلاَّ أن نرجع إلى هذه المصادر بالذات، وإلى ديوان الشاعر الذي يُعدُّ أهمَّ مصدر للحياة الاجتماعية والثقافية في عصره.

---

(١) انظر المصدر السابق ١٢ / ٣٥٨ ـ ٣٧٣
(٢) انظر المصدر السابق ١٢/٤٤١ ـ ٥٠٤.
(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ١٥٩ ـ ١٦٤.

تتميز منطقة البحرين عن غيرها من البلدان الأخرى بكونها تجمع بين حياة الأرض وحرثها وزراعتها، وبين حياة البحر وركوبه والغوص فيه، ثم إن موقعها الجغرافيَّ المتوسط بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه جعلها تتمتع بموقع تجاري هام. وهنا ندرك مدى اهتمام القبائل العربية الكثيرة بهذه المنطقة وازدحام السكان فيها، إلى جانب القبائل البدوية التي لا تعتدُّ بالزراعة مهنةً لها، ولا تقبل بغير حياة التنقل في الصحراء حياةً لها في مواقع قريبةٍ من مناطق الزراعة كالأحساء مثلا، لتمتار منها وقت جذاذ النخيل أوقطف الثمار أو حصاد الزرع. وإنك لتجد صورة هذا المجتمع الذي جمع بين زراعة الأرض وركوب البحر وانتجاع المراعي في قول ابن المقرب:[١]

أَهْلُ القِبابِ الحُمْرِ إنْ نَزَلوا قَفْراً وأَهْلُ الجَامِلِ الدَّثْرِ
والرَّاسِياتُ مِنَ النَّخِيلِ لَهُم ومُكَرَّمَاتُ البَرِّ والبَحْرِ

وابن المقرب نفسه كان في رحلاته يركب البحر حينا ويمتطي ظهر الناقة حيناً آخر كما في قوله[٢] :

أَرَى المَعَالِي تَقْتَضِي عَزْمَتِي تَعَسُّفَ البِيْدِ وخَوْضَ الطَّوامْ
بِكُلِّ مَطْلِيِّ المِلاطَيْنِ لَمْ يَجْرَبْ ولَمْ يَرْعَ بِمَرْعَى السَّوامْ

إلى قوله:

أَوْ كُلِّ رَوْعَاءَ غُرِيرِيَّةٍ تَزِفُّ بالرَّحْلِ زَفِيفَ النَّعَامْ
يَصْحَبُهَا أَجْرَدُ عَرْضُ النَّسَا قَصِيرُ أَرْسَاغٍ طَوِيلُ الحِزَامْ
كَيْمَا أُلاقِي مَلِكاً عِنْدَهُ لِلْمَاجِدِ الأَحْسَابِ مِثْلِي مُقَامْ

---

(١) الديوان ص ٢٢٧ والجامل: الحي العظيم.
(٢) الديوان ص ٥٧٣ وقد ورد البيت الرابع في الديوان هكذا:
« قصير الأرساغ طويل الحِزَامْ » .

ولقد كانت دواعي التنقل بين مدن البحرين وما يجاورها كثيرة جداً، ومن أهمها الدوافع التجارية، حيث كان بعضهم يعمل بتجارة التمور والحنطة أو بغيرها من عروض التجارة كثياب الإبريسم[١]، ويعمل آخرون بتجارة اللؤلؤ والجواهر[٢]، زد على ذلك أنواعاً أخرى من البضائع التي كانوا يتاجرون بها كالحديد والسلاح وبخاصة الرماح الخطِّيَّة[٣] ، وقد ورد في ديوان ابن المقرب أن الشاعر نفسه كان قد انحدر من بغداد في حمولة له من الحديد عندما اعترضه ابن الدبيثي عامل واسط، وفرض عليه مَكْساً باهظاً، فهجاه الشاعر مما يدل على قيام نظام المكوس في ذلك الوقت[٤]، وكان الدينار عملتهم آنذاك وبه تؤخذ المكوس[٥].

ولابن المقرب أبيات تصوِّر لنا جانباً من الحياة في البحرين بصفة عامة. في الأحساء حيث البساتين والعيون الجارية التي ترويها، وفي القطيف حيث تزدهر تجارة الملابس الفاخرة، وفي جزيرة أوال (البحرين حالياً) حيث يعيش الناس على صيد الأسماك المتنوعة فهو يقول[٦]:

فَخَيرٌ لَعَمْري مِنْ بَسَاتِينِ مُرْغَمٍ ... عَلَى ذِي المَجَارِي طَلْحُ نَجْدٍ وَشُوْعُهَا
وَمِنْ مَاءِ نَهْرِ الجَوهَرِيَّةِ لَوْ صَفَا ... ذُبَابَةُ حَسْيٍ لا يُرَجَّى نُبُوعُهَا
وَمَنْ مروزِيٍّ بالقَطِيفِ ولالِسٍ ... عَبَاءُ بَوَادِي طَيِّءٍ ونُطُوعُهَا
ومِنْ لَحْمِ صافٍ في أَوَالَ وكَنْعَدٍ ... ضِبَابٌ وجُرذَانٌ كَثِيرٌ خُدُوعُهَا

---

(١) انظر الديوان ص ٥٤٩ والإبريسم: معرَّب إبريشم وهو الحرير
(٢) انظر الديوان ص ٥٤٠.
(٣) سميت الخطّيّة نسبة إلى الخطّ بالبحرين وهي مرفأ كانت تجلب إليه وتباع فيه.
(٤) انظر الديوان ص ٢١٢ و٢٢٤ .
(٥) انظر الديوان ص ٢١٢ و ٥٤٠
(٦) انظر الديوان ص ٢٥٤، وهي من قصيدة يشكو فيها ويتذمر من مقامه في البحرين.
ومُرغَم: محلة في الأحساء مما يحيط به الحصن، والشوع: شجر البان أو ثمره، ونهر الجوهرية: عين جارية في الأحساء لا تزال عامرة ومعروفة بهذا الاسم إلى اليوم، والمروزي واللالس: نوعان من الثياب، والصافي والكنعد: صنفان من السمك، والذُّبابة: البقية من الشيء والحسي: سهل من الأرض يستنقع فيه الماء.

وهذه الملامح لحياة المجتمع في السِّلم تقابلها صورة أخرى له في الحرب. فالمجتمع الذي لم يعرف الاستقرار إلاّ في فترات قليلة حينما يتولى الحكم أمير عيوني قوي كمحمد بن أبي الحسين لا بد انه قد عرف من فنون وأساليب الحرب أحدثها في ذلك الزمن . فقد استخدم الفضل بن محمد في حرب القطيف بعد مقتل أبيه المنجنيقات والأسلحة القاذفة للنفط[1] . ويؤكد ذلك ابن المقرب مشيراً إلى هذه الأسلحة التي جاءت إلى الفضل مدداً من الخليفة بقوله :[2]

فيهَا المَنَاجِيقُ العِظَامُ يَحُفُّهَا　　نِفْطٌ تَأَجَّجُ نَارُهُ بِتَسَعُّرِ

وما من شك في أن عدم الاستقرار السياسي في مجتمع الدولة العيونية جعل من شعب هذه البلاد شعباً متحفزاً مترقباً للاعتداءات والغارات لا يأمن على نفسه إلا قليلا، وشجَّع قطاع الطرق من البادية وغيرهم على النهب والسلب كلما شعروا بأن قوة السلطان قد ضعفت. وقد رأينا كيف تجرأت البادية على الحاضرة في الأحساء في عهود الأمراء العيونيين الذين لم يستطيعوا السيطرة على مقاليد الحكم كالأمير أبي القاسم محمد بن مسعود، والأمير مقدم بن غُرير بن حسن بن شكر وغيرهما[3]. ولا عجب أن يكون نتاج ذلك الخوف على النفس و العرض والمال ،وهو ما وصل إليه الأمر في أواخر الدولة العيونية حين ذهبت ممتلكات أهل الأحساء ونخيلهم وأنعامهم ودوابهم إلى أعدائهم مع ما ذهب من أملاك الأمراء العيونيين كما يصوِّر ابن المقرب هذا الواقع بقوله[4]:

وَلَيْسَ لَنَا في الدُّرِّ إلاَّ مَحَارُهُ　　ولا فِي عُذُوقِ النَّخْلِ إلاَّ قُمُوعُهَا

---

(١) انظر أخبار البحرين ضمن ملحقات تحفة المستفيد لابن عبد القادر ص ٢٦٩ نقلا عن نسخة من شرح ديوان ابن المقرب.

(٢) الديوان ص ٢٢٣.

(٣) انظر ما تقدم ص ٤٢.

(٤)الديوان ص ٢٥٥.

وقوله[١]:

أَضْحَتْ بَسَاتِينُنَا نَفْدِي بِأَحْسَنِهَـا ... شِقْصاً لأَدْنَى خَسِيْسٍ من مَوَالِينَا
بِجُلَّةِ التَّمرِ والشَّاةِ الرَّعُومِ غَدَتْ ... أَمْـلاَكُنَـا واحْتَمَتْ أَمْلاكُ عَـادِيْنَـا

ولو بحثنا في الجوانب الأخرى للمجتمع آنذاك كالمعتقدات والأخلاق بين الناس فلا بد أن نسجل ما للعيونيين من فضل في القضاء على بعض البدع والسنن السيئة التي كانت موجودةً على عهد القرامطة كتعطيل الحدود وهدم المساجد وغير ذلك مما يشير إليه ابن المقرب بقوله عن القرامطة[٢]:

وأَبْطَلُوا الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ وانْتَهَكُوا ... شَهْرَ الصِّيَامِ وَنَصُّوا مِنْهُمُ صَنَمَا
وَمَـا بَنَـوا مَسْجِـداً لله نَعْـرِفُـهُ ... بَلْ كُلُّ مـا أَدْرَكُوهُ قَـائِماً هُـدِمَا

وقوله عن إبطال العيونيين لبدعة المَاشُوش[٣]:

مِنَّا الَّذِي أَبْطَلَ المَاشُوشَ فانْقَطَعَتْ ... آثَارُهُ وانْمَحَى في النَّاسِ وانْطَمَسَا

وهذا المجتمع الذي يضم خليطاً من الناس مختلفي المشارب مع ما مرَّ به من عهود الفوضى والاضطراب لابد أن تستحكم فيه الرشوة والفساد. ولابن المقرب أبيات ساخرة تصوِّر هذا الجانب أصدق تصوير فهو يقول[٤]:

---

(١) الديوان ص ٦١٤ والشِّقص: النصيب القليل، والجُلَّة: وعاء مصنوع من الخوص يوضع فيه التمر، والشاة الرَّعوم: الهزيلة.

(٢) الديوان ص ٥٣٢.

(٣) الديوان ص ٥٥٠ ويقول شارح الديوان في تعليقه على هذا البيت: «والماشوش» بدعة ابتدعها القرامطة في البحرين وجعلوها دينا، وهو ان يجتمع الرجال والنساء في ليلة عندهم معلومة في السنة هي الليلة العاشرة من محرم وأول ليلة من برج الحمل المسمَّى بالنيروز. ويشعلون الشمع ويرّقصون ويختلطون، وفيهم أخوات الرجل وبناته وعماته وخالاته. فاذا استكفُوا عن الرقص أطفؤوا الشموع، واختلطوا وقبض كل رجل منهم على يد امرأة وواقعها إن كانت من محارمه أو أجنبية، فحين مَلَكَ عبد الله بن علي العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب أبو شكر المبارك بن الحسن بن أبي مقرب العيوني مع غلمانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم، فأمات هذه البدعة من البحرين فما بقيت تعرف.

(٤) الديوان ص ٥٧٨ وقوله: «تجير» لعلها بالزاي «تجيز».

أَلَا قُلْ لِمَنْ أَرْهَقَتْهُ الـذُّنُوبُ ... وَخَافَ مِن الدَّهْر خَطْباً جَسِيمَا
عَلَيْـكَ الـهَـدِيَّـةَ إِنِّي رَأَيْـــــ ... ـتُ لَهَا عِندنَا اليـومَ شأنـاً عَظِيمَـا
تُجِيرُ لِـــذِي الـحُمْـقِ أَنِّي أَرَا ... دَ حَمْقَـاتِـهِ و تُعِـزُّ اللَّئِيمَـا
وتُبْـرِي السَّخَـائِمَ حَتَّى تُـرِيــ ... ـكَ أَعْـدَى عـدُوٍّ وَلِيّـاً حَمِيمَا
وأَيْسـرُ شَيءٍ يَحُـلُّ العُقُـو ... دَ ويُصَبحُ مُهْدِيه مُوسَى الكَلِيمَا
فَبِـالشَّـاةِ يَصْفَعُ زَيـدٌ أَخَـا ... هُ في مِصْـرنـا ويُفَـرِّي الأَدِيمَـا
ويُضْحِي الَّذِي أَنْفُهُ في التَّخُو ... م يُطَاوِلُ مَنْ يَتَمَـطَّى النُّجُـومَـا
فَـكَمْ مِـنْ بُطَيْطِيخَةٍ بَـرَّدَتْ ... لَـوَافِحَ مِنْ قَبْـلُ كَانتْ سَمُـومَـا
وَكَـمْ حُـلَّةٍ عَـمَّـرَتْ مَـنْـزِلاً ... وأَبْقَتْ مَنَـازِلَ قَـوم رُسُـومَـا
فَـلَا تَحْقِـرَنَّ قَلِيـلَ الـرُّشَـا ... فَـريـحُ الـدَّواءِ تَخِيطُ الكُلُومَـا

أمّا الحياة الثقافية في البحرين فإننا نستظهر ملامحها من ثقافة ابن المقرب كما تبدو لنا خلال شعره. فشاعرنا متبحِّر في اللغة العربية متمكن منها، يستشهد في الكثير من شعره بأخبار الأمم الماضية، ويعرف الكثير من الأعلام والوقائع والأيام، مع ما نتبيَّنه من ثقافته الدينية ومدى التزامه بالأخلاق والمثل العليا، مما يجعلنا نجزم بأن هذه البلاد التي نشأ فيها الشاعر وتعلم ـ وهي البحرين ـ لا تخلو من بعض المدارس ودور العلم أو حلقات الدراسة والمذاكرة في المساجد كما هو الحال في بعض الحواضر الإسلامية. وإن كان ابن المقرب الذي نشأ في أسرة حاكمة لا يُعدُّ مقياساً لابناء الطبقات المختلفة لأنه ينتمي إلى علية القوم، وإن مجتمعاً عاشت فيه فئة كالقرامطة ـ وهم قوم عرفوا بجدلهم ومناظراتهم واعتمادهم على الفلسفة والتأويل ـ لابد أن تكون فيه طبقة من المثقفين تعي هذه المجادلات والمناظرات، وتدرك دقائقها ورموزها. وإلى جانب هذه الطبقة فإن السواد الأعظم من الناس هم من العامة والبادية الذين يسهل استغلال سذاجتهم واندفاعهم العاطفي في سرعة استجابتهم لأي مبدأ أو دعوة تأخذ شكلاً برَّاقاً في مظهرها الخارجي وأهدافها المعلنة.

وإن مجتمع البحرين الذي رأينا ملامح من حياته الاجتماعية والثقافية هو جزء

من ذلك المجتمع الإسلامي الكبير مما يجعل الأثر الاجتماعي والثقافي مشتركاً بين أجزاء هذا المجتمع، ويضفي على أسلوب حياته وتفكيره وسلوكه سمات متشابهة إلى حد كبير. وبما أن الحواضر الإسلامية في العراق والشام ومصر هي ملتقى المسلمين على اختلاف طبائعهم وأجناسهم فقد تغيَّر بذلك وجه المجتمع العربي الإسلامي الأول بتأثير عوامل كثيرة طرأت على هذا المجتمع خلال عدة قرون من التاريخ الإسلامي من جرَّاء الاختلاط البشري بين شعوب كثيرة لاسيما في أواخر الدولة العباسية التي كانت تعتمد على الوزراء والولاة الفرس والأتراك في إدارة شئونها.

ولما ضعف الحكم العباسي في بغداد في سنواته الأخيرة ظهر التفكك والانحلال في جسم المجتمع الإسلامي، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى ممالك صغيرة نشأت فيها العصبيات والقوميات المحلية، ودبَّ الفساد الخُلقي بين الناس، وأصيب المسلمون بالمذلة والهوان، وضعُفَ فيهم الوازع الديني، وخفَّ بينهم الشعور بالحمية والدفاع عن العقيدة لولا بارقة أمل انبعثت مع انتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في نهاية القرن السادس الهجري لكنَّ هذا الأمل ما لبث أن ضاع في مطلع القرن السابع أمام غزوات المغول وما أحدثوه من فتك وتدمير وإفساد حتى سرت بين المسلمين الروح الانهزامية والاستسلام للأعداء[1].

ولقد كان لهذا الواقع أثر في جمود الحركة العلمية نوعاً ما في كثير من الأقطار الإسلامية إذا استثنينا بغداد حاضرة العالم الإسلامي آنذاك، إذ كانت تنعم بقليل من الحركة العلمية والنشاط الفكري. ولو أخذنا الشام مثالاً لحال بعض المناطق الإسلامية في ذلك الوقت لوجدناه في سنة ٥٦٢ هـ «عادماً للعلماء الأعلام، قد صَدَفَ عنه الفضل، وصدح به الجهل، خاويا على عروشه، خالياً من نقوشه، لا

(١) انظر وصف ابن الأثير لحالة المسلمين سنة ٦١٧ هـ أمام غزوات المغول وما أصيبوا به من وهن وذل وانكسار (الكامل في التاريخ ١٢ / ٣٧٨).

يلفى به آلف، ولا يعرف لذوي المعرفة عارف»[1]، بعد أن كانت دمشق في فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي مناراً للعلم، ومنتجعاً لطلاب العلم والأدب، ومنطلقاً للحضارة الإسلامية.

على أن صورة هذا المجتمع المسلم لم تكن قاتمة إلى ذلك الحد، فرغم الانحطاط الذي حلَّ بالمسلمين، ورغم توالي المحن والمصائب عليهم وتعرضهم لغزوات أعدائهم فقد شهد هذا العصر نوعاً من الحركة العلمية تمثلت في اتجاه بعض العلماء إلى التأليف والتدوين في فنون شتى. فقد اهتم بعض العلماء بالبلاغة والتأليف في فنونهاومنهم ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة **٦٣٧ هـ** في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، وابن أبي الحديد المتوفى سنة **٦٥٥ هـ** في شرح نهج البلاغة[2]. كما اتجه بعضهم إلى التأليف في النحو والصرف واللغة كالسكاكي المتوفى سنة **٦٢٦ هـ** في كتابه المسمى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان[3]. كما اهتم آخرون بالتاريخ والجغرافيا ومنهم عز الدين بن الأثير المتوفى سنة **٦٣٠ هـ** في كتابة (الكامل في التاريخ) وياقوت الحموي المتوفى **٦٢٦ هـ** في كتابه معجم البلدان[4]. وقد غلبت المحسنات اللفظية على أسلوب التأليف عند الكثير منهم حتى طغى اللفظ على المعنى، وآثروا السجع والجناس وغيرهما من الصناعة اللفظية، وظهر علم البيان وأصبح علما قائما بذاته[5].

كما نشأ في هذا العصر عدد من المدارس كالمدرسة النظامية في بغداد التي أنشأها نظام الملك الفارسي ووزيره ملك شاه السلجوقي التركي، وتخرَّج فيها عدد من الفقهاءوالعلماء[5].

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب ـ قسم شعراء الشام ص ١٠ عني بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٤٣٢/٣ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٧٢م.

(٣) انظر المصدر السابق ص ٤٣٢.

(٤) انظر المصدر السابق ص ٤٣٣.

(٥) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣ / ١١ طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور =

أما الأدب فقد اضمحل في العراق باضمحلال القوة السياسية لبني العباس، وما ارتبط بذلك من تدهور الثقافة العامة[1]، وظهر الضعف على الشعر في هذا العصر فلم نعد نرى شعراء مثل أولئك الفحول الكبار في العصور العباسية الأولى كالمتنبي والبحتري وأبي تمام. بل ظهر من هم أقل منهم شأناً كابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٤ هـ وابن الساعاتي المتوفى سنة ٦٠٤ هـ، وابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ، وابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩هـ، وابن عُنين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ، وابن الحاجري المتوفى سنة ٦٣٢ هـ أيضاً، وابن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ، والبهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ هـ. وقد اتجه هؤلاء الشعراء إلى الصناعة اللفظية، كما اتجهت قرائح طائفة منهم إلى الأدعية النبوية ومدائح الخلفاء وشعر التصوُّف، وقلَّ اهتمام بعضهم بالشعر العمودي القديم، واستبدلوا به أنواعاً جديدة كالموشحات والأزجال[2]. ولكن على الرغم من ضعف الشعر عامة في ألفاظه ومعانيه في هذا العصر فقد اكتسب رقَّةً وسهولة من جرَّاء الانحدار به إلى الحياة العادية وقرب تناوله للمعاني[3].

تلك هي ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية في العصر الذي بدأت تغيب فيه شمس الخلافة العباسية حين ظهر في البحرين في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري أحد فحول الشعر العربي في زمانه، فأعاد لنا بصفاء قريحته، والتزامه بالشعر العمودي، وإبداعه وأصالته، وعزته وإبائه، صورة أولئك الشعراء الكبار الذين حفل بهم تاريخنا الأدبي . . ذلكم هو : عليٌّ بن المُقرَّب العيوني .

= شوقي ضيف ـ دار الهلال.

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥ /١٠ ـ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥ م.

(٢) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣ /١٣.

(٣) انظر تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٣ / ٤٣٢.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

حياة الشاعر

١ ـ اسمه ونسبه:

هو جمال الدين أبو عبد الله عليٌّ بن المُقَرَّب بن منصور بن المُقرَّب بن الحسن بن غُرير بن ضَبَّار بن عبد الله (مؤسس الدولة العيونية) بن علي بن محمد بن إبراهيم بـن محمد الرَّبعي البحراني العيوني.

والرَّبعي نسبة إلى ربيعة بن نزار، والعيوني نسبة إلى بلدة (العيون) الواقعة على مشارف الأحساء، ولا تزال معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا.

وهذا التسلسل الذي ذكرته لنسب الشاعر هو ما أثبتته كتب التراجم لأولئك المؤرخين الذين عاصروه وسمعوا منه، بل لقد أَمْلَى الشاعر على بعضهم نسبه مِن حِفْظِه مع اختلاف يسير بين هذه المصادر من جهة، وبينها وبين مخطوطات ديوانه من جهة أخرى.

ولعل أقرب هذه المصادر إلى صحة نسبه ما ذكره ابن الشعَّار الموصلي في قوله[1]: «علي بن المُقرَّب بن منصور بن المقرَّب بن الحسن بن عزيز بن ضبَّار بن

(١) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ /١٢٦ المخطوطة رقم ٣٣٩ تاريخ ـ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة. وابن الشعَّار: هو المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي المعروف بابـن الشعار، أديب مؤلف معاصر لابن المقرب، توفي سنة ٦٥٤ هـ (انظر معجم المؤلفين لعمر كحالة ٨ /١٧١).

عبد الله بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد أبو عبد الله الرَّبعي البحراني العيوني، هكذا أَمْلَى عليَّ نسبه مِنْ حِفْظِه» أي من حِفْظ ابن المقرب نفسه لقول ابن الشعَّار بعد هذه العبارة: «أخبرني أنه وُلد . . . . . إلخ»وقوله :«شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأنشدني الكثير من قوله».

وأورد المنذري[1] نسب ابن المقرب كما أورده ابن الشعار عدا الجد السابع (علي) وهو والد مؤسس الدولة العيونية عبد الله بن علي، وزاد المنذري كنية أخرى للشاعر فقال: «أبو عبد الله ويقال: أبو الحسن علي بن المقرب. . . . الخ».

وذكر ياقوت الحموي نسب ابن المقرب بقوله[2]: «وبالبحرين موضع يقال له العيون ينسب إليه شاعر قدم الموصل وأنا بِها، واسمه علي بن المقربِ بن الحسن بن عزيز بن ضبَّار بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم العيوني البحراني، لقيتُه بالموصل سنة ٦١٧ هـ»، فلم يذكر ياقوت جده الأول (منصوراً) وجده الثاني (المقرب)وجده السابع (علياً) .

وقد أثبت ابن الشعار ومن تابعه كالمنذري وياقوت الحموي الجد الرابع للشاعر هكذا (عزيز) بالعين ثم الزاي، إلا أن هذا الاسم ورد في ديوانه المخطوط[3] هكذا (غُرير) بالغين المضمومة بعدها راء، وهو وإن كان اسماً غريباً إلا أنه أقرب إلى صحة الاسم في نظري لوروده هكذا في الديوان ولأن اسم (غُرير) بالغين ثم الراء ورد ضمن أسماء الأمراء العيونيين أكثر من مرة ولم يعرف أحد منهم باسم (عزيز)[4] . وربما كان هذا تصحيفاً من النساخ .

---

(١) التكملة لوفيات النقلة ٦ / ٤٤ تحقيق وتعليق بشار عواد ـ مطبعة عيسى الحلبي ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٩٦ هـ. والمنذري: وهو زكي الدين عبد العظيم، من معاصري ابن المقرب، ولد سنة ٥٨١ هـ وتوفي سنة ٦٥٦ هـ (انظر معجم المؤلفين لعمر كحالة ٥ /٢٦٤).

(٢) معجم البلدان ٤ / ١٨١، وياقوت الحموي: مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين ومن العلماء باللغة والآداب ولد سنة ٥٧٤ هـ وتوفي بحلب سنة ٦٢٦ هـ (انظر الأعلام للزركلي ٩ / ١٥٧).

(٣) انظر الديوان ص ٤ من المقدمة.

(٤) انظر ما تقدم ص ٣٧ و٤٢ .

أما ابن نقطة فلم يذكر هذا الاسم في نسب الشاعر إذ يقول(1): «وأما ضبَّار: بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء المعجمة بواحدة وآخره راء فهو: أبو الحسن علي بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن ضبار بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم البحراني» ثم قال: «قدم علينا بغداد وأنشدنا قصائد من شعره».

وذكر الصَّفدي(2) نسب ابن المقرب مطابقاً لما ذكره ابن الشعار عدا الجد الخامس فقد أورده (صبَّار) بالصاد بدلا من (ضبَّار) بالضاد. أما ابن الفوطَيُ فقد أخطأ في كنية الشاعر ولقبه واختصر سلسلة نسبه قائلا(3) إنه« موفق الدين أبو القاسم علي بن المقرب بن الحسن بن العزيز البحراني العيوني الشاعر» كما أشار الزبيدي إلى شاعرنا إشارة عابرة في قوله(4): «وعلي بن المقرب بن منصور البحراني أديب سمع منه ابن نقطة».

وأما مخطوطات ديوان ابن المقرب وطبعتاه القديمتان المكية والهندية فقد اختلفت في إثبات اسمه ونسبه، لكن أقربها إلى صحة نسبه ما ورد في مقدمة الطبعة الهندية التي صدرت سنة ١٣١٠ هـ، فقد جاء فيها ما يلي(5): «جمال الدين أبو عبد الله علي بن مقرب بن منصور بن مقرب بن أبي الحسين بن غُرير بن ضبَّاب بن عبد

---

(1) الإكمال في رفع الارتياب لابن ماكولا ٥ / ٢٠١ (الحاشية نقلا عن المستدرك على الإكمال لابن نقطة) الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ، وابن نقطة: من معاصري ابن المقرب وهو: محمد بن عبد الغني البغدادي المعروف بابن نقطة، محدث حافظ ولد سنة ٥٧٩ هـ وتوفي سنة ٦٢٩ هـ من آثاره: المستدرك على الإكمال. (انظر معجم المؤلفين لعمر كحالة ١٠ /١٧٩).

(2) انظر الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق نقلا عن الوافي بالوفيات للصفدي.

(3) الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق نقلا عن تخليص مجمع الآداب لابن الفوطي، وابن الفوطي: أديب مؤرخ محدث ولد سنة ٦٤٢ هـ وتوفي سنة ٧٢٣ هـ.

(4) تاج العروس ٣ /٣٠ دار صادر - بيروت ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م.

(5) الديوان ص ٤ من المقدمة. وليس في الطبعة الهندية ما يشير إلى المخطوطات التي اعتمدت عليها هذه الطبعة.

الله بـن علي بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد العيوني الأحسائي». وقد اختلف هذا التسلسل عما ذكره ابن الشعار الموصلي في الجد الثالث (أبي الحسين)بدلا من (الحسن) والجد الخامس (ضباب) بباء في آخره بدلا من (ضبار) براء في آخره. كما زاد في هذا التسلسل اسم عبد الله بعد الجد السابع. كما ورد فيه الجد الرابع (غرير) بالغين المضمومة ثم الراء خلافاً لما أورده ابن الشعار الموصلي ومن تابعه من كتاب التراجم (عزيز) بالعين ثم الزاي بعدها ياء ثم زاي.

وفي صدر الطبعة المكية التي صدرت سنة ١٣٠٧ هـ ورد لقب الشاعر محرفاً إلى (غالي الدين) بدلا من (جمال الدين)، ووردت نسبته فيها محرفة إلى (القليوبي) بدلا من (العيوني)، وسقطت منها أسماء جدوده الثالث والرابع والخامس مع تقديم الجد السابع على السادس (علي بن عبد الله) بدلا من (عبد الله بن علي). وأهم من ذلك ورود اسم الشاعر في هذه الطبعة على أنه (محمد) بدلا من (علي).

وقد جاء أيضاً في إحدى مخطوطات ديوانه[1] أن اسمه محمد بن علي، فقد ورد في صدر هذه المخطوطة ما يلي[2]: «هذا ديوان العلامة الأديب الفاضل الأريب ذي الشعر المعجب العجيب جمال الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن المقرب تغمده الله برحمته آمين». ولعل هذا ما جعل بروكلمان يتوهم وجود شاعرين: أحدهما علي بـن المقرب، والآخر ابنه محمد بن علي، ثم يترجم لهما في تاريخه[3].

وليس هناك أدنى شك في صحة اسم الشاعر، فهو علي بن المقرب وليس محمد بن علي، وذلك ما ذكره ابن الشعار الموصلي من إملاء الشاعر نفسه، وما يؤكده ابن المقرب في شعره، فقد صرح في إحدى قصائده بأن اسمه (علي) حيث

---

(١) وهي في دار الكتب المصرية برقم ٥٢٢ أدب (انظر الديوان ص ١١ من مقدمة المحقق)

(٢) انظر الديوان ص ١٣.

(٣) انظر تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٥/٦١ ـ ٦٢ دار المعارف بمصر.

يقول [1]:

وَلَـرُبَّ لَاحٍ قَـالَ لِي وجُفُـونُـهُ سَكْرَى إِلَى الآمَاقِ من عَبَـراتِهَا
هَـوِّنْ فَقومُـكَ يَا عَلِيُّ حَيَـاتُهـا كَمَمَـاتِهـا ومَمَـاتُهـا كَحَيـاتِهَـا

أما مخطوطات الديوان الأخرى فقد اختلفت أيضاً في بيان لقبه وكنيته، وأخطأ بعضها في نسبته إلى بلاد أخرى غير بلده. فمنها ما أثبت لقبه على أنه (نور الدين)، ومنها ما أورد كنيته على أنها «أبو منصور»، ومنها ما نسب الشاعر إلى اليمن أو بغداد بدلا من (العيون) أو (الأحساء). فقد جاء في مخطوطة المتحف العراقي [2]: «إن الأمير الأديب نور الدين علي بن المقرب رحمه الله تعالى كان أميراً كبيراً جليلاً.... الخ».

وفي مخطوطات الموصل [3]: «ديوان ابن مقرب العبدلي الأمير جمال الدين أبو منصور (كذا) علي بن عبد الله بن المقرب» بزيادة اسم (عبد الله) بين اسمه واسم أبيه. ومثل ذلك ما ورد في مخطوطة المتحف البريطاني، فقد جاء فيها ما يلي [4]: «أما بعد فهذا ديوان لسان العرب وحجة أهل الأدب الأمير جمال الدين أبي منصور علي بن عبد الله بن المقرب (كذا) الشاعر المفلق والفصيح المقلق تغمده الله برحمته». وفي صدر مخطوطة لديوانه بمكتبة بلدية الإسكندرية كتبت هذه العبارة [5]: «ديوان الإمام ابن المقرب الحماسي اليمني البغدادي رحمه الله تعالى».

وهكذا يتبيّن أن أوثق الروايات في بيان اسم الشاعر وتسلسل نسبه هو ما ذكره

---

(١) الديوان ص ١٠٧، وانظر أيضاً ص ١١ من مقدمة محقق الديوان.

(٢) ديوان علي بن مقرب العيوني ـ منشورات المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٨ هـ بعد المقدمة.

(٣) مخطوطات الموصل للدكتور داود الحلبي ص ٤١ مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧م.

(٤) تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣٣ (وهي رسالة جامعية كتبت باللغة الإنجليزية سنة ١٩٧٥ م ولم تنشر بعد).

(٥) وهي في بلدية الإسكندرية برقم ن ٢٠٢٨ ـ ج (انظر الديوان ص ١٠ من مقدمة المحقق).

ابن الشعار الموصلي من إملاء الشاعر نفسه ، وهو ما تطمئن النفس إلى اعتماده في الترجمة لابن المقرب .

أما الأسرة العيونية التي ينتمي إليها ابن المقرب فقد حكمت الأحساء وسائر بلاد البحرين بعد القضاء على القرامطة من سنة ٤٦٦ هـ إلى سنة ٦٣٦ هـ، وينتهي نسب هذه الأسرة إلى ربيعة بن نزار، وكثيراً ما كان الشاعر يفتخر بربيعة وأمجادها في الجاهلية[١]، إضافة إلى افتخاره بأمراء البيت العيوني الذي ينتمي إليه.

وترجع شهرة الأسرة العيونية إلى أحد أبنائها وهو: عبد الله بن علي العيوني (جدُّ الشـاعر) الذي ينسب أحياناً إلى جده إبراهيم فيقال: الإبراهيمي، ويُنسب أمراء الدولة العيونية إلى عبد الله بن علي هذا في مجال الفخر به وبآل بيته فيقال: عبدليّ كما في قول ابن المقرب[٢] .

سَمَـا بِـكَ بَيْتٌ عَبْدَلِـيٌّ أَحَلَّهُ ... دِيَـارَ الأَعَادِي سُمْـرُهُ وقَـوَاضِبُـهْ

وَعَالِي مَحلٍّ من رَبِيعَـةَ أَشْرَفَتْ ... عُلُوّاً عَلَى كُـلِّ البَـرَايَـا مَـرَاتِبُـهْ

٢ ــ أسرته:

لا تسعفنا المصادر بشيء عن أسرة الشاعر في نطاقها الضيق، كما أن شعره الكثير لا يتضمن إلَّا قدراً عن والده ووالدته وزوجته وبناته في إشارات عابرة ترد لماما في مجال الفخر أو الشكوى.

أما والده فلم تذكر المصادر التاريخية أن له شأناً في الحكم العيوني ،ولكن الشاعر يفتخر بمافعله أبوه حين كفى عشيرته مما تعاني منه بعزمه وشجاعته فعمت نعمته من كان بالبحرين من نزاريٍ ويماني ، وذلك حيث يقول[٣]:

أَبِي مَنْ قَدْ عَلِمت ولَيْسَ يَخْفَى ... بِضَاحِي شَمْسِ يومٍ إِضْحِيانِ

---

(١) انظر الديوان ص ٣٢٥ و٣٥٨ و٣٨٧ و٤٨٥ و٦٣٥.

(٢) الديوان ص ٥٥.

(٣) الديوان ص ٦٢٨.

سَـلِ العُلَماءَ يـاذا الجَهـلِ عَنْـهُ ... ونَـارُ الحَرْبِ سَـاطِعَةُ الـدُّخَـانِ
غَـدَاةَ كَفَى العَشِيرَةَ ما عَنَـاهَـا ... بعَـزمَـةِ مَـا جِـدٍ كَـافٍ مُعَانِ
وَقَـد كَثُـرَ التَّعَـازِي في أُنَـاسٍ ... حِـذَارَ المَوتِ مِنْ بَعـدِ التَّهَانِي
فَـعَمَّـتْ تِلكُـمُ النَّعْمَـاءُ مِنْـهُ ... نِـزَارِيَّ الأُبُـوَّةِ والـيَـمَـانِـي

ولسنا ندري ما هي هذه الحادثة التي عمت بها نعماء أبيه، ولعلها معركة مع أعداء أسرته كان لوالده فيها دور هام مما يدل على شجاعة أبيه ومضائه، ويستأنف الشاعر كلامه فيذكر يوماً آخر لأبيه [1]:

وَيَـومَ عَـلاَ بَجَـرْعَـاءِ المُصَلَّى ... عَجَاجٌ غَـابَ فِيْـهِ المَسْجِـدَانِ
أَلَـمْ يَلْقَ الـرَّدَى مـنـهُ بِقَـلْبٍ ... عَلَى الأَهْـوَالِ أَثْبَتَ من أَبَـانِ
عَـشِيَّـةَ عَـامِـرٌ وبَـنُـو عَـلِيٍّ ... كَدُفَّاعِ السَّيُـولِ مِنَ الـرِّعَـانِ [2]

ويتساءل الدكتور صلاح نيازي [3] عن السر في ندرة حديث ابن المقرب عن والده في شعره، وهل كان والده رجلاً كسولاً لا يَعْتمِد عليه الشاعر في رعاية أسرته في أثناء رحلاته حتى بلغ به الأمر أن يخاطب أخاه ويطلب منه رعاية بناته في سفره بقوله [4]:

فَيَا ابْنَ أَبِي رِفْقاً بِهِنَّ وكُنْ أَبَـاً ... مُـدِيبَـاً عَلَى إكْـرامِهِنَّ مُـوَاظِبَـا

---

(١) الديوان ص ٦٢٩.

وجرعاء المُصلّى: مكان بظاهر الأحساء كان السكان جميعاً يؤدون فيه صلاة العيد، وكان بجانبه مسجد آخر. وهما المسجدان اللذان يشير إليهما الشاعر (انظر الديوان ص ٦٢٩ الحاشية). وأَبان: سلسلة جبال تقع قرب مدينة الرس بالقصيم. والدُّفاع ـ بالضم ـ: طخمة الموج والسيل. والرِّعان: جمع الرعن وهو الجزء الناتيء من الجبل كالأنف.

(٢) رواية الديوان «عامرٍ وبني علي» وقد أثبتُ رواية الرفع عن إحدى المخطوطات كما ذكرت في حاشية الديوان.

(٣) انظر رسالة الدكتور صلاح نيازي ص ٩١.

(٤) الديوان ص ٤٠.

ثم يستنتج الدكتور صلاح من هذا البيت أن والد الشاعر كان متزوجاً من امرأتين على الأقل، ويورد على ذلك دليلاً آخر أكثر وضوحاً في نظره وهو قول ابن المقرب من قصيدة أخرى[1]:

وَبُــعْــدٌ عَــنْ أَخٍ لأبٍ وأُمٍّ إذَا مَــا عَقَّ خَيْرٌ مِــنْ تَــدَانِ

وكأن الدكتور نيازي يريد بهذا الاستنتاج التأكيد على ما ذهب إليه من أن ابن المقرب لم يكن مرتاحاً في بيته[2].

أما القول بضعف والد الشاعر وعدم الاعتماد عليه في رعاية شئون البيت فإن ذلك أمر مردود بعدما رأينا من وصف الشاعر لأبيه بعلو الهمة وتمام المروءة في الدفاع عن قومه، وإنما من الواضح أنه يوصي أخاه ببناته بعد هجره للأحساء، وهذا لم يقع إلا بعد وفاة أبيه. ثم إن مخاطبة الشاعر لأخيه بقوله «يابن أبي» لا تعني أنه ليس أخاه من أمه وأبيه، إذ لسنا نرى في أساليب العربية من يقول: يا بن أبي وأمي.. وإنما يكون النداء بإحدى الصيغتين: يا بن أبي أو يابن أمي، دون أن يكون المقصود بواحدة منهما مالا يقصد بالأخرى.

أما الاستدلال بالبيتين السابقين على أن لوالد الشاعر أكثر من زوجة واحدة فهو ضعيف جداً، لأن تعدد زوجاته غير مستغرب نظراً لمكانته وتقاليد عصره ومجتمعه. بل إن هذا الاستدلال يذكّرنا بقصور المستشرقين عن فهم الشعر العربي وأساليب العربية عامة، فإن قول الشاعر:

وبُــعْــدٌ عَــنْ أَخٍ لأبٍ وأُمٍّ إذَا مَــا عَقَّ خَيْــرٌ مِــنْ تَــدَانِ

لا يدل على أن للشاعر إخوة آخرين من أبيه من زوجة أخرى بقدر ما يوضح الحقيقة التي يريد ابن المقرب أن يقررها في هذا البيت، وهي أن الابتعاد عن

(١) الديوان ص ٦٢٤.

(٢) انظر رسالة الدكتور صلاح نيازي ص ٨٨.

أقاربه الذين يواجهونه بالعقوق والقطيعة خير من القرب منهم حتى وإن كان هذا القريب أخاً شقيقاً لأب وأم.

ومع ما يكتنف حياة والد الشاعر وشخصيته من غموض فإن علاقته بابنه تبدو وثيقة العرى كما تدل على ذلك رسالة شعرية بعث بها الشاعر لأبيه في بعض رحلاته يشكر والده على ما أسداه إليه من جميل، وما قلَّده من منن فيقول[1]:

لَـكَ رَاحَـةٌ لَـوْجَـادَ صَيِّبُهَـا ... فِي البَـرِّ كَـانَ البَـرُّ كَـالْبَحْـرِ
قَـلَّدتَنِـي مِـنَـنَـاً تَـقَـلَّدَهَـا ... شُكْرِي وأَوْضَحَ شَرْحَهَا شُكْـرِي

ويصف أباه بطيب الذكر مشيراً إليه بكنيته (أبي المعالي) بقوله[2]:

إن الأَمِيـرَ أَبَـا المَعَـالِي ذُو ... ذِكْـرٍ أَرِيـجِ العَـرفِ والنَّشْـرِ

ويبدو من عبارة وردت في التقديم لهذه الأبيات أن الأيام قد عبست في وجه الأب، فكتب رسالة إلى ابنه يشتكي فيها القدر وصروف الدهر[3]. وكأنه يطلب من ولده المعونة والمساعدة، فيهب لعون أبيه. ثم يعبر عن تغلبه على المشكلات التي يشكو منها والده فيقول[4]:

وَافَيتُ أَشْكُـو الـدَّهْـرَ مَجْلِسَـهُ ... فَـرَجَعْتُ مَنْصُـوراً عَلَى الـدَّهْـرِ

وليس من المستبعد أن يكون والد الشاعر قد تعرض في وقت ما إلى ضائقة

---

(١) تحقيق ديوان علي بن المقرب للدكتور صلاح نيازي ص ٩١. وهذان البيتان من قصيدة غير موجودة في ديوانه المطبوع.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

(٣) انظر المصدر السابق ص ٩١.

(٤) المصدر السابق ص ٩٢.

مالية أو مشكلات عائلية ، أوحدث نزاع بينه وبين أبناء عمه أمراء الدولة العيونية ثم انجلت عنه همومه كما يستظهر ذلك من قول ابن المقرب عن بناته[١] :

فَـإنْ سَلِمَتْ نَفْسِي لَهُنَّ هَنِيئَـةً ... مِن الدَّهْرِ جَاوَزْنَ النُّجُومَ الثَّوَاقِبَا
وَعَـادَ إليَّ الدَّهْـرُ بَعْـدَ غَـرَامِـهِ ... يُعَفِّـرُ خَدَّيْـهِ عَلَى الأَرْضِ تَائِبـا
كَمَا جَاءَ قَبلِي مُسْتَكِيناً إلَى أَبِي ... وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَلْوِي عَلَيهِ المَخَالِبَا

وليس لدينا من المصادر ما يدل على التاريخ الذي توفي فيه والد الشاعر. وأما ما ذهب إليه الدكتور صلاح نيازي من أن وفاته كانت سنة ٦١٧ هـ[٢] مستدلا ببيت من قصيدة قالها ابن المقرب بالموصلِ في هذه السنة وهو قوله[٣] :

وَقَدْ كَانَ لي مِنْ إرْثِ جَدِّي وَوَالِدِي ... غَنىً فِيـهِ لِلرَّاجِي الَّذي يَتَمَـوَّلُ

فإن هذا البيت لا يقوم دليلاً على وفاة أبيه في تلك السنة لمجرد ذكر الشاعر لإرثه من أبيه، إذ يحتمل أن تكون وفاته قد حدثت قبل ذلك التاريخ بسنوات قليلةٍ أو كثيرة.

أما والدة ابن المقرب فإنه نادراً ما يذكرها في شعره. وإذا ذكرها ففي مجال فخره بطيب معدنها، وأصالة نسبها، وشرف خئولتها.

ويستظهر من الأبيات القليلة التي تحدث فيها الشاعر عن أمه أنها من بني حنيفة، وأنها وائلية النسب ، وأن خئولتها تنتهي إلى الحوفزان بن شريك الوائلي فهو يقول[٤] :

---

(١) الديوان ص ٤٠.

(٢) انظر تحقيق ديوان علي بن المقرب للدكتور نيازي ص ٨٨.

(٣) المصدر السابق ص ٩٣ والبيت في ديوانه ص ٤٢٨.

(٤) المصدر السابق ص ٨٩ والأبيات في ديوانه ص ١٣٣.

امثِلي من يعطِي مَقاليدَ امْرِهِ ... ويَرضَى بأَنْ يُجْدَى عَلَيهِ وَلاَ يُجْدِي
إذَنْ لَمْ تَلِدْني حَاصِنٌ وَائِليَّةٌ ... مُقَابَلَةُ الآباءِ مُنجبَةُ الوُلْدِ
خُئُولَتُها للحوافَزَانِ وتَنْتَمِي ... إلى المَلِكِ الوَهّابِ مَسْلَمَةَ الجَعْدِ

ويقول[1]:

فَمَا وَلَدَتْنِي حَاضِنٌ حنفيةٌ ... عُبَيدِيَّةٌ تَسْمُو إلى الحَسَبِ الجَزْلِ

إلى قوله:

لَئِنْ أَنَا لَمْ أَغْشَى اللِّئَامَ بِوَقْعَةٍ ... يَشِيبُ لَهَا مِنْ هَوْلِهَا مَفرِقُ الطِّفْلِ

وأمّا زوجة ابن المقرب فإنه لم يذكرها باسمها في شعره مطلقاً، وفي مناسبة واحدة فقط ذكر أنها من بني عامر[2]، وذلك حين أشار إلى بناته وخوفه عليهن بعد سفره في قوله[3]:

وَلَوْلاَ بَنَاتُ العَامِرِيَّةِ لَمْ أَكُنْ ... لأَلْوِي إلَى دَارِ المَذَلَّةِ جَانِبَا

ولعل تخصيص بناته بالذكر دون أبنائه يوحي بأن الشاعر لم يرزق أولاداً ذكوراً، إلّا أن كنيته وهي (أبو عبد الله) ربما دلت على أن له ولداً بهذا الاسم، وقد رأيناه يتذكر (أم العُبيد) وهو في البصرة في أول رحلة يحس فيها بألم الفراق والغربة:

سَمَا لَكَ مِنْ أُمِّ العُبَيدِ خَيَالُ ... وَدُونَ لِقَاهَا أَجْرُعٌ وسَيَالُ[4]

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩ والبيتان في ديوانه ص ٣٢٣ و٣٢٤.

(٢) بنو عامر بطن من عامر بن صعصعة من هوازن من العدنانية، وبنو عامر أيضاً بطون كثيرة من قبائل مختلفة الأنساب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ص ٣٠٥).

(٣) الديوان ص ٣٩.

(٤) الديوان ص ٤٣٤.

ولا يتحدث ابن المقرب في مفاخرة الكثيرة عن أحد من جدوده أو أعمامه غير جده عبد الله، اللهم إلاّ إشارة عارضة لجدِّه ضبَّار بن عبد الله بن علي في معرض مديحه لأحد بني عمه من سلالة علي بن عبد الله بن علي بقوله[1]:

لأنَّ عَلِياً جَدَّهُ عَمِّيَ الَّذي يَطُولُ به بَيْتِي عَلَى مَنْ يُطَاوِلُ
وضَبَّارُ جَدِّي عَمُّهُ وكِلاهُمَا خَلِيصَانِ والعَمُّ المُهَذَّبُ نَاجِلُ

وربما كان السبب هو عدم مشاركة جده ضبَّار وعقبه في الحكم بصفة مباشرة، وكونه مقصوراً على سلالة كل من الفضل وعلي ابني عبد الله بن علي العيوني.

٣ ـ مولده ونشأته:

ولد علي بن المقرب في بلدة (العيون) بالأحساء سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة هجرية (٥٧٢ هـ) وتؤكد سائر الروايات صحة هذا التاريخ لميلاده بإجماع المؤرخين الذين كتبوا عنه، لاسيما من عاصروه وسمعوا منه. قال ابن الشعار الموصلي [2] نقلاً عن ابن المقرب نفسه: «أخبرني أنه ولدبه [3] فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة». وقد تابع ابن الشعار كل من المنذري[4] وابن الفُوَطي[5] والصفدي[6] في بيان تاريخ مولده.

وقد نشأ ابن المقرب وتعلَّم ـ على ما يبدو ـ في الأحساء، إذ ليس لدينا ما يدل

---

(١) الديوان ص ٣٤٨. والناجل: الكريم النَّجل أي النسل، يقال فحل ناجل وفرس ناجل.

(٢) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ /١٢٦.

(٣) يعني موضعاً بالبحرين يقال له العيون كما يقول (انظر المصدر السابق).

(٤) انظر التكملة لوفيات النقلة ٦ /٤٥.

(٥) انظر الديوان ص ٩ نقلا عن «تخليص مجمع الآداب».

(٦) انظر الديوان ص ٩ نقلا عن «الوافي بالوفيات».

على خروجه من بلده في ريعان شبابه في طلب العلم. إلا أن الدارس لشعره ومظاهر ثقافته[1] فيه يكاد يجزم بأنه قد نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة في شبابه المبكر، وبخاصة في اللغة العربية والتاريخ والأدب، ولكننا لا نعلم شيئاً عن تفاصيل حياته في سنيِّ عمره الأولى سوى نظمه الشعر ونبوغه في العاشرة من عمره كما جاء في مقدمة ديوانه[2]: «فقد نظم بدائع الكَلِم قبل بلوغ أوان الحلم، وبرّز على الكهول في الشعر ولم يزد سِنُّه علىَ عشر» . وهذه العبارة وإن اشتملت على بعض المبالغة فهي تدل على موهبته الشعرية وتوقُّد ذهنه منذ الصغر.

ولعل أكثر إقامة الشاعر في شبابه كانت في ربوع بلده الأحساء إذ لم يصل إلينا من أخبار تنقلاته ورحلاته سوى رحلاته التي قام بها إلى العراق بعد أن بلغ مبلغ الرَجال وذاعت شهرته وعلا صيته، وكان سبب خروجه هو خلافه مع بني عمه أمراء الدولة العيونية، ولم تذكر لنا المصادر أنه خرج من بلده إلى العراق لسبب آخر كالسعي لحضور حلقات الدرس في بغداد والبصرة والكوفة أو غيرها من الحواضر الإسلامية.

ومن المؤكد أن ابن المقرب كان يخرج مع أهله إلى أطراف البحرين مما يلي نجدا أو غيرها من البلاد، بل إن في شعره ما يدل على رحيله إلى نجد وإقامته فيها أيام صباه. وذلك حيث يقول[3]:

لله أيَّــامُ الــصِّــبَــا إذ دَارُنَــا ... حَجْـرُ القُرَى وَلَنَـا بإجْلَةَ مَعْهَـدُ
إذْ لِمَّتِي تَحْكِي الغُـدَافَ وإنَّمَـا ... أَشْهَى الشُّعُورِ إلى العُيُونِ الأَسْوَدُ
والخَـدُّ مِنْ مَاءِ الشَّبَـابِ كَأَنَّمَـا ... فِيـهِ لأَحْـدَاقِ الكَـوَاعِبِ مَـوْرِدُ

---

(١) سيأتي الحديث عن ثقافته في نهاية هذا الفصل.

(٢) الديوان ص ٥ من المقدمة.

(٣) الديوان ص ١٦٠ وحجر: قاعدة اليمامة قديماً، وقد قامت على أنقاضها مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية (انظر مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ للشيخ حمد الجاسر).

وإجلة كدجلة: موضع باليمامة، والغُداف: غراب القيظ أو الشعر الأسود الطويل.

ولعل إقامته في نجد كانت للارتباع أو الاصطياف كما جرت بذلك عادة أهل الأحساء وغيرهم حين يخرجون إلى الصحراء ومواطن العشب والكلأ في بعض فصول السنة. وله أبيات أخرى يتشوّق فيها إلى المنازل التي ألفها في صباه بين البحرين ونجد، ويحنُّ إلى تلك الربوع، ويستعيد ذكرياته مع جيرته الكرام في قوله[1]:

رَعَى اللهُ الثُّلَيْمَ وساكِنِيْهِ ... وأَجْرَاعاً تَكَنَّفَهَا الثَّلَامُ
وجَادَ من الجَدِيدِ إلى المُصَلَّى ... إلى الحِصْنَين وَكَّافٌ رُكَامُ
فَمَسْرَحُ لَذَّتِي وَمَرَاحُ لَهْوِي ... هُنَالِكُمُ وَجِيْرَتِيَ الكِرَامُ

٤ ـ علاقته بأمراء أسرته:

يجدر بنا قبل أن نعرف علاقة الشاعر بالأمراء العيونيين الذين تولوا الحكم في البحرين من أسرته أن نعرف أن الحكم فيهم بعد موت مؤسس الدولة العيونية جدِّهم عبد الله بن علي قد ورثه وتعاقب عليه أحفاد الفضل بن عبد الله وأحفاد أخيه علي بن عبد الله، وكان الصراع مستمراً بين هذين الفرعين[2]. وأما الشاعر علي بن المقرب فهو من سلالة الفرع الثالث وهو ضبَّار بن عبد الله، ولم تكن لهذا الفرع مشاركة في الحكم سوى ما قيل من أن الحسن بن غُرير بن ضبَّار وولديه: المبارك ومقرب (جد الشاعر) قد تولوا الإمارة، وليس لدينا من المصادر ما يثبت ذلك عدا إشارة في حاشية ديوان ابن المقرب تعليقاً على أحد الأبيات[3] ولعل مشاركتهم في

---

(١) الديوان ص ٥٦٣ والثُّلم: موضع بالصمان بين البحرين ونجد والثلماء: من المواضع التي تقع في أول اليمامة من جهة البحرين.
أما الجديد والمصلّى والحصنان فهي مواضع في الأحساء، والوكّاف: المطر إذا انهلّ بغزارة.

(٢) انظر ما تقدم ص ٣٦.

(٣) انظر الديوان ص ٥٤٥. وهذه الإشارة هي تعليق في حاشية الطبعة الهندية من الديوان على قوله:
مِنَّا المُسَوَّرُ تَعْظِيماً وَوَالِدُهُ ... كَذَاكَ كَان فَنَحْنُ السَّادَةُ العُظَمَا
ونص هذا التعليق: «يعني الأمير أبا شكر المبارك بن الحسن بن غرير بن ضباب (كذا) بن عبد الله، وكان له سواران من ذهب في رأس كل سوار منهما درَّتان ثمينتان، وكان أبوه أبو مقرب الحسن بن غرير علىٰ

الحكم كانت مقتصرة على ولاية بلد صغير أو قرية تحت حكم الأمراء العيونيين المعروفين من سلالة الفضل بن عبد الله أو علي بن عبد الله . ولا يستبعد أن يكونوا قد توارثوا إمارة ذلك البلد أو تلك القرية فترة من الزمن.

وكانت علاقة ابن المقرب بأبناء الفضل بن عبد الله وثيقة وقوية، وقد خصَّهم بغالب مدائحه، وسجل بشعره مفاخر ومآثر ما كانت لتذكر لهم لو لم يسجلها الشاعر ببدائع نظمه. وقد جاء في مقدمة ديوانه[1]: «فما كان منه في آل فضل بن عبد الله فهو رغبة منه في تعظيمهم وحبٌّ لمدحهم وتقديمهم، وإيثار للتنويه بذكرهم، وحرص على جمع شتات فخرهم».

وأبرز من كانت لابن المقرب صلة قوية معهم من آل الفضل هو الأمير العيوني محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الله بن علي، الذي قويت الدولة في عهده وعظم شأنها، وكان الشاعر مقرباً عند هذا الأمير الذي أعجب بشعره فأكرمه وناشده أن يأخذ من خزينته مايشاء. ولكنَّ ابن المقرب كان يترفع عن طلب المال ويقول[2]: «والله ما قلتُ ما قلت وذكرتُ ما ذكرت لشيء من الجوائز ولا زيادة مال، وإنما ذلك كان مني إذ رأيتك أهلا لما ذكرت فوضعته في موضعه».

ولما قتل الأمير محمد بن أبي الحسين ، وبدأ الصراع بين الأمراء العيونيين من بعده ، ضاع الشاعر في خضم هذا الصراع، ولقي من المحن والابتلاء ما حوَّل حياته إلى بؤس وشقاء بدأ بضعف صلاته بآل الفضل بن عبد الله ، وانتهيا بالقطيعة

= كذلك، وكان أميراً بعد أبيه، والأمر راجع من بعد أبي شكر إلى أخيه مقرب بن الحسن».

(١) الديوان ص ٥.

(٢) الديوان ص ٥٨٥ وكان ذلك على أثر قصيدة كتبها الشاعر في مجلس الأمير يمدحه، وأنشدها إياه في ذلك المجلس ومطلعها:

رِمَـاحُ الأعـادِي عَنْ حِمَـاكَ قِصَـارُ ... وَفـي حَـدِّهـا عمَّـا تَـرُومُ عِثَـارُ

وهي آخر قصيدة قالها فيه سنة ٦٠٢ هـ (انظر الديوان ص ٢٠٧)

والعداوة لآل علي بن عبد الله . ولعل ابن المقرب قد تطلّع في فترة من فترات هذا الصراع إلى السيادة والحكم أو المشاركة فيه مما أوغر صدور بني عمه عليه، بل إن في شعره ما يدل على هذا التطلّع كقوله[1]:

وَمَــا أَعْجَبَتْنِي دَارُ ذُلٍّ وإن غَـدَتْ ... مَنَازِلَ قَومِي وَالأَكَارِمِ من أَهْلِي
وَلِكِنَّنِي حَــاوَلْتُ مَـا إنْ أَتَمَّـهُ ... لِيَ اللهُ لم أَحْفَلْ بِمَحْلٍ وَلاَ مَغْلِ
وَقُلتُ عَسَى يَوْماً كَيوم شَهِـدْتُهُ ... قَديماً لِكَيْمَا يَلْحَقَ الشُّومُ بالثُّكْلِ
أَكُونُ بِهِ قُطْبَ الرَّحَى وَمُدِيْرَهَـا ... بَعَزمٍ عَلَى أَهْلِ الضَّلاَلَةِ وَالْجَهْلِ

ومع أن صلته بالفضل بن محمد بن أبي الحسين ظلت قائمة حتى أعانه على تعقُّب قتلةِ أبيه بإحضار السلاح والمؤ ن من الخليفة العباسي[2]، إلا أن هذه الصلة كان يعتريها ما يعكِّر صفوها بين حين وآخر، ويبدو ذلك في عتاب يبوح به الشاعر لآل الفضل في أثناء قصائده، وربما أعرض عن مدحهم أو ندم عليه ، وقد يشتدُّ في لومهم وتقريعهم حينما يقابلون عتابه بالجفاء والإبعاد . وهذا ما نراه في قصيدته الدالية التي يقول في أولها معاتباً الفضل[3]:

تَجَــافَ عَنِ الـعُتْبَى فَـمَــا الــذَّنْبُ وَاحِــدُ ... وَهَـبْ لِصُــرُوفِ الــدَّهْــرِ مَــا أَنْـتَ وَاجِــدُ
إذَا خَــانَــكَ الأَدْنَــى الَّــذِي أَنت حِــزبُــهُ ... فَــلاَ عَــجَــبــاً إنْ أَسْــلَمَــتْــكَ الأَبَــاعِــدُ

---

(١) الديوان ص ٣٢٢ والمحل: الجدب وخلو الأرض من النبات. والمغل: وجع يصيب بطون الدواب، أو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي حامل. والشوم: مخفف الشؤم وهو ضد اليُمن. والثكل: الموت والهلاك أو فقد الولد.

(٢) انظر الديوان ص ٥٩٤.

(٣) الديوان ص ١٤٠ ويروي الشطر الأخير من البيت الثاني

«فَوَا عجبا إن سَالمتكَ الأَبَاعِدُ»

وأما علاقة ابن المقرب بآل علي بن عبد الله الذين توارثوا الحكم في الأحساء في أغلب الأوقات فإن القطيعة بينه وبينهم قد وصلت إلى حدِّ قيامهم باغتصاب أمواله وأملاكه بل الزجِّ به في السجن، فما أن علت منزلته عند الناس وذاع صيته وظهرت شهرته، مع ما لقيه من الحظْوة عند محمد بن أبي الحسنين حتى سعى به الوشـاةوالحساد عند آل أبي المنصور علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي، وربما كان ولاؤه لآل الفضل ـ وهم يومئذٍ حكام القطيف ـ هو السبب الحقيقي وراء عداوة آل علي له، كما أن من غير المستبعد أن يكون الشاعر قد قام خُفية بالدعوة لآل فضل في الآحساء بهدف توحيد البلاد وإعادتها تحت سيطرتهم كما كان الحال قبل مقتل ابن أبي الحسين. ومهما يكن من أمرفإن شعر ابن المقرب ومدائحه لآل الفضل تثبت أن صلته بهم قد تتعدى مجرد المدح إلى النصرة والولاء مما سبب له الأذى من قبل آل علي بن عبد الله.

والشاعر نفسه يصرح بهذه الحقيقة في عتابه لأحد الأمراء من آل الفضل موضحاً كيف قاسى من أجلهم المصائب، وكيف شقي في سبيل محبتهم مما كان سبباً في اجتياح أمواله ومجاهرة أبناء عمه بعداوته فيقول[1]:

بلى إنَّنِي قَاسَيتُ فِيكُمْ مَصَائِباً تَهُدُّ القُوَى إذْ أَدْرَكَ الثَّأرَ طَالِبُهْ
وَلَوْلاَ هَوَاكُم مَا شَقِيْتُ وَلاَ غَدَا يَصُكُّ بِرِجْلي القَيْدَ مَنْ لاَ أُشَاغِبُهْ
وَلاَ اجْتَاحَتِ الأَعْدَاءُ مَالِي وَلاَ انْبَرَى
يُطَاوِلُنِي مَنْ لَيْسَ تُحْصَى مَعَائِبُهْ
وَلاَ نَبَحَتْ شَخْصِي كِلاَبُ ابْنِ مَاجِدٍ
غِلاَباً وَلاَ بَالَتْ عَلَيَّ ثَعَالِبُه

ولقد حاول الشاعر أول الأمر أن يدفع الأذى المرتقب عن نفسه حين كثرت الوشايات ضده بمحاولته التقرب إلى الأمير أبي المنصور علي بن محمد فمدحه

(١) الديوان ص ٦١ وابن ماجد: هو ابن عمه الأمير محمد بن ماجد بن علي (انظر الديوان ص ٣٠٥ الحاشية).

بقصيدة مطلعها [1]:

صَدَّتْ فَجَذَّتْ حَبْلَ وَصْلِكَ زَينَبُ   تِيْهاً وأَعْجَبَهَا الشَّبَـابُ المُعْجِبُ

وقد جاء في مقدمة ديوانه [2]: «وما كان من مقاله في أبي المنصور علي بن عبد الله بن علي [3]، فهو مصانعة منه واستدفاع، وكف لشرِّه واستمناع، ولم يكن مادحاً له على إحسان ولا على ثقة من الأمان».

ولكن مدائحه ومداراته لآل أبي المنصور لم تشفع له أو تنفعه عندما تولى حكم الأحساء الأمير محمد بن علي الذي أمعن في ظلم الشاعر، واستولى على ضياعه وماله، وسجنه مدة ثم أطلقه. فقد ورد في مقدمة الديوان أن هذا الأمير «لما ملك الأحساء وهي البلدة التي بها وطنه وفيها أملاكه وسكنه، اجتاح جميع ماله من طريف وتالد وحاز الصامت والناطق إرضاء للعدو والحاسد، ولم يبق له صفراء ولا بيضاء، ولا راعى فيه حق النسب والولاء، وأخذ الجميع بلا حق وسبب، ثم لم ينفعه ما صنع بثرائه وسلب نعمته وغنائه. بل ضيَّق عليه في السجن والأصفاد، وجعل على الأبواب لحفظه الحراس والأرصاد، وبالغ في مكروهه وأذاه، ولم يكن لأمر جنته يداه، وإنما وشى به حُسَّاد بيته، حرصاً على إطفاء فضله وصيته، وسعى به آل أبي منصور بلا دليل، فأقام في السجن مدة، وأفرج الله عنه بعد جهد وشدة، ومكث في البلاد على الغاية من انكسار القلب، لما أولاه من الأذى أهل القرب» [4].

(1) الديوان ص ٨٤.

(2) الديوان ص ٦.

(3) أبو المنصور علي بن عبد الله بن علي لم يكن معاصراً لابن المقرب، وقد قُتل في بداية عهد الدولة العيونية أوائل القرن السادس الهجري، وهو ابن مؤسس الدولة (انظر ما تقدم ص ٣٧). ومن المؤكد حصول التباس بينه وبين حفيده أبي المنصور علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي لاتفاقهما في الاسم والكنية، وربما سقط باقي الاسم من هذه العبارة من الناسخ، وقد ورد اسم هذا الأمير كاملاً في الصفحة ٨٤ من ديوان الشاعر في معرض مديحه له، وهو ما يؤكد معاصرته لابن المقرب.

(4) الديوان ص ٦.

وكان من نتاج ذلك أن ظل الشاعر محروماً يائساً ينتقل بين البحرين والعراق، وكلما تسلَّم الحكم أميرٌ عيوني جديد راح يستعطفه ويتقرب إليه علَّه يرد مظلمته ويعيد أملاكه وأمواله. فقد خرج إلى العراق ومكث فيه أشهراً معدودة[1]، ثم عاد إلى البحرين بعد أن تولى الأمير محمد بن ماجد بن محمد بن علي حكم الأحساء، فمدحه بقصيدة مطلعها[2]:

خُذُوا عَنْ يَمِينِ المُنْحَنَى إِيُّهَا الرَّكْبُ　　لِنَسْأَلَ ذَاكَ الحَيَّ مَا صَنَعَ السِّرْبُ

وفيها يستعطفه ويناشده أن يرد إليه أمواله، وأن لا يضطره إلى مديح رجال من غير أسرته[3]:

فإنَّ امْتِدَاحِي غَيْـرَكَمُ كَهِجَائِكُم　　وَذَلِـكَ مِنِّي إنْ تَحَـرَّيْتَـهُ عَتْبُ

ويتمنى أن يصون الأمير وجهه عن ذلِّ المسألة حفاظاً على كرامته وعزة نفسه فهو حريٌّ أن يرد إليه الكثير ممّا سلب منه[4]:

فَصُنْ حُرَّ وَجْهِي عَنْ سُؤَالٍ فَإِنَّهُ　　عَلَيَّ وَلَو عَاشَ ابْنُ زَائِدَةٍ صَعْبُ
وَرُدَّ كَثِيـراً مِنْ يَسِيرٍ تَقُتْ بِـهِ　　فِرَاخاً قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى رَبْعِهَا الجَدْبُ

ثم إن الأمير محمد بن ماجد وعده أن يرد بعض أملاكه إليه[5] بعد أن سمع

---

(١) انظر الديوان ص ٧ من المقدمة.

(٢) الديوان ص ٢٦ وانظر مقدمة الديوان ص ٧.

(٣) الديوان ص ٣٤.

(٤) الديوان ص ٣٥ وابن زائدة: هو معن بن زائدة الذي اشتهر بكرمه وجوده.

(٥) انظر الديوان ص ٣٠٥.

قصيدته تلك[١]. وظل ابن المقرب يطمع أن ينصفه الأمير فكان يستنجزه الوعد ويتقرب إليه ببعض مدائحه ومنها قصيدته التي يقول في مطلعها[٢]:

أَمِنْ دِمْنَـةٍ بَينَ اللِّوَى وَالدَّكَـادِكَ شُغِفْتَ بِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ

ولكن الأمير يعرض عن ابن المقرب بعد أن صوَّر له أعداء الشاعر أنه يطمع بأكثر من رد الأموال، وزينوا له أن يبعده ويظهر جفوته، فخاف على نفسه وخرج إلى القطيف[٣]قاصداً أميرها الفضل بن محمد ومدحه بإحدى قصائده، فلم ينل منه ما يؤمل وعاد إلى الأحساء! ولم يعد يناشد الأمير محمد بن ماجد بشأن استرداد أملاكه وأمواله[٤].

وتقول إحدى الروايات[٥] إن الأمير محمد بن ماجد بن محمد هو الذي اغتصب أملاك ابن المقرب وعقاراته، وليس محمد بن علي بن محمد وكلاهما كان يكنى بأبي ماجد[٦]. وقد أشار ابن المقرب ضمن الأبيات التي سبق الاستشهاد بها إلى الأمير محمد بن ماجد بقوله[٧]:

وَلَا نَبَحَتْ شَخْصِي كِلَابُ ابْنِ مَاجِدٍ غِـلَابـاً وَلَا بَالَتْ عَلَيَّ ثَعَـالِبُـهْ

ولكنّ اسم الأمير محمد بن علي ورد في الديوان أكثر من مرة على أنه هو الذي

---

(١) انظر الديوان ص ٨ من المقدمة.

(٢) انظر الديوان ص ٨ من المقدمة و ٣٠٥.

(٣) انظر الديوان ص ٨ من المقدمة.

(٤) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.

(٥) انظر الديوان ص ٣٠٥ (الحاشية).

(٦) انظر الديوان ص ٣٣ و٣٠٥ و٣١٢.

(٧) انظر ما تقدم ص ٦٥ والبيت في ديوانه ص ٦٢.

اغتصب أموال الشاعر وأملاكه [١]. كما أن سياق القصيدة البائية التي يستعطف فيها ابن المقرب الأمير محمد بن ماجد يدل على أنها قيلت بعد رجوعه من العراق [٢]، وكان قد رحل إلى العراق بعد خروجه من السجن.

وأما تخصيص الشاعر لابن ما جد بالذكر في البيت السابق دون محمد بن على فلأنه قد لقي منه الإهانة والمماطلة في إنجاز الوعد، والأذى من حاشية وأعوانه، والوشاية من جلسائه.

وربما كان ذلك أشد إيلاماً على نفس ابن المقرب مما فعله الأمير محمد بن علي. ولقد مكث الشاعر في الأحساء بعد عودته من القطيف معرضاً عن الأمير محمد بن ماجد يائساً من إنصافه وعدله. ثم لم يلبث محمد بن ماجد أن قُتل على يد عمه أبي القاسم محمد بن مسعود بن محمد بن علي الذي تولى الحكم في الأحساء [٣]. فمدحه ابن المقرب، ثم أعرض عنه بعدما بدر منه من الأذى لقرابته، وتسليمه أملاكهم إلى أعدائهم بعد أن ضعف حكمه، وقد عاتبه الشاعر وهو يتحسر على ما وصل إليه حال عشيرته بقصيدة مطلعها قوله [٤]:

بعْضُ الَّذِي نَالَنَا يَا دَهْرُ يكْفِينَا   فَـامْنُنْ بِبُقْيَا وَأَوْدِعْهَـا يَـداً فِينَـا

ثم ملَّ المقام في بلده وخرج إلى العراق مرة أخرى، وبعد خروجه تولى حكم الأحساء الأمير علي بن ماجد بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي [٥]، فعاد ابن المقرب وامتدحه لكن هذا الأمير لم يلبث أن خرج من البلاد، وتولَّى الإمارة بعده الأمير مقدم بن غُرير بن الحسن بن شكر بن علي بن عبد الله بن علي. فأعرض عنه

---

(١) انظر الديوان ص ٣٠٥ وص ٦ من المقدمة.

(٢) انظر الديوان ص ٢٦ وتتضمن هذه القصيدة محاورة بينه وبين امرأة عراقية يذكر فيها غربته في بغداد

(٣) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.

(٤) الديوان ص ٦١١.

(٥) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.

ابن المقرب، ولم يمتدحه بعدما رأى من سوء خلقه، وترك الأحساء إلى العراق [1].
وكانت الدولة العيونية حينذاك في سنواتها الأخيرة حين تعاظم النزاع بين أمرائها، ويئس الشاعر من إصلاح ما أفسدته الأيام بينه وبينهم، وهو الذي ينكر ما فعلوه من تفريط في حقوق أسرته بتسليمهم الضياع والأملاك والأموال إلى أعدائهم في سبيل المحافظة على عرش الإمارة [2]. ولقد كان يلومهم وينصحهم فلا يستمعون لنصحه ومشورته حتى يئس من صلاح أمرهم ولم يجد العزاء والسلوة إلا في الرحيل والبعد عنهم [3]:

كَمْ لُمْتُ قَومِي لَا بَلْ كَمْ أَمَرْتُهُمُ ... بِحَسْمِ دَاءِ العِدَا فِيهِمْ فَلَمْ أُطَعِ
فَلَمْ أَجِدْ بَعْدَ يَأْسِي غَيْرَ مُرتَحِلِي ... عَنْهُمْ لَهَمٍّ أُسَلِّيهِ وَمُتَّدَعِ

ولم يعد الشاعر يسعى لاسترجاع أمواله وأملاكه المسلوبة فقد ذهبت أموال عشيرته كلها إلى أعداء دولته، ولو ردَّ إليه أحد الخلفاء أو الأمراء ظُلامته وأنصفه ممّا حلَّ به من ظلم على أيدي بني عمه فإن الأحوال في الأحساء عامة قد ساءت وانتقل النفوذ منها إلى البادية وأعداء الأسرة العيونية، فلم تعد الحياة فيها تحلو لشاعر ذاق منها العذاب فزهد بها وراح يبث همومه وأحزانه في شعرٍ شجي حافل باللوعة والأسى.

٥ ـ رحلاته واتصاله برجال عصره:

إذا كان الحيف قد لحق بابن المقرب باستيلاء بني عمه على أمواله وأملاكه ثم سجنه وإهانته فإن ذلك قد حمله على التنقل والرحلات، ودفعه إلى المسير إلى العراق أكثر من مرة في جولات أكسبته التعرف على رجال العلم والأدب في بغداد والبصرة والموصل، ومكنته من دخول بلاط الخلفاء، وإنشاد أشعاره بين أيديهم ولو

(١) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.
(٢) انظر ما تقدم ص ٤٢.
(٣) الديوان ص ٢٧٨.

لم يقم بهذه الرحلات لَمَا ذاعت شهرته ولما عرفه أمثال ابن الشعَّار الموصلي وياقوت الحموي وأبي البقاء العكبري[1] وغيرهم ممن استمعوا إلى شعره فشهدوا له بالسبق والحذق وكتبوا عنه.

ويبدو أن الشاعر لم يخرج إلى العراق إلا بعد الاستيلاءعلى أمواله في الأحساء، وخروجه من السجن بعد أن ضاقت به الحال وكره المقام في بلده[2]:

يا صَاحِ قَدْ أَزِفَ الرَّحِيلُ فَقَرِّبَنْ ... لِلسَّيرِ كُلَّ شِمِلَّةٍ وَجَنَاءِ

مَا عُذر حُرٍّ في المُقَامِ بِبَلْدَةٍ ... آسَادُهَا ضَرْبٌ مِنَ المِعْزَاءِ

وبِجَانِبِ الزَّوْراءِ لي مُسْتَوطَنٌ ... إنْ شِئْتُ أو بالمَوصِلِ الحَدْبَاءِ

يقول كاتب مقدمة الديوان بعد أن ذكر مكوثه في السجن ثم الإفراج عنه[3]: «ثم خرج من الأحساء إلى ناحية العراق، وكان بعض ما لقي منهم يوجب التنائي والفراق، فمكث بمدينة السلام أشهراً معدودة، على طريقةٍ من الخير مرضية محمودة لم تنكرها نفسه الأبية، وهمته العليّة اللوذعيّة ولا تعرض لأحد بمديح».

ولو أردنا تحديد تاريخ رحلته الأولى هذه إلى بغداد فإننا لن نجد ما يساعد على ذلك، إلا أن إحدى قصائده تدل على مروره بالبصرة سنة ٦٠٤ هـ بعد انحداره من بغداد. فقد مدح أمير البصرة شمس الدين باتكين بلاميةٍ مطلعها[4]:

سَمَا لَكَ مِنْ أُمِّ العُبَيدِ خَيَالُ ... وَدُونَ لِقَاهَا أَجْرُعٌ وَسَيَالُ

---

(١) تقدمت ترجمة ابن الشعار ص ٥٩ وياقوت ص ٦٠، أما العكبري فهو محب الدين عبد الله بن الحسين العكبري نسبة إلى عبكرا بلدة على دجلة، وهو عالم بالأدب واللغة والفرائض والحساب، وقد كفَّ بصره وهو صغير فكان يملي مؤلفاته على تلاميذه، توفي ببغداد سنة ٦١٦ هـ (انظر الأعلام للزركلي ٤ /٢٠٨).

(٢) الديوان ص ١٨. والشمِلَّة: الناقة السريعة.

(٣) الديوان ص ٧ من المقدمة.

(٤) الديوان ص ٤٣٤ وشمس الدين باتكين: هو مملوك أم الخليفة الناصر لدين الله، وهو من أصل أرمني، كان أميراً للبصرة ثم نائباً للمستنصر بالله في إربل ولما أخذ التتر إربل في الدفعة الأولى سنة ٦٣٤ هـ =

وقد ورد في التقديم لهذه القصيدة: «وقال أيضاً يمدح الأمير شمس الدين أبا شجاع باتكين وذلك عند انحداره من مدينة السلام سنة ٦٠٤هـ».

وإن ممّا يرجح كون رحلته الأولى إلى بغداد كانت في أوائل سنة ٦٠٤ هـ أو في سنة ٦٠٣ هـ أن آخر قصيدة مدح بها الأمير محمد بن أبي الحسين قبل مقتله هي في سنة ٦٠٢هـ[١]. ومعلوم أن ابن المقرب كان على صلة قوية بهذا الأمير محبوباً عنده[٢]، ولم يلحقه الأذى من بني عمه إلا بعد مقتل ابن أبي الحسين وابتداء الصراع بين الأمراء العيونيين[٣].

وإذن فإن أول من كانت للشاعر معهم صلة من أعيان العراق هو أمير البصرة شمس الدين باتكين، وقد توطدت هذه الصلة بينهما وتوثقت في رحلاته التالية إلى العراق خلال إقامته في البصرة أو مروره بها في ذهابه إلى بغداد ومجيئه منها. ولم تكن علاقته بأحدٍ من رجالات العراق أوثق منها بأمير البصرة، فقد خصَّه بالكثير من مدائحه التي يضمها ديوانه[٤] وكان يرسل إليه بعض قصائده في بعض حاجاته، فقد أرسل إليه مرة من الأحساء إحدى قصائده يستعديه على رجل بصري يدعى قمر بن محمد خدع رجالاً من أهل البحرين كان الشاعر قد أوصاه بمساعدتهم في قضاء حوائجهم بها[٥]. وكتب إليه مرة قصيدة يشكو فيها ابن الدُّبَيثي ضامن المكوس في واسط لأخذه مكساً باهظاً على حديد انحدر به ابن المقرب من بغداد[٦]. وقد

= رجع إلى بغداد ومات بها سنة ٦٤٠ هـ وقد سجل ابن المقرب بشعره الكثير من إصلاحاته في البصرة.

(انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ٥٠٤)

(١) انظر الديوان ص ٢٠٧

(٢) انظر ما تقدم ص ٧١.

(٣) انظر ما تقدم ص ٧٢.

(٤) انظر الديوان القصائد رقم ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٨، ٦١، ٦٥، ٧٧، ٨٤، ٩٦.

(٥) انظر الديوان ص ٢٤٧.

(٦) انظر الديوان ص ٢١٢ وابن الدُّبَيثي: هو أبو العباس أحمد بن جعفر بن أحمد الدبيثي الواسطي =

غضب الشاعر من ظلم ابن الدبيثي له في فرض هذا المكس فهجاه هجاءً مرّاً قاسياً[1] ويستدل بعض النقاد [2] بهذه الحادثة على أن ابن المقرب قد اشتغل بتجارة الحديد، إذ جلبه ذات يوم لبيعه على ما يفترض في البحرين وأن رحلاته التجارية قد مكنته من الاتصال بعلية القوم. ولعله قد امتهن التجارة وجرَّ بها عندما عضته الحاجة، ثم فشل فيها فاضطر إلى الاستعانة على حوائجه بمدائحه لبعض معاصريه.

أمَّا الرحلة الثانية التي قام بها ابن المقرب إلى العراق فهي رحلة سياسية أو سفارة إلى بلاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله، يطلب منه العون والمدد لابن عمه الفضل بن محمد بن أبي الحسين حتى يتعقَّب قَتَلَةَ أبيه، ويُستدل على تاريخ هذه الرحلة بالمقارنة بين تاريخ قصيدته البائية التي قالها ببغداد سنة ٦٠٥ هـ ومطلعها[3]:

أَبَى الدَّهْرُ أَنْ يَلْقَاكَ إلاّ مُحَارِبَا فَجَرِّدْ لَهُ سَيْفاً مِنَ العَزْمِ قاضِبَا

وبين تاريخ نونيته التي يرثي بها ابن عمه في طريق عودته منها سنة ٦٠٦ هـ ومطلعها[4]:

أظُنُّكَ خِلْتَ الشَّوْقَ والنَّأْيَ أَبْكَانِي
فَأَقْبَلْتَ نَحْوِي يَابِسَ الدَّمْعِ تَلْحَانِي

= ، ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفي سنة ٦٢١ هـ ، أديب له نظم ونثر وعلم بالأخبار والسير، كان ضامن المكوس في واسط ، فظلم الناس فعزل عنها (انظر تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني ٣٢٢).

(١) انظر الديوان ص ٢٢٤ و٥٠٥.

(٢) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب للدكتور صلاح نيازي ص ١١، ٨٤و١١٠.

(٣) الديوان ص ٣٥.

(٤) الديوان ص ٥٩٤ .

وقد ورد في التقديم لهذه القصيدة[1] : «وقال يرثي ابن عمه مذكور بن عبد الله ابن منصور، وكان قد قتله رجل من الجريش سنة ست وستمائة ، وكان غائباً ببغداد فبلغه خبر قتله عند وصوله أرضاً من ناحية القطيف، وقد انحدر بالخزانة التي أمدَّ بها ناصر الدين فضل بن محمد بن أبي الحسين على حرب القطيف، أتـاه يستمِدُّه» .

وقد عاد الشاعر بعد هذه الرحلة إلى الأحساء، وكان أميرها محمد بن ماجد الذي وعده بإعادة بعض أمواله وأمـلاكه ولكنه لـم يفعل[2]، ثم رجع إلى القطيف خائفاً على نفسه، وقصد الأمير فضل بن محمد [3] لكن علاقته به كانت قد ضعفت فعـاتبه ببعض قصائده، ثم عاد إلى الأحساء [4] ومكث بها مدة وهو يأمل صلاح، الأمور في دولة بني عمه ، إلا أنها ساءت أكثر من ذي قبل بعد مقتل الأمير محمد بن ماجد، ونهوض أبي القاسم محمد بن مسعود بالأمر، وكان أبو القاسم غير محمود السيرة[5]، فعزم ابن المقرب على الخروج من الأحساء في رحلته الثالثة إلى العراق.

وتدل مقدمة قصيدته التي مدح بها الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومطلعها[6] :

أَمَـارَاتُ سِـرِّ الحُبِّ مَـالاَ يُكَتَّمُ وَأَبْيَنُ شيء مَـا يُـجِنُّ المُتَيَّـمُ

على أن هذه الرحلة كانت سنة ٦١٤ هـ. ويؤكد هذا التحديد لرحلته هذه ما ذكره محب الدين بن النجار ـ وهو مؤرخ معاصر للشاعر ـ من أنه قد التقى به في

---

(١) الديوان ص ٤ ٥٩.

(٢) انظر ما تقدم ص ٧٥ .

(٣) انظر ما تقدم ص ٧٦ .

(٤) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.

(٥) انظر الديوان ص ٩ من المقدمة.

(٦) الديوان ص ٤٤٨.

بغداد وسمع منه، وحدد إقامته فيها بقوله[1] : «قدم علينا بغداد وذكر لنا أنه من ربيعة الفرس، وأقام عندنا سنة عشرة (كذا ولعلها ثلاث عشرة)[2] وسنة أربع عشرة أو بعضها وسمعنا منه كثيراً من شعره».

وفي هذه السنة (٦١٤ هـ) التقى الشاعر ببغداد بأحد رجال الدولة العباسية وهو فخر الدين أبو عبد الله المحسن بن هبة الله الدَّوَامي. وكان قد أسدى إليه معروفاً فمدحه بإحدى قصائده [3]. كما التقى بالشيخ محب الدين الواسطي أحد أئمة الشافعية في بغداد، فمدحه وودعه بإحدى قصائده عند خروجه إلى الحج [4].

وفي سنة ٦١٧ هـ قام ابن المقرب برحلته الرابعة إلى العراق[5] وقيل سنة ٦١٨هـ [6] وكان هدفه لقاء الملك الأشرف موسى بن العادل في الموصل وديار بكر.

---

(١) التكملة لوفيات النقلة للمنذري ٦ /٤٥ ضمن تعليقات الأستاذ بشار عواد نقلا عن تاريخ بغداد لابن النجار، وابن النجار: هو محبُّ الدين محمد بن محمود البغدادي الشافعي المعروف بابن النجار، محدث ومؤرخ وأديب، ولد ببغداد سنة ٥٧٨ هـ وتوفي بها سنة ٦٤٣ هـ، قام برحلة طويلة في عدد من الأمصار استمرت ٢٧ سنة. من مؤلفاته: تاريخ بغداد وهو ذيل على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والأزهار في أنواع الأشعار. (انظلا الأعلام للزركلي ٧ /٣٠٧).

(٢) هذه العبارة من تعليقات الأستاذ بشار عواد. وليس في حوادث الأحساء ما يدل على قيام ابن المقرب برحلة إلى العراق سنة ٦١٠ هـ. ولو كان ابن النجار يعني هذه السنة لقال (عشر) وليس (عشرة) مما يرجح سقوط كلمة (ثلاث).

(٣) انظر الديوان ص ٢٨٣. وتدل أبيات القصيدة من ٣٤ إلى ٣٧ ص ٢٨٧ على أن الدَّوَاميَّ كان من ولاة الناصر لدين الله مسئولا عن بيت المال.

(٤) انظر الديوان ص ٥٦٩ ومحب الدين الواسطي: هو عبد القادر بن داود بن أبي نصر الواسطي، أثنى عليه ابن النجار وقال: كانت له معرفة تامة بمذهب الشافعي أصولاً وفروعاً وله يد باسطة في الفرائض والحساب، ومعرفة حسنة بالأدب، وكان من الورع والزهادة والديانة والتواضع على طريقة عُرف بها واشتهرت عنه، سمعت منه شيئاً في الحديث، وتوفي سنة ٦١٩ هـ.

(انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥ /١١٨).

(٥) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ٤/١٨١.

(٦) انظر الديوان ص ١٠ من المقدمة.

وقد أعد قصيدة يمدحه فيها مطلعها[1]:

أَبَـرُّ شُهُودِي أَنَّنِي لَـكَ عَاشِقُ سُهَادِي وسُقْمِي والدُّمُوعُ الدَّوَافِقُ

ولكنه لم يتمكن من لقاء الملك الأشرف الذي توجه إلى مصر لقتال الصليبيين، وفي الموصل التقى ابن المقرب بواليها بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي [2]، ومدحه ونال في مجلسه الإكرام. جاء في مقدمة الديوان[3]: «وخرج عن قرب قاصد العراق في عزمه المسير إلى الموصل وديار بكر، ومقصده لقاء الملك الأشرف ابن العادل. فلما وصل إلى الموصل تحيّر عن الأشرف لأنه نهض هو وإخوته وجنوده إلى لقاء الإفرنج[4] وقد نزل دمياط فبعدت الشقة عليه، ولم تسمح نفسه بالمضي إليه، وحصل بالموصل فامتدح واليها بدر الدين لؤلؤا ولم يمتدح أحداً قبله بطلب نائل، ولا قام على باب والٍ في زي مسترفد وسائل، فأجازه إجازة الأفاضل الكرام، وخصَّه بفنون الإعظام والإكرام، ورجع عنه شاكراً، ولما أسدى إليه ذاكراً، ونفسه تنازعه الوصول إلى الأشرف والحضور عنده لِمَا بلغه عنه من الولوع بذكره، والحرص على أن يحظى بمدح من شعره، وقد كان وروده الموصل سنة ثمان عشرة وستمائة».

---

(١) الديوان ص ٢٩٢ والملك الأشرف: هو أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين بن أبي بكر بن أيوب، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٣٥ هـ مَلَكَ بلاد الشام ومعظم الجزيرة، وكان مؤيداً في حروبه محبوباً إلى الناس.

(انظر وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق إحسان عباس ٥ / ٣٣٠)

(٢) هو بدر الدين لؤلؤ الأرمني الأتابكي، مملوك نور الدين أرسلان صاحب الموصل، استقلَّ بالحكم فيها بعد وفاة القاهر مسعود بن أرسلان سنة ٦١٥ هـ « وكان صارماً شجاعاً مدبراً خبيراً، توفي سنة ٦٥٦ هـ وقد نيَّف على الثمانين وانخرط (كذا ولعلها انفرط) نظام بلده من بعده). (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥ / ٢٨٩).

(٣) ص ١٠.

(٤) قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٥ / ٣٣١: «ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لإنجاد الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه أخوه الملك المعظم ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه، فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم».

والتقى ابن المقرب في الموصل بياقوت الحموي الذي يقول[1]: «لقيته بالموصل في سنة ٦١٧ هـ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان وَنَفَقَ فأرفدوه وأكرموه». وفي الموصل أيضاً التقى الشاعر بالصاحب كمال الدين بن أبي الكرم محمد بن علي بن مهاجر أحدبني قيس بن ثعلبة، ومدحه بلاميتين[2] نظم إحداهما حينما منعه الحاجب عن الدخول على كمال الدين واعتذر له بعد ذلك.

ويذكر ابن الشعَّار الموصلي أن ابن المقرب كان في بغداد سنة **٦٢٣ هـ** فيقول[3]: «شاهدته بمدينة السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة وأنشدني الكثير من قوله» ثم يقول: «وأنشدني لنفسه في التاريخ المقدم ذكره:

إلاَمَ أُوردُ عَتْبــاً غيــرَ مُسْتَمَــعِ ... وأُنْفِقُ العُمْرَ بَينَ اليَأْسِ والطَّمَعِ[4]»

ويؤكد خبرَ سفره إلى بغداد في هذه السنة مديحه للخليفة العباسي المستنصر بالله الذي تولى الخلافة سنة **٦٢٣** هـ في بائتيه التي يشكو فيها للمستنصر ما وصلت إليه حاله، ويلمِّح له بما حل به من ظلم بمصادرة أمواله، ولعله قد ذهب إلى بغداد لهذه الغاية بعدما سمع من عدل المستنصر وإنصافه، وهو يشير إلى ذلك بقوله: [5]

وكَمْ أَخِي ثَـرْوَةٍ أَوْدَى بِثَـرْوَتِـهِ ... ظُلْمُ الـوُلاَةِ وتَأْوِيـلاَتُها الكُـذُبُ

أَعَـادَ ثَـرْوَتَـه مِنْ غَيْرِ مَسْــأَلَـةٍ ... إليهِ عَفْواً وقد مَرَّتْ لَهَـا حِقَبُ

تلك هي رحلة ابن المقرب الخامسة إلى العراق، وهي الأخيرة على أغلب

---

(١) معجم البلدان ٤/١٨١.

(٢) انظر الديوان ص ٣٩٣ و ٤٢٧.

(٣) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ /١٢٦ (مخطوط)

(٤) هذا البيت ضمن قصيدة كاملة ؛ انظر ديوانه ص ٢٧٢.

(٥) الديوان ص ٩٤.

الظن، إذ ليس لدينا ما يدل على قيامه برحلة سادسة إلى العراق أو غيره، كما أن حياته لم تمتد بعد رحلته الأخيرة هذه سوى سنوات قليلة مما يضعف احتمال قيامه برحلات أخرى.

ولقد أكسبت هذه الرحلات ابن المقرب شهرة وصيتاً ذائعاً، وشهد له علماء بغداد بالسبق والمعرفة والنبوغ. فهو كما يقول ابن الشعار الموصلي[1]: «أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين، أقرَّ له بالحذق أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم».

ومن هؤلاء الذين أقروا له بالحذق وشهدوا له بالسبق من أئمة العراق أبو البقاء محب الدين العكبري شارح ديوان المتنبي الذي يعتز ابن المقرب بشهادته له فيقول[2]:

لَقَدْ تَقَدَّمْتُ سَبْقاً مَنْ تَقَدَّمَنِي ... سِناً وأَدْرَكَ شَأْوِي فَارِطَ الأَوَلِ

بَذَاكَ قُدوَةُ أهلِ العِلمِ قَاطِبَةً ... أَبُو البَقَاءِ مُحِبُّ الدِّينِ يَشْهَدُ لِي

إلى أن قال:

ولَمْ يَقُلْ وَحدَهُ ما قَالَ بَلْ شَهِدَتْ ... بِهِ الأَفَاضِلُ مِنْ بَغْدَادَ عَنْ كَمَلِ

ولئن كان شاعرنا قد اكتفى بالسلوة بهذه الرحلات عن خسارة المال، وفراق الأهل والولد، والغربة عن الوطن، فإنه كسب بها معرفة هؤلاء الأعلام وأمثالهم من رجالات عصره، كما كسب الأدب ثروة كبيرة من شعره في ألوان مختلفة من فيض قريحته.

---

(١) قلائد الجمان في شعراء الزمان ١٢٦/٥.

(٢) الديوان ص ٣٨٢.

٦ ـ ثقافته وشخصيته:

علي بن المقرب شخصية أدبية لا يستطيع الباحث أن يتبيَّن معالمها من كلام المؤرخين، لأن ما وصل إلينا عن هذا الشاعر في كتب التاريخ والتراجم قليل جداً، وليس في هذا القليل ما يوضح ملامح شخصيته. كما أن العوامل المؤثرة في حياته في سِنِيِّ عمره المبكر ليست معروفة لدينا، وكل ما ورد في كتب التراجم عن ابن المقرب في هذا المجال هو لمحات عابرة لبعض صفاته مثل حافظته القوية وإعجابه بشعره الذي يدل عليه ترديده له من غير ملل ولا سآمة كما وصفه ابن الشعار بقوله[1]: «ومعظم شعره يحفظه ويردده، ولم يتوقف في إيراده، ولا يجد بذلك سآمة ولا ضجراً». أو بعض الخِلال التي وصفه بها كاتب مقدمة ديوانه من كرم النفس والنزاهة، والعفة والتمسك بأهداب الدين، وحسن الخلق والإنصاف، والبعد عن الرذيلة، وإباء النفس، وحب الإحسان إلى القريب والبعيد[2].

وإذن.. فليس أمامنا إلا أن نستقرىء شعر ابن المقرب لنعرف المعالم البارزة لشخصيته. وربما كان ذلك أدعى للقبول عند من ينشد الحقيقة، مع أن بعض الأبيات التي سيرد الاستشهاد بها تدخل في باب الفخر، مما لا يعطينا صورة واضحة لصفاته لأن كثيراً من الشعراء يفتخر في شعره ببعض المناقب التي يدَّعيها أو يبالغ فيها.

وسوف نحاول التعرف أولا على ثقافته لما لها من صلة قوية في بناء شخصيته والتأثير على أخلاقه وسلوكه.

يدل شعر ابن المقرب على اتساع أفقه الفكري وثرائه الثقافي، فالقارىء لديوانه لابد وأن يدرك مدى سعة اطلاعه وقوة مداركه، وشمول معارفه. وفي مقدمة

(١) قلائد الجمان في شعراء الزمان ١٢٦/٥.

(٢) الديوان ص ٥ من المقدمة.

هذه المعارف ثقافته القرآنية كما تدل عليها استشهاداته بأخبار الأمم الماضية في القرآن الكريم كقوله[1]:

فَقَدْ بَاعَتِ الأَسْبَاطُ قَبْلِي أَخَاهُمُ
بِبَخْسٍ وكُلُّ منهمُ فِيهِ زَاهِدُ

أو قوله[2]:

وَهَيْبَةُ لَوْ سُلَيمَانُ النَّبِيُّ أَتَى بِهَا الشيَاطِينَ أَهْلَ المَسِّ والَّمَمِ
لأوغَلُوا فِيْ البِنَاءِ المُقْرَنِينَ لَهُ والغَوصِ أَوْ تُبْعَثُ المَوتَى مِنَ الرِّمَمِ

أو قوله[3] مقتبسا بعض ألفاظ القرآن الكريم[4]:

مُحْيِي البِلَادِ وَقَدْ أَشْفَتْ عَلَى جُرُفٍ
هَارٍ وَمَانِعُهَا بِالبِيْضِ وَالأَسَلِ

ومن هذه المعارف أيضاً ثقافته التاريخية ومعرفته الواسعة بأيام العرب ووقائعها كما في قوله[5]:

عَوْدٌ عَنِ اليَوْمَيْنِ يُخْبِرُ صَادِقاً وَعَنِ الثَّلاثَةِ وَالكُلَابِ الأَوَّلِ
وَالشَّيِّطَيْنِ ولَعْلَعٍ وَأُوارَةٍ وَحِمَى ضَرِيَّةَ والنِّبَاجِ وَثَيْتَلِ

ومعرفته بأسماء أعلام العرب ومشاهيرهم في الجاهلية والإسلام وما جرى في

(١) الديوان ص ١٤٣ وانظر الآية رقم ٢٠ من سورة يوسف.

(٢) الديوان ص ٥٥٦ وانظر الآية رقم ٣٧ من سورة ص.

(٣) الديوان ص ٣٨٦ وفي ديوانه أمثلة أخرى ص ١٢٥ و١٧٧ و٢٠٩.

(٤) انظر الآية ١٠٩ من سورة التوبة.

(٥) الديوان ص ٤١٧ وسيأتي ذكر هذه الأيام ص ٣٢٦

أيامهم من أحداث وقصص. وتشتمل قصيدة واحدة فقط من قصائده وهي ميميته التي يرثي فيها صديقاً له ومطلعها:(١)

أَيْدِي الحَوَادِثِ في الأَيَّامِ وَالأُمَمِ   أَمْضَى مِنَ الذَّكَرِ الصَّمْصَامَةِ الخَذِمِ

على أكثر من خمسة عشر عَلَماً أو حدثاً تاريخياً يدل تعداده لها أو تفصيله فيها أحياناً على ثقافة تاريخية واسعة(٢).

وهو متبحِّر أيضاً في اللغة العربية، متمكن من أسرارها ودقائقها ومفرداتها كما يبدو ذلك من الاطلاع على أي قصيدة من قصائده. ولعله قد درس النحو والصرف دراسة مفصلة كما يستظهر ذلك من قوله(٣):

تَرَى أَنَّ أَفْعَالَ اللَّيَالِي الَّتِي جَرَى   لَنَا شَوْمُهَا صَارَتْ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَا

ثم إن ظاهرة استعماله لغريب اللغة في شعره تؤكد تبحره في اللغة العربية وتمكنه منها(٤).

وهو ملمٌّ بأنساب الخيل وأصولها كما في قوله(٥):

نِتَاجُ عُمَيْرٍ والضُّبَيْبِ وَكَامِلٍ   وَذَاتِ نُسُوعٍ وَالنَّعَامَةِ وَالخَطْرِ

---

(١) الديوان ص ٤٨٣ والذكر: السيف الحاد المتين، والصمصامة: السيف الذي لا ينثني، والخذم: القاطع.

(٢) انظر أمثلة أخرى في ديوانه ص ١٢٥ و١٣٨ و١٤٢ و١٥٣ و١٥٦ و١٨٠ و١٨٥ و١٩٥ و ١٩٩ و ٢٠٣ و ٢٢١ و ٢٢٣ و ٢٤٢ و ٣١١ و ٣٨٧ و ٤٠١.

(٣) الديوان ص ٣٦٨.

(٤) انظر الديوان القصيدة رقم ١٦ والقصيدة رقم ٤٧

(٥) الديوان ص ١٩٩.

وقوله (١):

نِتَاجُ ابْنِ حَلَّابٍ وَقَيْدٍ وَلَاحِقٍ ... وغلُّ المَذَاكِي كَامِلٍ وعُقَالِ

وقوله (٢):

مُتَمَطِّرٍ سَامِي التَّلِيدِ مُقَابَلٍ ... بَيْنَ النَّعَامَةِ والحَرُوْنِ وقُرْزلِ

كل ذلك يعطي دلالة واضحة على أن ابن المقرب كان ذا حظ كبير من الثقافة في شتى العلوم والفنون. وبالتالي فإن هذا يدل على أنه تلقى في صباه تعليماً جيداً أهَّله لاكتساب هذه الثقافة والتزود من سنهلها العذب.

وإذا بحثنا في شعره عن المظاهر الأخرى لشخصيته في أخلاقه وسلوكه وسجاياه ومدى تأثير الظروف القاسية التي مرت به وجدنا أن المصائب التي حلت به من سجنٍ ومصادرة أموال وغربة عن الأهل والولد والوطن قد جعلت منه شخصية باكية حزينة أحياناً بعد أن أحس بوطأة الظلم والحرمان حتى غدت أصداء المصائب والأحزان تنعكس على شعره(٣):

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْخُطُوبِ أُصَالِي ... أَلَا مَالِأَحدَاثِ الزَّمانِ وَمَالِي
يُفَجِّعْنَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ يَمُرُّ بِي ... بِأَنْفَسِ مَالٍ أو بِأَشْرَفِ آلِ

ويتكرر مثل هذين البيتين كثيراً في شعره حتى لكأننا نلمح من خلالها رجلاً هدَّت من عزمه صروف الليالي فشاب قبل أوان المشيب، وعاش عمره هدفاً للخطوب والرزايا (٤):

(١) الديوان ص ٣٧٣.

(٢) الديوان ص ٤١٦.

(٣) الديوان ص ٣٧٠.

(٤) الديوان ص ١٢٣. والضوابح: يقال ضبحت الخيل في عدوها أي أَسْمَعتْ من أفواهها صوتاً ليس بصهيل ولا حمحمة، أو ضبحت إذا عدت عدوا.

وَمَــا شِـبْتُ مِـنْ سِنٍّ مَـضَتْ بَــلْ أَشَـابَـنِي
صُــرُوفُ الــلَّيَــالِــي والــخُـطُوبُ الــفُــوَادِحُ
لَـعِشْــرِيـنَ لَاحَ الـشَّـيْـبُ فِــيَّ وَأَوْجَـفَـتْ
عَــلَيَّ خُــيُــولُ الــمُــرْزِئَـاتِ الــضَّــوَابِــحُ

ومع كل هذا فقد كان ابن المقرب رجلا جلداً ، صبوراً على ما لقيه من أذى وظلم[1] :

وَلَا فَلَّ صَبْرِي مَـا لَقِيْتُ وإنَّنِي ... لَأَلْوَى عَلَى اللَّأْواءِ جَلْدٌ مُكَافِحُ
فِــرَاقُ أَحِبَّـةٍ وَذَهــابُ مَــالٍ ... وَضَـيْـمُ أَقَــارِبٍ وأَذَاةُ جَــارِ[2]
فَـلَا واللهِ مَـا وَجْــدٌ كَـوَجْـدِي ... وَلَا عُـرِفَ اصْطِبَـارٌ كَاصْـطِبَارِي

وكان متحملا لأحزانه بعزيمة وحزم ، مثابراً على توطين نفسه في مقارعة نوائب الدهر[3] :

أَبَى الدَّهْرُ أن يَلْقَاكَ إلَّا مُحَارِبَا ... فَجَرِّدْ لَهُ سَيْفَاً مِنَ العَزْمِ قَاضِبَا
عَنِّي إلَـيْـكَ حَــوَادَثَ الأَيْــامِ ... مَا كُلُّ يومٍ يُستَطَاعُ خِصَامِي[4]

ولابن المقرب نفس أبية تحمله على صلة الرحم والمحافظة على روابط القربي مع بني عمه وإن هم تعرضوا له بالأذى والكراهية[5]:

وأَصْفَحُ عَنْ جُهَّالِ قَـوْمِي حَمِيَّةً ... وَإنْ أَسْرَجُوا فِي هَدْمِ عِزِّي وَأَلْجَمُوا
وَإنْ قَـطَعُوا أَرْحَـامَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ... وَصَلْتُ، وَذُو العَلْيَـا أَبَرُّ وأَرْحَمُ

---

(١) الديوان ص ١٢٤ واللأواء: الشدة.
(٢) الديوان ص ٢١٥ .
(٣) الديوان ص ٣٥.
(٤) الديوان ص ٤٩٨ .
(٥) الديوان ص ٤٤٩ .

وَأُغْضِي عَلَى عَوْرَاءِ قَوْمِي وإنَّنِي لأُبَصِّرُ مِنْهُمْ لَوْ أَشَاءُ وَأَعْلَمُ
وَأَحْفَظُ وُدَّ الأَصْدِقَاءِ وَإِنْ هُمُ إِلَيَّ بِلاَ جُرْمٍ أَسَاءُوا وَأَجْرَمُوا

وكان وفياً لأخلّائه، يلقاهم بالبشر والسرور، حافظاً لعهدهم وإن هم خانوا عهده أو سعوا فيما يضره[1]:

سَلِ الأَخِلاَّءَ عَنِّي هَلْ صَحِبْتُهُمُ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ إلاَّ وَالْوَفَاءُ مَعِي
أَلْقَى مُسِيْئَهُمُ بِالبِشْرِ مُبْتَسِماً حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَخُنْ عَهْدً وَلَمْ يُضِعِ
وَسَلْهُمُ هَلْ وَفَى لِي مِنْ ثِقَاتِهُمُ حُرٌّ وَلَمْ يَشْرِ في نَقْصِي وَلَمْ يَبِعِ

وعزة النفس هذه عند ابن المقرب، والتي توحي بها هذه الأبيات وغيرها واضحة في ديوانه، تدل عليها الصبغة العامة لشعره من قلة الهجاء وندرته في ديوانه إذا قيس إلى كثرة شعره في الأغراض الأخرى، وأما ما ورد في ديوانه من هجاءٍ قاس موجع لابن الدبيثي ــ وهو قليل جداً لا يتعدى بعض الأبيات في قصيدتين[2] فقط ـ فإنه ربما صدر عن ابن المقرب تحت ظروف نفسية ومادية قاهرة حينما فرض عليه ابن الدبيثي مكساً مجحفاً على متاع انحدر به الشاعر من بغداد[3]:

نِصْفُ البِضَاعَةِ حِيْنَ تَظْفَرُهَا مَكْسٌ لَقَدْ بالَغْتْ فِي النُّكْرِ

ولكن هل يدل هذا على أن ابن المقرب كان سريع الانفعال والغضب؟ ربما يكون ذلك ، وربما يكون هذا الهجاء المقذع الذي لا يتناسب مع الروح العامة لشعره ناتجاً عن المحنة التي مرت بالشاعر من قلة ذات اليد في الوقت الذي فُرض عليه هذا المكس. وكانت حاله قد اضطرته إلى بيع مركوبه في أحد الأيام[4]:

(١) الديوان ص ٢٧٤.

(٢) انظر الديوان ص ٢٢٤ و٥٠٥.

(٣) الديوان ص ٢٢٧.

(٤) الديوان ص ٣٩٤ والعضل: المنع، والبسل: الحرام أو الحلال أو الحبس: والأول أنسب لمعنى البيت.

فَــإنِّي بِعْتُ مَـرْكُــوبِي وَمَــالِي ... سِــوَاهُ يَـدُ أَنْــوءُ بِــهِ وَرَحْــلُ

بَــأَوْكَسِ قِيْمَـةٍ في شَــرِّ وَقْتٍ ... وَعَضْلُ البَيْعِ في الحَاجَاتِ بَسْلُ

ويبدو لي من هذه الأبيات وغيرها أن ابن المقرب كان مترفعا عن طلب المال، أو التكسب بشعره، لما يتصف به من عزة وأنفة، إضافة إلى مكانته في بيت إمارة وحكم. جاء في مقدمة ديوانه[1]: «ولم يك ممن يبغي على الشعر العطايا، ولا يضع نفسه لشيء من الدنايا». كما ورد فيها أيضاً[2]: «ولا قام على باب والٍ في زي مسترفد وسائل».

والمتتبع لشعر ابن المقرب يكتشف من خلاله رجلاً شديد الأنفة، قويَّ الغيرة على محارمه، عظيم الإشفاق على بناته، شديد المحافظة على بيته. فهو يتخيل بناته وهو بعيد عنهن وقد تزوجن من لئيم أو غويٍّ تائهٍ في الضلالة[3]:

فَيُصْبِحْنَ قَدْ أُنْكِحْنَ إمَّا مُـدَرَّعاً ... لَئِيماً يَرَى الإحْسانَ لَلْفَقْرِ جَالِبَا

وإمَّا ابْنَ ضَلٍّ تَـائِهٍ في ضَـلاَلَةٍ ... مِنَ الغَيِّ تَدْعُوهُ الطَّوَاغِيتُ رَاهِبَا

كَمَا نُكِحَتْ بِنْتُ المُهَلْهِلِ إذْ غَدَا ... مِنَ الضَّيْمِ في سَعْدِ العَشِيرَةِ هَارِبَا

بَـأَيْسَرِ مَهْـرٍ عنـدَ أَلأَمِ خَـاطِبٍ ... وَوَالِـدُهَا غَيْـظاً يَعَضُّ الرَّاوَاجِبَـا

وتنبع هذه الخلال الحميدة عند الشاعر من روح مؤمنة قانعة تعلن الشكر لله تعالى في كل حال[4]:

وَللهِ فـيـنَــا عَــادَةٌ مُـسْـتَـمِــرَّةٌ ... يُجَلِّلُنَا النُّعْمَى وَيُعْطِي الـرَّغَائِبَـا

فَشُكْـراً لَـهُ مِنْ مُنْعِمٍ مَتَفَضِــلٍ ... عَلَيْنَا وَحَمْداً يَنْفَدُ الدَّهْـرُ وَاصِبَا

---

(١) الديوان ص ٥ (المقدمة).

(٢) الديوان ص ١٠ (المقدمة).

(٣) الديوان ص ٣٩.

(٤) الديوان ص ٤١.

ولعل هذه الأبيات وغيرها تدل على أن الشاعر قد ترعرع ونشأ منذ صغره في بيئة دينية، وتلقى تربية إسلامية جيدة. وهذا ما يدعونا إلى التساؤل عن مذهبه أهو سُنيّ أم شيعي، وبخاصة أن سكان البحرين آنذاك[1] كانوا خليطاً من السنة والشيعة.

ولقد ترجم لابن المقرب بعض علماء الشيعة وعدُّوه من أعيانهم كما ذهب إلى ذلك الشيخ علي البلادي في كتابه (أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين)[2] وغيره.

وقد استدل هؤلاء بقصيدة وردت في ديوانه[3] يرثي بها الحسين بن علي رضي الله عنهما مطلعها:

يــا بَــاكِيَــاً لِــدِمْنَــةٍ وَأَرْبُــعِ   إِبْــكِ عَـلَى آلِ النَّبِيِّ أَوْ دَعِ

إلا أن هذه القصيدة لا تعتبر كافية للحكم على تشيعه، بل إن الشك يتطرق إلى نسبتها إلى ابن المقرب، وأغلب الظن أنها موضوعة في ديوانه في عصور متأخرة لإثبات تشيعه، وقد انفردت بها مخطوطة واحدة من مخطوطات الديوان نسخت سنة ١٢٨٦ هـ، وكاتبها مجهول بخلاف المخطوطات الأخرى[4]، مع وجود عوامل أخرى ترجح أنها مقحمة في ديوانه وهي ليست من شعره[5].

---

(١) البحرين هنا تعني هذه البلاد حسب تسميتها القديمة (انظر ما تقدم ص١٣)ولا يزال سكان هذه المنطقة حتى اليوم من السنة والشيعة.

(٢) انظر ص ٣٩٤ و٣٩٥ من هذا الكتاب.

(٣) انظر الديوان ص ٢٥٩.

(٤) انظر الديوان ص ٢٥٩ و٦٦٣.

(٥) انظر هذه العوامل في توثيق شعره في الفصل الأول من الباب الثاني.

وأمّا القصيدة الثانية التي أوردها صاحب كتاب (أنوار البدرين) ولم يذكر مصدرها ومطلعها:

مِنْ أيِّ خَطْبٍ فَادِحٍ نَتَأَلَّمُ ... وَلأَيِّ مُرْزِئَةٍ نَنُوحُ وَنَلْطِمُ

والتي يستدِل بها على اعتباره من شعراء الشيعة فإنها غير موجودة في ديوان ابن المقرب، ولم ترد في أي مخطوطة من مخطوطاته.

ولو صحت نسبة القصيدة الأولى أو الثانية للشاعر فإن ذلك لا يكفي دليلاً قوياً على اعتناقه المذهب الشيعي إذا قُرِنتا بمجموع شعره الذي يزيد على خمسة آلاف بيت في أغراض شتى ليس فيها ما يوحي بأنه كان شيعياً. بل إن الروح العامة لشعره تثبت أنه سنيٌّ المذهب، أضف إلى هذا أن علاقاته الخاصة كانت وثيقة مع علماء السنة كالشيخ محب الدين الواسطي أحد أئمة المذهب الشافعي في بغداد، فقد مدحه وأُعجب بما قدمه من حجج في تأييد آرء الإمام الشافعي[1]. وهو في مدائحه لأمير البصرة شمس الدين باتكين ينوِّه بإحيائه لمذاهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة بقوله[2]:

وَالرُّبْطِ بَيْنَ مَدَارِسٍ وَمَشَاهِدٍ ... شَرُفَتْ وَفُضِّلَ أَهْلُهَا تَفْضِيلاَ
أَحْيى بِهَا للشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ ... وَأَبي حَنِيْفَةَ أَحْرُفاً وَفُصُوْلاَ

وهذا كلام لا يصدر من شيعي، وليس ثمة ما يدعوه إليه مع نبله وترفعه عن النفاق، وفي الوقت نفسه فقد كان في مدحه لأمير الموصل بدر الدين لؤلؤ معرضاً عن ذكر المدارس التي أنشأها بدر الدين في الموصل وكان شيعياً متعصباً عَمِل على انتشار المذهب الشيعي بين قومه[3].

---

(١) انظر الديوان ص ٥٦٩ و٥٧٠.

(٢) الديوان ص ٤١٠.

(٣) انظر تحقيق ديوان علي بن المقرب للدكتور صلاح نيازي ص ١٥٥ و١٥٦.

ويتساءل الدكتور صلاح نيازي[1] كيف لم يشر ابن المقرب إلى المدرسة التي بناها بدر الدين لؤلؤوالتي كانت تحظى باحترام كبير في ذلك الوقت؟ كما فعل مع شمس الدين باتكين، وقد انتهى الدكتور صلاح نيازي بعد أن اتضح له اختلاف أسلوب القصيدة المنسوبة لابن المقرب عن أسلوبه في قصائده الأخرى إلى الاعتقاد بأن ابن المقرب كان سنياً بلا شك[2].

ويرى الأستاذ عمران العمران أن ابن المقرب سنيٌّ المذهب وينفي تشيعه مقرراً « أن التاريخ لم يثبت لنا إطلاقاً أن ابن مقرب قد عرَّج على الأماكن المقدسة عند الشيعة ، وليس في شعره ما ينم عن ذلك ، ولو كان فعل لظهر له أثر في شعره قطعاً ؛ أما عن مدحه لآل البيت فليس مثل هذا وقفاً على الشيعة دون أهل السنة ، فإن أهل السنة يجلُّون أهل البيت ويكنون لهم صادق الحب »[3] .

زد على ما تقدم أن الأسرة العيونية التي حكمت الأحساء وهي عشيرة الشاعر التي تربَّى في بيتها كانت ذات صلات قوية بالخلفاء العباسيين في بغداد، فقد أمدوا مؤسسها بالعتاد والرجال، وأعانوا أمراءها بعد ذلك على الخارجين عليهم، وكانوا يندبونهم في تأمين السبل وحماية طريق الحاج[4]، ولم تكن للأسرة العيونية أي رابطة بالحكومات التي قامت على التشيع كالفاطميين مثلا، بل إن العيونيين هم الذين قضوا على دولة القرامطة التي قامت في بداية أمرها على استغلال عواطف الشيعة، وكانت تدين بالولاء للفاطميين في مصر[5]، فكيف يقال بعد ذلك إن الشاعر كان شيعياً وبالتالي فإن أسرته العيونية شيعية النزعة[6].

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٥٦ وسترد المقارنة بين أسلوب هذه القصيدة وغيرها في توثيق شعره في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٣) ابن مقرب حياته وشعره للأستاذ عمران العمران ص ٢٧ .

(٤) انظر ما تقدم ص ٤٠ .

(٥) انظر ما تقدم ص ٢٢ و ٢٦ .

(٦) ولعل من المناسب أن نشير إلى أن بلدة (العيون) بالأحساء التي ولد فيها الشاعر وإليها تنتسب أسرته هي بلدة تسكنها طائفة سنية إلى يومنا هذا بخلاف بعض القرى المجاورة لها.

٧ ــ وفاته:

توفي علي بن المقرب بالأحساء ، وقد اختُلف في تاريخ وفاته، فقيل: سنة ٦٢٩ هـ وقيل: سنة ٦٣٠ هـ، وقيل : سنة ٦٣١ هـ فقد ذهب المنذري إلى أنه توفي سنة ٦٢٩ هـ حيث قال في ذكر وفيات هذه السنة[١]: «وفي هذه السنة توفي الأديب الفاضل أبو عبد الله ويقال: أبو الحسن علي بن المقرب . . . الشاعر بالبحرين»[٢] ثم قال[٣]: «وقيل إنه توفي في رجب من السنة».

كما ذهب ابن الشعار الموصلي إلى أن وفاته كانت سنة ٦٣٠هـ، وحدد تاريخها بأواخر المحرم فقال[٤]: «وتوفي به[٥] في أواخر المحرم سنة ثلاثين وستمائة».

كما ذهب كل من ابن النجار وابن الفُوَطي والصفدي إلى أنه قد توفي سنة ٦٣١هـ. قال ابن النجار[٦]: «بلغنا أنه توفي بالبحرين في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة». وقال ابن الفوطي [٧]: «توفي بالبحرين سنة إحدى وثلاثين وستمائة». وقال الصفدي[٨]: «وتوفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة».

ويبدو لي أن أقرب هذه الأقوال إلى تحرِّي الحقيقة والدقة هو ما ذكره ابن

---

(١) التكملة لوفيات النقلة ٦/٤٤.

(٢) البحرين هنا حسب مسماها القديم (انظر ما تقدم ص ١٣)

(٣) التكملة لوفيات النقلة ٦/٤٥.

(٤) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ / ١٢٦ (مخطوط).

(٥) يعني موضعاً في الأحساء يقال له العيون كما أشار إليه قبل ذلك عند ذكره لمكان مولده.

(٦) التكملة لوفيات النقلة ٦/٤٤ ضمن تعليقات الأستاذ بشار عواد. وابن النجار معاصر لابن المقرب، ولعل ابن الفوطي والصفدي قد نقلا عنه.

(٧) الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق نقلا عن تلخيص مجمع الآداب.

(٨) الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق نقلا عن الوافي بالوفيات.

الشعار الموصلي من أن وفاته كانت سنة ثلاثين وستمائة(٦٣٠ هـ) ، لكونه حددها بأواخر المحرم، وعيَّن مكانها بالعيون من البحرين ، ولأنه أبرز من اعتنى بأخبار الشاعر وكتب عنه بشيء من التفصيل أكثر من غيره ، إضافة إلى أن عبارات غيره من المؤرخين كالمنذري وابن النجار توحي بعدم الدقة في تحديد التاريخ الـذي توفي فيه مثل عبارة المنذري «وقيل إنه توفي في رجب من السنة» وعبارة ابن النجار «بلغنا أنه توفي. . . . الخ»

وأما مكان وفاته وهو البحرين حسب تسميتها القديمة فهو ثابت بإجماع أكثر المؤرخين الذين كتبوا عنه وعن تاريخ وفاته من معاصريه وغيرهم، كما صرح بذلك المنذري وابن الشعار وابن النجار وابن الفوطي فيما تقدم. ويزيد عليهم ابن الشعار في تحديد مكانها من بلادالبحرين فيذكر أنه (العيون)[1] بالأحساء البلد الذي ولد فيه وعُرف بالانتساب إليه.

---

(١) تقدم ذكر عبارة ابن الشعار الموصلي ص ٩٧، وابن الشعار مؤرخ معاصر لابن المقرب وتوفي سنة ٦٥٤ هـ. وقد جاء في مخطوطة الولاة العيونيين الموجودة في دار الكتب المصرية برقم ٦٣٧ تاريخ مايلي: «وكانت وفاته بقرية بساحل البحر العماني ، سنة مررنا عليها في ذهابنا من الهند إلى هرمز يقال لها طِيوي ـ بالمهملة والمثناتين بينهما واو ـ فلما نزلها سماها طيبي بالموحدة» . وقد عاش مؤلف هذه المخطوطة في القرن العاشر الهجري .

وجاء في صفه جزيرة العرب للهمداني ص ٦٥:

«طِيوي بلدة في عمان توفي فيها ابن مقرب الشاعر الأحسائي من أهل القرن السابع الهجري، وينسبون إليه أنه قال لما وصلها : «يا نفس هذه طيوي فطبي » كذا ولعلها فطيبي ، وقد وهم بروكلمان فذكر أنه توفي ببغداد (انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٦١/٥) وتابعه في ذلك عمر فروخ (انظر تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٥٠٧/٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الباب الثاني

دراسة شعره

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الفصل الأول

ديوانـــه

يغلب على الظن أن ديوان ابن المقرب قد جمع في حياته، أو بعد وفاته بقليل بدليل قول ابن الفُوَطي[1]: «وله ديوان موجود»، كما أن ذكر المناسبات في التقديم لقصائده يعد دليلا على ذلك، وليس لدينا ما يرجح قيام الشاعر نفسه بجمع ديوانه إلا أن من الثابت أنه كان يكتب بعض قصائده بخط يده[2]، وكان ينشد بعضها على مسامع بعض الأدباء كابن الشعار الموصلي الذي التقى به في بغداد سنة **٦٢٣** هـ أي قبل وفاته بسبع سنين، فقد ذكر أن ابن المقرب كان يحفظ معظم شعره ويردده، وأنه أنشده بعض قصائده، وقد أورد ابن الشعار بعض أشعاره تلك ووعد بإثبات باقيها إن عثر عليه[3]. ولعل ذلك محاولة من ابن الشعار لتدوين شعر ابن المقرب مما يوحي بأن الشاعر كان يكتفي بحفظ معظم شعره عن ظهر قلب. ولقد كان من حسن طالع شاعرنا شيوع ديوانه في وقت مبكر، وتوزع مخطوطاته في بلدان عديدة. وسبيلنا الآن أن نستعرض هذه المخطوطات، ثم نلقي نظرة على طبعات الديوان، ونخلص منها إلى توثيق شعره.

---

(١) الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق نقلا عن تلخيص مجمع الآداب، وكانت وفاة ابن الفوطي سنة ٧٢٣ هـ.

(٢) انظر الديوان ص ٥٨٥.

(٣) انظر قلائد الجمان في شعراء الزمان لابن الشعار الموصلي ٥ /١٢٧.

أولا: مخطوطات الديوان:

لقد توافرت نسخ عديدة من مخطوطات ديوان ابن المقرب في كلٍ من القاهرة والإسكندرية ومكة المكرمة ودمشق وبغداد والموصل وتونس واستامبول ولندن ومدريد. وهي مخطوطات يختلف بعضها عن بعض من حيث تاريخ نسخها، وعدد أبيـاتها،وجودة خطها ووضوحه.

وأقدم مخطوطة لديوان الشاعر نسخت بعد وفاته بثلاثة قرون ونيِّف. ولا تدل أي مخطوطة منها ـ فيما اطلعت عليه ـ على الأصل الذي نقلت منه. وفيما يلي تعريف بهذه المخطوطات:

١ ـ نسخة قديمة محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم **١٢٦** أدب في **١٦٩** ورقة، ومقاسها **١٩،٥ × ١٣،٥** سم، ومسطرتها **١٥** سطراً، وقد كتب على صدرها: الأمين جمال الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن المقرب. ثم بيتان قيلا سنة **١٠٧٨** هـ وهما:

إِذَا تَـبَـاعَـدَ عَـنِّـي مَـنْ رُمْـتُـهُ يَـتَـقَـرَّبْ
طَلَبْتُ لِـلشَّـوقِ فَـأْلاً مِنْ نَظْمِ ابْنِ المُقَرَّبْ

وقد دُوِّنت عليها تمليكات منها: «من كتب إسماعيل بن أحمد بن الحسين بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد لطف الله به»[1]. وقد تمت كتابتها بخط نسخي في رجب عام **١٠٦٧** هـ، وورد بخاتمتها: «تم الديوان بعون الله تعالى ومنِّه وكرمه، وكان الفراغ من رقمه وقت الظهر تاسع وعشرين من شهر رجب الفرد الحرام من السنة السابعة والستين بعد الألف من الهجرة النبوية صلى الله على شارعها وسلم، بخط الفقير الحقير حسن بن أبي القاسم فضيل، برسم سيدي الفقير إلى كرم الله تعالى الأجل الأكمل جمال الدين محمد بن حسن، غفر الله له...

(١) الديوان ص ١٠ من مقدمة المحقق، ولعله من ملوك اليمن.

والحمد لله رب العالمين[1].

٢ ـ نسخة أخرى في دار الكتب المصرية تحت رقم **٩٠٩١** أدب ، وقد كتبت بخط نسخي جميل مجدول بالذهب سنة **١١٣٠** هـ في **٤١** ورقة، ومقاسها **٢٩** ×**١٦** ، ومسطرتها **١٥** سطراً، ولا تحتوي إلا على أبيات من بعض القصائد، وقد كتب في صدرها «ديوان الشيخ الرئيس السامي جمال الدين علي بن المقرب النعمانى[2] ، كافأه الله بما هو أهله . . . وقد دخل تحت تصرف إبراهيم بن عبد الله باشا بن ثنيان آل سعود، والاعتماد على رب العباد» وعلى الصفحات الأولى منها تسجيل لبعض حوادث الجزيرة العربية والخليج العربي في القرون الأخيرة.[3]

٣ ـ نسختان في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد إحداهما منقولة عن الأخرى حرفياً، وهما مرتبتان غالباً حسب الترتيب الأبجدي ومكتوبتان بخط نسخي عادي ، وكلماتهما مضبوطة بالشكل، وعدد القصائد في النسخة الواحدة **٣٩** قصيدة بلا مقدمات ولا تواريخ، وعلى الصفحة الأولى منهما تاريخان: **١١٩٥**هـ و**١١٩٦**هـ، وهما يشيران إلى تاريخ الشراء على ما يبدو ، وقد ورد في آخرهما: «تم الديوان المبارك ضحوة نهار ثالث عشر (كذا) من محرم الحرام، أحد شهور سنة **١١٢٩** هـ، برسم النقيب الأوحد المجاهد السامي حسان الدين سلمان عبد الله حرسه الله ورعاه»[3].

٤ ـ نسخة بالمتحف العراقي ببغداد تحت رقم **١٩٠٤** كتبت سنة **١١٣١** هـ بخط نسخي جميل مشكول وتضم **٣٦** قصيدة في **٣٨** ورقة، وقصائدها بلا تواريخ ولا مقدمات، وقد ورد في خاتمتها: «تم الديوان الجليل يوم الثلاثاء ثامن وعشرين

---

(١) الديوان ص ٦٦٣.

(٢) هكذا ورد اسمه فيها(النعماني) بدلا من العيوني.

(٣) انظر الديوان ص ١٣ من مقدمة المحقق.

(٤) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣٨.

من شهر جمادى الأولى سنة أحد (كذا) وثلاثين ومائة سنة، على يد المفتقر إلى الله ناصر بن عبد الله المعروف بالسّماوي عفا الله عنهما آمين »[1] .

٥ ـ نسختان في المتحف البريطاني بلندن ، إحداهما تضم ٧٤ قصيدة في ١٢٦ ورقة، وتضم الأخرى ٦٣ قصيدة في ١٨٣ ورقة، الأولى قليلة الشروح مكتوبة بخط نسخي أنيق مجدول بماء الذهب، والثانية مكتوبة بخط النسخ العادي مع شروح كثيرة مكتوبة بخط الرقعة، وقصائدهما لا تأخذ نسقاً معيناً في الترتيب إلا أن بعض القصائد التي قيلت في ممدوح واحد ترد متوالية في إحداهما، وقد نسخت الأولى سنة ١١٨٥ هـ أما الثانية فقد ورد في صفحتها الأولى تاريخ شرائها على ما يبدو وهو عام ١٢٠٤هـ، وتضم الأخيرة في نهايتها بعض الأبيات لامرىء القيس والحطيئة ولاميتي العرب والعجم[2]

٦ ـ نسخة بالمكتبة الماجدية بمكة المكرمة. وهي بخط ناصر بن حمد بن لاحق أحد تلاميذ الشيخ صالح العتيقي من علماء المجمعة بنجد، وقد نسخت في شهر رجب عام ١١٩٤هـ[3].

٧ ـ نسخة بجامع الزيتونة في تونس مكتوبة بخط الرقعة، وقد تم نسخها يوم الجمعة الثامن من شهر شعبان سنة ١٠٩٣هـ[4].

٨ ـ نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم ٢٠٢٨ ـ ج كتبت سنة ١٢٨٤ هـ. وقد أتلف السوس كثيراً من أبياتها. وجاء في صدرها «ديوان الإمام ابن المقرب الحماسي اليمني البغدادي»[5].

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٢٣٧ وديوان علي بن المقرب العيوني ـ منشورات المكتب الإسلامي ص هـ من المقدمة ـ الطبعة الثانية.

(٢) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣١.

(٣) انظر تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد لابن عبد القادر ص ٢٥٦ (الملحقات)

(٤) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣٧.

(٥) انظر الديوان ص ١٠ من مقدمة المحقق. ونسبته إلى اليمن وبغداد خطأ من الناسخ.

٩ ــ نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم **٥٢٢** أدب في **١٢٥** ورقة، ومقاسها **٢٢ × ١٥** سم، ومسطرتها **٢١** سطراً، وتعتبر من أوفى النسخ وأكملها [١]، وقد تمت كتابتها سنة **١٢٨٦** هـ وورد في خاتمتها: «تم ديوان علي بن محمد بن المقرب العيوني، ووافق الفراغ من كتابته في يوم الخميس الموافق اليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ست وثمانين ومائتين وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم» [٢].

١٠ ــ نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم **١٠١٧** أدب مكتوبة بالخط النسخي في **١٢٢** ورقة، ومقاسها **٢٢ × ١٥،٥**، ومسطرتها **٢١** سطراً، وفي آخر صفحاتها: «تم الديوان بعون الله تعالى ومنِّه وكرمه، وكان الفراغ من رقمه وقت الظهر سبعة وعشرون (كذا) من شهر جمادى الأولى سنة **١٢٩٣** هـ. كتبه الفقير إلى ربه. . . . خليل الشبكشي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات» [٣].

١١ ــ نسخة بالمكتبة الأهلية بمدريد في أسبانيا تحت رقم **٥٣٤١** من الحجم المتوسط مكتوبة بخط رقعي، وقد سقطت أوراقها الأولى، وهي غير مرتبة ولا مبوبة، وليس لها مقدمة [٤].

١٢ ــ نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم **٦٧٣٤**، وقد كتبت حديثاً بخط نسخي مشكول بعض الشكل [٥]. وبعض صفحاتها الأولى مفقودة، وهي تشبه إلى حد كبير إحدى نسختي المتحف البريطاني [٦].

---

(١) انظر الديوان ص ١١ من مقدمة المحقق.

(٢) انظر الديوان ص ٦٦٣.

(٣) انظر الديوان ص ١١ من مقدمة المحقق.

(٤) انظر المصدر السابق ص ١٣.

(٥) انظر ديوان علي بن مقرب العيوني ـ منشورات المكتب الإسلامي ـ ص د من المقدمة ـ الطبعة الثانية.

(٦) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣٦.

١٣ ـ نسختان في تركيا إحداهما بمكتبة فيض الله في استامبول تحت رقم ١٥٩٥، وعدد أوراقها ١٥٢، ومسطرتها ١٩ سطراً. والثانية بمكتبة جامعة استامبـول تحت رقم ٢٩٩١، وقد كتبت عام ١٣١٧هـ.

١٤ ـ نسخة بمكتبة المدرسة الإسلامية التابعة للنادي العلمي بالموصل[١].

١٥ ـ نسخة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء كتبت سنة ١٣١٤ هـ[٢].

ثانيا ـ طبعات الديوان:

طبع ديوان ابن المقرب لأول مرة في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ هـ بالمطبعة الميرية بمكة على عهد السلطان عبد الحميد بنفقة الشيخ عبد الله بن سعيد باخطمة أحد تجار مكة المكرمة آنذاك. وقد كتب على صدر هذه الطبعة: «هذا ديوان الشاعر اللبيب البارع الأديب أبو عبد الله محمد بن علي بن المقرب بن المنصور بن مقرب ابن علي بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد القليوبي[٣] الأحسائي بلَّ الله ثراه آمين»، وعدد صفحاتها ١٢٠ صفحة. ولها مقدمة لا يعرف كاتبها تضمنت جزءاً من ترجمة حياة ابن المقرب. وقد اتضح أنها مقدمة ناقصة مبتورة بعد أن ظهرت هذه المقدمة كاملة في الطبعة الهندية التي تلتها سنة ١٣١٠هـ. وقد خلت هذه الطبعة المكية من الضبط والشرح ومقدمات القصائد التي وردت في بعض المخطوطات، وكثرت فيها الأخطاء، وظهرت رديئة الطباعة لضعف إمكانات الطبع في ذلك الوقت. كما جاء في ختامها زيادات قليلة تضمنت أبياتاً لثلاثة شعراء لا صلة لهم بالشاعر، ولم أجد فيها ما يدل على المخطوطات التي اعتمدت الطباعة عليها، ولعل مصدرها المخطوطة المكية.

---

(١) انظر مخطوطات الموصل للدكتور داود الحلبي الموصلي ص ٤١.

(٢) انظر فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ـ نشر الهيئة العامة للآثار ودور الكتب ١٣٩٨ هـ.

(٣) ذلك تحريف للفظ (العيوني).

وفي سنة ١٣١٠ هـ طبع ديوان ابن المقرب بمطبعة دت برساد في المنبي[١] بالهند وقد جاءت هذه الطبعة جيدة ومشكولة بعض الشكل، وعدد صفحاتها ٥٧٤، وقصائدها ٩١ قصيدة، وقد قام بجمع الديوان في هذه الطبعة الشيخ حمد بن خليفة العيوني[٢] وطبع على نفقة الشيخ عبد العزيز بن أحمد العُويصي الخالدي بقلم رئيس المحررين في الهند الشيخ مُلاَّ محمود بن الشيخ آدم الكوكني، وانتهت طباعته في الخامس عشر من شهر صفر عام ١٣١١ هـ. وتمتاز هذه الطبعة بكمال مقدمتها التي تعتبر مصدراً مهماً في ترجمة حياة الشاعر وأخباره ورحلاته.

كما تمتاز بشروح تضمنت تاريخ الدولة العيونية وأخبار أمرائها، وتعتبر مصدراً هاماً في تاريخ الدولة العيونية. ولم أجد في هذه الطبعة ما يدل على المخطوطات التي اعتمد عليها جامع الديوان، وليس فيها ما يدل على اسم كاتب المقدمة، ولكنّ أسلوبها وتفصيلها في بعض الجزئيات الخاصة بحياة الشاعر يدل على قربها من عصر ابن المقرب حتى بدا وكأن كاتبها يأخذ عن ابن المقرب قصة محنته[٣]. أما الشروح الواردة في هذه الطبعة فقد كان يُظن أنها للشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصي الملتزم بالطبع[٤]، ولكن التفصيلات الدقيقة التي وردت فيها عن تاريخ الدولة العيونية وبخاصة في شرح ميميته الطويلة[٥] تدل على أن هذه الشروح قد أُلحقت بالديوان في عصر متقدم، وفي مخطوطة المتحف البريطاني بلندن إشارة

---

(١) هكذا ورد اسمها وهي بومباي

(٢) ليس لدينا ما يدل على أن لهذا الرجل صلة نسب بالعيونيين قوم ابن المقرب ولعل (العيوني) نسبة إلى بلدة العيون التي لا تزال معروفة بهذا الاسم بالأحساء حتى اليوم. وهي البلدة التي ينتسب إليها ابن المقرب وأسرته كما قدمنا.

(٣) انظر الديوان ص ٨ من المقدمة.

(٤) انظر ديوان علي بن مقرب العيوني ـ منشورات المكتب الإسلامي ص هـ من المقدمة الطبعة الثانية.

(٥) انظر الديوان ص ٥٢٦.

إلى وجود شرح للديوان يعتقد أن كاتبه قد عاش في القرن العاشر الهجري[1]، وأغلب الظن أنه غير معروف[2].

وفي عام ١٣٨١ هـ أصدر المكتب الإسلامي طبعة جديدة لديوان ابن المقرب على نفقة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني.. ورغم أنها كانت أوفى من الطبعة الهندية وأجود طباعة إلا أنها لم تشتمل على سائر القصائد والأبيات الواردة في المخطوطات، كما ينقصها الترتيب الملائم لقصائد الديوان[3]. ثم أصدر المكتب الإسلامي عام ١٣٨٨هـ طبعة ثانية منقحة للجزء الأول فقط تضمنت تصويراً لبعض صفحات المخطوطات، وقد زيدت فيها بعض الشروح، وصُححت بعض الأخطاء وأُثبتت فيها مقدمات القصائد كما وردت في بعض المخطوطات[4]، إلا أنه ينقصها الشكل الكامل للكلمات. وهي وإن كانت طبعة جيدة إلا أنها مع سابقتها تفتقر إلى تحقيق علمي للديوان وتوثيق قصائده، وإخراجه إخراجاً حديثاً إضافة إلى أن الطبعة الثانية لم تشمل الجزء الثاني الذي يبدأ بقافية اللام.

وفي عام ١٣٨٣ هـ نشرت مكتبة التعاون الثقافي بالأحساء طبعة جديدة للديوان بمجلد واحد بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو الذي قدم له بمقدمة تضمنت ترجمة للشاعر وما جاء عنه في كتب التراجم، وأثبت بعدها المقدمة الأصلية للديوان. وقد ذكر في مقدمته المخطوطات التي اعتمد عليها في جمع الديوان، ويتضح من عرضه لها أنه لم يرجع إلاَّ إلى المخطوطات الموجودة في مصر، لكنَّ اعتماده أيضاً على طبعتي الديوان المكية والهندية يعوض هذا النقص إلى حد ما لكون هاتين

---

(١) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٢٣٢.

(٢) ورد في تقريظ الشيخ عبد الله الزواوي للطبعة الهندية ص ٥٧٤ قوله:

«ثم لما رأى الكامل العريف واللوذعي الظريف الشيخ عبد العزيز بن أحمد العويصي شوق أفكار الأدباء إلى هذا الديوان الجليل، واحتياجه إلى شرح مختصر جميل تحركت همته العلية إلى نشرة في الآفاق بطبعه مع الشرح القائم بواجبه، الموضحِ لما استتر تحت غياهبه، قياماً منه بخدمة أرباب الأدب».

(٣) انظر ديوان علي بن مقرب العيوني ــ منشورات المكتب الإسلامي ص هـ من مقدمة الطبعة الثانية.

(٤) انظر المصدر السابق ص و من المقدمة.

الطبعتين قد اعتمدتا في الغالب على المخطوطة المكية وبعض المخطوطات الأخرى،ولم يشر الدكتور الحلو في عرضه لطبعات الديوان إلى طبعة المكتب الإسلامي التي صدرت عام ١٣٨١ هـ بل اكتفى بالإشارة إلى الطبعتين المكية والهندية مقارناً بينهما وبين طبعته، موضحاً الزيادات التي أضافها في نسخته من حيث عدد القصائد والأبيات. فقد بلغت القصائد في طبعته ٩٨ قصيدة أي بزيادة سبع عشرة قصيدة على الطبعة المكية وثمان قصائد على الطبعة الهندية، كما بلغت الأبيات في طبعة الدكتور الحلو ٥٢٦١ بيتاً، بينما تبلغ في الطبعة المكية ٣٧٩٥، وفي الطبعة الهندية ٤٧٦٤ بيتاً[1].

والحق أن الديوان ظهر بتحقيق الدكتور الحلو بإخراج جيد وطباعة أنيقة تمتاز عن الطبعات السابقة بالضبط الجيد لكلماتها مع خلوها على الأغلب من الأخطاء التي تعيب سابقاتها، وإن كانت شروحه لا تزيد كثيراً على شروح الطبعة الهندية وطبعة المكتب الإسلامي.

وفي عام ١٣٩٥ هـ قام الدكتور صلاح نيازي بتحقيق ديوان ابن المقرب معتمداً على ثمان مخطوطات للديوان في لندن والقاهرة وبغدادوتونس ، وقدمه مع دراسة نقدية باللغة الإنجليزية إلى كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن لنيل درجة الدكتوراه، ولم يقم حتى الآن بنشر الديوان أو الدراسة، وقد حاولت الحصول منه على نسخة من الديوان الذي قام بجمعه ولكنه ضَنَّ به عليّ، واكتفى مشكوراً بإعطائي نسخة من الدراسة النقدية، وقد بدا لي بعد ترجمتها إلى العربية أن جمعه للديوان لم يكن شاملاً لكل القصائد، كما أنه لم يرجع فيها إلى بقية المخطوطات التي تصل إلى سبع عشرة مخطوطة فضلاً عن الطبعتين المكية والهندية.

إن طبعات الديوان كلها لا تعد كاملة وافية لأن محققيها لم يرجعوا إلى سائر مخطوطات الديوان، ولهذا فإن ديوان ابن المقرب ما زال بحاجة إلى طبعة جديدة محققة تحقيقاً وافياً.

---

(١) انظر الديوان ص ١٤ من مقدمة المحقق.

ثالثاً : توثيق شعره:

إن كثرة شعر ابن المقرب الذي يزيد على خمسة آلاف بيت في ثمان وتسعين قصيدة وردت غالبيتها في مخطوطات الديوان المتفرقة تجعل نسبة الشك في بعض قصائده ضئيلة جداً.

ولو أجرينا مقارنة بين نسخ الديوان المخطوطة منها والمطبوعة طبعات قديمة لوجدنا أن أهم اختلاف بينها هو سقوط بعض القصائد أو الأبيات من نسخة أو أكثر وورودها كاملة في غيرها . أما ما عدا ذلك فهو اختلاف قليل لا يتناول من ديوان الشاعر إلا النزراليسير، كالاختلاف في ترتيب بعض الأبيات، أو تكرار بعض المقاطع في أكثر من قصيدة واحدة، وذلك لا يطعن في صحة نسبة هذه القصائد إلى الشاعر.

أما تلك القصائد التي تطرق الشك إلى نسبتها إليه فلا تتعدى قصيدتين كما يقرر محقق الديوان الدكتور عبد الفتاح الحلو. وقد بدا لي بعد دراستهما أن إحداهما تتفق مع الروح العامة لشعر ابن المقرب، وأن الثانية ربما كانت مقحمة على ديوانه.

أما الأولى فهي القصيدة السادسة والثلاثون في ديوانه ومطلعها[1]:

لا عِزَّ إلَّا بِحَدِّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ   وَضَرْبِكَ الصِّيْدَ بَيْنَ الهَامِ وَالْقَصَرِ

وقد سقطت هذه القصيدة من النسخ كلها عدا الطبعة الهندية التي أثبتتها بمقدمة هذا نصُّها «وقال الأجلّ ــ لا من مرَّ ذكره ــ في مديح الأمير أبي سنان» مما جعل المحقق يشك في نسبتها إلى ابن المقرب فيقول: «وهذه المقدمة تدعو إلى الشك والحذر في نسبة القصيدة إلى ابن المقرب. فماذا يعني قوله (لا من مرَّ ذكره) هل يريد ابن الدبيثي. أم يريد الشاعر؟!».

(١) الديوان ص ٢٢٩.

وكان الشاعر قد هجا ابن الدبيثي في قصيدته الخامسة والثلاثين [١] التي سبقت هذه القصيدة وقد ترجَّح لديَّ أن أسلوب هذه القصيدة لا يختلف عن أسلوب ابن المقرب، وأن مضمونها يتفق من مدائحه لأبي سنان وغيره من الأمراء العيونيين. وأما عبارة«لا من مرَّ ذكره»فالأرجح أن كاتبها يعني ابن الدبيثي نافياً عنه الإجلال، ثم إن كِلمة (الأجل) في قوله: «وقال الأجل» وردت أكثر من مرة في مقدمة الديوان[٢] وصفاً للأمير الشاعر علي بن المقرب.

وأما القصيدة الثانية فهي القصيدة الأربعون، وهي في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنهما ومطلعها[٣]:

يَـا بَـاكِيـاً لِـدِمْنَـةٍ وَأَرْبُـعِ   إبْـكِ عَـلَى آلِ النَّـبِيِّ أو دَعِ

وأكثر ظني أن هذه القصيدة مقحمةٌ على ديوانه في عصور متأخرة لإثبات تشيُّعه[٤]. وقد بنيتُ هذا الظن على أسباب عدة:

١ ـ إن هذه القصيدة لم ترد في مخطوطات الديوان عدا مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٢٢ أدب[٥]. وهي نسخة كتبت حديثاً سنة ١٢٨٦هـ، وكاتبها غير معروف ، ولم يسمِّ نفسه في خاتمتها كما جرت العادة[٦].

---

(١) انظر الديوان ص ٢٢٤.

(٢) انظر الديوان ص ٤ و ٦ و٩ من المقدمة.

(٣) الديوان ص ٢٥٩.

(٤) وقد نسب الشيخ علي البلادي أحد علماء الشيعة وصاحب كتاب (أنوار البدرين) مطبعة النعمان ـ النجف بالعراق ١٣٧٧ هـ ـ ص ٣٩٥ إلى ابن المقرب قصيدة أخرى في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنهما مطلعها:

مِـنْ أيِّ خَـطْبٍ فَـادِحٍ نَـتَـألَّـمُ   وَلأيِّ مُرْزِئَةٍ نَـنُـوحُ وَنَـلْطِمُ

وهي غير موجودة إطلاقاً في أي مخطوطة من مخطوطات الديوان. كما أن الشيخ البلادي (ت ١٣٤٠ هـ) لم يذكر المصدر الذي نقل عنه هذه القصيدة واعتمد عليه في نسبتها لابن المقرب.

(٥) انظر الديوان ص ٢٥٩ (الحاشية)

(٦) انظر الديوان ص ٦٦٣.

٢ ــ ورد في الأبيات الأربعة الأخيرة من القصيدة ما يشعر بأنها لابن المقرب، وهذا مما يدعو إلى الشك والارتياب. والأبيات هي[١]:

إليكُمُ نَفْثَةَ مَصْدُورٍ أَتَتْ ... مِنْ مُقْحَمِ الشِّعْرِ إلى مِصْقَعِ
مَغْرِبِيٌّ عَرَبِيٌّ طَبْعُهُ ... وَنَجْرُهُ وَلَيْسَ بالمُدَرَّعِ
يُنْمَى إلَى البَيْتِ العُيُونِيِّ إلى ... أَجَلِّ بَيْتٍ في العُلاَ وأَرْفَعِ
عَلَيْكُمُ صَلَّى الإلَهُ وسَقَى ... أَجْدَاثَكُمْ بكلِّ غَيْثٍ مُرْبِعِ

وكأن واضع القصيدة خشي من عدم اقتناع القاريء بنسبة هذه القصيدة للشاعر فأثبت نسب ابن المقرب في أسلوب متكلف مصطنع.

٣ ــ إن أسلوب القصيدة يختلف اختلافاً بَيِّناً عن أسلوب ابن المقرب، ففيها الروح القصصية الطويلة لما حدث لآل البيت رضوان الله عليهم من مظالم. وهي ظاهرة لم ألمحها في شعره الكثير، كما أن تكرار بعض الجمل فيها مثل: «يومٌ به لم يبق» التي تكررت في سبعة أبيات لا تتفق مع طريقة الشاعر في صياغة الجمل وتركيب الأبيات.

٤ ــ إن بحر القصيدة هو الرجز، ولم يكن ابن المقرب ينظم قصائده على هذا البحر، كما أن ستة أبيات منها غير مستقيمة الوزن[٢]، ولم يكن ابن المقرب ذلك الشاعر الذي يخطيء في أوزان قصائده رغم غزارة شعره.

٥ ــ وقد ذهب محقق الديوان الدكتور عبد الفتاح الحلو إلى أن هذه القصيدة مقحمة على ديوانه. وعلّل إثباته لها في الديوان بالحفاظ على أصل المخطوطة فقال[٣]:

---

(١) الديوان ص ٢٦٦.

(٢) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ١٥٢ و١٥٣ من الدراسة النقدية.

(٣) الديوان ص ١٢ من مقدمة المحقق.

«وهي قصيدة أكبر الظن أنها مقحمة على الديوان ، منسوبة إلى الشاعر ، وإلا لسرى هذا اللون إلى قصائده كلِّها أو إلى كثرتها، ويؤيد هذا الظن ما نجده في نهاية القصيدة من نسبتها إلى الشاعر بطريقة تقوِّي الشك فيها، إلا أني آثرت أن أثبتها في الديوان حفاظاً على الأصل المخطوط».

أما الاختلاف فيما عدا هاتين القصيدتين بين نسخ الديوان من حيث سقوط بعض القصائد أو المقاطع من بعض المخطوطات، أو تكرار بعض الأبيات في أكثر من قصيدة وما أشبه ذلك فيتمثل فيما يلي:

القصيدة الثامنة عشرة[1] لم يرد منها في الديوان سوى مقدمة غزلية تضم ثلاثة عشر بيتاً فقط، وأغلب الظن أن باقيها ساقط لأن من عادة ابن المقرب أن يبدأ بعض قصائده بمثل هذه المقدمة، ولم يكن يخصص في شعره قصائد غزلية مستقلة إطلاقاً، وغالباً ما تزيد قصائده على ستين أو سبعين بيتاً، كما ورد في التقديم لهذه القصيدة في مخطوطة مكتبة بلدية الإسكندرية عبارة: «وقال أيضاً يمدحه وأجاد[1]» وليس في القصيدة ذكر لأي ممدوح.

٢ ـ القصائد رقم ٢٧ و٥٩ و٦١ و٦٨و ٧٢ و ٨٦و ٩٤ غير موجودة في الطبعة المكية التي صدرت سنة ١٣٠٧ هـ، كما أن القصيدة رقم ٨٠ التي سجل الشاعر فيها مفاخر دولته وأسرته لا يوجد منها في هذه الطبعة سوى الأبيات الثلاثة والثلاثين الأولى وسقط منها ١١٧ بيتاً[2].

٣ ـ القصائد رقم ٦ و٧ و٥٧ سقطت من الطبعة الهندية التي صدرت سنة ١٣١١ هـ. كما أن القصيدة رقم ٤ التي تبلغ ٨٢ بيتاً لا يوجد منها في هذه الطبعة سوى ٥٨ بيتاً، والقصيدة رقم ٨ سقطت منها أربعة أبيات في هذه الطبعة، مع اختلاف ترتيب الأبيات فيها عن سائر المخطوطات، والقصيدة رقم ٧١ لا يوجد منها في هذه الطبعة سوى الأبيات الخمسة الأولى بينما تبلغ في المخطوطات الأخرى

---

(١) انظر الديوان ص ١٢٩.

(٢) انظر الديوان ص ٥٣٠.

أكثر من ثمانين بيتا. كما سقط من هذه الطبعة بيتان للشاعر على قافية الذال ليس له غيرهما في النسخ الأخرى على هذه القافية[١].

٤ ـ القصيدة الثالثة عشرة التي يمدح بها المستنصر بالله والبالغة ٦٨ بيتاً ساقطة من النسخ كلها عدا الطبعة الهندية[٢].

٥ ـ القصيدة السابعة والتسعون ساقطة من مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٢٦ أدب[٣].

٦ ـ القصيدة الثالثة والسبعون تكررت أبياتها من رقم ٣٩ إلى رقم ٥٦ في القصيدة الثامنة والسبعين، حيث جاءت فيها من عجز البيت رقم ٥٤ إلى نهايتها. ويرى محقق الديوان أن الشاعر هو الذي أورد هذا التكرار[٤].

ولعل مرد ذلك إلى سهو النساخ، إن لم يكن متعمداً من الشاعر الذي أدرج أبياتاً من قصيدة سابقة لاتفاق القصيدتين في الوزن والروي مع الفارق الزمني بينهما، وليس هذا أمراً مستغرباً، إذ كان البحتري وأمثاله يفعلون ذلك ليمدحوا بالقصيدة ممدوحاً آخر. ومثل ذلك أيضاً البيت الخامس من القصيدة السابعة الذي ورد في القصيدة العاشرة[٥]، والبيت الثالث من القصيدة السابعة والسبعين الذي ورد بنصه في القصيدة الثانية والثمانين[٦].

٧ ـ تدل الأبيات الأخيرة من القصيدة الخامسة والثلاثين أن الشاعر قد مدح ابن الدبيثي بسبعة أبيات، وليس في ديوان ابن المقرب أي مديح له[٧].

---

(١) انظر الديوان ص ١٩٨.

(٢) انظر الديوان ص ٩٢.

(٣) انظر الديوان ص ٦٤٩.

(٤) انظر الديوان ص ٥١٨.

(٥) انظر الديوان ص ٤٨ و٦٦.

(٦) انظر الديوان ص ٥١٠ و٥٦٦.

(٧) انظر الديوان ص ٢٢٨.

٨ ــ أورد الدكتور صلاح نيازي في دراسته النقدية لديوان ابن المقرب أبياتاً لم أجدها في ديوانه المطبوع. وهي قوله[١]

لَـكَ رَاحَـةٌ لَـوْ جَـادَ صَيِّبُهَـا ... في البَرِّ كَانَ البَـرُّ كَـالْبَحْـرِ
قَـلَّدْتَنِـي مِنَـنـاً تَـقَـلَّدَهَـا ... شُكْرِي وَأَوْضَحَ شَرْحَهَا شُكْـرِي
وَافَيْتُ أَشْكُـو الـدَّهْـرَ مَجْلِسَـهُ ... فَـرَجَعْتُ مَنْصُـوراً عَلَى الـدَّهْـرِ
إنَّ الأَمِيـرَ أَبَـا المَعَـالِي ذُو ... ذِكْـرٍ أَرِيـجِ العَـرْفِ والنَّشْـرِ

وقوله أيضاً[٢]:

بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الوَلِيْدُ صَبَابَـةً ... وَلَمْ تَكُ جَلْداً طَرَّحتـهُ الطَّوَارِحُ
سَقَى دَارَنَا مَا بَيْنَ فَيْدٍ فَحَاجِـرٍ ... فَوَادِي الغَضَا فَـالأَثْلِ غُـرٌّ دَوَالِحُ
فَيَا طِيْبَ عَيْشٍ كَانَ فِيْهَا وَغيْدُها ... غَـوَادٍ إِلَى أَبْيَـاتِنَـا وَرَوَائِـحُ
وَكَـانَتْ مُنَى نَفْسِي إليَّ قَـرِيْبَـةً ... فَهَـا أَنَا عَنْهَـا نَائِيُ الـدَّارِ نَازِحُ

ولعل هذه الأبيات قد انفردت بها مخطوطة المتحف البريطاني التي لم يرجع إليها الدكتور عبد الفتاح الحلو حين قام بتحقيق الديوان.

٩ ــ ورد في التقديم للقصيدة التاسعة أنها قيلت سنة ٦٧٥ هـ، وهذا التحديد غير صحيح لأن ابن المقرب توفي سنة ٦٣٠ هـ , ولم يشر محقق الديوان إلى هذا الغلط.

١٠ ــ ذكر ابن الشعار الموصلي أن ابن المقرب قد مدح الخليفة العباسي الظاهر بأمر الله[٣] ونحن لا نجد في ديوانه مديحاً لبني العباس سوى مدائحه للناصر لدين الله والمستنصر بالله وهما الخليفتان اللذان عاصرهما الشاعر لسنوات عديدة، أما الظاهر فلم تدم خلافته سوى عدة شهور ولكنّ ابن المقرب كان خلال هذه

(١) تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ٩١.
(٢) المصدر السابق ص ١٩١.
(٣) انظر قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ /١٢٦.

الشهور أو بعضها في بغداد مما يعزِّز رواية ابن الشعار، ولعل مديحه للظاهر قد سقط من مخطوطات الديوان التي اعتمد عليها محقق الديوان كما سيأتي[1].

وهكذايتضح لنا أن الاختلافات بين نسخ الديوان هي اختلافات يسيرة لا تمثل في مجموع ديوانه إلا قدراً قليلا.

وإن صدور طبعة محققة تُنشر بعد الرجوع إلى سائر مخطوطات الديوان سوف تستوفي ما نقص من شعره، وتساعد على تمحيص القول في نسبة القصائد والأبيات اليسيرة التي أخلت بها بعض مخطوطات هذا الديوان الضخم وطبعاته المتعددة.

---

(١) انظر ص (١٤٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

أغراض شعره

يضم ديوان ابن المقرب خمسة آلاف ومائتين وواحداً وستين بيتاً تجمعها ثمان وتسعون قصيدة خصَّص الشاعر منها للمدح إحدى وخمسين قصيدة تشتمل على ثلاثة آلاف وثمانية عشر بيتاً، ومعنى ذلك أن مدائحه قد استأثرت بأكثر من نصف الديوان لولا ما يخالط هذه المدائح من أغراض أخرى فرضتها طبيعة حياة الشاعر.

ويأتي غرض الشكوى والعتاب في الدرجة الثانية في ديوانه مبثوثاً بين أبيات مدائحه ، وربما أفرد له بعض القصائد المستقلة.

ثم يأتي الفخر في المرتبة الثالثة في شعره مختلطاً في الغالب مع الشكوى والعتاب عدا قصيدة واحدة خصصها لهذا الغرض ، وتعد أطول قصائده.

وتأتي الحماسة بعد هذه الأغراض الثلاثة، تليها الحكمة، ونسبتهما متقاربة بالقياس للأغراض السابقة.

أما الأغراض الأخرى فهي الوصف والهجاء والغزل والرثاء ، وهي غالباً ما تأتي في تضاعيف الأغراض الرئيسية المتقدمة ، وتعد ثانوية إذا قيست بها ،وربما أفرد الشاعر هذه الأغراض وبخاصة الهجاء والرثاء في قصائد مستقلة .

أولاً: المـــديح

يأخذ فنُّ المديح عند ابن المقرب طابعين مختلفين إلى حدّ ما من حيث علاقته بممدوحيه، ومن حيث الدوافع والمناسبات التي اضطرته إلى الإكثار من هذا الغرض حتى غلب على أغراض شعره الأخرى، لصلاته الواسعة بالأمراء العيونيين من أسرته وغيرهم من أعيان عصره. فقد خص أبناء عمه أمراء الدولة العيونية بثلاثين قصيدة مَدَحَ فيها أكثر من خمسة عشر أميراً عيونياً. كما امتدح رجالات عصره في أثناء رحلاته إلى العراق وفيهم بعض الخلفاء العباسيين وبعض ولاتهم في البصرة والموصل وأفرد لهم أكثر من عشرين قصيدة.

ولقد كان يقلِّب مدائحه بين هذين اللونين من المدح بكثير من الحذق والمهارة دون أن ينال ذلك من عزته ونبله، أو ينتقص من قدره ومكانته، وهو الأمير الشاعر الذي طالما تغنَّى بأمجاده وأمجاد أسرته، فقد استطاع أن يوازن بين ممدوحيه على اختلاف صلاته بهم، وأن يخاطبهم حسبما تقتضيه المناسبات، وأن يسجل أعمالهم ويشيد بكريم فعالهم في الوقت الذي لا ينسى فيه ما لقومه من مفاخر تستحق المديح والثناء كما سنرى.

١ ــ مدائحه لبني عمه:

كان ابن المقرب أميراً شاعراً ينتمي إلى أسرة ذات تاريخ حافل بالبطولات والأمجاد، وهي الأسرة العيونية التي ورثت القرامطة في حكم البحرين ووطدت الأمن فيه، وينتهي نسب هذه الأسرة إلى ربيعة التي اشتهرت في الجاهلية بمفاخرها وانتصاراتها، وعرفت بأبطالها وشجعانها وأيامها المشهورة. ولذلك فإن ابن المقرب كان لا يرى ــ في البداية ــ أحداً يستحق مدائحه سوى أفراد أسرته لما لهم من مكانة

تجعلهم أنداداً لرجال عصره إن لم تكن لهم المكانة الفضلى في نظره ، كان لا ينفكُّ يمدح بني عمه ، تدفعه القرابة والرحم لتعداد مناقبهم وتسجيل مآثرهم ، ويحركه الهوى والعصبة لإطرائهم والثناء عليهم مستنكفاً عن مدح غيرهم ولو كانوا في قمة سامقة من المجد والشرف ، وهو يخاطب بهذا المعنى أحد الأمراء العيونيين ، فيقول :

وَلَـولاَكَ لَـمْ أَنْـبِسْ بَـبَـيـتٍ وَلَوْ طَـمَـى
مِـنَ الشِّـعْـرِ بَحْـرٌ يَـرْدُفُ الْمَوْجَ سَـاحِـلُهْ

لَكِنَّ لِي فِيكُمْ هَوىً وقَرَابَةً ... تُحَـرِّكُنِي والرَّحْمُ يُحْمَـدُ واَصِلُهْ

وإِنِّي لأَشْنَا المَدْحَ فِي غَيرِ سَيِّدٍ ... أَبُوهُ أَبِي لَوْ زاحَمَ النَّجْمَ كَاهِلُهْ[1]

ولقد عاهد نفسه أن لا يمدح إلا سراة قومه ، فهم ليوث المعارك الجديرون بالثناء والمديح؟

ولَسْتُ بِمِفْـرَاحٍ بِـمَـالٍ أُفِيْـدُهُ ... لَعَمْري ولاَ آسٍ عَلَى إثْرِ هَـالِكِ

وَلاَ مَـادِحٍ إلاَّ سَـرَاةَ بَنِي أَبِي ... جِمَالُ المَعَالِي بَلْ لُيُوثُ المَعَارِكِ[2]

ولا عجبٌ إذا كانت هذه العزة والأنفة عند ابن المقرب هي التي فرضت عليه قصر مدائحه على قومه في بعض مراحل حياته ، فقد كان يرى أن فضله وشرفه ليس بموهبة الشعر التي يملكها ، ولكن بترفعه عن تسخير هذه الموهبة للثناء على من لا يستحق ، والسموِّ بها عن مدح الناس دون مراعاة لمقاييس الرجولة ومعايير الجدارة والاستحقاق :

وليس في الشِّعرِ من فَضْلٍ يطُول به ... مِثْلِي ولَو فَاقَ أَعْلَى سَبْعِهَا الطُّوَلِ

بَلْ فَضْلُ مِثْلِي أَنْ يَسْمُو بِهِمَّتِهِ ... عَنْ مَدْحِ فَدْمٍ عَنِ العَلْيَاءِ في شُغُلِ[3]

وهكذا راح ابن المقرب يمدح بني عمه أمراء الدولة العيونية ، ويخلد لهم

---

(١) الديوان ص ٣٤٠.

(٢) الديوان ص ٣١٤.

(٣)الديوان ص ٣٨٣ والفدم: العييّ الثقيل، ويروى البيت: عن مدح قوم، والسبع الطوال: المعلقات السبع.

مفاخر لم تذكر لهم لو لم يسجلها الشاعر بروائع شعره وجياد قصائده.

وليس غريباً أن يكون لاختلاف علاقة الشاعر بهذا الأمير أو ذاك أثر في اختلاف مدائحه لبني عمه قوة وضعفاً تبعاً لدوافع مدحه لكل أمير ممن تشدُّه إليهم علاقة محبة ومودة، أو يضطر إلى مصانعتهم ردءاً للأذى والمفسدة.

ولعل أجود مدائحه لبني عمه، وأصدقها عاطفة، وأكثرها تمثيلاً لجزالة شعره وسمو معانيه، هي تلك القصائد التي مدح بها ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل. فقد كانت صلته بهذا الأمير قائمة على الحب والتقدير والإعجاب المتبادل بعيداً عن أي تأثير آخر، كما تدل على ذلك حكايته مع ابن أبي الحسين حين أنشده إحدى قصائده[1]، فلمَّا أعجب بها الأمير عرض عليه أن يأخذ من ماله ما يريد، وناشده أن لا يشاوره في شيء مما يملكه، ولكن صلة ابن المقرب بهذا الأمير كانت فوق الطمع أو طلب النوال، وكانت تصدر عن احترامه له وإكباره لجلائل أعماله. وقد عبر عن هذا المعنى بقوله: «والله ما قلتُ ما قلت وذكرتُ ما ذكرت لشيء من الجوائز ولا زيادة مال، وإنما كان ذلك مني إذ رأيتك أهلا لما ذكرت، فوضعته في موضعه»[1].

ولقد مدح الشاعر ابن عمه هذا بست قصائد أولها ـ في أغلب الظن ـ بائيته التي مدحه فيها «سنة . . . . . . وذلك وقت ملكه الأحساء من البحرين[2]».

منالُ العُلَا بِالْمُرْهَفَـــاتِ القَواضِبِ وسُمْرِ العَوَالي والعِتَاقِ الشُّوَازِبِ[3]

كما مدحه بقصيدة أخرى يدل مطلعها علـى أنها قيلت بهذه المناسبة أيضاً:

زَهَتْ هَجَرٌ من بعدِما رَثَّ حَالُهَا وعَادَ إلَيْهَـا حُسْنُهَـا وجَمَالُهَا[4]

---

(١) الديوان ص ٥٨٥.

(٢) كذا في الديوان ص ٤٧، ولم أجد في المصادر الأخرى ما يدل على هذا التاريخ بالتحديد.

(٣) الديوان ص ٤٧، والشوازب: جمع شازب أي الخشن والضامر اليابس.

(٤) الديوان ص ٣٥٩.

وليس في التقديم لهذه القصيدة ما يدل على أنها في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين ولكنَّ قوله فيها:

غَـدَاةَ أَبُـو الجَـرَّاحِ يَعْـدُو كَـأَنَّـهُ ... نَعَـامَـةُ قَفْـرٍ تَقْتَفِيْها رِئَـالُهَـا[1].

وقوله فيها أيضاً:

فَعِشْ أَبَـداً يَـابَـا عَلِيٍّ بِعِـزَّةٍ ... يَزِيدُ عَلَى مَـرِّ اللَّيَـالِي جَـلاَلُهَـا

يؤكد أن القصيدة في مديحه. فقد خاطبه الشاعر بكنيته (أبي علي) في قصيدة أخرى[2]، كما أن قصته مع أبي الجراح معروفة حين ندبه الخليفة الناصر لدين الله لحماية طريق الحاج لما قطعه أبو الجراح وقومه[3].

وفي سنة ٦٠١ هـ مدحه أيضاً بلاميته:

صِـدَاقُ المَعَالِي مَشْـرَفِيٌّ وذَابِـلٌ ... وسَابِغَةٌ زغفٌ وأَجْرَدُ صَـاهِـلُ[4]

كما مدحه بقصيدة أخرى مطلعها:

سَـــائِـلْ دِيَـــارَ الحَيِّ مِنْ مَا وان ... مَا أَحْدَثَتْ فِيهَا يَدُ الحَـدَثَانِ[5]

وفي سنة ٦٠٢ هـ مدحه بنونية أخرى:

أَلَا رَحَلَتْ نُعْمٌ وأَقْفَـرَ نَعْمَـانُ ... فَبُحْ بِاسْمِهَا إنْ عـزَصَبْرٌ وسُلْوانُ[6]

---

(١) في الديوان والأصل المخطوط «غداة أبي الجراح يعدو» وهو تحريف أو غلط من النساخ، سها المحقق عن تصويبه. والرِّئال: جمع رأل وهو ولد النعام.

(٢) انظر الديوان ص ٦١٩ و٦٢٣

(٣) انظر ما تقدم ص ٤٠ .

(٤) الديوان ص ٣٥٠، والمشرفي: السيف، والذابل: الرمح الدقيق، والسابغة: الدرع الضافية، والزغف: الدرع اللينة الواسعة.

(٥) الديوان ص ٦١٨، وما وان: وادٍ باليمامة قرب الخرج وجبل ومنهل مشهور في عالية نجد.

(٦) الديوان ص ٥٨٦، ونعمان: وادٍ قرب مكة.

وقد أنشد هذه القصيدة بعدما دخل ذات يوم على الأمير محمد بن أبي الحسين فذكر الحاضرون الشعر، وعرَّضُوا به في مجلس الأمير حين سألوه: هل قال في هذا الوقت شعراً؟، وكأنهم يشيرون إلى بعض حروب ابن أبي الحسين التي انتصر فيها، وكان بين جلساء الأمير من يكره الشاعر ويضمر له العداوة دون أن يكاشفه في ذلك خوفاً منه[1]. وقد لقيت هذه القصيدة استحساناً من الأمير وجلسائه وطلبوا منه أن ينشيء قصيدة أخرى بداهةً، وألح عليه الأمير في ذلك فأنشد قصيدته الرائية في مدحه:

رِمَاحُ الأَعَادِي عَنْ حِمَاكَ قِصَارُ   وَفِي حَـدِّهَا عَمَّـا تَـرُومُ عِثَـارُ[2]

وهي آخر قصيدة مدحه فيها سنة ٦٠٢ هـ حين تحالفت بنو عامر على حرب ابن أبي الحسين[3].

ولعل الإعجاب الذي كان يبديه الأمير بشعر ابن المقرب ومشاركته الوجدانية له وسروره به من أهم العوامل التي وثَّقت صلته بالأمير. فلم يكن محمد بن أبي الحسين كسائر أمراء الدولة العيونية ممن لا يقيمون وزناً للشاعر وفنه وموهبته. ولقد كان الأمير لسان قومه في المحافل، خطيباً يجيد فنون القول ويتقن أساليب الحديث:

ونِعْمَ لِسَانُ القومِ إنْ قِيلَ مَنْ لَهَا   خَطِيبٌ وأَعْيَا الحَاضِرينَ مَقَالُها[4]

وإذَا نَظَرْتَ إلَى فَصَاحَةِ نُطْقِـهِ   أَلْهَاكَ عَنْ قُسٍّ وعَنْ سَحْبَانِ[5].

فلا غرو إذن أن يبادله الشاعر المحبة والمودة، وهو كما يراه ذلك الزعيم الذي

---

(١) انظر الديوان ص ٥٨٥.

(٢) الديوان ص ٢٠٧ وانظر ص ٥٨٥.

(٣) الديوان ص ٢٠٧ وانظر ص ٥٨٥.

(٤) الديوان ص ٣٦١.

(٥) الديوان ص ٦٢٢.

تفتقر البحرين إليه في توحيدها والقضاء على خلافات أمرائها من بني عمه. فقد توافرت فيه صفات الزعامة والقيادة، ممّا مكنه من القيام بالأمر بما يتطلع إليه الشاعر من عودة الوحدة إلى البلاد تحت لواء واحد بقيادة عشيرته وقومه حكام البحرين بعد أن طال الخصام بينهم:

بِهِ اعْتَدَلَتْ أَرْضُ الحَساءِ وغَيرُهَا　　وقَدْ كَانَ أَعْيَا لِلأَنام اعتِدَالُهَا(١)

وهو أيضاً أمير تجتمع فيه سمات الرجل النزيه وأخلاق القائد المؤمن البعيد عن كل خلق ذميم:

لَمْ يَنْطِقِ العَوْرَاءَ قَطُّ ولاَ دَرَى　　مَا الْكِبْرِيَاءُ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ
مَا حَلَّ حَبْوَتَهُ إلَى جَهْلٍ ولاَ　　أَصْغَى إلَى نَايٍ ولاَ عِيدَانِ
عَفُّ الإزادِ كَرِيمَةٌ أَخْلاَقُهُ　　نَاءٍ عَنِ الفَحْشَاءِ والشَّنَآنِ(٢)

وهو كريم كثير النوال، ملاذٌ لكل طارق أو محتاج:

ونِعْمَ مُنَاخُ الطَّارِقِينَ إذا أَتَتْ　　تَقَلْقَلُ مِنْ بَعْدِ الهُدُوِّ رِحَالُهَا
ونِعْمَ مَلاَذُ المُعْتَفِينَ إذَا نَبَا　　زَمَانٌ وهَبَّتْ عَامَ مَحْلٍ شَمَالُهَا(٣)

ويمضي ابن المقرب مع ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين يمدحه في كل موطن، ويتغنّى بشجاعته وبطولته في كل مناسبة، ويعلو نجم ابن أبي الحسين وتستقر دولته، وتسير الركبان بصيته وسمعته، ويَرْهَبُه الناس ويخافه قطاع الطرق فيمنحه الخليفة الناصر لدين الله ثقته ويعهد إليه حماية الحجاج في طريقهم إلى مكة المكرمة، ويوليه مسئولية تأمين السبل والقضاء على المفسدين.

---

(١) الديوان ص ٣٦٠.

(٢) الديوان ص ٦٢٠.

(٣) الديوان ص ٣٦٢ وتقلقل: تتحرك، والمعتفي: طالب المعروف والمحل: الجدب.

ويسجل الشاعر لابن عمه هذه المفخرة التي استحقها والشرف الذي ناله، فقد أصبح بحق الزعيم الذي لا ينازعه أحد في الجزيرة العربية وأطراف الشام والعراق، تذهب الرسل إليه وتجيء، ويخشى بأسه القاصي والداني:

هُوَ السَّيِّدُ الضِّرْغَامُ والأَسَدُ الَّذي ... بَنَى مَجْدَهُ فَوْقَ النُّجُومِ الثَّواقِبِ
لَهُ خَضَعَتْ غُلْبُ الرِّقَابِ وأصْبَحَتْ ... بِهِ الأَرْضُ تَزْهُو بَعْدَ تِلْكَ الغَيَاهِبِ
تَرى، عِنْدَهُ رُسْلَ المُلُوكِ مُقِيمَةً ... ذَهَابُ رَسُولٍ عِنْدَ آخِرِ آيِبِ
مَخَافَةَ سَطْواتٍ لَهُ يَعْرِفُونَهَا ... تُقيمُ عَلَى الأَعْدَاءِ صَوتَ النَّوادِبِ
ومَالَ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ بِوُدِّهِ ... إِلَيهِ وسَمَّاهُ زَعِيمَ الأَعَارِبِ
حَمَى البَرَّ مِنْ حَدِّ العِرَاقِ فَحازَهُ ... إِلَى الشَّامِ واسْتَولَى عَلَى حَدِّ نَاعِبِ
فَعَزَّ لِسَامِي عِزِّهِ كُلُّ خَائِفٍ ... مروُعٍ وأَغْنَى جُودُهُ كُلَّ طالبِ[1]

ولا ينفك ابن المقرب يحذر القبائل من قوة بأس الأمير وشدة سطوته، ويذكِّرهم بحروبه ووقائعه كما فعل ببني مالك حين أوقع بهم على ماء الدَّجاني [2] وهزمهم شر هزيمة فهو يقول:

فَقُل لِلْعِدَى مَهْلاً قَلِيلاً فإنَّهُ ... سِمَامٌ لِمَنْ يَبْغِي العَدَواةَ قَاتِلُ
كَأَنَّكُمُ لم تَعْرِفُوا سَطَوَاتِه ... إِذَا الحَرْبُ فَارَتْ مِنْ لَظَاهَا مَرَاجِلُ
سَلُوا تُخْبَروا مِنْ غيرِ جَهْلٍ لِفِعْله ... بَنِي مَالِكٍ فالْحُرُّ بالحَقِّ قَائِلُ
أَلَمْ يَجْلِبِ الجُرْدَ العِتَاقَ شَوازِباً ... مِنَ الخطِّ تَتْلُوهَا المَطَايَا المَرَاسِلُ
إِلَى أن أَناخَتْ بِالدَّجَانِيِّ بَعْدَمَا ... بَرَاهَا السُّرَى والأَيْنُ فَهيَ نَواحِلُ
فَصَبَّحْنَ حَيّاً لَمْ تُصَبَّحْ حِلالَهُ ... قَديماً ولاَ رَامَتْ لِقَاهُ الجَحَافِلُ
فَكَمْ قَرْمِ قَوْمٍ غَادَرَتْهُ مُجَدَّلاً ... تَقُطُّ شَوَاهُ الخَامِعَاتُ العواسِلُ[3]

---

(١) الديوان ص ٥١. وناعب: اسم حيٍّ من العرب.

(٢) انظر الديوان ص ٣٥٣.

(٣) الديوان ص ٣٥٣. والخط: ساحل الخليج العربي وقاعدته القطيف، والدجاني: اسم ماء في =

كما يقول في قصيدة أخرى:

فَسَائِلْ بِهِ فِي الحَرْبِ أَبْنَاءَ مَالِكٍ … وَما حَاضِرٌ فِي عِلْمِهِ مِثْلُ غَائِب
غَـدَاةَ تَوَلَّـوا هَـارِبِينَ وأَسْلَمُوا … عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُمْ كُلَّ بَيْضَاءَ كَاعِبِ (١)

ولقد غدا الأمير بهذه القوة المرهوبة سيِّد زمانه في نظر الشاعر، يبيت في تلال الأرض وهضابها، غير خائف من أعدائه، آمناً على نفسه، ولا تستطيع أيُّ قبيلة أن تمنعه من النزول في أرضها حين تندر الرياض المخصبة:

وإِنْ نُزِلَ الخَرْمُ المَخُوفُ فَبَيْتُهُ … مِنَ الأَرْضِ عَالِي هُضْبِهَا وتِلاَلُهَا
وإِنْ نَزَلَ الوَسْمِيُّ دَارَ قَبِيـلَةٍ … رَعَاهُ وَلَوْ أَنَّ الرِّيَاضَ قِلاَلُهَا (٢)

ولئن امتد العمر بالأمير محمد بن أبي الحسين لتصلنَّ جحافله ووقائعه في ظن الشاعر إلى الشام وإلى أقاصي جنوب الجزيرة العربية:

وإِنْ سَلِمَتْ نَفْسُ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ … شَكَتْ مِنْ سَرَايَاهُ عُمَانٌ وَعَمَّانُ
وسَارَتْ إِلَى أَرْضِ الشَّآمِ جُيُوشُهُ … وَلَمْ يَمْتَنِـعْ مِنْهَـا زَبِيدٌ ونَجْـرَانُ
فَتىً لَمْ يَزَلْ يَسْمُو إِلَى كُلِّ غَايَةٍ … إِذَا رَاحَ حَظُّ الْقَوْمِ نَحْسٌ ونُقْصَانُ (٣)

ولكنّ الأيام لم تمهل الأمير محمد بن أبي الحسين حتى يحقق تطلعات الشاعر، فسبقه القدر، وقُتل غيلةً على أيدي بني عامر (٤) وتوقف عن مثل ذلك

= الجانب الغربي من الدهناء، والمراسل: السهلة السير والأين: التعب، وتقطُّ شواه: تقطع يديه ورجليه، والخامعات العواسل: الذئاب المضطربة في عَدْوِها

(١) الديوان ص ٤٨.

(٢) الديوان ص ٣٦١. والخَرْم بالخاء والراء: أنف الجبل، ويروى البيت: وان نَزَلَ الخطبُ والوسميّ: أول مطر الربيع.

(٣) الديوان ص ٥٩١. وزبيد: بلدة في شمال اليمن، ونجران: بلدة في جنوب المملكة العربية السعودية.

(٤) انظر ما تقدم ص ٤١.

المديح الصادق لابن عمه، النابع من قرارة نفسه عن قناعة وحبٍّ وتقدير.

وحلت بالشاعر محنته التي سجن فيها، وسلبت أمواله وأملاكه، ولقي فيها من الهوان والمذلة مالقيه على أيدي بني عمه. وبعد خروجه من السجن عاد إلى مديح بني عمه ولكن بأسلوب آخر يختلف عن مديحه لمحمد بن أبي الحسين. فقد كانت مدائحه لهم في هذه الفترة لوناً من ألوان المديح المختلط بالشكوى والعتاب، أو بالفخر والحكمة وإسداء النصح، مع اختلافٍ أيضاً في طريقة مديحه لبعض بني عمه من حيث علاقته بهم إذ تقوم على الريبة والخوف حينا أو الرجاء والأمل حينا آخر.

ومن هنا فإن العاطفة التي تدفعه إلى مديحهم تخبو وتتَّقد تبعاً لصلاته بهذا الأمير أو ذاك، فكثيراً ما كان يمدح أحدهم مصانعة له ودفعاً لأذاه كما هو الحال في مدائحه لآل أبي المنصور على بن عبد الله بن علي، ويقرر هذه الحقيقة كاتب مقدمة ديوانه بقوله[1]:

«وما كان من مقاله في أبي المنصور علي بن عبد الله بن علي، فهو مصانعة منه واستدفاع، وكفٌّ لشره واستمناع، ولم يكن مادحاً له على إحسان، ولا على ثقة من الأمان».

ويسجل الشاعر أسفه وندامته على مديح هؤلاء، ولكنه كان مضطراً لذلك دفعاً للأذى حيناً، ومراعاة لأسباب القرابة والمودة حيناً آخر:

إلَى اللهِ أَشْكُو عَثْرَةً لَوْ تُدُوْرِكَتْ ... بتَمْزِيقِ جِلْدِي مَا أَسِفْتُ عَلَى جِلْدِي

مَدِيحِي رِجَالاً بَعْضَهُمْ أَتَّقِي بِهِ ... أَذَاهُ وَبَعْضاً لِلْمُرَاعَاةِ وَالْوُدِّ[2]

ويكتشف أخيراً أنه لم يجنِ من هذا المديح إلا الخيبة والخسران:

---

(١) الديوان ص ٦ من المقدمة.

(٢) الديوان ص ١٣٤

فَكُنْتُ وَإِهْدَائِي اَلمدِيْـحَ إِلَيْهِمُ كَغَـابِطَ أَذْنَابِ المهلَّبـةِ العُقْـدِ (١)

وكثيراً ما كان يشوب مديحه لبني عمه شيء من العتاب حينما أعرضوا عنه، ولم يراعوا فيه حق القرابة والرحم، ولم يكن لمدائحه الرائعة أيُّ صدى في قلوبهم:

أُعِيذُكَ أَنْ تَرْضَى بِنَقْصٍ لَماجِدٍ طَوِيْلِ عِمَادِ البَيْتِ مَحْضٌ ضَرَائِبُهْ
جُـدُودُكَ أَرْبَـابُ المَعَـالِي جُـدُوْدُهُ وَقَاضِبُكَ المُهْدِي لَكَ العِزَّ قَاضِبُهْ
تَـرُوحُ وَتَغْـدُو بـالثَّنَـاءِ عَلَيْكُمُ بِكـلِّ بِـلَادٍ خَيْلُهُ وَنَجَـائِبُـهْ
فَكَمْ سَارَلِي فِي مَدْحِكُمْ مِنْ غَرِيْبَةٍ تَرُوقُ وَأَغْلَى الشِّعْرِ مَهْراً غَرَائِبُهْ (٢)

وهكذا تمضي مدائحه لبني عمه أمراء الدولة العيونية بمثل هذه الروح في الوقت الذي اشتد فيه الصراع بينهم على الملك، وكلما نهض بالأمر حاكم جديد انبعث الأمل في نفس ابن المقرب في ردِّ مظلمته وإنصافه،ولكنه لا يلقى منه إلا الإعراض والصدود، فيقابله بالكفِّ عن مديحه كما فعل مع الأمير محمد بن ماجد حين مدحه ببائيته:

خُذُوْا عَنْ يَمِينِ الْمُنْحَنىَ أَيُّهَا الرَّكْبُ لِنَسْأَلَ ذَاكَ الحَيَّ مَا صَنَعَ السِّرْبُ (٣)

وقد جاء مديحه لمحمدبن ماجدفي هذه القصيدة متكلّفاً ينمُّ عن اضطراره إليه ومهادنته له إضافة إلى أنه لم يخصص منها لمدحه سوى أبيات قليلة. أما غالبية أبياتها فهي في الشكوى والاستعطاف. وحين سمع الأمير هذه القصيدة وعد الشاعر بردِّ أمواله وأملاكه ولكنه لم يفعل(٤) فاستنجزه بقصيدة أخرى يمدحه فيها مطلعها:

---

(١) الديوان ص ١٣٥. وغابط أذناب المُهَلَّبة: هو من يجسُّ إليَةَ الكبش أو الشاةَ ليعرف سمنها من هزالها، والمهلبة: منتوفة الهُلب أي الشعر، والعُقد: ملتوية الأذناب.
(٢) الديوان ص ٦١.
(٣) الديوان ص ٢٦
(٤) انظر الديوان ص ٨ من المقدمة.

أَمِنْ دِمْنَـةٍ بَيْنَ اللِّوَى وَالـدَّكَادِكِ شُغِفْتَ بِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ[1]

وفي هذه القصيدة يبدو اليأس في نفس الشاعر لعدم استجابة الأمير لمديحه له، ويناشده أن ينجز وعده حتى تبقى مدائحه مقصورة على بني عمه لمكانته العالية فيهم:

أَبَـا مَاجِـدٍ لَمْ يَبْقَ إِلاَّكَ مَـاجِـدٌ يُرَجَّى لأَبْكَارِ الخُطُوبِ النَّوَاهِـكِ
أَنِفْتُ لِمَـدْحِي مَنْ سِـوَاكُمْ لأَنَّني إِلَىَ ذِرْوَتَيْكُمْ فِي سَنَامٍ وَحَارِكِ[2]

ويعجب كيف يعرض بنو عمه عنه، وكيف يرضون أن يتجه شاعرهم إلى مدح غيرهم، ويوضح سبب حرصه على تخصيص بني عمه بدرر مدائحه:

مَخَـافَةَ تَـرَّاكٍ يَقُـولُ وَقَـوْلُـهُ أَمَضُّ وَأَمْضَى مِنْ حُدُودِ النَّيَازِكِ
لَوَ آنَّ بَنِي القَرْمِ العُيُـونِيِّ سَادَةٌ كِـرَامٌ يُـرَوُّونَ القَنَـا فِي المَعَـارِكِ
لَغَارُوا عَلَىَ النَّظْمِ الجَمِيلِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي مَعَانِي لَفْظِهِ مِنْ مُشَـارِكِ
أَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ عَمْرِو بْنِ مَرْثِـدٍ وَذُو المَجْدِ دَافَّاعُ الهُمُومِ السَّوَادِكِ
فَغَـرْ فَبَنَـاتُ الفِكْـرِ أَوْلَىَ بِغَيْـرَةٍ وَأَجْدَرُ مِنْ نُجْلِ العُيُونِ الرَّكَارِكِ
وَحَافِظْ عَلَىَ الذِّكْرِ الجَمِيْلِ فَإِنَّمَـا مَصِيرُ الفَتَىَ أُحْدُوثَةٌ فِي الشَّكَائِكِ[3]

ولّما لم يفِ الأمير محمد بن ماجد بوعده أعرض عنه وتوجه بمدائحه إلى ابن عمه الفضل بن محمد بن أبي الحسين في القطيف، فمدحه بقصيدة يُعرِّض فيها بأبناء عمه الذين سجنوه وصادروا أمواله، ثم لم ينصفوه ّلما مدحهم:

وَجَـالِبُ المَدْحِ يَسْتَمْرِي أَكُفَّهُمُ كَحَالِبِ التَّيْسِ يرْجُو مِنْهُ أَلْبَـانَا

(١) الديوان ص ٣٠٥.

(٢) الديوان ص ٣١٢. والنواهك: المهلكة، والحارك: أعلى الكاهل والعُرف الذي يأخذ به الراكب مما يلي الظهر.

(٣) الديوان ص ٣١٢. والنيازك: جمع نيزك وهو الرمح القصير، وعمرو بن مرثد: هو ابن مرثد الضبعي من مشاهير الجاهلية يضرب به المثل في نجابة الأولاد وفروسيتهم. والسوادك: الباقية الملازمة، والركارك: الوسنانة الضعيفة، والشكائك: الجماعات من الناس.

يَعُدُّ مَمْدُوحُهُمْ إصْغَاءَ مَسْمَعِهِ   إلَى مُمَدِّحِهِ فَضْلاً وإحْسَانَا[1]

وفي هذه النونية يرى الشاعر الفضل بن محمد صورة لأبيه الأمير محمد بن أبي الحسين، ويَقْوَى الأمل في نفسه بتوثُّق الصلة به كما كانت مع أبيه. فقد ورث الفضل عن والده كل صفات البطولة والشجاعة والكرم ورجاحة العقل، فهو إذن حريٌّ بأن يكرم الشاعر ويرفع عنه الظلم:

فَقُلتُ لَمْ نَرَ فِيهِ منْ خِلاَلِ عُلاَ   إلاَّ وَنَحْنُ نَرَاهَا في ابْنِهِ الآنَا
حَزْمٌ وَعَزْمٌ وَبَأْسٌ صَادِقٌ ونَدىً   غَمْرٌ وَحِلْمٌ وعَقْلٌ فَاقَ لُقْمَانَا
يا فَضْلُ دَعْوَةَ ذي قُربَى دَعَاكَ وَقَدْ   أَحَسَّ لِلضَّيْمِ في أَحْشَاهُ نِيْرانا[2]

ويصدق ظن الشاعر فيغدو من المقربين عنده، ويستعين به الأمير على حرب قَتَلةِ أبيه حين ندبه إلى بغداد لإحضار المؤن من الخليفة العباسي الناصر لدين الله[3] ويعود ابن المقرب بالمدد، ثم ينتصر الفضل بن محمد ويمدحه بميمية رائعة لا تقل عن مدائحه لأبيه في روعتها وصدق عاطفتها:

أَبتْ لَكَ العِزَّةُ القَعْسَاءُ والكَرَمُ   أَنْ تَقْبَلَ الضَّيْمَ أَو تَرْضَى بِما يَصِمُ[4]

ويحثه على استكمال النصر واسترداد سائر بلاد البحرين، وكأنه يغريه بالأحساء الخاضعة لحكم أبناء عمه آل علي بن عبد الله؛ وهم الذين أهانوا الشاعر وظلموه، فهو يستعجله بالمسير والنهوض لإتمام انتصاراته التي بدأت يوم دانت له القطيف وأخذ ثأر أبيه:

وَأَقْبَلَتْ نَحْوَكَ الأَيَّامُ مُذْعِنَةً   طَوْعاً لأَمْرِكَ وانْقَادَتْ لَكَ الأُمَمُ

(١) الديوان ص ٦٠٤. ويستمري: من قولهم مَرَى الناقة أي مسح ضرعها لتدرَّ الحليب.

(٢) الديوان ص ٦٠٨.

(٣) انظر ما تقدم ص ٤٢ و٧٢ .

(٤) الديوان ص ٥٢٠.

فانْهض وَسِرْ وافْتَحِ الدُّنْيَا فَقَدْ ضَمِنَتْ ... لَكَ المَهَابَةُ مَا تَهْوَى وَتَحْتَكِمُ[1]

لقد أخطأ الذين ظنوا أن ملك آل الفضل اندثر بموت محمد بن أبي الحسين، فقد أعاد الفضل ملك أبيه، وخابت آمال أعدائهم حين عاد نفوذهم، وثبتت دعائم ملكهم:

أَرْسَى قَوَاعِدَ مُلْكٍ كَانَ أَسَّسَهَا ... قِدْماً أَبُوهُ وَبَحْرُ المَوتِ يَلْتَطِمُ

مِنْ قَبْلِ أَنْ قِيلَ رَثَّ المَجْدُ وانْفَصَمَتْ ... عُرَى المعالي وَمَاتَ العَهْدُ وَالذِّمَمُ

وَقَالَ قَومٌ تَوَلىَّ المُلْكُ مُنْصَرِفاً ... عَنْ آلِ فَضْلٍ، لَقَدْ ضَلُّوا وَقَدْ وَهِمُوا

وَمَا دَرَوا أَنَّ فَضْلَ الجُودِ يُكْذِبُهُمْ ... عَماًّ قَلِيلٍ بمَا في زَعْمِهِمْ زَعَمُوا

ويَجْلِبُ الخَيْلَ كَالْعِقْبَانِ يَقْدُمُهَا ... عَلَيهِمُ القُورُ وَالغِيْطَانُ وَالأَكَمُ[2]

ولا ينسى الشاعر أن يسجل لممدوحه ما حظي به من تأييد الخليفة العباسي وثقته بانتصاره حين وصل إليه المدد من بغداد:

مِمَّا حَبَاهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بِهِ ... لَمَّا أَتَتْهُ بِهِ الوَخَّادَةُ الرَّسَمُ

مُسْتَعْصِمًا وَاثِقاً بالنَّصْرِ منهُ وَهَلْ ... يَخِيْبُ مَن بالإِمَامِ البَرِّ يَعْتَصِمُ

أَجَابَهُ حِينَ نَادَاهُ وَقَرَّبَهُ ... أَشَمُّ فِي رَاحَتَيهِ لِلنَّدى دِيَمُ[3]

ويمضي الشاعر فرحاً بانتصار ابن عمه الفضل بن محمد، فيمدحه بقصائد أخرى يثني فيها على فعاله وكريم خصاله، واكتسابه صفات أبيه وحمايته للملك الذي شيده أبوه:

---

(١) الديوان ص ٥٢١.

(٢) الديوان ص ٥٢٢. والقور جمع قارة وهي الصخرة العظيمة، والغيطان: الأراضي الواسعة المطمئنة.

(٣) الديوان ص ٥٢٤ والوخَّادة: من الوخد وهو للناقة الإسراع في المشي، والرَّسَم: التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء.

يَـا فَضْلُ يا مَنْ لاَ تَـزَالُ جِيَادُهُ وَطْءُ الأُنُـوفِ الشُّمِّ مِنْ عَادَاتِهَا
أَنْتَ الَّذِي مَا زَالَ سَيْفُكَ فِي الوَغَى يُرْدِي العِدَى وَيَكُفُّ مِنْ جَهْلاَتِها
أَشْبَهْـتَ وَالِـدَكَ الهُمَـامَ وإنَّمَـا عُرِفَتْ بَنُو الآسَـادِ مِنْ أَصْوَاتِهَـا
شَيَّدْتَ دَوْلَةَ آلِ فَضْـلٍ بَعْـدَمَا خَـرَّتْ قَـوَاعِـدُهَـا عَلَـى آلاَتِهـا
عَلَتِ النُّجُـومَ بُـرُوجُهـاً فَكَـأَنَّمَـا عَقَـدَتْ أَكَالِيْـلاً عَـلَىَ شُـرُفَـاتِهـا
وَقَرَعْتَ آنَافَ العِدَى فَتَقَاصَـرَتْ أَطْمَـاعُهَا وَكَفَفْتَ مِنْ سَـطَوَاتِهَـا
وَحَمَيْتَ دَارَ أَبِيْـكَ مِنْـكَ بِهِمَّـةٍ الجُـودُ والإِقْدَامُ مِنْ هَـامَـاتِهَـا[1]

على أن صلة ابن المقرب بالفضل بن محمد ما لبثت أن قوضتها الوشايات والدسائس واعتراها الشك والريب بعدما استمع الفضل إلى أعداء الشاعر وحاسديه حين حذروه من تطلع ابن المقرب إلى مكانة أعلى من مكانته[2]. وعزَّ عليهم أن يجد الحظوة عند الفضل، فعادت السعايات تنقض عرى الصداقة التي نشأت بينهما، وكأنما أحس ابن المقرب بوطأة هذه الوشايات حين أوشك حساده أن يحققوا هدفهم في القطيعة بينه وبين الفضل، فهو يمدح الفضل بقصيدة مطلعها:

ظَنَنْتُ حَسُودِي حِينَ غَالَتْ غَوَائِلُهْ يَرِيعُ إِلَىَ البُقْيَا وَتُطْوَى حَبَـائِلُهْ
وَقُلْتُ كَفَـاهُ مَـا لَقِيْتُ وَنَـالَنِي بِهِ الدَّهْرُ مما كَـانَ قِدْمـاً يحاوِلُـهْ
فَـمَاَ زَادَ ذُو الأَضْغَانِ إِلاَّ تَمَـادِيـاً وَلاَ بَشَّـرَتْ إِلاَّ بِشَـرٍّ مَخَـائِلُهْ[3]

ولما استجاب الفضل للوشايات وأظهر الجفوة لابن المقرب عزم على مفارقته والرحيل عن القطيف بعد أن عاتبه وأكثر من لومه بداليته[4] التي أعلن فيها ندمه على

---

(١) الديوان ص ١١١.
(٢) انظرما تقدم ص ٧٢.
(٣) الديوان ص ٣٢٦.
(٤) انظر الديوان ص ١٤٠.

مدائحه التي أسبغها على بني عمه، وحزنه حين يسمع هذه القصائد تتردد على ألسنة الناس:

نَدِمْتُ عَلى مَدْحِي رِجَالاً وَسَرَّني ... بِأَنْ ضَمَّنَتْنِي قَبْلَ ذَاكَ المَلاَحِدُ
وَحُقَّ لِمِثْلِي أَنْ يموتَ نَدَامَةً ... إِذَا أُنْشِدَتْ فِي النَّاسِ تِلْكَ القَصَائِدُ(١)

ويستمر الصراع محتدماً بين الأمراء العيونيين، ويتولى الأمير أبو على محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد إمارة الأحساء فيطمع ابن المقرب بعدله وإنصافه ويمدحه بقصيدته:

بَعَثْتَ تهدِّدُ بِالنَّوَى وَتَوَعَّدُ ... مَهْلاً فإنَّ اليَومَ يَتْبَعُهُ غَدُ(٢)

كما مدحه بقصيدته الميمية:

صُعُودُ العُلاَ إلاَّ عَلَيْكَ حَرَامُ ... وعَيْشٌ سِوَى مَا أَنْتَ فِيهِ حِمَامُ(٣)

وقصيدته الميمية الأخرى:

أَنِخْ فَهذِي قِبَابُ العِزِّ وَالكَرَمِ ... وَقِلْ فَكُلُّ العُلاَ فِي هَذِهِ الخِيَمِ(٤)

وفي هذه القصائد نرى الشاعر يولي اهتمامه مناقب ال الفضل بن عبد الله، ويعدد مكارم محمد بن مسعود ومفاخر أبيه وجدوده، ويبدي ارتياحه لبقاء الملك فيهم، فقد كانوا أجدر الناس به وأقدرهم على مقارعة الخطوب وأكرمهم في النائبات:

وَلَوْ لم تَلاَفَ المُلْكَ مِنْ صَرْعَةِ الرَّدَى ... لَكُشِّمَ عِرْنِينٌ. وَجُبَّ سَنَامُ

---

(١) الديوان ص ١٤١

(٢) الديوان ص ١٦٠.

(٣) الديوان ص ٤٧٣.

(٤) الديوان ص ٥٥٤. وقد جاء في التقديم لهذه القصيدة أنها في مدح الأمير مسعود بن أحمد، إلا أن أبياتها ١٩ و٥١ إلى ٥٧ تدل على أنها في مدح عماد الدين أبي علي محمد بن مسعود.

لِيَرْقَ غَبِيٌّ رَامَ شَأْوَكَ فِي العُلاَ ... عَلى ظَلْعِهِ اَلنَّجْمُ لَيْسَ يُرَامُ
وَكَيْفَ تُغَالِيكَ السِّيَادَةَ مَعْشَرٌ ... سَهِرْتَ لَهَا اللَّيْلَ الطَّوِيلَ وَنَامُوا
بِكَ العِزُّ أَضْحَتْ شَمْسُهُ مُسْتَنِيرَةً ... وَكَانَ عَلَيْهَا لِلْخُمُولِ قَتَامُ
لَعَمْرِي لَنِعْمَ المَرْءُ أَنْتَ إذَا غَدَا ... فِئَامٌ تُسَاقِيهِ الحُتُوفَ فِئَامُ
وَرِثْتَ العُلا عَنْ أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدٍ ... وَفَضْلٍ وَكُلٌّ فِي العَلاَءِ إِمَامُ
وَمَا النَّاسُ إلاَّ آلُ فَضْلِ بْنِ عَبْدَلٍ ... إِذَا جَلَّ خَطْبٌ أَوْ تَنَكَّرَ عَامُ(١)

ولقد اطمأنت نفس الشاعر لعودة الإمارة لآل الفضل ، إذ كانت صلته بهم وثيقة منذ عهد أميرهم الشجاع محمد بن أبي الحسين ، فهو لذلك لا يجد حَرَجاً حين يعود إلى مديحهم رغم ندمه الشديد على مدائحه التي تناقلها الناس في بني عمه وخيبة أمله فيهم . إنه لا يخفي ارتياحه بصعود محمد بن مسعود على عرش الإمارة في الأحساء ، فقد كان لها كفوءاً يوم وقع عليه الاختيار ، وهو لها أهل بما عرف عنه من شجاعة وحزم وهمة عالية ورأيٍ مستنير :

أعْطَتْهُ مَمْلَكَةَ الأَحْسَاءِ هِمَّتُهُ ... وَعَزْمُ مُسْتَبْصِرٍ بالرَّأْيِ غَيرِ عَمِ
فإنْ يَقُولُوا اخْتِيَاراً كَانَ ذَاكَ فَهَلْ ... يُخْتَار للضَّربِ غَيرُ الصَّارِمِ الخَذِمِ(٢)

كما امتدح ابن المقرب أخاه الأمير حسن بن مسعود، فهو أيضاً ينتمي للفضل بن عبد الله، ولو امتد بهما العمر إلى زمانه لكانا به أكثر زهواً وافتخاراً:

نَمَاهُ إلَى العَلْيَاءِ فَضْلٌ وَعَبْدَلٌ ... وَلَوْ أدركَاهُ اليَومَ لأفتخَرَا بِهِ(٣)

فالشاعر يرى استحقاق الأمير حسن للمديح والثناء لكريم شمائله وأريحيته، وهو حين يمدحه فليس ذلك رغبة في نواله وعطائه:.

نَظَمْتُ لَهُ مَدْحِي وَمَا جِئْتُ طَالِباً ... نَدَاهُ وَلاَ مُسْتَمْطِراً مِنْ سَحَابِهِ

---

(١) الديوان ص ٤٧٤ . وكَشْمُ العرنين: قطع الأنف، وظلْعه: عَرَجه، والفِئام: الجماعة من الناس.

(٢) الديوان ص ٥٥٩. والخذم: القاطع.

(٣) الديوان ص ١٠٣.

وَلَكِنَّ هَـزَّتْنِي لِذَاكَ ارْتِيَـاحَـةٌ   وَعُجْتُ لَمَحْمُودِ الثَّنَا مُسْتَطَابِهِ[1]

كما مدح ابن المقرب أيضاً أخاه حسين بن مسعود بإحدى قصائده[2] وبالغ في إسباغ نعوت المديح والثناء عليه من شجاعة وكرم وفضل، وأصالة نسب وطيب محتد.

ولقد استمرت صلة الشاعر بأبناء عمه بين مد وجزر تبعاً لوصول بعضهم إلى الحكم وانتهاء حكم آخرين. فقد شهدت العقود الأخيرة من عمر ابن المقرب من سنة ٦٠٥ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ تقريباً أشدَّ ألوان الصراع بين بني عمه أمراء الأحساء والقطيف، وكان خلال هذه الفترة يرحل إلى العراق كلّما ساءت علاقته بأحدهم، أو لم تعجبه الطريقة التي يدير بها الأمير شئون الحكم، ثم يعود إلى بلده حين يسيطر أمير جديد على مقاليد الأمور، وهو يأمل فيه الخير والصلاح، وتشدُّه رابطة القرابة وحرصه على بقاء الحكم في أسرته وعدم خروجه من أيدي بني عمه، فيدفعه ذلك إلى مديحهم والثناء عليهم، والتغاضي عن مظاهر الصراع السيء بينهم مع رغبته أيضاً في التقرب إليهم واستعادة مكانته في أسرته، فكانت قريحته تجود بالمديح للأمير المنتصر، كما فعل حين وصل الأمير أبو سنان مسعود بن محمد بن علي بن عبد الله إلى الحكم في الأحساء، فمدحه بثلاث قصائد[3] منها لاميته:

يَا سَاهِرَ الطَّرْفِ مِنْ خَوفٍ وَمِنْ وَجَلٍ   نَمْ فِي جِوَارِ الْهُمَامِ السَّيِّدِ البَطَلِ[4]

وهي لا تختلف في موضوعها عن مدائحه لسابقيه مع قربها إلى المصانعة والتكلف، وما لبث الشاعر أن وجه إليه اللوم بشدة بعد أن خاب ظنه فيه حين فرّط في أملاك أقاربه[5].

---

(١) الديوان ص ١٠٣. ولم يضبط المحقق لفظ «ولكن» مع ما في ذلك من إيهام فساد الوزن، وإنما هي بتشديد النون واسمها ضمير الشأن محذوف.

(٢) انظر الديوان ص ٤١٣.

(٣) انظر الديوان ص ٢٢٩و٣٨٤ و٥٨٠.

(٤) الديوان ص ٣٨٤.

(٥) انظر الديوان ص ٦١٠.

ولما تولى الإمارة بعده الأمير علي بن ماجد بن محمد بن علي مدحه بقصيدته البائية:

صَدَّتْ فَجَذَّتْ حَبْلَ وَصْلِكَ زَيْنَبُ تِيْهاً وَأَعْجَبَهَا الشَّبَابُ الْمُعْجِبُ(١)

وقد ورد في مقدمة ديوانه أن الدافع لمدحه في هذه القصيدة لم يكن «رغبة في رفده، ولا طمعاً في إعادة أملاكه وردها عليه، بل قصد إفحام ألسنة الحساد، لئلا يقولوا لم يمتدحك كما امتدح الإخوة والأنداد، ولم يُرضِك بشعر ولا أهَّلك لنفع وضر(٢)».

كما مدحه أيضاً بقصيدته الرائية:

ذَرِيْنِي فَضَرْباً بِالْمُهَنَّدَةِ الْبُتْرِ وَلاَ لَوْمَ مِثْلِي يَا أُمَيْمُ عَلَى وَتْرِ(٣)

ونستظهر من دراسة هاتين القصيدتين أن هدف الشاعر من مدحه لم يكن مجرد إفحام ألسنة الحساد حتى لا يقولوا إنه لم يمدحه مثلما مدح غيره، كما يقول كاتب المقدمة وذلك لأن مضمون القصيدتين يدل على استبشاره بوصول علي بن ماجد إلى الحكم، وهو يثني عليه بما قام به من توطيد الأمن ونشر العدل:

أَضْحَتْ بِكَ الأَحْسَاءُ سَاكِنَةً وَقَدْ رَجَفَتْ بِمَنْ فِيهَا وَكَادَتْ تُقْلَبُ
لَوْ لَمْ تَدَارَكْهَا وَتَرْأَبْ صَدْعَهَا لَغَدَتْ بِهَا خَيْلُ الهَلاَكِ تَوَثَّبُ
أَحْيَيْتَهَا بَعْدَ المَمَاتِ وَبَعْدَمَا قَامَتْ بَوَاكِيْهَا تَنُوحُ وَتَنْدُبُ
وَمَنَعْتَهَا مِنْ بَعْدِ مَاكَانَتْ سُدَىً فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ تُغَارُ وَتُنْهَبُ
وَمَلأْتَهَا عَدْلاً وَكَانَتْ عُمِّمَتْ جَوْراً تَغُورُ بِهِ الدِّيَارُ وَتُخْرَبُ(٤)

---

(١) الديوان ص ٨٤ وقد ورد في التقديم لها أنها في مدح علي بن محمد بن علي ولكن مقدمة ديوانه ص ٩ تدل على أنها في مدح علي بن ماجد بن محمد بن علي.

(٢) الديوان ص ٩ من المقدمة.

(٣) الديوان ص ١٩٨ .

(٤) الديوان ص ٨٩.

كما نراه في القصيدة الثانية يصرح بأنه سعى بنفسه إلى الأمير :

وَلَوْلَاكَ بِالأَحْسَاءِ لَمْ تُحْدَ نَحْوَهَا   قَلُوْصِي وَلَم يَصْهلْ بَجَرْعَائِهَا مُهْري [1]

وكأنه كان يتشوق إلى تقديمها بين يديه وقد ضنَّ بها على من لا يستحقها سواه :

إِلَيْكَ أَبَا المَنْصُورِ عِقْدَ جَوَاهِرٍ   قَلَمَّسُهَا صَدْرِي وَغَوَّاصُهَا فِكْرِي
نَفِسْتُ بِهَا عَمَّنْ سِوَاكَ وَسُقْتُهَا   إِلَيْكَ لِعِلْمِي أَنَّهَا أَنْفَسُ الذُّخْرِ [2]

يضاف إلى ذلك أن الأبيات الأخيرة من القصيدتين تدل على ما ينتظره الشاعر من قيام الأمير بإنصافه ورفع الظلم عنه خلافا لما أورده كاتب المقدمة من أن مديحه لهذا الأمير لم يكن طمعا في استرداد أملاكه.

إن المتتبع لديوان ابن المقرب يلاحظ كثرة ممدوحيه من أمراء أسرته حين يستعرض أسماء ممدوحيه من بني عمه، فيعجب كيف لا يَمَلُّ الشاعر من مديحهم ما دام لم يلق منهم إلا الإعراض والصدود، وقد بلى منهم عدم استجابتهم لآماله وتطلعاته. ولعل الظروف التاريخية التي مرت بها منطقة البحرين، وما حدث من نزاع بين أمرائها على مرأىً ومسمع من الشاعر، بالإضافة إلى ظروفه الشخصية وما صاحبها من صلاته المختلفة مع أبناء عمه هي التي فرضت عليه هذا الواقع، وأظهرته بمظهر الشاعر المدَّاح. ولعله كان يرى في هذه المدائح والإكثار منها وتوجيهها إلى عدد غير قليل من بني عمه لوناً من الفخر بصورة غير مباشرة حين ينقل الرواة هذا المديح لذلك العدد الوفير من أمراء أسرته، وكلهم بهذه المنزلة التي يحلهم بها الشاعر من زعامة وأصالة وشجاعة وكرم وسوى ذلك من مكارم الأخلاق. إنه بهذا الإكثار من مديح قومه لا يخشى لوم الناس أو وصفهم له بالتناقض حين يسبغ على أحد بني عمه من المدائح ما كان قد أسبغه على آخر، أو حين يلزم نفسه بمدح هذا الأمير ويضِنُّ به على آخرين. لأن الدافع الذي يحدوه إلى الإكثار من مديح قومه هو جدارتهم بذلك، وهو يعبِّر عن هذا في مدحه للأمير مقدم بن ماجد بن محمد :

---

(١) الديوان ص ٢٠٥ . والقلوص: الناقة الباقية على السير.

(٢) الديوان ص ٢٠٤. والقَلَمَّس : البحر.

وَارْغَبْ بِمَدْحِكَ إلاَّ فِي سَلِيلِ عُلاً ... يُنْمَى إلِيَ العِزِّ من آبَائِكَ النُّجُب
مُتَـوَّجٍ عَبْـدَلِيٍّ حِيْـنَ تَنْسُبُـهُ ... لِخَيْرِ جَدٍّ إذَا يُدْعَى وَخَيْرِ أَبِ(١)

ولم يكن مدحه مقتصراً على الأمراء المتوَّجين من بني عمه كما رغب، بل لقد شمل أيضاً أولئك الذين لم يكن لهم شأن في الحكم مِمَّن يتمتعون بمكانة بارزة في الأسرة العيونية بحكم انتمائهم إليها، كما في مديحه لابن عمه أبي أحمد علي بن أحمد بن عبد الله بن إبراهيم بن غرير، مما يقرر حقيقة وَلَعِه بمدح بني عمه دون سواهم ولو كان غيرهم ذا مال كثير، فليس المال في نظره هو المقياس لاستحقاق المديح، بل الشرف الذي ينعم به قومه والسيادة التي يتمتعون بها:

وَلَسْتُ بِمَـادِحٍ سَفْسَـافَ قَـوْمٍ ... وإنْ قَـالُـوا لَـهُ مَـالٌ رُكَـامُ
أَبَـى لِي ذَاكَ أَنِّي مِنْ قَـرُومٍ ... صَهَـامِيْمٍ تُسِيْمُ وَلاَ تُسَـامُ(٢)

لذلك فهو يثني على ابن عمه هذا بانتمائه إلى جدوده ذوي الشرف الرفيع:

نَمَـاهُ إلَى ذُرَى العَلْيَـا غُـرَيْـرٌ ... وإبْـرَاهِيمُ وَالِـدُهُ الـهُـمَـامُ(٣)

وإذا كان ابن المقرب وفيًّا لأسرته معتزاً بها حينما يبادر إلى مديح كل أمير جديد وتهنئته بتسلُّم الإمارة فإنه لا ينسى الفضل لسلفه حينما يكون المقام مناسباً لتبيان الصلات بين السلف والخلف، فيثني عليهما في قصيدة واحدة كما في مديحه للأمير فاضل بن معن يوم تولّى الحكم بعد الأمير مقدم بن ماجد:

وَإذَا مَضَى مِنَّـا هُمَـامٌ مَـاجِـدٌ ... لَمْ يَمْضِ إلاّ عَنْ طَرِيْقِ هُمَامِ
هَلْ شَدَّ عِقْدَ التَّاجِ بَعْدَ مُقَدَّمٍ ... إلاَّ فَتَى قَوْمِي وَسِلْكُ نِظَامِي
مَنْ فِي المُلُوكِ إذَا تُعَدُّ كَفَاضِلٍ ... لِعَطَا الرَّغَائِبِ أَوْ لِضَرْبِ الهَامِ(٤)

---

(١) الديوان ص ٧٨. ولعل رواية البيت الأول «يُنْمَى إلى الغُرِّ» بدلًا من «يُنْمَى إلى العِزِّ».

(٢) الديوان ص ٥٦٧. والسَفْسَاف: الرديء الوضيع، وركام: بعضه فوق بعض والقَرم: السيد، والصِّهميم: الشريف. وسامه: أذلَّه.

(٣) الديوان ص ٥٦٦.

(٤) الديوان ص ٥٠٠ . وقد ورد في التقديم لها أنها في مدح ابن الفضل بن أحمد بن عبد الله ولكنّ التقديم لها في مخطوطة دار الكتب المصرية يثبت أنها في مدح فاضل بن معن (انظر حاشية ص ٤٩٨) ويعزز ذلك تصريح الشاعر باسمه في هذه الأبيات.

ثم يصل ابن المقرب إلى خاتمة المطاف في مدائحه لبني عمه بمدحه آخر الأمراء العيونيين محمد بن محمد بن أحمد بإحدى قصائده، وهي آخر مدائحه في أغلب الظن[١]. وفي هذه القصيدة يبدو الشاعر مادحاً وناصحاً وكأنه يستشعر قرب زوال الحكم في أسرته العيونية. وفي أبياتها الأخيرة نراه يتحدث عن مدائحه الكثيرة التي طوَّق بها أعناق بني عمه فسرت في المحافل ترفع قدرهم وتُعلي شأنهم، وقد حان وقت تقديرهم لهذا الجميل واعترافهم بذلك الفضل وفاءً لحق القرابة والرحم والمودة:

وَلاَ تُهْمِلَنْ وُدِّي لَكُمْ وَقَــرَابَتِي   وَأَشْعَارِيَ اللاَّتِي مَلأْنَ المَحَافِلاَ
فَكَمْ لِي فِي عَلْيَاكُمُ مِنْ غَرِيبَـةٍ   يَـظَلُّ مُسَـامِيكُمْ لَهَـا مُتَضَـائِــلاَ
نَتَـائِجُ فِكْـرٍ غَادَرَتْ كُـلَّ فِكْـرَةٍ   نَتُوْجٍ لِمَا يَحْلُو مِنَ الشِّعْرِ حَائِلا[٢]

إنه هنا يمتَنُّ على بني عمه بمدائحه التي أشادت بقومه ورفعت ذكرهم بين الناس، ويُدِلُّ على ممدوحه بثنائه عليه كما يفعل المتنبي حين يخاطب ممدوحيه بمثل قوله لسيف الدولة:

أَجِزْنِي إذَا أُنْشِدْتَ شِعْراً فَإِنَّمَـا   بِشِعْـرِي أَتَاكَ المَـادِحُونَ مُـرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي   أَنَا الصَّائِحُ المَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّدَى[٣]

وابن المقرب يتعمّد الفخر والتعالي على قومه حتى في استعطافه وشكواه ومحاولته التقرب إلى بني عمه أمراء الدولة العيونية مع أن المقام يقتضي منه الاكتفاء بإظهار مناقب ممدوحيه واستدرار عطفهم. وربما ذهب إلى أكثر من ذلك حين لا يقِرُّ لبني عمه بأي فضل أو منَّةٍ عليه، بل إنهم مدينون له بالفضل بما خصهم من مدائح، وبما لحقه بسببهم من الأذى والمشقة:

فَكَمْ سَارَلِي فِي مَدْحِكُم مِنْ غَرِيبَةٍ   تَرُوقُ وأَغْلَى الشِّعْرِ مَهْراً غَرَائِبُهْ
بِـلاَ مِنَّـةٍ أَسْـدَيْتُمُـوهَـا وَلاَ يَـدٍ   إِلَيَّ وَقَـولُ المَرْءِ أَسْـوَاهُ كَاذِبُـهْ
بَلَى إِنَّنِي قَـاسَيْتُ فِيْكُمْ مَصَائِبـاً   تَهُدُّ القُوَى إِذْ أَدْرَكَ الثَّأرَ طَالِبُهْ[٤]

---

(١) انظر الديوان ص ٣٩٥. وقد انتهى حكم محمد بن محمد سنة ٦٣٦هـ، وكانت وفاة الشاعر سنة ٦٣٠هـ.
(٢) الديوان ص ٤٠٤ والحائل: العقيم.
(٣) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/٢٩١.
(٤) الديوان ص ٦١.

ويظل هذا التعالي والفخار ملازماً للكثير من مدائحه كما في قوله للأمير علي ابن ماجد بن محمد- يمدحه وينصحه ويفاخره:

وَاقْبَلْ نَصِيْحَةَ مَاجِدٍ بَاعَدْتَهُ عَنْكُمْ لِضَعْفِ الرَّأْيِ وَهْوَ الأَقْرَبُ
آبَاؤُكَ الغُرُّ الكِرَامُ إِذَا انْتَمَوْا آبَاؤُهُ وَجُدُوْدُهُ إِذْ تُنْسَبُ
أَبْقَى لَكُمْ فِي كُلِّ دَارٍ حَلَّهَا شَرَفاً يُشَرِّقُ ذِكْرُهُ وَيغَرِّبُ
يَشْرِي عَدُوُّكُمُ المُدَاجِي بُعْدَهُ عَنْكُمْ بِأَنْفَسِ مَا يُبَاعُ وَيُطْلَبُ[1]

ولعل الشاعرْ كان محقاً حين يخاطب قومه بهذا الأسلوب إذ لم يلق من أمراء الأسرة العيونية إلا الإعراض والصدود ثم الأصفاد والقيود، وكان وفياً لهم رغم عقوقهم وجحودهم. فقد سجل لهم بفيض قريحته شرفاً خلدته الأيام بهذه المدائح وإن اختلفت مناسباتها أو اضطر إلى بعضها اضطراراً، وإن التاريخ لم يعرف أمراء الدولة العيونية إلا من خلال شعر ابن المقرب، بل إن الدولة العيونية بأسرها لم تكن لتعرف في هذه الحقبة التاريخية إلا في صفحات ديوان الشاعر إذا استثنينا بعض الأخبار المقتضبة عنها. وإن هذا الخضمَّ الكثير من مدائحه لبني عمه ليكفي للدلالة على مقدار وفائه ومحبته لهم، فلقد كان يعاهد نفسه في أكثر من مناسبة على أن يقصر مدائحه على أقاربه وعشيرته بمثل قوله مخاطباً الأمير ابن ماجد:

وإِنِّي بِمَدْحِي عَنْ سِوَاكَ لَرَاغِبٌ وَلَوْ بَاكَرَتْنِي كُلَّ يومٍ رَغَائِبُهْ[2]

إنه ليس من أولئك الشعراء الباحثين عن المال ممّن يمدحون أربابه، ويثنون عليهم ليكسبوا نوالهم وعطاءهم، فعزة نفسه وشرف أسرته يمنعانه من ذلك، ولكنه يقول بعد البيت السابق مباشرة:

فَإِنْ تَجْفُنِي فَالبَحْرُ عِنْدِي كَثِيْرَةٌ مَرَاكِبُهُ والبَرُّ عِنْدِي رَكَائِبُهْ

وهنا نتساءل: هل استطاع الشاعر حقاً أن يبقى على عهده في اقتصار مدائحه على بني عمه وعشيرته؟ أم أن المحنة التي حلّت به وابتُلي بها فساقته إلى القيام برحلاته إلى العراق قد اضطرته إلى مديح رجالات عصره الآخرين؟، وإذا كان قد فعل فما هي سمات هذا المديح، وما هي دوافعه، وهل يختلف عن مدائحه لبني عمه؟، وما هو موقفه بين يدي ممدوحيه وقد دعته الحاجة إلى الاستعانة بهم

(١) الديوان ص ٩٠. والمداجي: من يضمر العداوة.
(٢) الديوان ص ٦٣.

والتلميح لهم بالحاجة وقلة ذات اليد، وهو الأمير الشاعر الذي يعتدُّ بنفسه ويكره أن يَلِجَ إلى ممدوحيه من أبواب دخل منها الشعراء الآخرون؟

ذلك ما سنراه في دراستنا لقصائده التي مدح بها معاصريه خارج نطاق أسرته العيونية.

٢ ــ مدائحه لرجال عصره:

نشأ ابن المقرب في أسرة حاكمة ذات نسب عريق، وتعلم منها العزة والأنفة والترفع عن المسألة والبعد عن طلب المال، وقد كان في بداية حياته مثل غيره من أقاربه العيونيين غنياً وافر المال، يملك الضياع والبساتين، فكان مديحه لأبناء عمه في هذه المرحلة موافقاً لرغباته في توثيق صلات المحبة بهم، لا يدفعه إلى هذا المديح سوى أواصر القربى ووشائج المودة، دونما غرض مادي أو منفعة عارضة، وهو ما صرح به للأمير محمد بن أبي الحسين لمّا عرض عليه المال لقاء مديحه فرفض أن يأخذ الجوائز على شعره موضحاً أن مديحه للأمير إنما هو اعتراف بفضله وأهليته للمديح، كما يقرر هذه الحقيقة بقوله مخاطباً إياه:

إِلَيْكَ ابن شَقَّاقِ الفَوَارِسِ مِدْحَةً ... تُطَأْطَأُ لَهَا مِنْ حَاسِدِيْكَ الكَوَاهِلُ
أَتَتْكَ كَنَظْمِ الدُّرِّ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ ... لإِحْيَاءِ وُدٍّ لا لِمَالٍ يُحَاوِلُ(١)

ولما تغيرت حاله بعد سجنه ومصادرة أمواله وجد نفسه فقيراً معدماً بعد أن كان غنياً وافر المال، فعز عليه أن يسأل بني عمه وهم الذين أهانوه وسجنوه، وصعب عليه أن يتنازل عن كبريائه وترفعه فعمد إلى التلميح لهم بحاجته معرِّضاً بعزمه على الرحيل، متسائلاً كيف سيكون موقفه وهو يمتدح غيرهم؟ وماذا سيقول الناس عنهم وقد تخلَّوا عنه وزهدوا في مدائحه وهو الذي كان يضِنُّ بها على الناس جميعاً ولو فاقوا الكرام في بذلهم ونوالهم:

وَقَدْ كَانَ لِي فِي الأَرْضِ مَنْأىً وَمَرْحَلٌ ... وَمَا ضُرُّ أَهْلِ الفَضْلِ مِنْ أَنَّهُمْ غُرْبُ

---

(١) الديوان ص ٣٥٩.

وَثَـانِيَـةً أنِّي أُغَـازُ عَـلَيكُـمُ ... إذا مَا جَزِيلِ النَّظْمِ سَارَتْ بِهِ الكُتُبُ
وَجَاءَ مَدِيْحِي فِي سِوَاكُمْ فَيالَهَا ... حُوَيْجِيَّةٌ يَأْبَى لَهَا المَاجِدُ النَّدْبُ
هنَاكَ يَقُولُ النَّاسُ: لَوْ أَنَّ قَوْمَهُ ... كِرَامٌ لَكَانَتْ زَنْدُهُمْ عَنْهُ لاَ تَكْبُو
فَإِنَّ امْتِدَاحِي غَيْرَكُمْ كَهِجَائِكُمْ ... وَذَلِكَ مِنِّي إنْ تَحَرَّيْتَهُ عَتْبُ
وَعِنْدِي ممَّا ينسِجُ الفِكرُ والحِجَا ... سَرابيلُ تَبْقى مَا تَرَادَفَتْ الحِقْبُ
أَصِنُّ بِهَا عَنْ غَيْرِكُمْ وأَصُونُهَا ... وَلَوْبُعِثَ الطَّائِيُّ ذُو الجُودِ أَوْ كَعْبُ(١)

ولمّا لم يجد الاستجابة من أبناء عمه، وعرف منهم الإصرار على قطيعته وحرمانه من أمواله وأملاكه، أخذ يفكر بالرحيل إلى العراق والتوجه لأعيانه ورجالاته المعروفين بمدائحه علَّه يفك بذلك ضائقته المالية، ولعل أبناء عمه أيضاً يشعرون بتقصيرهم نحوه، فيندمون على إعراضهم عنه. ولكنه كان متردداً في السفر إلى العراق يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، إذ كيف ستطاوعه نفسه أن يمدح ويأخذ المال وهو الذي كان يترفع عن أخذه من بني عمه، فكيف يستجدي غيرهم، فيحزن لذلك ويسلِّي نفسه بالصبر والجلد:

وَقَـائِـلٍ لِـي إذْ رَاقَـهُ أَدَبِـي ... وَالمَرْءُ قَدْ رُبَّمَا أَخْطَا وَمَا عَلِمَا
وَذَاكَ بَعْدَ سُؤَالٍ منهُ عَنْ خَبَري ... والصِّدْقُ مِنْ شِيْمَتِي لَوْ أَوْرَثَ البَكَمَا
هَلاَّ امْتَدَحْتَ رِجَالاً بالعِرَاقِ لَهُمْ ... مَـالٌ رُكَامٌ وَجُـودٌ يَطْرُدُ العَـدَمَـا
فَجَاشَتِ النَّفْسُ غَبْناً بَعْدَ أَنْ شَرِقَتْ ... عَيْنَايَ بالدَّمْعِ حَتَّى فَاضَ وَانْسَجَمَا
فَقُلْتُ كَلاَّ وَهَلْ مِثْلِي يَلِيقُ بِـهِ ... مَدْحُ الرِّجَالِ فَكَمْ جُرْحٍ قَدِ الْتَأَمَا
إنِّي عَلَى حَادِثَاتِ الدَّهْرِ ذُوْ جَلَدٍ ... تَجْلُو الحَوادِثُ مِنِّي صَارِماً خَذِمَا
وَلَسْتُ أَوَّلَ ذِي مَجْدٍ لَهُ ظَلَمَتْ ... صُرُوفُ أَيَّامِهِ العَوْصَاءُ فَانْظَلَمَا
يَأْبى لِيَ الشَّرَفُ العَالِيُّ مَنْصِبُهُ ... أَنْ أُورِدَ النَّفْسَ خِرْصاً مَوْرِداً وَخِما(٢)

---

(١) الديوان ص ٣٤. وكعب: هو كعب بن مامة الإيادي، ويضرب به المثل في الكرم وحسن الجوار

(٢) الديوان ص ٥٢٩، والعوصاء: الشديدة الصعبة.

لكنه مع ذلك لم يجد بدّاً من العزم على السفر إلى العراق ، فشد رحاله على مضض ، ويبدو أن أول من خطر بباله أن يقصده بمدائحه هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، فلا حرج عليه أن يتخلى عن عهده السابق بتخصيص مدائحه لبني عمه ما دام قد اتجه بها إلى خليفة المسلمين ، وهو أعلاهم مكانة وأرفعهم قدراً ، ولا ضير عليه في ذلك بعدما لقيه من الجحود والهجر من بني عمه ، فلما وصل إلى الخليفة الناصر مدحه بقصيدته :

أَرَتْهَا المَآقِي مَـا تُكِنُّ الجَوَانِـحُ ... فَبُحْ فالمُعَنَّى بالصَّبَابَـةِ بَائِـحُ[1]

ولسنا ندري متى توجه إلى الخليفة بهذه القصيدة ولكن الأقرب أنه قد أنشأها في إحدى رحلاته الأولى إلى العراق في العقد الأول من القرن السادس الهجري ، كما يغلب على الظن أنها أولى مدائحه للناصر لدين الله لما تتضمنه من حوار يدل على تردد الشاعر في السفر إلى الخليفة ، ثم عزمه الرحيل عن دار الهوان إلى مقام الخلافة حيث العدل والإنصاف :

فإنْ غَاضَ في أَرْضِي الوَفَاءُ وقُطِّعَتْ ... أَوَاصِرُ ذي القُربَى وَعَزَّ المُنَاصِحُ
ففي شَاطِيءِ الزَّوْرَاءِ نُصْحٌ يَمُدُّهُ ... وَفَاءٌ تَهَـادَاهُ العُقُـودُ الصَّحَائِـحُ
وعَدْلٌ تَسَاوَى فيـه سَامٌ ويَـافِثٌ ... يقُـومُ بهِ نُـورٌ مِنَ الحَقِّ وَاضِـحُ
إمَـامُ هُدىً بَـطْحَاءُ مكـةَ مَوْلِـدٌ ... لآبـائِهِ الشُّمِّ الـذُّرَى لا البَطَائِحُ
فَتىً حَلَّ مِنْ عَلْيَا لُـؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... مَحلًّا بِهِ لَا يَعْلَقُ الـطَّرفَ لَامِحُ[2]

وهو في هذه القصيدة ينبه الخليفة إلى أنه توجه إليه دون غيره ، فهو الجدير بالمدح والثناء ، وهو المؤمل الذي يهون التعب والنصب في سبيل الوصول إليه ، فلا أحد غيره يساميه أو يجاريه في كرمه وجوده وإفضاله :

يقولُونَ لي : هَلَّا امْتَدَحْتَ مَعَاشِراً ... لَهُم أَوْجُـهٌ غُـرٌ وأَيْـدٍ مَـوَائِـحُ

---

(١) الديوان ص١٢٠ .

(٢) الديوان ص ١٢٤ .

فقُلتُ وَقَدْ فَاضَتْ مِنَ العَينِ عَبْرتِي ... ذَرُونِي فَلي طَرْفٌ عَنِ النَّاسِ طَامِحُ
فَلَولاَ أميـرُ المؤمِنِينَ وذِكْـرُهُ ... لَمَا قَطعَتْ بِيَ البِيدَ هُوجٌ مَشانِحُ
وَلاَ خُضْتُ أَمَواجَ البِحَارِ كَـأنَّهَا ... جبَـالٌ تَرَامَى بِي جَنُـوبٌ وَبَارِحُ
أأتْرُكُ مَدَّ النِّيـلِ فَاضَ وأبْتَغِي ... فَراشَـاً تُعَفِّى مَـاءَهُنَّ البَـوَارِحُ
وإنَّ امْـرأً شَطُّ الفُرَاتِ تِجَاهَـهَ ... وَيـطلُبُ أَمْوَاهَ الـرَّكَايَا لَقَـامِحُ
و إنِّي إنْ أَسْدَيْتُ مَدْحـاً لِغَيرِهِ ... جَدِيرٌ بأنْ تَنْسَدَّ عَنِّي المَنَاجِحُ[1]

وليس لدينا ما يدل على صدى هذه القصيدة عند الخليفة. فهل اهتم بأمره أو أنصفه من بني عمه؟ وهل أعطاه ما يفك به ضائقته، ويعلي به شأنه بين قومه وعشيرته حين يعود إليهم؟.. على أننا نرجح أنه لم ينل عند الخليفة كلَّ ما يؤمله ويرجوه، فقد عاد يمدحه سنة ٦١٤ هـ بقصيدة مطلعها:

أَمَاراتُ سِرِّ الحُبِّ ما لا يُكَتَّمُ ... وأَبْـيَـنُ شَـيءٍ مَا يُجِنُّ المُتَيَّمُ[2]

وفي هذه القصيدة نراه كثير الشكوى، عظيم الإلحاح، كثير المبالغة:

سـأُرْحِلُهَـا إمَّـا لِـدَاعِي مَنِيَّـةٍ ... وإمَّـا لِعِـزٍّ حَـوضُـهُ لا يُهَـدَّمُ
فَفِي شاطِىءِ الزَّورَاءِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... إمـامُ هُدىً يُؤوَى إليـهِ فَيَعْصِمُ
تَطُوفُ المُلُوكُ الصِّيدُ حَوْلَ فِنَائِهِ ... كَمَا طَافَ بالرُّكْنِ اليَمَانِيِّ مُحْـرِمُ
أَضَاءَتْ بِهِ الدُّنَيَا سُرُوراً وَبَهْجَةً ... فَـأَيَّـامُهَـا تِيـهَـاً بِـهِ تَتَبَسَّـمُ
وَأَلْقَتْ إليـهِ بـالمَقَـالِيدِ بُلْغَـرٌ ... وَعُـرْبٌ وأكْـرَادٌ وتُـرْكٌ وَدَيْـلَمُ
وَمَـا النَّاسُ والأَمْـلاَكُ إلاَّ عَبِيْدُهُ ... صَرِيْحُهُمُ إنْ يُنْسَبُوا والمُخضْرَمُ[3]

---

(١) الديوان ص ١٢٦. والمشانح: جمع للشناحي وهو الطويل الجسيم من الإبل، والبارح: الريح الحارة في الصيف، والفَرَاش: بفتح الفاء ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض، والركايا: الآبار، والقامح: الكاره للماء لِعلَّةٍ فيه.

(٢) الديوان ص ٤٤٨.

(٣) الديوان ص ٤٥١و٤٥٣.

وهو يصرح في خاتمتها بحاجته وبما يرجوه من الخليفة بعد أن تجشم المتاعب والصعاب في طريقه إليه:

إليكَ سَمِيَّ المُصْطَفَى وابْنَ عَمِّهِ … تَخَطَّتْ بيَ البَيْدَاءَ وَجْنَاءُ عَيْهَمُ
وَخَاضَ بيَ الرَّجَّافَ عَارٍ عِنَانُهُ … يبيتُ بِيُمْنَى فَارِسٍ لا يُـوَهَّـمُ
وحُسْنُ اعتِقَادِي والوَلاَءُ أَجَاءَنِي … إليـكَ وَوُدٌّ خَالِصٌ لا يُجَمْجَمُ
وأَفْضَـلُ ما يُـرْجَى ثَوابُ زِيَارَةٍ … يَؤمُّ بها أَكْنَافَ دَارِكَ مُسْلِمُ(١)

وفي القصيدة الثالثة التي مدح بها الناصر لدين الله:

إلاَمَ أُنَاجِي قَلْبَ حَيْرَانَ وَاجِمِ … وأَنْظُرُ عُودِي بَينَ لاَحٍ وَعَاجِمِ(٢)

نرى الشاعر وهو يتطلع إلى الغنى والثراء، ويحلم بالبشارة التي سينقلها إلى أهله حين يعود إليهم بهدايا الخليفة، ولا غضاضة عليه في ذلك ما دام يطلب المال من الخليفة وحده دون سواه، وما دام عطاء الخليفة يعيد له عند عشيرته المجد والرفعة ويغيظ به حاسديه وشانئيه:

وَبَشَّرْتُ أَهْلِي بالغِنَى حَيثُ مَرْجِعِي … إلَيهِمْ عَلى أَنْفٍ منَ الدَّهْرِ رَاغِمِ
فجِئتُ وَقَدْ نَالُوا السَّمَاءَ وأَيْقَنُوا … بأَنَّ الغِنَى أَضْحَى كَضَرْبَةِ لاَزِمِ
وَلَمْ امتَدِحْ خَلْقاً سِوَاكَ لِمالِهِ … فَأَحْظَى بِنَيْلٍ أو بعَضِّ الأَبَاهِمِ
وإنِّي لأَرْجُو من أَيَادِيكَ نَفْحَةً … عَلَى الدَّهْرِ يَبْقَى ذِكْرُهَا فِي المَوَاسِمِ
أُفِيدُ بِهَا مَجْداً وأَكْبِتُ حَاسِداً … وأَعْلُو بِهَا هَامَ المُلُوكِ الغَوَانِمِ
وكَمْ عَاشَ مِثْلِي في نَدَاكَ مُؤَمِّلاً … عَظِيماً يُرَجَّى للأُمُورِ العَظَائِمِ(٣)

ويبدو مع كل هذا الإلحاح أنه لم ينل خيراً كثيراً من الخليفة العباسي الناصر

---

(١) الديوان ص ٤٥٥. والوجناء العَيْهَم: الناقة القوية الشديدة السريعة، الرَّجَّاف: البحر المضطرب، والعاري: المركب، والعنان: مقود المركب.

(٢) الديوان ص ٤٩٠. ولحا العود: قشره، وعَجَمه: اختبره.

(٣) الديوان ص ٤٩٨.

لدين الله الذي طالت مدة خلافته، ولم يحقق بمدائحه له ما كان يرجوه. فقد استبشر بتولِّي المستنصر بالله الخلافة سنة ٦٢٣هـ، وكأنه يرى في ذلك قيام حظه وقرب تحقيق آماله:

اليوم سُرَّ العُلا واستبشرَ الأدبُ ... وأحْمَدَتْ سَيْرها المَهْرِيَّةُ النُّجُبُ
اليومَ أعتبَ دَهْري وارْعَوَى وَقَضى ... في كُلِّ ما كُنتُ أَشْكُوهُ فَلَمْ أُجَبُ
اليومَ أَسْفَرَ وجهُ الحَظِّ وانبَسَطَتْ ... يَدُ الرَّجَاءِ وَزَالَ الهَمُّ والنَّصَبُ
اليومَ أَقْبَلَتِ الآمَالُ بَاسِمَةً ... عَنْ كَالْمَهَا زَانَهُ التَّفْلِيْجُ والشَّنَبُ(١)

إنه يتوقع من الخليفة الجديد حين يستمع إلى مديحه أن يعيد له حقه الذي ظل يطلبه ويمتدح الخلفاء والأمراء من أجله دهراً طويلاً دون يأس أو ملل، وغير بعيد أن يعيد إليه ثروته بما عرف عنه من كرم وعدل وإنصاف:

وَكَمْ أَخِي ثَرْوَةٍ أَوْدَى بِثَرْوَتِهِ ... ظُلْمُ الوُلاَةِ وَتَأويلاَتُهَا الكُذُبُ
أَعَادَ ثَروَتَه مِنْ غيرِ مَسْأَلَةٍ ... إليهِ عَفْواً وقَدْ مَرَّتْ لَهَا حِقَبُ(٢)

ولقد كان ابن المقرب يختار من المعاني في مدائحه لبني العباس ما يناسب مقام الخلافة، فتراه يولي اهتمامه بقيام الخليفة بالذود عن الإسلام، وجمع شمل المسلمين، والتصدي لأعدائهم، ومحاربة الشرك والفساد:

فَمَا الحَقُّ إلاَّ دَعْوةٌ هَاشِمِيَّةٌ ... هِيَ الحَقُّ لاَ دَعْوَى غَوِيٍّ وغَاشِمِ
بها أَصْبَحَ الإسْلاَمُ في كُلِّ مَوطِنٍ ... يَنُوءُ بِرُكْنٍ منهُ عَقدِ الدَّعَائِمِ
أَقَامَ لَهُ في كلِّ ثَغْرٍ كَتَائِباً ... تَرَى الشِّركَ من شَدَّاتِهَا في مَآتِمِ

---

(١) الديوان ص ٩٢. والمهرِّية: الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن وقد اشتهرت بسرعة جريها، وفي الديوان «فكم أجب» وهو تعبير فاسد محرف صوابه «فلم أجب» يريد: اليوم حقق لي الدهر ما كنت أشكو إليه فقداني إياه فلا أجاب إليه. وقد اكتفى المحقق بقوله في الحاشية: «كذا بالأصل»، والتفليج: انفراج ما بين الأسنان، والشنب: رقة الأسنان.

(٢) الديوان ص ٩٤.

تَبيتُ طَـوَاغِيتُ النِّفـاق لِهَمِّـهِ كَأنَّ حَشايَـاهَا ظُهُـورُ الشَّيـاهِمِ
تُقَلِّبُهَـا جَنْبـاً فجَنْبـاً مَهَـابَـةٌ ثَوَتْ واسْتَقَرَّتْ بينَ تِلكَ الحَيَازِمِ[1]

* * *

وَأَضْحَى بِه الإِسلاَمُ غضاً وأصْبَحَتْ عُيونُ الأَذَى عن سِرْبِهِ وهْيَ نُوَّمُ
وَمُـذْ خَفقَتْ رَايَـاتُـهُ وبُنُـودُه فَوَجْهُ بِلَادِ الشِّركِ بالضَّيْمِ يُلْطَمُ
لَهَا كُلَّ يوم مِنهُ شَعْوَاءُ لَا تَنِي تَؤُزُّ نَـوَاحِيْهَـا وَجيشٌ عَـرَمْـرَمُ
أَعَـزَّ بِـهِ اللهُ الـرَّعِيَّـةَ فـاغْتَـدَتْ ولا ظَـالِمٌ فيهـا وَلَا مُتَـظَلِّمُ[2]

كما ينوّه بصلتهم برسول الله ﷺ ورابطة القرابة التي تجمعهم به وهو فخر لا يدانيه أي فخر:

أُبُـوَّتُـهُ إمّـا نَـبـيٌّ مُعَـظَّـمٌ إلى اللهِ يدعُو أو إمـامٌ مُكَرَّمُ[3]

تلك هي مدائحه لبني العباس: أربع قصائد في مدح خليفتين. وقد ذكر ابن الشعار الموصلي أنه قد مدح أيضاً الظاهر بأمر الله فقال: «ومدح الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم: الناصر لدين الله، والظاهر، والمستنصر بالله رحمه الله[4]». ومعلوم أن ابن المقرب كان في بغداد سنة ٦٢٣ هـ وهي السنة التي تولّى فيها الظاهر الخلافة، ومات فيها أيضاً حيث لم تدم خلافته سوى تسعة شهور تولى بعده ابنه المستنصر بالله[5]. وإذا علمنا أن الشاعر لم يمتدح الناصر بأكثر من ثلاث قصائد مع أنه كان معاصراً له معظم سنوات خلافته التي استمرت ستاوأربعين سنة، وأنه لم يمتدح المستنصر بالله إلا بقصيدة واحدة مع أنه قد عاصره مدة سبع سنوات فإن من

---

(١) الديوان ص ٤٩٤. والشياهم: ذكور القنافذ العظيمة الشوك، والحيازم: الصدور.

(٢) الديوان ص ٤٥٣. والشعواء: الغارة الشديدة.

(٣) الديوان ص ٤٥١.

(٤) قلائد الجمان في شعراء الزمان ١٢٦/٥ (مخطوط).

(٥) انظر ما تقدم ص ٤٧.

غير المرجح أن يكون قد مدح الظاهر بأكثر من قصيدة واحدة أيضاً.

ولعله كان قد أعدَّ القصيدة التي مدح بها المستنصر ليمدح بها والده الظاهر فلما توفي صرفها لابنه، أو لعل مديحه للظاهر قد فقد فلم يثبت في ديوانه، وربما انفردت به إحدى المخطوطات التي لم يرجع إليها محقق الديوان، ويحتمل أن يكون الأمر قد اختلط على ابن الشعار فظن أنه قد مدح الظاهر وهو لم يمدحه. وتلك احتمالات لا يستطيع المرء الجزم بإحداها.

وفي إحدى رحلات ابن المقرب إلى العراق في أثناء مروره بالبصرة التقى بأميرها أبي شجاع شمس الدين باتكين، فوجد في مجلسه الترحيب والإكرام ومدحه بلاميته:

سَمَالَكَ من أُمِّ العُبَيدِ خَيالُ ... ودُونَ لِقَاهَا أَجْرُعٌ وسَيَالُ[1]

وفي هذه القصيدة يبدي سروره بلقاء شمس الدين، ويخاطب رهطاً توجهوا إلى بلده الأحساء فيوصيهم بإبلاغ رسالة إلى بني عمه:

فَثَمَّ تُلاَقُونَ المُلوكَ بَنِي أَبِي ... وَيَكْثُرُ عنِّي حِينَ ذَاكَ سُؤَالُ
فَقُولُوا لَهُمْ إنَّا تَرَكْنَا أَخَاكُمُ ... بحَيثُ مآلُ الرَّاغِبِينَ مَآلُ
لَدَى مَلِكٍ لا يَبْلُغُ الوَصفُ مَدْحَهُ ... وإنْ أَطْنَبَ المُدَّاحُ فيه وقَالُوا
حَمَولٍ لأعْبَاءِ الأُمُور وإنَّها ... عَلَى غَيرِهِ لَوْ رَامَهَا لَثِقَالُ
لَهُ أبداً عِرْضٌ مَصُونٌ عنِ الخَنَا ... وَمَالٌ لِمُمْتَاحِ النَّوَالِ مُذَالُ[2]

وإذن.. فلقد وجد الشاعر من يهتم بأمره ويقدر مدائحه ويشاركه همومه، فتوثقت صلته بالأمير، وتحولت علاقته به إلى صداقة دائمة جعلت ابن المقرب يكثر

---

(١) الديوان ص ٤٣٤. وأجرع: جمع جرعاء وهي الرملة الطيبة المنبت، والسَيال: جمع سيالة وهي نبات له شوك أو الطوال من شجر السمر.

(٢) الديوان ص ٤٣٦. ومَذَلَ بماله: جاد به.

من التردد على البصرة، ويبالغ في مدح أميرها شمس الدين، فقد مدحه بخمس قصائد أخرى[1] ، وهو ما لم يتوافر لممدوحيه الآخرين من رجال عصره بما فيهم خلفاء بني العباس . ولعل السر في توثُّق الصلة بينهما هو أن شمس الدين باتكين كان ذا ملكة بلاغية وصاحب ذوق أدبي رفيع :

وعَـوْدٌ في البَـلاَغَـةِ ذُو فُنُونٍ ... يُـريكَ بـذِهْنِـهِ إرَمـاً وعَـادَا
تَـوَهَّـمَـهُ وَلَمْ يَـلْفظْ بِحَـرْفٍ ... فَمَـا أَبْـدَى لَـدَيـه وَلاَ أَعَـادَا[2]

وكان معجباً بالشاعر وأدبه وفنّه مميِّزا بين الجيد وما دونه من شعره حتى جعل من نفسه ناقداً لهذا الشعر كما يقول عنه ابن المقرب :

وَمَـا طَلَبي سِوَى لِقْيَـانِ مَلْكٍ ... يَـلُوحُ ضِيَـاءُ غُـرَّتِـهِ اتِّقَـادَا
لأقْضِي بَعْضَ وَاجِبِـهِ وأَحْـظَى ... بِـلَفْظٍ منـهُ كـالـدُّرِّ انتِـقَـادَا
يُؤَيِّـدُ خَاطِـري ويُجِيدُ فِكْـري ... وأَجْـعَـلُهُ لِـمَـا أبـني عِـمَـادَا[3]

ولهذا فإنه حين يمدح باتكين فإنه سيجد لديه التقدير والإعجاب خلافا لما كان يلقاه من بعض ممدوحيه من إعراض وصدود:

ولَسْتُ بِجَـالِبٍ لِسِـوَاكَ شِعْـراً ... فأَخْشَى من تَعَرُّضِـه الكَسَادَا[4]

وبالإضافة إلى هذه الرابطة الأدبية التي جمعت بينهما فقد كان ابن المقرب أيضاً معجباً بشخصية شمس الدين ، مُكبراً إصلاحاته في البصرة وتعميرها، واهتمامه ببنائها وتأمين سبلها . فقد بنى جامعها من جديد، وأحاطها بسور يحيمها، وعمّر أسواقها، وأقام فيها الحدود الشرعية . فلم يسع الشاعر وهو يرى هذه الأعمال الجليلة إلا أن يخلِّد ذكر الأمير، ويسجل بشعره هذه الأعمال العمرانية:

---

(١) انظر الديوان ص ١٨٢ و١٩١و ٤٠٦و ٥٧١ و٦٤٣.
(٢) الديوان ص ١٨٧ .
(٣) الديوان ص ١٨٤ .
(٤) الديوان ص ١٩٠ .

بَنَى بـالبَصْرَةِ الفَيحَـاءِ سُوراً   يُضـاهِي السَّـدَّ سَبْكـاً وانْعِقَـادَا
وأَيَّـدَهُ بِمِثْـلِ اللِّهْبِ تَـأْبَى   عَلَى الأَيَّـام صُفَّتُـهُ انْهِـدَادَا
وَزَيَّـنَـهـا بـأَسْـوَاقٍ أَرَانَـا   بِهـا كُـلَّ البِـلَادِ لَهَـا سَـوادَا
وكَمْ من مَشْهَـدٍ وَرِبَـاطِ عَـدٍّ   وَمَـدْرَسَـةٍ بَنَى وهُـدىً أَفَـادَا
وَجَـامِعُهَـا المُعَـظَّمُ إذْ تَـدَاعَى   وقَـالَ القائلون عَـفَـا وبَـادَا
أَقَـامَ لَـهُ إلى الأَهْـوَازِ عِيْـراً   صِـلاداً تَحمِـلُ الصُّمَّ الصِّـلَادَا
ولِلشِّـيزَى إلى شِيـرَازَ نُـجْبـاً   كَمِثْـلِ الْـهُضْـبِ أَجْسَـاداً وآدَا
وَبَـثَّ بِـكُـلِّ بَـحْـرٍ مُنْشَآتٍ   تَفُـوتُ بِطَيِّهَـا الجُرْدَ الجِيَـادَا[1]

ولعل مديح ابن المقرب لشمس الدين باتكين وللخلفاء العباسيين وما تحقق له من ذيوع وانتشار هو الذي جعل الأمير الأشرف موسى بن العادل[2] يفصح عن رغبته في التعرف على ابن المقرب، ويذكُرُهُ في مجلسه كثيرا ويتمنى أن يحظى بمديحه كما ذكر كاتب مقدمة الديوان[3]. ولمّا علم ابن المقرب برغبة الأمير الأشرف رحل إلى الموصل يطلبه، وقد أعد في مديحه قصيدته:

أَبَـرُّ شُهُـودِي أَنَّنِي لَـكَ عَـاشِقُ   سُهَادِي وَسُقْمِي والدُّمُوعُ الدَّوَافِقُ[4]

وهي من أطول قصائده إذ تبلغ أبياتها اثنين وتسعين بيتا، كما تعد في جملتها من أجود مدائحه، مع ما فيها من صدق في تصوير حاله التي صار إليها. ولعل دافعه إلى الإجادة إحساسه بأنه قادم إلى ممدوح يظهر الرغبة في مدائحه، فلا أقل من أن يمدحه بقصيدة تُرضي الأمير وتتناسب مع تطلعه لمديحه حتى لا يخِيب ظنُّه فيه:

وَحُسْنُ حديثِ النَّاس عنكَ اسْتَفَزَّنِي   إليـكَ وَوُدٌّ يعلُم اللهُ صَـادِقُ[5]

---

(١) الديوان ص ١٨٨ . واللهب: لعله أراد به الجانب الأعلى من السور، وفي اللسان: «اللهب ـ بالكسر ـ: وجه من الجبل كالحائط، لا يستطاع ارتقاؤه»، والشيزى: خشب أسود.

(٢) تقدمت ترجمته ص ٨٤ .

(٣) الديوان ص ١٠ من المقدمة

(٤) الديوان ص ١٩٢ .

(٥) الديوان ص ٣٠٤.

ولعل من أسباب ذلك أيضاً الحال وصل إليها في هذه المرحلة من حياته من عَوَزٍ وحاجة كما سيتضح فيما بعد ضمن مديحه لبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل حينما وصلها ولم يجد الأمير الأشرف ، وربما كان السبب الأخير هو الدافع الأقوى وراء مديحه للأشرف كما يدل على ذلك قوله:

أَبَا الفَتْحِ لاَزَالَتْ بِكَفَّيكَ تَلْتَقِي ... مَفَاتِيحُ أَرْزَاقِ الوَرَى والمَغَالِقُ
إليكَ رَمَتْ بي نَائِباتٌ هَوَارِقٌ ... لِدَمْعِي وأَحْدَاثٌ لِعَظْمِي عَوارِقُ
أَبيتُ وفِي صَدْرِي مِنَ البَيْنِ خَارِقٌ ... وَفِي عُنُقِي مِنْ كَظْمَةِ الغَمِّ خَانِقُ
ولَمْ يَبْقَ بَعْدَ اللهِ إلَّاكَ مَقْصِدٌ ... تَمُدُّ إليهِ بالأَكُفِّ الخَلاَئِقُ(١)

وفي هذه القصيدة يثني ابن المقرب على كرم الأشرف وشجاعته وما يتمتع به من خلال حميدة، ويطيل في وصف بلائه في الحروب الصليبية واستبساله في القتال في دمياط بمصر:

سَلِ الكُفْرَ مَنْ أُودَى بِدِمْيَاطَ رُكْنَهُ ... وقَصَّرَ أَعْلَى فَرْعِهِ وَهْوَ باسِقُ
يُخَبِّرْكَ صِدْقاً أنّ مُوسَى هُوَ الَّذِي ... بِصارِمِهِ بَاقَتْ عَليهِ البَوَائِقُ (٢)

ثم راح يصف جيش الصليبين والمقاومة الشديدة التي قابلهم بها المسلمون وفيهم الأمير الأشرف حيث كان له في حسم المعركة دور كبير:

فَلَولاَهُ لَمْ يَنْطِقْ بِدِمْيَاطَ دَاعِياً ... إلى كِلْمَةِ التَّوْحِيدِ والعَدْلِ نَاطِقُ
فأَقْسِمُ ماوَالاَهُ إلاّ مُوَحِّدٌ ... تَقِيٌّ وَمَاعَادَاهُ إلاَّ مُنَافِقُ
فَلاَ يَعْدِمَنَّ اللهُ أَيَّامَهُ الّتِي ... بِهَا يَرْتُقُ الإسلامُ ما الكُفْرُ فَاتِقُ (٣)

---

(١) الديوان ص ٣٠٢ وعَرَقَ العظمَ: أكل ما عليه من لحم.

(٢) الديوان ص ٣٠٠.

(٣) الديوان ص ٣٠٢.

لقد كان ابن المقرب يتطلع إلى لقاء الأمير الأشرف لمّا رحل إلى الموصل بين سنتي ٦١٧هـ و٦١٨هـ ليُلقي بين يديه هذه القصيدة، ولكنه حين وصلها لم يجد الأشرف، فقد رحل مع إخوته إلى مصر لمواصلة حرب الصليبيين. وقد وجد ابن المقرب نفسه غريباً في الموصل، تلحُّ عليه الفاقة وقلة ذات اليد وتجبره على طلب العون من أمير الموصل بدر الدين بن عبد الله الأتابكي(١)، فمدحه وشكا إليه حاجته وفقره:

أَفْنَيتُ زَادِي وَمَرْكُوبِي وَشَيَّبَنِي عَلَى عُتُوٍّ جَنَانِي الخَوفُ والوَجَلُ
وقَدْ بَلَغْتُ الجَنَابَ الرَّحْبَ بَعْدَ وَجًى ولَيْسَ إلاَّ عَلَى عَلْيَاكَ مُتَّكَلُ(٢)

ولقد وصلت به الحال في هذه المرحلة من حياته إلى درجة سيئة من العَوزِ والحاجة، وتخلَّى فيها عن كبريائه وعزته التي طالما افتخر بها ورفض أن يأخذ المال من ممدوحيه من أجلها. ولم يكن بدر الدين ليُخيِّب أمل الشاعر فقد أعطاه وأكرمه وأجازه «إجازة الأفاضل الكرام، وخصه بفنون الإعظام والإكرام، ورجع عنه شاكراً، ولما أسدى إليه ذاكراً»(٣). وإلى ذلك يشير ياقوت الحموي حينما لقيه بالموصل سنة ٦١٧ هـ بقوله: «لقيته بالموصل في سنة ٦١٧ هـ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان، وَنَفَقَ فأرفدوه وأكرموه»(٤).

ولما كان هدف ابن المقرب من مدائحه لبدر الدين هو المال والعطاء فقط خلافاً لمعظم مدائحه في أقاربه العيونيين، فقد اتَّسمت قصائده في مدح بدر الدين بالتكلف والافتعال والمبالغة. فقد مدحه بلاميته:

حُطُّوا الرِّحَالَ فقد أَوْدَى بِهَا الرَّحلُ مَا كُلِّفَتْ سَيْرَهَا خَيلٌ وَلاَ إبِلُ(٥)

---

(١) تقدمت ترجمته ص (٨٤).
(٢) الديوان ص ٤٤٧، الوجى: شدة الحفاء.
(٣) الديوان ص ١٠ من المقدمة.
(٤) معجم البلدان ٤ / ١٨١.
(٥) الديوان ص ٤٣٩.

كما مدحه بميميته:

بِسُمْرِ القَنَا والمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ   بِنَاءُ المَعَالِي واقْتِنَاءُ المَكَارِمِ [1]

وهو يقتصر فيها على ترديد المعاني التقليدية من شجاعة وكرم وغير ذلك من حميد السجايا في أسلوب ضعيف وصنعة متكلفة. ولعل ذلك ما جعل ياقوتاً الحموي يستهين بقصيدته الأولى ويقول عنها «وليست بالطائل عندي[2]». ولا غرابة إذا وصل مستوى مديحه لبدر الدين إلى هذا القدر من الضعف حين اضطرته الحاجة إلى أن يجعل من مديحه وسيلة للحصول على ما يقيم أوَدَه وقد انقطعت به السبُل، فنحن نراه لأول مرة في مدائحه يذكر الهدايا التي خصَّه بها بدر الدين، ويعدد أنواعها وأصنافها، ويصرح بذلك في قصيدته التي يودع فيها بدر الدين ويمدحه معلنا حصوله على ما كان يؤمل منه:

ما كُنتُ آمُلُ مِنْ نَدَاهُ أَنَالَنِي   فَأَنَالَهُ ربُّ العُلا مَا أمَّلاَ
أَلَفا مُصَتَّمَةٍ أَجَازَ وبَغْلَةً   تَشْأَى النَّعَامَةَ والحَرُونَ وقُرْزُلا
وَمِنَ المَلاَبِسِ خِلْعَةً لو قَابَلَتْ   رَوضَ الحِمَى أُنُفاً لَكَانَتْ أَجْمَلاَ
وَوَراءَ ذلِكُمُ اعْتِذَارُ أَنَّهُ   لَولاَ أُمُورٌ جَمَّةٌ ما قَلَّلاَ
وأَحَبُّ مِنْ هذا إلَيَّ لِقَاؤُهُ   لِي مُسْفِراً عَنْ بِشْرِهِ مُتَهَلِّلاَ
وسُؤَالُهُ لِي كَيفَ أَنْتَ وقَولُهُ   أَهْلاً أَتَيتَ وزَالَ نَحْسٌ وانْجَلَى
فَأَضَاءَ فِي عَينِي النَّهار وقَبْلَ أَنْ   أَلقَاهُ كَانَ عَلَيَّ لَيْلاً أَلْيَلاَ
وَشَكَرتُ حَادِثَةً أَرَتْنِي وَجْهَهُ   لَوْ كَانَ نَزْعُ الرُّوحِ منها أَسْهَلاَ
وَغَفرتُ زَلَّةَ ظَالِمِيَّ لِكونِهَا   سَبَبَ اللِّقَاءِ وقُلْتُ أَيْسَرُ مَحْمَلاَ[3]

إن ترحيب الأمير به وحسن استقباله له وسؤاله عنه أهم في نظره من هذه الهدايا

---

(١) الديوان ص ٥١١.

(٢) معجم البلدان ٤ / ١٨١.

(٣) الديوان ص ٤٢٣. ومُصتَّمة: تامة.

الثمينة، وقد شكر الحادثة التي كانت سببا في اجتماعه بالأمير، وإن كنا لا ندري ما هي هذه الحادثة إلا أن الأرجح أنها قضية سجنه ومصادرة أمواله على أيدي بني عمه كما يدل عليها البيت الأخير.

إن ابن المقرب لم يسلم في مديحه لبدر الدين من المبالغة والتكلف فحسب، بل وقع في التناقض لمّا صرح بهدفه من مديحه بالأبيات السابقة وكما يكرر ذلك أيضاً بقوله:

مَلِكٌ أَنَخْتُ بِـهِ الرَّجَـاءَ مُؤَمِّـلاً ... فَرَجَعْتُ مِنْ جَدْوَى يَدَيهِ مُؤَمَّلاَ(١)

ثم يدّعي أن ثناءه عليه لم يكن من أجل المال، بل لما يتمتع به بدر الدين من أخلاق فاضلة ليس لها مثيل:

يَـا أَيُّهَا المَلِكُ الَّـذِي في كَفِّـهِ ... بَحْـرٌ أَرَانَـا كُـلَّ بَحْـرٍ جَدْوَلاَ
لاَ تَحْسَبَنَّ ثَنَايَ لِلْمَـالِ الَّـذِي ... خَـوَّلْتَنِيـهِ فَلَمْ أَزَلْ مُـتَمَـوِّلاَ
والمَـالُ عِنْـدَكَ كـالتُّرَابِ مَحَلُّهُ ... تَحْبُو بِهِ مَنْ هَانَ قَدْراً أَوْ عَـلاَ
لَكِنْ رَأَيتُ خَـلاَئِقاً مَـا خِلْتُنِي ... أَحْظَى برُؤْيَهِ مِثْلِهَا في ذَا المَلاَ(٢)

ولم يكن بدر الدين هو الممدوح الوحيد الذي اضطر الشاعر لمديحه في الموصل تحت وطأة الفاقة والحاجة. فقد مدح أحد أعيان الموصل وهو كمال الدين ابن أبي الكرم محمد بن علي بن مهاجر من بني قيس بن ثعلبة، ولعل مطلع قصيدته في مديحه يوحي بالدافع للمدح:

بَنَانُكَ مِنْ مُغْدَوْدِقِ المُزْنِ أَهْطَلُ ... وَبَاعُكَ مِنْ رَضْوَى وَثَهْلاَنَ أَطْوَلُ(٣)

وكما رأيناه يصرح بطلب النوال في مديحه لبدر الدين فهو يفصح عن ذلك في مديحه لكمال الدين مشيراً إلى أن لقاءه به كان سبباً في مجيئه للموصل، ويناشده ألا

(١) الديوان ص ٤٢٤.

(٢) الديوان ص ٤٢٥.

(٣) الديوان ص ٤٢٧.

يعود خالي اليد، وهو ذو المكانة العالية في قومه:

لَقَدْ كَانَ لِي لَوْلَا رَجَاءُ مُحَمَّدٍ عَنِ المَوْصِلِ الحَدْبَاءِ مَنْأىً وَمَرْحَلُ
وَلَمْ آتِهَا إلَّا عَلَى اسْمِ رَجَائِهِ وَلِلْخَطْبِ يُرْجَى ذُو العُلا ويُؤَمَّلُ
ويأبى لَهُ البَيْتُ الرَّفِيعُ عِمَادُهُ رُجُوعِي بِحَالٍ نَشْرُهَا ليسَ يَجْمُلُ
خَلِيلَيَّ ما كُلُّ الرِّجَالِ وإنْ عَلَوْا كَمَالٌ وَلَا كُلُّ الأَقَالِيمِ مَوْصِلُ
وَلَا كُلُّ نَبْتٍ تُخْرِجُ الأَرضُ مَأْكَلٌ وَلَا كُلُّ مَاءٍ تُبْصِرُ العَيْنُ مَنْهَلُ[1]

ومع أن الهدف واحد في مدائحه بالموصل لكلٍ من بدر الدين وكمال الدين وهو طلب العون والعطاء فإنه يبدو لي أن مديحه لكمال الدين أجود من مديحه لبدر الدين. فليس في مدحه لكمال الدين ما رأيناه في مدحه لبدر الدين من تكلف ومبالغة وضعف. وعندي أن من أسباب ذلك أرمنيَّة بدر الدين[2] حيث لا يرى له الشاعر من المجد والشرف مثلما لكمال الدين ذلك العربي الكريم النسب:

سَمَا لِذُرَى العَلْيَاءِ من فَرْعِ وَائِلٍ وكُلُّ فتىً مِنْ وَائِلٍ فَهْوَ مَوْئِلُ
بِآبَائِهِ عَزَّتْ نِزارٌ وأَصْبَحَتْ تَقُولُ بِعَزمٍ مَا تَشَاءُ وتَفْعَلُ[3]

وتلك معان من المديح الممتزج بالفخر تشد الشاعر إليها برباط من الاعتزاز والاعتداد بالنفس تذكرنا بقصائده «العيونية» التي كان يحلِّق بها في أجواء عالية من الشاعرية المبدعة.

تلك هي مدائح ابن المقرب لرجال عصره. وهي تبدو دون مستوى مدائحه لبني عمه، لما يظهر عليها من التكلف والتصنع، كما تطغى عليها المبالغة والتكرار. ولا غرابة في ذلك ما دمنا قد عرفنا دوافع مديحه للطرفين. كان يرى مديحه لبني عمه جزءاً من فخره، وتسجيلاً لمآثر قومه، ووفاء لهم، واستجابة

---

(١) الديوان ص ٤٢٩.

(٢) لعل مما يقوّي هذا الرأي أن بدر الدين قد سأل الشاعر مرة أن يهجوه فهجاه ببيتين يدلان على ما يضمره ابن المقرب لبدر الدين، فقد عيَّره بأرمنيته وبأنه عبد لئيم (انظر الديوان ص ٥٠٥).

(٣) الديوان ص ٤٣٠.

لعاطفة المودة والمحبة التي تربطه بهم. أما حين اضطر إلى مديح غيرهم فقد كان هدفه غالباً الاستعانة بهم للتغلب على محنته كي يحتفظ بماء وجهه الذي كادت تريقه الحاجة حين دفعت بالشاعر إلى ذلّ المسألة. وحين اختلفت الدوافع بين مديحه لبني عمه ومديحه لرجال عصره فلا شك أن ذلك قد انعكس على عاطفته في مدى صدقه فيها أو تكلفه لها، وكان لا بد لهذه العاطفة في عمقها وسطحيتها وصدقها وتكلفها أن تنعكس على معانيه وأسلوبه ضعفاً أو قوة وعفوية أو تكلفاً.

٣ ـ مدائحه لإخوانه:

يضم ديوان ابن المقرب بعض المدائح التي يعترف فيها بالفضل والعرفان لبعض أصدقائه وأقربائه في مناسبات قليلة. وهي ليست من ذلك النوع من مدائحه لبني عمه حيث يراها واجباً عليه تفرضه القرابة والرحم، وتدفعه إليها الحمية والشعور بالاعتزاز والفخار، أو يضطر إلى بعضها مهادنة ومصانعة لبعضهم، وليست أيضاً من النوع الذي مدح به معاصريه في العراق حين اضطرته ظروف حياته إلى الرحيل إليهم ومديحهم والاستعانة بهم يوم ضاقت به الحال في الأحساء. إنها مديح لا يتعدى القصيدة أو القصيدتين لكل ممدوح تفيض به قريحته إقراراً بالجميل واعترافاً بالفضل. فقد مدح النقيب تاج الدين إسماعيل بن جعفر[١] بقصيدته:

تُخْفِي الصَّبَابَةَ والأَلْحَاظُ تُبْدِيْهَـا ... وتُظْهِرُ الزُّهْدَ بينَ النَّاسِ تَمْوِيْهَا[٢]

وقد أنشأها وهو في طريق عودته من بغداد في إحدى رحلاته بعد أن حضر فيها مجلساً للنقيب تاج الدين للسلام عليه «فخلع عليه ثوبين لهما قيمة ثمينة قبل المدح، وذلك من شيم أهل الفضل والكرم يأتي برُّهم ابتداء[٢]». وفي هذه

---

(١) هو أحد نقباء الطالبيين تاج الدين إسماعيل ابن النقيب جعفر بن يحيى ابن النقيب طالب بن محمد بن أبي الحسين محمد بن أبي القاسم على بن العباس بن محمد بن زيد العلوي الحسني ـ (الديوان ص ٦٤٩).

(٢) الديوان ص ٦٤٩.

القصيدة يشيد الشاعر بمكانه تاج الدين، وعلو مقامه لصلته برسول الله ﷺ، وشرف انتسابه إلى قريش أفضل القبائل العربية في الجاهلية والإسلام:

قَومٌ لَهُمْ ذِرْوَةُ العَلْيَاءِ يَعْرِفُهَا ... دَانِي مَعَدٍّ إذا عُدَّتْ وَقَاصِيْهَا
عَافُوا الظَّوَاهِرَ من أُمِّ القُرَى وَبَنَوْا ... أَبْيَاتَهُمْ عِزَّةً فِي سِرِّ وَادِيْهَا
وأَصْبَحَتْ كَعْبَةُ اللهِ الحَرَامُ وَقَدْ ... أَضْحَتْ وَمِنْهُمْ برغْمِ الخَصْمِ والِيهَا
سَادُوا قُرَيشاً عُلاً في جَاهِلِيَّتِهَا ... وَمَنْ يُسَامِي قُرَيشاً أو يُبَارِيهَا
وكُلُّ عَلْيَاءَ في الإِسْلَامِ فَهْي بِهِمْ ... تُبْنَى وقُطْبُ الرَّحَى مِنهُمْ وهَادِيْها
يَامَنْ يُسَامِي إلى مَجْدٍ بني حَسَنٍ ... عَدِمْتَ رُشْدَكَ هَلْ خَلْقٌ يُسَامِيْهَا؟[1]

وقد وفق ابن المقرب في هذه القصيدة إلى معان جيدة، ولكنه وقع في مبالغات كتلك المبالغات التي تظهر في مدائحه لبني عمه وغيرهم، وهي مع ذلك لا تصل إلى حد الإسراف والغلو الذي نراه عند بعض الشعراء حينما يمدحون آل البيت وبخاصة شعراء الشيعة منهم. كما أنه قد ذكر الخمر في بداية قصيدته على خلاف عادته في معظم قصائده، ولم يكن من المناسب أن يخرج هنا عن طريقته في الابتداء لا سيما وهو يمدح أحد نقباء الطالبيين، فكان الأولى أن يبدأ بمعان مناسبة لمكانة ممدوحه ولا تتنافى مع ما سيسجله له من مناقب أهمها انتماؤه لآل البيت ومكانته بين المسلمين.

وكان ابن المقرب قد مدح تاج الدين أيضاً بقصيدته الوحيدة على قافية الثاء وقد مرض تاج الدين مرضاً خفيفا:[2]

أُعِيذُكَ أَنْ تَسْمُو إليكَ الحَوَادِثُ ... وأَنْ تَتَغَشَّاكَ الخُطُوبُ الكَوَارِثُ

وقد اضطرته هذه القافية إلى اختيار بعض الكلمات الغريبة وكأنه قد تعمد إيراد الغريب فيها:

---

(١) الديوان ص ٦٥٤.

(٢) الديوان ص ١١٥.

فَدُونَكَهَا يا ابْنَ النَّبيِّ غَرِيبَةً   تُخَبِّرُ أنَّ العَائِبيْهَا هَلَابِثُ
جَمَعْتُ بِهَا سِحْرَ الكَلَامِ الْذي اخْتَفَى   قَدِيماً فَلَمْ يَنْفُثْ بِهِ قَبْلُ نَافِثُ(١)

ومن هذه المدائح التي يدفعه إليها الوفاء لأصدقائه قصيدته التي يمدح بها فخر الدين أبا عبد الله الدَّوَامي(٢) ببغداد سنة ٦١٣هـ، وكان قد أسدى إليه معروفاً، وفيها يعترف للدوامي بفضله وإحسانه إليه، ويوجه فيها رسالة إلى بني عمه يعرفهم بما لقي من ممدوحه من إحسان ومعروف، ويحثهم على شكر فخر الدين، وكأنه يشير بذلك إلى جحود بني عمه لدُرر مدائحه لهم في الوقت الذي يلقى البر والإحسان من غيرهم، فكان حقا عليه أن يمدح من يحسن إليه، ويرعى عهده وصداقته:

فَيَا قَاصِدَ البَحْرَين يُزْجِي شِمِلَّةً   كأنَّ عَلَى أَشْدَاقِها الهُدْلِ كُرْسُفَا
إذا أَنْتَ لاقَيتَ المُلوكَ بَنِي أَبِي   أُرَيْبَهُمُ والأَبْلَخَ المُتَغَطْرِفَا
فَحَيِّهِمُ مِنِّي تَحِيَّةَ وَامِقٍ   عَطُوفٍ عَلَى ابْنِ العمِ لَوْعَقَّ أَوْجَفَا
وقُلْ لَهُمُ لَا تُغْفِلوا شُكْرَ سَيِّدٍ   تَوَخَّى أَخَاكُمْ بالكَرَامَةِ واصْطَفَى
وَمَنْ لَمْ يُوَفِّ ابْنَ الدَّوَامِيَّ حَقَّهُ   عَلَى مُوْجِبَاتِ الشُّكْرِ مِنْكُمْ فَمَا وَفَى(٣)

ومن هذه المدائح أيضاً داليّته التي يمدح فيها إبراهيم بن عبد الله بن أبي مروان «لمودة بينهما، وخلطة ولحمة نسب(٤)» ومطلعها:

العِزُّ مَا خَضَعَتْ لِهَيْبَتِه العِدَى   وأَقَامَ بالفِكْرِ المُلُوكَ وأَقْعَدَا(٥)

(١) الديوان ص ١١٩. والهلابث: جمع هلبوث وهو الرجل الأحمق.

(٢) انظر ما تقدم ص ٨٣.

(٣) الديوان ص ٢٨٨. ويزجي شِمِلَّة: يسوق ناقة سريعة، والهُدل: المتهدلة، والكرسف: القطن، والأبلخ والمتغطرف: المتكبر.

(٤) هو أبو علي إبراهيم بن عبد الله بن عزيز بن إبراهيم بن أبي مروان من بني بيرق وهم من عبد القيس وجدهم: عمرو بن عبد الله بن مالك بن عامر (انظر الديوان ص ١٦٧).

(٥) الديوان ص ١٦٧.

ولم تكن هذه القصيدة خالصة لمديح ابن أبي مروان، بل كانت مزيجاً من الحكمة والشكوى والعتاب والهجاء في أغلبها، ولم يخصص منهاللمدح سوى ثلاثة وعشرين بيتاً من أبياتها البالغة سبعة وسبعين بيتا، وفيها يضفي على ممدوحه كثيراً من معاني المدح التقليدية ثم يذكر ما كان لعبد القيس (قبيلة الممدوح) من مفاخر في الجاهلية، ثم في الإسلام يوم كانوا السباقين في البحرين إلى اتباع الهدى:

آبـاؤُهُ من عَبـدِ قَيْسٍ خَيْـرُهَـا   حَسَبـاً وأكْرمُهـا وأوْسَعُهـا نَـدَى
قـومٌ هُمُ مَلَكُوا البـلادَ وَدَوَّخُـوا   أَهْلَ العِنَادِ وأَوْضَحُوا سُبُلَ الهُدَى
أيَّامُهُـمْ في الجَـاهِلِيَّـةِ كُلُّهَـا   بيضٌ تُعِيرُ الخَصْمَ وجْهَاً أَسْـوَدَا
وفَضِيلَةُ الإِسـلامِ فيهم إذ عَلَوْا   فِيه إلى الحَقِّ الطَّرِيقَ الأَرْشَدَا[1]

ومن هذه القصائد أيضاً مقطوعته في صديقه تاج الدين إبراهيم بن محمد الطباخ:

بِـمُـعَـادِيـكَ لابِـكَ الأَسْـوَاءُ   ولِحُسَّـادِكَ الثَّـرَى لَا الثَّـرَاءُ[2]

وفيها يذكر إشفاقه على صديقه وقد ألمَّ به المرض وسروره حين خف من مرضه:

مُـذْ تَـشَكَّـيتَ والـمَكَـارِمُ والآ   مَـالُ تَشْكُـو والمَجْـدُ والعَلْيـاءُ

ومع أن هذه المقطوعة لا تتعدى ثلاثة وعشرين بيتا فقد غلب عليها التكلف والضعف مما يوحي بأن صلته به لم تكن وثيقة إلى درجة قوية، وليس لدينا ما يمكن معرفته عن صديقه هذا ومكانته أو المناسبة التي جمعت بينهما، كما أن شعره يخلو

(١) الديوان ص ١٧٣.

(٢) الديوان ص ٢٣ ولم أجد فيما رجعت إليه من كتب التراجم ذكرا لإبراهيم بن الطباخ.

من أي مديح لابن الطباخ هذا عدا هذه القصيدة.

ومن المناسبات التي دعت ابن المقرب إلى إنشاء مثل هذه القصائد في مديح إخوانه خروج الشيخ محب الدين الواسطي[1] من بغداد حاجاً[2] بعد أن جمعت الصحبة بين الشيخ والشاعر. ولم تكن هذه الصحبة في أغلب الظن مبنية على ظروف خاصة مثلما هو الحال مع بعض معاصريه في العراق، بل تقوم على احترام الشاعر لهذا الشيخ الجليل، واعترافه بفضله ومكانته العلمية. فهو إمام من أئمة الشافعية في عصره، عرف بزهده وتواضعه وورعه، كما عرف بطول باعه في المذهب الشافعي أصولا وفروعاً. ويشير إلى ذلك ابن المقرب وهو يودعه:

بكَ يا مُحِبَّ الدِّينِ طَالَتْ فَاعْتَلَتْ ... شَرَفاً عَلَى الخَطِّيَّةِ الأَقْلَامُ
أَحْيَيْتَ بِشْراً والجُنَيدَ وَعَامِراً ... زُهْداً وكُلٌّ إذ يُعَدُّ إمامُ
وأَقَمْتَ لِلْقُرَشِيِّ فِي آرائِهِ ... حُجَجاً يُقَصِّرُ دُونَها النَّظَّامُ
لَوْ رَادَكَ الثَّوْرِيُّ أَعْلَنَ قَائِلاً ... أَنْتَ الغَمَامُ وَمَنْ سِوَاكَ جَهَامُ[3]

ويتذكر استعداد الحاج للرحيل فيعزُّ عليه أن يفارق الشيخ الواسطي، ولكنها رحلة في سبيل الله تهون معها الصعاب. وهو يصور ساعة رحيل الحجاج وهم يهيِّئون أمتعتهم ورواحلهم للمسير:

لله مِنْ خَفَقَانِ قَلْبِي كُلَّمَا ... قَعَدُوا لِتَجْهِيزِ الحُمُولِ وَقَامُوا

(١) تقدمت ترجمته ص ٨٤.

(٢) انظر الديوان ص ٥٦٩.

(٣) الديوان ص ٥٦٩. وبشر هو بشر بن الحارث المروزي المعروف بالحافي ،محدث زاهد ورع توفي ببغداد سنة ٢٢٧هـ، والجنيد: هو الجنيد بن محمد البغدادي، شيخ الصوفية في زمانه توفي ببغداد سنة ٢٩٧هـ، وعامر: إمّا عامر بن شراحيل الشعبي تابعي من رجال الحديث الثقات توفي سنة ١٠٣هـ، وإما عامر بن عبد الله العنبري تابعي ناسك متعبد، توفي ببيب المقدس في خلافة معاوية، والقرشي: هو الإمام الشافعي رضي الله عنه، والثوري: هو سفيان بن سعيد إمام أهل زمانه في الحديث وعلوم الدين توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ. والنظّام: إبراهيم بن سيار أحد أئمة المعتزلة توفي سنة ٢٣١هـ (انظر الديوان ص ٥٦٩ - ٥٧٠ والأعلام للزركلي ٣٦/١)

فَلْيَفْـرَحِ البيتُ العَتِيقُ وزَمْـزَمٌ ... بِقُـدُومِـهِ والحِـلُّ والإحْـرَامُ
يَا وَحْشَتَا والعِيْسُ لَمْ يُرفَعْ لَهَـا ... رَحْـلٌ وَلاَ نُشِـرَتْ لَهَـا أَعْـلاَمُ
لا كَـانَ هَذَا السَّيـرُ آخِرَ عَهْـدِنَا ... فَـهِيَ الـلَّيَـالِي رِحْـلَةٌ وَمُـقَـامُ
وَكَلاَكَ رَبُّكَ حَيثُ كُنتَ ولاَ عَدَا ... أَرْضـاً تَحُـلُّ بهـا حَيـاً وَرِهَـامُ
وَرَعَاكَ مَنْ لَوْ كنتَ رَاعِيَ خَلْقِهِ ... لَـمْ يُـرْعَ إلاّ لِلحَنِيـفِ ذِمَـامُ
أَنْعِمْ عَلَيْنَـا بـالـدُّعَـاءِ إذَا الْتَقى ... بِحُجُـونِ مَكَّـةَ مُشْـرِقٌ وَشَـآمُ
وَعَلَيكَ مِنَّا ما حَيِيتَ وَما بَـدَتْ ... شَمْسُ النَّهَـارِ تَحِيَّـةٌ وَسَـلامُ(١)

وهكذا رأينا أن مدائحه لإخوانه وأصدقائه لا تشكل إلا نسبة قليلة بجانب مدائحه لبني عمه ولرجال عصره، ورغم ما تحمله من شَبَهٍ بشعر الإخوانيات إلا أنها تختلف عنه من حيث أسلوبها العام القريب إلى الثناء والمديح. ولعل ظروف الشاعر في مجتمعه لم تتح له نظم شيء من الإخوانيات لمايراه من الاعتداد بنسبه ومكانته والاقتصار في شعره على أمراء أسرته من العيونيين، وعلى الأغراض الرفيعة منه وبخاصة الفخر والمديح الممتزج بالفخر والمترفع عن العطاء. ولعله لم يجد في محنته من وقف بجانبه من أقاربه أو أصدقائه حتى ينعكس ذلك في شعره. يضاف إلى ذلك أن الحياة في البحرين لم تكن حافلة آنذاك بالمجالس والندوات والعلاقات الاجتماعية التي تهيء مناخاً مناسباً لهذا اللون من الإخوانيات كما هو الحال في حواضر العراق والشام ومصر والأندلس.

٤ ــ خصائص فنيَّة:

أ ــ التخصيص:

لعل أهم ظاهرة تتسم بها مدائح ابن المقرب هي تخصيصه لممدوحيه وتسميتهم بتسجيل إصلاحاتهم وأعمالهم وكشف بعض الجوانب في حياتهم، وما

---

(١) الديوان ص ٥٧٠. والرهام: الأمطار الدائمة الخفيفة.

يتبع ذلك من تصوير لبعض المظاهر الاجتماعية والتاريخية التي أغفلها المؤرخون في عصره. ومن ذلك مثلا تسجيله للأعمال والإصلاحات التي قام بها شمس الدين باتكين في البصرة. فقد أقام فيها الحدود الشرعية، وفتح بها دوراً للعلم، وبنى حصونها، وأقام حولها سوراً يحميها ومن ورائه خندق يحُفُّ به، واهتم بعمارة أسواقها وتنشيط التجارة فيها، كما أقام بها دوراً للمرضى وأخرى للضيافة وغيرها لكفالة الأيتام، وجدد بناء مسجدها الجامع:

أَمْ بَنَاهُ لِجَامِعٍ لَمْ يَدَعْ لِلْـ   ـقَوْلِ مَعْنىً في وَصْفِ ذَاتِ العِمَادِ

أَمْ لأَنْ شَيَّدَ المَدَارِسَ والرُّبْـ   ـطَ وَدَارَ المَضِيفِ لِلْوُفَّادِ

وَحَشَا تلكُمُ المَدَارِسَ بالكُتْـ   ـبِ الشَّرِيفَةِ الصَّحِيحَةِ الإِسْنَادِ

أَمْ بنَا السُّورِ الّذِي صَارَ مُذْ تَمَّ   قَذىً في عُيُونِ أَهْلِ الفَسَادِ

أَمْ لأَن حَفَّ ذَلِكَ السُّورَ بالخَنْـ   ـدَقِ حِفْظاً مِنْ أُسُودِ السَّوَادِ

أَمْ عِمَارَةُ السُّوقِ الّتي صَغَّرَتْ سُـ   ـوقَ ثُلْثَا بَغدادَ في بَغْدَادِ

في زَمانٍ لَا تَسْمَعُ الأُذْنُ فِيهِ   غَيرَ صَوتِ الصُّرَاخِ في كُلِّ نَادِ

أَمْ لأَنْ شَيَّدَ المَرَسْتَانَ لِلزَّمْـ   ـنَى وحِفْظِ العُقُولِ والأَجْسادِ

أَمْ لأَنْ يَكْفَلُ اليَتَامَى وَيَهْدِي   مَنْ تَعَامَى وأَيُّ كَافٍ وَهَادِ

أَمْ جَلاءُ الشُّرَاةِ أَمْ أَمْنُهُ السُّـ   ـبْلَ بقَتْلِ اللُّصُوصِ والمُرَّادِ

أَمْ إقَامَةُ الحُدُودِ وقَدْ صِيـ   ـحَ بِتَعْطِيلِها بِكُلِّ النَّوادِي

أَمْ لأَنْ صَيَّرَ البَطَائِحَ جَنَّـ   ـاتٍ وَساوى بَينَ الرُّبَى والوِهَادِ

حَسَدُوهُ فَزَخْرَفُوا فَرَمَى ذُو الْـ   ـعَرْشِ مَا زَخْرَفُوا بِسُوقِ الكَسَادِ[1]

ولم يكن ابن المقرب ليكتفي بتسجيل هذه المآثر لباتكين في قصيدة واحدة بل كان يكررها ويعيدها في قصائده الأخرى[2]. وهو حين يسمّي ممدوحه ويخصصه على هذا النحو من الاهتمام بالحقائق الاجتماعية في عهد باتكين ـ وهو مالا نراه في

---

(١) الديوان ص ١٩٢، وسوق ثلثا بغداد: يعني سوق يوم الثلاثاء في بغداد، وثلثا بهذا الشكل هي رسم الثلاثاء بخط القدماء، والمرستان: دار للمرضى، والشراة: فرقة من الخوارج.

(٢) انظر الديوان ص ١٨٨ و ٤١٠.

أي مصدر آخر غير شعر ابن المقرب ـ فهو لا يقف عند هذه المظاهر العامة فحسب، وإنما يدخل في تفاصيل بعض الجزئيات في حياة الممدوح مثل وصفه لباتكين بأنه كان يكتب بيده اليسرى:

لِـلإِجَـازَاتِ والجَـوائِـزِ يُمْنَـا ... هُ وَبِيضِ الظُّبَا وسُمْرِ الصِّعَادِ[1]

ولِضَبْطِ القِـرْطَاسِ والخَطِّ يُسْـ ... ـرَاهُ وتَصْـرِيفِ طَـرْفِـهِ للطِّرَادِ

وقد يعمد إلى تسمية ممدوحيه بتعداد آبائهم وجدودهم. ففي مديحه لابن عمه أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل نراه يخص بالذكر أباه ماجداً ويعدد جدوده مسجلا مفاخرهم، ثم ينتقل إلى مديح أبي شكر مصرحاً باسمه أيضاً:

مُتَـوَّجٍ عَبْـدَلِيٍّ حِيـنَ تَنْسِبُـهُ ... لَخَيرِ جَدٍ إذا يُـدْعَى وخَيرِ أبِ

مِنْ آلِ فَضْلٍ بُنَاةِ المَجْدِ تَعْرِفُه ... كُـلُّ القَبائِـلِ مِنْ نَـاءٍ ومُقْتَـرِبِ

بَنَى المَعَالِي لَهُمْ فَضْلٌ وشَيَّدَهَا ... أَبُو سِنَانٍ قَرِيعُ العُجْمِ والعَرَبِ

وأَحْمَدُ ابْنُهُ المَلْكُ الَّذِي مَنَعَتْ ... ما بَينَ نَزْوَى سَرَايَاهُ إلى حَلَبِ

وَمَاجِدٌ كَـانَ نِعْمَ المسْتَغَاثُ إذا ... دَعَا إلى الحَرْبِ دَاعِيَها فَلَمْ يُجَبِ

وَمِنْ أُولئِـكَ إذ يُعْـزَى أُبُـوَّتُـهُ ... فَلَيسَ يُدْرَكُ في فَضْلٍ وَلَا حَسِبِ

وَلَمْ يَمُتْ مَنْ أَبُو شُكْرٍ خَلَيفَتُـهُ ... المُخْجِلُ البَدْرَ والمُزْرِي عَلَى السُّحُبِ

مُقَـدَّمٌ كَاسْمِـهِ في كُلِّ مَكْـرُمَـةٍ ... فـإنْ نَبَا بِكَ دَهْرٌ فَـادْعُـهُ يُجِبِ

وأَيْنَ مِثْلُ أبي شُكْرٍ إذا اسْتَعَرَتْ ... نَارُ الوَغَى واتَّقى المَسْلُوبُ بالسَّلَبِ[2]

ومثل ذلك أيضاً ماورد في مديحه لابن عمه فاضل بن معن بتعداد جدوده وتسجيل مناقبهم:

---

(١) الديوان ص ١٩٤.

(٢) الديوان ص ٧٨.

إن فُـوخِـرُوا جَـاؤُوا بفَضْـلٍ ذِي الـنَّـدَى
ويـجَـعْـفَـرٍ وشَـبـيـبِ الـقَـمْـقَـامِ
وأبِي سِنَـانٍ وابْنِـهِ وَمُحَـمَّـدٍ مُدْنِي اليَسَارِ ومُبْعِدِ الإعْدَامِ [1]

وكذلك ما ورد في مديحه لابن عمه أبي علي محمد بن مسعود:

فَتىً نَمَاهُ إلى العَلْيَاءِ كُلُّ فَتىً حَامِي الذِّمَارِ وَفِيِّ العَهْدِ والذِّمَمِ
مَنْ مِثْـلُ مَسعُـودٍ القَـرْمِ الهُـمَـام ومَنْ
كَـأَحْمَـدَ المُـرتَجَى في البَـأْسِ والـكَـرَمِ
وَمَـنْ يُبَـارِي ابْـنَ فَضْـلٍ فـي مَكَـارِمِـهِ
أَبَـا سِنَـانٍ غِيَـاثَ النَّـاسِ في القُحَـمِ [2]

إن ظاهرة التخصيص في مديح ابن المقرب لم تكن مقصورة على ممدوح أو ممدوحين أو على بني عمه فقط. بل هي شاملة لمعظم ممدوحيه. فقد كان اهتمامه بالتاريخ والحوادث الاجتماعية يحدوه دائما لأن يصبغ مديحه بهذه الصبغة، وكأنها أمارات مميزة لمديح ابن المقرب، بما يرسمه لممدوحه من شخصية فريدة بأعمالها وإصلاحاتها ومناقبها. ففي مديحه للخليفة العباسي الناصر لدين الله نراه يهتم بقيام الخليفة بتأمين السبل وبسط الأمن، ويستشهد بما فعله الناصر لدين الله «لمّا قطعت الأسود طريق بغداد فجمع لها خلقا كثيرا وطلبوها في غاباتها وقتلوها فأمنت الطريق[3] فيقول:

وَمَنْ أَلْزَمَ الأُسْدَ القِصَاصَ فَهَلْ تَرَى أُوَيْسـاً عَلَى شَاءٍ بِوَادِيـهِ يُقْـدِمُ
جَنَتْ مَا جَنَتْهُ وَهْيَ تَحْسِبُ أَنَّهَا مِنَ العُجْبِ إذ كَانَتْ سِمَاكُ وَمِرْزَمُ

---

(١) الديوان ص ٥٠٢.
(٢) الديوان ص ٥٦٠. والقُحَم: الأمور الشاقة.
(٣) الديوان ص ٤٥٤ (الحاشية) نقلا عن الطبعة الهندية.

فَلَمَّـا رَمَـاهَـا بالعُقُـوبَةِ لَمْ تَـرُحْ مَن الغَاب إلاَّ وَهْيَ لَحْمٌ مُوضَّمُ
فَـأَصْبَحَ يَـرعَى آمِناً في جَنَـابِـهِ عَتُـوْدٌ وسِرْحَـانٌ وعيرٌ وضَيْغَمُ[1]

ولمّا امتدح الخليفة المستنصر بالله راح يسجل بشعره ما عرف عنه من أعمال حميدة يذكرها له التاريخ لمّا رفع الضرائب التي كانت على عهد الناصر، وفتح الخزائن وأجزل العطاء، فأحبَّه الناس وحمدوا سيرته:

وَأَشْـرَقَتْ بَهْجَةً دَارُ السَّـلام بِهِ حَتى تَمَنَّتْ سَنَاهَا السَّبْعَةُ الشُّهُبُ
وأَظْهَرَ العُجْبَ شَطَّاهـا ودِجْلَتُهَا وَمَا أَحَاطَتْ بِهِ الأَسْوَاقُ والـرُّحُبُ
وَفُتِّحَتْ لِلْقِرَى أَبْوَابُ ذِي كَرَمٍ جِفَانُهُ خُلُجُ الصِّيْنِيِّ لاَ العُلَبُ
وأَلْفُ أَلْفٍ تَزِيدُ الضِّعْفَ جَادَ بهَا في كُلِّ عَامٍ وقَلَّتْ عِندمَا يَهَبُ
ومِثْـلُ ذَلِكَ أَضْعَـافاً مُضَـاعَفَـةً أَعْطَى وَقَالَ: قُصَارَى كُلِّ ذِي العَطَبُ
فَمَـا يَمُـرُّ بِـهِ يَـومٌ ولَيس بِـهِ لَه مَواهِبُ تُسْتَزْرَى لَهَا السُّحُبُ[2]

وغير ذلك أمثلة كثيرة في شعره كما رأينا في مدائحه لابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين حينما يذكر معاركه وحروبه، واتساع رقعة ملكه، وقيامه بتأمين طريق الحاج والضرب على أيدي المفسدين وقطاع الطرق[3].

إن تعداد ابن المقرب لأعمال الممدوح وإصلاحاته ومآثره العمرانية تعطي مديحه طابعا خاصا يميِّزه عن المديح لدى معاصريه الذين يرددون معاني عامة تصلح لكل ممدوح مهما كان شأنه وكأنها قوالب جاهزة صالحة لسائر الناس.

إن كثيرا من مدائحه لا تصلح إلا لمن قيلت فيه مما يعطيها شيئا من الاستقلال والواقعية والتجديد، ويبعدها عن المدح التقليدي المبتذل الذي يبرز فضائل

---

(١) الديوان ص ٤٥٤. وأويس: الذئب، والسِّماك والمِرزم: كوكبان واللحم الموضَّم: المقطع، والعتود: ولد المعز إذا بلغ عاما.

(٢) الديوان ص ٩٥. والخُلُج: جمع الخليج وهي الجفنة العميقة.

(٣) انظر ما تقدم ص ١٢٣.

الممدوح من كرم وشجاعة وحَسَب ونَسَب وسوى ذلك من المعاني المكررة المطروحة في الطريق.

ويؤكد هذه الظاهرة في مديح ابن المقرب الدكتور رزوق فرج رزوق في تعليقه على إحدى قصائده في مدح باتكين أمير البصرة : «ومما يميز هذه القصيدة أنها من المدائح التي لا تصلح إلا لمن قيلت فيه، فالشاعر لا يكتفي ـ كما يكتفي الكثيرون من شعراء المدح ـ بإسباغ نعوت الحمد على ممدوحيهم مما لا يرسم صورة حقيقية لأي ممدوح، بل نراه يلحظ بعين الاهتمام والتقدير ويسجل بقلم المؤرخ الصادق ما تتصف به حكومة الممدوح أو سيرته من قيامٍ بالعدل وحنوٍّ على الرعية، وما له من أياد في ميدان العمران والإصلاح. إن الشاعر في هذه القصيدة ـ وفي قصائد أخرى ـ يذكر من سمات الممدوح وصفاته ومن أعماله وأفضاله ما هو حقيقي تاريخي. ولعل وَلَعَ الشاعر بالتاريخ، وهو ما تكشف عنه أشعاره، قد وجه اهتمامه إلى ذكر هذه الحقائق والأعمال التي غفلت عنها كتب المؤرخين[1]».

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى السبب الذي ذكره الدكتور رزوق ـ وهو ولعه بالتاريخ ـ سببا آخر وهو أن مكانةِ الشاعر في بيت إمارة وحكم، ومحاولته إصلاح الأمور في دولة بني عمه قد تركت أثرها في حياته باهتمامه بالإصلاحات والأعمال العمرانية التي يراها واجبا على كل حاكم فإذا رأى أميرا يقوم بهذه الأعمال مثل باتكين فإن ذلك يصادف هوىً في نفسه ويقع منها الموقع الحسن فلا يملك إلا أن يسجلها بشعره وكأنها تيجان يضعها على رءوس ممدوحيه.

ب ـ المبالغة:

من المُسلَّم به أن المبالغة والإسراف في إطراء الممدوحين هي ظاهرة عامة في العصر العباسي، وقد ازدادت مع تقدم هذا العصر حتى وصلت إلى الكفر الصريح.

---

(١) ابن المقرب العيوني ـ شاعر الخليج العربي في عراقياته (بحث قدمه الدكتور رزوق لجامعة البصرة في ٤١ صفحة).

كما لم يسلم منها كثير من الشعراء إلا أنها تختلف في درجة إفراطها وغلوِّها بين شاعر وآخر. ولهذا فليس من الغريب أن نجد في ديوان ابن المقرب بعض المبالغات. وهي مبالغات قد تصل به إلى الغلو الممجوج وتوقعه في شبهة الكفر، حتى أصبحت سنة بارزة في مديحه. وسنرى أمثلة منها مع محاولة ردِّها إلى أسبابها.

تظهر المبالغة في مديح ابن المقرب لسائر ممدوحيه سواء كانوا من بني عمه أو من معاصريه في العراق. إلا أنها لا تمثل النسبة الغالبة على أبيات القصيدة كلِّها، أي أن مبالغاته لا تشكل سوى نسبة قليلة من مجموع أبيات القصيدة، وفي مقابل ذلك فإنه يندر أن تخلو أي قصيدة في المديح من المبالغة.

ففي مديحه لابن عمه الأمير علي بن ماجد بن محمد نراه يبالغ في وصف شجاعته وكرمه، ويصور هيبته وقد فزع منها الموت، وإرادته وقد تحكَّمت بالأفلاك والأنواء:

لَـهُ هَيْبَةٌ مِـلءُ الصُّدُورِ فَلو رَنَـا ... إلى المَوتِ مُزْوَرّاً لَمَاتَ مِنَ الذُّعْرِ
وَلَوْ قَالَ للأَفْلَاكِ في سَيْرِهَا قِفِي ... لَبَاتَتْ رُكُوداً لَا تَدُورُ وَلَا تَجْرِي
فَتىً لَوْ لِلَيْثِ الغَابِ بَأْسٌ كَبَأْسِهِ ... لأَغْنَاهُ عَنْ نَابٍ حَدِيدٍ وَعَنْ ظُفْرِ
وَلَوْ أَنَّ لِلعَضْبِ اليَمَانِيِّ جَوْهَراً ... كَعَزْمَتِهِ لَمْ يَنْبُ عَنْ قُلَلِ الصَّخْرِ
وَلَـوْ أَنَّ لِلأَنْـوَاءِ جَـوداً كَجُـودِهِ ... لَمَا انْتَقَلَ الإِرْبَاعُ يوماً إلى العِشْرِ(١)

ومثل ذلك أيضا تصويره لهيبة الأمير محمد بن مسعود وشجاعته وسكينته ووقاره:

سَكِينَـةٌ لَـوْ سَـرَتْ في البَحْـرِ مـا اضْـطَرَبَتْ ... بِرِيح عَادٍ أَوَاذِيــهِ وَلَا إِرَمِ

(١) الديوان ص ٢٠٢ والإرباع للإبل حبسها عن الماء ثلاثة أيام وورودها في الرابع والعِشر: ورودها في اليوم العاشر.

وَهَيبَـةُ لَـوْ سُلَيمـانُ النَّبِيُّ أتَى ... بهَا الشَّيَاطِينَ أَهْلَ المَسِّ واللَّمَمِ
لأوغَلُوا في البِنَـاءِ المُقْرَنِينَ لَـهُ ... والغَوْصِ أَوْ تُبْعَثُ المَوتَى مِنَ الرِّمَمِ
وَنَجْدَةُ لَوْ لِلَيْثِ الغَـابِ أَيْسَرُهَـا ... عَلاَ البِقَاعَ وَلَمْ يَسْتَذْرِ بالأُجُمِ (١)

كما يبالغ في وصف شجاعة ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين ويذكر استقرار الأحساء بعد غلبته عليها، وقد كان صعباً أن تستقر إلا تحت حكمه حتى كادت الجبال أن تزول خوفا من سطوته:

فَيَـا حُسْنَهَا حَينَ اسْتَقَـرَّ قَرَارُهَـا ... وَزَايَلَهـا مـا كَـانَ فيـه وَبَـالُهَـا
بـأَوْبَـةِ مَيمُـونِ النَّقِيبَـةِ لَـوْسَـطَا ... عَلَى الأَرْضِ خَوفاً منهُ زَالَتْ جِبالُها
بِهِ اعْتَدَلَتْ أَرضُ الحَساءِ وغَيرُهَا ... وَقَدْ كَانَ أَعْيَا لِلأَنَامِ اعْتِدَالُهَا(٢)

وكذلك مبالغته في مديح ابن عمه علي بن أحمد بن عبد الله:

عَلِيٌّ أنتَ هَـذِي الشَّمسُ نَـوراً ... إذا طَلَعَتْ وَذَا النَّـاسُ الـظَّلاَمُ
وأنتَ أَجَـلُّ حِينَ يَنُوبُ خَـطْبٌ ... وأَعْظَمُ أَنْ يُقَاسَ بِـكَ الإنَامُ(٣)

ومبالغته في مديح إبراهيم بن أبي مروان:

ذَاكَ الّـذِي أَحْيَـا البِـلاَدَ وَقبلَهُ ... كَـانتْ وَمَنْ فِيهَـا رَمَـاداً أَرْمَـدَا
ذَاكَ الّذِي لَوْسَارَ أَعْمَى في الدُّجَى ... بضيـاءِ غُـرَّتِهِ لأَبْصَـرَ واهْتَـدَى
لَوْ قُسِّمَتْ في الأُسْدِ نَجْدَتُه لَمَا ... رَضِيتْ لأَشْبُلِهَا العَرِينَـةَ مَوْلِـدَا
لَـوْ أَنَّ لِلعَضْبِ المُهَنَّدِ جَـوهَـراً ... مِنْ عَزْمِهِ لَفَرَى الجَمَاجِمَ مُغْمَدَا
لَوْ سَالَ مَا سُقِيَ المُهَنَّدُ مِنْ دَمٍ ... مُذْ سَلَّهُ لَرأَيتَ بَحْراً مُزْبِـدَا(٤)

---

(١) الديوان ص ٥٥٦.

(٢) الديوان ص ٣٥٩.

(٣) الديوان ص ٥٦٦.

(٤) الديوان ص ١٧٢ و١٧٣.

إن التكرار والتشابه ليظهر في هذه المبالغات إضافة إلى ابتذالها وضعفها. وهذه المبالغات وأمثالها في إطراء ممدوحيه، مما هو في نطاق المعاني المطروحة للمديح، كالشجاعة والإقدام والهيبة وبسط النفوذ والسخاء والكرم هي المبالغات الغالبة في مديح ابن المقرب. ولكنه يخرج عن هذه الحدود من المبالغة إلى حدّ الإسراف والغلو في أبيات قليلة تحت تأثير عوامل معينة وظروف خاصة.

ففي مديحه لابن عمه الأمير محمد بن ماجد في قصيدته التي يستعطفه فيها ويستنجزه الوعد برد أمواله وأملاكه نراه يلجأ إلى وصفه بأوصاف لا يليق أن يوصف بها البشر، وتتنافى مع العبودية الخالصة لله عز وجل:

تَرَى العَرَبَ العَرْبَا يَحُجُّونَ بَيْتَه ... كَأَنَّهُمْ جَاؤُوا لِـذَبْحِ النَّسَـائِكِ
رِجَالاً ورُكْبَانـاً فَمِنْ طَالِبٍ غِنىً ... وَمِنْ تَـائِبٍ عَنْ زَلَّةٍ مُتَـدَارِكِ[1]

. . .

وَلَـولاَ إِيَـادِيهِمْ وَفَضْـلُ حُلُومِهِمْ ... لَزُلْزِلَتِ الأَرضُون وانْقَضَّتِ الشُّهْبُ[2]

وكذلك ما ورد في خاتمة قصيدة يمدح فيها الأمير أبا شكر مقدم بن ماجد:

بَقِيتَ في دَولَةٍ يَشْقَى العَدُوُّ بِهَـا ... تَرْعَى الصَّدِيقَ وتُدْعَى كاشِفَ الكُرَبِ[3]

ومثل هذه المعاني المغرقة في المديح والإطراء، والموغلة في إسباغ النعوت التي لا تناسب المخلوقين ما ورد في مديحه للخليفة الناصر لدين الله:

تَطُوفُ المُلُوكُ الصِّيدُ حَولَ فِنَائِهِ ... كَمَا طَافَ بالرُّكْنِ اليَمَانِيِّ مُحْرِمُ
تُـرَجِّي بِـهِ دِيـناً ودُنْيَـا لأَنَّـهُ ... إلى اللهِ في الدُّنْيَا وفي الـدِّينِ سُلَّمُ
وَهَـلْ مِثْلُهُ يَـومَ المَعَـادِ وَسِيلَةٌ ... إلى اللهِ إلاّ رَهْـطُهُ المُتَقَـدِّمُ[4]
وَحَسْبُهُمْ بـالنَّاصـرِ المُهْتَدَى بِـهِ ... فَخَاراً إذا مَا النَّاسُ لِلْحَجِّ وَسَّمُوا

---

(١) الديوان ص ٣١١.
(٢) الديوان ص ٢٩.
(٣) الديوان ص ٨٤.
(٤) الديوان ص ٤٥١.

بِهِ يَرفَعُ الصَّوتَ المُلَبِّي وَباسْمِهِ عَلَى اللهِ في دَفْعِ المُلِمَّاتِ يُقْسِمُ[1]

وقريب من هذه المعاني ما مدح به الناصر لدين الله أيضا مع الإسفاف والضعف في صياغتها وتركيبها:

يَقُولُونَ هُمْ أَرْضٌ وأَنْتُمْ سَمَاؤُهَا وأَيْمَانُكُمْ فيهَا مَكَانُ الغَمَائِمِ
فَإنْ أَنْتُم أَمْطَرْتُمُوهَا تَحَدَّثَتْ وَجَادَتْ وآتَتْ أُكْلَهَا كُلَّ طَاعِمِ
وإنْ أَنْتُمُ أَغْفَلْتُمُوهَا تَضَاءَلَتْ وَلَمْ يَنْتَقِعْ فيهَا أُوَامُ لِحَائِمِ
بِكُمْ يُؤْمِنُ اللهُ البِلَادَ وَيُصْلِحُ الْـ ـعِبَادَ ويَعْفُو عن ثِقَالِ الجَرَائِمِ
وأَنْتُمْ مَصَابِيحُ الظَّلَامِ وقَادَةُ الْـ ـأَنَامِ وَسَدُّ لِلْبَلَا المُتَفَاقِمِ
وَفِيكُمْ أَقَامَ اللهُ أَعْلَامَ دِينِهِ وَلَوْلَاكُمُ كُنَّا مَعاً كَالْبَهَائِمِ[2]

وكذلك مديحه للخليفة المستنصر بالله وماتضمَّنه من مبالغات مستهجنة، وإفراط في إطلاق الصفات على ممدوحيه ولو كان في ذلك تطاول على بعض رجالات الإسلام ممّن لا يصل إلى مرتبتهم أحد مهما علت مكانته ومنزلته، ومهما أسرف المادحون في مديحه:

كَمْ نَارِ شَرٍّ طِلَاعُ الأَرضِ جَاحِمُهَا لَـهُ شُـوَاظٌ بِحَيثُ النَّجْمُ يَلْتَهِبُ
بِلَمْحَةٍ منهُ عَادَتْ وَهْيَ خَاشِعَةٌ ثَلْجاً وَمَا ذَاكَ مِنْ آيَاتِهِ عَجَبُ
فَلَوْ رَأَى عُمَرُ الفَارُوقُ سِيرَتَه لَقَالَ هَذَا رَحَى الإِسْلَامِ والقُطُبُ
وشَمَّرَ الذَّيْلَ يَسْعَى في أَوَامِرِهِ مافي الَّذِي قُلْتُه شَكٌّ وَلَا رِيَبُ[3]

ولئن كان ابن المقرب قد ذهب إلى الناصر والمستنصر يستعديهما على بني

---

(١) الديوان ص ٤٥٣.

(٢) الديوان ص ٤٩٣. ويعني بقوله (هم أرض) البرامكة وغيرهم من وزراء الخلافة العباسية الذين اشتهروا بالكرم والبذل كما أشار إليهم في الأبيات التي سبقتها وقوله: ولم ينتقع فيها أوام لحائم: أي لم يذهب عطش العطشان.

(٣) الديوان ص ٩٤و٩٥.

عمه، ويشكو إليهما ظلمهم، ويتطلع إلى رد أملاكه وأمواله التي سُلبت منه، فإن ذلك لا يبرر له اللجوء إلى هذا الإسراف والغلو، وقد كان لديه متّسع عنها إلى معان أخرى مقبولة بمايملك من مقدرة وطول نَفَس. ولكن يبدو أن ذهابه إلى هذا الحد من المبالغة لم يكن سببه استعطاف بين عمه أو الخلفاء العباسيين ومحاولته استرضاءهم فحسب، بل كان في ذلك مقلِّدا لسابقيه وسائراً على طريقة معاصريه. فقد رأيناه يغلو في مديح شمس الدين باتكين أمير البصرة بمثل ذلك الغلو الذي أخذه النقاد على أبي الطيب المتنبي حين قال:

لَـوْ كَانَ عِلمُـكَ بالإلـهِ مُقَسَّمـاً   في النَّاسِ ما بَعَثَ الإلَهُ رَسُولَا(١)

فقد أخذ ابن المقرب هذا المعنى وكرره في مديح باتكين:

لَوْ كَانَ في الأُمَمِ الخَوَالِي مِثْلُهُ   مَلِكٌ لَمَـا بَعَثَ الإلَهُ رَسَـولَا
لَـوْلَا النُّبُـوَّةُ بـالنَّبِيِّ مُحَـمَّـدٍ   خُتِمَتْ لَقُلْتُ أَرَى نَبِيّاً مُرْسَلا(٣)

تلك أمثلة من المبالغات التي وقع فيها ابن المقرب فأصبحت سمة من سمات مدائحه كما هو الحال عند سائر المتأخرين من شعراء العصر العباسي، وهي مبالغات ممقوتة لا تقبلها الأسماع ولا تستسيغها الأذواق، وهم يتعمَّدون إقحامها في مدائحهم ولو كانت مغرقة في الإطراء وتقديس الممدوحين. ولعل من أسباب شيوعها عند ابن المقرب وغيره من شعراء عصره وسابقيه نضوبَ أفكار الشعراء بعد أن استُنفدت أكثرُ معاني المديح، وضعفَ الملكات الشعرية، والعجزَ عن التجديد ممّا يضطرهم إلى المبالغة والتهويل للتعويض عن نضوب القرائح، ومحا ولَتهم اقتناصَ بعض المعاني ولو كانت موغلة في الثناء والمديح، وتسابُقَهم في إرضاء الخلفاء والأمراء بشتى صنوف التبجيل والتعظيم. ثم إن أجواء التصوُّف والتشيُّع

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري٣/٢٤٤ .

(٢) الديوان ص ٤١١.

(٣) الديوان ص ٥٣٥.

وغلوَّ الفرق الباطنية التي سادت في هذا العصر كانت عاملا مهما في تسابق الشعراءإلى المبالغات وإضفائها على ممدوحيهم، دون مراعاة للحدود والضوابط حتى وصل بعضهم فيها إلى حد الكفر. ولذلك فإن ابن المقرب لا يرى فيها عيباً مخلاً بشعره أو مدائحه ما دامت سائدة في عصره، ورائجة في سوق ممدوحيه. يضاف إلى ذلك أن الحالة الخاصة به، وما صاحبها من شعوره بالظلم، وبحثه عمّن ينصفه وينتصر له، وحرصه وتطلعه إلى رد مظلمته، تعتبر أسبابا أخرى دفعته إلى التساهل في إطلاق هذه المبالغات. ومع هذا فإن مبالغاته من حيث كثرتها ليست بالمقدار الذي نراه عند بعض معاصريه وسابقيه، ولكنها مع ذلك تظل سمةً مميزة لمدائحهوإن اختلفت درجة إغراقها وغلوها منممدوح إلى آخر، أو كثرت وقلَّت بين هذه القصيدة أو تلك.

ج ـ التفاوت في الأسلوب:

إن من السمات البارزة في مديح ابن المقرب اختلاف أسلوبه وتفاوته قوةً وضعفا تبعا لاعتبارات معينة لها علاقة وثيقة بظروف حياته وصلاته بممدوحيه.

وإذا كانت دوافع المديح عند أي شاعر، وما يترتب عليها من صدق العاطفة أو عدمها هي التي تترك أثرها غالبا على أسلوبه فإنه يجدر بنا أن نعرف أولا موقفه من قضية التكسب بالشعر.

لقد كان الشاعر ينعم في مقتبل عمره بالاستقرار والهناء ورغد العيش في بيت إمارة وحكم، فلم يكن بحاجة إلى طلب المال أو التكسب بشعره كما يفعل بعض الشعراء. ولمّا كان ذا مكانة مرموقة بين قومه ثريّاً عزيز النفس قويَّ الجانب فقد اقتصر مديحه في المراحل الأولى من عمره على بني عمه حيث يرى ذلك شرفا لهم ووفاء لأواصر القربى التي تربطه بهم. ولهذا فقد رفض أن يأخذ الجوائز على مديحه لابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين، وعلَّل رفضه لأخذ المال بأنه لم يمدحه لطلب الجوائز ولا لزيادة مال، وإنما وضع المديح في موضعه حين رأى الأمير أهلا

لذلك[1]. وذلك ما يعنيه كاتب مقدمة الديوان بقوله: «ولا قام على باب والٍ في زي مسترفد وسائل[2]».

ولمّا حلَّت به المحنة التي غيّرت مجرى حياته، وخرج من السجن وقد صودرت أمواله وممتلكاته ظل يمدح بعض الأمراء من بني عمه، ولكن الدافع كان الاستعطاف حينا أملا في استرداد أمواله أو المصانعةَ ودفعَ الأذى حينا آخر[3]. وكان مديحه لبعضهم الآخر من الأمراء العيونيين وفاء لآصرة القربى والمودة والمحبة، وليس طلبا للمال. فقد ظل رغم فقره وحاجته متمسكا بعزة نفسه وأنفته، تأبى عليه كبرياؤه أن يستجدي أبناء عمه ولو مسَّه الضر ولحقه الأذى:

وإنِّـي لَـلْغَـنِـيُّ وإنْ نَبَا بِي ... زَمَـانُ السُّـوءِ واخْتُلِجَ السَّـوَامُ
ولَـوْلَا ذَاكَ عَـنْ قُـرْبَـى وَوُدٍّ ... لَكَانَ عَنِ المَدِيحِ لِيَ احْتِشَامُ[4]

ولكنّ حاجته الملحة وضيق ذات يده لم تدعا له أن يتمسك بهذا المبدأ، بل اضطرتاه إلى طلب المال من بني عمه، فلم يجد إلا التصريح بذلك في مديحه الممتزج بالعتاب للفضل بن محمد:

وَرَجَايَ في فَضْلِ النَّدَى بن مُحَمَّدٍ ... إدْرَاكُ مَا في النَّفْسِ مِنْ حَاجَاتِهَا
وَأُعِيذُ مَجْدَكَ أَنْ يَقُولُوا بَاخِلٌ ... وأَبُـوكَ مُحْيِي بـالِيَاتِ رُفَـاتِهَـا
فَذَرِ التَّغَافُلَ فَالتَّغَافُلُ كُلُّهُ ... لُؤْمٌ وكُلُّ الجُودِ في هَبَّاتِهَـا
واعْلَمْ بـأَنَّ اليَومَ آخِـرُوقْفَـةٍ ... والنَّفْسُ تَـائِقَـةٌ إلى مَـرْقَاتِهَـا
وَحَوَائِجُ المَوْتَى إلَى أَكْفَانِهَـا ... وَحَوَائِجُ الأَحْيَا إلى أَقْوَاتِهَا[5]

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٢٠.
(٢) الديوان ص ١٠ من المقدمة.
(٣) انظر ما تقدم ص ١٢٦.
(٤) الديوان ص ٥٦٨.
(٥) الديوان ص ١٠٨ و١١٣.

ولقد كانت هذه الأبيات وأمثالها هي الوقفات الأخيرة بأبواب بني عمه كما قال، فليس بعد هذا التصريح مزيد من الإلحاح. فقد كان كل ما يتمناه من بني عمه في هذه المرحلة أن يجودوا له بما يكفيه عن المسألة:

فَصُنْ حُرَّ وَجْهِي عَنْ سُؤَالٍ فإِنَّهُ   عَلَيَّ وَلَوْ عَاشَ ابْنُ زَائِدَةٍ صَعْبُ[1]

وكان يناشد بني عمه ألّا يتركوه يمدح غيرهم، إذ كيف سيكون موقفه لو سأله الناس عن بني عمه ولِمَ لَمْ يغاروا على مدائحه ويضنُّوا بها على غيرهم فيمنحوه ما يحميه من اللجوء إلى مديح الناس:

إِذَا قِيلَ لِي مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَتْ وارْتَمَتْ
بِكَ العِيْسُ أَوْ مَنْ كُنْتَ قِدْماً تُواصِلُهْ
وَمَنْ رَهْطُكَ الأَدْنَى الَّذِي لَكَ فَخْرُهُ
وَنَابُهُ قَدْرٍ لا يُسَاوِيهِ خَامِلُهْ
هُنَاكَ يَكُونُ الصِّدقُ نَقْصاً عَلَيكُمُ   وَلَا يَتَحَرَّى الكِذْبَ إلّا أَرَاذِلُهْ
وَمَنْصِبُكَ السَّامِي إلَى الفَخْرِ مَنْصِبِي   وَرَبْعُكَ رَبْعِي والعُلَا أَنْتَ آيِلُهْ
فَجُدْ بالَّذِي تَحْوِي يَدَاكَ عَلَى الوَرَى   وَضِنَّ عَلَيهِمْ بالَّذِي أَنَا قائِلُهْ[2]

ولمّا يئس من استجابة أبناء عمه، ولم ينل منهم ما كان يؤمله من عطاء يعيد له مكانته المحترمة في بلده وبين عشيرته لم يجد مناصا من مديح الخلفاء والأمراء والأعيان في العراق مستعينا بمدائحه لهم على التغلب على ضائقته المالية وقد ألجأته أحداث الزمان إلى مديحهم. وإن أصالة محتِدِه وعلوَّ بيته لن يمنعاه من الثناء على من يستحق الثناء والاعتراف بالجميل لكل من أسدى إليه معروفا. وهو يبرر موقفه الجديد بمثل قوله:

---

(١) الديوان ص ٣٥. ويعني بابن زائدة معن بن زائدة الشيباني المشهور بجوده وكرمه.

(٢) الديوان ص ٣٣٣ وانظر أيضاً ص ٣٤.

وَيَأْبَى لِيَ الكُفْرَانَ أَنِّي ابْنُ حُرَّةٍ ... كَرِيمٌ مَتَى صَرَّفْتُ عَزْمِي تَصَرَّفَا
وإِنِّي وإنْ كُنتُ الـرَّفِيـعَ عِمَـادُهُ ... لأُثْنِي عَلَيـهِ بالَّـذِي كَانَ أَسْلَفَـا
وَلاَ يَمْنَـعَنِّـي ذَاكَ بَيـتٌ بِنَـاؤُهُ ... أَنَافَ عَلَى هَادِي الثُّرَيَّا وأَشْرَفَا[1]

ورغم أن الدافع في مدائحه لرجال عصره في العراق أول الأمر كان طلب العون والمال إلا أن صلته بهم لم تكن على درجة واحدة . . فالهدف من مدائحه للخلفاء العباسيين هو التطلع إلى قيامهم بإنصافه وردِّ مظلمته، وكذلك الرغبة في نوالهم الكثير دون أن يرى في ذلك غضاضة ولا حرجا. أما الهدف من مديحه لبعض أعيان الموصل فهو الحصول على المال تحت تأثير الحاجة بعد أن وصلت به الحال إلى أقصى درجات الفاقة والفقر كما في مديحه لبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل وغيره من أعيانها حين نَفَقَ فأرفدوه وأكرموه[2]. وفي أبياته التي يخاطب بها كمال الدين بن أبي الكرم في الموصل تصوير لمبلغ حالته السيئة في هذه المرحلة من حياته يوم باع مركوبه بثمنٍ بخس:

فـإِنِّي بِعْتُ مَـرْكُـوبِي وَمَـالِي ... سِـوَاهُ يَـدٌ أَنُـوءُ بِـهِ وَرَحْـلُ
بـأَوْكَسِ قِيمَـةٍ في شَـرِّ وَقْتٍ ... وَعَضْلُ البَيعِ في الحَاجَاتِ بَسْلُ
وَقُلْتُ أَقِي بِـهِ عِـرْضِي لِئَلاَّ ... يَـرَى حَسَبِي بِعَينِ النَّقْصِ نَـذْلُ
وكُـلُّ عَـالِمٌ لكِنْ خُضُـوعِي ... لِغَيرِ عُـلاَكَ بَعْـدَ اللهِ خَبْـلُ[3]

وبين هذه الدوافع التي ما فتئت تنازعه عواطفه ومشاعره ظل يحتفظ مع بعض ممدوحيه في العراق بصلات وثيقة مبنيَّة على الصداقة والمحبة والألفة كما هو الحال مع شمس الدين أمير البصرة:

وَلَستُ بِمُهْـدٍ للرِّجَـالِ مَـدَائِحِي ... وإنْ قَـلَّ مَـالٌ أَوْتَغَيَّـرَ حَـالْ

(١) الديوان ص ٢٨٩.

(٢) انظر ما تقدم ص ٨٥ .

(٣) الديوان ص ٣٩٤. والعضل: المنع، والبسل: الحرام.

ولٰكِنَّ نُعْمَى حَـرَّكَتنِي وصُحْبَـةٌ   وَوُدٌّ وَهـذا لِلْكِـرام صِقَـالُ[1]

وإذا كنا قد عرفنا اختلاف دوافع المديح عند ابن المقرب تبعا لاختلاف صلاته بممدوحيه فإننا سندرك سبب التفاوت في أسلوب مديحه بين قصيدة وأخرى. فإن أسلوبه في مديح أبناء عمه أجود من أسلوبه في مديح رجال عصره، لكونه مديحاً صادراً من شاعر يمدح رهطه وعشيرته، ويستشعر الفخار والاعتزاز، وهو يسجل بشعره تاريخهم ويتغنى بأمجادهم ومكارم أخلاقهم وسيرة أمرائهم. أمّا مديحه لرجال عصره من غير أقربائه فقد كان مدفوعا إليه بدوافع خاصة يتكلّف فيها العواطف والمشاعر ويتصنَّع فيها الصدق لإرضاء ممدوحيه والوصول إلى هدف محدد. كما أن مدائحه لبني عمه أيضا تختلف من حيث الأسلوب وصياغة الأفكار.

فمديحه لبعض بني عمه من أولئك الذين تربطه بهم رابطة القرابة المجـردة عن الأهداف والغايات أجود من مديحه لبني عمه الآخرين ممّن آذوه وسجنوه وصادروا أمواله. ولقد رأينا صدق عاطفته وانسياب شاعريته عندما يمدح الأمير محمد بن أبي الحسين. كما رأينا تكلفه ومصانعته للأمير محمد بن ماجد وغيره، وما تضمنته مدائحه لهم من مبالغات وابتذال[2].

والتفاوت في أسلوب المديح في شعر ابن المقرب لا يقتصر على اختلافه بين قصيدة وأخرى وبين ممدوح وآخر. بل إن هذا التفاوت يظهر في القصيدة الواحدة أيضا حين يَقْوَى أسلوبه ويضعف، ويعلو ويُسِفّ بين بعض مقاطع القصيدة أو بين بيت وآخر. فلو قرأنا بعض أبياته في إحدى مدائحه لرأيناه يبدع فيها ويحسن صياغة أسلوبها واختيار معانيها:

أَخُـو عَزْمَـةٍ كَالنَّـارِ وَقْداً وهِمَّـةٍ   تَرَى النَّجْمَ أَدْنَى مِنْ ذِراعٍ وَمِنْ شِبْرِ
بَـدَتْ في مُحَيَّاهُ أَمَـارَاتُ مَجْدِهِ   صَبِياً ويَبْدُو العِتْقُ في صَفْحَةِ المُهْرِ

---

(١) الديوان ص ٤٣٨.

(٢) انظر ما تقدم ص ١٢٧ و١١٣.

سَمَا لِلْعُلَا طِفْلاً وَبَرَّزَ يَافِعاً وَسُمِّي وَلَمَّا يَثَّغِرْ أَوْحَدَ العَصْرِ
وَلَفَّ السَّرَايَا بِالسَّرَايَا وَقَادَهَا لِعَشْرٍ وَرَدَّ الدُّهْمَ منهُنَّ كَالشُّقْرِ
فَلِلَّهِ بِكْرٌ ما شَظَى حَدُّ نَابِهِ وَفَاقَ قُرُوماً بِالشَّقَاشِقِ والخَطْرِ
جَرَى وَجَرَى السَّاعُونَ شَأْواً إلى العُلَا فَفَاتَ بِأَدْنَى خَطْوِهِ مُلْهِبَ الحُضْرِ
سَلِيلُ المُلُوكِ الصِّيدِ والسَّادَةِ الأُلَى بَنَوْا مَجْدَهُمْ فَوقَ السِّمَاكَينِ والنَّسْرِ
إلَى ذِرْوَةِ البَيتِ العُيُونِيِّ يَنْتَمِي وَهَلْ يَنْتَمِي الدِّينارُ إلاَّ إلى التِّبْرِ
وَأَخْوالُهُ أَدْنَى عُقَيلٍ إلَى العُلَا بُيُوتاً وأَقْصَاهَا مِنَ اللُّؤْمِ والغَدْرِ(١)

ثم لا تلبث أبياته أن تضعف حين يبالغ في المدح وإسباغ صفات الشجاعة والكرم على ممدوحه بأسلوب هزيل التركيب لا يصل إلى مستوى أبياته الأولى:

لَهُ هَيْبَةٌ مِلءُ الصُّدُورِ فَلَوْرَنَا إلَى المَوتِ مُزْوَرّاً لَمَاتَ مِنَ الذُّعْرِ

ويمضي في مبالغاته على شاكلة هذا البيت(٢)، ثم تعود أبياته إلى بعض قوتها وجمالها وحسن معانيها وأسلوبها:

وإنِّي لَصَوَّانٌ لِمَدْحِي وإنْ نَبَا بِيَ الدَّهْرُ واجْتَاحَتْ نَوائِبُهُ وَفْرِي
ولكِنَّكَ المَلْكُ الَّذِي مِنْ سَمَائِهِ نُجُومِي الَّتي تُصْمِي وَمِنْ شَمْسِهِ بَدْرِي(٣)

وبعد هذين البيتين مباشرة يعود إلى التكرار والإسفاف:

وَمِنْ لَحْمِهِ لَحْمِي وَمِنْ دَمِهِ دَمِي وَمِنْ عَظْمِهِ عَظْمِي وَمِنْ شَعْرِهِ شَعْرِي

---

(١) الديوان ص ٢٠١. ويثَّغِر: ينبت ثغره، والشقاشق: ما يخرجه البعير من فمه إذا هاج، والحُضْر: ارتفاع الفرس في عدوِه.

(٢) تقدم ذكر هذه الأبيات ص ١٦٦

(٣) الديوان ص ٢٠٦. وتُصمى: تهلك.

ومثل هذه القصيدة في تفاوت أبياتها قوةً وضعفاً قصيدة أخرى تشدُّك بعض أبياتها ويعجبك حسن جرسها:

والرَّابِطُ الجَأْشَ والأَبْطَالُ قَدْ جعَلَتْ قُلُوبُهَا تَشْتَكِي مِنْهَا تَرَاقِيهَا
والقَائِلُ القَولَ لَمْ يَخْطُرْ عَلَى خَلَدٍ في حِينِ يَدْعُو المَنَايَا الحُمْرَ دَاعِيهَا

لِسَانُهُ الذَّرْبُ أَقْضَى مِنْ أَسِنَّتِهَا وَرَأْيُهُ العَضْبُ أَمْضَى مِنْ مَواضِيهَا
ذَوُو السِّيَادَةِ أَكْفَاءٌ فإنْ نَظَرَتْ إليهِ زَالَ بِمَرْآهُ تَكَافِيهَا
إذَا المُلُوكُ تَنَاجَتْ وَهْيَ تَرْمُقُهُ فإنَّما في مَعَالِيهِ تَنَاجِيهَا[1]

ثم يضعف مستوى مديحه ويلجأ إلى المبالغة وترديد بعض المعاني التقليدية بعد هذه الأبيات مباشرة:

لَوَ انَّ لِلْهِنْدُوَانِيَّاتِ عَزْمَتَهُ في الرَّوعِ لَمْ تُطِقِ الأَغْمَادُ تَحْوِيهَا
وَلَوْ يَكُونُ لِقَرنِ الشَّمْسِ غُرَّتُهُ تَاهَتْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ شَيءٌ يُوَارِيهَا
وَلَوْ تُقَسَّمُ في الآسَادِ نَجْدَتُهُ لَمْ يُضْحِ مَسْكَنُهَا إلَّا ضَوَاحِيهَا
والبَحْرُ لَوْ حَازَ جُزءاً من شَمَائِلِهِ لَصَارَ أَعْذَبَ ماءً مِنْ سَوَارِيهَا[2]

وإذا علمنا أن القصيدة الأولى قد بلغت واحداً وسبعين بيتاً في غرض واحد هو المدح، وأن الثانية قد بلغت خمسة وستين بيتاً في الغرض نفسه ـ وقد تبلغ مدائحه في بعض القصائد الأخرى أكثر من ذلك ـ فإننا سنجد العذر للشاعر على هذا التفاوت في القصيدة الواحدة قوة وضعفاً، فلا بد أن يقع أكثر الشعراء فيما وقع فيه ابن المقرب من مبالغة وتكرار وضعف إذا أرادوا الإكثار من إطراء ممدوحيهم على هذا الصورة. كما أن رغبتهم في الإطالة وتنافسهم على إظهار مقدرتهم في الإطناب

(١) الديوان ص ٦٥١.
(٢) الديوان ص ٦٥٢، والسواري: السحب الممطرة ليلاً.

والإسهاب، والضعف والوهن الذي أصاب المَلكات اللغوية والشعرية مع إرهاص السقوط في الابتذال والعامية هي عوامل مؤثرة في تفاوت الأسلوب عند هؤلاء.
ولعل ابن المقرب كان أقلّهم تأثراً بهذه العوامل لحذقه اللغة وتمكنه منها، وأصالة شاعريته، وقلة اختلاطه بسكان المدن. ومع هذا فقد تركت هذه الظاهرة أثرها في شعره فغدت سمة من سمات مدائحه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثانياً: الشكوى والعتاب

لقد مرت بابن المقرب تجربة قاسية مؤلمة مع بني عمه حكام البحرين حينما أفسد الوشاة بينه وبينهم، وأوغروا صدورهم عليه، فاجتاحوا أمواله وضياعه، وزجُّوا به في السجن، حتى إذا خلي سبيله راح يتنقل بين الأحساء والعراق ينشد المعين والنصير دون أن يجد سلواناً أو عزاءً إلا في أشعاره يسجل بها شجونه وأحزانه، ويبث من خلالها شكواه من زمانه وعتابه لبني عمه.

وإذا كان الشاعر قد خسر من جرّاء ذلك أمواله وأملاكه، وفارق أهله ووطنه، وذاق ألم السجن والغربة فإن الأدب أفاد من محنته نتاجاً رائعاً يتمثل في شعر الشكوى والعتاب الذي يعد بحق أجود ما فاضت به قريحة هذا الأمير الشاعر، لأنه كان نابعاً من ذاته، معبراً عن صدق مشاعره وخلجات نفسه، يصور به حالته أصدق تصوير، ويصف ما لقيه من صروف الدهر بعد أن خانه أقرباؤه وبنو عمه، وأجبروه على هجر وطنه والرحيل عنه هائماً على وجهه بعيداً عن أهله وولده، بعد أن كان عزيزاً بين قومه وعشيرته وفي وطنه وبلده:

أَقُولُ وَلِي قَلْبٌ شَعَاعٌ تَضُمُّهُ ... جَوَانِحُ يَعْلُو الشَّوْقُ فيها وَيَسْفُلُ
وَلِي أَنَّةٌ تُشْجِي القُلُوبَ وَزَفْرَةٌ ... تَكَادُ بأَدْنَاهَا ضُلُوعِي تَزَيَّلُ
وقَدْ كِدْتُ أنْ أُبْدِي الحَنِينَ تَبَرُّماً ... مِنَ الغَبْنِ إلَّا أنَّنِي أَتَجَمَّلُ
لَحَا اللهُ دَهْرَاً أَلْجَأَتْنِي صُرُوفُهُ ... إلى حَيثُ يُلْغَى حَقُّ مِثْلِي وَيُهْمَلُ
وَعَاقَبَ قَومِي الغُرَّ شَرَّ عُقُوبَةٍ ... وَخَصَّصَ مَنْ يَنْمِي عَلِيٌّ وَعَبْدَلُ
فَلَولاهُمُ واللهُ يَعْلَمُ ذلِكُمْ ... لَمَا فَاهَ لِي بالمَدْحِ في النَّاسِ مِقْوَلُ
وَلَا حُطَّ بالفَيْحَاءِ رَحْلِي ولا رَأَتْ ... قُرَى ظَاهِرِ الزَّورَاءِ شَخْصِي وإرْبِلُ

وَقَدْ كَانَ لِي مِنْ إِرْثِ جَدِّي وَوَالِدِي غِنىً فِيهِ لِلرَّاجِي الَّذِي يَتَمَوَّلُ
وَلَا اسْتَقْبَلَتْ جَاهِي رِجالٌ جَهَالَةً وَجاهَلَ قَدْرِي بالمَحَامِدِ أَجْهَلُ
فإن يَكُ مَا أَبْغِي ثَقِيلاً لَدَيْهِمُ فَحَمْلُ الكَرِيمِ الحُرِّ لِلْمَنِّ أَثْقَلُ[1]

إنه يدعو على بني عمه الأقربين بشر العواقب فهم السبب في هوانه وغربته، وحرمانه من ماله وأهله ووطنه، واضطراره إلى مدح الناس واستجدائهم. وإن هذه الروح التي يعبر عنها في هذه الأبيات لتدل على عمق القطيعة التي حدثت بينه وبين أبناء عمه أمراء الدولة العيونية. ولهذه القطيعة عدة أسباب اجتمعت فوضعت بينه وبينهم حاجزاً من الريبة والشك، وأوجدت في نفوسهم كراهية مستمرة له[2]. ويذكر ابن المقرب في شكواه وعتابه بعض الأسباب التي أدت إلى هذه الجفوة، وهذا البعد بينه وبين أمراء أسرته. فهو يرى أن ليس له ذنب إلا نظمه وشعره الذي يعبر فيه عن غيرته على شرفهم ومجدهم، وحرصه على حماية دولتهم، ويعرض على بني عمه التوبة من هذا الذنب إن قبلوا:

وَمَالِيَ ذَنْبٌ غيرُ دُرٍّ نَظَمْتُهُ وَأَسْنَاهُ تِيْجَانٌ لَهُمْ وَقَلَائِدُ
وأَنِّي عَلَى أَحْسَابِهِمْ وَعُلَاهُمُ غَيُورٌ وَعَنْ بُحْبُوحَةِ المَجْدِ ذَائِدُ
وأَحْمِي عَلَيهِمْ أَنْ تُدَبِّرَ أَمْرَهُمْ زَعَانِفُ أَهْدَاهَا عَنِ الرُّشْدِ حَائِدُ[3]

كما يرى أن مكانته في أسرته النبيلة وسجاياه الحميدة وشاعريته التي أوتيها هي كل ما ينقمون منه ويعدونه ذنباً يؤخذ بجريرته:

وَلاَ ذَنْبَ لِي إِلَّا حِجًى وَبَرَاعَةٌ وَمَجْدٌ وبَيتٌ في رَبِيعَةَ عَالِ
وَمَيلِي إلى أَهْلِ التَّوَاضُعِ والعُلَا بِوُدِّي وَبُغْضِي الأَسْفَلَ المُتَعَالِي[4]

---

(١) الديوان ص ٤٢٨. وقلب شعاع: تفرقت همومه.
(٢) انظر ما تقدم ص ٧٣.
(٣) الديوان ص ١٤٥.
(٤) الديوان ص ٣٧٢.

وهو يكرر ذلك مشيراً إلى أصالة محتده، وشرف خئولته، وعلو همته وسمو أخلاقه:

وَمَــالِيَ ذَنْبٌ غَيــرُ أُمٍّ نَجِيبَــةٍ ... حَصَانٍ أَتَتْ مِنْ مُحْصَنَاتِ النَّجَائِبِ
وآبـاءِ صِدْقٍ حينَ أُعْـزَى وَهِمَّةٍ ... عَلَتْ بي عَلَى هَامِ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ
وبُغْضِي لأَرْبَـابِ الخَنَا وَمَـوَدَّتِي ... لِكُلِّ أَبِيِّ الضَّيمِ مَحْضِ الضَّرَائِبِ[1]

وحينما يتفكر ابن المقرب في شأنه مع بني عمه، ويتحقق من أنه قد خدع بوعودهم الكاذبة يندم ندامة الكُسعي على مهادنتهم ومسالمتهم، ويأسف على درر نظمه التي توَّجها من لا يستحقها:

لَقَدْ تَفَكَّرْتُ في شَـأْنِي وَشَأْنِهِمُ ... فَبَانَ لِي أَنَّ ذَنْبِي عِنْدَهُمْ وَرَعِي
فَـآهِ مِنْ زَفَرَاتٍ كُلَّمـا صَعَـدَتْ ... في الصَّدْرِ كَادَتْ تُوَرِّي النَّارَ في ضِلَعِي
يَسُوقُها أَسَفٌ قَـدْ ثَارَ من نَـدَمٍ ... يُرْبِي عَلَى نَدَمِ المَغْبُونِ من كُسَعِ
ولَيسَ ذَاكَ عَلَى مَـالٍ نَعِمْتُ بِهِ ... حِيناً وأَفْنَاهُ صَرْفُ الأَزْلَمِ الجَذَعِ
وَلَا عَلَى زَلَّـةٍ أَخْشَى عَـوَاقِبَهَـا ... والنَّاسُ حِزْبَانِ: ذُو أَمْنٍ وذُو فَزَعِ
لَكِنْ عَلَى دُرَرٍ تَزْهُو جَـوَاهِرُهَـا ... في عِقْدِ كُلِّ نِظَامٍ غيرِ مُنْقَطِعِ
تَوَّجْتُها مَعْشَـراً لا أَبْتَغِي عِوَضـاً ... عَنْها وَإِنِّي في قَوْمِي لَـذُو قَنَعِ
وكُنتُ أَوْلَى بهَا مِنهُم وَكَمْ مِنَنٍ ... ضَاعَتْ وَمَا فَائِتٌ يَمْضِي بِمُرْتَجَعِ
وَغَـرَّنِي منهُمُ لَفْظٌ خُـدِعْتُ بِـهِ ... والنَّاسُ مَا بينَ مَخْدُوعٍ وَمُخْتَدِعِ[2]

لكن كل هذه الأسباب التي يبديها الشاعر لا تعدو ـ في ظني ـ كونها أسباباً ظاهرية يتعلّل بها ابن المقرب. وإلا فإن تطلعه إلى السيادة والمجد ومنافسة أمراء أسرته هي من أهم الأسباب وراء هذه العداوة بينه وبين بني عمه. فهو يصرح أحياناً بما تكنُّه نفسه، ويعلن أن همته العالية هي ذنبه الحقيقي الذي لن يتوب عنه، وأنه

---

(١) الديوان ص ٦٧.

(٢) الديوان ص ٢٧٤. والأزلم: الدهر الشديد.

أحق بالأمر ممن يكسوهم ثياب الحمد:

أَرَى هِمَّتِي لَا تَقْتَضِينِي سِوَى العُلَا ... وَلَيسَ العُلَا دُونَ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ
أَأَبْقَى كَـذَا لَا يَتَّقِينِي مُشَـاغِبِي ... وَلَا لِعَـظِيمٍ يَرْتَجِينِي مُصَـاحِبِي
وَهٰذا هُوَ الذَّنْبُ الَّذِي مَا وَرَاءَهُ ... لَـدَيهِم ولٰكِن لَستُ عَنهُ بِتَـائِبِ
أُدَارِي مُـدَارَاةَ الأَسِيرِ مَعَـاشِـراً ... مُدَارَاتُهُم من مُوجِعَاتِ المَصَائِبِ
عَنِ الرُّشْدِ أَهْدَى مِنْ سَطِيحٍ وكُلُّهُم ... إلى الغَيِّ أَعْدَى من سُلَيكِ المَقَانِبِ
وَأُنْكِـحُ أَبْكَـارَ المَعَـانِي أَرَاذِلاً ... أَحَقَّ بِخَصْيٍ من يَسَارِ الكَوَاعِبِ
وأَكْسُو ثِيابَ الحَمْدِ مَنْ حَقُّ جِسْمِهِ ... مَلابِسُ حُمَّى أَفْكَلٍ بعدَ صَالِبِ
وإِنِّي لَخَيـرٌ منـهُ نَفْسـاً وَوَالِداً ... وَعِيصاً إذا عُدَّتْ كِرامُ المَنَاسِبِ[1]

ولقد وصلت الحال بابن المقرب في شكواه وعتابه إلى أن انعكس أثر ذلك على ارتباطه بوطنه وبلده (الأحساء) بعد أن كره المقام بها وملَّ سكناها لما لقيه فيها من هوان ومذله. فهو يتبرأ من وطنه في إحدى قصائده، ويقطع صلته به، ويأبى أن يكون فيه هدفاً للظلم، ويحث نفسه على مفارقة هذه الديار:

لَا تُكْثِرِي مِنْ مَقَالاتٍ تَزِيدُ ضَنًى ... مَا الخَطُّ أُمِّي ولا وَادِي الحَسَاءِ أَبِي
في كُـلِّ أَرْضٍ إذا يَمَّمتُها وَطَنٌ ... مَا بينَ حُرٍّ وَبَينَ الدَّارِ مِنْ نَسَبِ
اللهُ أَكْرَمُ أَنْ أَبْقَى كَذَا غرضاً ... مَا بَينَكُمْ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ والنُّوَبِ
لِي عَنْ دِيَارِ الأَذَى والهُونِ مُتَّسَعٌ ... مَا كُلُّ دَارٍ مَنَاخُ الوَيلِ والحَرَبِ
لَا تَنْسِبُـونِي إلى مَنْشَـايَ بَينَكُمُ ... التُّرْبُ تُرْبٌ وفيـهِ مَنْبِتُ الذَّهَبِ
لَا تَحْسَبُوا بُغْضِيَ الأَوْطَانَ عَنْ مَلَلٍ ... لَا بُـدَّ لِلُودِّ والبَغْضَاءِ من سَبَبِ
قُـلٌّ وذُلٌّ وخِـذْلانٌ وضَمٌ عِـدًى ... مَقامُ مِثْلِي عَلَى هذَا من العَجَبِ

---

(١) الديوان ص ٦٩ وسترد في الحماسة أمثلة أخرى تثبت تطلعه للسيادة. وسطيح: كاهن جاهلي كان العرب يحتكمون إليه، وسليك المقانب: هو سليك بن السلكة المشهور بسرعة عدوه، ويسار الكواعب: عبدٌ لبني غُدَانةَ أراد مولاته فخَصَتْه، والأفكل الصالب: الحمى ذات الرعدة، والعِيص: الأصل.

إذا الـدِّيَارُ تَغشَّـاكَ الهَـوَانُ بِهَـا فَخَلِّهَا لِضَعِيفِ العَزْمِ واغْتَرِبِ[1]

وبمثل هذه الأبيات كان الشاعر يعزي نفسه بفراق وطنه، ولا ينفك يعلن في كل مناسبة عن عزة نفسه وإبائه الضيم والظلم، وتحمله الاغتراب في سبيل الحفاظ على كرامته:

وَارْغَبْ بِنَفْسِـكَ أَنْ تُقِيمَ بِبَلْدَةٍ عُصفُورُها يَسطُو بشُهبِ بُزَاتِهَـا
إن يَرْضَ قَومِي الهُونَ فِيَّ فَطَالَمَا عَمْداً أَهَنتُ النَّفسَ في مَرضَاتِهَا[2]
خَلِيلَيَّ مَـا دَارُ المَذَلَّـةِ فـاعْلَمَـا بِدَارِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَعْدَادِها وِرْدِي[3]
وإنْ وَطَنٌ سَاءتْك أَخْـلَاقُ أَهْلِهِ فَدَعْهُ فَمَا يُغْضِي عَلَى النَّقْصِ مَاجِدُ
فَمَـا هَجَـرٌ أُمٌّ غَـذَتْـكَ لِبَـانُهَـا وَلَا الخطُّ إنْ فَارَقْتَهَا لَكَ والِدُ[4]
دَعِ الدَّارَ بالبَحْرينِ تَعْفُو رُبُوعُها وَسُقْهَا وَلَوْ لَمْ يَبْقَ إلّا نُسُـوعُها
وَبِعْ بالقِلَى دَارَ المَهَـانَةِ والأَذَى فَمَا الرَّابِحُ المَغْبُوطُ إلّا بَيُوعُها[5]
وكُـلُّ أَرْضٍ إِذَا يَمَّمتُها وَطَنِـي وكُلُّ قومٍ إذا صَاحَبْتُهُمْ شِيَعِي[6]

وإذا كان الشاعر قد تبرأ من وطنه على هذه الصورة وأَكْثَرَ من إعلان الرحيل والتخلي عن البلد الذي لقي فيه الإهانه فليس ذلك عقوقاً منه للأرض التي نشأ بين ربوعها وأحبها، وليس هجراً للوطن الذي ولد فيه، وقامت على ترابه دولة آبائه، ولكن ضيقه بهذا الوطن وسخطه على ساكنيه إنما هو رد فعل لما لقيه من بني عمه من سجن وعذاب وهوان. بل لقد كان وفياً لقومه وعشيرته، محباً لوطنه وبلده. وفي شعره أمثلة كثيرة تدل على مبلغ حنينه لهذا الوطن وترقبه للعودة إليه كلما بعدت عليه الشقة وطال به السفر وشطَّ به المزار، فهو لا ينفك يردد في رحلاته محبته لقومه

(١) الديوان ص ٧٤.
(٢) الديوان ص ١٠٦.
(٣) الديوان ص ١٣٨.
(٤) الديوان ص ١٤١.
(٥) الديوان ص ٢٥٢. والنِّسع: ما يشد به الرحل.
(٦) الديوان ص ٢٧٧.

وإخلاصه لهم ووفاءه لذكراهم، موضحاً أنه لم يكن السبب في فراقهم والبعد عنهم، وأنه سيظل يسأل عن أخبارهم كلَّ ركب قادم من وطنه:

وإنَّ انْفِـرَادِي عَنْـهُمْ وَتَـغَـرُّبِي ... تَرَامَى بِيَ الأَمْوَاجُ والحَزْنُ والسُّهْبُ

بِغَيْـرِ اخْتِيارٍ كَـانَ مِنِّي وَلاَ قِلىً ... وإنَّـهُمُ لَـلْعَيـنُ والأَنْفُ والـقَلْبُ

ولكنَّـهَـا الأَيَّـامُ تُبْـعِـدُ تَـارَةً ... وتُدْنِي وَلاَ بُعْدٌ يَـدُومُ وَلاَ قُرْبُ

وإنِّي حَفِيٌّ عَنْهُمُ ومُسَـائِلٌ بِهِمْ ... حيثُ يَثْوِي السَّفْرُ أو يَنْزِلُ الرَّكْبُ(١)

وحين يعاتب قومه وهو في بغداد يلح على صاحبه المسافر إلى الأحساء أن يحمل سلامه إلى أسرته وأقاربه، ويوصيه أن يبث شوقه إلى أهله ووطنه، ولكنّ أموراً قد خبرها تثنيه عن العودة إلى بلده:

فَيَا رَاكباً تَطْوي بِهِ البِيـدَ جَسْرَةٌ ... وتَغْتَالُ غِيطَانَ الفَـلاَ والأَخَاشِبَـا

إذا أنتَ ألقَيتَ العِصِيَّ مُخَيِّمـاً ... بالاَحْسَا وجَاوَرْتَ المُلوكَ الأَطَايِبَا

فَيَمِّمْ لِجَـرْعَاءِ الشَّمَـالِ فإنّ لِي ... بِهَـا خُلَّةً أشتَـاقُهـا ومَـلاَعِبَـا

وَقِفْ وَقْفَةً بالدَّرْبِ غَرْبِيَّ بَـابِهَا ... فَثَمَّ تُـلاقِي أُسْـرَتِي والأَقَـارِبَـا

فَتَلْقَى مُلُوكـاً كـالأَهِلَّةِ لَمْ تَـزَلْ ... تَهَشُّ إلى الجُلَّى وتَأْبَى المَعَايِبَا

فَقُـلْ لَهُمُ بَعدَ السَّـلاَمِ مَقَـالَـةً ... تَعُمُّ بها عَنِّي شَبَـاباً وشَـائِبَـا

أَلَا يَا لَقَوْمِي والفَتَى حينَ يَرْتَمِي ... بِهِ الدَّهْرُ يَدْعُو قَومَه لا الأَجَانِبَا

كَفَى حَـزَنـاً أنِّي ببَغْـدَادَ مُفْـرَدٌ ... عَنِ الأَهْلِ أَلْقَى كُلَّ يومٍ عَجَائِبَا

وَيَشْتَـاقُكُمْ قَلبِي فَـأَذْكُـرُ دُونَكُمْ ... مَهَـامِـهَ لاَ أَشْتَـاقُهـا وسَبَـاسِبَـا

فَيَسْهُلُ عِندِي خَـوْضُها فَيعـزُّلِي ... تَذَكُّرُ حَـالاتٍ أَشَبْنَ الذَّوَائِبَـا(٢)

إن الحالات اللاتي أشبن قذاله ومنعنَه من العودة إلى وطنه هي ما لقيه من قومه من عقوق وقطيعة وعداوة، وهي ما يصفها بالأفاعي والصِّلال، وفي الوقت نفسه

---

(١) الديوان ص ٣١ والحَزْن: الأرض الوعرة، والسهب: السهلة.

(٢) الديوان ص ٣٨، والأخاشب: الجبال، والسباسب: جمع سبسب وهي المفازة.

يحن إلى هذه الأرض التي تسري فيها هذه الأفاعي ولو آذته بسمومها:

رَعَى اللهُ هَاتِيكَ الدِّيَارَ وإنْ سَرَتْ ... إلَيْنَا أَفَاعٍ أَنْبَتَتْ وَصِلَالُ
أَقُولُ لِرَكْبٍ من عُقَيلٍ لَقِيتُهُمْ ... وَأَعْنَاقُهَا لِلْقَرْيَتَينِ تُمَالُ
أَيَا رَكْبُ حُيِّيتُمْ وَجَادَتْ بِلَادَكُمْ ... غَمَائِمُ أَدْنَى سَحِّهِنَّ سِجَالُ
إذا جِئتُمُ أَرْضَ الحَسَاءِ وَقَابَلَتْ ... قِبَابُ بِضَاحِي بَرِّهَا وَتِلَالُ
فَأَرْخُوا لَهَا فَضْلَ الأَزِمَّةِ سَاعَةً ... وإن كَانَ أَيْنٌ مَسَّهَا وَكَلَالُ(١)

ولم تكن رسائل ابن المقرب تنقطع عن قومه وأهله في رحلاته كلها يضمنها حنينه إليهم وشوقه إلى الجرعاء من أرض الأحساء كلما هبت نسمات الشمال منحدرة إلى الجنوب حيث موطنه ومنازل أحبته:

كِتَابُ مَشُوقٍ مَا تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ ... مِنَ الوُرْقِ إلَّا حَنَّ شَوقاً إليكُمُ
مُقِيمٍ بِأَرْضِ المَجْزَرِيِّ وقَلْبُهُ ... رَهِينٌ بِجَرْعَاءِ الشَّمَالِ لَدَيكُمُ
يَحِنُّ إذا هَبَّتْ شَمَالٌ لأَنَّهَا ... تُؤَدِّي إليكُمْ أَوْ تَمُرُّ عَليكُمُ(٢)

لقد عظم على الشاعر أن يلقى الأذى والإهانة من أقرب الناس إليه وهم بنو عمه وعشيرته، ولو كان قد لقي الإهانة والسجن من غيرهم لهان عليه الأمر. ولذلك فهو كثير الشكوى من هذا الواقع المؤلم الذي يتنافى مع صلات الرحم وروابط القربى. ولقد سجل ابن المقرب بشعره صوراً لهذه العلاقة الغريبة التي نشأت بينه وبين أقربائه، وهي تعبر بصدق عن الألم العميق الذي يتملك نفسه ويعتصر قلبه، ويقارن هذه العلاقة السيئة مع قومه في بلده بعلاقته بالناس في العراق حين يراهم يفتحون له

(١) الديوان ص ٤٣٥. والصِّلال: جمع صِلّ وهي الحية العظيمة لا تنفع معها الرُّقى، والقريتان: موضعان قريبان من الأحساء هما قرية العليا وقرية السلفى ولا تزال إحداهما تعرف باسم (قرية) شمال المملكة العربية السعودية.

(٢) الديوان ص ٤٦٥ والمجزري: لعله نسبة إلى الجزيرة وهي أرض بالبصرة كما يقول محقق الديوان، وقد ورد في التقديم لهذه الأبيات أنه بعث بها إلى أهله من بلاد البصرة.

قلوبهم ويرحبون به ويستقبلونه بكل الحب والتقدير:

جَزَى اللهُ خَيْراً كُلَّ ثَاوٍ رَأَيْتُهُ ببغدَادَ لَا يَنْفَكُّ بالدَّرْب سَارِبَا
فَلَمْ أَلْقَ منهُمُ يومَ نَحْسٍ وَلَمْ أبتْ أُحاذِرُ منهُم جَانِياً أو مُواثِبَا[1]

ويتملكه العجب حين يرى الجفوة وقد تمكنت من قلوب بني عمه فخانوه وأبعدوه في الوقت الذي تقوى به صلته بمن لا تربطه بهم قرابة ولا نسب:

تَجَافَ عَنِ العُتْبَى فَمَا الذَّنْبُ وَاحِدُ
وَهَبْ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ مَا أَنْتَ وَاجِدُ
إذا خَانَكَ الأَدْنَى الَّذي أَنْتَ حِزْبُهُ
فَلَا عَجَباً إنْ أَسْلَمَتْكَ الأَبَاعِدُ

ويعجب أيضاً كيف يتسلّط عليه قومه وأقرباؤه بتحريض أعدائه:

وَأَعْجَبُ مَالَاقَيْتُ أَنَّ بَنِي أَبِي حُسَامٌ لِمَنْ يَبْغِي جِلَادِي وَسَاعِدُ[3]
وَأَعْجَبُ ما يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ أَنَّنِي أَرَى القَومَ تَرْمِينِي بأَيْدِي رِجَالِيَا[4]

لقد عرف ابن المقرب حقيقة أولئك الناس الذين يكنُّون له الكراهية والبغض فهم «إمّا حاسد أو معاند»:

وَلَا تَشْكُ أَحْدَاثَ اللَّيَالِي إلى امْرِيءٍ فَهٰذَا النَّاسُ إمّا حَاسِدٌ أَوْ مُعَانِدُ[5]

أما بنو عمه فهم بين ثلاثة: إمّا عزيز قوي الجانب ولكنه يعرض عنه ويقرّب خصومه. وإمّا ضعيف لا نفوذ له ولا سلطة بيده، وإمّا شانيء له حاقد عليه:

---

(١) الديوان ص ٣٦.

(٢) الديوان ص ١٤٠ ويروى الشطر الثاني من البيت الثاني: فوا عجباً إن سالمتك الأباعد، وهو أنسب لواقع صلته بمن يسميهم الأباعد.

(٣) الديوان ص ١٤٤.

(٤) الديوان ص ٦٥٧.

(٥) الدوان ص ١٤٠.

عَـزِيزُهُمُ إنْ لُـذْتُ يَـومـاً بِـظِلِّهِ ... رَأَيتُ سَمُوماً وَهْوَ لِلْخَصْمِ بَارِدُ
وَسَـائِـرُهمْ إمّـا ضَعِيفٌ فَضَعْفُـهُ ... لَهُ عَاذِرٌ أو مُبْغِضٌ لي مُجَـاهِدُ
هُمُ أَلْحَمُوني النَّائِبَـاتِ وأَوْلَعَتْ ... بِلَحْمِـي أُسُـودٌ منـهُمُ وأَسَـاوِدُ
وَهُمْ تَرَكُوا عَمْداً جَنَابِي وَمَرْبَعِي ... مِنَ الجَدْبِ لا يَرجُو بِهِ الخِصْبَ رَائِدُ
وَهُمْ شَمَّتُوا بِي حَاسِدِيَّ وذَلِكُمْ ... مِنَ الأَمْرِ ما لا تَرْتَضِيهِ الأَمَاجِدُ(١)

ونراه يصور في بعض أبياته علاقته المتداعية ببني عمه تصويرا دقيقا، إذ يرجعها إلى أسبابها ويفصل أحداثها، وكيف وصلت إلى حد القطيعة. فقد بدأت بعدما أساء إليه بنو عمه آل على بن عبد الله حين أطاعوا حاسديه ومبغضيه، ثم لم ينفع فيهم الاستعطاف في رد بعض ما اجتاحوا من أمواله وممتلكاته، ولمّا توجه بعتابه وشكواه إلى بني عمه آل فضل بن عبد الله أعرضوا عنه وجفوه رغم ما لقيه من المتاعب بسببهم. وفي عرضه لحكايته هذه مع بني عمه يتخيّل الناس يسألونه: لِمَ هجر قومه؟ فيحتار في الإجابة فهي قصة مخجلة، ولكن لا مفرَّ من إيضاحها والإفصاح عنها:

يَالَيتَ شِعْرِي إنْ زُمَّتْ رَكَـائِبُنَا ... وَقُطِّعَتْ مِنْ قُرىٰ الْبَحْرِينِ أَقْوَانَا
وَأَصْبَحَتْ قَدْ أَنَاخَتْ في ذُرَى مَلِكٍ ... مِنْ حِمْيرٍ أو بَقَايَا الحَيِّ كَهْلاَنَا
وَجَـاءَت القَومُ أَفْـواجاً لِتَسْـأَلَنِي ... فصَـادفوا مَنْطِقِي لِلْفَضْلِ عُنْـوَانَا
فَإِنْ أُجَمْجِمْ وأُخْفِي عَنْهُمُ خَبَرِي ... حَمِيَّـةً جَلَبَتْ هُـونـاً ونُقْصَـانَـا
وإنْ أَقُـلْ كُنْتُ ذَا مَالٍ فَمَـزَّقَـهُ ... صَرْفٌ مِنَ الدَّهْرِ مَا يَنْفَكُّ يَلْحَانَا
يُقَـالُ لِي كُلُّ تَفْرِيقٍ لَـهُ سَبَبٌ ... يَجْرِي فَأَوْرِدْ عَلَينَا الأَمْرَ والشَّانَا
فإِنْ أَقُلْ سَيِّداً قومِي هُمَا سَبَبٌ ... لِذَاكَ لَمْ أَرَ هَذَا القَولَ إحْسَانـا
هذا لَعَمْرِي أَطَاعَ الكَاشِحِينَ وَلَمْ ... يَعْطِفْ وأَصْغَى إلى الوَاشِينَ إذْ عَانَا
وَمَنَّ بَعْدَ ذَهَاب المَالِ عَنْ عَرَضٍ ... يُفَتِّـرُ النَّفْسَ كَيْ نَـدْعُـوهُ مَنَّـانَـا

(١) الدويان ص ١٤٤.

وَجِئتُ هَـذا أُرَجِّي عِنْـدَهُ أَمَـلاً نَزْراً فَصَادَفْتُ إعْرَاضاً وَحِـرْمَانَـا
وَفِي مَـوَدَّتِـه لاَقَيتُ كُـلَّ أذىً واجْتِيحَ وَفْرِي بُغْضاً لِي وَشَنْآنَا[1]

وأمام هذه الحال السيئة التي وصلت إليها صلته ببني عمه راح يكرر شكواه من حظه السيىء العاثر، ويؤلمه ذلك إذا رآهم يقدِّمون غيره:

أَيُصْبِحُ حَظِّي فيكُمُ وَهْـوَ نَاقِصٌ وتَغْدُو حُظُوظُ الغَيرِ أَوْفَى وَأَكْمَلا
ويُكَـرمُ أَقْـوامٌ مُعَيـدٌ أَبـوهُمُ ويُحَرمُ مَنْ يُدْعَى عَليّاً وَعَبْدَلاَ[2]

ويشتد ألمه وحزنه إذا صدر هذا التصرف من بني عمه آل فضل بن عبد الله، وقد كان وفيـاً لهم حافظاً لعهدهم، فيستنهض هممهم ألاّ يتمادوا في حرمانه وإبعاده ويعجب كيف يكون أراذل الناس أكثر حظوة منه عندهم:

يَـا آلَ فَـضْـلٍ أَمَـاتَ اللهُ حَـاسِـدَكُـمْ
بِـغَـيـظِهِ وَكَـفَـاكُـمْ زَلَّـةَ الـقَـدَمِ
كَمْ يَمْضَـغُ الـدَّهْـرُ فِيمَـا بَيـنَ أَظْهُـرِكُـمْ
لَحْمِي وَيَشْـرَبُ شُـرْبَ الهِيْمِ فَضْـلَ دَمِـي
أَفِـي الـمُـروءَةِ أَنْ أَظْـمَـى وَحَـوضُـكُـمُ
لِـلْكَـلْبِ والـذِّئـبِ والـجُـرْذَانِ وَالْـبُـهَـمِ
وَيُـصَـطَفَـى مَـنْ أَبُـوهُ كَـانَ عَـبْـدَ أَبِـي
دُونِي وَيُقْـطَعُ فِـيمَـا بَيْـنَـكُـمْ رَحِـمِـي[3]

ويُعد عتاب ابن المقرب لآل الفضل بن عبد الله من أجمل وأصدق ما صدر عنه في هذا الباب. فقد خيبوا آماله بعد أن أكثر من مديحهم، وأعرضوا عنه بعد أن كانت

---

(١) الديوان ص ٦٠٦.

(٢) الديوان ص ٣٦٨ ولعله يعني بقوله (أقوام مُعيدٌ أبوهم) معنى المثل: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) أو لعله يعني أنهم من المعدان واحدهم معيدي وهم من سكان سواد العراق ويضرب بهم المثل في المـذلة والاحتقار.

(٣) الديوان ص ٥٦٠.

صلته الوثيقة بهم سببا في هوانه على أيدي بني عمه الآخرين آل علي بن عبد الله ، وما تبع ذلك من سجنه ومصادرة أمواله:

وَلَـوْلَا هَـوَاكُـمْ مَـاشَـقِـيـتُ وَلَا غَـدَا
يَـصُـكُّ بِـرِجْلِي الـقَيْـدَ مَنْ لا أُشَـاغِبُـهْ
وَلَا اجْـتَـاحَتِ الأَعْـدَاءُ مَـالِي وَلَا انْبَـرَى
يُـطَاوِلُـنِي مَـنْ لَـيسَ تُـحْـصَى مَـعَـائِـبُـهْ
وَلَا نَبَحَتْ شَخْصِي كِـلَابُ ابْـنِ مَـاجِـدٍ
غِـلَابـاً وَلَا بَـالَـتْ عَـلَيَّ ثَـعَـالِـبُـهْ[1]
أَمَـا اجْتِيـحَ مَـالِي في هَـوَاكُمْ وَأُسْهِرَتْ
بِـذَا السِّجْـنِ عَـينِـي والـعُـيُـونُ نِـيَـامُ[2]

ورغم ما تركه السجن في نفسه من عذاب وشعور بالمهانة والمذلة، حينما يذكر القيد الذي أوثقت به رجلاه في السجن، أو سهره فيه والناس نيام، فإننا لا نراه يذكر سجنه في شكواه وعتابه إلا في إشارات عابرة كما في الأبيات السابقة ضمن عتابه لآل الفضل ، وكما في قصيدته[3] التي يمدح بها الناصر لدين الله يوم ذهب إليه يشكو ما حلَّ به في البحرين من ظلم وعدوان، ويتحدث عن دخوله السجن وخروجه منه، وقد أثقلت القيود جسمه حتى كاد اليأس أن يملك عليه نفسه:

فَهَـا أَنَا قَدْ أَلْقَيتُ رَحْلِيَ عَائِـذَاً ... بِنُعْمَاكَ مِنْ أَيْدِي الزَّمَانِ الغَوَاشِمِ
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ حَـلَالٍ وَثَرْوَةٍ ... يُضَاعَفُ إكْرَامي وَتُرْجَى مَكَارِمِي
فَأَعْرَانِي الـوَالِي المَشُومُ وَفَـاتَنِي ... بِمَـا حُزْتُهُ مِنْ ضَيْعَـةٍ وَدَرَاهِمِ
فَمَالَ عَلَى حَالِي وَمَالِي وَثَرْوَتِي ... مَآلِي وَأَصْغَى لِاخْتِلَاقِ النَّمَائِمِ

(١) الديوان ص ٦١.
(٢) الديوان ص ٤٨١.
(٣) انظر الديوان ص ٤٩٠.

وَبِتُّ عَزَائِي السِّجْنُ في مُدْلَهِمَّةٍ   يُجَاوِبُنِي فيها ثِقَالُ الأَدَاهِمِ
وَأَخْرَجَنِي مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ وَقَدْ أَتَىٰ   عَلَى نَشَبِي أَشْكُو إلىٰ غيرِ راحِمِ [1]

كما يذكر سجنه أيضاً في قصيدته [2] التي أنشأها ببغداد يشكو فيها أحواله ويعرِّض بأعدائه، وقد أخذ العبرة من خيانة بعض الناس له، بعد أن خبرهم وجرّبهم فلم يجد منهم إلا العداوة والحقد:

سَعَوْا في دَمِي بالجَهْدِ حَتَى كأنَّني   مِنَ الرُّومِ قَدْ أَعْلَمْتُ جَيْشاً مُحَارِبا
وَلَمْ يَكْفِهِم قَيدٌ ثَقِيلٌ وَخَشْبَةٌ   برِجْلِيَ في دَهْمَاءَ تُنْسِي المَصَائِبَا
وَأَشْياءُ لَوْ عَدَّدْتُها طَالَ شَرْحُها   وَلَمْ أُحْصِهَا في مُحْكَمِ النَّظْمِ حَاسِبَا
فَلَا تَحْسَبِ الأَعْدَاءُ أَنِّي لِمَا جَرَى   تَضَعْضَعْتُ أَوْ أَعْطَيتُ حَبْلي مُشَاغِبَا
فَقَبْلِي قَضَى النُّعْمَانُ في السِّجْنِ نَحْبَهُ   وَغُودِرَ مَسْلُوباً وقَدْ كَانَ سَالِبَا [3]

ويتحدث في قصيدة أخرى عن سجنه حين يُذكِّره به عاذله الناصح، وفيها يقدم لنا تفصيلات لم ترد إلا في هذه القصيدة عن ملابسات مصيبته حينما صودرت أمواله وسُجن. فقد ذكر أن أملاكه التي أخذت منه هي زرع ونخيل، وأن نساءه قد لحقت بهن الإهانة بسلبهن، وإخراجهن من دارهن، وتسليم هذه الدار للبدو وسكناهم فيها:

وَذِي إِرْبَةٍ أَهْدَى لِيَ اللَّومَ نَاصِحاً
وَذُو اللُّبِّ أَحْيَاناً يَرِيعُ إلى العَذْلِ

---

(1) الديوان ص ٤٩٦ والمشوم: مخفف المشئوم، وفي الطبعة الهندية الغشوم. والأداهم: القيود، والنشب: المال الأصيل، وقد وردت بعض هذه الأبيات بنصها في قصيدته التي يمدح فيها بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ص ٥١٩ عدا البيت الخامس فقد ورد هكذا:

وَظَلْتُ أعاني السجنَ في قَعْرِ هُوَّةٍ   سَمَاعي وأَلْحانِي غِنَاءُ الأَدَاهِمِ

(2) انظر الديوان ص ٣٥.

(3) الديوان ص٣٦. ويعني بالنعمان النعمان بن النذر، وكان كسرى قد حبسه حتى مات في السجن.

يَقُولُ بَتَأْنِيبٍ أأنْسِيتَ مَا جَرَى
عَلَيكَ مِنَ الأَغْلَالِ والسّجْنِ والكَبْلِ
وإحْرَازِ مَا أُوْتِيتَهُ واكْتَسَبْتَهُ
عَلَى غَيرِ ذَنْبٍ مِنْ فِرَاخٍ وَمِنْ نَخْلِ
وَتَفْرِيقِهَ في كُلِّ شَاوٍ وَخَارِبٍ
وَذَاتِ هَنٍ كَالمَاءِ في رَدعِ الوَحْلِ
وسَلْبِ الحِسَانِ المُكْرَمَاتِ تَهَاوُناً
بِهِنَّ وَدَمْعُ الأَعْيُنِ النُّجْلِ كَالوَبْلِ
وَمَا كَانَ مِنْ إخْرَاجِهِنَّ صَوَارِخاً
مِنَ الضَّيم مِنْ بَعْدِ القِصَارَةِ والشِّكْلِ
وَسُكْنَى البَوَادِي دَارَهُنَّ وإنَّهَا
لَدَارُ امْرِيءٍ لا بِالحَصُورِ وَلاَ الخَطْلِ (١)

ولعل سكنى البدو داره لم تكن على أثر مصادرة أمواله مباشرة، وإنما في وقت متأخر حينما ضعفت الدولة العيونية وغلبت البادية قومه على أملاكهم ودورهم. إذ أن من المستبعد أن يتمادى بنو عمه في إهانته بسلب نسائه، وإخراجهن من بيته، ونزول البدو فيه، فهنَّ نساؤهم مثلما أنهن نساؤه!!

إن هذه الأمثلة التي يذكر فيها سجنه هي كل ما ذكره الشاعر عن قصة دخوله السجن، وقد أوردها عَرَضاً في قصائد قالها بعد خروجه من السجن بمدة طويلة. ونحن لا نجد في ديوانه قصائد مفردة يصف فيها أيامه في السجن مما يرجح أن

(١) الديوان ص ٣٢١ والشاوي: راعي الغنم دون الإبل، والخارب: السارق، والحسان المكرمات: الأرجح أنه يعني بهن بناته، فقد ذكرهن في قصيدة أخرى ص ٣٩، والقِصارة للمرأة: مكوثها في بيتها، والشِّكل: الغنج والدلال، والحَصُور: ضيق الصدر، والفِراخ: جمع فرخ وهو كل صغير من الحيوان والنبات، والزرع المتهيىء للانشقاق، ولعله يعني بالفراخ صغار النخل التي لم تثمر كما تعرف عند الناس اليوم بهذا الاسم في الأحساء ونجد.

مكوثه فيه كان لفترة يسيرة[1].

لقد مكث ابن المقرب ما يقارب خمسة وعشرين عاماً وهو يبث شكواه وعتابه لبني عمه على نحو ما رأينا من التحسر على عزته المسلوبة وكرامته الممتهنة وحزنه لهذا المصير الذي آل إليه دون أن تلين له قلوب بني عمه، فقد كانوا غارقين في خصوماتهم ونزاعهم على الملك، ولم يكن يهمهم إنصاف الشاعر أو ردُّ مظلمته بعد أن مضت عليها عدة سنوات. لكنّ ابن المقرب لم يكن ييأس من استرداد أمواله وضياعه ولو مضى على حادثة سجنه زمن طويل. فقد ذهب إلى المستنصر بالله بعدما يقارب ثمانية عشر عاماً على هذه الحادثة يشكو الظلم الذي لحق به ويتطلع إلى عدل الخليفة :

وَكَمْ أَخِي ثَـرْوَةٍ أَوْدَى بِثَـرْوَتِـه ... ظُلْمُ الـوُلاَةِ وتَأْوِيـلاَتُها الكُـذُبُ
أَعَـادَ ثَـرْوَتَـهُ مِنْ غَيـرِ مَسْــأَلـةٍ ... إليهِ عَفْواً وَقَدْ مَرَّتْ لَهَا حِقَبُ[2]

وكان أيضاً يبث شكواه في أثناء رحلاته للعراق لبعض ممدوحيه في بغداد والبصرة والموصل، ولكن هدفه من هذه الشكوى غالباً الإستعانة بهم على ضائقته المالية كما رأينا في مدائحه لبدر الدين لؤلؤ وكمال الدين بن أبي الكرم حينما باع مركوبه تحت غلبة الحاجة والفاقة[3]. ولم يكن الشاعر يعود من إحدى رحلاته إلا لتحدثه نفسه بالرحيل والغربة مرة أخرى، دأبه المسير والسُّرى عزيز النفس شامخ الأنف، يرفض الذل والخضوع والهوان :

---

(١) وقد جاء في التقديم لإحدى قصائده (الديوان ص٥٩ الحاشية) أنها «مما قاله وهو محبوس» . إلا أن ذلك يتنافى مع الروايات الأخرى لسبب إنشائها ، وهو عتابه لابن عمه من أجل خلعة وعده بها فطال عليه الأمد، كما أن مضمون القصيدة يدل بشكل قاطع على أنه قالها بعد خروجه من السجن (انظر الأبيات من ٢١ الى ٢٤ ص ٦١).

(٢) الديوان ص ٩٤

(٣) انظر ما تقدم ص ١٥١ .

ذَرِينِي فَإِنَّ الحُرَّ لَا يَأْلَفُ الأَذَى
وَقَدْ أَكْثَرَ النَّسْلَ الجَدِيلُ وَشَدْقَمُ
وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ضَيْمُهُ مِنْ رِجَالِهِ
فَتَرْحَالُهُ لَوْمَسَّهُ الضُّرُّ أَحْزَمُ[1]

إن شكوى ابن المقرب من زمانه وسوء حظه، وعتابه لبني عمه على صدودهم وإعراضهم عنه ولومهم على سجنه وإهانته، لا تكاد تجمعه قصيدة واحدة إلا نادراً. بل نراه متناثراً بين تضاعيف مدائحه غالباً، وقد يطغى العتاب والشكوى على المديح في بعضها كما في قصيدته التي يمدح فيها الفضل بن محمد ويرثي والده. فقد راح يشكو فيها ويعاتب الفضل في معظم أبياتها، ولم يترك للمدح والرثاء سوى عشرة أبيات أو تزيد قليلاً مع أن أبياتها قد بلغت ثمانين بيتاً[2]. ولقد كان ابن المقرب في هذه القصيدة وغيرها مبدعاً حقاً في عرض قضيته، حاذقاً في تصوير حاله، صادقاً في عواطفه وأحاسيسه، لا يمل ولا يسأم من بث همومه وأحزانه على مسامع معاصريه عامة وبني عمه خاصة. ولم يكن عتابه لبني عمه مقتصراً على قضية سجنه ومصادرة أمواله والإعراض عنه فحسب، فتلك جزء من همومه الكثيرة التي لا تبرح تفكيره في شأن عشيرته وقومه وفي أحوال دولة آبائه حين آذنت شمسها بالمغيب. فلقد نسي الشاعر همومه وأحزانه وهو يرى الأخطار تهدد الدولة العيونية، وشقي بِهَمٍّ أعظم من مشاكله الخاصة، فراح يبكي مجد بلاده ودولته وعزة قومه وعشيرته:

كُنْتُ قَبْلَ اليَومِ أَبْكِي بِشَجىً هَمَّ نَفْسِي وَطَرِيفِي وَتِلَادِي
ثُمَّ قَدْ أَصْبَحْتُ أَبْكِي نَاسِياً شَجْوَ إِخْوانِي وَرَهْطِي وَبِلَادِي
زَوْبَعَتْ فِي جَوِّهَا عَاصِفَةٌ ذَاتُ إِعْصَارٍ تُضَاهِي رِيحَ عَادِ

---

(١) الديوان ص ٤٥١. والجديل وشدقم: فحلان للنعمان بن المنذر.

(٢) انظر الدويوان ص ٦٠١.

مَا نَجَا مِنْ نَارِهَا غَيرُ امْرِيءٍ عَادَ مِنْهَا بِمُضِلٍّ غَيرِ هَادِ[1]

لقد شهد ابن المقرب مظاهر ضعف الدولة العيونية ودواعي انحلالها واضمحلالها بما استفحل من صراع بين أمرائها على الحكم حتى طمع فيهم أعداؤهم ، بعد أن أدت خلافاتهم إلى فَقْدِ السيطرة على مقاليد الأمور وإلى قيام بعض الأمراء بتسليم الممتلكات والضياع والأموال إلى رؤساء القبائل دفعاً لشرِّهم . فكان الشاعر يرى ذلك فيتألم لهذا المصير المؤلم[2] وتزداد همومه وهواجسه ويعزُّ عليه أن يرى أهله وعشيرته بهذا المقام المُذِلّ، فينحو بالملامة على بني عمه لتفريطهم وركونهم إلى الضعف والهوان، وذلك ما يعبر عنه بنونيته التي يتحدث فيها عما حلَّ بعشيرته :

بَعضُ الَّذِي نَالَنَا يَادَهْرُ يَكْفِينَا فَامْنُنْ بِبُقْيَا وَأَوْدِعْهَا يَداً فِينَا
إنْ كَانَ شَأْنُكَ إرْضَاءَ العَدُوِّ بِنَا فَدُونَ هذَا بِهِ يَرْضَى مُعَادِينَا
الحَمْدُ للهِ حَمْداً لاَ نَفَادَ لَهُ إذْ لَمْ يَكُنْ ضَعْفُنَا إلاَّ بِأَيْدِينا
خَافَتْ بَنُو عَمِّنَا أَمْراً يُعَاجِلُنَا مِنْ قَبْلِ إنحَاقِ تَالِينَا بِمَاضِينَا
وَاسْتَيْقَنَتْ أَنَّ كُلَّ المُلْكِ مُنْتَزَعٌ وَلَوْ تَمَكَّثَ فِي أَرْبَابِهِ حِينَا
وَحَاذَرَتْ دَولَةً فِي عَقْبِ دَوْلَتِهَا تَأْتِي سَرِيعاً فَتُلْقِي سُمَّهَا فِينا
فَلَم تَدَعْ لِمُرَجٍّ سَلْبَ نِعْمَتِهَا أَرْضاً قَرَاحاً بِأَيْدِينَا وَلاَ لِينَا
وَلَمْ تَزَلْ هذه فِينَا عِنَايَتُهَا حَتَى تَسَاوَى ابْنُ ستٍّ وابْنُ سِتِّينَا[3]

---

(1) الديوان ص ١٧٦ .

(2) انتهى حكم الدولة العيونية في البحرين عام ٦٣٦ هـ، وقد بدأ الصراع بين أمرائها قبل ذلك بثلاثين سنة تقريباً، وكانت وفاة الشاعر سنة ٦٣٠ هـ.

(3) الديوان ص ٦١١ والأرض القراح : الخالية من الماء والشجر، واللين : كل شيء من النخل سوى العجوة .

وتأخذ هذه القصيدة الفريدة عند ابن المقرب شكل قصة تصور أحوال الدولة العيونية وضعفها في سنواتها الأخيرة. وهذا اللون من شعر الشكوى والعتاب قليل في ديوانه إذا قُرن باللون الأول في الشكوى لحاله وعتاب بني عمه بسبب ما ألحقوه به من ظلم وقسوة. ولكن هذا النوع القليل تتمثل فيه الوحدة الموضوعية للقصيدة عند الشاعر بخلاف النوع الأول الذي نراه متداخلا مع المديح والفخر وغيرهما من الأغراض. فقد رأينا في الأبيات السابقة كيف بدأ قصيدته بالتحسر على دولة بني عمه التي أصابها الضعف والعجز، وكيف انتقل إلى السخرية من تصرفات أمرائها بتخليهم عن ممتلكاتهم حتى لا يجد من يأتي بعدهم ما يسلبه منهم.

وإذا استقرأنا بقية أبيات هذه القصيدة رأينا كيف يصور لنا بصدق وإحساس ملؤه الألم والحرقة مآل دولته ونزاع أمرائها، وتنافسهم على الملك، واستيلاء أعدائهم على كل شيء مقابل بقائهم على عرش الإمارة المتداعي. فقد تحدث بعد الأبيات السابقة عن الفقر الذي حل بعشيرته وقناعتهم بالنزر اليسير، ثم ذكر ما حدَّثه به صاحبه عن قومه ومذلتهم مستكملاً الصورة التي رسم لنا بعض جوانبها:

وَصَاحِبٍ قَالَ لِي والعَينُ تَحْرُسُهُ ... حِيناً ويَنطِقُ بالشَّكوى أَحَايِينَا
أَمَا تَرَى قَومَنَا فِينَا وَمَا صَنَعُوا ... لَمْ يَتْرُكُوا أَمَلاً فِينَا لِراجِينا؟
مَالُوا عَلينَا مع الأَيَّامِ واسْتَمعُوا ... فِينَا أَقَاوِيلَ شَانِينَا وَقَالِينَا
مِنْ غَيرِ شَيءٍ سِوَى قَصْرٍ بأَلْسُنِنا ... عَمَّا يُعَابُ وطُولٍ في عَوَالِينَا

ثم أخذ يعدد مفاخر آبائه، ويذكر الأيام التي كانت فيها دولتهم قوية عزيزة الجانب. ويخلص إلى الشكوى مما آلت إليه حالهم:

يَا لَيتَ شِعْرِي أَيُّ الذَّنبِ كَانَ لَنَا ... حَتَّى بِهِ اجْتِيحَ دَانِينَا وَقَاصِينَا
أَضْحَتْ بَسَاتِينُنَا نَفْدي بأَحْسَنِهَا ... شِقْصاً لأَدْنَى خَسِيسٍ مِنْ مَوَالِينَا
بِجُلَّةِ التَّمْرِ والشَّاةِ الرَّعُومِ غَدَتْ ... أَمْلاكُنا واحْتَمَتْ أَمْلَاكُ عَادِينَا
إِنَّا إلى اللهِ لَا أَرْحَامُنَا نَفَعَتْ ... وَلَا طِعَانُ حُمَاةِ القَومِ يَحْمِينَا

هـذا الجَـزَاءُ لِمَـا سَنَّتْ أَسِنَّتُنَا   يَاللرِّجَالِ وَمَا أَمْضَتْ مَوَاضِينَا[1]

ويعود بعد ذلك إلى الفخر ثم لا يلبث الواقع المؤلم لقومه أن يجره إلى التحسر والشكوى والخوف من ضياع ملك جدوده:

يَا ضَيْعَةَ العُمرِ يَا خُسْرَانَ صَفْقَتِنَا   يَا شُؤْمَ حَاضِرِنَا الأَشْقَى وَبَادِينَا

كُنَّا نَخَافُ انْتِقَالَ المُلْكِ في مُضَرٍ   فَمَرحَباً بِكَ يَا مُلْكَ اليَمَانِينَا

فإن تَوَلَّتْ مُلُوكُ الرُّومِ مَا بَلَغَت   مِعْشَارَ ما صَنَعتْ إخْوانُنَا فِينَا

كُنَّا نَضِجُّ من الحِرْمَانِ عِنْدَهُمُ   وَنَطْلُبُ الجَاهَ فِيهِمْ والبَسَاتِينَا

فاليومَ نَفْرَحُ أنْ يُبْقُوا لِمُوسِرِنَا   من إرثِ جَدِّيهِ سَهْماً من ثَمَانِينَا[2]

ثم تمضي بقية القصيدة على هذه الشاكلة في وحدة مترابطة متكاملة تمثل كما قلنا الوحدة الموضوعية في جانب من شعر الشكوى والعتاب عند ابن المقرب. وهو مالا نراه في قصائده الأخرى من هذا الغرض حينما يشكو ويعاتب في شئونه الخاصة وما لقيه من ظلم وحرمان. على أن هذه القصيدة في الشكوى مما أصاب قومه من ضعف وإن خالطها الفخر في بعض أبياتها إلا أن ذلك لا يخرج بها عن موضوع الشكوى والعتاب. فقد أراد أن يُظهر مفاخرهم السابقة ليشعرهم بالتقصير والتخاذل، لعل ذلك يدفعهم إلى تدارك الأمر ونسيان الخلافات واجتماع الكلمة لإعادة هيبة الدولة وقوتها وإصلاح ما أفسده الصراع من أمرها.

ولم يزل الشاعر يلح على قومه أن يأخذوا جانب الحزم والقوة أمام أعدائهم وألّا يذعنوا إلى تهديد أو يستسلموا لوعيد، فإنهم مهما حاولوا إرضاء القبائل واستمالتها ودفع شرها وأذاها فإن ذلك يزيد من طمعها في أموالهم وأملاكهم:

وَمِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ والدَّهْرُ كُلُّهُ   عَجَائِبُ يَأْتِي فَذُّهَا وَتَوَامُهَا

---

(١) الديوان ص ٦١٤. والشِّقص: النصيب القليل، والجُلَّة: وعاء من خوص يخزن فيه التمر، والشاة الرّعوم: الشديدة الهزال.

(٢) الديوان ص ٦١٥.

إِذَا نحنُ زِدْنَا في عَطَايَا قَبِيلَةٍ لِكَفِّ أَذَاهَا زَادَ مِنَّا انْتِقَامُهَا
هي النَّارُ إن شَبَّهْتَهَا وعَطَاؤُنَا لَهَا حَطَبٌ مَازَادَ زَادَ اضْطِرَامُهَا
فَيَاضَيْعَةَ المَسْعَى وَكمْ من صَنِيعَةٍ غَدَتْ ضَلَّةً لَمْ يَبْقَ إلاَّ مَلاَمُهَا(١)

وإذا كانت نفس ابن المقرب قد فطرت على العزة والأنفة وإباء الضيم والهوان في أحواله الخاصة، فإن أحوال دولته وضعفها كانت أدعى إلى رفض الواقع المحزن الذي يعيشه قومه في أواخر دولتهم، فكان دائم العتاب لعشيرته يذكّرهم بسوء المنقلب، ويحذّرهم من التمادي في الخلافات، ويحاول أن يبعث في نفوسهم الحميّة، وأن يحملهم على الدفاع عن ملكهم، ويعجب كيف كانوا يواجهون الصعاب والشدائد بعزيمة وثبات، ثم أصبحوا يعجزون عن رد المظالم عن أنفسهم والغيرة على كرامتهم وعزتهم:

أَقُولُ لِرَهْطٍ من سَرَاةِ بَني أَبِي وَدَمعُ المَآقِي قَدْ تَدَاعَتْ حَوافِلَهْ
إلاَمَ بني الأَعْمَامِ نُغْضِي عَلَى القَذَى ونُكْثِرِ لَيَّانَ العُلاَ وَنُمَاطِلُهْ
هَلِ الشَّرُّ إلاّ مَا تَرونَ وَرُبَّمَا تَعَدَّى فَأَنْسَى عَاجِلَ الشَّرآجِلُهْ
وهَلْ يحمِلُ العَزمَ الثَّقِيلَ أخُو العُلا
ويضْعُفُ عن حَمْلِ الظُّلاَمِةِ كَاهِلُهْ
وَمَا بَعدَ سَلْبِ المَالِ والعِزِّ فاعْلَمُوا
مُقَامٌ وزَادُ المَرءِ لا بُدَّ آكِلُهْ
وَلاَ بَعْدَ تَحْكِيمِ العِدَى في نُفُوسِنَا
وَأَموَالِنَا شيئٌ من الخَيْرِ نَأْمُلُهْ(٢)

وإن عتاب الشاعر لقومه ليأخذ أحياناً جانب الشدة والعنف والثورة على الأوضاع القائمة في مجتمع الدولة العيونية، وقد تملّكه الغيظ والحنق على بعض

---

(١) الديوان ص ٤٦٤ والفذّ: الفرد.
(٢) الديوان ص ٣٣٧.

المقربين من بني عمه ممن يظهرون لهم النصح والمشورة ويضمرون الكراهية والحقد، فيحذّر قومه منهم وهو لا يخفي تشاؤمه من سوء المصير، ما دام هؤلاء الحاقدون يعبثون بشئون الدولة ويُسيِّرون أمراءها في ركابهم:

يَا لَقَومِي مَا أَرَاكُمْ حَسَناً ... بَيعَنَا بالبَخْس في سُوقِ الكَسَادِ
أَعَمىً قد غَالَكُمُ أَمْ نَاصِحٌ ... مُضْمِرُ البَغضَاءِ مُبْدٍ لِلْوِدَادِ
عَجَباً منكم ومن تَصْدِيقِكُمْ ... مَن يُمنِّيكُم بنَارٍ من رَمَادِ
فَهَبُوا نَاصِحَكُمْ رَامَ الوفَا ... هَلْ يُلاقِي اللَّيثَ سَرْحٌ من نِقَادِ
آهِ وَاشَقْوَةَ أرباب العُلَا ... هَلَكَ المجدُ إلى يوم التَّنَادِي
يَا بُغَاثَ الطَّيرِ طيري وانْظُري ... هَرَبَ البَازِيِّ من كَلبِ الجَرَادِ
وارْتَعِي يَا بَقَرَ الحَرْثِ فَقَدْ ... لَعِبَ الضَّيْوَنُ بالأُسْدِ الوِرَادِ[1]

ولم تكن نصائح ابن المقرب لقومه وعشيرته لتلقى منهم النظر والتدبر. فقد تمكنت منهم الخلافات من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم لا يقيمون وزناً لرأيه وتحذيره، لأن صلته بهم ظلت قائمة على الشك والريبة، ولعلهم كانوا يرون فيه منافساً على الحكم والإمارة بما يبثه من أشعاره التي يعاتبهم فيها ويظهر خطل آرائهم وتصرفاتهم، فكلما ألحَّ في نصحه وإرشاده ساءت ظنونهم به، وأمعنوا في كراهيته والإعراض عن رأيه فيصاب بخيبة الأمل ويزداد في نفسه الحزن:

دَاوَيتُكُمْ جَاهِداً لَو أَنَّ دَاءَكُمُ ... ممّا يُدَاوى بغَير البيض والأَسَلِ
وكُلّما زَادَ نُصْحِي زَادَ غَيُّكُمُ ... لَا بَارَكَ اللهُ في وُدٍّ عَلَى دَخَلِ
أَسَأتُمُ وظَنَنْتُمْ لا أَبَالَكُمُ ... أَنْ لَا أُحِسَّ بِطَعمِ الصَّابِ في العَسَلِ
إنْ أَترك العَودَ في أَمْرِ اغْتِنَائِكُمُ ... فَنَهْلَةُ الطَّرفِ مَجْزَاةٌ عنِ العَلَلِ
كَمْ قَدْ غَرَستُ مِنَ الإحْسَانِ عِندَكُم ... لَوْ يُثمِرُ الغَرسُ في صَفْوَاءَ من جَبَلِ[2]

---

(١) الديوان ص ١٧٧. والسرح: المال السائم، والنقاد: من النقد وهو جنس من الغنم قبيح الشكل، والضَّيوَن: السنّور الذكر.

(٢) الديوان ص ٣٧٩. والأسل: الرماح، والدخل: الغش، والصاب: شجر مرّ، ويروى البيت =

لكن أعظم ما كان يؤرق الشاعر ويقض مضجعه أن يجد الأعداءُ بين قومه من يعينهم على بني عمه أمراء الدولة العيونية، وأن تسهل الخيانة على نفر من عشيرته بعدما ضعفت نفوسهم وخارت عزائمهم. فقد هاله أن تعمد بعض القبائل التي تنتمي إلى ربيعة كعبد القيس إلى تسليم الضياع والأموال إلى أهل البادية، بعدما خدعت الأمير مقدم بن غُرير بتشجيعه على مداراتهم والاستسلام لمطالبهم[1]، وقد عظم عليه أن يركن قومه إلى الذل والهوان وهم أرباب المفاخر والأمجاد، وأن يخضعوا للمسكنة والعار وهم أحفاد ربيعة، فيشتد في لومهم وتقريعهم، ويعرّض ببعضهم وقد شكَّ في صحة انتسابهم إلى قومه حتى كاد أن يصدِّق ما يقوله النسّابون من أنهم من أصل فارسي قدموا إلى البحرين لبناء حصن المُشَقَّر:

أَرِجَالَ عبدِ القَيسِ كَمْ أَدعُوكُمُ ... في كُلِّ حينٍ للعُلاَ وَأَوَانِ
فَتَرَاكُمُ مَوتَى فَأَسكُتُ أَمْ تُرَى ... خُلِقَتْ رُؤُسُكُمُ بِلاَ آذَانِ
لَمْ يَغْضَبِ البَدَوِيُّ إلاّ قَلْتُمُ ... سُدُّوهُ كَيْ يَرضَى بِمَالِ فُلانِ
واللهِ مَا نَحَسَ البِلاَدَ سِوَاكُمُ ... لا بالعِدَى انْتَحَسَتْ وَلاَ السُّلطَانِ
شَيَّدتُمُ عِزَّ العِدَى وَتَركتُمُ ... بُنيانَ عِزِّكُمُ بِلاَ أَرْكَانِ
كَمْ تُنْهِضُونَ مِنَ العِثَارِ مَعَاشِراً ... أَبداً تَكُبُّكُمُ عَلَى الأذْقَانِ
صدَّقْتُمُ في عِيصِكُمْ نَفعاً لَكُمْ ... مَا قَالَهُ العُلَمَاءُ من عَدْنَانِ
نَسَبُوكُمُ فَعَزَوْا بُيوتاً مِنكُمُ ... مَشهُورَةً لِسَوادِ خُوزَسْتَانِ
نَقلَتْ أَوَائِلَهُمْ إلى البَحْرينِ كَي ... يَبْنُوا مُشَقَّرهَا أَنُوشِرْوَانِ
قَدْ كُنْتُ أَكْذِبُ ذَاكُمُ وأَظُنُّهُ ... مِنْ دَاعِيَاتِ البُغْضِ والشَّنَآنِ
واليَومَ صِرْتُ أَشُكُّ فيهِ وَرُبَّمَا ... كَانَ الصَّحِيحَ ومُنْزِلِ الفُرقَانِ[2]

= الرابع: في أمر أعاتبكم، والنهلة: الشربة الأولى، والعلل: الشرب الثاني، والصفواء: الحجارة الملساء.

(١) انظر الديوان ص ٦٣١.

(٢) الديوان ص ٦٣٢. والعِيص: الأصل، وخوزستان: منطقة في جنوب إيران، والمُشقَّر: حصن بناه الفرس في هجر قبل الإسلام.

ويبدو أن ابن المقرب قد ملّ نصحهم وسئم عتابهم لمّا تيقن أن لا فائدة ترجى من كثرة العتاب والشكوى، حينما يعبر عن يأسه من استجابتهم، وقد عزم أن يضرب صفحاً عن اللوم والعتاب، ولكنه يناشدهم في نصائحه الأخيرة أن لا يغترُّوا بالناصح الذي يضمر لهم العداوة وأن يفرقوا بين الصادق المخلص وبين المنافق الغادر:

أَلَا يَالقَومِي مِنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدَلٍ ... أَلَمْ يَأْنِ أن تَعْصُوا النَّصِيحَ المُدَاجِيَا
أَمَا حَانَ منكُم يَقْظَةٌ وانْتِباهَةٌ ... فَترضِي أَخَا سُخْطٍ وتُسْخِطُ رَاضِيَا
يُقامُ بهَا كُلُّ امْرِيءٍ في مَقَامِهِ ... وفي السَّهْوِ شَرعاً قد أَجَازُوا التَّلافِيَا
فإنْ أنتُم لَمْ تَقْبَلُوهَا نَصِيحَةً ... فَلَسْتُ لَكُمْ فيما تُحِبُّونَ لاَحِيَا
فَكَمْ نَاصِحٍ قَد عُدَّ في النَّاس خَائِناً ... وكَمْ غَادِرٍ قد عُدَّ في النَّاسِ وَافِيَا[1]

إذن . . فقد اختلط الأمر على بني عمه، فلم يعد أحدهم يميّز الناصح الأمين من الناصح الغادر، والشاعر عندهم هو من أولئك الناصحين الذين لا يوثق بهم، أو على الأقل تقف الشكوك دون سماع رأيه. إنه واقع سيىء رسم ابن المقرب صورة له في البيت الأخير، ثم نراه في أبيات أخرى يتبرأ من دولتهم، وينفض يده منهم، ويُعرض عنهم كما أعرضوا عنه حيث يقول:

تَلَوَّمْتُ قَومِي كَيْ يَرِيعُوا فَلَمْ أَجِد ... عَلَى الدَّهْرِ مِنْ قَومِي هُمَاماً مُواتِيَا[2]

كما يقول أيضاً:

وإنْ دَولَةٌ وَلَّتْ قَفَاهَا فَوَلِّهَا ... قَفَاكَ فَأَعْيَا كُلِّ شَيءٍ رجُوعُهَا
وَلَا تَتْعَبَنْ في نُصْحِ مَنْ غابَ رُشْدُهُ ... وَهَوِّنْ فَخَفَّاضُ المَبَانِي رَفُوعُهَا
لَعَلَّ ذُرَىً تَهْوِي فَتَعْلُو أَسَافِلٌ ... لِذَاكَ فَرَفَّاعُ البَرَايَا وَضُوعُهَا[3]

---

(١) الديوان ص ٦٦٣. والمداجي: من يضمر العدواة، واللاحي: اللائم.

(٢) الديوان ص ٦٥٨.

(٣) الديوان ص ٢٥٢.

وأخيراً يصمت الشاعر عن ملامة قومه وعتابهم وقد امتلك اليأس نفسه من صلاح أمورهم، ويتحسر على زرعه الذي لم يثمر في أرض بني عمه، ويحزنه أن يسفِّه قومه رأيه، وأن لا يعرفوا قدره وصدق نيته، فيعلن نُذُرَ الهلاك لدولته، ويتمنى على الله الفرج أو تعجيل الأجل[1] قبل أن يشهد سقوط دولة آبائه:

فَـآةٍ لِـقَـومِي لَـوْ أُطِـعْـتُ لَـدَيـهِـمُ
دَرَوا أنَّ فِـيـهِـمْ حَـازِمَ الـرَّأْيِ فَـيْـصَـلاَ

لَقَـدْ كُـنْـتُ لاَ أَرْضَى الـدَّنِيَّـةَ فِـيهِـمُ
وَلاَ يَـزْدَ هِـينِـي عَـنْـهُـمُ مَـنْ تَـمَـحَّـلاَ

ولـكـنْ إذَا مـا الأَمْـرُ حُـمَّ انْـتِـهَـاؤُهُ
أَقَـامَ مُـقَـامَ الأَضْـبَطِ الـورْدِ خَـيـطَلاَ

وَأَقْـمَـنُ شَـيءٍ بـالـهَـلاَكِ مَـدِيـنَـةٌ
تُـريـكَ نَـبِـيـهَ الـقَـدْرِ مَنْ كَـانَ أَخْـمَـلاَ

فَـيَـارَبِّ لاَ صَـبْـراً عَـلَى ذَا وَلاَ بَـقَـاً
فَـسُـقْ فَـرَجـاً أَوْ لاَ فَمَوتـاً مُـعَـجَّـلاَ[2]

---

(١) توفي الشاعر سنة ٦٣٠ هـ أي قبل سقوط الدولة العيونية بست سنوات.

(٢) الديوان ص ٣٧٠، والتمحل: الاحتيال، والأضبط: من يعمل بكلتا يديه والورد: الأسد، والخيطل: الكلب أو السنور.

سمات الشكوى والعتاب

أ ـ التردد بين اليأس والتجلد:

يتميز شعر الشكوى والعتاب عند ابن المقرب بطابع التردد بين الصبر واحتمال الأذى وقوة التجلد، وبين اليأس والقنوط والاستسلام للنوائب والخطوب. وهذه السمة نتيجة طبيعية للقلق النفسي الذي سيطر على الشاعر فترة طويلة، وعدم استقراره في حياته حين عاش غريباً عن وطنه وبلده بعيداً عن أهله وولده، يرى الخطوب والرزايا وقد تكالبت عليه، فإذا بدت له بارقة أمل عبست في وجهه الأيام من جديد حتى غدا هدفاً للأحداث والنوائب ترميه بسهامها ونصالها:

أَفي كُلِّ يَومٍ لِلخُطُوبِ أُصَالِي ... أَلا مَا لأَحْدَاثِ الزَّمانِ وَمَالِي
يُفَجِّعْنَنِي في كُلِّ يومٍ يَمُرُّ بِي ... بِأَنْفَسِ مَالٍ أَو بِأَشْرَفِ آلِ
أَرَى الشَّرَّ قُدَّاماً وَخَلفاً وأَتَّقِي ... نَبَالَ الأَذَى عَنْ يَمْنَةٍ وشِمَالِ
إذا قُلتُ جَلَّى بعضُ هَمِّي أَتَتْ لَهُ ... نَوَائِبُ أَمْضَى مِنْ حُدُودِ نِصَالِ
كَأَنَّ الرَّزَايَا والمَنَايَا تَحَالَفَا ... عَلَى عَكْسِ آمَالِي وَبَثِّ مَآلِي[1]

ولقد قضى ابن المقرب من عمره نحواً من خمسةٍ وعشرين عاماً وهو يتألم للقطيعة التي فرقت بينه وبين أبناء عمه، ويحس بوطأة الظلم الذي وقع عليه من أقرب الناس إليه، ويتحسر للحال التي آلت إليها الدولة العيونية بين ضعف بنيانها وصراع أمرائها. لقد كانت هذه السنوات العجاف هي العقود الأخيرة في عمره، وكلما مضت منها سنة تركت أثرها العميق في نفسة، ورسّخت في قلبه مشاعر

---

(١) الديوان ص ٣٧٠.

الحزن والكآبة، وبقي أثرها في شعره متمثلا بهذا اللون من شعر الشكوى والعتاب حينما تتقلب فيه أحاسيسه بين إعلان الصبر واحتمال الشدائد، وبين إظهار الضيق ونفاذ الصبر. إننا نراه أحياناً ذلك الرجلَ الجلد الصبور الذي لا يستسلم للمشاكل والصعاب. وهو يعبر عن هذه الروح ببعض أبياته التي تنحو إلى الغرابة في بعض كلماتها، وكأنه يصوِّر لنا من خلال هذه الغرابة والصعوبة وعورة الطريق التي سار بها في حياته والغربة التي يحس بها أينما حل أو رحل حتى شاب قبل أوان المشيب لهول ما رأى من قسوة الدهر وظلم الأقربين. ومع ذلك فقد وقف أمام هذه الحال قويَّ التحمل شديد الصبر ماضي العزيمة:

وَمَا شِبْتُ مِنْ سِنٍّ مَضَتْ بَلْ أَشَابَنِي
صُرُوفُ اللَّيَالِي والخُطُوبُ الفَوادِحُ

لِعِشْرِينَ لاَحَ الشَّيبُ فيَّ وأَوْجَفَتْ
عَلَيَّ خُيُولُ المُرْزِئَاتِ الضَّوَابِحُ

وَلاَقَيتُ في أبنَاءِ عَمِّي وَمَعْشَرِي
ذَ آلِيْلَ لا يَرْقَى إليهَا المُجَالِحُ

وَكَمْ صَاحِبٍ وَارَيْتُ في الكَشحِ وُدَّهُ
تَبَيَّنَ لي منهُ عَدُوٌّ مُكَاشِحُ

جَزَى اللهُ إخْوَانَ اللَّيَالِي مَلاَمَةً
وَحَاسَبَهَا حُسْبَانَ مَنْ لا يُسَامِحُ

وَعَاقَبَ دَهْراً كُلَّمَا قُلتُ: يَرعَوِي
نَزَا وَرَمَتْنِي منهُ رُوْقٌ نَوَاطِحُ

خَلِيْلَيَّ مَا آضَ اعْتِزَامِي وَلاَ نَضَا
غَرَامِي وَلاَ ضَاقَتْ عَلَيَّ المَنَادحُ

وَلَا فَلَّ صَبْرِي مَا لَقِيتُ وإنَّنِي
لأَلْوَى عَلَى الَّلأْوَاءِ جَلْدٌ مُكَافِحُ[1]

تلك لوحة شعرية لروحه المعذبة ونفسيته القلقة مع ما ينتابها أحياناً من تفاؤ ل وأمل بأن يكون غده أحسن من يومه. لكن ذلك أملٌ لا يلبث أن يضيع ويسلمه إلى يأس مطبق:

إذا قُلتُ يَأْتِي في غَدٍ مَا يَسُرُّنِي
وَجَاءَ غَدٌ قَالَ أتَّئِد وانْتَظِرْ غَدَا
فَهَلَّا انْقَضَتْ تَبّاً لَهَامِنْ مَوَاعِدٍ
كَمِثْلِ نُعَاسِ الكَلْبِ مَا زَالَ سَرْمَدَا[2]

وهي صورة شعرية واضحة جلية لما في نفسه من خواطر وهواجس، ولما يعاني من همٍّ وحزن، تكمل جوانبها صورة أخرى يرسمها حينما أقضّت مضجعَه الهموم وعزَّ عليه النوم:

وأَسْلَمَنِي الشَّقَاءُ إلى زَمَانٍ مَصَائِبُهُ كَمَا انْهَلَّ الغَمَامُ
نَهَارٌ لا أُسَرُّ بِهِ وَلَيلٌ يَنَامُ بِهِ السَّلِيمُ وَلَا أَنَامُ
تَلَاعَبُ بي خَوَاطِرُ من هُمُومٍ كَمَا لَعِبَتْ بشَارِبِهَا المُدَامُ
إذا مَا قُلتُ أَهْجَعُ بعضَ لَيْلِي أَتَتْ ذِكَرٌ يُقَضُّ لَهَا المَنَامُ[3]

إن اضطرابه النفسي وقلقه ليلازمانه ليس في الغربة والبعد عن الوطن فحسب. بل وفي بلده وبين أهله وعشيرته، فالحياة في البلد الذي لقي فيه العذاب والسجن

---

(١) الديوان ص ١٢٣، والضوابح: الخيل يصدر من أفواهها صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، والذآليل: جمع ذألان وهو ابن آوى أو الذئب والمجالح: الأسد والناقة تدر في الشتاء، والمكاشح: الحاقد المبغض والروق: القرون، وآض: رجع، ونضا: سكن والمنادح: جمع مندوحة وهي السعة أو ما اتسع من الأرض.
(٢) الديوان ص ١٤٩. ونعاس الكلب: يعني به كلب أهل الكهف
(٣) الديوان ص ٥٦٤. والسليم: اللديغ.

والهوان ، وبين قوم يضمرون له الكراهية والحقد هي أشد على نفسه من كثرة السفر والترحال. إنه يرى في رحلاته تنفيساً لهمومه وأحزانه، فكان يحدث نفسه دائماً بالرحيل ، ويسمع كل ما حوله يحثه على مغادرة الوطن، حتى صهيل مُهره يتصوره نداء له بشد الرحال واعتزام المسير وإباء الضيم:

إلاَمَ انْتِظَارِي أَنْجُمَ النَّحْسِ والسَّعْدِ
وَحَتَّامَ صَمْتِي لا أُعِيدُ وَلاَ أُبْدِي
لَقَدْ مَلَّ جَنْبِي مَضْجَعِي من إقَامَتِي
وَمَلَّ حُسَامِي من مُجَاوَرَةِ الغِمْدِ
وَلَجَّ نَجِيْبِي في الحَنِينِ تَشَوُّقاً
إلى الرَّحْلِ والأَنْسَاعِ والبِيدِ والوَخْدِ
وَأَقْبَلَ بالتَّصْهَالِ مُهْرِي يقُولُ لِي
أَأَبْقَى كَذَا لاَ في طِرَادٍ وَلاَ طَرْدِ
لَقَدْ طَالَ إغْضَائِي جُفُونِي عَلَى القَذَى
وَطَالَ امْتِرَائِي الدَّرَّ من بُحُرٍ جُدِّ(١)

وحينما يغادر وطنه ويبتعد عن عشيرته يمل السفر وتؤلمه الغربة، ويشعر بالإعياء والتعب، فيحِنُّ إلى بلده وأهله. فإذا كان حنين ناقته وصهيل مهره قد حَثَّاه على السفر وأغرياه بالمسير والرحيل عن وطنه فإن سجع الحمام في الغربة يثير شجونه ــ وقد سمعه وهو يعبر نهر دجلة ـ فتفيض كوامن نفسه بالشوق، ولكنه يذكر حظه العاثر وظلم ذوي القربى ، فيوطِّن قلبه على الصبر واحتمال المشقة والكلال:

صَبَا شَوْقاً فَحَنَّ إلى الدِّيَارِ وَنَازَعَهُ الهَوَى ثَوبَ الوَقَارِ
وَهَاجَ لَهُ الغَرَامَ غِنَاءُ وُرْقٍ هَوَاتِفَ في غُصُونٍ من نُضَارِ

---

(١) الديوان ص ١٣٢ والنجيب: الحسيب ويعني به جمله أو ناقته، والأنساع: جمع نسع وهو ما يشد به الرحل، والوخد، الإسراع، والامتراء: استدرار اللبن واسخراجه، والجُدّ: جمع جدّاء أي الذاهبة اللبن.

صَدَحْنَ غُدَيَّةً فَتَرَكْنَ قَلْبِي ... وَكَانَ الطَودَ كالشَّيءِ الضِّمَارِ
رُوَيداً يَا حَمَامُ بِمُسْتَهامٍ ... مَشُوقٍ مَنَّهُ طُولُ السِّفَارِ
بَرَاهُ الشَّوقُ بَرْيَ القِدْحِ جِدّاً ... فَغَادَرَهُ بِقَلْبٍ مُسْتَطَارِ
مُنِيتُ من الزَّمَانِ بَعَنْقَفِيرٍ ... قَلِيلٌ عندَهَا حَزُّ الشِّفَارِ
فِرَاقُ أَحِبَّةٍ وَذَهَابُ مَالٍ ... وَضَيمُ أَقَارِبٍ وَأَذَاةُ جَارِ
فَلَا واللهِ مَا وَجْدٌ كَوَجْدِي ... وَلَا عُرِفَ اصْطِبَارٌ كاصْطِبَارِي[1]

إنها روح أبي فراس الحمداني وقد أثار شوقه نوح الحمام وهو في بلاد الروم نائي الدار بعيداً عن أهله وولده:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُربِي حَمَامَةٌ ... أَيَا جَارَتَا، هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي؟[2]

ولقد كان مما يزيد من قلق ابن المقرب النفسي أن علاقته بأبناء عمه لا تقر على قرار، فكلما ابتسمت له الآمال بالتصافي مع أحدهم ونسيان الماضي عادت الجفوة والريبة تلقي ظلالها على صلاته، فتورثه الألم والحزن ، وتشغل عقله بالتفكير، فيبقى نهبا للهموم والهواجس وقد ضاق بتصرفات بني عمه:

سَئِمْتُ مُدَارَاةَ اللَّيَالِي وَغَرَّنِي ... صَدِيقٌ أُصَافِيهِ وَخِلٌّ أُوَاصِلُهْ
وَضِقْتُ ذِرَاعاً بابْنِ عَمٍّ مُحَبَّبٍ ... إليَّ وإنْ لَمْ تَسْقِ أَرْضِي مَخَائِلُهْ
فَكَمْ لَيلَةٍ عَلَّلتُ نَفْسِي بِذِكْرِهِ ... وَسَكَّنْتُ قَلْبِي فَاطْمَأَنَّتْ بَلَابِلُهْ
فَلَمَّا الْتَقَينَا كَانَ حَظِّي جَفَاؤُهُ ... وَكَانَ لِغَيرِي بِرُّهُ وَنَوافِلُهْ
وَلَمْ أَسْتَشِرْ قَلبِي عَلَى بَتِّ حبله ... مِنَ اليَأْسِ إلَّا كَادَ لُبِّي يُزَايِلُهْ
حُنُوّاً عليه وانْتِظَاراً لَعَلَّهُ ... يَرِيعُ فَتُعْصَى في اصْطِنَاعِي عَوَاذِلُهْ

---

(١) الديوان ص ٢١٤ والضمار: الشيء لا يرجى رجوعه ومنَّهُ : أضعفه وأعياه والقدح: السهم قبل أن يراش، والعنقفير: الداهية.

(٢) ديوان أبي فراس برواية أبي عبد الله الحسن بن خالويه ص ٢٣٨ دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ .

وإنِّي مَعَ الغَبْنِ الّذِي يَرْمَضُ الحَشَا ... لأَحْمِي وَأَرْمِي دُونَهُ مَنْ يُنَاضِلُهْ(١)

إنه وفي لابن عمه الذي يقابله بالإعراض والجفاء، يجاهد نفسه على إبقاء صلات الود والقربى، ولكن ابن عمه يظل بعيداً عنه ممعناً في الصدود والجحود، فيعود الشاعر إلى قلقه النفسي واضطرابه.

وإننا لنراه وهو يصل إلى قمة تردده بين الصبر واليأس حين نقارن بين موقفين من مواقفه في الشكوى من صروف الزمان ونوائب الدهر. نراه في الموقف الأول عنيداً قويَّ الشكيمة، يقارع الخطوب ويتصدى لها بعزم وثبات:

أَبَى الدَّهْرُ أن يَلقَاكَ إلاّ مُحَارِبَا ... فَجَرِّدْ لَهُ سيفاً من العَزْمِ قَاضِبَا

وَلَا تَلْقَهُ مُسْتَعْتِبَاً مِنْ ظُلاَمَةٍ ... فَمَا الدَّهْرُ سَمَّاعَا لِمَن جَاءَ عَاتِبَا

وَجَانِبْ بَنِيهِ ما اسْتَطَعْتَ فإنَّهُمْ ... عَقَارِبُ لَيلٍ لَا تَزالُ ضَوَارِبَا(٢)

إنه لا يلين ولا يستكين مهما كان هدفاً للرزايا والمصائب، ولو غلب عليه الحزن والألم فترةً من الزمن فإنه ينكر على نفسه الخضوع للهوان والمذلة، ويعبّر عن هذه الخواطر وهو يتّجه إلى الناصر لدين الله:

إلاَمَ أُنَاجِي قَلْبَ حَيْرَانَ وَاجِمِ ... وَأَنْظُرُ عُودِي بَينَ لاحٍ وَعَاجِمِ

أُقَضِّي نَهَارِي بالزَّفِير وَأَنَّةٍ ... وَأَقْطَعُ لَيلِي بالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ

وَفِي الأَرضِ لي مَنْدُوحَةٌ وَمُرَاغَمٌ ... تَقَرُّ بِهِ عَينِي وَتَحْلُو مَطَاعِمِي

بحيثُ يَرانِي الدَّهْرُ سَعْداً وأَغْتَدِي ... وَقَدْ حُذِيَتْ رِجْلاَيَ منهُ بِسَالِمِ

وَأَسْطُو عَلَى أَحْدَاثِهِ مِثْلَمَا سَطَا ... عَلَيَّ فَتَبْقَى وَاهِيَاتِ الدَّعَائِمِ(٣)

ثم نراه في الموقف الثاني وهو أقرب إلى اليأس والقنوط حينما يخاطب ابن

---

(١) الديوان ص ٣٣٥ والمخائل: السحب يحسبها الإنسان ممطرة ويرمض: يحرق.

(٢) الديوان ص ٣٥.

(٣) الديوان ص ٤٩٠. والرذية: الناقة الضعيفة الهزيلة وَمَنْ أثقلَهُ **المرض**، والمراغم: المهرب والملجأ، وسعد: اسم كوكب أو ضد النحس.

عمه الأمير فضل بن محمد بشيء من الغلظة ونفاد الصبر وهو في موقف المعاتب المستجدي :

فَذَرِ التَّغَافُلَ فالتَّغَافُلُ كُلُّهُ   لُؤْمٌ وكُلُّ الجُودِ في هَبَّاتِهَا
واعْلَمْ بأَنَّ اليومَ آخِرُ وَقْفَةٍ   والنَّفْسُ تَائِقَةٌ إلى مَرْقَاتِها
وَحَوائجُ المَوتَى إلى أكفانها   وَحَوائجُ الأَحْيَا إلى أَقْوَاتِهَا[1]

إن تصريحه بطلب الرفد لا يتناسب مع علو همته وشيمته وإبائه الذي طالما ردده وهو يزهو بتحمله المشاق والصعاب. ولكنه اليأس والملل يتسربان إلى نفسه كلَّما واجه الفقر والعوز، وهو موقف لا يستطيع أن يتغلب عليه رغم تظاهره بالقناعة وعزة النفس، فلايملك إلا أن يطامن من كبريائه بعد أن تضعف عزيمته وتخبوَ جذوة طموحه، حتى رأيناه يئن ويتوجع وقد جثم الدهر عليه بكلاكله، فلم يعد يحدث نفسه بالسطو على أحداثه. بل يقف بباب أحد ممدوحيه في العراق يائساً متذللاً :

فَغَرْ لِكَريمٍ لَمْ يَكُنْ في حِسَابِهِ   نُزُولٌ بأَبْوابِ السَّلاطِينِ يَسْأَلُ
وَلَا خَالَ أنَّ الدَّهْرَ يَسْعَى لِكَيْدِهِ   فَيُلْقَى عَلَيه مِنْهُ نَحْرٌ وكَلْكَلُ
فَلَمْ يَبْقَ إلّا أنت بَابُ وَسِيلَةٍ   إلى كُلِّ خَيرٍ منهُ لِلنَّاسِ مَدْخَلُ[2]

وإذا كنا قد رأينا صوراً من مشاعره وفيض وجدانه، ورأينا فيها ذلك الشاعر الشاكيَ المتحسر ذا النفس المضطربة والأحاسيس القلقة التي تتردد بين اليأس والتجلد فإن ذلك لا يعني أن مشاعره كانت قمسةً عادلةً بين هذين النقيضين. بل إن الشواهد الكثيرة من شعره تدل على أن روح التجلد والصبر والتحلي بالعزيمة والتطلع إلى معالى الأمور هي المعاني الغالبة في شكواه وعتابه بل في شعره كلِّه، وأنها أقوى من روح اليأس والعجز والاستسلام والخضوع للمصائب والأحزان التي قد تسيطر أحياناً على مشاعره وأحاسيسه، ولكنه لا يلبث أن يتغلب عليها بعد أن

(١) الديوان ص ١١٣.
(٢) الديوان ص ٤٣٣ والكلكل: الصدر.

تترك أثرها في نفسه ويظهر صداها في شعره ، وهذا المزج بين المشاعر المتناقضة ، والتردد بينها أضفى على شعره واقعية واضحة، وأشاع فيه نبضاً حياً، وأبعده عن الرتابة ، وهي حقيقة نرى مصداقها في استهلاله لقصائده وابتدائه بما يوحي بمعاني الاضطراب والقلق والصراع مع الأيام، حتى بدا من خلالها شاعراً حزيناً تنعشه الآمال حينا وتُسْلِمهُ إلى اليأس حينا آخر. فإذا نظم إحدى قصائده بدأها بتلك المعاني وإن كان موضوعها المديح، وهي معان تبعده عن التقليد إلى الذاتية التي تبدو مفتاحاً للقصيدة كلها كما يفعل في عدد غير قليل من قصائده كقوله في مطلع قصيدة يمدح بها الأمير أبا سنان محمد بن علي:

أَتَدْرِي اللَّيَالِي أيُّ خَصْمٍ تُشَاغِبُهْ ... وأيُّ هُمَامٍ بالرَّزايَا تُواثِبُهْ[1]

ومطلع قصيدة يمدح بها شمس الدين باتكين أمير البصرة:

طَمَا بَحْرُ الهُمُومِ بِهِ فَمَادَا ... وَعَوَّضَهُ عَنِ الغَمْضِ السُّهَادَا[2]

وأخرى يمدح بها الأمير محمد بن عبد الله بن سنان مطلعها:

أَتْعَبْتَ سَمْعِي بطُولِ اللَّومِ فَاقْتَصِرِ ... مَاذَا أَهَمَّكَ من نَوْمِي وَمِنْ سَهَرِي[3]

وفي مطلع قصيدة يمدح بها الأمير الفضل بن محمد:

ظَنَنْتُ حَسُودِي حينَ غَالَتْ غَوَائِلُهْ ... يَرِيعُ إلَى البُقْيَا وَتُطْوَى حَبَائِلُهْ[4]

وفي مطلع قصيدة يمدح بها الفضل بن أحمد بن عبد الله:

عَنِّي إليكِ حَوَادِثَ الأَيَّامِ ... مَا كُلُّ يومٍ يُستَطَاعُ خِصَامِي[5]

---

(١) الديوان ص ٥٢.
(٢) الديوان ص ١٨٢.
(٣)الديوان ص ٢٤٠.
(٤) الديوان ص ٣٢٦.
(٥) الديوان ص ٤٩٨.

ومطلع قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عبد الله:

رُوَيداً بَعْضَ نَوْحِكَ يَا حَمَامُ ... أَجِدَّكَ لَا تُنِيمُ وَلَا تَنَامُ[1]

كما نراه يستهل كثيراً من قصائده في الأغراض الأخرى بما يشبه هذه الأبيات[2].

ب ـ تنوُّع الأسلوب:

إذا كان أسلوب ابن المقرب في مدائحه قد تميز بالتفاوت والتباين قوةً وضعفاً تبعاً لاختلاف صلاته بممدوحيه، كما رأينا في الخصائص الفنية في مدائحه، فإن الأمر يختلف بالنسبة للشكوى والعتاب، لأن أسلوبه هنا هو في درجة واحدة من حيث القوة والجودة. فقد كانت أشعاره في الشكوى والعتاب تمثل مشاعره الصادقة التي تعبر أحسن تعبير عن أحاسيسه النفسية ومحنته التي قاسى فيها الويلات، فتركت آثارها على شعر الشكوى والعتاب الذي كان مرآة صادقة عكست ما يجول في نفسه وما يدور في خلده وما يفيض به وجدانه، دون زيف أو تكلف أو افتعال.

لكن أسلوبه في الشكوى والعتاب ـ مع كونه في درجة واحدة من حيث القوة والجودة ـ فقد اتسم بالتلوين والتنويع وتعدد الأشكال والقوالب التي يصوغ بها معاني الشكوى والعتاب. فهو أحياناً يظهر الشكوى على شكل محاورة بينه وبين عاذله الذي يحاول إقناعه بهجر قومه وقطع الصلة بهم، ولكنه يظل متمسّكاً بحبل المودة الذي يشده إليهم:

كَمْ قَائِلٍ لي عَدِّ عَنْهُم فإنَّهُ ... مَعَ الأَلَمِ المَضَّاضِ قَدْ يُقْطَعُ الإِرْبُ

فَقُلْتُ: رُوَيْداً قد صَدَقْتَ وذلِكُمْ ... إذَا لَم يَكُنْ فيهِ لِحَامِلِهِ طِبُّ

إذَا لم أُداوِ العضْوَ إلاّ بِقَطْعِهِ ... فَلَا قَصَبٌ يبقى لَعَمْرِي ولَا قُصْبُ

---

(١) الديوان ص ٥٦٢.

(٢) انظر مطالع بعض قصائده في ديوانه ص ١٣ ـ ٣٥ ـ ٦٤ ـ ١١٥ ـ ١٣٢ ـ ١٤٠ ـ ١٤٩ ـ ١٧٦ ـ ٢٥٢ ـ ٢٦٦ ـ ٢٧٢ ـ ٣٣٤ ـ ٣٧٠ ـ ٦١١ ـ ٦٢٣ ـ ٦٥٧.

وإنّي بِقَومِي لَلضَّنِينُ وإنّني عَلَى بُعْدِ دَارِي والتّنائي بِهِمْ حَدْبُ[1]

وهو أحياناً كثيرة يخاطب صاحبيه يشكو إليهما حاله ، ويعلن لهما رفضه لحياة الذل والمنقصة في بلده وبين عشيرته :

إيهاً خَلِيلَيَّ مِنْ ذُهْلِ بنِ ثَعْلَبَةٍ مَنْ لَمْ يُهِنْ نَفْسَهُ في حَقِّهَا هَانَا
قُومَا ففي الأرْضِ عَنْ ذِي إحْنَةٍ سَعَةٌ والحُرُّ يَخْتَارُ أَخْدَاناً وَأَوْطَانَا
وإنّني واجِدٌ في كُلِّ نَاحِيَةٍ بالدَّار دَاراً وبالجِيرَانِ جِيرَانَا
كَمْ ذَا المُقَامُ عَلَى ذُلٍّ ومَنْقَصَةٍ وكَمْ أُجَرَّعُ كَأْسَ الضَّيْمِ مَلآنَا
يَسُومُنِي الخَسْفَ أقْوامٌ أُبُوَّتُهُمْ عَبِيدُ آبَايَ إقْرَاراً وإذعانا[2]

وكما في حواره لصاحبيه فإنه كثيرا ما يبث شكواه وعتابه ضمن محاورة تدور بينه وبين المرأة التي يؤلمها فراقه وغربته، وتَمَلُّ من كثرة سفره ورحيله. فإذا هيَّأَ متاعه لرحلة جديدة حاولت منعه من الرحيل وهي تحبّب إليه الكسل والركون إلى الراحة والقعود عن تجشم الأهوال، ولكنه لا يعبأ بقولها ويعزم على المسير بعيداً عن دار المذلة والهوان :

ولائِمَةٍ وأَحْزَنَها مَسِيرِي وقَدْ شَرِقَتْ بأَدْمُعِهَا الغِزَارِ
تَقُولُ وقَدْ رَأَتْ عِيسِي ورَحْلِي وَصَدِّي عَنْ هَوَاهَا وازْوِرَارِي
عَلَامَ تَجَشُّمُ الأهوال فَرْداً بِغُبْرِ البِيدِ أو لُجَجِ البِحَارِ
أَمَالاً مَا تُحاوِلُ أَمْ عُلوّاً هُدِيتَ أَمِ اجْتِواءً للدِّيَارِ

(١) الديوان ص ٣١ . والإرب: الحاجة، والقصب: بفتح القاف والصاد: عظام الأصابع وشعب الحلق ومخارج الأنفاس ، وبضم القاف وسكون الصاد: الظهر والمِعَى ، وانظر أيضاً أبياتا مماثلة ص ٥٣ و ٦١٢.

(٢) الديوان ص ٦٠٢ وانظر أيضاً ص ١٣٣ - ١٦٨ - ١٧٩ - ٢٩٣ - ٣٦٥ - ٤٠٦ - ٤٣٥ - ٥١٢ - ٥٢٩ - ٦٢٣ - ٦٣٢ .

أَتَقْنَعُ بالعَلاَةِ مِنَ العَلاَلِي بَدِيلاً والمُشَارِ مِنَ الوِثَارِ
فَقُلْتُ لَهَا غِشَاشاً والمَطَايَا إلى التَّجْلِيحِ حَاضِرَةُ الحَضَارِ
ذَرِينِي لاَ أباَلَكِ كَيفَ يَرْضَى بِدَارِ الهُونِ ذُو الحَسَبِ النُّضَارِ
فَظِلُّ السِّدْرِ عند الذُّلِّ أولى بأَهْلِ المَجْدِ من ظِلِّ السِّدَارِ[1]

وربما ترك أسلوب الحوار إلى الحديث عن الدهر والشكوى منه ومن صروفه فقد اختبره وابتلاه فلم يجد منه إلا المشقة والعذاب ، ولم يتبدل واقعه المؤلم مع خطوب الزمان إلا شقاء وبؤسا ، ولم تزدد تجاربه مع قومه إلا اقتناعاً بمَطْلِهم وخداعهم :

إلى كَمْ أُدَارِي بَينَ قَومِي وَأَتَّقِي
وَأُصْدَى فَأُسْقَى المَاءَ صَاباً وحَنْظَلاَ
بلوت صُرُوفَ الدَّهْرِ كَهْلاً ويَافِعاً
فَمَا ازددت عِلْماً غَيرَ مَا كَانَ أوَّلا
وألْقَى صُرُوفَ الدَّهْرِ سِنَّ ابْنِ أَرْبَعٍ
فَتَحْسَبُنِي الأَحدَاثُ عَوْداً مُذَلَّلاَ
كَذَا المَاجِدُ الأَحْسَاب يَمْضِي ومَادَرَتْ
رُوَاةُ المَسَاعِي أيَّ عَصْرَيهِ أفْضَلاَ
وَقَلَّبْتُ هذَا الدَّهْرَ بَطْناً وظَاهِراً
فَأَلْفَيْتُهُمْ ذِئْباً وَهِرّاً وتَتْفُلاَ
وَمَا اخْتَرْتُ خِلاًّ مِنهُمُ أَتَّقِي بِهِ
زَمَاني إلاَّ اشْتَقْتُ أَنْ أَتَبَدَّلاَ[2]

---

(١) الديوان ص ٢١٥ . والعلاة: حجر يُجعل عليه الأقط، والعلالي: الغرف، وعشاشا: مستعجلا، والتجليح: الإقدام والتصميم والنُّضار: الذهب والفضة وهو يعني الحسب النفيس المعدن. والسدر: شجر النبق، والسدار: ما يشبه الخدر. وانظر أيضاً أبياتا مماثلة ص ٢٦٧ - ٣٢٩ - ٣٧٨ - ٤٥٠ - ٦٢٥ .

(٢) الديوان ص ٣٦٥. والعَود: المسنُّ من الإبل والشاء، والتتفل: الثعلب.

وربما ضاق ذرعاً بالدهر ومصائبه حين ينال منه كلَّ منال، ويحدوه إلى مسالك وعرة لا قـدرة له على اجتوائهـا والسير فيها:

لَحَـا اللهُ هـذَا الـدَّهْـرَ كَمْ يَسْتَفِزُّنِي
لِخَـوْضِ بِحَـارٍ أو لِشَـقِّ جِبَـالِ
يُكَلِّفُنِي جَـرْيَ الجَوَادِ وقَـدْ لَـوىَ
شِكَـالاً عَلَى سَـاقَيَّ خَلْفَ شِكَـالِ
وقَدْ مَصَّ مُـخَّ العَـظْم حَتَّى إزارَهُ
وبَـدَّلَـهُ مِنْ نَيِّـه بِهُـزَالِ
وَهَـلْ يَقْطَـعُ الشِّكْـلَ الـجَـوَادُ عَلَى الـوَنَى
لَـو جَـالَ في الآرِيِّ كُـلَّ مَجَـالِ[1]

وقَـدْ تخف همومه في بعض رحلاته وتنفرج كربته ، فيعاتب الدهر كيف لا يسالمه في بلده، وكيف لا يصافيه بين قومه في ربوع الأحساء:

اللهُ أَكْبَـرُ جَـاءَ الـدَّهْـرُ مُعْتَـذِراً إليَّ يَسْـأَلُنِي العُتْبَى وَيَبْتَهِلُ
وقَبْلُ كَمْ سَـامَنِي خَسْفـاًوأَلْزَمَنِي مَا لَيسَ لِي نَاقَةٌ فيه ولاَ جَمَلُ
فَآهِ يَا دَهْرُ هَلاَّ كَـانَ عُذْرُكَ ذَا وَلَـمْ يَغِبْ عن عِيَانِي الجِشُّ والجَبَلُ[2]

ومن أساليبه في إظهـار الشكوى من حاله وعتاب بني عمه إكثاره من إعلان الرحيل وهجر الوطن والبعد عن موطن الذل. وقد ظل يردد هذه المعاني في معظم المناسبات التي يشتكي فيها أو يعاتب، وربما وصلت به الحال إلى أن يعتدَّ بصبره

شكال: الحبل الذي تشد به قوائم الدابة ،والإزار: الأصل ويروى البيت: حتى آزاله ، والاري: ما يعقل به الفرس.

(٢) الديوان ص ٤٤٠. والجشّ: قرية قرب القطيف لا تزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن، ، أما الجشّة التي ذكرها محقق الديوان فهي قرية أخرى في الأحساء، أما الجبل فلعله يعني به جبل قارة المعروف بالأحساء.

وجلده على البعد وطول السفر ، وأن يعيب على من يوحشه الفراق فيصفه بالغمر ضعيف العزيمة :

إذَا رَاعَ الـوداعُ قُلوبَ قَـومٍ ... فَلِي قَلْبٌ يَحِنُّ إلى الـوداعِ
وإنْ يَنْزِعِ إلى الأَوطَانِ غَمْـرٌ ... فَـإنّ إلَى النَّوى أَبَـداً نِزَاعِـي
يُـرَاعُ لِفُـرْقَـةِ الأوْطَـانِ نِكْسٌ ... ضَعِيفُ الْعَـزْمِ أَخْلَى من يَرَاعِ
وكَمْ مِنْ فُـرْقَةٍ طَـالَتْ فَكَـانَتْ ... بُعَيـدَ اليَأْسِ دَاعِيـةَ اجْتِمَـاعِ (١)

وربما بلغ به غرامه بالرحيل والبعد عن وطنه، وما يجد فيه من عزاء وسلوة مبلغاً عظيماً من الإصرار على ترك الديار وهجر بني عمه حتى يصل إلى درجة لا مقام فيها للأسف أو الوحشة على فراق عشيرته. بل ويدعو على نفسه لوحدَّثه قلبه بالعودة إلى موطن المذلة، وعلى عينه لو بكت لفراق الأحبة ، وعلى لسانه لو راح يسأل عن أخبار قومه وقد عزم على قلاهم إلى الأبد:

سَأَرْحَـلُ لا مُسْتَـوحِـشـاً لِـفِـرَاقِـكُـمْ ... وَلَا آسِفـاً يَـومـاً ولَا مُتَنَـدِّمَـا
فَـإنْ حَنَّ قَلْبِي نَحْوكُمْ أَوْشَكَـا جَـوىً ... فَصَـادَفَ مِنْ زُرْقِ الأسِنَّةِ لَهْـذَمَـا
وإنْ دَمَعَتْ عَيْنَـايَ شَوْقاً إليكُمُ ... فَعَوَّضَهـا مِنْ ذَلـكَ الـدَّمْـعِ بـالعَمَى
وإنْ عَـارَضَ الـرُّكْبَـانَ يَسْـأَلُ عنكُمُ ... لِسَـانِي فَوافَيْتُ القِيَـامَـةَ أَبْكَمَـا
ولَا جَمَعَتْنَـا آخِـرَ الـدَّهْـرِ نِيَّـةٌ ... إلى أنْ يَضُمَّ البَعْثُ عَـاداً وجُـرْهُمَـا

---

(١) الديوان ص ٢٦٨. والغمر: من لم يجرب الأمور، والنكس: الضعيف الذي لا خير فيه، واليراع: القصب ومن لا رأي له والجبان ، ولعله يعني أن جوفه فارغ خال كالقصب.

فَمَـا فُـرْقَـةُ القَـالِينَ عِنْـدِي رَزِيَّـةٌ
أُقِيمُ لَهَـا في نَدْوَةِ الحَيِّ مَـأْتَمَـا
وإنَّ الكَـرِيمَ الحُـرَّ يَشْنَى مُقَـامَه
بَـأَرضٍ يَـرَى فِيهَـا السَّـلاَمَـةَ مَغْنَمَـا
مَا خَيرُ أَرضٍ لَا يَـزالُ كَرِيمُهَـا
مُهَاناً ونَذْلُ القَومِ فيهَا مُكَرَّمَا[1]

ولكن الشاعر لا يمضي في إعلان الرحيل وهجر الأوطان بمثل هذه الروح اليائسة، ولا يتمادى في قطع حبال المودة مع بني عمه. فإذا رحل مغاضبا أحياناً ثم رمى به المسير عائداً إلى بلده مرة أخرى لم يلبث أن يعود إلى حديث الرحيل والغربة، ولكن بأسلوب آخر يعاتب به بني عمه حينما يُعرِّض بالرحيل تعريضاً، ويهدد بالنزول على ملوك العرب وأعيانهم، فإذا سألوه عن خبره فبِمَ يجيب؟ إن في إجابته منقصـة لقومه وعشيرته:

أَرَيْتُـكَ إن أَخَّـرْتَنِي وَجَـفَـوْتَنِـي ... وذَا الدَّهْرُ قَدْ أَرْبَى وبَـانَ تحامله
وجازت قُرَى البَحْرينِ عِيسي وَأَصْبَحَتْ ... عُـمَانِيَّـةً واسْتَبْـهَـلَتْهَـا سَوَاحِـلُهْ
وأَصْبَحَ في الحَيِّ اليَمَانِيِّ رَحْلُهَا ... وَحَفَّتْ بِـهِ أَقيالُـهُ وَمَقَـاوِلُـه
أو اسْتَـقْبَلَتْ أَرْضَ الحجاز فَيَمَّمَتْ ... بَنِي حَسنٍ والفَضْـلُ بَـادٍ شَوَاكِلُهْ
أو انْتَجَعَتْ آلَ المُهَنَّـا ففِيهِمُ ... حِمىً آمِنٌ لَا يَرهَبُ الدَّهْـرَ نَازِلُه
أو اعْتَـامَتِ القَومَ الّـذِينَ أَحَلَّهُمْ ... ذُرَى كُـلِّ مَجْـدٍ جَعْفَـرٌ وَفَواضِلُهُ
فَقُلْ لـي عِمَادَ الدِّين مَاذَا أَقُولُهُ ... وكـلُّ امْرِيءٍ قُـدَّامُـهُ مَنْ يُسَـائِلُهْ
إذا قِيـلَ لي مِنْ أَينَ أَقْبَلْتَ وارْتَمتْ ... بِـكَ العِيسُ أُومَـنْ كُنتَ قِدْماً تواصِلُهُ

(١) الديوان ص ٤٧٢. واللهذم: القاطع.

وَمَنْ رَهْطُكَ الأَدْنَى الّذي لَكَ فَخْرُهُ
ونَابِهُ قَدْرٍ لاَ يُسَاوِيهِ خَامِلُهْ
هُنَاكَ يَكُونُ الصِّدقُ نَقْصاً عَليكُمُ
ولاَ يَتَحَرَّى الكِذْبَ إلاّ أَرَاذِلُهْ [1]

بمثل هذه الصور والأشكال كان ابن المقرب يقلِّب أساليب الشكوى والعتاب في شعره ؛ بين حديثه مع عاذله، أو محاورته لصاحبه، أو مناجاته لامرأته، أو بكائه من دهره وزمانه، أو تهديده بالرحيل وهجر الوطن وتركيزه على تفضيل الغربة غزيرا كريم النفس على البقاء في بلده عرضة للضيم والذل والهوان. [2]

---

(١) الديوان ص ٣٣٢. والأقيال والمقاول: ملوك حمير باليمن، وبنو حسن: أمراء مكة وهم أبناء الحسن بن علي رضي الله عنهما، وآل المهنا : أمراء المدينة وهم أبناء الحسن أيضاً كما جاء في الطبعة الهندية ، وجعفر وفواضله : أمراءعرب الشام آنذاك (أنظر الديوان ص ٣٣٣) .

(٢) انظر أمثلة أخرى على إعلان الرحيل وهجر الوطن ص ٦٦ - ٧٤ - ١٣٢ - ١٤١ - ١٥١ - ١٥٥ - ١٨٤ - ٢٤٢ - ٢٥٢ - ٢٥٧ - ٣٤٧ - ٣٦٤ - ٥٢٦ - ٦٠٢ - ٦٠٦ - ٦٢٦ - ٦٥٨ - ٦٦٠.

ثالثاً: الفخر

رأينا في شكوى ابن المقرب وعتابه كيف كان يشكو من ظلم بني عمه له وقسوتهم عليه، وكيف كان يعزو أسباب ذلك تارة إلى أشعاره التي سرت في الناس، أو إلى مجده وعلو مقامه وغير ذلك تارة أخرى.

وسوف نرى في فخره واعتداده بنفسه ما يفسر إعراض بني عمه عنه، وسنرى كيف أن هذا الشاعر الذي يشكو ويتذمر من قسوة الدهر عليه، ويضعف ويستكين أحياناً لما أصابه من صروف زمانه هو أيضاً ذلك الشاعر المتعالي الفخور، الذي يعتز بنفسه ومواهبه وسجاياه، ويزهو بمجده ومجد أسرته وعشيرته. وسنلاحظ أن شعره في الفخر لا يقل جودة عن شعره في الشكوى والعتاب الذي قلنا عنه: إنه أجود الأغراض في شعره.

والحق أننا لا نستطيع الفصل التام بين هذين الغرضين في ديوانه، لأن معظم شعره في الشكوى والعتاب إن لم نقل كله لا بد أن يتبعه بالفخر أو يقدم له به أو يأتي ممازجاً له، فإذا قَسَت عليه حوادث الأيام فإنه يأبى الخضوع لها ويخاطبها مستعصياً عليها مفاخراً متعالياً، أو يجعل من نفسه خصماً للرزايا والخطوب كما في قوله:

عَنِّي إليكِ حَوَادَثَ الأيَّامِ ... ما كُلُّ يومٍ يُسْتَطَاعُ خِصَامِي [1]

وقوله:

أَتَدْرِي اللَّيَالِي أَيُّ خَصْمٍ تُشَاغِبُهْ ... وأيُّ هُمَامٍ بالرَّزَايا تُوَاثِبُهْ [2]

---

(١) الديوان ص ٤٩٨.

(٢) الديوان ص ٥١.

وإذا اشتكى من دهره فإنه يمزج هذه الشكوى بالافتخار بعزمه وقوة تحمله ورأيه السديد:

تَجاهَلَ هَذَا الدَّهْرُ بي فَتَكَتَّبَتْ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ البَلَايَا كَتَائِبُهْ
وظَنَّ مُحَالاً أَنْ أَدِينَ لَحُكْمِهِ لَتَبْكِ عَلَى عَقلِ المُعَنَّى نَوَادِبُهْ
وإنِّي وإنْ أَبْدَى اصْعِرَاراً بَخَدِّهِ وأَوْجَفَ بِي وازْوَرَّ للبُغْضِ جَانِبُهْ
لأُغْضِي عَلَى بَغْضَائِهِ وازْوِرَارِهِ وأَعْجَبُ من حُرٍّ كريمٍ يُعَاتِبُهْ
وأَسْتَقْبِلُ الخَطْبَ الجَلِيلَ بثاقِبٍ من العَزْمِ يَعْلُو لاهِبَ النَّارِ لَاهِبُهْ
ورأيٍ متى جَرَّدْتُهُ وانْتَضَيْتُهُ وجَدْتُ حُسَاماً لم تُفَلَّلْ مَضَارِبُهْ

ثم يمضي في الفخر بمثل هذه الروح الشاكية المتعالية في وقت واحد.

ومثلما يحصل التداخل في شعره بين هذين الغرضين يحصل أيضاً بين الفخر وأغراض أخرى كالمدح:

عَلَى أَنَّهُ البَحْرُ الَّذِي لا مَذاقُهُ أُجاجٌ وَلَا يَجْرِي القَذَا مِنْ عُبَابِهِ
لأنَّ عُبَابِي دفْقَةٌ مِنْ عُبَابِهِ وَهَضْبَةُ عِزِّي تَلْعَةٌ من هِضَابِهِ
وآبَاؤُهُ الغُرُّ الكِرَامُ أُبُوَّتِي وآسَادُ غَابِي من رَآبِيلِ غَابِهِ[1]

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نتعرف على ملامح الفخر في شعره من خلال الروح العامة لهذا الفخر، وتأثير شخصيته وظروف حياته على هذا الغرض.

يستمد ابن المقرب مقومات اعتزازه وفخره مما يراه في نفسه من شجاعة وبسالة، وأخلاق فاضلة، وصبر على نوائب الدهر، وعزم وإقدام، وفصاحة وبيان، ثم من شرفه ومجده وانتمائه إلى بيت إمارة وحكم وهو البيت العيوني الذي ورث مفاخر ربيعة، وهي معان يرددها ابن المقرب كثيراً:

أُولَئكَ قَومِي حِينَ أَدْعُو وأُسْرَتِي ويُنْجِبُنِي منهم شَمَارِخَةٌ غُلْبُ
وَمَا أَنَا فِيهِمْ بِالمَهينِ وإنَّنِي إذا عُدَّ فَضْلٌ فيهُمُ الرَّجُلُ الضَّرْبُ

---

(١) الديوان ص ١٠٣ . والتلعة: ما علا من الأرض ، والرآبيل: الأسود.

لِيَ البيتُ فيهِم والسَّمَاحَةُ والحِجَا وذُو الصَّبْرِ حينَ البَأْسِ والمِقْوَلُ الذَّرْبُ (١)

لكن ابن المقرب كثيراً ما يغلِّب مفاخره الشخصية على مفاخر قومه وأمجادهم، فإذا بلغ قومه من المجد غايته فهو أطولهم باعا وأفصحهم لساناً:

عَلَى أنَّنِي في كُلِّ أمْرٍ هُمَامُهَا وبَدْرُ دُجَاهَا لَوْ وَعَتْ وشِهَابُهَا
وإنِّي لأذْكَى القَومِ لَوْ تَعْلمُونَهُ نِصَاباً وإنْ كَانتْ كَريماً نِصَابُهَا
وأبعدُها في بَاحَةِ المَجْدِ غَايَةً وَقَاباً إذا ما امْتَدَّ للمَجْدِ قَابُها
وأَفصَحُهَا يَومَ الخِصَامِ مَقَالَةً إذا فُصَحاءُ القَومِ أَكْدَى خِطَابُهَا
وعَوْراءَ مرَّتْ بي فَلَمْ أَكْثَرِتْ بهَا وَقَدْ كَانَ لَولاَ الحِلمُ عِنْدِي جَوابُها (٢)

وإذا عزَّ عليه النصير من قومه فإن لديه من العزم والحزم ما يمكِّنه من إدراك العلياء وحده:

وإنِّي من قَومٍ يَبِيْنُ بِطِفْلِهِمْ لَدَى الحَدْسِ عُنْوانُ السِّيَادَةِ في المَهْدِ
فإنْ لم يَكُنْ لي نَاصِرٌ من بَنِي أَبِي فَحَزْمِي وَعزْمِي يُغْنِيانِي عَنِ الحَشْدِ
وإنْ يُدْرِكِ العَلْيَا هُمَامٌ بقَومِهِ فَنَفْسِي تُنَاجِينِي بإدْرَاكِهَا وَحْدِي (٣)

بل إنه ليعد مفاخره قاعدة لمفاخر قومه، فهو أرفعهم بيتاً وأكرمهم خُلقاً وأوفاهم عهدا:

ألَستُ أَوْفَاكُمْ عَهْداً وأَحْلَمُكُمْ عَقْداً وأَقْوَمُكُمْ بالفَرْضِ والنَّفْلِ
أَلَيسَ بَيْتُكُم في العِزِّ مركَزُهُ بَيْتِي فَمَا كَانَ من فَخْرٍ فَمِن قِبَلِي

(١) الديوان ص ٣١. والشمروخ: رأس الجبل أو أعالي السحاب، وغلب: جمع أغلب وهو الأسد، والضرب: المِثل والرجل الماضي الندب، والذرب: الفصيح الحديد اللسان.

(٢) الديوان ص ٤١.

(٣) الديوان ص ١٣٧.

أَلَستُ أَطْـوَلَكُم في كُلِّ مَكْـرُمَةٍ   بَاعاً وأَحْمَلكُم للحَادثِ الجَلَلِ[1]

وقد يبلغ به الزهو والفخر بنفسه أن يفاخر الملوك ويتطاول عليهم:

ذَرِيـنِي والـمُـلُوكَ بـكُـلِّ أَرْضٍ   أُكَـايلُهَـا الـرَّدَى صَـاعـاً بِصَـاعِ
فَمَـا أَيْمَـانُهُمْ تَـعْلُو شِـمَـالِي   وَلاَ أَبْـواعُهُمْ تَـعْـدُو ذِرَاعِي[2]

إن هذه الشخصية المتعالية، وهذه الروح المترفعة على مخاطبيها ـ وهم حكام الدولة وأرباب السلطان ـ هي بلا شك من العوامل التي جلبت له المتاعب وحالت دون استجابة أبناء عمه لتطلعاته وآماله. وقد نجد العذر له إذا أقحم الفخر في مديحه لبني عمه لكونه يرى أنه نِدٌّ لهم وأمير من أمرائهم، مع ما يجد في نفسه من فضل عليهم في شاعريته وذيوع شهرته. لكنه لا يكتفي بذلك، بل ينازع الخليفة العباسي مفاخره، ويقرن شرف العباس بشرف قبيلته ربيعة، ويُذكِّر الناصر لدين الله بقرابته منهم:

وَمَن يَكُنِ العَبَّاسُ أَصلاً لِفَـرْعِهِ   فَمَا فَرْعُهُ غَشٌّ وَلاَ الظِّلُّ مَا صِحُ
لَنَـا فِيـهِ شِـرْكٌ يَـا رَبِيعَـةُ وَافِـرٌ   بِضَحْيَـانِنَا نَسْمُـو بِهِ تُنَاضِحُ
وَمَا عَامِـرُ الضَّحْيَانُ حِينَ تعُـدُّهُ   رَبِيعَـةُ إِلاَّ كَبْشُهَا إِذ تُنَاطِحُ[3]

ولَكَأَن ابن المقرب أراد أن يقلد الشريف الرضي حين قال في رائعته:

عَـطْفـاً أمِيـرَ المُؤمِنينَ فـإِنَّنَـا   في دَوْحَـةِ العَلْيَـاءِ لا نَتَفَـرَّقُ
مـا بَيْنَنَـا يَـومَ الفَخَـارِ تَفَـاوُتٌ   أَبَـداً كِـلانَـا في العَـلاَءِ مُعَـرَّقُ

---

(١) الديوان ص ٣٨١.

(٢) الديوان ص ٢٦٧.

(٣) الديوان ص ١٢٦. والظل الماصح: الناقص الرقيق، و الضَّحيان: هو عامر بن سعد جد العباس لأمه، وهو من قضاة العرب ومشاهيرهم في الجاهلية، لقب بالضحيان لجلوسه للناس في الضحى (انظر الديوان ص ١٢٦).

إلاَّ الخِـلاَفَـةَ مَيَّـزَتْـكَ فـإنَّني   أَنَا عَاطِـلٌ منهَا وأَنتَ مُـطَوَّقُ(١)

ولكن شتّان ما بين الموقفين. فالشريف الرضي طالبي هاشمي، بل هو نقيب الطالبيين، وابن المقرب ـ على شرف قومه ـ شاعر شريد تخلى عنه قومه حتى وقف أمام الخليفة موقفاً لا يتيح له أن يرفع عقيرته بالفخر. ومهما يكن من أمر فإن وقوفه مفاخراً في مجلس الخليفة مع ما وصلت إليه حاله من بؤس وشقاء يدل على طموح وإباء تشبعت بهما نفسه، فبالإضافه إلى مباهاته وافتخاره بنسبه ومجد قومه وشرف خئولته فقد كان معتدّاً بشاعريته وفصاحته وبيانه إلى حد بعيد، وهو يعد ذلك مفخرة له توازي علو مقامه وشرف الرئاسة في بيته:

بيتُ الرِّئَاسَةِ لي وحِكْمَةُ دَغْفَـلٍ   وبَيَانُ سَحْبانٍ وشِعْرُ الأَخْطَلِ(٢)

ويقوده هذا الاعتزاز بشاعريته إلى الافتخار بمدائحه حتى يُدِلَّ بها على ممدوحيه، ويتباهى بحسنها وجمالها، ويراها فوق مدائح سابقيه من الشعراء:

إليكَ كَمَالَ الـدِّينِ عِقْدَ جَـوَاهِرٍ   أَضِنُّ بهـا عَمَّن سِـوَاكَ وأَبْخَـلُ
يُقَصِّرُ عن تَرْصِيعِهَا في عُقُودِهَا   أَخُو دَارِمٍ والأَعْشَيَانِ وجَرْوَلُ(٣)

---

(١) ديوان السيد الرضي الموسوي العلوي (الشريف الرضي) ص ٣٠٤ مطبعة نخبة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.

(٢) الديوان ص ٤٢١. ودغفل: هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيباني، يضرب به المثل في معرفة الأنساب، عالم حافظ، توفي سنة ٦٥ هـ (الديوان ص ٤٢١).

(٣) الديوان ص ٤٣٣. وأخو دارم: إمّا الفرزق أو مسكين الدارمي، ودارم بطن من أشراف تميم ومن أرفعها بيوتا، والأعشيان: أعشى قيس ميمون الوائلي أبو بصير أحد شعراء المعلقات، وأعشى باهلة عامر ابن الحارث شاعر جاهلي، وجرول: هو جرول بن أوس بن مالك العبسي المشهور بالخطيئة(انظر الديوان ص ٤٣٣).

إن معاني الفخار هذه ليست بعيدة عن معاني أبي الطيب المتنبي. بل إنها صدىً لتأثُّر ابن المقرب بأبي الطيب، فقد جمع بينهما التطلع إلى المجد والسيادة، والاعتزاز بالمواهب الشخصية من فصاحة وبيان وشجاعة وإقدام، مع وجود ما يعزِّز هذا الفخر عند ابن المقرب ويبرِّره، وهو تاريخ أسرته ومجد عشيرته وإمارته، وذلك ما لم يكن متوافرا للمتنبي ليضمِّنه فخره، أما ابن المقرب فإنه يجمع مع ذلك الفخرَ بالإمارة والحكم والاعتزازَ بأمجاد قومه، ومع ذلك فإن ابن المقرب يقلد أبا الطيب ويتبع خطاه. فإذا افتخر المتنبي بقوة شاعريته وانقياد المعاني له بقوله:

أَنَا الَّذي نَظَر الأَعْمَى إلى أَدَبِي ... وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي من بِهِ صَمَمُ
أَنَامُ مِلء جُفُونِي عن شَوَارِدِهَا ... ويَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا ويَخْتَصِمُ(١)

فإن ابن المقرب يفخر بمثل ذلك:

ولأُهْدِيَنَّ إلى عُلاَكَ مَدَائِحاً ... يُنْسِيكَ شَادِيها الغَرِيضَ ومَعْبَدَا
وإليكَ مِن دُرِّ الكَلاَمِ جَواهِراً ... يُعْيِي الفَرزدَقَ نَظْمُهَا ومُزَرِّدَا(٢)

ومثلما يفتخر المتنبي بأن سائر مقومات العز والمجد والشرف متوافرة فيه بقوله:

فالخَيلُ واللَّيلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُني ... والضَّرْبُ والطَّعْنُ والقِرطَاسُ والقَلَمُ(٣)

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٣/٣٦٧.

(٢) الديوان ص ١٧٥ ومُزرِّد: هو ابن ضرار بن حرملة المازني الذبياني الغطفاني من الشعراء الفرسان، أدرك الأسلام وأسلم.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٣/٣٦٩.

فإن ابن المقرب يفخر أيضاً بشجاعته.ومضائه وقوة جنانه في قوله:

مَـا اعْتِـذَارِي والــوَغَى تَعْـرِفُنِي   والعَـوَالي والمَـوَاضِي والهَـوَادِي
قـد تَسَاوَى في مَضَاءٍ صَـارِمِي   وَسِنَـانِي ولِسَـانِي. وفُـؤَادِي[1]

وقوله:

قَلِيلُ الكَرَى ماضٍ عَلَى الهَوْلِ مُقْدِمٌ   عَلَى اللَّيلِ والبَيْدَاءِ والحَرِّ والبَرْدِ[2]

وفي مجال الأخلاق الشخصية فإن روح أبي الطيب ومفاخره في الترفع عن مواطن الريب ليست بعيدة عن ابن المقرب في قوله:

وأَكْبَرتُ نَفْسِي أن أُجَالِسَ قَيْنَـةً   ودُفّـاً ومِـزْمَـاراً وعُـوداً وأَعْبُــدَا
وأَنْ أَجْعَلَ الأَنْذَالَ حِزْباً وشِيْعَةً   ولَوْ جَارَ فِيَّ الدَّهْرُ ما شَاءَ واعْتَدَى
فَلَستُ بِبِدْعٍ في الكِرَامِ وهـذِهِ   سَبِيلُ ذَوِي الإِفْضَالِ والبَأْسِ والنَّدَى[3]

وفي خوض غمار الحروب والعزوف عن اللهو والبعد عن النساء ونحو ذلك من المفاخر التي يرددها المتنبي فإننا نرى ابن المقرب يشدو بها في فخره بمثل قوله:

وَمَا السُّمْرُ عِنْدِي غَيرُ خَطِّيَّةِ القَنَا   وَمَا البِيْضُ عِنْدِي غَيرُ بِيْضِ اللَّهَازِمِ
وَلَا تَذْكُرَا الصَّهْبَاءَ ما لَمْ تَكُنْ دَماً   وَلَا مُسْمِعاً مالَمْ يَكُنْ صَوتَ صَـارِمِ
فإنِّي أُحِبُّ الشُّرْبَ في ظِلِّ قَسْطَلٍ   مَجَالِسُهُمْ فيه ظُهُـورُ الصَّلادِمِ
وأَهْوَى آعْتِنَاقَ الدَّارِعِينَ وأَجْتَوِي   عِنَـاقَ بُنَيَّـاتِ الخُـدُورِ النَّـوَاعِمِ
وَمَنْ طَلَبَ العَلْيَـاءَ جَـرَّدَ سَيفَـهُ   وَخَاضَ بِهِ بَحْرَ الرَّدَى غَيرَ وَاجِمِ[2]

ولقد ذهب ابن المقرب كثيرا في متابعته لخطى أبي الطيب المتنبي في معاني

(١) الديوان ص ١٨٠.

(٢) الديوان ص ١٣٤.

(٣) الديوان ص ١٥٨.

(٤) الديوان ص ٥١٢. وبيض اللّهازم: القاطع من الأسنة، والقسطل: الغبار، والصلادم: الخيل القوية الحوافر.

مفاخره حتى قلده في الغلوِّ والمبالغة في تعظيم نفسه حينما يقارن شخصه بالأنبياء . فإذا بلغ أبو الطيب بكبريائه وتعاليه إلى أن يقول :

مَـا مُقَـامِي بِـأَرْضِ نَخْلَةَ إلاّ كَمُقَامِ المَسِيحِ بَينَ اليَهُـودِ[1]
أَنَـا فـي أُمَّـةٍ تَـدَارَكَهَـا اللـه غَـرِيبٌ كَصَـالِـحٍ فـي ثَمُـودِ[2]

فإن ابن المقرب يتابعه بمعنى قريب من ذلك بقوله :

فإن أَرْتَحِلْ عَنْ دَارِ قَومِي لِنَبْوَةٍ وَيُصْبِـحُ رَبْعِي فيهِمُ قـد تَـأَبَّـدَا
فَقَدْ رَحَل المُخْتَارُ عن خَيرِ مَنْزِلٍ إلى يَثْرِبٍ تَسْرِي به العِيْسُ مُصْعِدَا
وَجَـاوَرَ في أَبْنَـاءِ قَيْلَةَ إذ رَأَى سَبِيلَ القِلَى والبُغْضِ مِن قَومِهِ بَدَا
كَذَا شِيمُ الحُرِّ الكَـرِيمِ إذا نَبَا بِـهِ وَطَنٌ زمَّ المَطَايَـا وأَحْفَدَا[3]

وقوله :

إنْ تَعْمَ عنْ رُشْدِهَا قَومِي فَلَا عَجَبٌ مِنْ قَبْلِهَا عَمِيَتْ عن رُشْدِهَا مُضَرُ
مالُوا عنِ المُصْطَفَى والوَحْيُ بَيْنَهُمُ وفيهِمُ تَنْـزِلُ الآيَـاتُ والسُّـوَرُ
وَقَابَلُوهُ بِـكُـفْـرانٍ لِنِـعْـمَـتِـهِ وَكَانَ خيراً من الكُفرانِ لَوْ شَكَرُوا
فإنْ تَغَاضَيْتُ عن قَومِي فَعَنْ كَرَمٍ مِنِّي وَمَا ذَنْبُ كُلِّ النَّاسِ يُغْتَفَرُ[4]

وإن تأثر ابن المقرب بغيره من الشعراء في باب الفخر لم يتوقف عند تقليده للمتنبي فحسب. فقد تأثر بآخرين ولكن بصورة أقل مما رأيناه في متابعته لأبي الطيب. لقد اطلع ابن المقرب على مفاخر سابقيه من الشعراء فتركت صداها في نفسه لمّا وجدها منطبقة على شخصيته وكريم سجاياه، فنحن نراه وقد أعجب

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري١ /٣١٩.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١/٣٢٤.

(٣) الديوان ص ١٥٥. وقيلة: أم الأوس والخزرج، واحفدا: حملها على الإسراع .

(٤) الديوان ص ٢٣٧.

ببعض معانيهم فأخذها وصاغها بأسلوب شبيه بأساليبهم، فإذا كان الشنفرى الأزدي معتدا بنفسه مستقلا برأيه، يحتقر الرجل الذي تصرِّفه زوجته في قوله:

وَلَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ ... مُجَدَّعَةً سُقْبَانُهَا وَهْيَ بُهَّلُ
وَلَا جُبَّاءٍ أَكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ ... يُطَالِعُهَا في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ(١)

فإن ابن المقرب يقلده في الفخار بهذا المعنى:

ولَسْتُ بِيَهْفُوفٍ يَرَى رَأْيَ عِرْسِهِ ... مَتَى أَرْكَبَتْهُ مَرْكَباً فَهْوَ رَاكِبُهْ
يَظَلُّ إذا ما نَابَهُ الأَمْرُ مُحْجَزاً ... يُخَاطِبُهَا في شَأْنِهِ وتُخَاطِبُهْ(٢)

وإذا افتخر أبو تمام بأشعاره وبنات أفكاره وبقائها جديدة ما تقادمت الليالي والأيام وهو يمدح مالك بن طوق التغلبي بقوله:

خُذْهَا ٱبْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ في الدُّجَى ... واللَّيلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ الجِلْبَابِ
بِكْراً تُورِّثُ في الحَيَاةِ وَتَنْثَنِي ... في السِّلْمِ وهْيَ كثيرةُ الأَسْلَابِ
وَيَزِيدُهَا مَرُّ اللَّيَالِي جِدَّةً ... وَتَقَادُمُ الأَيَّامِ حُسْنَ شَبَابِ(٣)

فإن ابن المقرب يفتخر أيضاً بعذوبة ألفاظه وشاعريته التي يعترف له بها فحول الشعراء:

فَدُونَكَ عَذْبَةَ الأَلْفَاظِ جَاءَتْ ... بِنُورٍ سَاطِعٍ يَغْشَى البِلَادَا
تُرِيكَ سُطُورُهَا واللَّيلُ دَاجٍ ... فَرِيدَ الدُّرِّ مَثْنَى أو فُرَادَى
لَوِ ٱجْتَازَتْ بِسَامِعَتَي جَرِيرٍ ... لَقَامَ لَهَا جَلَالاً واسْتَعَادَا(٤)

---

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب لأبي القاسم الزمخشري ص ٢٦ ـ مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ـ الطبعة الأولى ١٣٠٠ هـ والبُهّل: الإبل المهملة، والجبّأ: الجبان والأكهى: الضعيف.

(٢) الديوان ص ٥٢.

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٩٦/١. تحقيق محمد عبده عزام دار المعارف بمصر ١٩٥٧م.

(٤) الديوان ص ١٩٠.

وإذا تباهى بشار بن برد بهيبة قومه وقوتهم بقوله:

إذَا المَلِكُ الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشَيْنَا إليه بالسُّيوفِ نُعَاتِبُهْ[1]

فإن ابن المقرب يفخر أيضاً بأسياف قومه وشدة بأسهم بمثل معنى بشار فيقول:

إذَا السَّيِّدُ الجَبَّارُ أَبْدَى تَعَامِياً وَصَعَّرَ خَدّاً واَسْتَبَاحَ حِمَى المَطْلِ
أَضَاءَتْ لَهُ أَسْيَافُنَا فَهَدَيْنَهُ وَقَوَّمْنَهُ فاسْتَبْدَلَ الحِلْمَ بالجَهْلِ[2]

إذن . . . فقد استفاد ابن المقرب كثيراً في معاني فخره من نتاج سابقيه حين تناول بعض معانيهم فجعلها مادة لفخره، ولا ضير عليه في ذلك، فليست هذه المعاني وقفا على شاعر دون آخر وقد رددها الشعراء كثيراً ، ولكنَّ ما يميز شاعراً عن آخر هو كيفية تناولها وصياغتها. ولم يكن ابن المقرب عاجزاً عن إلباسها أثوابا جديدة. وإنك لترى مثلا أثر سابقيه في أسلوب فخره، وفي المعاني التي يتحدث عنها حينما يذكر صفحه عن جهال قومه وصلته لرحمه ووفاءه لأصدقائه :

وأَصْفَحُ عَنْ جُهَّالِ قَومِي حَمِيَّةً وإنْ أَسْرَجُوا في هَدْم عِزِّي وَأَلْجَمُوا
وإنْ قَطَعُوا أَرْحَامَ بَينِي وَبَيْنَهُمْ وَصَلْتُ وذُو العَلْيَا أَبَرُّ وَأَرْحَمُ
وأُغْضِي عَلَى عَوْراءِ قَومِي وإنَّنِي لأَبْصَرُ منهُمْ لَوْ أَشَاءُ وأَعْلَمُ
وأحْفَظُ وُدَّ الأَصدِقَاء وَإنْ هُمُ إليَّ بِلاَ جُرمٍ أَسَاءُوا وَأَجْرَمُوا[3]

فتلك صورة لأبيات معن بن أوس المشهورة في هذا المقام ومطلعها:

وَذِي رَحِم قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِغْنِهِ بحِلْمِيَ عنهُ وهْوَ لَيسَ لَهُ حِلْمُ[4]

---

(١) ديوان بشار بن برد ص ٣١٧ تقديم وشرح محمد الطاهر بن عاشور ــ مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٣٦٩ هـ.

(٢) الديوان ص ٣٢٤. والمطل: المماطلة والتسويف.

(٣) الديوان ص ٤٤٩.

(٤) الأمالي لأبي علي القالي ٢/٩٩ ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ.

ونحن نحس في أبيات ابن المقرب أصداء لأبيات معن في جودة معانيها، وجزالة أسلوبها، وروعة جرسها.

ورغم تأثر ابن المقرب بسابقيه في الفخر فإن ديوانه مليء بأبيات الفخر التي أبدع فيها وأحسن حتى رسم من خلالها صوراً مستقلة للفخر القوي الجزل الذي يملك قلوب سامعيه، فيقرُّون له بالحذق والمهارة وأصالة الشاعرية واستقلال الشخصية. وأكثر ما يحلِّق ابن المقرب ويبدع في فخره حينما يتناول تلك المعاني التي تلامس شغاف قلبه، وتصور محنته مع بني عمه حكام الدولة العيونية، فيعبر بها عن إبائه للضيم والمذلة:

فإنْ رَضِيَتْ قَومِي بنَقْصِي فَلِي غِنىً ... بنَفْسِي وَجَلَّابُ المَنَايَا دَفُوعُهَا
مَتَى لَمْ أَضِقْ ذَرْعاً بأَرْضٍ فَإنَّنِي ... لَدَى الهَمِّ جَوَّابُ المَوَامِي ذَرُوعُهَا
يُشَيِّعُنِي قَلْبٌ إلى العِزِّ تَائِقٌ ... وَنَفْسٌ إلى العَلْيَا شَدِيدٌ نُزُوعُهَا
أُشَرِّفُهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ إبَاؤُهَا ... لِوَاجِبِ حَقٍّ أو لِضَيْمٍ خُنُوعُهَا
وَمَا أَنَا فِي السَّرَّاءِ يوماً فَرُوحُها ... وَلَا أَنَا فِي الضَّرَّاءِ يوماً جَزُوعُهَا
سأُنْزِلُها المَلْحُودَ أو رَأْسَ هَضْبَةٍ ... مِنَ العِزِّ يُعْيِي كُلَّ رَاقٍ طُلُوعُهَا
وَمَا طَلَبِي العَلْيَاءَ إرْثُ كَلَالَةٍ ... فَيَقْصُرُ خَطْوِي دُونَهَا فَأَسُوعُهَا
عَلَيَّ لَهَا سَعْيُ الكِرامِ فإن أَمُتْ ... فَوَهَّابُها سَلَّابُها ونَزُوعُهَا[1]

أو حينما يتحدث عن قوة عزيمته ومضائه وإبائه وثباته للخطوب والنوائب، وشجاعته وإقدامه:

تقارِعُني الحَوَادِثُ عن مُرَادِي ... وأَرْجُو أَنْ يُذَلِّلَهَا قِرَاعِي
وإنِّي والعُلَا فَرَسَا رِهَانٍ ... كَمَا أَنَا والنَّدَى أَخَوَا رَضَاعِ

(١) الديوان ص ٢٥٨. والموامي: الفلوات الواسعة لا ماء فيها، والملحود: القبر، ويقال: لم يرثه كلالةً: أي لم يرثه عن عَرَض بل عن قرب واستحقاق، وأسوعها: أهملها.

ولَستُ إذا الـهُمُـومُ تـأَوَّبَتْنِي مُـلاَقِـيـهَـا بـآراءٍ شَـعَـاعِ
ولَـكِـنِّـي سَـأَلْـقَـاهَـا بِـعَـزْمٍ وَبَـاعٍ في المَكَـارِمِ أَيِّ بَـاعِ
سَئِمتُ تَقَلُّبِي فَـوقَ الحَشَـايَـا ونَـومِي بالهَـوَاجِرِ واضْـطِجَاعِي
إذَا يَـومـاً نَبَتْ بِي دَارُ قَـومِي فَمَـا تَنْبُو المـطِيُّ عنِ انْتِجَاعِي
سَـأَطْـلُبُ حَقَّ آبَـائِـي وَحَقِّـي ولَــوْ مِنْ بَينِ أَنْيَابِ الأَفَـاعِي
وإنَّ المَـوتَ في طَلَبِ ارْتِفَـاعٍ لَـدَيَّ وَلاَ حَيَاتِي فِي اتِّضَـاعِ
وَثَـوبُ اللَّيثِ فِيَّ إذا تَبَـدَّتْ فَـرِيسَتُـهُ وإطْـرَاقُ الشُّجَاعِ(١)

أو حينما يهدد أعداءه ويتوعدهم ويتعالى عليهم بعزة قومه ونباهة شأنهم:

فَجَنِّبُـونِي أَذَاكُـمْ قَبْـلَ آبِـدَةٍ تَأتِي غِشَاشاً فَلاَ تُبْقِي وَلاَ تَـذَرُ
واسْتَعْصِمُوا بِرِضَائي واحْذَرُوا سَخَطِي فَجـرحُ مِثْلِي في أَمْثَالِكُمْ هَـدَرُ
أَنَا الذَّي يَـرْهَبُ الجَبَّارُ سَـطْوَتَه وَبِي يُقَـوَّمُ مَنْ في خَـدِّهِ صَعَـرُ
أَنْمى إلى الذِّرْوةِ العَلْيَا وَتُنْجِبُنِي أَمَا جِدُ لَيسَ فِي عِيدَانِها خَـوَرُ
سُمْـحٌ بَهَالِيـلُ عَيَّافُـو الخَنَا صُبُرٌ يَومَ الكَريهَـةِ طَلاَّبُـونَ إنْ وُتِرُوا
غُـرٌّ مَغَـاوِيـرُ أَنْجَـادٌ خَضَـارِمَـةٌ بِمِثْلِهِم تَحْسُنُ الأَخْبَـارُ والسِّيَـرُ
لاَ يَجْبُرُ الدَّهْرُ هَيْضاً في كَسِيرِهِمُ وَلاَ تَهِيضُ يَدُ الأَيَّامِ مَا جَبَرُوا(٢)

إن أكثر شعر ابن المقرب في الفخر يرد ملازماً لبعض أغراضه الأخرى، فهو لا ينفك عن الزهو بأصالة نسبه وعلو قدره وشرف أسرته ومواهبه الشخصية في معظم قصائده. فإذا مدح فإنه لا ينسى أن ينسب لنفسه المجد والشرف:

كَـيْـمَـا أُلاَقِـي مَـلِكـاً عِـنْـدَهُ لِلْمَاجِدِ الأَحْسَابِ مِثْلِي مُقَامْ(٣)

---

(١) الديوان ص ٢٦٨ والآراء الشعاع: المتفرقة التي لا تجتمع، والشجاع: ضرب من الحيّات.

(٢) الديوان ص ٢٣٩. والغِشاش: أول الظلمة وآخرها، والبهاليل: جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير، والخضارمة: جمع خضرم وهو الجواد المعطاء والهيض: الكسر بعد الجبور.

(٣) الديوان ص ٥٧٤.

وإذا هجا فلا يفوته أن يتعالى على من يهجوه ، وأن يظهر الفارق بينه وبينه إمعاناً في احتقاره وإصراراً على الفخار بعلو مقامه:

شَغُوبٌ عَلَى الأَدْنَى ولُو صَكَّ أَنْفَهُ ... عَدُوٌّ بِسَيفٍ أَوْ عَصاً لَمْ يُشَاغِبِ
وَمَا زَالَ نَتْنَ الخِيْمِ والأَصْل مُولَعاً ... بِبَغْضَاءِ أَرْبَابِ العُلاَ والمَنَاقِبِ
عَلَى رِسْلِكُم وامْشُوا رُوَيداً فَتِيهُكُم ... عَلَى عَبْدَلِيٍّ من عَجِيبِ العَجَائِبِ
وَخَلُّو مُضِلَّاتِ الأَمَانِيِّ عَنكُمُ ... مَتَى نَفَّرَ البَازِي صَرِيرُ الجَنَادِبِ (١)

وإذا تغزل ـ على قلة غزله ـ فإنه يمزج الغزل بالفخر بربيعة وشرف انتسابه إليها بكل براعة وحذق وبأسلوب طريف. ولنستمع إلى محاورته لفتاة في بغداد:

رَأَتْنِي فَأَبْدَتْ عَنْ أَسِيلٍ وَحَجَّبَتْ ... بِذِي مِعْصَمٍ جَدْلٍ يَغَصُّ بِهِ القُلْبُ
وَقَالَتْ: غَرِيبٌ والفَتَاةُ غَرِيبَةٌ ... وَلَا في نِكَاحِ الحِلِّ ذَامٌ وَلَا ذَنْبُ
فَقُلْتُ لَهَا إِنِّي أَلُوفٌ وَلِي هَوىً ... وَمَالِيَ في بَغْدَادَ شِعْبٌ وَلَا سِرْبُ
فَقَالَتْ :وَأَينَ الشِّعْبُ والسِّرْبُ والهَوَى ... فَقُلْتُ : بِحيثُ الكَرُّ والطَّعنُ والضَّربُ
فَقَالتْ: أَرَى البَحرين دَارَكَ والهَوَى ... بَنُوكَ وهذَا مَا أَرَى فَمَنِ الشِّعْبُ
فَقُلتُ : سَلِي حَيَّي نِزَارٍ وَيَعْرُبٍ ... بِأَعْظَمِهَا خَطْباً إِذَا اسْتَبْهَمَ الخَطْبُ
وأَمْنعِهَا جَاراً وأَوْسَعِهَا حِمىً ... وَأَصْعَبِهَا عِزّاً إذا اسْتُرْحِلَ الصَّعْبُ
وَأَنْهَرِهَا طَعْناً وضَرْباً ونَائِلاً ... إِذَا اغْبَرَتِ الآفَاقُ واهْتَزَّتِ الحَرْبُ
وأَقْتَلِهَا لِلْمَلْكِ صَعَّرَ خَدَّهُ ... قَدِيمُ انْتِظَامِ المُلكِ والعَسْكَرِ اللَّجِب
فَقَالتْ: لَعَمْرِي إِنَّها لَرَبِيعَةٌ ... بَنَاتُ المَعَالِي لا كِلابٌ وَلَا كَلْبُ (٢)

ويتسم فخر ابن المقرب بظاهرة هامة جعلت من فخره خاصة ومن شعره عامة

---

(١) الديوان ص ٦٧. والخيم: السجية والطبيعة.

(٢) الديوان ص ٢٧ . والقلب: سوار المرأة، وبنوك : هكذا وردت في الديوان والأولى أن تكون: بنيك ولكنه رفعها على الخبرية واستئناف المبتدأ، وبنات المعالي : هكذا وردت في الديوان ولعلها بُناة المعالى لا كما كتبها الناسخ (بنات).

مصدراً تاريخياً نادراً للدولة العيونية. وتتمثل هذه الظاهرة بالتدوين التاريخي لبعض مناقب الأمراء العيونيين، وتفصيل بعض الحوادث التاريخية خلال مائة وسبعين عاماً تقريباً من الحكم العيوني في البحرين في فترة زمنية غفل عنها المؤرخون. فقد سجل ابن المقرب بشعره هذه الحوادث وفصّل بعضها في أطول قصيدة ضمها ديوانه، وهي ميميته التي بلغت مائة وخمسين بيتاً[1]. وقد خصص أبياتها الأولى للحكمة كمدخل للموضوع الأصلي فيها وهو الفخر، ثم راح يعدد مفاخر قومه في الجاهلية والإسلام مبيّناً كيف حاربت عشيرته القرامطة وقضت على دولتهم:

سَلِ القَرَامِطَ مَنْ شَظَّى جَمَاجِمَهُمْ ... فَلقاً وغَادَرَهُمْ بَعـدَ العُلاَ خَـدَمَا
مِنْ بَعدِ أنْ جَلَّ بالبَحْرينِ شَأنُهُمُ ... وأَرْجَفُوا الشَّامَ بالغَارَاتِ والحَرَمَا
وَلَمْ تَزَلْ خَيلُهُمْ تَغْشَى سَنَابِكُهَا ... أَرْضَ العِرَاقِ وَتَغْشَى تَارةً أَدَمَـا
وَحَرَّقُوا عَبـدَ قَيسٍ في مَنَازِلِهَـا ... وَصَيَّرُوا الغُرَّ مِنْ سَادَاتِها حُمَمَا
وأَبْطَلُوا الصَّلَواتِ الخَمسَ وانْتَهَكُوا ... شَهْرَ الصِّيامِ ونَصُّوا منهُم صَنَمَا
وَمَـا بَنَـوا مَسْجِـداً لله نَعْـرِفُـهُ ... بَلْ كُلُّ مَـا أَدْرَكُوه قَـائماً هُـدِمَا
حَتَّى حَمَينا عَلَى الإسلامِ وانْتَدَبَتْ ... مِنَّا فَوارِسُ تَجْلُو الكَرْبَ والظُّلَمَا[2]

ثم يمضي مفصلا ما جرى من حوادث وحروب بين أسرته وبين القرامطة وبينها وبين بعض الامراء الآخرين في البحرين حتى دانت البلاد كلها لجده عبد الله بن علي العيوني، ثم ينتقل إلى تعداد مناقب الأمراء العيونيين ومفاخرهم ويذكر حادثة معينة لكل أمير عيوني يستشهد بها على كريم سجاياه[3].

ولقد تمثلت في قصيدة ابن المقرب هذه ـ رغم طولها ـ الوحدة الموضوعية التي يفتقدها شعره في أكثر أغراضه، كما تمثلت أيضاً بنونيته التي بلغت ثلاثة وسبعين

(١) انظر الديوان ص ٥٢٦.

(٢) الديوان ص ٥٣١ وأدم: موضع في شمال عُمان وموضع قرب مكة.

(٣) ولقد زاد من أهمية هذه القصيدة ما تضمنته شروحها في ديوانه من بيان للكثير من الحوادث زمن الدولة العيونية تعليقاً على كل حادثة يذكرها الشاعر.

بيتاً يفتخر فيها بنفسه وقومه. وقد بلغ الشاعر بهذه القصيدة مستوى رفيعا من الجودة والأصالة أثبت بها أنه شاعر فحل لا يقل عن الشعراء الفحول من سابقيه ومعاصريه، ولنقرأ مثالاً من هذه القصيدة يفتخر فيه بنفسه وقد ضمنه الحكمة المقنعة برهاناً على الخلال التي يتصف بها:

فَمِثْلِي مَنْ يُقِيمُ صَغَى الأَعَادِي ... وَيُسْتَعْدَى عَلى نُوَبِ الزَّمَانِ
وَمَا ذِكْرُ المَنِيَّةِ عِنْدَ أمْرٍ ... أُحَاوِلُهُ بِشَانٍ من عِنَانِي
إذا يَومي أَظَلَّ فَما أُبَالِي ... بِسَيفٍ كَانَ حَتْفَي أو سِنَانِ
وَمَنْ يَكُ عُمْرُهُ المَكْتُوبُ تِسْعاً ... فَلاَ يَخْشَى المَنِيَّةَ في الثَّمَانِ
وَبُعْدُ عن أَخٍ لأَبٍ وَأُمٍّ ... إِذَا مَا عَقَّ خَيرٌ مِنْ تَدَانِ
فَلاَ يَتَوَهَّمِ السُّفَهَاءُ أَنِّي ... أَحِنُّ إلى غَوانٍ أَوْ مَغَانِ
وَلاَ أَنِّي أَرَى والمَوتُ حَتْمٌ ... بعَينِ جَلاَلَةٍ مَنْ لاَ يَرَانِي
عَظِيمُ النَّاس في عَينِي حَقِيرٌ ... إذا بالمُقْلَةِ الخَوْصَا رَآنِي
مُحَالٌ أنْ أُوَاصِلَ مَنْ جَفَانِي ... وَأَسْمَحَ بالوِدَادِ لِمَنْ قَلاَنِي(١)

ثم يمضي على هذه الوتيرة وبمثل هذه القوة إلى أن يخلص إلى الافتخار بقومه وكريم فعالهم ويختمها بقوله:

تَعِيشُ النَّاسُ ما عِشْنَا بِخَيرٍ ... وتَحْيَا ما حَيِيْنَا في أَمَانِ
فإنْ نُفْقَدْ فَلاَ أَمَلٌ لِرَاجٍ ... يُؤَمِّلُهُ ولا عَوْنٌ لِعَانِ
وَهَلْ يُغْنِي غَنَاءَ المَاءِ آلٌ ... يُرَيِّعُهُ الهَجِيرُ بِصَحْصَحَانِ
وَلاَ كالسَّيفِ لو صَدِئَتْ وَفُلَّتْ ... مَضَارِبُهُ عَصاً من خَيْزُرَانِ(٢)

ويتسم فخر ابن المقرب عامة بتركيزه على مفاخر ربيعة في الجاهلية، فقد كان الشاعر عالماً بمفاخر القبائل ومناقبها في الجاهلية والإسلام، وهو يعلم أن أكثر

---

(١) الديوان ص ٦٢٤. والخَوَص: غؤور العين والخوصاء: وصف لعين المبغض إذا نظر لخصمه.

(٢) الديوان ص ٦٣٠ والآل: السراب، والصحصحان: ما استوى من الأرض.

مفاخر ربيعة التي ينتهي إليها نسب أسرته إنما هي في الجاهلية، وهو يدرك أن مضر قد حازت المكارم والمفاخر بعد ظهور الإسلام حين بعث الله الرسول ﷺ وهو القرشي المضري. ولهذا فإن الدارس لشعر ابن المقرب عامة وفخره خاصة يلاحظ اهتمام الشاعر بمفاخر ربيعة في العصر الجاهلي، والإكثار من ذكر أعلامها وأبطالها المشهورين، ووقائعها وأيامها المعروفة قبل ظهوز الإسلام، ثم لا يجد بعد ذلك لقومه مفاخر أو مناقب تذكر في ظل الإسلام إلا في حدود أسرته العيونية وسيطرتها على البحرين وقضائها على نفوذ القرامطة. ففي قصيدته الطويلة[1] التي يعدد فيها مفاخر قومه نراه يصرح بهذه الحقيقة فيذكر مناقب ربيعة في الجاهلية، ثم يتجاهل خمسة قرون من تاريخ الإسلام حين يقفز إلى مناقب أسرته في حرب القرامطة، وهو مع ذلك يصر على إظهار ربيعة في مركز القيادة والسيادة على كل القبائل، فيشير إلى تلاحم ربيعة مع نزار في الجاهلية والإسلام حتى يكون لقومه نصيب من مفاخر الإسلام التي حازتها مضر. بل إنه ليعتبر ربيعة حامية الحمى، والذائدة عن محارم نزار:

فِي الجَاهِلِيَّةِ سُدْنَا كُلَّ ذِي شَرَفٍ	بالمَأْثُرَاتِ وسُدْنَا العُرْبَ والعَجَمَا
وَصَـارَ كُـلُّ مَعَـدِّيٍّ لَنَـا تَبَعـاً	يَرْعَى بأَسْيَافِنَا الوَسْمِيَّ حَيْثُ هَمَى
حُطْنَا نِـزَاراً وذُدْنَا عن مَحَـارِمِهَا	وَلَمْ نَـدَعْ لِمُنَاوِي عِـزِّهَا حَـرَمَا
حَتَّى أَتَى اللهُ بالإِسْلامِ وافْتَتَحَتْ	كُلَّ البِلادِ وأَضْحَتْ لِلأَنَامِ سَمَا
وَفَضْـلُ آخِرِنَـا عن فَضْلِ أَوَّلِنَـا	يُغْنِي ولكِنَّ بَحْراً هَاجَ فَـالْتَطَمَـا
شِدْنَا من المَجْدِ بَيتاً لَا تُقَاسُ بِهِ	ذَاتُ العِمَادِ ولكِنْ لَمْ نَكُنْ إِرَمَا
سَلِ القَرَامِطَ مَنْ شَظَّى جَمَاجِمَهُمْ	فَلقاً وغَادَرَهُمْ بَعدَ العُلَا خَدَمَا[2]

أرأيت كيف تغنَّى بمفاخر ربيعة ومآثرها في الجاهلية، ثم انتقل إلى مآثر أسرته

(١) انظر الديوان ص ٥٢٦.

(٢) الديوان ص ٥٣٠ وافْتَتَحَتْ كُلَّ البلاد: هكذا في الديوان والأصوب: وافْتُتِحَتْ كُلُّ البلاد.

العيونية في القرن الخامس الهجري، وقد راح يعدد بعد ذلك ما لكل أمير عيوني من مناقب ومكارم.

إن عاطفة الشاعر نحو ربيعة وتعصبه لها ليطغى على فخره حينما يأخذ هذا الفخر شكلا شمولياً يتعدى مفاخره الشخصية، فلا يكف في كل مناسبة عن الإشادة بربيعة وأمجادها، ويعدها رأس معدٍّ وقطبها، ويفضل جدوده على جدود غيره ولو كانوا من قريش:

وَكَمْ لِي وَالِدٍ لاَ عَبدُ شَمْسٍ يُدَانِيهِ وَلاَ عَبدُ المَدَانِ
لَنَا عَقدُ الرِّيَاسَةِ في مَعَدٍّ يُقِرُّ لَنَا بِهِ قَاصٍ وَدَانِ
نَقُودُ النَّاسِ طَوعاً واقْتِسَاراً بِرَأيٍ قَدْ أُدِيرَ بلا اعْتِشَانِ(1)

وهو لا يكتفي بفخره بربيعة فهي شعب عظيم تنتمي إليه قبائل كثيرة. بل يضع قومه في الذروة من ربيعة، ويصفهم بأنهم سيوف نزار كلها، وأنهم المدافعون عن حمى معد وهو يتغنى بأمجاده وأمجاد قومه:

أَنَا ابْنُ السَّابِقِينَ إلى المَعَالِي وأَرْبَابِ المَمَالِكِ والمَسَاعِي
حَلَلْنَا من رَبيعَةَ في ذُرَاهَا وَجاوَزْنَا الفُرُوعَ إلى الفِرَاعِ
وَقَدْ عَلِمَتْ نِزَارُ أنَّ قَومِي سُيُوفُ ضِرَابِهَا يَومَ المِصَاعِ
وأَنَّا المَانِعُونَ حِمَى مَعَدٍّ وأَهْلُ الذَّبِّ عَنْهَا والدِّفَاعِ
نُهِينُ لَهَا التِّلاَدَ ولا نُحَاشِي وَنُوطِئُهَا البِلادَ وَلاَ نُرَاعِي
بَنَيْنَا عِزَّنَا وَرَسَى عُلاَنَا بِضَرْبِ الهَامِ والكَرَمِ المُشَاعِ
بِنَا يَسْتَنْسِرُ العُصْفُورُ تِيهاً وَتَخْشَى الأُسْدُ صَولاتِ الضِّبَاعِ
فَلاَ يَسْتَغْرِقَنَّ الحُمْقُ قَوماً فَكَمْ من رِفْعَةٍ سَبَبُ اتِّضَاعِ
فَإنَّ سُيُوفَنَا مَا زَالَ فِيْهَا شِفَاءُ لِلرُّءوسِ مِنَ الصُّدَاعِ(2)

(1) الديوان ص ٦٢٩. والاعْتِشان بالرأي: التخمين فيه.

(2) الديوان ص ٢٧٠ والفراع: ما علا من الأرض، والتلاد: القديم والمصاع: القتال والمجالدة.

وإن الزهو ليبلغ غايته بابن المقرب وهو يتذكر ربيعة ذات التاريخ الحافل بالبطولات فينعكس أثر هذا الزهو والعُجْب على أسلوبه في الفخر فيسمو به ويبدع بمثل هذه الأبيات في سلاستها وروعتها:

أَلَسْنَا حُمَاةَ الحَيِّ والخَيلُ تَدَّعِي ... إذا فَرَّ خَوفاً من لَظَاهَا شَكُوعُهَا
بنَا يُمْنَعُ الثَّغْرُ المَخُوفُ وَعِنـدَنَا ... رِيَاضُ النَّدَى يَزْدَادُ حُسْناً وُشُوعُهَا
نَعُـدُّ إذانَحـنُ انْتَـمَينَـا أُبُـوَّةً ... تُوازِنُ هَامَاتِ الرِّجَـالِ شُسُوعُهَـا
ومَـا زَالَ فِينَـا لَا يُـدَافَعُ ذَاكُمُ ... رَبِيـعُ مَعَـدٍّ كُلُّهَـا وَرُبُـوعُهَـا
إذَا هَضْبَـةٌ لِلْعِزِّ طَـالَتْ فِرَاعُهَـا ... فَـلَا تَلْقَنَا إلَّا وَمِنَّـا فُـرُوعُهَـا
تَلُوذُ بِنَـا عَلْيَـا مَعَـدٍّ إذا جَنَتْ ... فَيَأْمَنُ جانِيهَـا وَيَهْدَا مَرُوعُهَـا
بِنَـا يَأْكُـلُ الصَّعْـوُ البُـزَاةَ ويَتَّقِي ... شَذَا الأَخْطَلِيَّاتِ الحَرَامَى خُمُوعُهَا(١)

إن ظاهرة تكراره وترديده لمآثر ربيعة ومناقبها هي من أبرز معالم فخره. وفي ديوانه أبيات كثيرة تتخلل معظم قصائده، ويظهر فيها اهتمامه وشغفه بذكر ربيعة والتركيز على مفاخرها بشكل يسترعي الانتباه حين يأتي ممازجاً لأكثر أغراض شعره:

بِهَـا كُلُّ قَـرْمٍ من رَبِيعَةَ يَنْتَمِي ... إلى ذِرْوَةٍ تَعْلُو الرَّوَاسِي هِضَابُهَا(٢)

....

أَلَا يَـا لَقَومِي مِنْ رَبِيعَـةَ فَتْكَـةً ... تُغَادِرُ نَوْكَى القَوْمِ صُفْراً وِطَابُهَا(٣)

....

فَـلَا عَـدِمَتْ يَوماً رَبِيعَـةُ مِثلَهُ ... لِتَشْيِيدِ عِزٍّ أو لِبَـذْلِ مَوَاهِبِ(٤)

---

(١) الديوان ص ٢٥٦. والشَّكوع: كثير الأنين والتوجع، والوُشُوع: النباتات المتفرقة: والصَّعْو: طائر أصغر من العصفور، والأخْطليَّات: الغنم المسترخية الأذنين، والحَرَامَى: ذوات الظلف، والخُمُوع: الذئاب، والخيل تدَّعِي: يعني فرسانها، ينتسب كل منهم إلى قبيلته طالباً النزال.

(٢) الديوان ص ٤٢.

(٣) الديوان ص ٤٦ والنَّوكَى: الحمقى، وصُفراً وِطابها: أي مقتولين أو موتى.

(٤) الديوان ص ٥١.

قَومِي سَرَاةُ رَبيعَةٍ ومُلُوكُهَا   وَإِذَا نُسِبْتُ وُجِدْتُ من سَرَوَاتِهَا[1]

تَتْلُو لِواءَكَ مِنْ رَبيعَةَ عُصْبَةٌ   تَخْشَى الأُسُودُ الغُلْبُ من صَوْلاَتِها[2]

وأَعَزُّ حَيٍّ في رَبيعَةَ حَيُّهُ   كُلٌّ يُقِرُّ لَهُ بِذَاكَ وَيَشْهَدُ[3]

فَبِهِ تَطُولُ رَبيعَةٌ كُلَّ الوَرَى   مِنْ مُتْهِمٍ أو مُنْجِدٍ أو مُغْوِرِ[4]

أَلاَ يَالَقَومِي من رَبيعَةَ هَلْ أَرَى   لَكُمْ يومَ بَأسٍ يَصْدِمُ الجَهْلَ بالجَهْلِ[5]

وَلاَ بَرِحَتْ تَسْطُو رَبيعَةُ في العِدَى   بِمِثْلِهِمُ ما طَبَّقَ الأَرْضَ وَابِلُ[6]

هُمُ بِخَزَازَ دَافَعُوا عنكُمُ العِدَى   وَذَلِكَ يومٌ مُمْقِرُ الطَّعْمِ بَاسِلُ[7]

فَشُكْراً بِلاَ كُفْرٍ لِسَعْيِ رَبيعَةٍ   فَمَا يَكْفُرُ النَّعْمَاءَ في النَّاسِ عَاقِلُ

وَلَو أَنَّ عِرْقاً من رَبيعَةَ فِيهِمُ   لَكَانُوا عَلَى الأَرْحَامِ أَحْنَى وأَوْصَلا[8]

أَمَا حَانَ يَا فَرْعَي رَبيعَةَ أَنْ أَرَى   بَنَاتِ الوَغَى يَعْلُو الرَّوَابِي قَتَامُهَا[9]

وإِنِّي من القَومِ الَّذِين إِذَا انْتَدَتْ   رَبيعَةُ يَوماً كَانَ مِنهُمْ هُمَامُهَا[10]

لَمْ يُحْكَ أَنَّ رَبيعةً أَغْضَتْ عَلَى   ضَيمٍ وَلاَ رَضِيَتْ بِدَارِ هَوَانِ

وَرَبيعَةُ تَحْمِي الذِّمَارَ وَلاَ تَرَى   أَكْلَ النَّزِيلِ وَلاَ ضَيَاعَ العَانِي[11]

---

(١) الديوان ص ١٠٧ (٢) الديوان ص ١١٢. (٣) الديوان ص ١٦٤.

(٤) الديوان ص ٢٢٤. (٥) الديوان ص ٣١٨. (٦) الديوان ص ٣٤٩.

(٧) الديوان ص ٣٥٨. ويوم خزاز كان لمعدٍّ على مذحج اليمنية، ومُمْقِر: مرّ.

(٨) الديوان ص ٣٦٧. (٩) الديوان ٤٥٦. (١٠) الديوان ٤٦٠.

(١١) الديوان ص ٦٣٥ وله أيضاً أبيات أخرى يذكر فيها ربيعة. انظر الديوان ص ٢٨ ـ ٥٥ ـ ١٢٦ ـ ٢٨٩ ـ ٣٧٢ ـ ٦٠٩ ـ ٦٣٨ ـ ٦٤١.

رابعًا: الحَمَاسَة

ورد في صدر مخطوطة لديوان ابن المقرب عبارة «ديوان الإمام ابن المقرب الحماسي»[1]. ولو استقرأنا ديوان الشاعر بحثاً عن شعر الحماسة فيه لما وجدنا له في هذا الباب قصائد حماسية مستقلة، ولكننا سنجد بعض المقاطع والأبيات الحماسية متناثرة هنا وهناك بين الأغراض الأخرى كالمديح والشكوى والعتاب والفخر.

أما المديح فإننا نجد له بعض الأبيات التي تدخل في باب الحماسة حينما يتغنى ببطولة ممدوحه وبسالته ، فيذكر لنا معاركه وغزواته، ويعجب بشجاعته وإقدامه، فيرسم لنا صوراً تثير في نفوسنا الحماسة حتى لكأننا أمام ساحة الحرب نشاهد قتامها ومثار نقعها:

أَلِفَ الحُـرُوبَ جَـوادُهُ فَكَـأَنَّـهُ	مِنْ مَاءِ هَامَاتِ الفَوَارِسِ يَشْرَبُ
يَهْوِي انْقِضَاضاً في المَكرِّ كَمَا هَوَى	لِقَنِيصَةٍ حَجْنُ المَخَالِبِ أَشْهَبُ
مَـا صَبَّحَتْ دَاراً هَـوَادِي خَيْلِهِ	إلاّ وَقَـامَ المَـوتُ فيهـا يَخْـطُبُ
للهِ دَرُّكَ أيُّ فَـارِسِ نَـهْـمَـةٍ	واليومُ يَومٌ بـالجِيَادِ عَصَبْصَبُ[2]

كما نرى حماسته في المديح أيضاً حينما يثني على ممدوحه بمعان تهز الوجدان وتثير الإعجاب، وإن لم يكن ممدوحه في ساحات المعارك:

مِنْ مَعْشَرٍ بيضِ الوُجُـوهِ أَعِـزَّةٍ	سُمْـحٍ عَلَى العِلَّاتِ غَيـرِ لِئَامِ

---

(١) الديوان ص ١٣.

(٢) الديوان ص ٨٧. وحجن المخالب: مُعوَجُّها، والنهمة: بلوغ الهمة والشهوة في الشيء. والعصبصب: اليوم الشديد.

وَقِرَى النُّفُوسِ إذَا تَحَطَّمتِ القَنَا ... في الدَّارِعِينَ وَفَرَّ كُلُّ مُحَامِ
لا يَفْزَعُونَ إذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمُ ... إلاّ إلى الإسْرَاجِ والإلْجَامِ
وإذَا الرِّجَالُ تَحَلَّلَتْ آرَاؤُهَا ... كَانُوا وُلاةَ النَّقْضِ والإبْرَامِ
وإذَا السُّنُونُ تَتَابَعَتْ أَلْفَيتَهُمْ ... كَنْزَ العُفَاةِ وَكَافِلِي الأَيْتَامِ
مَلَكُوا الأَقَالِيمَ العِظَامَ وأَهْلَهَا ... بالمُرهَفَاتِ البِيضِ لَا الأَقْلَامِ
وَتَفَيَّحُوا كُلَّ البِلادِ وسُيِّرتْ ... أَخْبَارُهمْ في مَغْرِبٍ وشَآمِ[1]

وأما في الشكوى والعتاب فإننا نلمس حماسته فيها حينما يعلن الثورة على بني عمه، ويأبى الضيم والذل، ويستنهض همته وعزيمته لمجابهة الأخطار، معبراً عن هذه المعاني أصدق تعبير بكثير من الاعتزاز والإباء، وهو يجاهد نفسه ويغالبها بين الركون للظلم والهوان وبين التصدي لأعدائه والوقوف في وجوههم عزيز النفس مصون الكرامة:

عَدِمتَ رُشْدَكَ كَمْ نَومٍ عَلَى ضَمَدٍ ... قُلْ لِي أَمِنْ حَجَرٍ صُوِّرتَ أم بَشَرِ
يَا جَاثِماً لسِهَامِ الذُّلِ تَرْشُقُهُ ... مَا أنتَ إلاّ قَتِيلُ العَجْزِ والخَوَرِ
ثِبْ قَائِماً وارْكَبِ الأَخْطَارَ مُقْتَحِماً ... فإنَّما يَرْكَبُ الأَخْطَارَ ذُو الخَطَرِ
كَمْ ذَا انْتِظَارِي والأَنْفَاسُ في صَعَدٍ ... والظُّلْمُ في مَدَدٍ والعُمْرُ في قِصَرِ
عَلَى حُسَامِي وَعَزْمِي لا عَدِمْتُهُمَا ... وِرْدِي وَلَكِنْ عَلَى رَبِّ العُلاَ صَدَرِي
وكَيفَ أَرْهَبُ مَوتاً أو أخافُ رَدىً ... وَحَامِلُ المَيْتِ مَحْمُولٌ عَلَى الأَثَرِ
ولَستُ مِمَّن إذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ ... أَحَالَ عَجْزاً وإشْفَاقاً عَلَى القَدَرِ[2]

أما الفخر فإن حماسته فيه تتمثل بمعاني اعتزازه بشجاعته وعلو همته ، وإبائه وكبريائه ، وطموحه وتطلعه للمعالي، وتجلده وصبره، وامتناعه على النوائب والخطوب:

---

(١) الديوان ص ٥٠٢ . وعلى العِلاَّت: على كل حال من خير أو شر ، وَقِرَى النفوس: ملجؤها الذي تكرم فيه، والعفاة: طلاب المعروف، وتفيحوا: انتشروا وتوسعوا في البلاد.

(٢) الديوان ص ٢٤٠.

يَظُنُّ نُحُولِي ذُو السَّفَاهَةِ والغَبَا غَـرَاماً بِهِنـدٍ واشْتِيَاقـاً إلى دَعْدِ
وَلَمْ يَدْرِ أنِّي ماجِدٌ شَفَّ جِسْمَهُ لِقَـاءُ هُمُومٍ خَيلُهَـا أبَداً تُـرْدِي
قَلِيلُ الكَرَى ماضٍ عَلَى الهَولِ مُقْدِمٌ عَلَى اللَّيلِ والبَيْدَاءِ والحَرِّ والبَرْدِ
عَـدِمتُ فُؤَاداً لا يَبِيتُ وَهَمُّـهُ كِرامُ المَسَاعِي وارْتِقَاءُ إلى المَجْدِ
لَعَمْرِي ما دَعْدٌ بِهَمِّي وإن دَنَتْ وَلَا لِي بِهِندٍ من غَرامٍ وَلَا وَجْدِ
ولكِنَّ وَجْـدِي بالعُـلَا وَصَبَـابَتِي لِعَـارِفَةٍ أسْـدِي وَمَكْرُمَـةٍ أُجْـدِي
إلى كَمْ تَقَاضَانِي العُلا مَا وَعَدْتُها وغَيرُ رِضاً إنْجَازُكَ الوَعْدَ بالوَعْدِ[١]

ومن الطبيعي أن يمازج شعره الحماسي غرض الفخر، فقد ظهرت حماسته في هذا الغرض أكثر من ظهورها في الغرضين السابقين، لا من حيث كثرتها فيه فحسب، بل من حيث إشراقها وروعتها وتناسبها مع تطلعات الشاعر حينما يفتخر فتمتزج معاني فخاره بمعاني حماسته، ولا غرابة في ذلك فالحماسة كما يراها بعض الأدباء «لون فاقع من ألوان الفخر، فلو عَرَّينا أية قصيدة حماسية من الفخر لم يبق منها في أيدينا غير قعقعة السلاح وحمحمات الخيل»[٢].

ولو قرأنا مثالاً من حماسته المقترنة بفخره لرأينا كيف تلتحم المعاني في هذين اللونين حتى تشكل غرضاً يصعب الفصل بين أجزائه:

أَلَا فَسَـلْ أيُّهُمْ يُغنِي غَنَـايَ إذَا نَـارُ العَدُوِّ تَعَـالَى فَوقَهَـا الشَّرَرُ
وَمَنْ يَقُومُ مَقَـامِي يَـومَ مُعْضِلَةٍ لَا سَمْعُ يَبْقَى لِرَائِيهَـا وَلَا بَصَرُ
ومَن يَسُـدُّ مَكَانِي يَـومَ مَلْحَمَـةٍ إذَا الغَـزَالَةُ وَارَى نُـورَهَـا القَتَـرُ
إذَا نَـطَقْتُ فَـلَا لَغْـوٌ وَلَا هَـذَرٌ وإن سَكَتُّ فَـلَا عِيٌّ وَلَا حَصَرُ
إنِّي لأَعْجَبُ مِن قَومٍ رَأَوْا عَسَلاً ظُلْمِي وَأَسْوَغُ منهُ الصَّابُ والصَّبرُ

(١) الديوان ص ١٣٣.

(٢) شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة للدكتور زكي المحاسني ص ٣٢٩ دار المعارف بمصر ١٩٦١م.

أَيَــأْمَنُــونَ انْتِقَــامِي لاَ أَبَــالَهُمْ بِحيثُ لَيسَ لهُمْ من سَطْوَتِي وَزَرُ
إنِّي امْرُؤٌ إن كَشَرتُ النَّابَ عن غَضَبٍ لاَ الخَـطُّ يَمْنَعُ من بَأْسِي وَلاَ هَجَرُ
وكُلُّ ذِي خَطَرٍ في النَّاسِ مُحْتَقَرٌ عِنْدِي إذَا لَمْ يكُنْ لي عِندَهُ خَطَرُ
فَلْيَخْشَ بَأْسِي مَنْ طَالَتْ حَمَاقَتُهُ وَرُبَّ عَاجِلِ شَـرٍّ قَادَهُ أَشَـرُ[1]

إن الدارس لفنِّ الحماسة في العصر العباسي يجد أنه قد بلغ قمته على يد فئة من شعراء هذا اللون كالمتنبي وأبي تمام والشريف الرضي، ولكنه بقي بعدهم «يترواح بين التقليد والتأثر بالموروث الحماسي الضخم وبين نوع من الإبداع الذي يسعفه العنصر الذاتي والتجارب الأصلية»[2].

وكان ابن المقرب ممن تأثروا بهذا الموروث من شعر الحماسة دون أن يطغى تأثره هذا على إبداعه الذاتي، وصدوره عن تجربة حيَّةٍ أصبحت ينبوعاً من الينابيع التي ينهل منها حماسته كما نهل منها فخره وشكواه وعتابه. فقد أخذ ابن المقرب من أبي الطيب المتنبي المقدمة الحماسية لقصيدته، لكنّ أبا الطيب كان يبتدىء بعض قصائد المديح بالمطالع الحماسية متأثراً بأعمال ممدوحيه مثل سيف الدولة ومشاهدته لمعاركهم وحروبهم في ساحاتها وميادينها. أما ابن المقرب فلم يكن لصيقاً بأجواء المعارك والحروب، ولم تكن هي التي توحي إليه الابتداء بالحماسة. بل كانت مشاعره في الشكوى والعتاب وشعوره بالظلم والقسوة، هي التي تملي عليه الابتداء بهذه الروح الحماسية. يقول أبو الطيب المتنبي في مطلع إحدى قصائده:

لَا افْتِخَــارٌ إلاّ لِمَنْ لَا يُضَــامُ مُـدْرِكٌ أَوْ مُحَـارِبٌ لَا يَنَــامُ[3]

---

(١) الديوان ص ٢٣٦ والغزالة: الشمس، والأشَر: البَطَر.

(٢) الحماسة في شعر الشريف الرضي للأستاذ محمد جميل شلش ص ١٣٨ ـ منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهورية العراقية ١٩٧٤م.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٩٢/٤.

فيتابعه ابن المقرب فيقول في مطلع إحدى قصائده:

أَبَتْ لَكَ العزَّةُ القَعْسَاءُ والكَرَمُ   أَنْ تَقْبَلَ الضَّيمَ أو تَرْضَى بِمَا يَصِمُ[1]

كما يقول في مطلع أخرى:

لا عِزَّ إلَّا بِحَدِّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ   وضَرْبِكَ الصِّيدَ بَينَ الهَامِ والقَصَرِ[2]

ويقول أبو الطيب أيضاً في مطلع قصيدة أخرى:

مَا أَجْدَرَ الأَيَّامَ واللَّيَالِي   بِأَنْ تَقُولَ مَالَهُ وَمَالِي[3]

فيقلده ابن المقرب ويبتديء إحدى قصائده بقوله:

أَفِي كُلِّ يومٍ للخُطُوبِ أُصَالِي   أَلاَ مَا لِأَحْدَاثِ الزَّمَانِ وَمَالِي[4]

ويبتديء أخرى بقوله:

أَبَتْ نُوَبُ الأَيَّامِ إلاَ تَمَادِيَا   فَوَاشِقْوَتَا ما لِلَّيَالي ومَا لِيَا[5]

وإذا كانت المقدمة الحماسية عنصراً مهماً في حماسة الشريف الرضي أيضاً[6]، فإنها ظاهرة يتميز بها شعر ابن المقرب. ولعل التشابه في ظروف حياتهما هو الذي ترك أثره على ابتداء القصيد في شعرهما، فقد كان في طبع الأول «أنفه وكبرياء ونفور عن مواطن الهوان والذل، فإذا شعر بالأذى يأتيه متعمداً لجأ إلى العتاب، فإن لم يغن أعقبه بثورة لاهبة كما فعل في بائيته.........:

(١) الديوان ص ٥٢٠.

(٢) الديوان ص ٢٢٩.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٣/٣١١.

(٤) الديوان ص ٣٧٠.

(٥) الديوان ص ٦٥٧.

(٦) انظر الحماسة في شعر الشريف الرضي لمحمد جميل شلش ص ٢٠٧

إِلَى كَمْ لا تَلِينُ عَلَى العِتَـابِ   وأَنْـتَ أَصَمُّ عَـنْ رَدِّ الجَـوَاب
حِـذَارَكَ أن تُغَـالِبَنِي غِـلَابـاً   فـإِنِّي لا أُدِرُّ عَلَى الغِضَابِ»[1]

وهذه الطباع هي طباع ابن المقرب، وهذه الروح هي روحه حينما يعاتب بني عمه، حتى إذا يئس من استجابتهم ثار عليهم وعلى همومه وأحزانه وقد همَّ أن يمتشق الحسام:

إِلَى كَمْ مُنَاجَاةُ الهُمُوم العَوَازِبِ   وَحَتَّامَ تأْميلُ الظُّنُـونِ الكَوَاذِبِ
أَمَا حَانَ لِلْعَضْبِ اليَمَانِيِّ أَنْ يُرَى   بِيُمْنَاكَ كَالْمِخْرَاقِ في كَفِّ لَاعِبِ[2]

ومثلما كان الشريف الرضي يحس بالألم والحرمان حين سُجن أبوه وصودرت أمواله وحُرم من رعايته وعطفه[3]، فقد كان ابن المقرب يشعر بمثل ذلك حين سجن وصودرت أمواله وأملاكه.

ولما كانت علاقة الشريف الرضي بالخلفاء والوزراء يشوبها الشك والفتور والجفوة أحياناً وقد عَرفَ طبائع معاصريه من كيد وغدر في سبيل الوصول إلى المنصب والجاه[4]، فإن علاقة ابن المقرب ببني عمه أمراء الدولة العيونية كانت بين مدٍّ وجزرٍ ووفاقٍ وخصام، وقد عرف من بعضهم المماطلة والمهادنة والوعود الكاذبة. فإذا رفض الشريف الرضي واقعه بإباء وشمم وصبر وجلد قائلا في مطلع إحدى قصائده:

إبَـاءٌ أَقَـامَ الـدَّهْـرَ عَنِّي وأَقْعَـدَا   وَصَبْرٌ عَلَى الأَيَّام أَنْأَى وأَبْعَدَا[5]

فإن ابن المقرب يبدأ إحدى قصائده بمثل هذا الحديث عن الدهر يقارعه ويحاربه وقد ثار على مجتمعه وقومه وصورة السيف لا تفارقه:

أَبِى الدَّهْرُ أن يَلْقَاكَ إلاَّ مُحَارِبَا   فَجَرِّدْ لَهُ سَيفاً من العَزْمِ قَاضِبَا[6]

(١) المصدر السابق ص ١٥٥
(٢) الديوان ص ٦٤ . والعوازب: البعيدة، والمخراق: المنديل يلف للضرب به واللعب.
(٣) انظر ديوان الشريف الرضي بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو ص ١٩ الطبعة الأولى ١٩٧٧ م.
(٤) انظر المصدر السابق ص ٤٢ و ١١٦
(٥) المصدر السابق ص ٣٠٦
(٦) الديوان ص ٣٥

ويبدأ أخرى بمعنىً قريب من ذلك أيضاً وهو يصافح العز والشرف، وكأنه يهدد الأمراء والملوك:

العِزُّ ما خَضَعَتْ لِهَيْبَتِهِ العِدَى وَأَقَامَ بالفِكْرِ المُلُوكَ وَأَقْعَدَا(١)

وإذا راح الشريف الرضي يهدد ويتوعد، ويلهب نفسه بالحماسة مدافعاً عن سلطان الطائع لله بقوله:

فَلستُ ابْنَ أُمِّ الخَيلِ إنْ لَمْ أُعُدْ بِهَا عَوابِسَ تَأْبَى الضَّيمَ مِثْلَ إبَائِي(٢)

فإن ابن المقرب يتصدى للدفاع عن قومه، ويرى أن الوقت قد حان لقيامه بأمر عشيرته مهدِّداً متوعِّدا بقوله:

فَلَسْتُ ابْنَ أُمِّ المَجْدِ إن لَمْ أَقُمْ بِهَا مَقَاوِمَ تُبْدِي لَلرزايا مَكَانِيَا(٣)

وقوله:

فَلستُ ابْنَ أُمِّ المَجْد إن لَمْ تَزُرْكُمُ مُسَوَّمَةً بينَ القَنَا والقَوَاضِبِ(٤)

ولم يكن تأثر ابن المقرب في حماسته مقتصراً على شعراء العصر العباسي، بل إنك لتراه يردد بعض معاني الشعراء في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام وبخاصة تلك المعاني التي تتعلق بحياته في تطلعه إلى المجد والسيادة وطموحه إلى الشرف والرئاسة، حيث تجد هذه المعاني صداها في نفسه، فتشده إلى التغني بها، وتبث في جوانحه روح الحماسة:

لأَطْلُبَنَّ العُلاَ جَهْدِي طِلاَبَ فتىً يَدُوسُ بالعَزْمِ هَامَ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ
فإنْ أَنَلْ فَبِسَعْيِي ما أَتيتُ بِهِ بْدْعاً وإلاّ فَقَدْ أَعْذَرْتُ في الطَّلَبِ(٥)

---

(١) الديوان ص ١٦٧

(٢) ديوان الشريف الرضي ص ٧٤

(٣) الديوان ص ٦٦٠ ورواية الديوان (للردايا) وهي جمع ردية ولا معنى لها هنا

(٤) الديوان ص ٧٢

(٥) الديوان ص ٧٧

فكأنه يردد المعنى الذي يعنيه أمرؤ القيس حينما قال:

بَكَى صَاحِبي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وأيْقَنَ أنَّـا لَاحِقَـانِ بقَيْصَـرَا
فَقُلتُ لَـهُ لا تَبْكِ عَينُـكَ إنَّمَـا ... نحاول مُلْكاً أو نَمُوتُ فَنُعْذَرَا(1)

ويظل ابن المقرب يكرر هذه المعنى الحماسي بمثل قوله:

سَـأُرْحِلُهَـا مُـجَـلَّلَةً بِـعَـزْمٍ ... إذَا يُدْعَى: هَلاَ، وَهَبِ تَمَادَى
وأُقْحِمُهَـا المَهَالِـكَ لا أُبَالِي ... أَغَيّـاً كَـانَ ذَلِـكَ أَمْ رَشَـادَا
فَفِي عُرْضِ البَسِيطَةِ لي مَجَالٌ ... إذَا مُتَـأَجِّمٌ أَلِـفَ الـوِسَـادَا
فـإن أُدْرِكْ مُنَايَ فَكَمْ هُمَـام ... أَفَادَ المَجدَ أَنْ جَابَ البِلاَدَا
وإنْ أَهْلَكْ فَقَـدْ أَبْلَيتُ عُـذْراً ... أَقُـومُ بِـهِ وَلَمْ آلُ اجْتِهَـادَا(2)

وإنك لتقرأ شعراً حماسياً قوياً لابن المقرب كقوله:

رِدِي مُرَّ الحُتُوفِ وَلَا تُـرَاعِي ... فَمَـا خَـوفُ المَنِيَّةِ من طِبَـاعِي
وَمَـنْ هَـابَ المَـنِيَّـةَ أَدْرَكَـتْـهُ ... وَمَـاتَ أَذَلَّ مِنْ فَقْـعٍ بِقَـاعِ(3)

فتدرك لأول وهلة تأثره برائعة قطري بن الفجاءة التي يقول فيها:

أَقُـولُ لَهَا وقـد طَـارَتْ شعَـاعـاً ... من الأَبْـطَالِ وَيْحَكِ لَنْ تُـرَاعِي
فـإنَّـكِ لـو سَـأَلتِ بَقَـاءَ يومٍ ... عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَنْ تُطَاعِي (4)

وإن تأثر ابن المقرب في حماسته بسابقيه لم يحُلْ ـ كما قلنا ـ دون إبداعه الذاتي في صياغة معانيه النابعة من تجربته ومعاناته الشخصية، بديباجة مشرقة وأسلوب رائع وُفِّق الشاعر فيه إلى اختيار موسيقاه الشعرية التي تحكي ترقبه وتحفزه

---

(1) ديوان امرىء القيس ص ٦٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .

(2) الديوان ص ١٨٤ . وسأرحلها : يعني راحلته ، وهَلاَ ، وهبٍ : زجر للخيل وتمادى : أي في الإسراع ، والمتأجم : من يسكن الآجام وهي الشجر الكثير الملتفّ .

(3) الديوان ص ٢٦٦ . والفقع : الكمأة البيضاء الرخوة ، أي أنها لا تمتنع على من يطأها برجله .

(4) ديوان الحماسة لأبي تمام ص ٢٤

لنيل بغيته وتحقيق مُنيته بمثل هذا الجرس الموسيقي الحماسي :

تُخَوِّفُنِي ابْنَةُ العَبْدِيِّ حَتْفِي ... وإقْحَامِي المَهَالِكَ وافْتِراعي
وَتَعْذِلُنِي على إنْفَاقِ مَالِي ... وَتَزْعُمُ أنه لِلْفَقْرِ دَاعِ
فقُلتُ لَهَا وقَدْ أرْبَتْ وَزَادَتْ ... رُوَيدَكِ لا شَقِيتِ فَلَنْ تُطَاعِي
أأَحْفِلُ بالفِرَاقِ وكُلُّ شِعْبٍ ... تُصَيِّرُهُ المَنُونُ إلى انْصِدَاعِ
وأرْهَبُ أنْ أمُوتَ وكُلُّ حَيٍّ ... سَيَنْعَاهُ إلى الأَقْوَامِ نَاعِ
وأَخْشَى الفَقْرَ والدُّنْيَا مَتَاعٌ ... وَرَبِّي بالكِرَامِ أَبَرُّ رَاعِ
دَعِينِي أرْكَبُ الأَهْوَالَ إنِّي ... رأيتُ رُكُوبَهَا فِيهِ اتِّدَاعِي[1]

إن طموح ابن المقرب وتطلعه إلى معالي الأمور هو مظهر من مظاهر حماسته، ولم يكن يتوقف عند رغبته الظهور بمظهر السخي الكريم أو من لا يُرهِبه الموت فحسب كما في الأبيات السابقة. بل يتعداه إلى تطلعه إلى الزعامة والرئاسة وقيادة قومه والتصدي لأعدائهم، وقد رأيناه وهو يعاتب قومه ويسدي إليهم النصح ولا يمل من تحذيرهم وتنبيههم إلى الخطر المحدق بهم، يستنهض هممهم وغيرتهم، ويستثير عزائمهم وحماستهم :

وَلَو قَبِلَتْ نُصْحِي وأَصْغَتْ لِدَعْوَتِي ... وأَنْجَحُ فَاشِي دَعْوَةٍ مُسْتَجَابُهَا
لَدَاوَيتُ كَلْمَاهَا وأَبْرأْتُ دَاءَهَا ... فَلَمْ يَتَحَلَّمْ بَعدَ صحٍّ إهَابُهَا
وَقُدْتُ إلى الَّيثِ السَّبَنْدَى وَلَم أَنَمْ ... عَلَى الغَمْرِ حَتَّى يَصْحَبَ الغِيلَ لأمُهَا
ولكِنْ لأمْرٍ أَخَّرُونِي وَقَدَّمُوا ... زَعَانِفَ لا يَنهَى العَدُوَّ احْتِسَابُها
تُصِيبُ وَمَا تَدْرِي، وتُخْطِي وَمَادَرَتْ ... وَتَغْدُو وفي حَبْلِ العَدُوِّ احْتِطَابُهَا
فَيَا صَفْقَةَ الخُسْرَانِ فيمَا تَبَدَّلُوا ... وَهَلْ يَتَسَاوَى تِبْرُهَا وتُرَابُهَا
وَهَلْ قِيسَتِ الخَيلُ العِرَابُ بِعَانَةٍ ... كُدَادِيَّةٍ لا يَلْحَقُ الضَّبَّ جَابُهَا[2]

---

(١) الديوان ص ٢٦٧ . والاتِّداع : السكون والاستقرار .

(٢) الديوان ص ٤٥ ، ويتحلَّم : من الحَلَم وهو دود يصيب الجلود ويذهب إذا دُبغت ، والسبندَى : الطويل والجريء ، والغمر : الماء الكثير ، واللام : جمع لأمة وهي الدرع ، والعانة : القطيع من أُتُن الوحش ، والكُدَادِيّة : نسبة إلى كُداد وهو فحل تنسب إليه الحُمُر .

ويهدد أحياناً بدعوة أنصاره وأعوانه ليشهدوا اليوم الذي سيلاقي في أعداءه:

وَلَـوْ شِئْتُ كُنتُ المُدَارَى لأنَّني أَصُـولُ بأَيْـدٍ في الأَنَام طِـوَالِ
إذَا شِئتُ لَبَّى دَعْوَتي كُلُّ ماجِدٍ يُعَـدُّ لَيَـومَي نَـائِـلٍ وَنِـزَالِ[1]

وهكذا كان ابن المقرب يتطلع إلى قيادة عشيرته وزعامتها، ولعل ذلك كان في فترة الصراع الذي دب بين أبناء عمه، حينما رأى الحكم يوكل إلى بعض الأمراء الضعاف العاجزين كالأمير محمد بن مسعود[2]. وما هذه الأمثلة من شعر الحماسة إلا فيض لمشاعر حب السلطة المتوقدة في نفسه، وهو وإن كان كثيراً ما يلمّح إلى آماله تلميحاً إلا أنه يصرح بها أحياناً:

فقُومُوا بِعَـزْمٍ واجْعَلُونِي مُقَدَّمـاً فأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُرَصَّعْ حَمَائِلُهْ[3]

ويتمنى أن يأتي اليوم الذي يرى بيه قومُه حصافته وسداد رأيه، حين تجرب فيه قوة احتماله للشدائد وحسن تدبيره لعشيرته:

أَلَا لَيتَ شِعْري مَنْ يَقُومُ لِمَجْدِهَا مَقَامِي وَيرْعَى مَالَهَا كُنتُ رَاعِيَـا
لَعَمْري لَقَدْ أَرْذَتْ جَواداً وضَعْضَعَتْ عِماداً إذَا ما الهَولُ أَلْقَى المَرَاسِيَا
أَمَا جَرَّبَتْنِي في الأُمُورِ فَصَادَفَتْ هُمَاماً لأَحْـدَاثِ المُهِمَّاتِ كَـافِيَا
حَمُـولاً لأَثْقَـالِ العَشِيـرَةِ رَائِحـاً مَدَى الدَّهْرِ فيما قَدْ عَنَاهَا وغَادِيَا[4]

ولقد كان الشاعر صريحاً في إيضاح تطلعاته وآماله هذه بما لا يدع مجالا للشك في تطلعه إلى الإمارة والسيادة كما يبوح بذلك في هذه الأبيات التي تفيض حماسة وإقداماً:

وَمَا أَعْجَبَتْنِي دَارُ ذُلٍّ وإنْ غَدَتْ مَنَازِلَ قَومِي والأَكَارِمِ من أَهْلِي

---

(١) الديوان ص ٣٧٣ .
(٢) انظر ما تقدم ص ٧٣
(٣) الديوان ص ٣٣٩
(٤) الديوان ص ٦٥٧ وأَرْذَتْ : أضعفت

وَلٰكِنَّنِي حَاوَلْتُ ما إنْ أَتَمَّهُ لِيَ اللهُ لَمْ أَحْفِلْ بِمَحْلٍ وَلاَ مَغْلِ
وَقُلْتُ عَسَى يوماً كيومٍ شَهِدْتُهُ قَدِيماً لِكَيمَا يَلْحَقَ الشُّومُ بالثُّكْلِ
أَكُونُ بِهِ قُطْبَ الرَّحَى وَمُدِيرَهَا بعَزمٍ عَلَى أَهْلِ الضَّلاَلَهِ والجَهْلِ[1]

إن ظروف حياة ابن المقرب وما لقيه من ظلم وحرمان على أيدي بني عمه، ثم ما لقيه منهم أيضاً من إعراض وجفاء وهو يرى أحقيَّته بالحظوة عندهم وجدارته بالتقدير والاحترام، كل ذلك ترك أثره في نفسه سخطاً وغضباً وتبرُّما بواقعه الأليم، حتى تحولت بعض مدائحه لبني عمه إلى عتاب قاس، ثم إلى تهديد ووعيد يأخذ أحياناً شكلا حماسياً حينما تجيش في نفسه الأحزان، فيترك المقدمات التقليدية التي اعتاد الشعراء الابتداء بها من وصف الطريق إلى ممدوحيهم أو الحديث عن الأطلال والدِّمَن في غزلهم إلى مقدمة حماسية ترى فيها الاعتزاز والإباء، وتسمع بين أبياتها صهيل الخيل وضربات السيوف، وتتخيل أنصاره وأعوانه وقد لبوا نداءه وأحاطوا به من كل جانب كما في قوله وهو يبتدىء قصيدة يمدح بها ابن عمه الأمير علي بن ماجد بن محمد:

ذَرِينِي فَضَرباً بالمُهَنَّدَةِ البُتْرِ وَلاَ لَومَ مِثْلِي يَا أُمَيْمُ عَلَى وَتْرِ
فَقَدْ كُنتُ آبي الضَّيمَ إذْ لَيسَ نَاصِرٌ سِوَى عَزْمَتِي والعِيسِ والمَهْمَهِ القَفْرِ
فَكَيفَ أُقِرُّ اليومَ ضَيماً ونَاصِرِي عَدِيدُ الحَصَى ما بينَ بُصْرَى إلى مِصْرِ
إذَا مادَعَوتُ آبْنَي نِزَارٍ أَجَابَنِي كَتَائِبُ أَنْكَى في العِدَى مِن يَدِ الدَّهْرِ
تَدَاعَى إلى صَوتِ المُنَادِي تَداعِياً كَدُفَّاعِ مَوجٍ جاء في المَدِّ لَلْجَزْرِ
عَلَى كُلِّ ذَيَّالٍ وَجَرْدَاءَ شِطْبَةٍ تَجِيءُ كَسَيلٍ يَلْطِمُ الطَّلْحَ بالسِّدْرِ[2]

(١) الديوان ص ٣٢٢ ، والمَحْل : الأرض إذا أجدبت والسنة إذا شحَّ فيها المطر ، والمغْل : اللبن يَرضَعُه الطفل من أمه الحامل .

(٢) الديوان ص ١٩٨ . وبُصرى : موضعان : أحدهما بالشام في منطقة حوران وهي التي وصل إليها الرسول ﷺ قبل البعثة ، والثاني من قرى بغداد ، والذيال : طويل الذيل ، والشِّطبة : الفرس السبطة اللحم .

ثم يتابع حديثه عن الخيل ويخرج منه إلى مديح ابن عمه وهو لا يزال محافظاً على تلك الروح الحماسية التي بدأ بها قصيدته.

تلك لوحات من حماسة ابن المقرب. وقد رأينا كيف بدت جزءاً من الصور التي يرسمها في مديحه وشكواه وعتابه وفخره دون أن تأخذ شكل المنظر المستقل بأبعاده وإطاره العام. ولو بحثنا عن الحماسة في أغراض شعره الأخرى لما وجدنا منها إلا النادرَ اليسير كقوله في معرض هجائه لأعدائه يعرِّض بهم ويهددهم:

فَوَا أَسَفا إن مِتُّ لَمْ أُوْطِ أَرضَكُمْ كَتَائِبَ خَيلٍ تَهْتَدِي بكَتَائِبِ
تُريكُمْ نُجُومَ اللَّيلِ ظُهْراً إذَا بَدَتْ تُكَدِّسُ في لَيلٍ مِنَ النَّقْعِ ضَارِبِ
بكُلِّ فَتىً أَمْضَى من السَّيفِ عَزْمُهُ إذَا اعْتَرَكَتْ والسَّيفُ عَضْبُ المَضَارِبِ
بِطَعْنٍ يُنَسِّي الكَلبَ مِنكُم هَرِيرَهُ وَيتـرُكهُ يَضْغُـو ضُغَـاءَ الثَّعَـالِب
وَضرْبٍ يَقُولُ الأَحْمَقُ البَلْعُ عندَهُ أَلَا لَيتَنِي بالدَّوِّ بعضُ الأَرَانِبِ (١)

وهي كما نرى أبيات ليست بعيدة عن أجواء الفخر التي تحيط بحماسته في كثير من الأحيان وإن كانت قد وردت في سياق الهجاء.

---

(١) الديوان ص ٧٢. والضغاء: صياح الذليل، والبلع: الرجل كأنه يبتلع الكلام، والدّوّ: البرية، وتكدس: تسرع، والعضب: القاطع.

خامسًا: الحكمة

تنبع الحكمة في شعر ابن المقرب من واقع تجاربه في الحياة، وما لقيه من اضطهاد وظلم، مع ما يرفد هذه التجارب من ثقافته التي استمدها من اطلاعه على تجارب الأقدمين، ونتاج سابقيه من الشعراء.

ومعظم الحكم التي يصوغها في شعره هي تلك الحكم التي يصور بها ما حدث من قطيعة بينه وبين بني عمه، حتى إذا صدرت عنه وجد فيها السامع حرارة الصدق، ورأى القاريء بين كلماتها خلاصة فكره وتجاربه، وكأنه يروي قصة حياته بالحكمة المقنعة، فقد كان يؤلمه أن يرى قومه يسترضون أعداءهم بالإساءة إلى أقاربهم، ويعجب لتصرفات بعض أمرائهم حينما يبعدونه ويُعرضون عنه، ثم يقرّبون أعداءه ويدنونهم، فيحذرهم من مغبة أعمالهم وقطع أرحامهم:

وَلَا تَتَوَهَّمْ أَنَّ إِكْرَامَكَ العِدَى سَخَاءٌ وأَنَّ العِزَّ ضَيمُ الآقَارِبِ
لَعَمْرُكَ مَا عَزَّ امْرُؤٌ ذَلَّ قَومُهُ وَلَا جَادَ مَنْ أَعْطَى عَطِيَّةَ رَاهِبِ[1]

إن هؤلاء الذين نعموا بالحظوة عند بني عمه ليسوا في نظر الشاعر إلا كلاباً شرهة تبحث عن الماء والطعام. أمّا أولئك الذين أبعدوا ولحقت بهم الإهانة وحرموا حقوقهم - وهو منهم - فهم الليوث الأشاوس:

لَا عَزَّ قَومٌ يَعِيشُ الكَلْبُ ذَا بَغَرٍ مَا بَينَهُمْ ويَمُوتُ اللَّيثُ عَطْشَانَا[2]

وهو يرى أيضاً أن هؤلاء النفر الذين انخدع بهم بنو عمه كالبقر الشِّباع، أما هو

(١) الديوان ص ٦٦.

(٢) الديوان ص ٦٠٧ والبَغَر: كثرة شرب الماء.

وأمثاله فأسُودٌ جائعة تظل تهدد تلك البقر التي وَجدتْ لها مرعى خصباً في أرضه ووطنه. ويرسم هذا المعنى الذي يجسد محنته بين قومه بالحكمة الرائعة:

فــإنَّ بِـأرضِنَـا بَقَــراً شِبَـاعــاً ... ولـكِـنْ بَـيـنَ آسَـادٍ جِـيَـاع
وَهَلْ يَهْنَا البَهِيمَةَ خِصْبُ مَرْعىً ... إذَا ما آنستْ صَوْتَ السِّبَاعِ[1].

لكن نفسه الأبية لا تصبر على هذا المقام الذليل وقد عافت ذلك المرعى المخوف:

أَوَ لَيسَ جَهْلاً أَنْ تُسِيمَ بِمَرْتَعٍ ... أَكَلَتْ بِهِ المِعْزَى لُحُومَ رُعَاتِهَا[2]

وأمام هذا الواقع المؤلم الذي يراه الشاعر ماثلاً في تصرفات بني عمه وسوء تدبيرهم فإنه لا يكف عن نصحهم وإرشادهم، يخوِّفهم من شر المنقلب وسوء المصير، وقد صاغ هذه النصائح في قوالب من الموعظة الحسنة والحكمة البالغة:

وَمَنْ يُعْطِ خَصْماً دِرْعَهُ وَحُسَامَهُ ... وَسَـابِقَـهُ فَلْيَلْبَسِ الـذُّلَّ مُشْمَـلاَ
وَمَنْ مَلَّكَ الأَعْدَاءَ تَدْبِيرَ أَمْرِهِ ... فَذَاكَ الَّذِي يُدْعَى العَدِيمَ المُثَكَّلاَ
وَمَنْ رَامَ طُولَ العُمْرِ بالذُّلِّ والغنَا ... رَأَى المَوتَ مَرْأىً عَاجِلاً وَمُؤَجَّلاَ
وَمَنْ لَمْ تَكُنْ أَنْصَارُهُ مِنْ رِجَالِهِ ... أُخِيفَ وأَضْحَى بالجِنَايَاتِ مُسْبَلاَ
وَمَنْ لاَنَ يوماً لِلعِدَى هَانَ واصْطَلَى ... عَلَى الكُرْهِ من نِيْرَانِهَا شَرَّ مُصْطَلَى
وَمَنْ لَمْ يُقَـدِّمْ لِـلأُمُـورِ مُقَـدَّماً ... أَضَاعَ وَأَبْدَى لِلْمُـرَامِينَ مَقْتَلاَ[3]

ولما أصر بنو عمه على هجره وقلاه، وتمادوا في إبعاده والإعراض عنه لم يجد عزاءه وسلوته إلا في الرحيل والغربة كما رأيناه يكثر الحديث عن ذلك في شكواه

(1) الديوان ص ٢٦٨.

(2) الديوان ص ١٠٥.

(3) الديوان ص ٣٦٩.

وعتابه.[1] ولم تكن الحكمة الصادقة لتنفصل عن هذا الحديث، بل إنها لتمزج به وتكمل صورته حينما يقدمها برهاناً على صدق مشاعره وعظم مصيبته:

وَأَقُولُ إنَّ الأُسْدَ إنْ هِيَ أُحْرِجَتْ ... خَرَجَتْ إلى الإصْحَارِ من غَابَاتِهَا
والغَبْنُ يُوطِي الحُرَّ كُلَّ عَظِيمَةٍ ... وَيُفَتِّشُ الحُلَمَاء عَنْ إحْنَاتِهَا[2]

فَلِلْحُرِّ عَنْ دَارِ الهَوَانِ مُرَاغَمٌ ... وذُو سَفَهٍ إن شُجَّ بالدَّارِ آنِحُ
وَمَا كُلُّ دَارٍ شِمْتُهَا دَارُ شِقْوَةٍ ... يُبَاكِرُ مَنْ فِيهَا الأَذَى وَيُرَاوِحُ
وَفِي تَعَبِ الأَعْضَاءِ للقَلْبِ راحةٌ ... وَلاَ تَصْلُحُ الأَعْضَاءُ والقَلْبُ رَازِحُ[3]

وَمِنَ الشَّقَاءِ إقَامَتِي في بَلْدَةٍ ... للهِ جَدُّ عَدُوِّهَا ما أَسْعَدَا
ما بَينَ قَومٍ لا يُصَانُ لِجَارِهِمْ ... عِرضٌ ولا يُرْجَى لِغَيِّهِمُ هُدَى[4]

أَمَا عَلِمتَ بأَنَّ العَجْزَ مَجْلَبَةٌ ... لِلذُّلِّ والقُلِّ مَالَمْ يَغْلِبِ القَدَرُ
وَلَيسَ تَدْفَعُ عن حيٍّ مَنِيَّتَهُ ... إذَا أَتَتَ عُوذُ الرَّاقِي وَلاَ النُّشُرُ
وَلاَ يُجَلِّي الهُمُومَ الطَّارِقَاتِ سِوَى ... نَصُّ النَّجَائِبِ والرَّوْحَاتُ والبُكَرُ[5]

إن حكمة ابن المقرب في هذه الأبيات وغيرها وإن كانت مستمدة من واقع الحال الذي يعيشه وصادرة عن تجاربه القاسية في الحياة فهي ليست بعيدة عن تجارب سابقيه وما تعارف عليه الناس منذ القدم من معاني الإباء والشمم وعزة النفس، ولكنه يعطيها من أسلوبه وطريقته وروحه وعاطفته ما يصبغها بصبغة خاصة حتى لكأنها تطرق أذن السامع لأول مرة وذلك كقوله:

أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ المُقِلَّ يَمُجُّهُ ... أَخُو الرَّحِمِ القُربَى وتَبْدُو مَعَايِبُهْ

---

(١) انظر ما تقدم ص ٢١٤.

(٢) الديوان ص ١١٤. والإصحار: من أصحر إذا برز للصحراء.

(٣) الديوان ص ١٢٤. وشِمتُها قصدتها، وآنِح: زحر من ثقلٍ يجده.

(٤) الديوان ص ١٦٩.

(٥) الديوان ص ٢٣٤. والنشرة: رقية يعالج بها المريض والمجنون، والنص: السوق.

إذَا المَرءُ لم يَمْلِكْ مِنَ المَالِ ثَرْوَةً ... رَمَتْهُ عِدَاهُ واجْتَوَتْهُ أَقَارِبُهْ
وَمَن يَجْعَلِ العَجْزَ المَطِيَّةَ لَمْ يَزَلْ ... يَمُرُّ عليهِ الدَّهْرُ والفَقْرُ صَاحِبُهْ
فَقُمْ وارْكَبِ الأَهْوَالَ جِدّاً فَطالَمَا ... أَفَادَ الغِنَى بالمَرْكَبِ الصَّعْبِ رَاكِبُه
فَمَا يَقطَعُ الصَّمْصَامُ إلا إذَا انْتَحى ... عَنِ الغِمْدِ لَوْ كَانَتْ حِدَاداً مَضَارِبُهْ
وَمَا دَامَ لَيثُ الغَابِ في الغَابِ كَامِناً ... فَإِنَّ حَرَاماً أنْ تُدَمَّى مَخَالِبُهْ
كَذَا البَدْرُ لَولاَ سَيرُهُ وانْتِقَالُهْ ... عَنِ النَّقْصِ لاسْتَعْلَتْ عليهِ كَوَاكِبُهْ(١)

وإن حكمة ابن المقرب لتأخذ أسلوبها المستقل وصورتها الفريدة ليس من خلال هذه المعاني العامة القديمة التي صبغها بصبغته الخاصة وألبسها أثواباً جديدة. بل من خلال عقله المستنير وفكره المتوقد حين يُعمِله في استنباط بعض معاني الحياة من واقع البيئة المحيطة به، وهو يرى فيها القوي والضعيف والعزيز والذليل من الناس والطير والحيوان، فيصوغها حكماً صادقة يوجهها إلى ابن عمه الذي فرَّط في واجبات عشيرته:

واعْلَمْ بأَنَّ النَّسْرَ يَسْقُطُ رِيشُهُ ... حِيناً فيُقْعِدُهُ عَنِ الطَّيَرَانِ
والصَّعْوَ يُنْهِضُهُ وُفُورُ جَنَاحِهِ ... حَتَّى يَحُوزَ مَوَاكِنَ الغِرْبَانِ
والدَّوْحَةَ القَنْوَاءَ أَشْيَنُ ما تُرَى ... مَعْضُودَةً وتَزِينُ بالأَغْصَانِ
واحْذَرْ أُصَيْحَابَ النَّصَائِحِ واحْتَرِسْ ... مِنهُمْ فَكُلُّهُمُ أَخُو كَيْسَانِ
لا تَحْسَبَنَّ الكَلْبَ يَوماً دَافِعاً ... بالنَّبْحِ صَولَةَ ضَيْغَمٍ غَضْبَانِ
فَثَعَالِبُ الدَّهْنَا لَوِ اجْتَمَعَتْ لَمَا ... مَنَعَتْ طَلاً بالجَوِّ من سِرْحَانِ(٢)

لقد غدت تجاربه الثرّة في الحياة منبعاً للحكمة يبتدعها ابتداعاً، ويفتخر بما يصدر عنه من هذه الحكم إنشاءً. وإنك لتقرأ له أبياتاً متتالية في الحكمة فتعجب من

---

(١) الديوان ص ٥٣.

(٢) الديوان ص ٦٤١. والموكن: جمع موكن وهو عش الطائر، ويروى البيت (مواكر الغربان) والقنواء: الكثيرة الشجر المتفرقة الأغصان، وكيسان: اسم للغدر، والطلا: ولد الظبي وقت ولادته.

طول نَفَسه فيها مع محافظته على قوتها وجدتها وبراعته في تضمينها ما يكسبها القدرة على إقناع سامعها بالفكرة التي يذهب إليها الشاعر أو الرأي الذي يراه كما في قصيدته الطويلة في الفخر بآبائه وأهل بيته وقد جعل الحكمة مدخلاً للفخر:

قُمْ فاشْدُدِ العِيسَ لِلترحَالِ مُعتزماً ... وَارْمِ الفِجَاجَ بِهَا فالخَطْبُ قَدْ فَقِمَا
وَلَا تَلَفَّتْ إلى أَهْلٍ ولا وَطَنٍ ... فَالحُرُّ يَرحَلُ عن دَارِ الأَذَى كَرَمَا
كَمْ رِحْلَةٍ وَهَبَتْ عِزّاً تَدِينُ لَهُ ... شَوسُ الرِّجَالِ وَكَمْ قَدْ أَوْرَثَت نِعَمَا
وَكَمْ إقَامَةِ مَغْرُورٍ لَهُ جَلَبَتْ ... حَتفاً وسَاقَتْ إلى سَاحَاتِه النِّقَمَا
واسْمَعْ وَلَا تُلْغِ ما أَنْشَأْتُ من حِكَمٍ ... فَذُو الحِجَا لَمْ يَزَلْ يَسْتَنْبِطُ الحِكَمَا
لَمْ يَبْكِ مَنْ رَمِدَتْ عَينَاهُ أَوْسُبِلَتْ ... جَفْنَاهُ إلّا لِخَوفٍ من حُدُوثِ عَمَى
وَمَنْ رَأَى الضَّيمَ عَاراً لم تَمُرَّ بِهِ ... شَرَارَةٌ مِنهُ إلا خَالَهَا أُطُمَا
وكُلُّ مَجْدٍ إذَا لَمْ يُبْنَ مَحْتِدُهُ ... بالبَأْسِ نَقَّرَهُ الأَعْدَاءُ فَانْهَدَمَا
لا يَضْبِطُ الأَمْرَ مَنْ عُودِهِ خَوَرُ ... لَيسَ البُغَاثُ يُسَاوِي أَجْدَلاً قِطِمَا
ولِلْبُيُوتِ سِطَاعَاتٌ تَقُومُ بِهَا ... لا خِرْوَعاً جُعِلَتْ يوماً ولا عَنَمَا
ما كُلُّ سَاعٍ إلى العَلْيَاءِ يُدْرِكُهَا ... مَنْ حَكَّمَ السَّيفَ في أعدَائِهِ حَكَمَا
مَنْ أَرْعَفَ السَّيفَ من هَامِ العِدَى غَضَباً ... لِلمَجْدِ حُقَّ لَهُ أنْ يُرْعِفَ القَلَمَا
لا تَطْلُبِ الرَّأْيَ إلّا من أَخِي ثِقَةٍ ... لا يُصْدِرُ القومَ مِن لا يُورِدُ العَلَمَا
وَلَا يُعَدُّ كَرِيماً مَنْ مَوَاهِبُهُ ... تُمْسِي وتُصْبِحُ في أَعْدَائِهِ دِيَمَا
مَن اسْتَخَفَّ بِأَرْبَابِ العُلَا سَفَهاً ... وَسَامَهَا الخَسْفَ أَدْمَى كَفَّهُ نَدَمَا
أَلَا فَسَلْ عن كُلَيْبٍ كَيفَ جَدَّلَهُ ... جَسَّاسُ هَلْ كَانَ إلّا أن حَمَى فَرَمَى
وَلَا يَعِزُّ الفَتَى إلّا بِأُسْرَتِهِ ... لَوْ كَانَ في البَأْسِ عَمْراً والنَّدَى هَرِمَا
لَا تَرضَ بالهُونِ في خِلٍّ تُعَاشِرُهُ ... فَلَنْ تَرَى غَيرَ جَارِ الذُّلِّ مُهْتَضَمَا
وأَخْسَرُ النَّاسِ سَعْياً رَبُّ مَمْلَكَةٍ ... أَطَاعَ في أَمْرِهِ النِّسْوَانَ والخَدَمَا(١)

---

(١) الديوان ص ٥٢٦. وشُوسُ الرجال: المتكبرون منهم، والأُطُم: من الأطيمة وهي موقدة النار، وقد ورد البيت الثامن في الديوان هكذا: باليأس نقّره الأعداء والأنسب للمعنى (بالبأس)، =

إن حكمة ابن المقرب في هذه الأبيات نابعة بشكلها العام من تجربته الخاصة في الحياة. وهي توحي بمقدار الظلم والاضطهاد الذي تعرض له، وبمقدار احتماله وصبره وجلده وتطلعه إلى معالي الأمور. ولقد صبغت التجربة شعره في الحكمة بطابع القوة والعنف وعدم التسامح مع الأعداء والدعوة إلى تحكيم السيف حتى غدا من خلال حكمته ذا مذهب خاص في الحياة يصدر عنه في نظرته إلى الأمور وطريقة معالجتها ويفسر به مظاهر الأخلاق الإنسانية:

العِزُّ ما خَضَعَتْ لِهَيبَتِهِ العِدَى	وأَقَامَ بالفِكْرِ المُلُوكَ وأَقْعَدَا
والمَالُ مَا وقَّاكَ ذَمّاً أو بَنَى	عَلْيَاكَ أو أَبْقى لقَومِكَ سُؤْدَدَا
والجُودُ ما بُلَّتْ بهِ رَحِمٌ وَمَا	أَوْلَيتَ ذا أَمَلٍ أَعَدَّكَ مَقْصِدَا
واللُّؤْمُ إكْرامُ اللَّئِيمِ لأنَّهُ	كالذِّئبِ لَمْ يَرَ عَدْوَةً إلاّ عَدَا
والعَزْمُ ما تَرَكَ الحَدِيدَ مُفَلَّلاً	والخَيلَ حَسْرَى والوَشِيجَ مُقَصَّدَا
والنُّبلُ فَتْكُكَ بالمُعَادِي غَادِراً	أو وَافِياً مُسْتَنجِداً أو مُنْجِدَا
غَدْرٌ يُعِزُّ ولا وَفَاءٌ مُعْقِبٌ	ذُلّاً وجَهْلٌ كَفَّ ذَا جَهْلٍ هُدَى
فإذَا ظَفِرْتَ مِنَ العَدُوِّ بِغِرَّةٍ	فَافْتِكْ فَفَتْكُ اليوم مَنْجَاةٌ غَدَا
والحِلمُ في بَعْضِ المَواطِنِ ذِلَّةٌ	فاصْفَحْ وعَاقِبْ واعْجَلَنْ وتَأَيَّدَا
ما كُلُّ حِلْمٍ مُصْلِحٌ فَلَطَالَمَا	غَرَّ السَّفِيهَ الحِلْمُ عنهُ فَأَفْسَدَا
كُلُّ السِّيادَةِ في السَّخَاءِ ولَنْ تَرَى	ذَا البُخْلِ يُدْعَى في العَشِيرَةِ سَيِّدَا
وَمِنَ الخَسَاسَةِ أن تَكُونَ عَلَى العِدَى	غيثاً وفي الأَدْنَينِ لَيثاً أَلْبَدَا[1]

لقد انتهى الشاعر في بعض هذه الحكم إلى تعريفات لبعض المعاني قد لا يتفق معه غيره على تعريفها من هذا المنظار الذي نظر به إليها. فهو يرى أن إكرام

= والسطاعات: الأعمدة، والخروع: نبت ضعيف وشجر ينبت على أنهار الأحساء يسمونه الخصاب، والعنم: خيوط يتعلق بها العنب في عريشه، عمرو: هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس المشهور وهرم: هو هرم بن سنان الذبياني المشهور بكرمه وجوده.

(١) الديوان ص ١٦٧. والوَشِيج: شجر الرمان، والمُقصّد: المُكسَّر.

اللئيم هو اللؤم بعينه لا كما يرى المتنبي من أن إكرام اللئيم يؤدي إلى تمرده ونكرانه للجميل فقط: «وإن أنتَ أكْرمتَ اللَّئيمَ تَمرَّدَا[1]»، كما يرى أن النبل هو الفتك بالأعداء في كل الأحوال سواء كانوا غادرين أو وافين ، منجدين أو مستنجدين ، وهو يفضل الغدر بعدوه اليوم لينجو منه غداً، بعد أن عقد مقارنة بين الغدر مع العز والوفاء مع المذلة، ووازن بين الحلم والجهل فاختار ما يوصلهُ إلى الرفعة والعزة ويبعده عن مواطن الخضوع والمذلة دون أن يعبأ بالوسيلة إلى ذلك. وتلك فلسفة خاصة يرى الشاعر أنها الأولى بالاتباع ، ولا شك أن حياته القاسية وما لقيه من تعب ونصب وظلم من أقرب الناس إليه هو ما دفعه إلى تبنِّي هذه الآراء. فقد تألم كثيراً حين رأى أعداءه ذوي حظوة عند بني عمه، وهو مبعد عنهم، مهان في دارهم ، فلم يصبر على الهوان، وهجر الوطن والأهل في سبيل الحفاظ على كرامته وعزته. ولذلك فهو يوصي غيره بعدم الصبر على الضيم ، وبالبعد عن الأوطان التي تنقلب فيها المقاييس، وتختل بين أهلها الموازين، فيصبح السيد مَسُودا واللئيمُ كريماً، ويردد هذه المعاني في غالب قصائده بالحكمة الصادقة:

عَدِمتُ الفَتَى لا يُنكِرُ الضَّيمَ والرَّدَى ... عَلَى خَطَاءٍ يَغْتَالُهُ أو تَعَمَّدَا
ولا عَاشَ مَنْ يَرْضَى الدَّنَايَا أَهَلْ رَأَى ... جَبَاناً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي مُخَلَّدَا؟
وَهَلْ مَاتَ من خَوضِ الرَّدَى قَبلَ يومِهِ ... فَتىً لَوَ طِيسِ الحَربِ مَا زَالَ مِفْئَدَا
وَهَلْ سَادَ راضٍ مَرْتَعَ الذُّلِّ مرتَعاً ... وهَلْ فَازَ راضٍ مَوْرِدَ الذُّلِّ مَورِدَا
وهَلْ عَزَّ بالأعدَاءِ مِنْ قَبلِ تُبَّعٍ ... مَلِيكٌ تَمَطَّى المُلْكَ كَهْلاً وأَمْرَدَا
وهَلْ طَابَ عَيشٌ بالمُدَارَاةِ أو صَفَا ... لَوَ انَّ المُدَارِي رَاحَ بالخُلْدِ واغْتَدَى
فَحَتَّامَ أُبْدِي لِلْمَوالِي تَجَنُّباً ... وَصَدّاً وأُبْدِي لِلأعَادِي تَوَدُّدَا
وشَرُّ بلادِ اللهِ أرضٌ تَرَى بهَا ... كُلَيباً مَسُوداً وابْنَ آوَى مُسَوَّدَا
وأشْقَى بَنِي الدُّنيَا كَرِيمٌ يَسُوسُهُ ... لَئِيمٌ إذَا مَا نَالَ شِبْعاً تَمَرَّدَا[2]

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١/٢٨٨.

(٢) الديوان ص ١٤٩. والمِفْئَد: الجبان، وفئد كفرح وَجِعَ قلبه.

ويكرر هذه المعاني في القصيدة نفسها بحكم جديدة وأسلوب آخر، وهو يبدي آراءه في بعض المعاني كالحلم الذي يراه سفاهة حين يغري أعداءه بظلمه وإهانته، وكالجهل الذي يراه هداية حين يكف عنه شرورهم:

فَقُمْ والْتَمِسْ دَاراً سِـوَاهَا فـإنَّمَا ... أَخُو العَزْمِ من إن رَامَ أَمْراً تَجرَّدَا
فَكَأْسٌ إذَا أُسْقِي بها اليَومَ مُكْرَهاً ... أَخُوكَ سَتُسْقَى مِنْ فُضَالَتِهَا غَدَا
وَحِلْمٌ يُدَنِّي الضَّيمَ مِنكَ سَفَاهَةٌ ... وَجَهْلٌ تَرُدُّ الضَّيمَ شِـرَّتُهُ هُـدَى
وَلَا خَيـرَ في هِلْبَـاجَـةٍ كُلَّمَـا أَتَى ... إليهِ الأَذَى أَبْدَى خضُوعاً وأَسْجَدَا
وَمَـالَ إلى بَـرْدِ الـظِّلَالِ وَرَاقَـهُ ... مَقَالُ إمَاءِ الحَيِّ: لَا غَالَكَ الرَّدَى(١)

إن هذه الآراء التي يبدو فيها وهو يخالف ما تعارف عليه الناس من استحبابهم الكرم وإن أدى إلى تمادي اللئيم في لؤمه، ومن إيثارهم الوفاء وتجنب الغدر ولو مع الأعداء، ومن تغليبهم الحلم على الجهل عند الإساءة والظلم لا تتعارض مع المثالية التي يدعو إليها ابن المقرب في شعر الحكمة وغيره لأن له من ظروف حياته في بؤسه وشقائه ومظلمته ما يشفع له حينما يتبنى مثل هذه الآراء، كما أن عصر الشاعر قد شهد تقلبات فكرية واجتماعية تمثلت في تغيُّر القيم واختلال المقاييس بسبب الاضطراب السياسي، وتأثير القرمطية في تغيير المثل والميل إلى زعزعة العقيدة والأخلاق وسيطرة مذهب (الغاية تبرر الوسيلة). وربما دفع ابنَ المقرب إلى اتخاذ هذه المواقف خيبةُ أمله بقومه وبني عمه مع عزة نفسه المفرطة وإبائه وكبريائه ورفضه الخضوع والاستسلام، وهو ما جعله دائم الإلحاح على البعد عن دار المذلة، كثير النصح من الوقوع في مواطن الهوان، قويَّ السعي إلى طلاب المجد، مقدِّماً الحجة والبرهان على صدق ما يذهب إليه من واقع الحياة وأحداث التاريخ:

وَلَا تَـكُ مِئْلافاً لِـدَارِ مَـذَلَّـةٍ ... وَلَو فَاضَ وَادِيهَا لُجَيْناً وَعَسْجَدَا
وَسِرْ في طِلابِ المَجدِ جِدّاً فإنَّنِي ... رَأَيتُ المَعَالِي لا يُواتِينَ قُعْـدُدَا

(١) الديوان ص ١٥١ . والهلباجة : الضخم الأحمق الأكول الجامع لكل شر

فَلَوْ لم يُفَارِقْ غِمدَهُ السَّيفُ في الوَغَى   لَمَا رَاحَ يُدْعَى المَشْرَفِيَّ المُهَنَّدَا
وَلَو نَامَ سَيفُ بالحُصَيْب ولم يَلِجْ   عَلَى الهَولِ لم يُدْعَ المَلِيكَ المُمَجَّدَا
وَلَم يُنْشِغِ الاحْبُوشَ كَأْساً مَرِيرَةٍ   ويَجْمَعَ في غُمدَانَ شَمْلاً مُبَدَّدا[1]

إن أسلوب ابن المقرب في كثير من أبيات حكمته هو امتزاجها بالشكوى والتحسر واقترانها بإعلان الرحيل والبعد عن منازل المذلة والصَّغار حيث تجتمع هذه المعاني غالباً في عدة أبيات تشكل في مجموعها الشكوى مع الحكمة . وقد يجمع الشاعر هذين الغرضين في بيت واحد، فيجعل الشطر الأول منه بياناً لحاله مُظهراً فيه الشكوى ويجعل من الشطر الثاني حكمة مستقلة بذاتها لو فصلت عن الشطر الأول، وكأنه يقدم السبب أو البرهان ليثبت به حكمته:

في كُلِّ أَرضٍ إذَا يَمَّمْتُهَا وَطَنٌ   ما بَينَ حُرٍّ وبَينَ الدَّارِ من نَسَبِ[2]

.....

لا تحْسَبُوا بُغْضِيَ الأَوطَانَ من مَلَلٍ   لا بُدَّ لِلوُدِّ والبَغْضَاءِ من سَبَبِ[3]

.....

لِي عن دِيَارِ الأَذَى والهُونِ مُتَّسَعٌ   ما كُلُّ دَارٍ مَنَاخُ الوَيلِ والحَرَبِ[4]
تَقُولُ لِي هِمَمِي خَلِّ المُقَامَ وَقُمْ   فإنَّمَا رَاحَةُ الأَبْدَانِ في التَّعَبِ[5]

.....

وَلَا عَلَى زَلَّةٍ أَخْشَى عَـوَاقِبَهَـا   والنَّاسُ حِزْبَانِ: ذُو أَمْنٍ وذُو فَزَعِ
وَغَـرَّنِي منهُمُ لَفْظٌ خُـدِعْتُ بـهِ   والنَّاسُ ما بَينَ مَخْدُوعٍ ومُخْتَدِعِ[6]

.....

تُكَلِّفِينِي مُقَـامـاً بَيْنَ أَظْهُـرِكُمْ   ولَيسَ يَبْدُو فِرِنْدُ السَّيفِ في الخِلَلِ
وفي التَّنَقُّـلِ عِـزٌّ لِلْفَتَى وعُـلاً   لَمْ يَكْمُلِ البَدْرُ لولَا كَثْرَةُ النُّقَلِ[7]

.....

(١) الديوان ص ١٥٢ وسيف :هو سيف بن ذي يزن أحد ملوك اليمن في الجاهلية وهو الذي أخرج الأحباش من اليمن بمساعدة الفرس ، والحُصيب : واد باليمن وينشغ : يسقي ، والأحبوش : أهل الحبشة ، وغمدان : قصر بصنعاء .

(٢) الديوان ص ٧٤ (٣) الديوان ص ٧٦

(٤) الديوان ص ٧٥

(٥) الديوان ص ٧٨

(٦) الديوان ص ٢٧٦

(٧) الديوان ص ٣٧٩ . وفِرِنْد السيف : جوهره ، والخِلل : جفان السيوف المغشاة بالأدم .

إن يُمْسِ مَقْتُكُم حَظِّي فَحُقَّ لَكُمْ الوَرْدُ من قُرْبِهِ يُغْمَى عَلَى الجُعَلِ[1]

وربما يفعل ذلك أيضاً في مجال المديح والفخر فيقدم البرهان بالحكمة في الشطر الثاني :

فَمَا أَحَسَّتْ به إلاّ انْثَنَتْ هَـزماً ونَكْهَةُ الذِّئْبِ لا تَخْفَى عَلَى الغَنَمِ[2]

....

بِعَـدْلِهِ والـدَّمِ المُهْرَاقِ حَصَّنَهـا وَلاَ يَقِـرُّ دَمٌ إلاّ بِسَفْـكِ دَمِ[3]

....

فقُـلْ لِمُبَـارِيـهِ رُوَيـدَكَ فـاتَّئِـدْ مَتَى صَحِبَتْ شُهْبَ البُزَاةِ الأَبَاغِثُ[4]

....

فَـلاَ يَغُرَّنَّهُمْ حِلْمٌ عُـرِفتُ بِـهِ قَدْ تَخْرُجُ النَّارُ فِيمَا يُقْرَعُ الحَجَرُ[5]

لكنّ حكمته مهما اختلفت صورها فإنها تظل في الغالب مرتبطة بما يشكو منه في حياته من ظلم واضطهاد، أو بما يتطلع إليه من عزة ومجد كما رأينا في الأمثلة السابقة، أو تأتي ممتزجة بالفخر كما رأيناه في اعتزازه بما أنشأ من حكم، وكما في قوله :

إنْ تَـرَى شَخْصِي لأمْرٍ سَـاكِنـاً فَلَعَمْـري إنَّ قلبي فـي طِـرَادِ
رُبَّ ذِي هَـمٍّ تَـراهُ مُـطْرِقـاً وَهْـوَ في إطْـرَاقِـهِ حَيَّـةُ وَادِ[6]

بل إن الحكمة لتظل في شعره معبرة عن الشكوى واستنهاض الهمم لبلوغ المعالي حتى في مطلع القصيدة حينما يفضِّل استهلال قصيدته بالحكمة التي تحكي حالته وتجربته في الحياة كي يهيء السامع للاقتناع بما يقول . وهو في ذلك يتابع المتنبي والشريف الرضي مثلما كان يتابعهما في المطالع الحماسية ، فتراه يبدأ إحدى قصائده ببعض الحكم من مثل قوله :

---

(١) الديوان ص ٣٨١ . والجُعَل : دويبة تعيش على الروث لا تطيق رائحة الورد أو العطر .
(٢) الديوان ص ٥٥٧
(٣) الديوان ص ٥٥٨
(٤) الديوان ص ١١٧
(٥) الديوان ص ٢٣٧
(٦) الديوان ص ١٨٠

مَنَالُ العُلَا بالمُرْهَفَاتِ القَوَاضِبِ وسُمْرِ العَوَالِي والعِتَاقِ الشَّوَازِبِ[1]

وقوله في مطلع أخرى:

بـالسَّيفِ يُفْتَحُ كُـلُّ بابٍ مُقْفَـلِ وتُحَلُّ عُقْدَةُ كُلِّ خَطْبٍ مُشْكِلِ[2]

وقوله في مطلع ثالثة:

بِسُمْرِ القَنَا والمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ بِنَاءُ المَعَالِي واقْتِنَاءُ المَكَارِمِ[3]

ولم تكن متابعة الشاعر لسابقيه مقتصرة على مطالع القصائد فقط فلقد جمع إلى ذلك استفادته من بعض معانيهم التي سبقوه إليها ،فهو ينهل حكمته أحياناً من ينابيعهم ويستقيها من روافدهم، معبراً عنها بأسلوبه ، وأبرز من تأثر به من الشعراء في ذلك أبو الطيب المتنبي، إذا يأخذ عنه بعض حكمه المشهورة فهو يقول :

وذُو الـدَّنَاءَةِ لَـوْ مَزَّقْتَ جِلْدَتَـهُ بِشَفْرَةِ الضَّيمِ لم يَحْسِسْ لَهَا أَلَمَا[4]

وهذا المعنى قريب جداً من قول المتنبي :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُـلِ الهَـوانُ عَلَيـهِ مـا لِـجُـرحٍ بميِّتٍ إيْـلَامُ[5]

كما يتابعه بمعنى آخر فيقول:

والبُخْلُ خَيرٌ من الإحسَانِ في نَفَرٍ أَبَرُّهُمْ بِكَ مَنْ أَغْرَى ومَنْ شَتَمَا
وَوَاضِعُ الجُودِ في أَعْدَاءِ نِعْمَتِهِ كَمُودِعِ الذِّئْبِ في بَرِّيَّةٍ غَنَمَا[6]

وهو قريب من قول المتنبي :

(١) الديوان ص ٤٧ . والشوازب : جمع شازب وهو الخشن والضامر اليابس
(٢) الديوان ص ٤١٣
(٣) الديوان ص ٥١١
(٤) الديوان ص ٥٢٧
(٥) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٤ /٩٤
(٦) الديوان ص ٥٢٨

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوضِعِ السَّيفِ بالعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيفِ في مَوْضِعِ النَّدَى[1]

ويعبر ابن المقرب عن مشاعر العشاق والمحبين بأسلوب الحكمة فيقول:

يـا عَاذِلَ المُشْتَـاقِ مَهْـلاً واتَّئِـدْ في لَـوْمِـهِ فَهْـوَ العَلِيمُ بِـدَائِـهِ
ومَتى تُـرِدْ يَومـاً مَـلاَمَـةَ عَـاشِقٍ فَاجْعَلْ فُؤادَكَ تحتَ ظِلِّ حَشَائِهِ
فـإن اسْتَقَرَّ فَلُمْ أَخَـاكَ وإن نَبَا فَكُنِ النَّدِيمَ الفَرْدَ مِنْ نُدَمَـائِهِ[2]

فقد استوحى هذا المعنى من المتنبي في قوله:

لا تَعْـذُرِ المُشْتَـاقَ في أَشْـوَاقِـهِ حَتَّى يكُونَ حَشَاكَ في أَحْشَائِهِ[3]

كما نرى تأثر ابن المقرب في حكمته بزهير بن أبي سلمى في حِكَمه الشائعة على ألسنة الناس. يقول ابن المقرب:

مَنْ سَالَمَ النَّاسَ لَمْ تَسْلَمْ مَقَاتِلُهْ مِنْهُمْ وَمَنْ عَاثَ فِيهِمْ بالأَذَى سَلِمَا[4]

وذلك معنى زهير الذي يقول فيه:

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[5]

ولابن المقرب أيضاً أبيات أخرى يسير فيها على نهج زهير في طرح الحكمة:

وَمَنْ لَمْ يُفَارِقْ مَنْزِلَ الضَّيمِ لَمْ يَزَلْ يَرُوحُ ويَغْدُو مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَا
وَمَنْ يَثْوِ في دَارِ الهَوَانِ يَعِشْ بِهَا أَخَا مَضَضٍ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ شَاكِيَا
وَمَن لَمْ يُوَفَّ النَّصْفَ في دَارِ قَومِهِ ويُولَى الأَذَى فالرَّأْيُ أن لا تَلاَقِيَا

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١ /٢٨٨
(٢) الديوان ص ١٩
(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١ /٦
(٤) الديوان ص ٥٢٧
(٥) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب ص ٣٠ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٣ هـ .

وَمَنْ يَبْغِ عزّاً بـالبَـلاَيَـا ودَوْلَـةً　　يَكُنْ مِثْلَ مَنْ أَمْسَىٰ عَلَى المَاءِ بَانِيَا(1)

وقد يأخذ ابن المقرب بعض المعاني من سابقيه فيصوغها حكماً دون أن يتوقف عند الأخذ منها فقط، بل يزيد على هذه المعاني، أو يخالف من سبقه في بعض جزئياتها. فإذا كانت نظرة ابن نباتة السعدي إلى الموت نظرة أسباب لا تقدم الأجل ولا تؤخره كما في قوله:

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بالسَّيفِ مَاتَ بغَيرِهِ　　تَنَوَّعَتِ الأَسْبَابُ والمَوتُ وَاحِدُ(2)

فإن ابن المقرب ينظر إلى هذا المعنى نظرةً أعمق وأدق، فيزيد عليه ويربطه بما يجعل السامع يفكِّر بما وراء هذه الأسباب، متخيِّلا طعم الموت ومذاقه في قوله:

وَلاَ تَرْهَبِ الخَطْبَ الجَلِيل لِهَوْلِهِ　　فَطَعْمُ المَنَايَا كَيفَمَا ذُقْتَ وَاحِدُ(3)

وإذا كان لبشار بن برد رأي في الحياة العكرة، وأن الإنسان لا بد أن يعُبَّ منها مرارا في حياته كما يقول:

إذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِراراً عَلَى القَذَى　　ظَمِئْتَ، وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُه(4)

فإن ابن المقرب يأتي بمعان قريبة من هذا المعنى لكنه يرى أن عزة نفسه وإباءه وكبرياءه تأبى عليه أن يَرِدَ إلا الموارد الصافية، فإذا عزَّت عليه فلم يجدها فهو الصبور على العطش القادر على الاهتداء إلى المناهل العذبة:

وَعَدِّ عنِ المَاءِ الَّذِي لَيسَ وِرْدُهُ　　بِصَافٍ فَمَا تَعْمَى عَلَيكَ المَوَارِدُ
وَكَمْ مَنْهَلٍ طَامِي النَّوَاحِي وَرَدْتُهُ　　عَلَى ظَماءٍ وانْصَعْتُ والرِّيْقُ جَامِدُ
فَـلاَ تَحْسَبَنْ كُلَّ المِيَـاهِ شَرِيعَـةً　　يُبَلّ الصَّدَى مِنهَا وتُوْكَى المَزَاوِدُ

---

(1) الديوان ص ٦٦٠
(2) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ١٩٣
(3) الديوان ص ١٤١
(4) ديوان بشار بن برد ١ / ٣٠٩

فَكَمْ مَاتَ في البَحْرِ المُحِيطِ أخْوظَماً　　بِغُلَّتِهِ والمَوجُ جَارٍ وَرَاكِدُ[1]

وإذا كانت ثقافة ابن المقرب الواسعة قد مكّنته من الاستفادة من نتاج سابقيه وتجاربهم، وصياغتها على هذا النحو من الحكم المعبرة الحية فإنها قد أعانته أيضاً على صياغة الحكمة من معاني الأمثال العربية التي يستعين بها لتكتسب أفكاره التأييد والقبول لدى سامعها، فالمَثَل نوع من الحكمة الموروثة عن العرب منذ عصورهم الأولى. لذلك فإن الشاعر لا يجد صعوبة في صياغة المَثَل المناسب في بيت من الشعر في أي غرض، حينما يجد المَثَل حجة له وبرهاناً على ما يقول في حادثة أو مناسبة معينة، فإذا أعلن إباءه للضيم، واستنهض همته للمعالي أخذ يحدِّث نفسه باقتناء السيوف والرماح وإيرادها ساحات الحروب حتى يبلَّ صداها ويسقيها دماً، لا كما كان سعدٌ يورد إبله ويعود بها عِطاشاً:

أتَظْمَى لَدَيكَ المَشْرَفِيَّةُ والقَنَا　　وَفِي قُلَلِ البَاغِينَ وِرْدٌ لِشَارِبِ
فَشَمِّرْ وأوْرِدْهَا فَقَدْ زَادَ ظِمْؤُهَا　　عَلَى العِشْرِ أوْرِدْها بعَزْمٍ مُؤارِبِ
وَلَا تُورِدَنْهَا وِرْدَ سَعْدٍ وَعُلَّهَا　　إذَا نَهَلَتْ عَلَّ الهِجَانِ الحَلَايِبِ
فإنَّ بَهَا تَرْقَى الدِّمَاءُ كَمَا بِهَا　　تُرَاقُ وَفِيهَا عاليات المَرَاتِبِ[2]

وهو يستعين بالمَثَل حين لا يبالي بما تؤول إليه الأمور بعد أن أخلص النصح لعشيرته، فقومه هم الخاسرون بفقده، فهو فيهم كعمرو بن عامر الأزدي الملك اليمني الذي سفَّهت قبائله رأيه فخابت وخسرت:

إذَا رَجَّفَتْ دَارَ العَدُوِّ مَخَافَتِي　　فَلَا تَسْأَلَانِي عن سَعِيدٍ وَلَا سَعْدِ
وإنِّيَ في قَومِي كَعَمْرِو بْنِ عَامِرٍ　　لَيَالِيَ يُعْصَى في قَبَائِلِهِ الأَزْدِ

---

(١) الديوان ص ١٤٠

(٢) الديوان ص ٦٥ . والقُلَل : جمع قلة وهي أعلى الرأس ، الظِّمء : ما بين الشربتين وإذا شربت الإبل المرة الأولى قيل : نَهَلَت ، وإذا شربت بعد ذلك سُمي شربها : عَلَلا ، وَوِرْدُ سعد : هو من قولهم : ما هكذا يا سعد تورد الإبل .

أَرَاهُمْ أَمَارَاتِ الخَرَابِ وَمَابَدَا مِنَ الجُرَذِ العَيَّاثِ في صَخْرِهَا الصَّلْدِ
فَلَمْ يَرْعَوُوا مَعْ ما لَقُوا فَتَمَزَّقُوا أَيَادِي سَبا في الغَوْرِ منها وفي النَّجُدِ(١)

ويستشهد بمثلٍ آخر وهو ينفض عن نفسه غبار الكسل والخمول فيهبّ للتصدي لأعدائه دون أن ينتظر طويلاً وقت القصاص من ظالميه:

وَلَا تَتَّكِلْ عَجْزاً ولُؤْماً وذِلَّةً عَلَى قَولِهِمْ: بَغْيُ الرِّجَالِ صَرُوعُهَا
متى صُرِعَ البَاغِي فَعَاشَ قَتِيلُهُ بَلَى طَالَمَا أَرْدَى النُّفُوسَ هَلُوعُها(٢)

وفي اعتزازه بنفسه واستهانته بالشدائد والمصائب، وعدم خوفه من الموت في سبيل الحفاظ على شرفه وكرامته يستعين أيضاً بالمثل المشهور (المنيّة ولا الدنيّة):

إنّ المَنِيَّةَ فاعْلَمْ عندَ ذِي حَسَبٍ وَلَا الدَّنِيَّةَ هَانَ الأَمْرُ أَوْ عَظُمَا(٣)

وفي وصفه لحال قومه بعد ضعفهم نراه يصور حالهم ويصف تطاول البادية على حكامهم ونكرانهم للجميل بالجزاء الذي لقيه سنِمَّار حينما بنى قصر النعمان:

وَهَلْ سَالَمَتْ مَنْ كَانَ يَحْمِي جَنابَهَا وَتَرْعَى بِهِ في كُلِّ أَرْضٍ سَوَامُهَا
جَزَاءُ سِنِمَّارٍ جَزَاءٌ بِهِ اقْتَدَتْ وَمَالَ إليهَا كَهْلُهَا وغُلَامُهَا
بَنَى القَصْرَ حتَّى اسْتَحْكَمَتْ شُرُفَاتُهُ وَأَيَّدَهَا آجُرُّهَا ورُخَامُهَا
وَغُودِرَ مِنْ أَعْلَى ذُرَاهَا مُنَكَّساً وَلَا ذَنْبَ إلاَّ حُسْنُهَا وانْتِظَامُهَا(٤)

---

(١) الديوان ص ١٣٧ وقوله: فلا تسالاني عن سعيد ولا سعد: هو من قولهم: أسعد أم سعيد، وهو أن ابني ضبة بن أد خرجا فجاء سعد ولم يعد سعيد فصار يُتشاءم به، ومن خبرهما أن أباهما نظر سواداً في الليل فقال: أسعد أم سعيد فذهبت مثلاً، وعمرو بن عامر: هو أحد ملوك التابعة في اليمن ويلقب بمزيقاء، وقد انهار سدُّ مأرب على عهده فتفرق قومه، والجرذ: نوع من الفئران الكبيرة (الديوان ١٣٧ - ١٣٨)

(٢) الديوان ص ٢٥٣. وَبغيُ الرجال صروعها: هو من قولهم البغي مصرع. والهلوع: الشديد الجزع، وهو يعني أن المقتول لا يعيش حتى يرى مصرع قاتله فلا يتشفى بأخذ القصاص منه.

(٣) الديوان ص ٥٢٧.

(٤) الديوان ص ٤٥٨ وقصة سنمار مشهورة ويضرب به المثل في جزاء الإحسان بالإساءة والغدر، فقد بنى للنعمان بن امرىء القيس قصراً فلما فرغ منه وأحسن بناءه ألقاه من فوقه لئلاّ يبني لغيره مثله. (انظر الديوان ص ٤٥٨).

ولمّا فقد الأمراء العيونيون هيبتهم وتجاسرت عليهم القبائل أخذ الشاعر يعرِّض بهم ويهزأ بضعفهم ويعيِّرهم باستكانتهم ، لعل ذلك يقوِّي عزيمتهم ويثير حميتهم ، ويشبِّه حالهم بحال ذلك الشيخ العربي الذي اشترى نبْزاً كانت إحدى القبائل تُعيَّر به فخابت صفقته وخسرت تجارته ووُصِم بالعار لا يبرحه أبداً :

لَا تَطْلُبَا البَيعَ الرَّبِيحَ فَأَنْتُمَا ... مِمَّنْ يقُومُ بِصَفْقَةِ الخُسْرَانِ
قِدْماً شَرَى المَهْوِيُّ لا لِضَرُورَةٍ ... عَارَ الحَيَاةِ بِأَوْكَسِ الأَثمَانِ
فَخُذَا عَلَى مِنْهَاجِ شَيْخِكُمَا فَمَا ... بَيْنَ النَّبَاهَةِ والخُمُولِ تَدَانِ[1]

وهكذا رأينا أن أكثر الأغراض التي يستدعي الشاعر فيها الأمثال وينقلها في شعره في صور من الحكمة هي الحماسة والفخر والشكوى والعتاب لما تمثِّل هذه الأغراض في نفسه من شغل شاغل لا يفارق عقله وفكره، فإذا تداعت في فكره معاني الحماسة والتطلع إلى المجد والشرف والفخار، أو معاني الشكوى من حال قومه وعتابهم على تقصيرهم فإنه يستعين عليها بكل أسلوب بما في ذلك الأمثال التي تجري في شعره مجرى الحكمة الصادقة المعبرة عن تجاربه في الحياة.

وأما ما عدا هذه الأغراض فإن المثل قد يرد في سياق غرضين آخرين على قلة ، وهما المدح والهجاء . ففي ثنائه على ممدوحه بالكرم وصفات العلا والمجد نجده يفديه بالرجل الخامس البعيد عن المكارم والمعالي مسترشداً بالمثل :

يَفْدِيكَ يَاذَا العُلَا والمَجدِ كُلُّ عَمٍ ... عَنِ المَكَارِمِ بَادِي العِيِّ والحَصَرِ
إذَا يُلِمُّ بِهِ خَطْبٌ ذَكَرْتَ بِهِ ... تلكَ النَّعَامَةَ لَمْ تَحْمِلْ وَلَمْ تَطِرِ[2]

---

(١) الديوان ص ٦٣٢ ويعني بالمَهْويّ شيخ من مَهْو يقال له عبد الله بن بيذرة ، يقال إنه قدم إلى سوق عكاظ فوجد رجلاً يعرض (الفَسْو) للبيع وهو نبْزٌ كانت قبيلته تعيرَّ به ، فاشتراه منه الشيخ المهوي ببردي حبرة فارتدى أحدهما واتَّزر بالآخر وقد اشترى الفسو ، فضرب به المثل فقيل : أخيب صفقة من شيخ مهو (انظر الديوان ص ٦٣٢)

(٢) الديوان ص ٢٤٦ وتضرب العرب النعامة مثلاً لضعف الحيلة ، فهي تشبه الطير وتشبه الإبل ، فإذا قيل لها طيري قالت كيف أطير وأنا كالبعير ، وإذا قيل لها احملي قالت كيف أحمل وأنا كالطير .

كما يثني على فصاحة ممدوحه وبيانه حتى كاد إياس بن قبيصة الطائي المشهور بفصاحته أن يغدو أمامه عيياً مثل باقل الإيادي:

تَخَالُ إيَاساً في الفَصَاحَةِ بَاقِلاً   لَدَيهِ وفُرسَانُ الوَغَى في تَدَاوُكِ[1]

وفي الهجاء نراه يتسهزيء بأعدائه ويسخر منهم فيُشبِّههم بالضبع ويصف حمقهم بحمقها حين تستسلم لصائدها:

خَلُّوا الفَخَارَ لِمَعْشَرٍ أَوْلَوكُمُ   ذُلَّ الهَوَانِ بِغِلْظَةٍ وَجَفَاءِ
مَسَحُوكُمُ كالضَّبْعِ حَتَّى أُوثِقَتْ   جُدَدُ الحِبَالِ بِرِجْلِهَا العَرْجَاءِ
وَتَبَادَرُوهَا بعدَ مَسْحِهِمُ لَهَا   سَحْباً عَلَى البَوْغَاءِ والحَصْبَاءِ[2]

وأما في غير ذلك من الأغراض الأخرى فإننا لا نجد المثل في سياق قصائده اللهم إلا في موضع واحد وَرَدَ فيه المثل عند ذكره للخمر:

أَوْ ذَاقَهَا المَنْزُوفُ ضَرْطاً لَمَا   هَابَ ابْنَ ذِي الجَدَّينِ يَومَ الزِّحَامِ[3]

وبالإضافة إلى نقل الأمثال فإن ابن المقرب يستشهد أحياناً بأقوال بعض الأعلام المشهورين التي تقرب من الأمثال السائرة، وتضفي على المعنى الذي يريده صفة الحكمة، كتضمينِهِ عبارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (فما عدا

---

(١) الديوان ص ٣١١ وباقل الإيادي: جاهلي يضرب به المثل في العيّ، والتداوك: التزاحم في الشر والخصومة.

(٢) الديوان ص ١٥ ويضرب المثل بحمق الضبع، ومن حمقها أن صائدها يقول لها وهي في وكرها: خامري أمَّ عامر، ولا يزال يقول لها ذلك وهي تنقاد له حتى يربط رأسها ورجليها ويسحبها (انظر الديوان ص ١٥) والبوغاء: التراب الناعم.

(٣) الديوان ص ٥٧٢، والعرب تقول (أجبن من المنزوف ضرطا) وهو رجل خرج مع صاحب له إلى فلاة، فخيل إليه أنه رأى قوماً، فقال له صاحبه: إنما هي عُشَرة بضم العين، فظنه يقول عَشرة بفتحها فجعل يضرط حتى مات من الخوف، ويقال إنه رجل كان عند نسوة فزَوَّجْنَهُ إحداهن، وكان ينام الضحى فإذا نبَّهْنَه قال: لو نبَّهتُنَّني لعادية متظاهراً بالشجاعة، فاختَبَرنَهُ مرة وقلن: هذي نواصي الخيل فجعل يقول: الخيل الخيل، ويضرط حتى مات.
(انظر الديوان ص ٥٧٢)

ممَّا بدا) في قوله :

قَدْ كُنْتُمَا عَـونِي وقَدْ أَصْبَحْتُمَـا عَوناً عَلَيَّ فَمَا عَدَا مِمَّـا بَدَا[1]

ومثل تضمينه مقالة الحجاج بن يوسف : إني لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها في قوله :

مَــا انْتِـظَارِي بِـرُءوسٍ أَيْنَـعَتْ لَيسَ هَذَا اليَنْعُ إلاَّ لِلْحَصَـادِ[2]

تلك هي حكم ابن المقرب التي تمثل خلاصة فكره وتجاربه، وثمرة ثقافته واطلاعه الواسع على تجارب الآخرين وعبر الحياة. ولعلنا بعدما وقفنا على وجوه الحكمة في شعره نستطيع أن نتبين ملامح أسلوبه في طرح الحكم. فهي تتضح فيما يلي :

١ ــ الصدق والواقعية في تصوير واقعه الذي يعيش فيه سواء في شئونه الخاصة أو شئون قومه وحال مجتمعه.

٢ ــ تتابُع المعنى الواحد في صـور مختلفة مما يدل على قدرةٍ ذهنية وتعبيرية جيدة، مع صفاء فكرته ومتانة أسلوبه .

٣ ــ أننا قلَّما نجد نفساً حكمياً بهذا الطول الذي نجده في شعر ابن المقرب كما في ميميته الطويلة[3] مع مطابقته لواقع الحال دون تفلسُفٍ أو بعد عن الواقع، ودون نزوع حكمته إلى الوعظ والتعليم .

---

(١) الديوان ص ١٦٨ ، ويُروى ان علياً رضي الله عنه قال لطلحة رضي الله عنه يوم الجمل : عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق فما عَدَا مِمّا بَدَا ، أي ما الذي بدا لك مني فصرفك عني ، أو ما عداك مما كان بدا لنا من نصرك (انظر الديوان ص ١٦٨) ، وسكان الخليج وبخاصة في الكويت يقولون في الوقت الحاضر للتعجب : إشْ حَدَا ما بِدَا ، ولعلها عبارة عليٍّ رضي الله عنه وقد دخلتها العامية .

(٢) الديوان ص ١٨٠

(٣) انظر الديوان ص ٥٢٦

٤ ــ استخدامه المثل ببراعة حين يعمد إلى توسيعه وشرحه فيكاد يحكي من خلاله قصته .

٥ ــ مخالفته لبعض المقاييس الفكرية المألوفة واستقلاله بآراء خاصة بتأثير عوامل نفسية واجتماعية مختلفة .

سادساً : أغراض أخرى

أ ــ الهجاء :

لعل دراسة الهجاء في شعر ابن المقرب تؤول به إلى نوعين : أحدهما أخفُّ من الآخر وأكثر ترفعا عن الفاحش من القول ، والآخر مقذع يخرج فيه الشاعر عن حشمته وترفعه ومثالياته التي يدعو إليها .

أحدهما ممتزج بأغراض شعره الأخرى ، والثاني تضمه قصيدتان مستقلتان ، أولهما هجاء عام يلفّه الغموض فلا يفصح فيه عمن يهجوهم ، والثاني صريح يوجهه لخصم واحد هو ابن الدُّبَيثي ضامن المكوس في واسط[١] .

على أن النوعين كليهما قليلان في ديوانه ، ولا يزيدان في مجموع شعره عن مائتي بيت مقابل ما يزيد على خمسة آلاف بيت في الأغراض الأخرى ، وتلك نسبة قليلة لا تُدخِل ابن المقرب في عداد الشعراء الهجّائين ، ولكنها كافية لإلقاء الضوء على هذا الجانب من شعره .

أما النوع الأول فهو أقرب إلى التعريض منه إلى التصريح وقد كان بارعاً فيه صادقاً بتوجيهه إلى خصومه دون أن يذكر أسماءهم أو يضمنه ما يدل على شخصياتهم ، سواء كانوا من بني عمه حكام الدولة العيونية الذين أهانوه وسجنوه وصادروا أمواله وضِياعه ، أو من أعوانهم وأنصارهم وحاشيتهم المحيطة بهم ممن ناصبوه العداء وسعوا بينه وبين بني عمه .

لقد مكث ابن المقرب عدة سنوات وهو يحس بوطأة الظلم الذي لحق به على

(١) تقدمت ترجمته ص ٨٠ .

أيدي بني عمه بعد خروجه من السجن فقيراً معدماً. وظل يمدحهم ويهادنهم ويستميلهم ويعاتبهم لعله يزيل أسباب الجفوة والعداوة ويستعيد مكانته المحترمة بينهم في ظل دولته وعشيرته. ولما لم يجد طائلا من المديح والشكوى والعتاب لجأ إلى التعريض بهم والاستهزاء بتصرفاتهم، وبخاصة بعد ضعف الدولة العيونية واشتداد الصراع على الحكم بين أمرائها الضعاف العاجزين:

وَيُقْعِـدُنِي عمَّـا أُحَـاوِلُ نَكْبَـةٌ جَرَتْ وزَمَانٌ عَاثِرُ الجَدِّ فاسِـدُ
وإخْـوانُ سُوءٍ إن أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ بِسُـوءٍ فهُمْ آسَـاسُهـا والقَـوَاعِـدُ
يُسِـرُّونَ لي مَالا أسِـرُّ فكُلُّهُمْ عَلَى ذَاكَ شَيطَانٌ من الجِنِّ مَارِدُ
لَقَدْ بَذَلُوا المَجْهُودَ فيما يَسُوءُني وقـد كُنتُ أَرْمِي دُونَهمْ وأُجَالِـدُ
فَيَـالَيتَ أنِّي حَـالَ بَينِي وَبَينَهُمْ جُذَامٌ وخَوَلانُ بنُ عَمْروٍ وَغَامِـدُ
وصَفَّدَ أَدْنَانَـا إلى الغَدرِ كَـاشِحٌ كَفُـورٌ بـوَحْـدَ انيَّـةِ اللهِ جَـاحِـدُ
وأَعْجَبُ مَالاَ قيتُ أنَّ بَنِي أبِي حُسَامٌ لِمَنْ يَبْغِي جِلادِي وَسَاعِدُ(١)

ولقد كان ذكياً في التعريض ببني عمه وهجائهم حينما ينسب إلى بعضهم العيوب والنقائص، ويستلُّ نفسه من هذا الهجاء حين يفخر بعلو مقامه ودفاعه عنهم ضمن أبيات الهجاء نفسها كما في الأبيات السابقة وكما في قوله:

وإنِّي عَلَى أَحْسَـابِهِمْ وعُـلاَهُمُ غَيُورٌ وعن بُحْبُوحَةِ المَجدِ ذَائِدُ
وأَحْمِي عَلَيهِمْ أَنْ تُـدَبِّر أَمْـرَهُمْ زَعَانِفُ أَهْدَاهَا عنِ الرُّشْدِ حَائِدُ(٢)

إن هذا النوع من الهجاء لبني عمه حكام الدولة العيونية غالباً ما نراه ضمن قصائد الشكوى والعتاب والفخر حينما يمل من حاله التي آل إليها أمره، ويضيق ذرعاً بوعود بني عمه الكاذبة ونفاقهم، وهو يراهم يهادنون أعداءهم ويكرمونهم،

---

(١) الديوان ص ١٤٤ وجذام وخولان وغامد: بعض جدود العرب القحطانية اليمانية.

(٢) الديوان ص ١٤٥.

ويبعدون أقاربهم ويهينونهم وقد وصل بهم الأمر إلى حالة يرثى لها من الضعف والهزيمة والخلق الذميم ـ:

كَمْ أُرْجِعُ الزَّفَرَاتِ في أَحْشَائِي ... وإلاَمَ في دَارِ الهَـوَانِ ثَـوَائِـي
لَمْ يَبْقَ مِنِّي في مُسَاوَرَةِ الأَذَى ... والضَّيم غَيـرُ حُشَاشَـةٍ وذَمَـاءِ
في دَارِ قَـومٍ لَـوْ رآهُمْ مَـالِـكٌ ... وهُـمُ بـأَحسـنِ مَنْـظَرٍ وَرُواءِ
لَـرَثَى لأَهْلِ النَّـارِ كَيفَ يَـرَاهُمُ ... وهُمْ لَهُمْ فيهَـا مِنَ القُـرَنَـاءِ
ثَكِلَتْهُمُ الأَعْـدَاءُ إنّ حَـيَـاتَهُـمْ ... غَمُّ الصَّـدِيقِ وفَـرحَـةُ الأَعْـدَاءِ
أَمْـوَالُهُمْ لِـذَوِي العَـدَاوَةِ نُهْبَـةٌ ... وَعَنِ المَكَارِمِ في يَدِ الجَـوْزَاءِ
لاَ يُعْرَفُ المَعْرُوفُ في سَاحَاتِهِمْ ... إلاّ كَمَـا يُحْكَى عنِ العَـنْقَـاءِ
جَلَدُ الجِمَالِ عَلَى الهَوَانِ وفيهِمُ ... ضَعْفُ الـدَّبَـا وَتَلَوُّنُ الحِـرْبَـاءِ
عُـمْيٌ عَـنِ الإِحْسانِ إلاّ أَنَّـهُـمْ ... أَهْـدَى إلى لُؤْمٍ من الـزَّرْقَـاءِ
صُمٌّ عنِ الحُسْنَى ولِكْن طَـالَمَا ... سَمِعُوا كَلاَم الحُكْلِ في العَورَاءِ[1]

إن أجواء النفاق والكذب والخداع لتحيط بالشاعر وهو يرى أنماطاً مختلفة من أخلاق الناس وقد تدنَّت إلى الحضيض، ويحزنه أن يرى أقرباءه وأخلاءه وقد سرت إليهم عدوى النفاق وسفاسف الأخلاق، فيزيد ذلك من حسرته وشقوته، فلا يجد إلا الشكوى يبثها في شعره ممتزجة بهجاء هؤلاء القوم وتصوير حالهم السيئة وسوء طالعه وهو يعيش بين أظهرهم:

أَقُولُ وقَدْ فَكَّرْتُ في أَمْرِ خِلَّتِي ... وأَمْـرِي وحَـالِ الأَرْذَلِينَ وحَـالِي
أَلاَ لَيتَنِي قد كَنتُ خِدْناً مُخَادِناً ... لِخَيطِ نَعَـامٍ في الفَـلاَ وَرِئَـالِ
ولَمْ أَكُ عَارَفْتُ اللِّئَامَ ولم أَنُطْ ... حِبَـالَ خَسِيسٍ منهُمُ بِحِبَـالِي
فَلَمْ أَرَ منهُمْ غيرَ خِبٍّ يَمُدُّ لِي ... لِسَـانَ مُحِبٍّ في طَـوِيَّـةِ قَـالِ

(١) الديوان ص ١٣ والذَّماء: بقية الروح، ومالك: خازن النار، والعنقاء: طائر غير موجود، والدبا: صغار الجراد قبل أن يطير، وحكل الكلام، مالا يفهم من الكلام.

لَهُ شِيمَةُ السِّنَّورِ في لُطْفِ خَدْعِهِ ... ولكنَّهُ في اللَّمْس حَيَّةُ ضَالِ
إذَا جئتُ فَدَّانِي وأبْدَى بَشَاشَةً ... ولاَ حَظِنِي منهُ بعَينِ جَلاَلِ
وإنْ غِبْتُ أَدْنَى سَاعَةٍ مِنْ لِحَاظِهِ ... تَمَحَّلَ في غَيْبِي بكُلِّ مِحَالِ
إلَى اللهِ أَشْكُو مَنْجَمِي في مَعَاشِرٍ ... هُمُ شَرُّ مَاضٍ في الزَّمَانِ وَتَالِ
صَحِبْتُهُمُ مُسْتَصْفِياً فوَجَدْتُهُمْ ... أَلِيمَ عَذَابٍ في أَشَدِّ نَكَالِ
إذَا قُلتُ حَلَّ الدَّهْرُ غِلَّ صُدُورِهِمْ ... أَبَتْ سُوءُ أَخْلاَقٍ وقُبْحُ خِصَالِ[1]

لقد لقي ابن لمقرب من الضيم والظلم الشيء الكثير على أيدي بني عمه، فلا غرابة إذا رأيناه أحياناً يرمي بعضهم بصفات البغي والبخل وفساد الخلق، ويأسى لحاله وقد تذوق كؤوس المذلّة المرة:

فَكَمْ أَتَحَسَّى الضَّيمَ مُرّاً وأَمْتَرِي ... عَقَابيلَ خِلْفٍ قَدْ أَزَى وتَجَدَّدَا
وَكَمْ يَعْتَرِينِي بالأَذَى كُلُّ مُقْرِفٍ ... إذَا سُئِلَ الحُسْنَى أَغَدَّ وعَرْبَدَا
فَئِيدٌ كَعِلَّوْصِ الأَبَاءِ لَدَى الوَغَى ... وإمَّا مَشَى بَينَ البَغَايَا تَقَيَّدَا
تَرَاهُ عَلَى أَعْدَائِهِ مَاءَ مُزْنَةٍ ... وفي رَهْطِهِ الأَدْنَى حُسَاماً مُجَرَّدَا[2]

وإن اليأس ليبلغ بابن المقرب مبلغه بين وقت وآخر، فيذهب به حنقه وسخطه على أعدائه إلى التهديد بتمزيق الأحساب وإبداء المساويء بما يغيظهم ويوجعهم وقد همَّ أن يرسل عليهم شواظاً من شتائمه وهجائه وهو في موطن الغربة حيث لا يقدر قومه على إسكاته وعقل لسانه:

---

(١) الديوان ص ٣٧١. والخيط من النعام: الجماعة، والرئال: فراخ النعام، والضال: السدر البري.

(٢) الديوان ص ١٥٢. والعقابيل: البقايا، والخِلف: حلمة ضرع الناقة أو ضرعها، وأزى: تقلص، وتجددا: من الجدَّاء وهي الذاهبة اللبن، وأغد: غضب، والفئيد: الجبان، والعِلَّوص: الذئب والأَبَاء: جمع أباءة وهي أجمة القصب.

عَدِمتُ يَمِينِي إن أَقَمتُ عَلَى القِلَى | نَعَمْ ويَلِيهَا عَنْ قَرِيبٍ شِمَالِيَا
وفُضَّ فَمِي إنْ لَمْ أُسَيِّرْ غَرَائِبَاً | تُمَزِّقُ أَحْسَاباً وتُبْدِي مَسَاوِيَا
يَشُقُّ عَلَى القَومِ اللِّئَامِ سَمَاعُهَا | ويَظْهَرُ مِنهَا بَعضُ مَاكَانَ خافيا
فإنْ عَقَلَتْ قَومِي لِسَانِي بِأَرْضِهَا | فَلَيسَ بِمَعقُولٍ إذَا كُنْتُ نَائِيَا
سَأُرْسِلُ مِنْهَا بالدَّوَاهِي شَوَارِداً | تُنَبِّهُ ذَا عَقْلٍ وتُفْهِمُ وَاعِيَا
وَلَوْ أنَّ قَومِي أَنْصَفُونِي لأَطْلَقُوا | يَدِي ولِسَانِي فِيهُم والقَوَافِيَا
فَلَولاهُمُ واللهِ حَلْفَةَ صَادِقٍ | لَمَا كُنتُ مَقْلِيّاً لَدَيهِمْ وَقالِيَا[1]

ولكن أتراه كان يهدد بني عمه بتمزيق أحسابهم وقذفهم بالدواهي من هجائه؟ لقد كان يهجو بعضهم ولكن ليس بهذه القسوة والعنف الذي يهدد به، ثم إنه كان دائم الفخر والاعتزاز بأحساب عشيرته وأنسابهم وكريم فعالهم فكيف سيمحو هذه الصور المشرقة التي رسمها لهم؟ إن مضمون الأبيات السابقة وبخاصة في البيتين الأخيرين وما بعدهما من نصيحة يوجهها إلى قومه باليقظة والحذر[2]، لتدل على أنه يعني بهذا التهديد أولئك المنتفعين المنافقين ممن يحيطون بالأمراء العيونيين، ويظهرون النصح والإخلاص للدولة العيونية، وهم العابثون بأمنها الساعون في خرابها والقضاء عليها، إنهم أولئك الوشاة الحاسدون الذين سعوا بالقطيعة بينه وبين أمراء دولته، فلقي الذل والهوان بسببهم، فلا لوم عليه إذا صب غضبه عليهم ووجه إليهم سهام هجائه، فهم أراذل الناس، آباؤهم عبيد لآبائه، ليس لهم مفاخر سوى آلات الحرث وأدواته:

كَمْ ذَا المُقَامُ عَلَى ذُلٍّ ومَنْقَصَةٍ | وكَمْ أُجَرَّعُ كَأسَ الضَّيمِ مَلآنَا
يَسُومُنِي الخَسْفَ أَقْوَامٌ أُبُوَّتُهُمْ | عَبِيدُ آبَايَ إقْرَاراً وإذْعَانَا
وَيَعْتَرِينِي الأَذَى من كُلِّ نَازِلَةٍ | أَلْقَى أَوَائِلَه في النَّاسِ خَمَّانَا

(١) الديوان ص ٦٦١.

(٢) انظر آخر القصيدة ص ٦٦٣.

يَعُدُّ إن قَالَ صِدقاً مِنْ مَفَاخِرِهِ كَرّاً ومَرّاً وَمِسْحَاةً وفَدَّانَا
يَا دَهْرُ إن كُنتَ يَقْظَاناً فقُمْ عَجِلاً أَوَ ما تَزَالُ إذَا نُودِيتَ وَسْنَانَا
فَانْظُرْ أُمُوراً وأَحْوَالاً مُنَكَّسَةً مَا كُنتُ قائِلَهَا لَوْ كَنتَ يَقْظَانَا
ذَهَبْتَ بالعِزِّ واسْتَبْقَيْتَ لِي غِرَراً صُمّاً عن الخَيرِ والمَعْرُوفِ عُمْيانَا
يَرَى الغَنِيمَةَ مَنْ يَرجُو نَوَالَهُمُ أَنْ لَا يَعُودَ إلى نَادِيهِ عُريَانَا
الحَمدُ لله لَمْ أُنْزِلَ بِهِمْ أَمَلاً يوماً فَأَرْجِعَ كَابِي الزَّنْدِ خَزْيَانَا
وَلَا رَأَيتُهُمُ أَهْلاً لِمَكْرُمَةٍ فَأَجْتدِي مِنهُمُ مَقْتاً وحِرْمَانَا
وكَيفَ أُنزِلُ آمالِي بِمُقْرِفَةٍ مَصُّوا أَفَاوِيقَ ثَدْيِ اللُّؤْمِ وِلْدَانَا
يَرَى جَوَادُهُمُ العَافِي فَتَحْسَبُهُ رَأَى هِزَبْراً هَرِيتَ الشِّدْقِ طَيَّانَا(١)

لقد كان يداري هذه الفئة من الناس ، وكان بنو عمه يمنعونه من هجائهم ويعقلون لسانه عن الإساءة إليهم وهو في الأحساء، فلما رحل إلى العراق وجد متنفساً يخفف به همومه فينطلق لسانه في هجاء هؤلاء القوم بعدما سئم من مداراتهم:

ولَوْ أَنِّي أُدَارِي قَرْمَ قَومٍ كَرِيمَ المُنْتَهَى حَامِي الذِّمَارِ
عَذَرْتُ وقُلتُ للنَّفسِ اطْمَئِنِّي وَمِلْتُ إلى التَحَلُّمِ والوَقَارِ
ولكِنِّي أُدَارِي كُلَّ قَرٍّ يَجُلُّ إذَا يُعَدُّ مِن القَرَارِ
كَلِيلِ الطَّرْفِ عن سُبُلِ المَعَالِي بَصِيرٍ بالمَآثِرِ والأثَارِ
تَعَلَّقَ مِنْ عُرَى قَومِي بِسَبٍّ ضَعِيفٍ لَيسَ بالسَبَبِ المُغَارِ
فأَصْبَحَ كالحُبَارَى مُقْذَحِرّاً بِحِذْرِيَةٍ لَهُ لا كَالْحِذَارِ(٢)

(١) الديوان ص ٦٠٢. والخمَّان: الرمح الضعيف ومن الناس أراذلهم، والكَرّ: حبل من القِدّ يصعد به على النخل؛ والمرّ: الحبل القوي والمِسْحاة: آلة تقلّب بها الأرض، والغِرّ: من لم يجرب الأمور، والمقرف: مختلط النسب، وهريت الشدق: واسعه.

(٢) الديوان ص ٢١٧ والقَرْم: السيد؛ والسبّ: الحبل، والمُقْذحِرّ: المتهيىء للشر والحِذْرِية: عفرية الديك وهي ريش في عنقه ينتفش للقتال، والحذار: المحاذرة والقَرّ: الفرُّوجة، والقرار والقرارة: الغنم.

إنه يكره هؤلاء المفسدين ويعرّض بهم في كل مناسبة كما في سياق مديحه لأحد أقربائه حين يصور خستهم ونذالتهم وتخلُّقهم بأخلاق اليهود في سبيل المال، مبدياً ضيقه وملله من العيش في مجتمع يسود فيه مثل هؤلاء الأنذال، وتنتقص بينهم مكانة الأشراف، وتضيع فيه قيمة النبلاء، وقد ساءه أن يركن بعض الأمراء العيونيين إلى هذه الفئة من الواشين والحاقدين:

أَهْلَكْتَ قَومَكَ في رِضَا الوَاشِي بهَا ... مَا أَقْرَبَ الـوَاشِينَ مِنْكَ وأَبْعَـدَا
فاسْتَبْقِ قَومَكَ للخُطُوبِ وَلَا تَكُنْ ... سَيفـاً عَلَيهم بـالهَـلَاكِ مُجَرَّدا
ومِنَ الشَّقـاءِ إقَـامَتِي في بَلْدَةٍ ... لله جَـدُّ عَـدُوِّهَـا مَـا أَسْعَدَا
مَـا بَينَ قَومٍ لايُصَـانُ لِجَـارِهِمْ ... عِـرضٌ ولا يُرْجَى لِغَيِّهُمُ هُـدَى
سَـوْدَاءُ مُـومِسَـةٌ أَجَـلُّ لَـدَيهِمُ ... مِنْ عَـالِمٍ حَبْرٍ وأَدْنَى مَقْعَـدَا
وبِمُصْلِحٍ لا بَـلْ بأَلْفَي مُصْلِحٍ ... لا يَعْدِلُونَ خَبِيثَ أَصْلٍ مُفْسِدَا
لَوْ قِيلَ كُنْ هُـوداً لأَشْرَفِ رُتْبَـةٍ ... منهُمْ ودُونَـكَ دِرْهَمـاً لَتَهَـوَّدَا(١)

إن المتتبع لشعر ابن المقرب ليعجب حين يجد الشاعر يهجو أبناء عمه وأعوانهم، وقد كان يمدحهم ويكثر من المديح إلى درجة طغى معها المديح على بقية أغراضه، وبلغ عدد ممدوحيه من بني عمه حداً يسترعي الانتباه، كما كان يعاتبهم ويستعطفهم ويسترضيهم بما لا يتفق مع التعريض بهم وهجائهم لكنَّ هذا العجب ما يلبث أن يزول إذا علمنا أن محنة الشاعر ظلت تؤرق عينه وتقض مضجعه خمسة وعشرين عاماً تقريباً حيث يمكن خلالها أن تتغير الأحوال وتتعدد المناسبات، مع ما يبرر لجوءه إلى الهجاء في فترات يأسه وقنوطه، وفي سنوات ضعف الدولة العيونية واستكانة أمرائها. ثم إنه ليس بالضرورة أن يكون هذا الهجاء موجها إلى الأمراء الذين مدحهم وأثنى على فعالهم. ونحن لا نجد في التقديم لقصائده ما يوضح التاريخ الذي قيلت فيه كل قصيدة سوى القليل منها، وإلّا لأمكن المقارنة

(١) انظر الديوان ص ١٦٧.

(٢) الديوان ص ١٦٩.

بينها وتحديد من يعنيهم الشاعر من بني عمه بهذه المقاطع من الهجاء الوارد في بعض القصائد، ولم يكن ابن المقرب ليعين الدارس لشعره على تسمية مَنْ هجاهم من عشيرته، فقد كان يتعمد أن يغفل أسماءهم ولا يخص أحداً منهم بالهجاء في قصائد مستقلة. ولعله كان يخشى بطشهم وأذاهم من جديد، أو لعله لا يريد أن يلحق المثالب والعيوب صراحة بأسرته العيونية التي طالما افتخر واعتز بالانتساب إليها، وربما كان يأخذ العبرة مما وقع فيه الشعراء قبله حينما هجوا من كانوا بالأمس يحمدونه ويمدحونه، فلم يُرد لنفسه أن يقف هذا الموقف أو يسجل عليه التاريخ هذا التناقض في تبدل المواقف ، وإنك لتراه يهجو ضمن قصائد مديحه لبني عمه فلا تدرك من يعني بهذا الهجاء أهم من عشيرته أو أعوانهم؟ :

إليكَ أَبَا المَنصُورِ عِقْدَ جَوَاهِرٍ ... قَلَمَّسُهَا صَدْرِي وَغَوَّاصُهَا فِكْرِي
نَفِسْتُ بِها عَمَّن سِوَاكَ وسُقْتُهَا ... إليكَ لِعِلْمِي أنَّها أَنْفَسُ الذُّخْرِ
وَعَدَّيْتُهَا عَنْ رِقِّ لُؤْمٍ مُوَكَّرٍ ... قَلِيلِ اكْتِرَاثٍ بالمَحَامِدِ والأَجْرِ
يَرُوحُ ويَغْدُو مِثْلَ غَيْمٍ تَرَى لَهُ ... صَوَاعِقَ يُحْرِقْنَ البِلَادَ بِلَا قَطْرِ
تَصَدَّرَ مِنْ شُؤْمِ الزَّمَانِ وإنَّهُ ... لأَخْفَى مِنَ البُعْصُوصِ في نَقْرَةِ الظَّهْرِ
فَصَارَ مَعَ الجُهَّالِ صَدْراً وإنَّهُ ... لَمِنْ خُبُثِ الأَعْجَازِ عندَ ذَوِي الخُبْرِ
مَضَى زَمَنٌ والهُرْطُمَانُ طَعَامُهُ ... وَبَيُّوتُ ما يُبْتَاعُ بالطِّينِ والسِّدْرِ
تُشَرَّفُ نَعْلِي عَنْ قِيَامٍ بِبَابِهِ ... وتُكْرَمُ عن مَشْيٍ بِسَاحَاتِهِ الغُبْرِ(١)

وأغلب الظن أن هذا الهجاء وأمثاله مما تقدم موجّه إلى بعض رجال عشيرته أو أعوان بني عمه وأنصارهم وحاشيتهم ، ولم يكن موجّها إلى سواهم من غير أسرته والمحيطين بها، فلم يكن للشاعر أعداء خارج البحرين ـ حسبما ورد في سيرته ـ سوى ابن الدُّبَيثي ضامن المكوس في واسط، وهو المهجوّ الوحيد الذي صرح

(١) الديوان ص ٢٠٤ والقَلَمَّس: البحر، والمُوكَّر: من الوكر ومن معانيه أن تضرب الرجل على أنفه بجمع يدك ولعله يعني أنه مهان، والبُعصوص: الضئيل وعظم صغير في أسفل الظهر، والهُرطُمان: حَبٌ متوسط بين الشعير والحنطة، والبيُّوت: الماء البارد والبائت من الخبز.

باسمه وهجاه هجاء قاسيا. وذلك هو اللون الثاني في هجائه.

ولقد اقتصر هجاؤه لابن الدبيثي على قصيدتين فقط، بلغت الأولى ثمانية وأربعين بيتا، والثانية واحداً وأربعين. وتعتبران من قصائده القليلة التي اقتصرت على غرض واحد فقط. والسبب الذي جعله يهجوه هجاء مقذعاً فاحشاً خرج فيه عن طوره هو المكس الباهظ الذي فرضه ابن الدبيثي على حديدٍ انحدر به الشاعر من بغداد بلغ نصف قيمته:

نِصْفُ البِضَاعَةِ حِينَ تَظْفَرُهَا ... مَكْسٌ لَقَدْ بَالَغْتَ في النُّكْرِ[1]

ويبدو أن ابن المقرب قد مدحه بسبعة أبيات[2] ربما ظنَّ أنها ستشفع له في إعفائه من دفع المكس أو تخفيفه، ولكن ابن الدبيثي لم يُلقِ بالاً لمديحه وأصر على قبض هذا المكس الباهظ، فغضب الشاعر وندم على مدحه وتوعده أن يهجوه بمائه بيت مقابل كلِّ بيت امتدحه فيه:

هـذَا جَزَاءُ النَّظْمِ فيكَ وَقَدْ ... يُجْزَى الضِّرَاطَ مُقَبِّلُ الجُحْرِ
قَابَلْتَها إذْ أُنشِدَتْ بِرَضاً ... وعَقَقْتَها فَوَقَعْتَ في خُبْرِ
والعُذْرُ لِي فيمَا هَذَيْتُ بِهِ ... إن كَانَتِ الحُمَّى مِنَ العُذْرِ
أَلاَ فَمِثْلُكَ لا أُجُودُ لَهُ ... بالمَدحِ في نَظْمٍ وَلاَ نَثْرِ
هِيَ سَبْعَةٌ تأْتِيكَ سَبْعَ مِائي ... تُنْسِيكَهَا والحَصْدُ لِلْبَذْرِ
عَنْ كُلِّ بَيتٍ صَادِرٍ مِائَةٌ ... وَجَزَاءُ مِثْلِي لَيسَ بالنَّزْرِ
فاصْبِرْ لَهَا يَانَذْلُ لا كَرَماً ... فالكَلبُ يُجْزَى القَتْلَ بالعَقْرِ[3]

ولقد أسرف ابن المقرب في هجاء ابن الدبيثي بكلمات مبتذلة وعبارات نابية

(١) الديوان ص ٢٢٧.

(٢) ليس في ديوان ابن المقرب مدح لابن الدبيثي، انظر توثيق شعره فيما تقدم ص ١١٤ .

(٣) الديوان ص ٢٢٨.

حتى وصل في ذلك إلى شتم أمه ووصفِها بأوصاف منكرة قبيحة:

بِـعْ وَاسِـطاً بـالنَّـأْيِ والهَجْـر ... وَدَع المُـرُورَ بهـا إلَى الحَشْـرِ
أَرضٌ يُـدَبِّـرهَـا ابْنُ صَابِئَةٍ ... شَـابَتْ مَفَـارِقُهَـا عَلَى الكُفْـرِ[1]

ثم راح يُقذِع في شتم أمه ويطعن شرفها ويلصق بها أسوأ الصفات بعبارات نعِفُّ عن ذكرها لبذاءتها المثيرة للاشمئزاز، ثم يستهزيء بابن الدبيثي ويصور لحيته بأبشع صورة وكأنه يتابع ابن الرومي[2] ويقلده في وصف اللحية مع زيادة الإقذاع:

لَـكَ لِحْيَةٌ كـالتَّيْسِ مَـا بَـرِحَتْ ... مِنْ بَـوْلِـهِ في نَـاطِفٍ تَجْـرِي
وبِهَـا إذَا حَاضَتْ حَليلَتُـكَ الرَّ م ... غْـنَـاءُ تَـعْـرِفُ أَوَّلَ الـطُّهْـرِ
وَلَسَـوفَ يَحْـلِقُهَـا أُخُـوكَـرَمٍ ... زَاكِي الأُرُومَـةِ طَيِّبُ النَّجْـرِ
وَهِي الَّتِي غَـرَّتْـكَ فَـابْـغِ لَهَـا ... بَيتـاً يُحَصِّنُهَـا مِـنَ الـظَّهْـرِ
واجْمَـعْ حَـوَالَيْهَـا لِيَـمْنَعَهَـا ... مَا اسْطَعْتَ مِنْ مُسْتَحْكَمِ الجَعْرِ
فَلَقَـدْ أَتَـاهَـا مـا سَيَتْـرُكُهَـا ... مَـرْدَاءَ خَـالِيَـةً مِنَ الشَّعْـرِ[3]

لقد غضب ابن المقرب لأن الدبيثي قد تنكّر له ولم يعرف قدره ومكانته. ولعل ابن الدبيثي لم يكن يدرك مقدرة الشاعر على مثل هذا الهجاء المقذع المؤلم، إذ لم يُعرف عن ابن المقرب قبل هذا الهجاء أنه كان سليط اللسان بمثل هذا القدر من البذاءة، فلما احتقره واستصغر شأنه أراد الشاعر أن يثأر منه بقسوة وشدة لا قِبَلَ له بها، متعالياً عليه مفاخراً بمقدرته ورفعة قومه:

يَـا تَـيْسُ قَـرْنُـكَ كُلُّهُ نَـقَـدٌ ... في النَّطْحِ لا يَقْوَى عَلَى الصَّخْرِ
مَهْـلاً فَقَـدْ نَبَّهْتَ لَيْثَ شَـرىً ... أَظْـفَـارُهُ ونُـيُـوبُـهُ تُفْـرِي
مِنْ مَعْشَرٍ لَبِسُـوا العُـلاَ ونَشَـوْا ... بَيْنَ الصَّـوَارِمِ والقَنَـا السُّمْـرِ

(١) الديوان ص ٢٢٤.

(٢) انظر ديوان ابن الرومي ٢/٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) الديوان ص ٢٢٥.

أَنْكَـرْتَنِـي ولَسَـوفَ تَعْـرِفُنِـي فَتُقِرُّ أَنِّـي وَاحِـدُ العَصْـر
فَـاذْهَبْ فِـرَاراً كَيفَ شِئْتَ فَمَـا تَنْجُـو بأَجْنِحَـةِ القَـطَا الكُـدْرِ[١]

ولعل ابن الدبيثي أيضاً كان يعوِّل على شاعريته. فقد كانت له مشاركة في الشعر والنثر، فظنَّ أن ابن المقرب لن يجرؤ على هجائه خوفاً منه، ولكن ابن المقرب يهزأ بشاعريته ويتحداه أن يدفع عن نفسه، وأن يفرض مكساً على هذا الشعر الذي هجاه به كما فَرَضَ مكساً على الحديد حيث يقول:

وَلَـقَـدْ تَسَمَّيْتَ الأَدِيبَ وَفِـي أَدَبِ الحِمَـارِ عَجَـائِبُ الـدَّهْـرِ
لَـوْ كُنْتَ يَـا نُـوتِـيُّ ذَا أَدَبٍ لَخَلَعْتَ عنكَ مَلابِساً تُعْرِي[٢]

كما يقول:

ارْدُدْ عَـلَيَّ بِـلاَ مُـرَاجَـعَـةٍ مَـا خَانَنِي في نَـظْمِـهِ فِكْـرِي
تُدْعَى السَّدِيـدَ وَمَا السَّـدَادُ بِأَنْ تَسْتَنْكِـحَ الحَسْنَـا بِـلاَ مَهْـرِ
لَـكَ مُؤْنَةُ العُمُـدِ الخِبَاثِ وَقَـدْ وُزِنَتْ فَهَلْ لَكَ مُؤْنَـةُ الشِّعْرِ[٣]

وقد سخر ابن المقرب من بعض الناس حين قالوا: إن ابن الدبيثي شاعر مجيد، ومثلك يحمي على أهل الأدب[٤] فراح يستهزيء به وبأدبه في قصيدته الثانية:

قَـالُـوا: الـدُّبَيْثِيُّ ذُو قَـوَافٍ مُحْكَمَـةُ النَّـظْمِ مُسْتَقِيمَـهْ
فقُلتُ: بُـعْـداً لَكُـمْ وَسُحْـقـاً فَـكُـلُّ أَفْـهَـامِكُمْ سَقِيمَـهْ
شِعْـرُ الـدُّبَيْثِيِّ لَـوْ عَقَلْتُمْ أَبْـرَدُ مِـنْ أُمِّـهِ الـلَّئِيـمَـهْ

(١) الديوان ص ٢٢٦ و٢٢٧.

(٢) الديوان ص ٢٢٦. والنُّوتي: الملاَّح في البحر.

(٣) الديوان ص ٢٢٨. وهو يشير بهذه الأبيات إلى مديحه لابن الدبيثي الذي ندم عليه.

(٤) انظر الديوان ص ٥٠٥.

هَـوَ الَّـذِي لَـوْ تَعْلَمُـونَ كَلْبٌ فَهَـلْ لِنَبْـحِ الكِـلاَبِ قِـيمَـهْ
إنَّـا إلَـى اللهِ مِـنْ طَـغَـامٍ تَعْتَقِـدُ الفَـضْـلَ في بِـهِيـمَـهْ
الـلُّؤْمُ والـشُّـؤْمُ مِـنْـهُ جُـزْءٌ والـغَـدْرُ والإِفْـكُ والنَّـمِـيـمَـهْ
وَيُـنْسَـبُ الـعَـارُ والـدَّنَـايَـا طُـرّاً إلَى أُمِّـهِ القَـدِيـمَـهْ(١)

ثم راح يصفه بحامي المخازي وحارس الضلال ويرميه بالباطنية وصحبة الشيطان، ويؤكد أن المخازيَ سوف تبكيه، وأن جيوش الضلال سوف تنهزم حين يموت ابن الدبيثي:

مَتى يَمُتْ تَصْـرُخُ المَخَـازِي يَـا أَبَتَـا وَاشَـقَـا الـيَـتِـيـمَـهْ
بَـعْـدَكَ حَـلَّتْ بِـنَـا أُمُـورٌ مُـقْـعِـدَةٌ لِـلْعُـوَا مُقِـيـمَـهْ
رَاحَتْ جُيُـوشُ الضَّلالِ فَـوْضَى قَـدْ هُـزِمَتْ أَسْـوَأَ الهَـزِيمَـهْ
وأَدْرَكَ الـحَـقُّ بَـعْـدَ ذُلٍّ مِـنَّـا بِـآثَـارِهِ الـمُـنِـيـمَـهْ
مِـنْ أَيـنَ لِـلظُّلْمِ بَـاطِـنِـيٌ مِثْلُكَ يَسْتَصْغِرُ الـعَـظِيمَـهْ
يَـومُـكَ أَبْقَـى أَخَـاكَ دِيْنـاً أبليس مُسْتَهْلَكَ الـعَـزِيـمَـهْ
قَـدْ كُنتَ رِدْءَاً لَـهُ تُـسَـاوِي كُـلَّ شَيَـاطِيِنـهِ الـرَّجِيمَـهْ(٢)

ولسوف تفرح النار حين يُلقى فيها ابن الدبيثي وتتلقاه زبانيتها مثلما كان في حياته يتلقى السفن ويفرض عليها مكوسه:

يَـا فَـرْحَـةَ النَّـارِ يَـومَ تَـأْتِي إلـى دِيَـارِ الـبَـلاَ وَذِيْـمَـهْ
كَـمْ يَـتَـلَقَّـاكَ مِـنَ زَبَـانٍ قَسَـاوَةُ الـطَّبْـعِ فيـهِ شِيمَـهْ
مِـثْـلَ تَـلَقِّـيـكَ سُفْـنَ مَـاءٍ تَحْمِـلُ مِنْ بَـابِـلٍ لَـطِيمَـهْ(٣)

وكما غلا في شتم أم الدبيثي في قصيدته الأولى فقد رماها بقصيدته الثانية

(١) الديوان ص ٥٠٥.

(٢) الديوان ص ٥٠٦.

(٣) الديوان ص ٥٠٧. والوذيمة : الهدية، واللطيمة: المسك وما يتَّجِر به العطارون.

بفاحش القول وقبيح العبارات وبالَغَ في شتائمه:

إنَّ بَـغِـيّـاً غَـذَتْـكَ طِـفْـلاً ... فِـيـمَـا أَتَـتْـهُ لَـمُـسْـتَـلِـيـمَـه
لأَنَّـهَـا قَـدْ رَأَتْ عِـيَـانـاً ... شُؤْمَكَ مُذْ أَنتَ في المَشِيمَهْ[1]

ويعود أيضاً إلى سخريته بابن الدبيثي ولحيته، وحتى بلدة ابن الدبيثي وهي واسط لم تسلم من هجائه، فهي أرض سيئة مظلومة بهذا العامل الظالم الذي يفرض المكوس على ثياب الغرباء، كما لم يسلم مؤسس هذه البلدة (الحجاج بن يوسف الثقفي) من شتائم ابن المقرب وسخطه:

حَتَّى إِذَا نَشَتْ بَعْدَ حِينٍ ... وَطَـالَـتْ اللِّحْـيَـةُ اللَّئِيـمَـهْ
أَصْبَحْتَ عَشَّارَ أَرضِ سُوءٍ ... مَـا بَرِحَتْ أَرضُهَـا مَضِيـمَـهْ
أَسَّـسَـهَـا شَـرُّ آدَمِـيٍّ ... بِـذَاكَ كُـلُّ الـوَرَى عَـلِيـمَـهْ
قَـومُـهُ بَـعْـضُـهُـمْ بِـبَـعْضٍ ... وَأَنـتَ مِـنـهُـمْ أَقَـلُّ قِـيـمَـهْ
قَـاتَـلَـكَ اللهُ كَـمْ تَـعَـامَـى ... وَتَـعْكِسُ الـسُّـنَّـةَ الـقَـوِيـمَـهْ
تُـلْزِمُ زَادَ الـغَـرِيـبِ مَـكْـسـاً ... وَثَـوبَـهُ يَـالَـهَـا عَـظِـيـمَـهْ
مَـهْـلاً فَـلِلظَّـالِـمِـينَ حَـتْـمـاً ... مَـصَـارِعُ كُـلُّـهَـا وَخِـيـمَـهْ[2]

ذلك هو هجاء ابن المقرب لابن الدبيثي، وهو هجاء بذيء فاحش لا يتناسب والروح العامة لشعره، كما يتنافى مع ما التزم به الشاعر من الترفع عن سفاسف الأمور، ومن التحلي بمكارم الأخلاق، والتطلع إلى مراتب الشرف والرجولة. ومن المستغرب أن ينزل بشعره إلى هذا اللون من السِّباب والشتائم، وأن يهبط به إلى هذا الدَّرْك من فاحش القول وساقطه وهو الذي يفتخر بفضله وعزته وأنفته وكبريائه وإمارته وشرف عشيرته، ولعله قد أنشأ هاتين القصيدتين تحت ظروف نفسية خاصة، وفي ساعة غضب متأثراً بما أقدم عليه ابن الدبيثي في فرض مكس باهظ

---

(١) الديوان ص ٥٠٨ ومستليمة: مستحقّة للملامة.
(٢) الديوان ص ٥٠٩.

على بضاعته حتى خرج من واسط خالي اليد[1]، في الوقت الذي فقد فيه أمواله وأملاكه بعد أن اجتاحها بنو عمه ، ثم يأتي ابن الدبيثي ليزيد من فقره وقلة ذات يده، ويدل على ذلك ما كتبه إلى شمس الدين باتكين أمير البصرة يستعين به على دفع المكس[2]، كما أن اكتفاءه بهجائه بقصيدته الثانية التي تبلغ واحداً وأربعين بيتاً بعد أن كان قد توعّده في نهاية القصيدة الأولى بأن يهجوه بسبعمائة بيت يدل على أنه قد أنشأ هذا الهجاء وهو يكاد يتميّز من الغيظ على ابن الدبيثي.

ب ـ الوصف:

لا نكاد نجد وصف المحسوسات في شعر ابن المقرب إلا كالومض الخاطف يظهر في البيتين والثلاثة، ثم لا نلبث أن نفقده لنجد الشاعر وقد انتقل إلى غرض آخر، فليس ابن المقرب من أولئك الشعراء الذين يسترسلون في الوصف أو يطيلون فيه. فإذا تراءى له منظر أو مرت بخاطره ذكرىً عابرة من بعض مشاهداته، ثم أراد الوقوف عندهما للوصف والتصوير اكتفى من ذلك بأبيات قليلة جداً، فلو وقع نظر القاريء على أول الأبيات التي يذكر فيها الناقة على سبيل المثال لا نتظر منه أن يُشْرِكَهُ في رحلته، وأن يصور له راحلته في وخدها وكلالها كما فعل سابقوه من الشعراء، ولكنه يختصر ويوجز:

حَسْبي مِنَ المَالِ ذَيَّالٌ وسَابِغَةٌ ... وَصَارِمٌ مُرهَفُ الحَدَّين ذُو شُطَبِ

وحُـرَّةٌ مِنْ بَنَـاتِ العِيـدِ نَـاجِيَةٌ ... لا تَعرفُ السَّيرَ غَيْـرَ الشَّدِّ والخَبَبِ

تَخَالُهَا بَعْدَ خِمْسِ الرَّكْبِ رَائِحَةً ... دَوِّيَّـةً فَقَـدَتْ رَأْلاً بِـذِي نَجَبِ

لأَطْلُبَنَّ العُلاَ جَهْدِي طِلابَ فَتىً ... يَدُوس بالعَزْمِ هَامِ السَّبْعَةِ الشُّهُبِ[3]

---

(١) انظر الديوان ص ٢٢٨.

(٢) انظر الديوان ص ٢١٢.

(٣) الديوان ص ٧٦ والذيّال: الفرس الطويل الذيل، والسابغة: الدرع الواسعة، والشطب: طرائق =

وإذا رحل إلى ممدوحه ثم ذكر الصحراء الموحشة التي قطعها في سفره والأخطار التي تعرض لها توقعنا منه أن يرسم لنا صوراً يصف فيها الصحراء وأهوالها بوديانها وأشجارها ووحوشها وحشراتها كما كان ذو الرمة يبدع في رسم مثل هذه الصور، ولكنه لا يلمح من الصحراء إلا صوراً خاطفة يخرج بعدها مباشرة إلى المديح:

فَكَمْ لِذَا اليَوم من دَوِّيَّةٍ قَذَفٍ ... قَطَعْتُ والقَلْبُ في أَهْوالِهَا يَجِبُ
تَبْدُو بها الجِنُّ لي حِيناً وآونَةً ... تَبُثُّ أَصْوَاءَهَا حَولي وَتَنْتَحِبُ
فَحِينَ أَكْثَرَتِ التَهويلَ قُلتُ لَهَا ... هذَا التَّهَوُّلُ جِدٌّ مِنكِ أو لَعِبُ
حَسْبِي أَبُو جَعْفَرٍ مِمّا يَدِبُّ عَلَى ... وَجْهِ البَسِيطَةِ أَوْ يَعْتَرُّ أو يَثِبُ[1]

لقد كان أمام الشاعر مناظر كثيرة يمكن أن يصفها لنا ويطيل في رسم أبعادها وجوانبها. كان يركب البحر في بعض رحلاته إلى العراق، فيرى تلاطم الأمواج وصخبها، ومدَّ البحر وجزره، وزرقة السماء والماء، وما يفعله البحارة على ظهر السفينة، وسوى ذلك من المناظر التي ألفها في البحر. كان يألف مناظر الصحراء تقطعها راحلته، وتمتد أمام عينيه سهولها ووديانها، وترتفع أمام ناظريه جبالها وهضابها، ثم لا نراه يسهب في وصف هذه المناظر، بل يمر على ذكرها مرور الكرام، وكثيراً ما جمع بين صور البر والبحر ولكنه لا يقف عندها رغم مادتها الصالحة للوصف، ولا يخصها إلا بأبيات قليلة لا تعد شاهداً على هذا الغرض كما في قوله:

إِلَيكَ مِنْ بَلَدِ البَحْرَينِ أَنْهَضَنِي ... هَمٌّ لَـهُ أَنْفُسُ الأَشْرَافِ تُبْتَذَلُ
كَمْ جُبْتُ دُونَكَ مِنْ مَجْهُولَةٍ قَذَفٍ ... تِيهٍ قَلِيلٌ بِهَا حِلٌّ ومُرْتَحَلُ

السيف تكون على متنه، والعيد: فحل نجيب تنسب إليه الإبل العيدية، والناجية: السريعة، والخِمس: أن ترعى الإبل ثلاثة أيام وترد الماء في الرابع، والرأل: ولد النعام.

(١) الديوان ص ٩٣. والدّويّة: البرية، وفلاة قذف: تتقاذف بمن سلكها والمعترّ: الغليظ الكثير اللحم.

ومُــزْبــدٍ لا يَلَذُّ النَّــومَ رَاكِبُــهُ   لَهُ إذَا اضْطَرَبتْ أَمـواجُهُ زَجَـلُ
وحُسْنُ ظَنِّي وَمَا يُثنى عَلَيكَ بِهِ   أَجاءَني والزَّمَانُ المُفْسِدُ الخَبَلُ[1]

وقوله:

إلَيكَ شَدّاً مِنَ الأَحْسَاءِ أَنْهَضَني   عَزْمُ المُلُوكِ وحَظٌّ غيرُ ذِي كَشَمِ
وَقَدْ تَحَقَقْتُ أنَّ الرُّشْدَ يَصْحَبُنِي   فَمَا أُحَاذِرُ قَـرْعَ السِّنِّ مِنْ نَدَمِ
كَمْ جُبْتُ دُونَكَ مِنْ تِيهٍ يَتِيهُ بِهَا   قَلْبُ الدَّلِيلِ مِنَ الإشْفَـاقِ والسَّأَمِ
ومُـزبـدٍ يَتَـرَاءَى المَـوتَ رَاكِبُــهُ   يَرْمِي بِمُقْلَولِب الأَمْوَاجِ مُرْتَطِمِ
قَدْ قُلتُ للنَّفسِ يوماً وهْيَ مُجْهِشَةٌ   والمَوجُ مِنْ هازِمٍ فِيـهِ وَمُنْهَزِمِ
قِـرِّي فَلَوْ شَاءَ أَمْـراً فَهْوَ بَـالِغُهُ   والمَوتُ آتٍ وَمَا تَلْقَيْنَ كَالحُلُمِ[2]

هكذا يمضي ابن المقرب في وصف الصحراء والبحر - إن جاز لنا أن نسمي مثل هذه الأبيـات وصفا - فلم نر في شعره ذلك الشمول والإحاطة واستكمال جوانب الصورة في وصف هذه المحسوسات اللهم إلا وقوفه مرة واحدة يصف السفينة ويقارنها بالناقة، فالسفينة لا تكِل ولا تتعب، تسوقها الريح فلا تقف لترعى أو تشرب، جانباها مطليان ولكن ليس للشفاء من الجرب كما تطلى الإبل، مقودها في مؤخرتها كزمام الناقة في رأسها:

أَرَى المَعَــالِي تَقْتَضِي عَــزْمَتِي   تَعَسُّفَ البِيـدِ وَخَـوضَ الـطَّوَامْ
بِكُــلِّ مَــطْلِيِّ المِـلاطَينِ لَـمْ   يَجْرَبْ وَلَمْ يَرْعَ بِمَرْعَى السَّوَامْ
تَسُــوقُـه الــرِّيــحُ وَتَحْتَثُّــهُ الْــ   ـجَلُّ وفي الوَجْعَـاءِ مِنهُ الزِّمَامْ
لَا يَعْــرِفُ الإعْيَــاءَ في سَيْـرِهِ   وَلَا يُبَــالِي أَمَـضَـى أَمْ أَقَــامْ
وَقَـدْ تَسَاوَى عِنْـدَهُ في المَـدَى   يَــومٌ وأُسْبُــوعٌ وشَهــرٌ وَعَــامْ
إذَا يَـمَسُّ الأَرْضَ في جَـرْيِــهِ   خِيفَ عَـلَى رَاكِبِــه الاصْـطِلَامْ

(١) الديوان ص ٤٤٦.

(٢) الديوان ص ٥٦١. والكشم: النقصان.

أَوْ كُـلِّ رَوْعَـاءَ غُـرَيـرِيَّـةٍ تَـزِفُّ بالـرَّحْـلِ زَفِيفَ النَّعَـامْ[1]

إننا لو بحثنا عن سبب ندرة الوصف في شعر ابن المقرب وقلة اهتمامه بإشباع هذا الغرض رغم ثراء شاعريته وطول نَفَسه في الأغراض الأخرى لم نجد سببا لذلك غير انشغاله بمحنته ومشكلاته الخاصة التي تصادف هوى في نفسه ورغبة في الحديث عنها كما في شعر الشكوى والعتاب والفخر، وقد رأينا في الأمثلة السابقة أن همومه لا تفارقه حتى في مقام ذكر الصحراء والبحر حينما يقرن ذكرها بالحديث عن همِّه الذي أنهضه من البحرين ووَجَله وخوفه وهو يقطع الصحراء الموحشة أو يركب البحر المضطرب. فلقد تركت مصيبته أثراً عميقاً في نفسه، وخلقت منه شاعراً مرهف الإحساس ، لا يلتفت كثيراً إلى مشاهداته الحسية بقدر ما يهتم بتصوير حالته النفسية، ولعل الدليل على ذلك أننا نرى نسبة الوصف في شعره تزيد كلما راح يتحدث عن المعنويات لا المحسوسات،حيث تبدو صور الوصف أكثر ظهوراً في المعاني التي تشغل فكره في شئونه وشئون قومه ودولته، كما نراه يصف حالة قومه وما أصيبوا به من ضعف وهوان في أواخر عهدهم حينما تجرأ البدو على حكام الدولة العيونية مصوراً موقفه وعزة نفسه عن البقاء في بلـد شاع فيه النفاق وتسلم الأوباش فيه زمام الأمور:

وَأَهْجُرُ داراً لَو يَحِلُّ ابْنُ قَاهِثٍ بِهَا رَاحَ مَسْحَوتاً مِنَ المَالِ مُجْحَدَا
يُـدَبِّـرهَـا أَوْبَـاشُ قَـوم تَنَكَّبُـوا عَنِ الرُّشْدِ حَتَّى خِلتُ ذَا الغَيِّ أَرشَدَا
إِذَا رَضِيَ الأَعْـدَاءُ منهُمْ مَهَانَـةً بأَخْذِ الجِزَى عَدُّوهُ نَصْراً مُؤَيَّدَا
أَقَامُوا الأَغَانِي بالمَغَانِي وضَيَّعُـوا كِـرامَ المَسَاعِي والثناء المُخَلَّدَا
فَلَو أُحْسِنُ التَّصْفِيقَ والرَّقْصَ فِيهِمُ ورَفْـعَ المَثَانِي والغِنَـاءَ المُهَـوَّدَا
لَعِشْتُ عَـزِيزاً فيهِمُ وَلَمَـا اجْتَرَا يَمُـدُّ إليَّ الضَيمُ بَاعـاً ولا يَـدَا

(١) الديوان ص ٥٧٣ . والملاطـان : جانبا السفينة، والجَلّ الشراع، والوجعاء: مؤخر السفينة ، والاصطلام: الاستئصال، والروعاء الغريرية: الناقة المنسوبة إلى غرير وهو فحل من الإبل لمهرة بن حيدان. وفي الديوان (عزيزية) وهو على الغالب تصحيف.

وَلَا رَاحَ شُرْبُ المُقْرِفِينَ ذَوِي الخَنَا بِهَا نَهلًا عَبّاً وشُربِي مُصَرَّدَا
وَلَو أنَّنِي كُنتُ اتَّخَذْتُ رَذِيَّةً أُوَيْطف رَغَّاءً لَدَى الشَّدِّ أَكْبَدَا
وَصَاحَبْتُ مِنْ أَدْنَى البَوَادِي مُكَشَّماً ضَعِيفَ الأَيَادي قَاصِرَ الجَاهِ مُسْنَدَا
لَكَانَتْ سَنِيَّاتُ الجَوَائِزِ تَرْتَمِي إِلَى حَيثُ أَهْوَى بَادِيَاتٍ وَعُوَّدَا
ولكِنَّنِي لم أَرضَ ذَاكَ صِيَانَةً لِعِرْضَيَ أَنْ أُعْطِي المُعَادِينَ مِقْوَدَا[1]

بل إن مثل هذه المعاني لتشد الشاعر إليها شدا حتى ترغمه على رسم بعض الصور في وصف حالة قومه ومقدار استكانتهم وضعفهم في سنواتهم الأخيرة. وربما تستثير الشاعرَ حادثة صغيرة يصف بعض جوانبها فتجرُّه إلى تخصيص قصيدة كاملة على أثر هذه الحادثة، كما هو الشأن حين قتل أهل الأحساء رجلاً من البدو من العقيلات يدعى شكر بن مفرح بن حجاب بن عقيل، وكان لصّاً مفسداً يتعرض للفقراء والضعفاء يسلب ثيابهم ويعقر حميرهم. ولكن ضعف الأمير العيوني أبي القاسم بن محمد جعله يرضخ للتهديد ويقبل دفع دية البدوي[2]. فلما أراد الأمير تسليم دية شكر إلى أهله راح ابن المقرب يتحسر لهوان قومه ويسخر من استسلامهم للبدو، ويصف أعمال هذا البدوي في قطع الطريق، ويعجب كيف يُودَى لص مفسد، مذكِّراً قومه بنتاج ضعفهم أمام عُقيل التي أنكرت كل فضل لقومه عليها:

أَتَرضَونَ ذَا النَّقْصَ الَّذِي مَا وَرَاءَهُ وَأَنْتُمْ إذَا صَالَتْ مَعَدٌّ سِطَامُهَا
وَيُودَى قَتِيلٌ كَانَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يُجَمِّعُ أَوْبَاشاً كَثِيرٌ طَغَامُهَا
وَيَقْطَعُ طُرْقَ المُسْلِمينَ نَهَارُهُ عِلَاناً وَلَا يَثْنِيهِ عَنهَا ظَلَامُهَا

---

(١) الديوان ص ١٥٦. وابن قاهث: هو قارون بن قاهث المشهور بثرائه وكثرة ماله وهو الذي ذكره الله عز وجل في سورة القصص، والمهوَّد: من التهويد وهو ترجيع الصوت، والمقرفين: المتَّهمين بأشياء، والنهل: أول الشرب، العبّ: الجرعة من الشراب بكثرة، والتصريد: السقي دون الري، والرذية: الناقة الهزيلة والأويطف: كثير شعر الحاجبين والعينين، والمكشّم: الناقص الخلق، والمسند: المنسوب إلى قوم وهو ليس منهم.

(٢) انظر الديوان ص ٤٥٦.

فَكَمْ مِنْ حِمَارٍ خَرَّ عَقْراً بِسَيْفِهِ ... وَدَوْخَلَّةٍ قَدْ فُضَّ عَنْهَا خِتَامُهَا
فَإنْ غَضِبَتْ فِيهَا عُقَيلٌ فَأَنْتُمُ ... بَنُو الحَرْبِ إذْ يُذْكِي لَظَاهَا ضِرَامُهَا
وَمَا نِيلَ غَدْراً بَلْ أَتَى فِي عِصَابَةٍ ... قَلِيلٌ مِنَ الغَدْرِ الشَّنِيعِ احْتِشَامُهَا
فَأَوْجرَهَا نَجْلاءَ طَعْنَةَ ثَائِرٍ ... كَجَيبِ قَمِيصٍ لا يُرَجَّى الْتِئَامُهَا
أَرَاحَ بها مِنهُ الحَمِيرَ فَأَصْبَحَتْ ... تَنَاهَقُ فِي المَرْعَى ويَعْلُو رُدَامُهَا
فَوَاسَوْأَتَا إنْ كَانَ يُودَى قَتِيلُهَا ... عَلَى ذَا وَيُدْنَى فِي حِمَانَا مَقَامُهَا
ويُقْتَلُ بالغَدْرِ الصَّرِيحِ كِرَامُنَا ... فَتُلْغَى لَقَدْ خِبْنَا وفَازَتْ سِهَامُهَا(١)

وحينما كان يشعر بالاعتزاز والفخار يوم كانت الدولة العيونية قوية النفوذ عزيزة الجانب بقيادة ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين الذي عهد إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله حماية طريق الحاج كنا نراه مزهوّاً بشجاعة ابن عمه هذا يمدحه ويصف لنا بعض معاركه حينما استنجدت به بعض القبائل :

وَجَاءَتْ زبيدٌ كَالجَرَادِ وَطَيٍّءٌ ... وَكُلٌّ يُمَنِّي نَفْسَهُ مَا يُحَاوِلُ
وَكَانُوا يَظُنُّونَ الأَمِيرَ بِدَارِهِ ... مُقِيماً وَجَاءَتْهُمْ بِذَاكَ الرَّسَائِلُ
فَضَاقَتْ عَلَى أَحْيَاءِ قَيسٍ رِحَابُهَا ... مِنَ الخَوفِ وانْسَدَّتْ عَلَيهَا المَنَاهِلُ
وَجَاءَتْ إليهِ الرُّسْلُ مُخْبِرَةً لَهُ ... بِمَا قَدْ دَهَى والأَمْرُ إذْ ذَاكَ هَائِلُ
فَسَارَ مِنَ الأَحْسَاءِ تَطْوِي بِهِ الفَلاَ ... عِتَاقُ المَذَاكِي والمِطِيُّ الذَّوَامِلُ
فَمَرَّتْ بِقَصْرِ العَنْبَرِيِّ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهَا بِسِوَى دَارِ الأَعَادِي تَشَاغُلُ
فَمَا شَعُروا حَتَّى تَدَاعَتْ عَلَيهِمُ ... كَمَا يَتَدَاعَى صَيِّبٌ مُتَوَابِلُ
شَوَائِلُ تَشْوَالَ العَقَارِبِ فَوقَهَا ... لُيُوثٌ ولكِنْ غَابُهُنَّ القَسَاطِلُ
فَثَارُوا يُرشُّونَ الطِّرَادَ وكُلُّهُمْ ... يُطَاعِنُ فِي مَوْجَاتِهَا ويُجَاوِلُ
إلَى أَنْ بَدَتْ مِنْ آلِ فَضْلٍ عِصَابَةٌ ... قَصِيرٌ لَدَيهَا البَاذِخُ المُتَطَاوِلُ
يَقُودُ نَوَاصِيهَا أَخُو الجُودِ مَا جِدٌ ... وفَضْلٌ إذَا هَابَ الكَمِيُّ المُنَازِلُ

---

(١) الديوان ص ٤٦٠، والدوخلّة: وعاء من خوص يوضع فيه التمر.

وَأَحْمَدُ السَّامِي عَظِيمٌ وكُلُّهُمْ أُخُوثِقَةٍ يَعْلُو عَلَى مَنْ يُصَاوِلُ
فَزَادَ مَقَادِيمَ الفَوَارِسِ بَعْدَمَا تَحَطَّمَ فيهَا مَشْرَفِيٌّ وَذَابِلُ
وأَقْبَلَ لَيثُ الغَابِ أَعْنِي مُحَمَّداً يُفَتِّشُ عَنْ أَشْبَالِهِ وَيُسَائِلُ
فَقِيلَ لَهُ تَحتَ العَجَاجَةِ دَأْبُهُم طِعَانُ العِدَى في حَيثُ تَخْفَى المَقَاتِلُ
فَأَوْرَدَهُمْ صَدْرَ الحِصَانِ كَأَنَّهُ بِأَخْذِ نُفُوسِ القَومِ بالسَّيفِ كَافِلُ
فَطَارُوا سِلاَلاً من أَسِيرٍ وَهَارِبٍ وَمِنْ هَالِكٍ تَبْكِي عَلَيهِ الثَّواكِلُ
وَلَمْ يَبْقَ إلاّ خَائِفٌ مُتَرَقِّبٌ حِمَاماً سَرِيعاً أَوْ نَزِيلٌ مُنَازِلُ
وَمِنْ بَعدِ ذَاكَ العِزِّ أَضْحَتْ مُلُوكُهُمْ وَكُلٌّ لَدَيهِ خَاشِعٌ مُتَضَائِلُ(١)

ولكنه مع ذلك كان قليل العناية بوصف الحروب والمعارك ، لا يقف في ساحاتها إلا لِماما مثلما كان يفعل في عرضه السريع لصور البر والبحر. فإذا أثنى على ممدوحه بالشجاعة والبسالة والظفر وذكر معاركه التي خاضها أكتفى من وصفها بأبيات قليلة ، ثم انتقل إلى الإشادة بخصال الممدوح الأخرى:

خَيْلٌ مَتى صَبَّحَتْ حَيّاً بيوم وَغىً فَمَا لِمُسْتَعْصِمٍ مِنْ بَأْسِهَا عِصَمُ
قَدْ عُوِّدَتْ كُلَّ يوم خَوضَ مَعْرَكَةٍ ضُيوفُ أَبْطَالِهَا العِقْبَانُ والرَّخَمُ
وَوَسَّمَتْهَا العَوَالِي في مَنَاخِرِهَا طَعْناً كَمَا وَسَّمَتْ آنَافَها الحَكَمُ
يَحْمِي فَوَارِسَهَا يومَ الوَغى مَلِكٌ حَامِي الذِّمَارِ لَهُ في الغَايةِ القَدَمُ
رَحْبُ الذِّرَاعِ إذَا مَاهَمَّ أَنْجَدَهُ عَزْمٌ بِهِ جَوهَرُ العَلْيَاءِ مُنْتَظِمُ(٢)

(١) الديوان ص ٣٥٥ وقد ورد في حاشية الطبعة الهندية: هذه وقعة كانت على قبائل عنين وأمراء بني ربيعة وعلى طيء وزبيد وعرب الشام، كانوا قد انحدروا صائلين على قبائل قيس: عراقيها ونجديها وبحرانيها، فلما بلغ قيساً مسيرهم إليهم أهمهم ذلك، وخافوا مخافة عظيمة، فبعثوا إلى الأمير محمد بن أبي الحسين إلى الأحساء، فاستغاثوه واستنصروه فنهض من الأحساء بجموعه وعساكره فغار (كذا) عليهم ، **فطاردوا قليلاً فحمل عليهم ماجد وفضل وأحمد وجميع أولاد الأمير محمد بن أبي الحسين فطاردوهم ، فأخبر الأمير بحملة أولاده فحمل على أثرهم ، فكانت إياها ، فقتلوا وأسروا خلقاً كثيراً لا تحصى ، وأخذوا ما لا يعد، ورجعوا سالمين غانمين (الديوان ص ٣٥٧) .**

(٢) الديوان ص ٥٢١ والعقبان والرخم: نوعان من الطيور الجارحة ، والحَكَم: لجام الفرس مما يلي حنكيه.

إن مثل هذه الأبيات لا تُعَدُّ وصفاً ولكنها شاهد على سرعة مرور الشاعر بالمناظر والصور التي يمكن أن يسترسل في وصفها لو أراد.

وإذا كان ابن المقرب مقلاً في الوصف إلى هذه الدرجة فلعل ولعه بالتاريخ وتدوينه ـ والذي رأيناه يطبع مدائحه بطابع التخصيص[1] ـ يعوض قدراً من هذا النقص مع قلة المقاطع التي تغلب عليها سمة الوصف في شعره التاريخي أيضاً. فلو استقرأنا ديوانه بحثاً عن الوصف في شعره التاريخي لم نجده، إلا في مواضع محدودة كما رأينا في وصفه لحالة قومه ومعركة الأمير محمد بن أبي الحسين، وكما في وصفه لجيش الإفرنج الذي أغار على دمياط بمصر فتصدى له الأمراء الأيوبيون وفيهم الأمير الأشرف موسى بن العادل، فقد مدحه ابن المقرب وأثنى على بطولته ودفاعه عن الثغور الإسلامية، ووصف كتائب الجيش الصليبي، وكيف تلقت الهزيمة أمام جيش المسلمين، وقد أحسن ابن المقرب في هذا الوصف رغم أنه لم ير هذا الجيش ولم يذهب إلى دمياط، وإنما استوحى هذا الوصف من أحاديث الركبان على ما يبدو:

وقَدْ جَاءَتِ الإِفْرَنْجُ من كُلِّ وِجْهَةٍ ... كَـأنَّ تَدَاعِيهَـا السُّيُـولُ الـدَّوَافِقُ
كَتَائِبُ مِلءُ البَرِّ والبَحْرِ مَنْ بَدَتْ ... لَهُ قَالَ ذَا جُنْحٌ مِنَ اللَّيلِ غَاسِقُ
تَسِيـرُ بِسَدٍّ مِنْ حَـدِيـدٍ لَـوَ آنَّـهُ ... هُوَ السَّدُّ لَمْ يَخْرِقْهُ للوَعْدِ خارِقُ
لَـهُ لَجَبٌ كَـادَتْ مِـرَاراً لِهَـولِـهِ ... تَقَـطَّعُ بينَ المُسلِمِينَ العَـلاَئِقُ
فَمَا كَانَ إلَّا أنْ أَحَسُّـوا قُدُومَـهُ ... تَحُفُّ بِـهِ تِلكَ البُنُـودُ الخَـوَافِقُ
يَهُزُّ حُسَاماً لَمْ يَكُنْ مِنْ دِمَائِهَـا ... لَـهُ صَـابِـحٌ مِنهُـمْ بَـرِيٌّ وغَـابِقُ
وَمَالُوا لِقَذْفِ المَالِ في اليَمِّ بالضُّحَى ... وباللَّيلِ ثَارَتْ في الرِّحَالِ الحَرَائِقُ
وأَزْعَجَهُمْ مَنْ ذَاقَ لِلْجُرْحِ بَعْدَهُمْ ... بِأَمْسِ وَهَلْ يَسْتَعْذِبُ المَوتَ ذَائِقُ
فَـوَلَّـوا فَمُنْكَبٌّ عَلَى أُمِّ رَأسِـهِ ... لِدُنْ ذَاكَ لَمْ يَنْفُقْ وآخَرُ نَافِقُ[2]

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٦٠.
(٢) الديوان ص ٣٠٠.

إن هذه الأبيات وإن كانت تصور المعركة بالدرجة الأولى فهي تعد من جانب آخر تصويراً لأحداث تاريخية وقعت في عصره. فتفصيله في كيفية مجيء الإفرنج وكثرة عددهم وكتائبهم التي تملأ البر والبحر،ومجيء الأمير الأشرف وانتصاره عليهم حتى قذفوا بأموالهم إلى البحر بعد احتراق رحالهم كل ذلك يمكن أن نسميه وصفاً تاريخياً لأحداث تاريخية محددة. يضاف إلى هذا تصويره لآثار المعركة واهتمامه بتفاصيل بعض جزئياتها مثل إشارته إلى بعض المعتصمين بالبحر من أعداء المسلمين، وإلى الدماء وقد سالت ممتزجة بمياهه، وإلى ملوك الإفرنج وبطارقتهم وهم يلوذون بالفرار كما في قوله:

وَمُسْتَعْصِمٌ بـالبَحْـرِ مِنـهُ وَعَـائِـذٌ ... بأَخْلَقَ تَنْبُو عَنْ صَفَـاهُ المَطَارِقُ
وَلَمْ يَبْقَ يَثْنِي مِنْ عِنَـانِ جَوادِهِ ... أَبٌ لابْنِهِ والمَوْتُ لِلقَـومِ خَانِقُ
فَسَالَ دَمٌ لَوْ سَالَ في الأَرضِ لاسْتَوَى ... بِهَـا رَدَغٌ ما عُمِّـرتْ وَمَـزَالِقُ
جَرَى منه فَوقَ البَحْرِ بَحْرٌ فَموجُهُ ... إلى الآنَ مِنْ بَعدِ الأَقَاحِي شَقَائِقُ
فَصَارَ نَئِيماً ذَلِكَ الزَّأْرُ واغْتَـدَتْ ... بُغَاماً لِفَرْطِ الخَوفِ تِلكَ الشَّقَائِقُ
وَلَمْ يُنْجِ مِنهُمْ لُجُّ بَحرٍ وَلَا حَمَتْ ... حُصُونٌ أُدِيرتَ حَوْلَهُنَّ الخَنَادِقُ
وَلَا مَنَعَتْ في مُلْتَقَـاهَـا مُلُوكَهـا ... قَرَابَتُها صُهْبُ اللِّحَى والبَـطَارِقُ
فَيَـالَكَ عَصْـراً أَلْبَسَ الكُفْرَ حُلَّةً ... مِنَ الذُّلِّ لا تَبْلَى ولِلمِسْكِ نَاشِقُ[1]

ومن ذلك أيضاً وصفه لحكم القرامطة في البحرين قبل ظهور الدولة العيونية، وكيف وصلت غاراتهم إلى الشام والعراق والحجاز فأفزعوا الناس واسترهبوهم، وأبطلوا الواجبات والحدود المفروضة[2]. ثم راح يسترسل في بيان تاريخ الدولة العيونية. وكيف قضى جده عبد الله بن علي العيوني على فلول القرامطة في الأحساء، واستولى على سائر بلاد البحرين بعد مطاردته لزكريا بن يحيى بن عياش

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ والردغ: الماء والطين والوحل، والنئيم: الصوت الخفيف والبغام: من بغمت الظبية إذا صوتت بأرخم ما يكون من صوتها، وصهب اللحى: في لحاهم شقرة أو حمرة.

(٢) انظر الديوان ص ٥٣١ وقد تقدم ذكر وصفه لحكم القرامطة ص ٥١ .

أمير القطيف وجزيرة أَوَال، موضحاً كيف هرب زكريا إلى جزيرة أوال وقد ظن أن القطيف لا تمنعه، ثم مقتله ومقتل أحد رجاله الشجعان وقد دانت البلاد كلها للحكم العيوني:

وَلَمْ يُنجِّ ابْنَ عَيَّاشٍ بمُهْجَتِهِ ... يَمٌّ إذَا مَا يَراهُ النَّاظِرُ ارْتَسَمَا
أَتى مُغِيراً فَوَافَى جَوَّ نَاظِرَةٍ ... فَعَايَنَ المَوتَ مِنَّا دُونَ ما زَعَمَا
فَرَاحَ يَطْرُدُ طَرْدَ الوَحْشِ لَيْسَ يَرَى ... حَبْلَ السَّلَامَةِ إلَّا السَّوطَ والقَدَمَا
فَانْصَاعَ نَحْوَ أَوَالٍ يَبْتَغِي عِصَماً ... إذْ لَمْ يَجِدْ في نَوَاحِي الخَطِّ مُعْتَصَمَا
فَأَقْحَمَ البَحْرَ مِنَّا خَلْفَهُ مَلِكٌ ... مَا زَالَ مُذْ كَانَ للأَهْوَالِ مُقْتَحِمَا
فَحازَ مُلْكَ أَوَالٍ بعدَمَا تَرَكَ الْـ ... ـعَكْرُوتَ بالسَّيفِ لِلْبَوغَاءِ مُلْتَزِمَا
فَصَارَ مُلْكُ ابْنِ عَيَّاشٍ ومُلْكُ أَبِي البَهْلُولِ مَعْ مُلْكِنَا عِقْداً لَنَا نُظِمَا(١)

ومن وصفه التاريخي تصويره لمدينة البصرة في زمن أميرها شمس الدين باتكين، ووصف جامعها حين أعاد الأمير تعميره بعد حريق شبَّ فيه:

لَوْ لَمْ يَكُنْ بالبَصْرَةِ انْقَلَبَتْ بِمَنْ ... فِيهَا وَجَرَّ بهَا الخَرَابُ ذُيُولَا
كَانَتْ سَوَاداً قَبْلَهُ فَأَعَادَهَا ... مِصْراً تَرُوقُكَ مُمْسِياً ومُقِيلَا
بالْمُبرمِ الأَسْوَاقِ والسُّورِ الَّذِي ... مَنَعَ الأَعَادِي أَنْ تَمِيلَ مَمِيلَا
والرُّبْطِ بَينَ مَدَارِسٍ وَمَشَاهِدٍ ... شَرُفَتْ وفُضِّلَ أَهْلُهَا تَفْضِيلَا
أَحْيَى بِهَا لِلشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ ... وأَبِي حَنِيفَةَ أَحْرُفاً وفُصُولَا
وبجَامِعٍ بَذَّ الجَوامِعَ كُلَّهَا ... حُسْنَاً وعَرْضاً في البنَاءِ وَطُولَا
لَولَا اتِّفَاقُ حَرِيقِهِ في عَصْرِهِ ... لَعَفَا وعُطِّلَ رَسْمُهُ تَعْطِيلَا
كَمْ مِنْ رُوَاقٍ زَادَ فِيهِ وحُصْرُهُ ... زَادَتْ إلى تَرْفِيلِهِ تَرْفِيلَا
وَبَنَى بِهِ للمُسلِمِينَ مُقَرْمَداً ... تَرَكَ الخَوَرْنَقَ فِي العُيُونِ ضَئِيلَا

(١) الديوان ص ٥٣٨. وناظرة: كثبان رملية شرقي الأحساء، وأوال: هي دولة البحرين حالياً، والعكروت: رجل شجاع من أهل أوال كان من رجال زكريا بن عياش، والبوغاء: التراب.

وَلَقَدْ مَضَتْ حُقُبٌ بِهَا وسُرَاتُهَا   نَهْبٌ فأَنْقَذَ شِلْوَهَا المَأْكُولاَ[1]

ذلك هو الوصف في شعر ابن المقرب، وهو قليل كما رأينا ولا يتعدى مائة وخمسين بيتاً على أكثر تقدير بما فيها تلك الأبيات التي اعتبرناها ضمن هذا الغرض تجوُّزاً أو استشهاداً على هروب الشاعر من الوصف كلما كاد أن يسترسل فيه.

ولعلنا في ختام الحديث عن الوصف نستطيع أن نوجز سبب ابتعاده عن شعر الوصف بطبيعة حياته في معاناته وآلامه وشكواه وتحسره، فهي التي جعلته ـ في أغلب الظن ـ يهتم اهتماماً كبيراً بتصوير الخلجات والعواطف النفسية وما يتعلق بها في أحواله الخاصة وأحوال قومه حتى أثمرت هذا الشعر الغزير من فنِّ الشكوى والعتاب والفخر والحماسة، وهي التي صرفته بالتالي عن الأغراض الأخرى كالاتجاه إلى وصف المحسوسات والإطالة في رسم صورها حيث المادة الغنية التي تثري أفكار الشاعر لو أراد الانصراف إلى الوصف والإبداع فيه. فقد كان ذهن ابن المقرب منصرفاً في أغلب أوقاته إلى معالجة محنته التي لازمته طوال ثلاثة عقود من الزمن تقريباً، وهذه المعالجة لا تتأتّى إلا بأغراض أخرى غير الوصف الذي يعدُّ غرضاً ثانوياً بجانبها.

ج ـ الرثاء:

يمثل شعر الرثاء في ديوان ابن المقرب نسبة يسيرة تنحصر في ثلاث قصائد تضم مائة وعشرين بيتاً. ولعل سبب إقلاله من هذا الغرض يعود إلى قلة المناسبات التي تضطره إلى الرثاء.

أما القصيدة الأولى فهي في رثاء القاضي محمد بن إبراهيم المستوري ومطلعها:

---

(١) الديوان ص ٤١٠ وترفيل المسجد: تزيينه بالحُصُر والبُسُط، والمُقَرْمَد: المطلي بالجصّ، والخَوَرنق: قصر للنعمان الأكبر، والشِّلو: العضو.

غَـرَامٌ أَثَارَتْـهُ الحَمَامُ السَّـوَاجِـعُ وَنَارُ جَوىً أَذْكَتْ لَظَاهَا المَدَامِعُ[1].

وهذه المرثية من أقصر قصائده إذ بلغت أبياتها ثلاثين بيتاً. وليس لدينا ما نعرفه عن نوع الصلة التي تربط الشاعر بالقاضي المستوري. ولعل صلته به لم تكن تلك الصلة القوية الوثيقة التي يحس الشاعر معها بحرقة الألم والحزن لفقده. فقد بدأ الشاعر قصيدته بذكر الغرام الذي أثارته الحمام السواجع، وقد كان الأولى به أن يعدو هذا المعنى إلى معنى مناسب سواه. وأغلب الظن أن الشاعر كان على صلة أقوى بأخيه عبد الله بن إبراهيم المستوري. فقد خصه بالعزاء ومدحه في بعض أبيات هذه المرثية:

فَصَبْراً بَنِي مَسْتُورٍ فَالدَّهْرُ هٰكَذَا وَكُـلٌ عَلَيهِ للمَنَـايَـا طَـلاَئِـعُ
فَفِيكُمْ بِحَمْدِ اللهِ حِصْنٌ ومَعْقِلٌ ونُـورٌ مُبِينٌ يَمْلأُ الأُفْقَ سَـاطِـعُ
فَمَنْ كَـانَ عَبدُ اللهِ مِنـهُ خَلِيفَـةً فَمَا مَاتَ إلَّا شخصُهُ لا الطَّبَائِعُ
فَتًى لَمْ يَزَلْ مذْ كَانَ قبلَ احْتِلامِهِ يُـدافِعُ عنكُمْ جَـاهِداً ويُصَـانِـعُ
فَمَـا عَاشَ فـالبَيتُ الـرَّفِيـعُ عِمَـادُهُ يَطُولُ عَلَى الأيَّامِ والرَّبـعُ وَاسِعُ
وُقِيتَ الرَّدَى والسُّوءَ يَابَا مُحَمَّدٍ وَحَلَّتْ بِمَنْ يَهْوَى رَدَاكَ القَوَارِعُ
تَعَـزَّ فَكُـلٌ سَـالِـكٌ لِسَبيلِهِ وكُلُّ امْرِيءٍ من خَشْيَةِ المَوتِ جَازِعُ
ونحنُ سَواءٌ في المُصَابِ وإنْ نَأَتْ بِنَا الدَّارُ فالأَرْحَامُ مِنَّا جَوامِعُ[2]

إذن.. فلقد انشغل الشاعر بالثناء على أخيه الحي، مما يرجح أن الدافع الأقوى لهذا الرثاء هو مجاملة عبد الله ومشاركته في مصابه. وإن كان ابن المقرب قد أشار في البيت الأخير إلى رابطة الرحم التي تجمعه بآل مستور فإننا لا نعلم نوع هذه الرابطة، وهل هي قريبة أو بعيدة. ولكن الشاعر كثيراً ما يعتد بروابط القربى والرحم

---

(١) الديوان ص ٢٧٩، ولم أجد ذكراً للقاضي المستوري في كتب التراجم التي رجعت إليها.
(٢) الديوان ص ٢٨١ وقد ورد في الطبعة الهندية تعليقاً على البيت الثالث أن المعني بعبد الله هو عبد الله بن إبراهيم المستوري.

ولو كانت بعيدة الجذور كما يفعل في فخره بربيعة ومعد كلها.

على أن صلة الشاعر بآل مستور لا تعنينا في مقام الرثاء إلا لنعرف من خلالها صدق عاطفته في هذه المرثية من عدمها، والأرجح عندي أن الشاعر لم يكن شديد التأثر بوفاة القاضي المستوري للاعتبارات السابقة، ولقلة أبيات القصيدة وتخصيص بعض أبياتها للثناء على أخيه عبد الله.

وأمام هذا الفتور الذي رأيناه في رثاء القاضي المستوري فإننا نرى الشاعر أكثر تأثراً بوفاة صديقه الحسن بن عبد الله بن أحمد[1]. فقد رثاه بقصيدته الثانية:

أَيْدِي الحَوَادِثِ في الأَيَّامِ والأُمَمِ ... أَمْضَى مِنَ الذَّكَرِ الصَّمْصَامَةِ الخَذِمِ [2]

إن قوة هذا المطلع واضحة بمقارنته بمطلع قصيدته الأولى، كما أن أبيات هذه القصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتاً وهو ما يتناسب والتدرُّج في العاطفة والتأثر بين هاتين القصيدتين، مع خلو القصيدة الثانية من أي ثناء أو مديح لخلفاء صديقه. بل يكتفي بتعزية أخويه وتخفيف مصابهما:

فَيَا أَبَا جَعْفَرٍ لَا زِلْتَ فِي دَعَةٍ ... لَا تَجْزَعَنْ فقَضَاهُ غَيرُ مُتَّهَمِ
وَيَا أَبَا حَسَنٍ صَبْراً فَكُلُّ فَتًى ... مُفَارِقٌ وحَيَاةُ المَرْءِ كَالحُلُمِ
والمَوتُ كُلُّ امْرِىءٍ لا بُدَّ ذَائِقُهُ ... تَقَاصَرَ العُمْرُ أَوْ أَدَّى إِلَىٰ الْهَرَمِ
أينَ المُلُوكُ وأَرْدَافُ المُلُوكِ وَمَنْ ... سَادَ القَبَائِلَ من عَادٍ وَمِنْ إِرَمِ [3]

وقد راح الشاعر يسترسل في الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة في ذكر الأمم والشخصيات التي ذهب بها الموت في عصور متقدمة، ويعدِّد أسماء هذه

---

(١) لم أجد في كتب التراجم التي رجعت إليها ذكراً له ولم يرد في الديوان سوى وصفه بالرئيس الأجل وأنه كان صديقاً للشاعر (انظر الديوان ص ٤٨٣).

(٢) الديوان ص ٤٨٣. والذكر: السيف الحديد الشفرة، والصمصامة: السيف الذي لا ينثنى. والخذم: القاطع

(٣) الديوان ص ٤٨٥ وقد ورد في الطبعة الهندية للديوان أن أبا جعفر وأبا حسن هما أخوا الحسن بن عبد الله (انظر الديوان ص ٤٨٥).

الشخصيات، ويوضح كيف اخترمتها يد المنون بعد أن كانت ملء سمع الدنيا وبصرها، لتهوين المصاب وتخفيف وقعه على النفوس، وقد ساعده في ذلك ثقافته الواسعة ومعرفته لمشاهير الرجال وظروف حياتهم وموتهم، والحوادث والوقائع التي جرت عبر التاريخ.

وإن الشاعر ليصل إلى قمة إبداعه وسمو رثائه في قصيدته الثالثة التي يرثي فيها ابن عمه مذكور بن عبد الله بن منصور. فقد فجع بمقتل ابن عمه هذا غيلةً سنة ٦٠٦ هـ، وكان ابن المقرب غائباً ببغداد، فبلغه خبر مقتله عند وصوله أرضياً بناحية القطيف في طريق عودته من العراق[١]، فأنشأ هذه النونية يرثيه:

أَظُنُّكَ خِلْتَ الشَّوقَ والنَّأْيَ أَبْكَانِي	فَأَقْبَلْتَ نَحْوي يَابِسَ الدَّمْعِ تَلْحَانِي
فَقُمْ والتَمِسْ خِلاَّسِوَايَ فَمَا أَرَى	صَحَابَةَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ شَأْنَهُ شَانِي
كَأَنَّكَ ما شَاهَدْتَ مَا قَدْ أَصَابَنِي	بِهِ الدَّهْرُ مِنْ صُيَّابِ قومي وإِخْوَانِي
رُزِئْتُ مُلُوكاً لو بَكَيتُ لِفَقْدِهِمْ	دَماً ما كَفَانِي عُمْرُ نُوحٍ ولُقْمَانِ
بِهِمْ كُنتُ أَرْمِي مَنْ رَمَانِي وأَتَّقِي	بِهِمْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ من حَيْثُ تَلْقَانِي
بِأَسْيَافِهِمْ ذَاقُوا الرَّدَى وتَجَرَّعُوا	حَسَا المَوتِ لا أَسْيَافِ قَيسٍ وغَيْلاَنِ
ولَيسَ عُقُوقاً منهُمْ بَلْ تَعَالِياً	إلى خَيرِ غَايَاتٍ وأَشْرَفِ بُنْيَانِ
لَعَمْرِي لَقَدْ سُرَّ العَدُوُّ وأُظْهِرَتْ	دَفَانَاتُ أَحْقَادٍ سُتَرنَ وأَضْغَانِ[٢]

أرأيت كيف تدفقت شاعرية ابن المقرب حينما عبّر عن عاطفة صادقة تصدر عن حزن وألم ولوعة لفراق ابن عمه بخلاف رثائه للقاضي المستوري. إن الشاعر نفسه يفصح عن سبب حرقته وحزنه وانْهمارِ دُموعه، فقد كان مذكور بن عبد الله أخا شقيقا صافي الود، بالإضافة إلى رابطة القرابة التي تجمعهما، فكان حقاً عليه أن يبكي لفقده بدموع غزار:

---

(١) انظر الديوان ص ٥٩٤ وكان الشاعر قادماً من العراق يحمل المدد من الخليفة الناصر لدين الله إلى الفضل بن محمد بن أبي الحسين ليستعين به على قتلة أبيه.

(٢) الديوان ص ٥٩٤ وصياب القوم: خيارهم.

فَيَا بَارِدَ الأَنْفَاسِ دَعْنِي فَإِنَّهُ ... قَليلٌ لَهُمْ من مَعْشَرٍ فَيضُ أَجْفَانِي
فَلَو جَاءَكَ النَّاعِي بِمَا جَاءَنِي بِهِ ... لَمَا عِشْتَ إلاَّ لاَبِساً ثَوبَ أَسْفَانِ
أَتَلْحَى عَلَى فَيضِ الدُّمُوعِ وقد ثَوَى ... أَخِي وشَقِيقي وابْنُ عَمِّي وخُلْصَانِي
أَمِنْ بَعدِ مَذْكُورٍ أَصُونُ مَدَامِعاً ... تَقِلُّ لَهُ لَو أَنَّهَا مِنْ دَمٍ قَانِ
أَلاَ عَمِيَتْ عَينُ امْرِيءٍ لم تَجُدْ لَهُ ... بِدَمعٍ وأَضْحَى رَبُّها ربَّ عِميَانِ
وأَيُّ ابْنِ عَمٍّ إن دَعَوتُ لِنَازِلٍ ... أَجَابَ بِعَزمٍ صَادِقٍ غَيرِ خَوَّانِ(١)

وإن أشد ما أحزن الشاعر على ابن عمه هو مقتله غيلة وغدراً. ولو كان عدوُّه مواجهاً له لما استطاع أن ينال منه، ويعزِّي ابن المقرب نفسه كما يعزي والد القتيل، ويضرب أمثلة لذلك بثلاثة من الشجعان الذين قتلوا غدراً، وكانت آفتهم احتقارهم لقاتليهم. ويزيد من حزن الشاعر أيضاً أن منيَّة ابن عمه لم تكن على أيدي رجال ذوي شرف ونسب، بل على أيدي أسافل الناس وأراذلهم:

فَلَو أنَّ في الحَيِّ الشَّبَانِيِّ ثَارَهُ ... لَكُنتُ أُمَنِّي النَّفْسَ عَنهُ بِسُلْوَانِ
وإن كَانَ لا يُوفَى بِهِ من دِمَائِهِمْ ... قَتِيلٌ وَلَو أَوْفَى عَلَى رَبِّ عَلْهَانِ
ولَكنَّـه أَمْسَى قَتِيلاً لِمَعْشَرٍ ... إذَا قِيلَ مَنْ هُمْ قِيلَ هَيُّ بْنُ بَيَّانِ
وَلَو جَاءَهُ مُغْتَالُهُ مِنْ أَمَامِهِ ... لَرَاحَ أَكِيلاً بَينَ نَسْرٍ وَسِرْحَانِ
أَوِ انْصَاعَ عَدْوَاً يَقْتَفِي إثْرَ غَيرِهِ ... مَخَافَةَ مَشْبُوحِ الذِّرَاعَينِ غَضْبَانِ
فَمَنْ مُبلِغٍ عَنِّي أَبَاهُ رِسَالَةً ... مُغَلْغَةً عن مُوجَعِ القَلبِ حَرَّانِ
أَيَا عَمُّ لا تَجْزَعْ فَكُلٌّ إلى البِلَى ... يَصِيرُ وَلَا خُلْدٌ لإِنْسٍ وَلَا جَانِ
فَلَو لَمْ يَمُتْ قَتْلاً لَمَاتَ بِعِلَّةٍ ... وليسَ بِمُنْجٍ من رَدًى رَأْسُ غُمْدَانِ
فَقَدْ مَاتَ بَسْطَامٌ بطَعْنَةِ عَاصِمٍ ... وكَانَ المُرَجَّى في مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانِ
وحَمْزَةُ عَمُّ المُصْطَفَى ذَاقَ حَتْفَهُ ... بِطَعْنَةِ عَبْدٍ من سُلاَلَةِ عُبْدَانِ
كَذَا ابْنُ حَوَارِيِّ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ ... أَتَاهُ الرَّدَى من كَفِّ رَاعٍ لِرُعْيَانِ

---

(١) الديوان ص ٥٩٥ والأسفان: الحزين المتوجع.

وَقَدْ كَانَ يَلْقَى الأَلْفَ فَرْداً فَيَنْثَنِي ... كَطَيرٍ رَمَتْ فيهَا السَّمَاءُ بِحُسْبَانِ
وَمَا آفَةُ الشُّجْعَـانِ إلاَّ احْتِقَارُهَـا ... رِجَالاً وكَمْ صِيْدَتْ صُقُورُ بِخِرْبَانِ[1]

لقد رأينا كيف اختلفت جودة رثائه تبعاً لصدق مشاعره وتأثره بفقد من يرثيه. فقد كان رثاؤه للحسن بن عبد الله أجود من رثائه للقاضي المستوري، كما كان رثائه لابن عمه أجود منهما وأكثر صدقاً في التعبير عن ذاته وألمه وحزنه. أما حين تضطره المناسبة إلى تكلف الرثاء فإن شعره يأتي بارد العاطفة ضعيفاً عليه أثر الصنعة. فقد سأله شيخ من أهل البصرة أن يذكر شوقه إلى ولده الغائب، وأن يرثي ولده الآخر الذي مات في سفر أخيه فقال:

بُنَيَّ مُذْ غِبْتَ عَنْ عَينَيَّ ما عَرَفَتْ ... غَمْضاً وَلاَ بِتُّ إلاّ سَاهِـراً دَنِفَا
وَلاَ سَمعتُ بشَخْصٍ آبَ من سَفَرٍ ... إلاّ حَنَنْتُ وأَعْلَنتُ البُكَـا أَسَفَـا
قَضَى أُخُوكَ حُسَينٌ نَحْبَهُ وَمَضَى ... وَهَلْ سِوَاكَ تَـراهُ مِنهُ لِي خَلَفَـا
فَمَا مَرَرْتُ بِقَبـرِ مُذْ فُجِعتُ بـِهِ ... إلاّ وصِحْتُ بأَعْلَى الصَّوتِ وَالهَفَا
فارْحَمْ أَبَاكَ فَلَو أَبْصَرتَ عَبرَتَـهُ ... وكُلَّمـا كَفَّ من شَأْنٍ لَهَـا وَكَفَا
قَدْ أَقْرَحَ الدَّمعُ عَينَيهِ وَقَدْ وَهَنَتْ ... منهُ العِظَامُ وأَضْحَى الجِسْمُ قد نَحُفَا
شَيخٌ أَنَافَ على السَّبعِينَ حَلَّ بِهِ ... ثُكْلٌ وشَوقٌ فإنْ دَامَا فَـوَاتَلَفا[2]

إن هذا التفاوت بين قوة رثائه وضعفه، وبين صادقه ومتكلفه هو أمر غير

(١) الديوان ص ٥٩٨، وعلهان: فرس لعبد الله بن الحارث وقيل لجشم بن أبي مالك التميمي، وهيُّ ابن بيَّان: كناية عمن لا يعرف ولا يعرف أبوه، ومشبوح الذراعين: قويُّهما، وبسطام: هو بسطام بن قيس الشيباني فارس مشهور أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة، والعبد الذي قتل حمزة رضي الله عنه هو وحشي الحبشي، رماه بحربة يوم أحد، وقد اشترك في حرب المرتدين باليمامة ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وابن حواري: أمير عيوني عرف بشجاعته وتصديه لاعداء عبد الله ابن علي العيوني مؤسس الدولة العيونية، وكان قد صد غارة على الأحساء وطرد الخيل، ولحق به رجل فاحتقره وتركه، فلما تعداه زرقه بالرمح فقتله فانهزم أهل الأحساء.

(انظر الديوان ص ٥٩٩ و ٦٠٠) والخربان: ذكور الحبارى تسلح على الصقور فتعميها.

(٢) الديوان ص ٢٩٠.

مستغرب ، فإن الشاعر لا يبدع إلا حيث يكون شعره نابعاً من صدق مشاعره وفيض وجدانه.

وإذا كنا قد رأينا رثاءه لابن عمه وصدق عاطفته فيه وإبداعه فإنّا نستغرب أن يخلو ديوانه من رثاء الأمير محمد بن أبي الحسين، وهو ابن عمه الذي طالما افتخر بعلو سلطانه وامتداد دولته وتأمينه لطرق الحاج، كما كان يكثر من مديحه والثناء على كريم فعاله، وكانت صلته به قوية مبنية على المحبة والمودة والاحترام المتبادل كما رأينا في مدائحه.

ولقد قُتل الأمير محمد بن أبي الحسين غيلة كما قتل ابن عمه الذي رثاه وهو مذكور بن عبد الله. فلا أقل من أن يرثيه بقصيدة مستقلة. وأكثر من ذلك فقد كان رثاؤه لمذكور بن عبد الله في طريق عودته من العراق يحمل مدداً للفضل بن محمد ابن أبي الحسين من الخليفة العباسي لمساعدته في تعقُّب قَتَلةِ والده الأمير محمد بن أبي الحسين. أفما كان الأجدر بالشاعر أن يرثي هذا الأمير رثاء حاراً أصدق من رثائه لابن عمه الآخر مذكور بن عبد الله؟!

إننا لا نجد في ديوان الشاعر سوى ثلاثة أبيات فقط في رثاء الأمير محمد بن أبي الحسين ، وهي ضمن قصيدة طويلة يشكو فيها ويعاتب ويمدح الأمير فضل بن محمد بن أبي الحسين ويرثي والده، فقد خصص منها سبعة وخمسين بيتاً للشكوى والعتاب في أولها ثم قال يرثى ابن أبي الحسين:

وَقَائِلٍ عَدِّ عَنْ نَظْمِ القَرِيضِ فَقَدْ ... أَسْمَعْتَ مِنْ قَبْلُ لَوْ نَبَّهْتَ يَقْظَانَا
المَجْدُ أَمْسَى دَفِيناً بالعَذَارِ فَقُمْ ... كَيمَا تُقِيمَ لـه نَـوْحاً وإرْنَـانَـا
فَلَيسَ بَعْدَ عِمَادِ الدِّين مِنْ مَلِكٍ ... تَخُطُّ فيـهِ رُوَاةُ الشِّعْرِ دِيـوَانَـا
يَا ثُكْلَ أُمِّ العِدَى والمَكْرُمَاتِ أَمَا ... لَـوْ يَنْطِقُ الـدَّهْرُ عَـزَّاهَا وعَـزَّانَا
فَقُلْتُ لَمْ نَرَ فِيهِ من خِلَالٍ عُلاً ... إلاّ ونَحنُ نَرَاهَا في ابْنِهِ الآنا[1]

---

(١) الديوان ص ٦٠٧ والعذار: موضع بالقطيف دفن فيه الأمير محمد بن أبي الحسين كما ورد في الطبعة الهندية من الديوان.

ثم راح في بقيتها يمدح الفضل بن محمد ويستعطفه. إذن.. كيف لا يجود الشاعر في رثاء ابن أبي الحسين إلا بثلاثة أبيات فقط من ثمانين بيتاً ضمتها القصيدة. إن من المؤكد أن ظروف الشاعر قد مرت بفترة عصيبة بعد موت الأمير محمد بن أبي الحسين، فإن مضمون هذه القصيدة يدل على أن الشاعر كان مضطرب النفس يشتكي ويعاتب في معظم أبياتها، ونحن لا نعلم متى حلّت بالشاعر نكبته بالضبط، ومتى سجن وصودرت أمواله وكل ما يستطيع الدارس لحياته وشعره أن يستنتجه هو أن مشكلته مع بني عمه وسجنه ومصادرة أمواله لم تحصل إلا بعد موت الأمير محمد بن أبي الحسين، وأن الشاعر كان في حياة الأمير ناعم البال غنياً ثريّاً يمدح الأمير معترفاً بأهليته واستحقاقه للمديح، وكان ابن أبي الحسين حاكماً غير منازع، فلما قتل دب الصراع بين أمراء الدولة العيونية، وكان منهم آل علي بن عبد الله الذين أهانوا الشاعر وسجنوه[1].

ومهما كانت ظروف الشاعر سيئة بعد موت الأمير محمد فإن ذلك لا يحول دون رثاء الشاعر له. بل إن رثاءه أدعى وأجدر لما تربطه به من صلة قوية كانت سبباً من الأسباب التي نقم عليه أبناء عمه الآخرون من أجلها. ولعل خوفه من آل علي بن عبد الله، وهم خصوم الفرع الآخر آلِ الفضل بن عبد الله قومِ الأمير محمد بن أبي الحسين هو الذي جعله يعرض عن رثاء الأمير بعد موته مباشرة، فلما تقادم العهد على وفاته وجد المناسبة قد فاتت، ولعل هذه الأبيات الثلاثة كانت كافية في نظر الشاعر إذا كان قد أنشأ هذه القصيدة بعد فترة طويلة من مقتله وذلك أقرب الاحتمالات، وقد يرد احتمال آخر أيضاً وهو أن يكون رثاؤه للأمير محمد بن أبي الحسين قد فقد لسبب ما، وربما ظهر في يوم من الأيام لأن من الغريب أن لا يرثيه وقد بالغ في مديحه، وشهد مصرعه، وأعان ابنَه على قاتليه.

---

(١) انظر ما تقدم ص ٧٣.

د ـ الغزل:

لو استقرأنا ديوان ابن المقرب الذي يضم أكثر من خمسة آلاف بيت من الشعر لوجدنا شعر الغزل فيه لا يتعدى مائة بيت على وجه التقريب ، فهو شاعر مقلّ في هذا الغرض . كما أن غزله مقتصر غالباً على الغزل التقليدي في ابتداء القصائد . ومع ذلك فإنه لا يلتزم الابتداء به إلا قليلاً ، لأن الأغراض الأخرى التي تناسب ظروفه وحالته النفسية هي التي تطغى كثيراً على بدايات قصائده .

ولا يعود هذا الشحّ في الغزل عند ابن المقرب إلى نضوب قريحته أو عجزه عن طرق هذا الباب، لأننا نلاحظ تدفقه الشعري ورقة أسلوبه في الأبيات القليلة التي يتغزل بها ،وإنما يعود ذلك إلى أسباب تتعلق بشخصيته ومكانته ،ثم إلى الظروف التي مرت به في حياته ، فإن تطلعه إلى المجد ومعالي الأمور وانتماءه إلى أسرة حكم ومُلك ، ثم تشرده وعدم استقراره في بلد واحد، وما لقيه من ظلم وسجن ومصادرة أموال، كل ذلك جعله غير متفرغ لشعر الغزل الذي يعد تَرَفاً بالنسبة للأغراض الأخرى التي يجد فيها عزاءه وسلوته، وبخاصة في شعر الشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة. يضاف إلى ذلك كله أننا لا نجد بين أخباره وفي أشعاره ما يدل على أنه كان يلتفت إلى النساء أو يُتيَّم بهن مما يشجعه على الإكثار من الغزل ، أو يوجهه إلى لون آخر غير الغزل التقليدي ، كما أن مكانته في الأسرة العيونية الحاكمة تحدوه إلى الترفع عن ذلك النوع من الغزل الصريح المكشوف الذي عني به الخلعاء من شعراء عصره.

وهكذا جاء غزل ابن المقرب ـ على قلته ـ غزلاً تقليدياً يفتتح به بعض قصائده ويجعله مدخلاً إلى أغراضه الأصلية . وهو متأثر بذلك بسابقيه من الشعراء كقوله:

عَذْلُ المَشُوقِ يَهيجُ في بُرَحَائِهِ ... ويُثِيرُ نَارَ الوَجْدِ في حَوْبَائِهِ
فَاتْرُكْ مَلاَمَتَهُ ودَعْهُ وشَأْنَهُ ... في نَوْحِهِ وحَنِينِهِ وَبُكَائِهِ

وإنِ اسْتَطَعْتَ عَلَى الصَّبَابَةِ والأَسَى فَـأَعِنْـهُ تَحْظَ بـوُدِّهِ وإخَـائِـهِ
فَـالخِـلُّ مَنْ أَصْفَى مَـوَدَّةَ قَلْبِـهِ لِـذَوِي مَـوَدَّتِـهِ وأَهْـلِ صَفَـائِـهِ

إلى أن يقول:

يَـا عَاذِلِي لَا عِشْتَ إلّا أَخْـرَساً أَعْمَى أَصَمَّ تَـرَى بِقَلْبٍ تائِهِ
أَرْبَيْتَ في لَوْمِي وَزِدْتَ وَلَنْ تَرَى قَلْبِي مُطِيعَكَ في اتِّراكِ هَوائِهِ
أو أَنْ تَرَى ما بَيْنَ سَلْمَى والحِمَى بَحْراً يَعُومُ الطَّيرُ في أَرْجَائِهِ(1)

إن هذه الأبيات ولا سيما مطلعها تشبه غزل المتنبي في قوله:

عَذْلُ العَوَاذِلِ حَولَ قَلْبِ التَّائِـهِ وَهَوَى الأَحِبَّةِ منهُ في سَودَائِهِ(2)

كما نرى في أحد أبيات ابن المقرب ضمن قصيدته السابقة وهو قوله:

وأَرُومُ كِتْمَـانَ الهَـوَى فَيُـذِيعُـهُ طَرْفِي وطَرْفُ الصَّبِّ مِنْ أَعْدَائِهِ(3)

أثرا من بعض معاني الغزل لشعراء العصر الأموي مثل عمر بن أبي ربيعة الذي يقول:

إذَا جِئْتَ فامْنَحْ طَرْفَ عينِكَ غَيْرَنَا لِكَيْ يَحْسَبُوا أنَّ الهَوَى حيثُ تَنْظُرُ(4)

أو عبد الله العرجي الذي يقول:

أَرَى مُسْتَقِيمَ الطَّرْفِ ما الطَّرْفُ أَمَّكُمْ وإن أَمَّ طَرْفِي غَيْرَكُم فَهْوَ أَحْوَلُ(5)

---

(1) الديوان ص ١٩ و ٢٠.

(2) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١ / ١ وانظر مقالاً للأستاذ عبد القدوس الأنصاري في جريدة صوت الحجاز العدد ٢٢٣ في ٢١ / ٦ / ١٣٥٥ هـ.

(3) الديوان ص ٢٠.

(4) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٣ لمحمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ.

(5) ديوان العرجي ص ١٣ شرح وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي ـ الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ـ بغداد ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ.

وإن ظروف الشاعر النفسية التي أشرنا إلى أنها من العوامل التي تصرفه عن الغزل لا تفارق ذهنه حتى في غزله القليل. أرأيت كيف يعبر في أحد أبياته السابقة عن مشكلته مع بني عمه وما يجب أن تكون عليه صلته بهم. فهو يقول:

فَالخِلُّ مَنْ أَصْفَى مَوَدَّةَ قَلْبِهِ ... لِذَوِي مَوَدَّتِهِ وأَهْلِ صَفَائِهِ

فإن هذا المعنى لو نظرنا إليه من الناحية الغزلية الصرفة فإنه سيصبح معنى معتاداً ، لأن صفاء مودة الأخلّاء لذوي مودتهم هي تحصيل حاصل ولا تستحق من الشاعر أن يصوغها معنىً غزلياً في قالب الحكمة، لولا أن هذا المعنى يمثل جزءاً من همومه ومشاكله مع بني عمه الذين لا يخلصون له المودة والمحبة ولو كان من ذوي مودتهم وأهل صفائهم.

ومع إشراق الأسلوب في غزل ابن المقرب التقليدي الذي رأينامثالاً منه فإننا لا نجد فيه حرارة الغزل العذري وصدقه وصفاء عاطفته كما في شعر المجنون وجميل بثينة وكثّير عزة، بل يظل صورة لغزل الشعراء قبله وتشبيبهم في ابتداء قصائدهم لشدِّ الانتباه إلى موضوع القصيدة، وتهيئة الأذهان والتشويق لما سيقولون. وهو في ابتدائه بهذا الغزل يطيل أحياناً كما في قصيدته السابقة وكما في قصيدة أخرى يمدح بها ابن عمه الأمير حسن بن مسعود مطلعها:

أَرَاهُ الهَوَى مَالَمْ يَكُنْ في حِسَابِهِ ... فَأَقْلَقَهُ عن صَبْرِهِ واحْتِسَابِهِ(١)

فبعد اثني عشر بيتا من الغزل على هذه الوتيرة ينتقل إلى المديح:

رَعَى اللهُ أَيَّامَ الشَّبَابِ فَإِنَّهَا ... هِيَ العُمْرُ يَا طُولَ الأَسَى باسْتِلَابِهِ
وَجَادَ دِيَارَ الحَيِّ من أَيْمَنِ الحَسَا ... مُرِبٌّ يُوَارِي الهُضْبَ دَانِي رَبَابِهِ
كَجُودِ ٱبْنِ مَسعُود الفَتَى الوَاهِبِ اللُّهَا ... ومُخْجِلِ مُنهَلِّ الحَيَا في انْسِكَابِهِ(٢)

---

(١) الديوان ص ١٠٠.
(٢) الديوان ص ١٠١ واللُّها: المقدار الكثير من العطاء، والرباب: السحاب الأبيض واحدته ربابة.

ولكنه يضيق ذرعاً بهذه المقدمة أحياناً أخرى. فلا يخصص منها للغزل سوى بيتين أو ثلاثة ثم ينتقل إلى الموضوع الذي يريده لاسيما إذا كانت القصيدة في الشكوى والعتاب:

دَع الكَاعِبَ الحَسْنَاءَ تَهْوي رِكَابُهَا — وَتُبْنَى لَهَا في حَيثُ شَاءَتْ قِبَابُهَا
وَلاَ تَسْأَلَنْ عَنْ عِيسِهَا أَيْنَ يَمَّمتْ — فَسِيَّانَ عِندِي نَأْيُهَا وَاقْتِرَابُهَا
فَقَدْ كَرِهَتْ جَهْلاً مَشِيبي وإنَّني — أَرَى ضَلَّةً أن يَزْدَهِنِي شَبَابُهَا
وَمَا شِبْتُ مِنْ عَدِّ السِّنِين وإنَّمَا — أَشَابَ قَذَالِي مَيْلُهَا وانْقِلاَبُهَا[1]

وإن شعر الشكوى والعتاب ـ الذي يكاد يطغى على الكثير من أغراض شعره ـ لَيُلقي ظلاله على الغزل أيضاً. فإذا خاطب المرأة متغزلاً فإن أول معنىً يخطر بباله هو شيبه وبياض رأسه الذي يصرف الحِسان عنه، ولم يكن هذا الشيب إلا أثرا للخطوب والرزايا التي أثقلت كاهله كما عبر عن ذلك في بائيته السابقة، وكما يكرر هذا المعنى في قصيدته التي يمدح بها الناصر لدين الله حينما ابتدأها بالغزل وهو يروي حواراً دار بينه وبين امرأة تعيّره بشيبه:

وَقَائِلَةٍ شَبْهَ المَلاَمِ وَرَاءَهَا — بَيَاضُ مَشِيبٍ جَلَّلتْهُ المَسَائِحُ
أَبَعْدَ اشْتِعَالِ الرَّأْسِ شَيْباً تَعَرُّضٌ — لِوَصْلِ الحِسَانِ البِيضِ أَمْ أَنْتَ مَازِحُ
فقُلتُ: أَلَيسَ الصُّبْحُ أَحْسَنَ مَنْظَراً — وأَبْهَى مِنَ الظَّلْمَاءِ واللَّيلُ جَانِحُ
فَمَالَتْ لِهَزْلِ القَولِ ثُمَّ تَضَاحَكَتْ — وقَالَتْ: لِهذَا فَلْتَنُحْكَ النَّوَائِحُ
إذَا كَانَ شَيبُ الرَّأسِ مِمَّا يَزِينُهُ — فَيَا حُسْنَ ثَغْرٍ سَوَّدَتْهُ القَوَادِحُ
وَمَا شِبتُ مِنْ سِنٍّ مَضَتْ بَلْ أَشَابَنِي — صُرُوفُ اللَّيَالِي والخُطُوبُ الفَوَادِحُ[2]

بل إن حديثه مع المرأة لينحو في الغالب منحى آخر غير الغزل حينما يحاورها كثيراً في أمر رحيله وغربته وهي تحاول أن تثنيه عن السفر، وتُحبِّب إليه القعود في

---

(١) الديوان ص ٤١.

(٢) الديوان ص ١٢٢. والمسائح: جمع مسيحَة وهي الذؤابة، أي أن شيبه قد خالطه سواد ذؤابته، والقوادح: الدود يأكل الأسنان ويقدحها قدحاً.

بلده كما رأينا في أساليب الشكوى والعتاب في شعره[1]. فلم تكن هموم الشاعر وأحزانه لتترك له وقتاً ليحدث المرأة حديث المحب الواله العاشق.

وهكذا يسير ابن المقرب على هذه القاعدة التقليدية في اقتصار الغزل على ابتداء القصيد على طريقة أسلافه، ولا يخرج عنه إلى نوع آخر من الغزل إلا في أبيات نادرة أشبَهَ فيها شعراء عصره في تكلف المعاني الغزلية:

وَعَلَّ نَوَالاً مِنهُ يُحْيي حُشَاشَةً ... يُزَكِّي بِهِ عَنْ حُسْنِهِ وَشَبَابِهِ
فإنَّ زَكَاةَ الحُسْنِ تَقْبِيلُ ثَغْرِهِ ... وَرَشْفُ ثَنَايَاهُ وَبَرْدِ رُضَابِهِ
حَلَالاً لِأبْنَاءِ السَّبِيلِ مُخَصَّصٌ ... لَهُمْ دُونَ مَنْ قدْ نَصَّهُ في كِتَابِهِ[2]

ومع ذلك فإنه حينما أراد الخروج بهذه الأبيات عن طريقته وخطته في الغزل جاء بمعنى ضعيف مقحماً بعض المعاني المستمدة من القرآن الكريم والمقام لا يناسبها.

ومثل هذه الأبيات قوله من قصيدة يمدح بها الأمير مسعود بن محمد وقد جعل الغزل مدخلاً إلى المديح:

وأَزُورُ الحِبَّ عَلانِيَةً ... وَيَزُورُ جَنَابِي عَنْ أَمَمِ
كَمْ لَيلٍ بِتُّ أُفَاكِهُهُ ... فَحَشاً لِحَشاً وفَماً لِفَمِ
وأُعَلِّلُهُ ويُعَلِّلُنِي ... مِنْ ذِي أَشَرٍ عَذْبٍ شَبِمِ[3]

ويستدل الدكتور صلاح نيازي بهذه الأبيات على أنّ ابن المقرب قد عاش تجربة حقيقية في الحب قبل زواجه[4]، ولكنه يقع في التناقض حينما يرجِّح أن الشاعر قد تزوج وهو صغير، وحينما يقرر أن هذه الأبيات قيلت في البحرين في

(١) انظر ما تقدم ص ٢١٤.

(٢) الديوان ص ١٠٠ ويعني بأبناء السبيل المنصوص عليهم في الكتاب: المستحقين للزكاة انظر سورة التوبة الآية ٦٠.

(٣) الديوان ص ٥٨١ والأمم: القصد، والشبم: البارد الريق.

(٤) انظر تحقيق ديوان ابن المقرب مع دراسة نقدية للدكتور صلاح نيازي ص ١٨٧ و ١٨٨.

وقت متأخـر . وأغلب ظني أن ابن المقرب لم تمر به أي تجربة حقيقية في الحب. أما هذه الأبيات فما هي إلا تقليد متكلف للغزل الصريح وضعه الشاعر في غير موضعه ضمن الغزل التقليدي الذي اعتاد أن يبدأ به بعض قصائده. والذي يؤكد هذا الظن أن هذه الأبيات هي ضمن مديحه للأمير مسعود بن محمد، والأمير مسعود هو من أواخر الأمراء العيونيين في سنواتهم الأخيرة، والشاعر في هذه السنوات كان قد بلغ أشُدَّه وتعدى عمره الأربعين على أقل تقدير. ثم إن بعض أبيات القصيدة نفسها تثبت أن الشاعر كان يتكلف الغزل ويتصنّع فيه، وليس عن تجربة حقيقية كما يظن الدكتور نيازي، فهو يقول منها:

فَتَـرَى الـرُّقَبَـاءَ طَـلاَئِـعَنَـا وشُـهُـودَ العِـفَّـةِ والـكَـرَمِ [1]

فأي عفة هذه إذا كان قد وصف لقاءه بها في الأبيات الثلاثة السابقة بأنه (حَشاً لِحَشاً وفماً لِفمِ). إنه التقليد والتكلف فحسب.

ومع إقلال ابن المقرب من هذا الغرض واقتصاره في الغالب على ابتداء القصيد فإنه يحاول التنويع في أسلوب الغزل ليبعده عن الرتابة والجمود، فيستخدم الحوار في غزله كما في إحدى مدائحه التي ضمنها حواراً جرى بينه وبين فتاة عراقية تسأله عن أهله وبلده، ثم انتقل من هذا الحوار إلى الفخر ثم إلى المديح[2]. وكذلك حديثه مع فتاة أخرى يختمه بالفخر والتسامي والترفع عن الخلق الذميم:

أَقُولُ لَهَا سِرّاً وَقَدْ غَابَ كَاشِحٌ ... رَقِيبٌ مَقَـالَ العَاشِقِ المُتَهَـالِـكِ
لَكِ الخَيرُ مَا هٰذَا الجَفَاءُ وَهٰذِهِ ... دِيَـارِي وأَهْلِي زُلْفَةٌ من دِيَـارِكِ
أَتَـرْضَينَ قَتْلِي لابِسَلَّةِ صَـارِمٍ ... مِنَ البِيضِ إِلَّا سَلَّةً من لِحَاظِكِ
فَـوَاللهِ مَا أَدْرِي إِعْـرَاضُ بِغْضَةٍ ... لَنَا أو دَلاَلٌ فَافْصِحِي. عَنْ مَقَالِكِ

---

(١) الديوان ص ٥٨١.
(٢) انظر الديوان ص ٢٨ وقد تقدم ذكر هذه الأبيات ص ٢٣٠ .

فَلِي هِمَّــةٌ عَلْيَــا وَنَفْسٌ أَبِـيَّــةٌ تَمُجُّ وِصَالَ اللَّاوِيَاتِ المَوَاعِكِ[1]

إن غزل ابن المقرب على هذه الصورة: في قلته واقتصاره على ابتداء القصيد وارتباط بعضه بالفخر لَيُشبه غزل المتنبي وطريقته فيه، ولكنه لم يأت فيه بطائل، لأنه لم يكن يناسب الروح العامة لشعره، ولم يكن يناسب ظروف حياته، ولا يستجيب له في التعبير عن همومه وأشجانه.

---

(١) الديوان ص ٣٠٧ والمواعك: من المعك وهو المماطلة في الدَّين.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

الخصائص الفنية العامة في شعره

أولاً : المضمون

لقد كان ابن المقرب ظاهرة فريدة في عصره بما وهبه الله من ملكة شعرية قوية تظهر في جزالة معانيه وإشراق أسلوبه وطول نفسه والتزامه بمذهب الشعراء القدامى .

ولئن كان هذا الشاعر قد نبغ في عصر ضعفت فيه الملكات الشعرية، وانحدرت فيه القدرات الأدبية فقد غدا مثالاً للشاعرية الأصيلة التي اهتزت أو فقدت لدى شعراء عصره، وهو كما يقول الدكتور رزوق فرج رزوق[1] : «حلقة تصل حاضر الشعر في زمنه بحلقات قوية من ماضيه، عبر وشائج من الروح العربية والمضامين التراثية والمعاني المأثورة والتقاليد الشعرية والذخيرة اللفظية البدوية» .

ولقد أقرَّ له معاصروه بالجودة والحذق والسبق، فكان من قول ابن الشعار الموصلي فيه[2] : «وكان شاعراً مجوداً منتجعاً، كثير المدح، قليل الهجاء، جيدَ القول متينَه، قويَّ اللفظ رصينَه، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين، أقر له بالحذق أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم، ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني»، وأجمع المنذري

(١) ص ١ من بحث للدكتور رزوق بعنوان (ابن المقرب العيوني شاعر الخليج العربي في عراقياته) .
(٢) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ / ١٢٦ (مخطوط) .

وابن نقطة أنه شاعر مجيد مليح الشعر[1]. كما ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى أنه «شاعر مطبوع فخم الألفاظ جذابها، ويلوح على صفحة شعره أنه صادر من منهل قريحة صافية وفطرة سليمة، لا أثر فيه للتكلف ولا موضع فيه للتعسف، وما هو إلا أن يدعو المعاني الشُّرَّد والألفاظ النُّفَّر فإذا هي تلبيه طائعة لإرادته منقادة لرغبته[2]».

تلك شهادات للشاعر أجمع النقاد من خلالها على قوة شاعريته ونبوغه، وأحلُّوه بها المكانة التي يستحقها بين شعراء العربية الكبار، ولكنها أحكام عامة تحتاج إلى التحليل الفني المفصل المستند إلى دراسة شعره والغوص في أعماقه، حتى تستبين لنا الخصائص الفنية العامة في مضمون شعره وشكله.

أولاً: المضمون:

١ - بين الذاتية والتقليد:

إن شاعراً مثل علي بن المقرب عاش بين القرنين السادس والسابع الهجريين لا بد أن ينهل معانيه من مناهل سابقيه، ويتابع خطاهم، ويحذوَ حذوهم. ولقد كان تأثره بهم كبيراً، ولا سيما بأبي الطيب المتنبي كما رأينا في أغراض شعره، ولكن هذا التأثر لم يجعل منه ذلك الشاعر المقلد، ولم يطغ التقليد على شخصيته الأدبية أو يذيبها. بل إن موهبته الفذة وحياته الخاصة وشخصيته الفريدة قد خلقت منه شخصية متميزة، وبالتالي فقد غدا من خلال أكثر الأغراض التي طرقها شاعراً ذاتياً، نرى ملامحه البارزة في تعبيره عن أحزانه وكآبته، وصبره وتجلده واعتزازه وافتخاره وطموحه، إلى جانب معانيه التقليدية الخالصة في بعض الأغراض الأخرى التي نجد فيها صوراً مكرورة من معانٍ سُبِق إليها. وطالما عزف الشعراء على أوتارها.

---

(١) انظر التكملة لوفيات النقلة للمنذري ٦ / ٤٥ والإكمال في رفع الارتياب لابن ماكولا. ٥ / ٢٠١.

(٢) من محاضرة للأستاذ عبد القدوس الأنصاري نشرت في جريدة صوت الحجاز العدد ٢٢٥ في ٦ / ٧ / ١٣٥٥ هـ.

فنحن نراه يستخدم في مدائحه كثيراً من المعاني المطروحة في الطريق من كرم وشجاعة ونبل وحلم ونحو ذلك من المعاني التقليدية التي يسبغها على ممدوحيه لغاية في نفسه، إمّا في سبيل رد أملاكه ومكانته المحترمة، أو للاستعانة بهم على ضائقته المالية، دون أن يكون في هذه المدائح أي عاطفة تبرز فيها ذاتيته وحقيقة مشاعره، ولكننا نجده يعبر عن ذاتيته في بعض مدائحه لبني عمه أو رجال عصره ممّن يُكِنُّ لهم الاحترام والتقدير، كما هو الحال مع ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين، فقد كان يمدحه بدافع المحبة والمودة ولا يقبل منه الجوائز، وكذلك مع أمير البصرة شمس الدين باتكين الذي جمعته بالشاعر صحبة وصداقة، فخصّه بمدائح تختلف عن مدائحه الأخرى بما فيها من إشادة بأعماله وإصلاحاته العمرانية، مما طبع مدائحه فيه بالبعد نوعا مّا عن التقليد مع الاتجاه للتخصيص، حيث لا تصلح هذه المدائح إلا لمن قيلت فيه كما رأينا في أغراض شعره.

كما نجد معانيه في الهجاء أيضاً ـ على قلة هجائه ـ تقليدية يكرر فيها معاني سابقيه، إذ لا يترفع عن وصف أعدائه بأقبح الصفات وأكثرها إيغالا في البذاءة والفحش، وكأنه يقلد ابن الرومي حينما يستهزىء بالمظاهر الجسمية للمهجو، وينهش عرضه ويرميه بالخنا والفجور.

كما نجده في رثائه يتكىء على المعاني التقليدية التي لا مناص من طرقها في البكاء على الفقيد وتعداد مناقبه وتقديم العزاء لأهله.

إن هذا التقليد في معاني المديح والهجاء والرثاء عند ابن المقرب أمر مقبول مطابق للواقع، فهو يسير على طريقة الشعراء قبله، فيكرر هذه المعاني كما كروروها منذ العصر الجاهلي حتى عصره، ولا ضير عليه في ذلك إذا قلدهم فيها، فهي بطبيعتها أغراض تقليدية يصعب التجديد فيها، وهي غالباً أغراض بعيدة عن الذاتية والصدق، يتكلّف فيها الشعراء فيظهرون ما لا يبطنون.

أما الأغراض الأخرى ذات المجال الأرحب في إبراز الذاتية والصدق والعفوية، والتي تصادف هوىً في نفس شاعرنا كالشكوى والعتاب والفخر

والحماسة فإنه قد حلّق فيها وأبدع حتى أصبحت الميدان الواسع لإظهار شخصيته الذاتية، ولمّا كانت هذه الأغراض تمثل جانباً كبيراً في شعره فإننا نستطيع أن نغلّب ذاتيته على تقليديته. ومن هنا فإنه يجدر بنا أن نقف عند مظاهر هذه الذاتية بعد أن عرفنا ملامح التقليد في معانيه.

ولعل أبرز ظاهرة تتميز بها ذاتية ابن المقرب هي تلك المسحة العامة من الحزن والكآبة التي تلقي بظلالها على معانيه وتبرُزُ من خلالها ذاتيته وشخصيته الحزينة دون يأس والباكية دون خَورَ. فلقد كان شعوره بالحرمان وهو من بيتِ حكمٍ وملك، وما تعرض له من أذى وقطيعة من بني عمه، وتقلبه في البلاد بعيداً عن أهله ووطنه هو ما صبغ معانيه بهذه الصبغة الحزينة التي تنم عن شعور بالتشاؤم وتنبيء عن نفس ملتاعة يحملها ابن المقرب بين جوانحه فيتردد صداها في شعره بمثل قوله[1]:

أَرَى الشَّـرَّ قُدَّامـاً وخَلْفـاً وأَتَّقِي ... نِبَـالَ الأَذَى عن يَمْنَـةٍ وشِمَـالِ
إذَا قُلتُ جَلَّى بَعْضُ هَمِّي أَتَتْ لَهُ ... نَوَائِبُ أَمْضَى من حُدُودِ نِصَـالِ
كـأَنَّ الرَّزَايَـا والمَنَـايَـا تَحَـالَفَـا ... عَلَى عَكْسِ آمَـالِي وَبَثِّ مَـآلِي

ولقد غلبت مشاعر الحزن هذه على معاني شعره في أغراض الشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة. فهو لا ينفعك يعلن في كل مناسبة عن عزمه على الرحيل وهجر الوطن ومفارقة أقاربه الذين آذوه وأذلوه:

أَقِيمَا عَلَى حَرِّ المُدَى أَوْ تَرَحَّلاَ ... فَلَستُ بِرَاضٍ مَنْزِلَ الهُونِ مَنْزِلاَ
وَلاَ تَسْأَلاَني أَيْنَ تَرْمِي رَكَـائِبِي ... فَمَـا لَكُمَا أَنَّ تُسْلِمَـاني وَتَسْـأَلاَ
فَقَدْ سَئِمَتْ نَفْسِي المُقَامَ وشَاقَنِي ... رُكُوبُ الفَيَافي مَجْهَلاً ثُمَّ مَجْهَلاَ
وَكَيفَ مُقَـامِي بَينَ أَوْبَاشِ قَـرْيَةٍ ... أَرَى الرَّأْسَ فيهَا مَنْ بِهَا كَانَ أَسْفَلاَ[2]

وغير هذه الأبيات كثير في شعره يجد القارىء فيها مزيجاً من المعاني التي

(١) الديوان ص ٣٧١.
(٢) الديوان ص ٣٦٤ والمُدَى: جمع مدية وهي السكين.

تتمثل في عدم استقراره، وشعوره بالظلم والاضطهاد، وإحساسه بالغربة، وتجشمه المخاطر، وحلوله بكل أرض، وكثرة أعدائه في كل دار:

أَفِي كُـلِّ دَارٍ لي عَدُوٌّ أُصَاوِلُهْ   وخَصْمٌ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي أُزَاوِلُهْ
وَطَاوٍ عَلَى بَغْضَايَ تَصْرِفُ نَابُـهُ   عَلَيَّ وبـالشَّحْنَاءِ تَغْلِي مَرَاجِلُهْ
كَـأَنَّ أَبَـاهُ كَـانَ قَـاتِلَهُ أَبِـي   وَهَا أَنَا إنْ أَوْفَى بِيَ العُمْرُ قَاتِلُهْ
دَعُونِي وأَرْضَ اللهِ فَهْيَ عَرِيضَةٌ   فَلَنْ يُفْلَلِ العَزْمُ الَّذِي أَنَا حَامِلُهْ
سَتَشْهَدُ لِي بالسَّيرِ في كُلِّ مَهْمَهٍ   أَوَاخِرُ لَيلِي إن أَعِشْ وأَوَائِلُهْ (١)

وإن براعة ابن المقرب في تصوير حاله وإظهار أحزانه لتظهر في غرض الشكوى والعتاب أكثر من أي غرض آخر، فهو يصف حياته المضطربة ومآسيه الدائمة وقد مَلَّ صحبة أصدقائه وضاق ذرعاً ببني عمه:

سَئِمتُ مُـدَارَاةَ اللَّيَـالِي وغَـرَّنِي   صَـدِيقٌ أُصَـافِيهِ وخِـلٌّ أُوَاصِلُهْ
وَضِقْتُ ذِرَاعـاً بِابْنِ عَمٍّ مُحَبَّبٍ   إليَّ وإنْ لَمْ تَسْقِ أَرْضِي مَخَائِلُهْ
فَكَمْ لَيلَةٍ عَلَّلْتُ نَفْسِي بِـذِكْـرِهِ   وَسَكَّنْتُ قَلبي فاطْمَأَنَّتْ بَلَابِلُهْ (٢).

على أن هذه الروح التي تفيض بالحزن والأسى ـ وإن ظهرت بشكل واضح في الشكوى والعتاب ـ فإننا نراها لا تفارق الكثير من أغراضه الأخرى، حتى غلبت مشاعر الألم والتحسر على مطالع قصائده بما في ذلك مدائحه كما في مطلع قصيدة يمدح بها الناصر لدين الله:

إلَامَ أُنَـاجِي قَلْبَ حَيْرَانَ وَاجِمٍ   وأَنْظُرُ عُودِي بَينَ لَاحٍ وعَاجِمِ (٣)

وفي مطلع أخرى يمدح بها شمس الدين باتكين أمير البصرة:

---

(١) الديوان ص ٣٣٤ وقد ورد الشطر الثاني من البيت الرابع في الديوان هكذا: فإن يفللِ العزم.
(٢) الديوان ص ٣٣٥.
(٣) الديوان ص ٤٩٠. ولحا العود: قشره، وعجمه: اختبره.

طَمَا بَحْرُ الهُمُومِ بِهِ فَمَادَا ... وَعَوَّضَهُ مِنَ الغَمْضِ السُّهَادَا[1]

وفي مطلع ثالثة يمدح بها محمد بن عبد الله بن سنان:

أَتْعَبْتَ سَمْعِي بِطُولِ اللَّومِ فاقْتَصِرِ ... مَاذَا أَهَمَّكَ مِنْ نَومِي وَمِنْ سَهَرِي[2]

وهكذا يعبر الشاعر دائماً عن ذاته ودخيلة نفسه ويظل يبكي حظه العاثر وسوء طالعه وقسوة الأيام والليالي عليه وظلم الدهر وصروفه له، حتى راح يصور لنا هواجسه وهمومه في الليل والنهار بأبيات صادقة تعبر عن مقدار حزنه وألمه:

وأَسْلَمَنِي الشَّقَاءُ إلى زَمَانٍ ... مَصَائِبُهُ كَمَا انْهَلَّ الغَمَامُ
نَهَارٌ لا أَسَرُّ بِهِ ولَيْلٌ ... يَنَامُ بِهِ السَّلِيمُ وَلاَ أَنَامُ
تَلاَعَبُ بِي خَوَاطِرُ مِنْ هُمُومٍ ... كَمَا لَعِبَتْ بِشَارِبِهَا المُدَامُ
إذَا مَا قُلْتُ أَهْجَعُ بَعضَ لَيلِي ... أَتَتْ ذِكَرٌ يَقُضُّ لَهَا المَنَامُ[3]

وإن ابن المقرب ليذهب كثيراً في إبراز شخصيته الحزينة الكئيبة في أغلب قصائده، وقد رأينا كيف أن غرض الشكوى يكاد يطغى على أغراضه الأخرى. بل إنه في قصائد المديح نفسها يكاد ينسى ممدوحه حينما يسترسل في شكواه وعتابه وإظهار أحزانه وآلامه وحرمانه وظلم قومه وأقاربه له.

على أن هذه الظاهرة لا تعني أن الشاعر كان دائم البكاء والتحسر، أو أنه كان مستسلماً لأحزانه وأشجانه. بل إن ظاهرة أخرى تتجلى في معاني شعره وتقترن غالباً بالشكوى والتحسر، وهي شخصيته القوية المتعالية التي تسخِّر جل معانيه للانسياق وراءها حتى أصبحت المعاني التي تلفُّ شعره برداء من الحزن والألم ملازمة لتلك التي تضفي على أشعاره ثوباً من الفخر والاعتداد بالنفس في أكثر الأغراض. ولعل

---

(١) الديوان ص ١٨٢.
(٢) الديوان ص ٢٤٠.
(٣) الديوان ص ٥٦٤.

أصدق مثال على ذلك حكايته مع الدهر وهو يكررها ، شاكياً من صروفه متعالياً على أحداثه :

تَجَاهَلَ هذا الدَّهْرُ بي فَتَكَتَّبَتْ ... عَلَيَّ بأَنْواع البَلاَيَا كَتَائِبُهْ
وَظَنَّ مُحَالاً أنْ أَدِينَ لِحُكْمِهِ ... لِتَبْكِ عَلَى عَقْلِ المُعَنَّى نَوَادِبُهْ
وإنِّي وإنْ أَبْدَى اصْعِرَاراً بِخَدِّهِ ... وأَوْجَفَ بي وازْوَرَّ للبُغْضِ جَانِبُهْ
لأُغْضِي عَلَى بَغضَائِهِ وازْورارِهِ ... وأَعْجَبُ مِنْ حُرٍّ كَرِيمٍ يُعَاتِبُهْ
وأَسْتَقْبِلُ الخَطْبَ الجَلِيلَ بِثَاقِبٍ ... مِنَ العَزْمِ يَعْلُو لاَهِبَ النَّارِ لاهِبُهْ[1] .

فحديثه عن الدهر وصروفه يقترن غالباً بإبراز هاتين الظاهرتين في وقت واحد : الشكوى والتحسر مع التعالي والفخار ، وصفُ الفواجع والمصائب مع التصدي لها وعدم الاستسلام أمامها، إلا أنه يغلِّب جانب الاعتزاز وقوة الاحتمال والصبر والجلد على التباكي والتحسر والشكوى في أكثر الأحيان كما في قوله :

أبى الدَّهْرُ أَنْ يَلْقَاكَ إلاّ مُحَارِبَا ... فَجرِّدْ له سَيفاً من العَزمِ قَاضِبَا
وَلَا تَلْقَهُ مُسْتَعْتِباً من ظُلاَمَةٍ ... فَمَا الدَّهْرُ سَمَّاعاً لِمَن جَاء عَاتِبَا[2]

وقوله :

كَمْ عَايَنَ الدَّهْرُ مِنِّي صَبْرَ مُكْتَهِلٍ ... إذْ لَيس يُوجَدُ صَبْرُ العَوْدِ في الجَذَعِ
وكَمْ سَقَانِي من كَأْسٍ عَلَى ظَمَاءٍ ... أَمَرَّ في الطَّعْمِ مِنْ صَابٍ وَمِنْ سَلَعِ
وَمَا رَمَتْنِي بِكْرٌ من نَوَائِبِهِ ... إلَّا صَكَكْتُ بِصَبْرِي هَامَةَ الجَزَعِ[3]

ولكن الشاعر مهما حاول في هذه الأمثلة وغيرها أن يغلب جانب الاعتزاز

---

(١) الديوان ص ٥٢.

(٢) الديوان ص ٣٥.

(٣) الديوان ص ٢٧٤ . والمكتهل: الرجل قد وَخَطَه الشيب، والعَود : المسن من الإبل والشاء، والجَذَع: الصغير منها ، والصاب والسلع : نوعان من الأشجار المرّة ، والجَزَع: إظهار الحزن.

والاعتداد بالنفس ـ كما قلنا ـ فإنها تُظهِر أيضاً مدى مكابدته وعذابه وحزنه وألمه، فقد حاربه الدهر وسقاه كأساً مرة.

إن روح الاعتزاز والشموخ والطموح هي المعاني الغالبة على شعره ليس في اقترانها بالشكوى والتحسر فحسب ، بل في أكثر الأغراض والمناسبات. فقد رأينا في مدائحه كيف يُدِلُّ على ممدوحه ويفاخره في أبيات المدح نفسها:

كَيْمَا أُلاَقِي مَلِكاً عِنْدَهُ ... لِلْمَاجِدِ الأَحْسَابِ مِثْلِي مُقَامْ[1]
وَمَنْصِبُكَ السَّامِي إلى الفَخْرِ مَنْصِبِي ... ورَبْعُكَ رَبْعِي والعُلاَ أَنتَ آيِلُهْ[2]

وانظر إليه كيف يترفع على مهجويه:

عَلَى رِسْلِكُمْ وامْشُوا رُوَيداً فَتِيهُكُمْ ... عَلَى عَبْدَلِيٍّ من عَجِيبِ العَجَائِبِ
وخَلُّوا مُضِلَّاتِ الأَمَانِي عَنْكُمُ ... مَتَى نَفَّرَ البَازِي صَرِيرُ الجَنَادِبِ[3]

....

يَا تَيسُ قَرْنُكَ كُلُّهُ نَقَدٌ ... في النَّطْحِ لا يَقْوَى عَلَى الصَّخْرِ
مَهْلاً فَقَدْ نَبَّهْتَ لَيثَ شَرىً ... أَظْفَارُهُ ونُيُوبُهُ تَفْرِي
مِنْ مَعْشَرٍ لَبِسُوا العُلاَ ونَشَوْا ... بَينَ الصَّوَارِمِ والقَنَا السُّمْرِ[4]

وإن تعلُّق الشاعر بمعاني الفخر والاعتزاز، وحرصه على ترديدها ، وإصراره على إقحامها في كل غرض ليتضح في مزجه لهذه المعاني مع الغزل حينما يبتديء به بعض قصائده مع ندرة ابتدائه بالغزل فتظهر من خلالها رجولته وكبرياؤ ه واعتداده بنفسه بلا استخذاء ولا ميوعة:

إلَيكُنَّ عَنِّي فانْصَرِفْنَ عَلَى مَهْلِ ... فَلَسْتُ بِمُرْتَاعٍ لِهَجْرٍ وَلاَ وَصْلِ
وَمَاذَاكَ عَنْ بُغْضٍ لَكُنَّ وَلاَ قِلىً ... ولَكِنَّ قَلبِي عن هواكُنَّ في شُغْلِ

---

(١) الديوان ص ٥٧٤.

(٢) الديوان ص ٣٣٤.

(٣) الديوان ص ٦٨ .

(٤) الديوان ص ٢٢٦ ، والنَّقَد: تآكلٌ في القرون يضعفها عن النطح.

أَبَتْ لِي وِصَالَ البِيضِ هِمَّاتُ مَاجِدٍ بَعِيدِ الحَمَايَا غَيرِ نِكْسٍ وَلَا وَغْلِ
غَيُورٍ عَلَى العَلْيَاءِ إنْ يَبْتَنِي بِهَا رَزَايَا أُنَاسٍ ما تُمِرُّ ولا تُحْلِي(١)

وهكذا يتضح لنا أن ابن المقرب شاعر ذاتي في أغلب نتاجه الشعري ، فهو يعبر بصدق عن مشاعره وأحاسيسه من خلال هذا المزيج من معاني الألم والحزن والحسرة والشكوى، ومعاني الفخر والحماسة واستنهاض الهمم والتطلع إلى مراتب العز والشرف، ولا تزال شخصيته الباكية الحزينة المتعالية الفخورة، تصحب قاريء ديوانه وتتراءى له بين أبياته ، تاركة أثرها المميز وملامحها المستقلة على منهجه وطريقته بالرغم من متابعته لسابقيه وتقليدهم والسير على منوالهم .

ونستطيع بعد أن استعرضنا مظاهر التقليد والذاتية في معاني شعره أن نوجز هذا الجانب فيما يلي :

١ ـ تبدو معانيه تقليدية خالصة في جانب كبير من مدائحه، وفي هجائه ورثائه، وتبدو معانيه المستقلة ـ نوعا مّا ـ في جانب آخر من مدائحه حينما يخصِّص ممدوحيه، ويعنى بإصلاحاتهم وأعمالهم. كما نجد مشاعره الذاتية في بعض مدائحه لبني عمه الذين تربطه بهم مودة ومحبة واحترام.

٢ ـ تظهر ذاتيته في الأغراض التي تلامس مشاعره وأحاسيسه، وتعالج مشكلته ومحنته، وتنفِّس عن كربته وحزنه كالشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة، حيث يبرز فيها تعبيره عن تجاربه الحية الصادقة في الحياة، فكأننا نقرأ فيها قصة حياته، فتظهر لنا شخصيته المضطربة الممزقة المتمثلة في ذلك الشاعر المظلوم، وهو العربي النبيل الذي نشأ في بيت إمارة ومجد، فعاكسته الظروف ودخل السجن ولقي الهوان والحرمان على أيدي أقربائه وبني عمه، فعزَّ عليه أن يستجدي الخلفاء والأمراء وهو سليل المجد والشرف والإباء. وهو بهذا يذكرنا بمواقف أولئك الشعراء

---

(١) الديوان ص ٣١٦، والنِّكس أو الوَغْل: الضعيف الدنيء وقوله: ما تُمِرُّ ولا تُحْلى: أي لا تنفع صديقاً ولا تضر عدوا، وبعيد الحمايا: يحمي البعيد كما يحمي القريب

ممّن جمعته الأقدار معهم في حومة واحدة، فكأنه المتنبي يقف مطامناً من كبريائه بين يدي كافور، أو أبو فراس الحمداني ذلك الأمير الفارس وهو يرسف في قيود الأسر وذل السجن، أو الشريف الرضي وهو يتذوَّق مرارة العذاب والحرمان رغم أحقيَّته بالشرف والمجد. ويشير الأستاذ مقبل العيسى إلى وجوه الشبه التي جمعت بين الشاعر وهؤلاء الفحول الثلاثة بعدما تشابهت ظروف حياتهم فيقول[1] : «فمن يقرأ ديوانه يتذكر بعض الشعراء الذين ملأوا سمع الدنيا دوياً كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني والشريف الرضي، فهو في قوة تعبيره عن المعاني الشعرية، يذكِّرك بهؤلاء الشعراء، أي أن تجاربه الشعرية تتشابه إلى حد كبير مع تجاربهم الشعرية. بل إن شخصيته تكاد تكون قريبة الشبه في بعض الجوانب من شخصية الشعراء الثلاثة أو بعضهم، فهو في حسبه ونسبه وفي طموحه إلى مركز اجتماعي مرموق، وتفاخره بشجاعته والتغني بأمجاد أسلافه، وتردُّدِه على مجالس الخليفة وبعض الأمراء مادحا لغاية في نفسه، وفشله في أمانيه، وفي تمزقه النفسي وثورته على الحياة بسبب هذا الفشل. . كل ذلك يذكِّرك بالشعراء الثلاثة».

٢ ـ الغزارة والتشابه

إن من أهم الخصائص الفنية العامة في شعر ابن المقرب غزارة معانيه ووفرة نتاجه الأدبي وتدفقه الشعري وطول نفسه. فقد أربَتْ أبياته على خمسة آلاف بيت، ووصلت قصائده إلى ثمان وتسعين قصيدة. وكان يسترسل في هذه القصائد ويطيل حتى كادت نصف قصائده تقريباً تتراوح أبياتها ما بين الستين إلى المائة بيت، ويكاد ثلث قصائده تقريباً تتراوح أبياتها ما بين الأربعين إلى الستين بيتاً، أما القصائد التي تقلُّ عن الثلاثين بيتاً فلا تتعدى بضع عشرة قصيدة. وأما أطول قصائده فهي ميميته التي بلغت مائة وخمسين بيتاً[2]، ونونيته التي بلغت مائة وأربعة أبيات[3]. على أن

---

(١) مجلة البيان الكويتية ـ عدد ٣٧ محرم ١٣٨٩ هـ

(٢) انظر الديوان ص ٥٢٦.

(٣) انظر الديوان ص ٦٣١.

طول القصيدة وكثرة أبياتها ليس بالضرورة دليلاً على غزارة المعاني ووفرتها عند كثير من الشعراء، بل قد يكون مدعاة للحشو المُخِلّ والتكرار المُمِلّ، ولكنه عند بعضهم ميدان رحب يجول فيه الشاعر ويطوف، دون أن تستعصيَ عليه فكرة، أو تنِدَّ عن ذهنه خاطرة، بل تتوالى في مخيلته المعاني متدافعة متسابقة. وابن المقرب من هذا الصنف الذي لا ينضب معينه بسرعة، ولا يتدنَّى مستوى قصيدته بين أولها وآخرها. بل ربما برزت جودة شعره كلما مضى في القصيدة، وبخاصة في أغراضه الذاتية التي يشكو فيها أو يعاتب أو يفتخر.

ولعل أبرز الأسباب التي هيّأت له هذه الغزارة والوفرة أنه شاعر مطبوع موهوب بارع في الغوص في بحور الشعر ينتقي من أعماقها أنفس المعاني وأجودها دون تعب ولا نصب، فهو حاضر البديهة لا يجد كبير عناء في شحذ شاعريته وإعمال فكره، ليس في شعره الذاتي فحسب، وإنما في الأغراض التي يتكلف فيها الشعراء عادة، ويتصنعون المشاعر كالمديح، وقد رأينا ابن المقرب ينشيء إحدى مدائحه في مجلس ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين حينما طلب منه أن يقول بداهةً قصيدةً بمناسبة انتصاره في بعض معاركه فإذا هو ينشد قصيدته:

رِمَاحُ الأَعَادِي عن حِمَاكَ قِصَارُ وفي حَـدِّهَا عَمَّـا تَرُومُ عِثَـارُ[1]

وهي وإن لم تكن أجود مدائحه فهي لا تقل عنها في إحاطتها بالمعاني الملائمة لمثل هذه المناسبة.

يضاف إلى هذا العامل الذي ساعده على وفرة المعاني عامل آخر كان رافداً له ومُعيناً على الاسترسال في إيراد المعاني وتلوينها، وهو عمق ثقافته وسعة اطلاعه على فنون الثقافة والمعرفة وبخاصة الشعر العربي والتاريخ، ثم استفادته من تجارب الأقدمين وخبرتهم، حتى إنه لم يكتفِ بتنويع المعاني وكثرتها، بل إنه ليتابع المعنى الواحد في عدة صور وأشكال. وقدرأيناهبارعاً في اختيار معاني الحكمة ـ على سبيل

(١) الديوان ص ٢٠٧ وانظر أيضاً ص ٥٨٥.

المثال ـ حين يطيل في عرض المعنى الواحد في قوالب شتى[1].

وهناك عامل ثالث أيضاً كان له أثره في مدِّ الشاعر برافد غني من المعاني والأفكار وهو ذاتيته التي خلقتها محنته مع بني عمه، حتى غدا شعره صدىً لتجاربه ومعاناته، فكان لا يبرح يعرض همومه وأحزانه وشكواه وعتابه دون ملل أو كلل، ودون أن تعجزه شاعريته أو تخونه قريحته، فقد وجد في الظروف القاسية التي مرت به في حياته من مصادرة الأموال والسجن، والفقر والفاقة، والغربة والوحدة، وفراق الأهل والوطن مادة شعرية غنية بالأفكار الخلاقة والخواطر الجيّاشة والمشاعر الصادقة، تغذِّيها شدة وقع المصائب على قلبه مع شعوره بمكانته العالية ومنزلته الرفيعة وأحقيته الموروثة في بيت إمارة وحكم، وصدور هذه المظالم من أقرب الناس إليه وهم بنو عمه حكام الدولة العيونية. ومن هنا فقد كانت المعاني تتداعى في ذهنه فيقلِّبُها في صور شتى وقوالب متعددة. فإذا مدح أحد الأمراء العيونيين أو سواه من ممدوحيه الآخرين أخذ يعدد مناقبه ومفاخره، ويتغنى بأمجاد أسرته وقومه، مع ما يردده من معاني المديح المعروفة من شجاعة وإقدام، وسماحة وحلم، وسخاء وكرم وسواها، ولا ينسى أن يخص ممدوحه بما ينفرد به من خصال حميدة وأخلاق كريمة أو أعمال جليلة وإصلاحلات تستحق المديح والثناء. ولمّا كان الدافع لمدائحه في الغالب هو سعيه لرفع مظلمته واسترداد كرامته وحقوقه المسلوبة، فهو كثير المبالغة والاتِّكاء على معاني التمجيد والإطراء، ومثل ذلك حينما يشتكي أو يعاتب فتراه كثير الإلحاح على إظهار مظلمته وبث شكواه وتحسره مع صبره وجلده وقوة احتماله. وهو في ذلك لا ينفكُّ يخلط هذه المعاني بالإشادة بممدوحه وما يتوقع منه من إنصاف وعدل. وإذا افتخر رأينا في فخره الإكثار من ترديد معاني الاعتزاز والاعتداد بالنفس، والتباهي بمآثر قومه وعشيرته ومناقبهم في الجاهلية وفي عصر الدولة العيونية وسيطرتها على البحرين. وبين هذه المعاني وتلك يقلِّب الشاعر الحكمة والحماسة وسواهما بين أغراضه وفنونه الأخرى.

---

(١) انظر ما تقدم ص ٢٤٩ .

على أن هذه الغزارة والوفرة في معاني شعره مع ما حقَّقته له من إعجاب معاصريه، ومع ما أثبتت له من طول الباع والتمكن من فنون الشعر قد أوقعته أحياناً في التشابه والتكرار وترديد بعض المعاني في بعض أغراض شعره وبخاصة في المديح، فقد كانت إطالته في القصيدة الواحدة، وكثرة قصائده ذات الأغراض المتداخلة، وهمومه التي لا تفارق عقله وفكره تنسيه في كثير من الأحيان بعض المعاني التي أوردها في هذه القصيدة أو تلك، فلا يلبث أن يوردها مرة ثانية، ويكررها في مناسبة أخرى. ولعله كان يعلم أنه سبق أن استخدم هذه المعاني، ولكنه لا يجد في ذلك غضاضة ولا حرجاً حينما يختلف الممدوح، أو يبعد العهد بين المناسبات والأحداث التي تدفعه إلى قول الشعر، فيضطر إلى إعادتها وقد اختلفت المواقف وتبدلت الأمور وتكررت التجارب، وكثيراً ما تتكرر هذه التجارب وتتبدل تلك المواقف في عصرٍ كعصر ابن المقرب سادت فيه الفوضى وعمَّ الاضطراب، وكثر فيه ظهور بعض الأمراء على بعض، فإذا تولَّى أحدهم الإمارة امتدحه الشاعر، ثم لم يلبث أن يذهب ويأتيَ بعده من ينتظر المديح. وإذن.. فليس غريباً على شاعر امتدح أكثر من خمسة عشر أميراً من بني عمه سوى الخلفاء العباسيين وأعيان العراق أن يقع في بعض التكرار وتشابه المعاني، أمام حاجته الملحة ومظلمته المؤلمة اللتين تدفعانه إلى المديح والشكوى والاستعطاف. زد على هذا أن الرغبة في الإطالة قد أصبحت دليل الشاعرية في عصر ابن المقرب، فكان الشعراء يتسابقون في إطالة قصيدهم لإظهار مقدرتهم وبراعتهم وحذقهم مع نضوب قرائح بعضهم وعدم قدرتهم على التجديد والإبداع. وابن المقرب ـ رغم استقلال شخصيته الأدبية ـ غير بعيد عن نهج هؤلاء الشعراء في الإطالة والإسهاب وإظهار الحذق والبراعة حتى وقع فيما وقعوا فيه من التكرار والتشابه.

ولسنا نعني بتكرار بعض المعاني وتشابهها تلك المعاني التي يردد فيها شكواه من زمانه وعتابه لبني عمه وتحسره لِما آلت إليه حاله وحال دولته، أو تلك المعاني السامية والصفات النبيلة التي يمتدح بها بني عمه حكام الدولة العيونية مستشعراً

الافتخار والاعتزاز، فتلك معان عامة تتردد كثيراً في شعره ولكنها تُعدُّ ذخيرة شاعريته المتدفقة ورافد نتاجه الشعري القوي لما فيها من الذاتية وصدق العاطفة، واتِّكاؤه على مثلها لا يُعد تكراراً أو تشابها ما دام يحسن عرضها ويظهرها في كل مرة بمظهر جديد وقالب متميز، وما دامت تمتزج مرة بالمديح وأخرى بالفخر أو الحكمة أو الحماسة وسوى ذلك من أغراض شعره.

إننا نعني بالتكرار والتشابه نوعاً من المعاني المتقاربة التي تصدر من نبع واحد وتأخذشكلاً متشابهاً إلى حد ما. ولعل ذلك يتضح من بعض الأمثلة التي يظهر فيها هذا التشابه والتكرار، وكأن الشاعر قد استنفد كل المعاني التي خطرت في ذهنه وأعيته الحيلة فلم يجد إلا اللجوء إلى معان سَبَقَ أن طرقها في شعره.

لقد مدح ابن عمه الأمير على بن ماجد برائيته التي بلغت أبياتها واحداً وسبعين بيتاً، وفيها يبالغ في الثناء على ابن عمه ويشيد بقوة بأسه وشجاعته وإقدامه وكرمه وجوده:

وَلو قَالَ لِلأَفْلاَكِ في سَيْرِهَا قِفِي ... لَبَاتَتْ رُكُوداً لا تَدُور وَلاَ تَجْري
فَتًى لَوْ لِلَيثِ الغَاب بَأْسٌ كَبَأْسِهِ ... لأَغْنَاهُ عَنْ نَابٍ حَدِيدٍ وَعَنْ ظُفْرِ
وَلَو أَنَّ لِلْعَضْبِ اليَمَانِيِّ جَوهَراً ... كَعَزْمَتِهِ لَمْ يَنْبُ عَنْ قُلَلِ الصَّخْرِ
وَلَو أنَّ لِلأَنْوَاءِ جُوداً كَجُودِهِ ... لَمَا انْتَقَلَ الإِرْبَاعُ يوماً إلى العِشْرِ[1]

وفي قصيدته التي مدح بها أميراً عيونياً آخر من أبناء عمه والتي بلغت أبياتها ستين بيتاً يكرر هذه المعاني المطروقة المبتذلة:

لَوْ أَنَّ لِلْعَضْبِ المُهَنَّدِ عَزْمَهُ ... لأَرَاكَ كَالشَّمَّامِ صَخْرَ شَمَامِ
لَوْ أَنَّ لِلضِّرغَامِ بَعضَ إبَائِهِ ... لاَسْتَبْدَلَ الآكَامَ بِالآجَامِ

(١) الديوان ص ٢٠٢. وقُلَلُ الصخر: رءوسه الصلدة، والإرباع: ورود الإبل الماء في اليوم الرابع، والعِشر: ورودها في العاشر.

لَـوْ أنَّ لِلبَحْرِ الخِضَمِّ سَمَـاحَـهُ ... لَغَـدَا مَقِيـلَ العِينِ والآرَامِ[1]

وفي قصيدته التي يمدح بها أمير البصرة شمس الدين باتكين نجد هذه المعاني وقد وردت بالقوالب السابقة نفسها:

جَوادٌ لَوَ اَنَّ البَحْرَ عَارَضَ جُودَهُ ... لَمَـا ابْتَـلَّ للمُجْتَـازِ فيـهِ قِبَـالُ
وَلَـو أنَّ لِلْعَضْبِ اليَمَانِيِّ عَـزْمَهُ ... لَمَــا كَـادَهُ أنَّ الـرُّءوسَ جِبَـالُ
وَلَـو أنَّ لِلضِّرغَـامِ قَلْبـاً كَقَلْبِـهِ ... لَمَـا هَـالَـهُ أنَّ التُّـرابَ رِجَـالُ
هُوَ الشَّمسُ نُوراً وارْتِفَاعاً وشَارَةً ... كَمَا قَدْ تَسَمَّى والمُلوكُ ذُبَالُ[2]

ومثل ذلك أيضاً ما ورد في قصيدتين أخريين يقول في إحداهما:

لَـوْ أَنَّ لِلْعَضْبِ المُهَنَّـدِ عَـزْمَـهُ ... لَفَرَى الجَمَاجِمَ وَهْوَ في الأَجْفَانِ
وَلَـوَ آنَّ للشَّمسِ المُنِيرَةِ بِشْرَهُ ... تَاهَتْ فَلَمْ تَطْلُعْ مَدَى الأَزْمَانِ[3]

ويقول في الأخرى:

لَـوْ أنَّ لِلهِنْـدُوَانِيَّـاتِ عَـزْمَتَـهُ ... في الرَّوعِ لم تُطِقِ الأَغْمادُ تَحْوِيهَا
وَلَوْ يَكُونُ لِقَرنِ الشَّمسِ غُرَّتُـهُ ... تَاهَتْ فَلَمْ يَسْتَطِعْ شَيءٌ يُـوارِيهَا
وَلَـوْ تُقَسَّمُ في الآسَـادِ نَجْـدَتُـهُ ... لَمْ يُضْحِ مَسْكَنُها إلا ضَوَاحِيها
والبَحرُ لَوْ حَازَ جُزءاً مِنْ شَمَائِلِهِ ... لَصَارَ أَعْذَبَ ماءً من سَوَارِيهَا[4]

إنه كثير الإلحاح على هذه المعاني بشكل يسترعي الانتباه مع ما فيها من مبالغة

---

(١) الديوان ص ٥٠١، والشَّمَّام: نوع من البطيخ، وشَمَام: اسم جبل لباهلة، وهو جبل أسود له رأسان واقع في جبال العِرض بنجد، وينسب إليه العرض فيقال عِرض ابنى شمام، ويسمى اليوم عند أهل نجد (أذني شمال). والعين: بقر الوحش، والآرام: الظباء.

(٢) الديوان ص ٤٣٦. والقِبال من النعل: زمامها، والذُّبال: جمع ذبالة وهي فتيلة السراج.

(٣) الديوان ص ٦٢٠.

(٤) الديوان ص ٦٥٢. والسواري: السحب الممطرة ليلاً.

مملة،وليس لذلك من تعليل سوى نضوب أفكاره أمام إصراره على الإطالة والإطناب. فقد مدح أيضاً ابن عمه الأمير محمد بن أبي الحسين بلا ميته التي وصلت إلى سبعين بيتاً، وقد عمد فيها إلى مثل هذه المعاني المكررة المعروفة في باب المديح والثناء:

هُوَ البَحرُ لكِنْ مَـدُّهُ غيرُ جَـازِرٍ ... هُوَ البَدْرُ إلاَّ أنَّـهُ الدَّهـرَ كَامِـلُ
هُوَ الشَّمسُ في جَوِّ السَّمَاءِ ونُورُهَا ... عَلَى كُلِّ مَنْ فَوقَ البَسيطَةِ شَامِلُ
هُوَ المُزْنُ إلاَّ أنَّـهُ فوقَ سَـابحٍ ... وفي كُلِّ أرضٍ مِنهُ سَحٌّ وَوَابِلُ
هُـوَ اللَّيثُ إلاَّ أنَّ عِرِّيسَـهُ القَنَا ... وَصَيْدَاتِهُ الصِّيدُ المُلُوكُ العَبَاهِلُ
هُوَ النَّصْلُ لكِنْ لا يَحُسُّ غِرَارَهُ ... بَنَانٌ وبالأَيْدِي تُحَسُّ المَنَاصِلُ(١)

وفي الموصل أمام أميرها بدر الدين لؤلؤ يكرر الشاعر هذه المعاني ويرددها في قصيدةٍ تقل عن السابقـة ببيت واحد:

هُوَ البَحرُ إذ لَوْ زَاحَمَ البَحرُ مَدَّهُ ... لأَرْبَى عَلَى تَيَّـارِهِ المُتَـلاَطِمِ
هُوَ السَّيفُ بَلْ لَوْ أنَّ للسَّيفِ عَزْمَهُ ... لَشَقَّ الطُّلاَ والهَامَ قَبلَ التَّصَادُمِ
هُوَ الشُّمسُ بَلْ لَوْ قَابَلَ الشَّمسَ بِشْرُهُ ... لَمَا اسْتُوضِحَتْ إلاَّ كَحَلْقَةِ خَاتَمِ(٢)

وفي القصيدة نفسها يخاطب بدر الدين ويستنجد به شاكياً إليه حاله في قوله:

إليكَ طَوَتْ يَابَا الفَضَائِلِ وامْتَطَتْ ... بِيَ البُعْدَ هِمَّاتُ النُّفُوسِ الكَرَائِمِ(٣)

إلى قوله:

وَظَلْتُ أُعَانِي السِّجْنَ في قَعْرِ هُوَّةٍ ... سَمَاعِي وأَلْحَانِي غِنَاءُ الأَدَاهِمِ(٤)

---

(١) الديوان ص ٣٥٣. والعِرِّيس: مأوى الأسد، والقنا: الرماح، والغِرار للنصل: حدُّه

(٢) الديوان ص ٥١٥ والطُّلا: الأعناق،

(٣) الديوان ص ٥١٩.

(٤) الديوان ص ٥٢٠ والأداهم: القيود.

وقد ورد هذان البيتان بنصهما مع اختلاف يسير في قصيدته التي يمدح بها الناصر لدين الله وهما قوله:

إلَيكَ أَمِيرَ المُؤمِنِينَ تَجَشَّمَتْ ... بِيَ البُعْدَ هِمَّاتُ النُّفُوسِ الكَرَائِمِ [1]

وقوله:

وَبِتُّ عَزَائِي السِّجْنُ في مُدْلَهِمَّةٍ ... يُجَاوِبُنِي فيها ثِقَالُ الأَدَاهِمِ [2]

كما تكررت أبيات أخرى بلفظها في القصيدتين كلتيهما[3].

ومن المعاني التي رددها ابن المقرب وكررها أكثر من مرة مقارنة ممدوحه ذي الخلال الحميدة بأولئك البعيدين عن المكارم والفضائل، الذين لا يستحقون إلا أن يكونوا فداء لهذا الممدوح:

يَفْدِيكَ يَا شَمسَ دِينِ اللهِ كُلُّ عَمٍ ... عَنِ المَكَارِمِ لِلسَّوآتِ لَبَّاسِ [4]

....

يَفْدِيكَ لِلْعَلْيَاءِ كُلُّ مُضَلَّلٍ ... أَعْمَى عَنِ المَعْرُوفِ أو مُتَعَامِ [5]

....

يَفْدِيكَ شَمسَ الدِّينِ قَومٌ لَا تَرَى ... حَبْلاً لَهُمْ بِفَضِيلَةٍ مَوْصُولَا [6]

....

فِدىً لَكَ يَا تَاجَ المُلُوكِ مَعَاشِرٌ ... سِيَادَتُهُمْ للمُسْلِمِينَ وَبَالُ [7]

....

فِدَاكَ مِنَ الرَّدَى جَهْمُ المُحَيَّا ... سَحَابُ سَمَائِهِ أَبداً جَهَامُ

عَبُوسٌ إذ يُقَابِلُ وجْهَ حُرٍّ ... وبَينَ المُومِسَاتِ لَهُ ابْتِسَامُ [8]

---

(١) الديوان ص ٤٩٦.

(٢) الديوان ص ٤٩٧.

(٣) انظر توثيق شعره فيما تقدم ص ١١٠.

(٤) الديوان ص ٢٤٩.

(٥) الديوان ص ٥٠٣.

(٦) الديوان ص ٤١١.

(٧) الديوان ص ٤٣٨.

(٨) الديوان ص ٥٦٧.

وفي حماسته وتطلعه وطموحه يعجب بتلك المعاني التي رددها الشعراء من قبله، فيرددها كما رأينا في الحماسة[1]، وكما في قوله:

سَأَمْضِي عَلَى الأَيَّامِ عَزْمَ ابْنِ حُرَّةٍ ... يُفَـدَّى بِآبَـاءِ الرِّجَـالِ وَلاَ يَفْدِي
فإنْ أُدْرِكِ الأمرَ الَّذِي أَنَا طَالِبٌ ... فَيَا جَدَّ مُسْتَجْدٍ وَيَا سَعْدَ مُسْتَعْدِ
وإنْ أُخْتَرَمْ مِنْ دُونِ ما أَنَا آمِلٌ ... فَيَا خَيْبَةَ الرَّاجِي وَيَا ضَيعَةَ الوَفْدِ[2]

وقوله:

سَأَمْضِي عَلَى الأَيَّامِ عَزْمَ ابْنِ حُرَّةٍ ... يَرَى العَوْدَ فِيمَا تَكْرَهُ النَّفْسُ أَحْمَدَا
فـإمَّـا حَيَـاةٌ لا تُـذَمُّ حَمِيـدَةٌ ... يُحَـدِّثُ عَنْهَا من أَغَـارَ وأَنْجَـدَا
أَنَـالُ المُنَى فِيهَـا، وإمَّا مَنِيَّةٌ ... تُرِيحُ فُؤَاداً أَحَّ مِنْ غُلَّةِ الصَّدَى[3]

ولا يخفى على القارىء أن تكراره لمثل هذه المعاني الحماسية وما في حكمها من أغراض شعره التي تعبر عن ذاتيته وصدقه هي أكثر قبولا في النفس من تلك المعاني المحفوفة بالمبالغة في المديح والثناء.

تلك وقفة عند غزازة نتاج ابن المقرب ووفرة معانيه وطول باعه. وهي تنمُّ في الأغلب عن شاعرية مقتدرة محيطة بصنوف شتى من المعاني والأفكار والمعارف يقلِّبها في شعره ـ كما قلنا ـ بمختلف الصور والأساليب، وإن قادته في بعض المواضع إلى التكرار والتشابه، لكنَّ هذا التكرار والتشابه يبقيان قليلين إذا قُرنا بمعانيه الثرَّة الغنية، كما يشفع له شعره الذاتي الصادر عن تجربة حية ومعاناة صادقة، من غير زيفٍ أو افتعالٍ أو تكلف.

(١) انظر ما تقدم ص ٢٤٣.
(٢) الديوان ص ١٣٦.
(٣) الديوان ص ١٥٦ وأَحَّ: سعل، والصَّدى: العطش

٣ ـ الشاعر المؤرخ:

يحتل التاريخ في شعر ابن المقرب حيزاً يسترعي الانتباه، ويصبغ الكثير من معانيه بهذه الظاهرة الهامة. وهي ظاهرة تدل على ثقافته الواسعة وتمكنه من المعارف التاريخية واطلاعه على دقائقها وتفاصيلها. كما يدل تركيزه عليها في الكثير من أغراض شعره على ولعه بالتاريخ وشغفه به . وكان لاطلاعه على الأحداث السياسية في الدولة العيونية عن كثب أثر بالغ في عنايته بالتاريخ ، كما أن نشأته في أسرة حكم وملك ، ومحبته لإظهار مفاخر قومه ومناقبهم هي التي زادت من اهتمامه بالنواحي التاريخية ، ودعته إلى إبرازها في شعره إبرازاً لا نراه عند غيره من الشعراء .

ويتمثل التاريخ في شعر ابن المقرب في ناحيتين متشابهتين ولكن العامل الزمني يفصل بينهما، ويجعلنا نفرد الحديث عن كل واحدة على حدة، إحداهما اهتمامه بأيام العرب وأعلامهم المشهورين في العصور التي سبقت عصره، والثانية تدوين الحوادث التاريخية في البحرين في عصره، لا سيما تاريخ الدولة العيونية الذي يعد شعر ابن المقرب أهم مصدر له. بل يعد المصدر الوحيد الذي بيّن تفاصيل هذا التاريخ لمنطقة قلَّ اهتمام المؤرخين بأخبارها في فترة تركز الاهتمام فيها على الحواضر الإسلامية في العراق والشام ومصر.

أ ـ الأيام والأعلام:

يهتم الشاعر بذكر الأيام والأعلام في أكثر أغراض شعره وبخاصة في المديح والفخر والحماسة لما لهذه الأغراض من ارتباط بسِيَر الأعلام وذكر الأيام أكثر من غيرها. فكثيراً ما يقارن في المديح بين ممدوحه وبعض الأعلام المشهورين بالشجاعة والكرم ونحو ذلك، وفي الفخر والحماسة يعتز بهؤلاء الأعلام أو يستشهد بهم على تقرير فكرة ما أو معنى يحرص على ترسيخه في ذهن سامعه، أو يستدل ببعض أيام العرب ووقائعهم المعروفة في سياق المديح والفخر وسواهما.

على أن ذكره للأيام لا يأتي بتسميتها بعينها إلا قليلاً، وإنما ترد ضمناً حينما

يذكر بعض الأبطال الذين قتلوا فيها، أو أظهروا من البسالة والإقدام ما يراه الشاعر جديراً بالإشـادة والاهتمام.

ففي مديحه لابن عمه الأمير حسن بن مسعود يثني على شجاعته حتى يذكّرنا ببعض أيام العرب وما شهدته ساحاتها من جلاد وطعان:

وَبِكَفِّـهِ مَاضٍ يُـخَـالُ عَقِيقَـةً | لَمَعَتْ بِصَفْحَـةِ عَـارِضٍ مُتَهَلِّلِ
عَـوْدُ عَنِ اليَومَينِ يُخْبِـرُ صَادِقـاً | وعَنِ الثَّـلاثَـةِ والكُـلَابِ الأَوَّلِ
والـشَّـيِّـطَيـنِ ولَـعْـلَعٍ وأُوارَةٍ | وَحِمَى ضَرِيَّةَ والنِّبَاجِ وثَيْتَلِ[1]

ولقد كان ابن المقرب يركز كثيراً على أيام العرب التي انتصرت فيها ربيعة في الجاهلية في معرض فخره بانتصاراتها ورجالاتها وشجعانها، مشيداً بزعامتها للقبائل وقيادتها لمعدٍّ ونزار:

في الجَاهِلِيَّةِ سُدْنَا كُلَّ ذِي شَرَفٍ | بالمَأْثُرَاتِ وسُدْنَا العُرْبَ والعَجَمَا
وَصَـارَ كُـلُّ مَعَـدِّيٍّ لَنَـا تَبَعـاً | يَرْعَى بِأَسْيَافِنَا الوَسْميَّ حَيثُ هَمَى
حُطْنَا نِـزَاراً وذُدْنَا عَنْ مَحَـارِمِهَا | وَلَمْ نَدَعْ لِمُنَاوِي عِزِّهَا حَرَمَا[2]

ولذلك فإن الشاعر يستشهد ببعض أيام العرب التي كانت اليد الطولى فيها لربيعة كيوم ذي قار ويوم الكُلاب ويوم السُّلَّان:

---

(١) الديوان ص ٤١٧. والكُلاب: اسم ماء بين البصرة والكوفة وكانت به وقعة لسلمة بن الحارث آكل المرار على أخيه شرحبيل، والشَّيِّطان: واديان لبني تميم كانت بهما وقعة لبكر بن وائل على تميم ويعرفان بالشيط العطشان والشيط الريَّان ويقعان في أسافل الصمان مما يلي الدبدبة، ولعلع: موضع آخر يبعد عن الشيطين مسافة ثمان ليال وفي صفة جزيرة العرب أنه موضع ماء في ديار بكر وهو غير لعلع بكسر أوله الواقع في العرض بعالية نجد، وأوارة: جبل صغير قرب الكويت يعرف الآن باسم وارة بدون همزة وهو الموضع الذي حرّق فيه عمرو بن هند بني تميم، وضريَّة: قرية لا تزال تعرف إلى يومنا هذا باسمها القديم في منطقة القصيم جنوب الرس، والنِّباج: قرية من قرى الشارارات في منطقة إمارة الجوف، وثيتل: من أيام العرب المشهورة وكان لتميم علي بكر بن وائل.

(٢) الديوان ص ٥٣٠. والوسميّ: أول مطر الربيع.

وَرَبِيعَـةُ تَحْمِي الذِّمَـارَ وَلاَ تَرَى ... أَكْـلَ النَّزِيـلِ وَلاَ ضَيَاعَ العَـانِي
قَومٌ لَهُم يومُ الكُلاَبِ وَيَومُ ذِي ... قَـارٍ ويَـومُ أَجِـزَّةِ الـسُّـلاَّنِ
قَتَلُوا لَبِيـداً في جَـرِيـرَةِ لَـطْمَـةٍ ... خَـطَاءٍ وكَانَ الـرَّأْسَ من غَسَّانِ
وَدَعَتْهُمُ مُضَـرٌ فَصَـالُـوا صَـولَـةً ... نَزَعَتْ رِدَاءَ المُلكِ من صُهْبَانِ[1]

إن أغلب الرجال المشهورين والأبطال المعروفين الذين يكثر الشاعر من ذكرهم هم من أعلام ربيعة ومشاهيرها مثل كليب وجسَّاس بن مرة، كما يتجاوزهم إلى رجالات العرب الذين كانوا مضرب المثل، حتى إذا أثنى على ممدوحيه فإنه كثيراً ما يقارنهم بمثل هؤلاء الأعلام في البأس والإقدام وغير ذلك من الخصال المحمودة كقوله:

أحْمَى من المَرْءِ جَسَّاسِ بْنِ مُرَّةَ إذ ... أَرْدَى كُليباً بعَزْمٍ غَيرِ ذِي فَشَلِ
لَمْ يَقْبلِ العَارَ في ضَيْمِ النَّزِيلِ ولم ... يَقْنَـعْ بِنَقْصٍ وَلاَ يحْتَـجُّ بالعِلَلِ
وَأَيْنَ منـهُ كُليبٌ في النِّـزَالِ إذا ... عَضَّتْ حُدُودُ السُّرَيجِيَّاتِ بالقُلَلِ[2]

وقوله:

أَعَـزُّ وأَوْفَى من عُمَيرٍ وَحَـارِثٍ ... وأَكْرَمُ من كَعْبٍ وأَوْسٍ شَمَائِـلاَ
وأَصْدَقُ بَأْساً مِنْ كُليبٍ إذَا غَدَا ... يَجُرُّ إلى حَربِ المُلُوكِ الجَحَافِلا
وأَحْلَمُ من قَيسٍ إذَا الحِلْمُ لَمْ يَرُحْ ... يُـطَوِّقُ عَـاراً أو يُمَـوِّقُ جَـاهِـلاَ
وأَمْنَـعُ جَاراً من يَـزِيدٍ وهَـانِيءٍ ... وجَسَّاسٍ السَّاقِي حَسَا المَوتِ وَائِلاَ[3]

---

(١) الديوان ص ٦٣٥ . ويوم الكلاب : تقدم ذكره، ويوم ذي قار: انتصرت فيه العرب على الفرس قبيل مبعث الرسول ﷺ، ويوم السُّلاَّن: لبني عامر علي النعمان بن المنذر اللخمي، ويعني بلبيد: لبيد بن نمش الغساني لما قتله كليب بن ربيعة، وكان لبيد قد تزوج امرأة من ربيعة فلطمها ذات يوم فأخبرت كليبا فقتله. وصهبان: ملك قحطاني يمني أبو قبيلة.

(٢) الديوان ص ٣٨٧. وجساس بن مرة هو قاتل كليب صاحب الحمى حين عقر ناقة البسوس فقامت بسبب ذلك حرب البسوس المشهورة، والسريجيات: سيوف تنسب الى صانعها (سريج) والقلل: الرءوس.

(٣) الديوان ص ٤٠١ . الحارث : لعله يعنى الحارث بن عباد البكري أحد سادات العرب وأبطال =

وقوله:

مـا حِلْمُ قَيسٍ ما وَفَـاءُ سَمَوْءَلٍ ... ما جُودُ أوسٍ ما شَجَاعَةُ جَحْدَرِ
لــو أَنَّهُمُ وُزِنُـوا بِــهِ لم يَعْدِلُـوا ... مِنْ كَفِّـهِ اليُسْرَى بَنَـانَ الخِنْصَرِ
آبى وأَمْنَـعُ جَـانِبـاً من هَـانِىءٍ ... أَيَّـامَ يَمْنَـعُ خَلْفَـهُ ابْنَ المُنْـذِرِ
وأَشَـدُّ بَأْسـاً من كُليبٍ إذ سَطَا ... بالسَّيفِ يَجْتَثُّ الذُّرَى مِنْ حِمْيَرِ
وأَعَـزُّ جَاراً من فَتَى بَكْـرٍ وَقَـدْ ... نَـزَلَتْ بِسَـاحَتِــهِ عَقِيلَةُ مِنْقَـرِ[1]

ولقد ضمت قصيدة واحدة لابن المقرب كثيراً من الأعلام أغلبهم من ربيعة. والغريب أن هذا الحشد من أسماء الأعلام في هذه القصيدة لم يكن في معرض المديح أو الفخر بل في سياق الرثاء ـ على قلة رثائه ـ مما يدل على مبلغ اهتمامه بالأعلام وشغفه بتاريخهم وسِيَرهم وإعجابه بهم لاسيما إذا كانوا من أبطال قومه وشجعانهم[2]. كما ضمت قصيدة أخرى عدداً مماثلاً من أسماء القبائل والرجال يطول بنا المقام لو استشهدنا بها[3].

وسيدرك القاريء بعد قراءته لهاتين القصيدتين مقدار حذق ابن المقرب ومهارته في تعداد هؤلاء الأعلام، وتفصيل ما جرى في التاريخ العربي من وقائع وأحداث، ومعرفته لأنساب العرب أصولاً وفروعاً، بل إن اهتمامه بالأنساب ليتعدى ذلك إلى

= حرب البسوس، وأوس: لعله يعني أوس بن حارثة الطائي أحد أجواد العرب في الجاهلية، ولعله يعني بكعب: كعب بن مامة الإيادي وهو من يضرب به المثل في الكرم وحسن الجوار، ولعله يعني بقيس: قيس ابن عاصم المنقري التميمي صحابي يضرب به المثل في الحلم، ويزيد وهانيء: لعله يعني يزيد بن مسهر الشيباني وهانيء بن مسعود الشيباني فارسين جاهليين من أبطال يوم ذي قار.

(1) الديوان ص ٢٢١ والسموءل: هو السموءل بن عادياء شاعر وحكيم جاهلي اشتهر بالوفاء، وجحدر: هو جحدر بن ضبيعة البكري فارس شجاع قتل يوم تحلاق اللِّمم، وهانيء: هو هانيء بن مسعود الشيباني الذي منع مال النعمان بن المنذر وسلاحه وأهله ورفض تسليمها لكسرى فقامت بسبب ذلك حرب ذي قار.

(2) انظر الديوان ص ٤٨٥.

(3) انظر الديوان ص ٥٨٧.

أنساب الخيل وأصولها[1]، وإلى أنساب الأمم الأخرى من غير العرب كما في مديحه لأمير البصرة شمس الدين باتكين حين أشاد بأصله الرومي وانتسابه إلى عيص ابن إسحق :

وَلَيثٌ من العِيْصِ بنِ إسْحقَ عِيصُهُ   يَرَاهَا بعَينِ الـوُدِّ حِينَ يَرَاهَـا[2]

وكما في هجائه لأعدائه وقد عزم على الرحيل حينما استشهد بقارون بن قاهث، وأنه لو حل بالأحساء لفقد أمواله العظيمة :

وأَهْجُرُ دَاراً لَوْ يَحِلُّ ابْنُ قَاهِثٍ   بِهَا رَاحَ مَسْحُوتاً من المَالِ مُجْحدَا
يُـدَبِّـرُهَـا أَوْبَـاشُ قَـومٍ تَنَكَّبُـوا   عَنِ الرُّشْدِ حَتَّى خِلْتُ ذَا الغَيِّ أَرْشَدَا[3]

وإن اهتمامه بإبراز الأعلام والشخصيات في شعره يظهر أيضاً في ذكره لأعلام قديمة وغير مشهورة كالنَّبيت وقيذر:

لَبَّـاهُ جَهْـراً واصْـطَفَـاهُ لَـهُ فَتىً   مِنْ بَينِ أَبْنَـاءِ النَّبِيتِ وقَيْـذَرِ[4]

إن شعر ابن المقرب عامة ليزخر بالكثير من أسماء الأعلام والشخصيات التي طواها الزمن. ولعلنا نلقي نظرة أخيرة على عدد من أبياته المتناثرة بين صفحات ديوانه ليس من باب الحصر لهذه الأبيات وإنما باختيار بعضها في أغراض مختلفة لنرى كيف تشكل هذه الظاهرة رافداً قوياً وينبوعاً متدفقاً لمعاني الشعر عند ابن المقرب:

---

(١) انظر ما تقدم ص ٨٩ .

(٢) الديوان ص ٦٤٥. والضمير في يراها يعود إلى المطي حين تحل بباب باتكين.

(٣) الديوان ص ١٥٦ . وابن قاهث: هو قارون بن يصهر بن قاهث صاحب فرعون وكان مشهوراً بكثرة المال (انظر سورة القصص الآية رقم ٧٦).

(٤) الديوان ص ٢٢٣ والنَّبيت هو عمرو بن مالك جد جاهلي يمني ، وقيذر: هو قيذار بن إسماعيل، والشاعر يشير بهما إلى العرب العاربة والعرب المستعربة .

لأُقِيمَنَّ لأَبْنَاءِ الوَغَى سُوقَ إقْدَامٍ وطَعْنٍ وجِلَادِ
إن يَكُنْ عِزّاً وإلّا فَرَدىً لَسْتُ مِنْ دُونِ شَبيبَ وَمَصَادِ[1]

وَمَنْ يَنْزِلْ بِشَمْسِ الدِّينِ يَصْحَبْ عَلَى العِلَّاتِ بَسَّاماً جَوَادَا
يُجَالِسُ منهُ قَعْقَاعَ بْنَ شُورٍ وكَعْباً مُلْبِسَ النُّعْمَى إيَادَا[2]

قَسَماً إنَّ مَنْ أَرادَ بِهِ كَيْـ ـداً لَيُوفِي شُؤْماً كَأَحْمَرِ عَادِ[3]

حَتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ فِي عَزْمِهِ يَسْعَى لِيَخْرُجَ عَنْ مَدَى الإسْكَنْدَرِ[4]

فَإنَّ سُيُوفَنَا مَا زَالَ فِيْهَا شِفَاءٌ للرُّءوسِ مِنَ الصُّدَاعِ
يُخَبِّرُ تُبَّعٌ عَنْهَا وَكِسْرَى بِذَا والمُنْذِرَانِ وذُو الكَلَاعِ[5]

إذَا صَالَ لَمْ يُعْدَلْ بقَيسِ بْنِ خَالِدٍ وإن قَالَ لَمْ يُعْدَلْ بسَعْدِ بْنِ مَالِكِ
وإنْ جَادَ بَذَّ المَرْثَدِيِّينَ جُودُهُ وأَنْسَى بَنِي الآمَالِ جُودَ البَرَامِكِ[6]

فَقَدْ يُنْكِرُ الضَّيمَ الكَرِيمُ بِسَيفِهِ إنِ آسْطَاعَ أو بالشَّدْقَمِيَّةِ والرَّحْلِ

---

(١) الديوان ص ١٨٠. وشبيب: هو شبيب بن يزيد الشيباني أحد رءوس الخوارج في عهد بني أمية، خرج بالكوفة ونادى لنفسه بالخلافة، كان داهية عجز عنه الحجاج، نفر به فرسه على نهر دجيل فغرق سنة ٧٧هـ، وأخوه مَصَاد بن يزيد كان عوناً له في أكثر حروبه قتله خالد بن عتاب الرياحي على أبواب الكوفة قبل مقتل أخيه شبيب.

(٢) الديوان ص ١٨٤. والقعقاع بن شور تابعي من بني بكر بن وائل كان يجعل لمن يجالسه نصيباً من ماله، وكعب: هو كعب بن مامة الإيادي المشهور في الجاهلية بالكرم وحسن الجوار.

(٣) الديوان ص ١٩٥. وأحمر عاد: يعني به أحمر ثمود وهو قدار بن سالف عاقر ناقة صالح عليه السلام، وإنما قال أحمر عاد ليستقيم الوزن، وقد سبقه إلى ذلك زهير بن أبي سلمى (انظر الديوان ص ١٩٥ الحاشية).

(٤) الديوان ص ٢٢٣. والإسكندر: هو الإسكندر الأكبر المعروف بفتوحاته العظيمة.

(٥) الديوان ص ٢٧٢. وتبع: جد ملوك اليمن، وكسرى: هو كسرى أنو شروان ملك الفرس المشهور، والمنذران: لعله يعني المنذر بن ماء السماء أحد ملوك المناذرة والمنذر بن الحارث أحد ملوك الغساسنة، وذو الكلاع: هو يزيد بن النعمان الحميري أحد ملوك اليمن في الجاهلية.

(٦) الديوان ص ٣١٢. وقيس بن خالد: هو ذو الجدين الكندي، وسعد بن مالك: بكري وائلي قتل في حرب البسوس، والمرثديون: رهط يزيد بن مرثد بيت من ربيعة مشهور بالجود والكرم، والبرامكة: وزراء بني العباس المشهورون بالكرم، ونكبتهم على يد الرشيد معروفة.

كَمَا فَعَلَ العَبْسِيُّ قَيسٌ وإنَّمَا ... أَخُو الهِمَّةِ العَلْيَا أَخُو الحَسَبِ الجَزْلِ
أَشَاعَ لِعَبْسٍ بالسَّلَامِ وأَرْقَلَتْ ... بِهِ العِيسُ مِنْ نَجْدٍ إلَى كَنَفَيْ وَبْلِ[1]
....
أَحْيَا شَجَاعَةَ وَائِلٍ في وَائِلٍ ... وَسَمَاحَةَ المطَرِيِّ في شَيْبَانِ
وَوَفَاءَ مَيمُونِ النَّقِيبَةِ حَارِثٍ ... وَحَمِيَّةَ المَلِكِ المُعَظَّمِ هَانِي[2]

ب ـ شاهد العصر :

يكاد ابن المقرب يكون شاهد عصره الوحيد في منطقة البحرين في حقبة زمنية أهملها المؤرخون واهتموا بأخبار الحواضر الإسلامية «فلقد عانى هذا القطر (هجر) من نسيان المؤرخين والأدباء له. ويكفي أنك تتصفح كتب التاريخ فلا تحس به إلا في صدر الإسلام، وعند ذكر ثورة الزنج وفتنة القرامطة، ثم ينام التاريخ عنه فلا يوقظه إلا الصراع بين العثمانيين وآل سعود في الاستيلاء عليه»[3].

ومن هنا فإننا ندرك القيمة التاريخية لشعر ابن المقرب في تفصيله لحوادث البحرين في عصره، وبخاصة تاريخ الأسرة العيونية. فلولا شعر ابن المقرب لما عرفنا إلا القليل جداً عن هذه الأسرة التي حكمت هذه المنطقة ما يقارب مائة وسبعين عاماً.[4].

وإن أطول قصيدة للشاعر وهي ميميته التي يفتخر فيها بقومه وعشيرته[5] لتُعَدُّ سجلاً هاماً في تاريخ الدولة العيونية ومفاخر أمرائها ووقائعهم وحروبهم. ويشير

---

(١) الديوان ص ٣٢٠. والعبسي: هو قيس بن زهير العبسي أحد دهاة العرب وكان مشهوراً بسداد الرأي شجاعاً خطيباً، زهد في آخر عمره ورحل إلى عُمان ومات بها سنة ١٠هـ.

(٢) الديوان ص ٦٣٠. والمطري: هو معن بن زائدة الشيباني المطري، وحارث وهاني: هما الحارث بن عباد البكري فارس شاعر كان معتزلاً لحرب البسوس حتى قتل ابنه بجير، وهانيء بن قبيصة الشيباني أحد سادات شيبان وفرسانها في الجاهلية، كان له دور كبير في حرب ذي قار.

(٣) الديوان ص ٦ من مقدمة محقق الديوان.

(٤) انظر ما تقدم ص ٢٨ .

(٥) انظر الديوان ص ٥٢٦.

الدكتور رزوق فرج رزوق إلى أهمية هذه القصيدة من هذه الناحية فيقول[1] « وفي هذه القصيدة التي تكاد تكون من الشعر التعليمي التاريخي من أخبار العيونيين وأسماء أمرائهم ووقائعهم ما يمكن أن يكون مدداً لأقلام المؤرخين الذين يبحثون في تاريخ الخليج العربي والإمارة العيونية » .

إن المقام سيطول بنا لو دخلنا في تفاصيل الحوادث والوقائع التي أوردها الشاعر في هذه القصيدة ويصرفنا إلى بحوث تاريخية بعيدة عن البحث الأدبي[2]، ولكننا نكتفي منها ببعض الأمثلة للدلالة على ما يمثله التاريخ في معاني شعر ابن المقرب ضمن عرض مختصر لعناصر القصيدة.

لقد مضى الشاعر في الجزء الأول من قصيدته يورد الحكمة المقترنة بالفخر بقومه حتى البيت الثاني والأربعين، ثم أخذ يروي قصة بداية الحكم العيوني بعد القضاء على دولة القرامطة موضحاً سيرة القرامطة في هذه البلاد وما ألحقوه بها من خراب وفساد، ثم أفاض في سيرة مؤسس الدولة العيونية جدِّه عبد الله بن علي العيوني وأولاده بما يقارب خمسين بيتاً، بيّن فيها كيف استولى على البحرين بعد معارك طويلة أخضع فيها كل أعدائه حتى دانت له البلاد، وفي الجزء الأخير من القصيدة يعدد الشاعر أمراء الدولة العيونية ويذكر ما لكل أمير من مآثر أو مناقب تستحق المديح والثناء. وإن القاريء ليعجب كيف أحاط ابن المقرب بهذه الحوادث الصغيرة في حياة بني عمه وسطَّرهاشعراً تاريخياً فأخضعها لمعاني شعره دون أن يفقد أسلوبه الكثير من جودته أو يورث السأم في نفس سامعه:

مِنَّا الَّذِي حِينَ عَدَّ الأَلْفَ خَازِنُهُ   لِضَيفِهِ قَالَ: ضَاعِفْهَا أَرَى أَمَمَا[3]

(١) ابن المقرب العيوني شاعر الخليج العربي في عراقياته ص ٤.

(٢) وقد سبق الاستشهاد أيضاً ببعض أبياتها في عرض تاريخ الدولة العيونية في الفصل الأول من الباب الأول ص ٣٢.

(٣) الديوان ٥٤١. والأَمَمْ: القليل، ويعني به الأمير أبا سنان محمد بن الفضل بن عبد الله العيوني وكان قد قدم عليه رجل فأمرخازنه أن يدفع إليه ألف دينار وقال: أحضرها عندي لأراها فلما صبَّها =

مِنَّا الَّذِي أَنْهَبَ اصْطَبْلاَتِهِ كَرَماً ... وَهْيَ الجِيَادُ اللَّوَاتِي فَاتَتِ القِيَمَا[1]
وَمُطْعِمُ الطَّيرِ عَامَ المَحْلِ فَاسْمُ بِهِ ... مِنَّا إِذَا صَرَّ خِلْفُ الغَيْثِ فَانْصَرَمَا[2]
مِنَّا الَّذِي كُلَّ يومٍ فَوقَ دَارَتِهِ ... دَاعٍ يُنَادِي إِليهِ الجَائِعَ الضَّرِمَا[3]
مِنَّا الَّذِي لَمْ يَدَعْ نَاراً بِسَاحَتِهِ ... تُذْكَى سِوَى نَارِهِ لِلضَّيفِ إِن قَدِمَا[4]
مِنَّا الَّذِي حَطَّ زُهْداً عَنْ رَعِيَّتِهِ ... كُلَّ المُكُوسِ فَأَضْحَى الجَورُ مُنْحَسِمَا[5]

ولم تكن هذه القصيدة في ديوان ابن المقرب هي الظاهرة الوحيدة التي تطبع معانيه بطابع التدوين التاريخي للدولة العيونية. بل إننا نجد هذه الظاهرة في الكثير من قصائده حينما يذكر مثلاً بعض وقائع الأمير محمد بن أبي الحسين أو غيره من الأمراء العيونيين ضمن مدائحه لهم، أو يتحدث عن ضعف دولة بني عمه في أواخر سنواتها في أثناء قصائد الشكوى والعتاب حتى كاد التاريخ أن يلازم غالبية قصائده وكأنه ذلك المؤرخ الذي يتعمد تدوين الحوادث في سجل أدبي تاريخي فريد من

= الخازن بين يديه قال: ما أرى الألف إلا قليلة فزد عليها ألفاً آخر.

(١) الديوان ص ٥٤٢. وأنهبها: أباحها للنهب، والإصطبل: موقف الخيل، ويعني به الأمير أبا شبيب جعفر بن الفضل بن عبد الله بن علي، وكان أحد بني عمه قد مات له جواد من الخيل فبلغه الخبر فأرسل له أربعين فرساً عوضاً عنه، فأخذ ابن عمه واحدة ورد الباقي، فأعادها عليه أبو شبيب ثلاث مرات والخيل تذهب وتجيء! فلما عادت في المرة الثالثة نادى أبو شبيب فيمن عنده بنهبها مع ما في الإصطبلات من الخيل ومن حاز شيئاً فهو له.

(٢) الديوان ص ٥٤٤. ويعني بمطعم الطير الأمير أبا مقدم شكر بن أبي الحسن علي بن عبد الله بن علي. فقد بلغ من كرمه في سنة شديدة القحط أن جعل لكل جنس من الطير شيئاً من مأكوله، فجعل التمر للغربان والحنطة لغيرها من الطيور في أماكنها التي تقع فيها ومنع الصيادين من صيدها.

(٣) الديوان ص ٥٤٥. ويعني به أحد أحفاد الأمير الفضل بن عبد الله بن علي، وكان فارساً شجاعاً، وله مناد ينادي كل يوم على سطح داره بأعلى صوته إلى الطعام.

(٤) الديوان ص ٥٤٥. ويعني به الأمير أبا المنصور العيوني، وكان قد قدم القطيف فأقطعه ابن عمه أبو الحسن بلداً تسمى الظهران ذات نخيل وأشجار وزروع (لا تزال الظهران تعرف بهذا الاسم) فنزل بقصرها وحرّم أن توقد بها نار للضيافة غير ناره حتى مات.

(٥) الديوان ص ٥٥٢. ويعني به الأمير شكر بن المنصور بن علي بن عبد الله بن علي، وكان قاسياً على أعدائه رحيماً برعيته فارساً شجاعاً، وقد وضع المكوس عن أهل الاحساء.

نوعه. ألا تراه يذكر لنا الأمن الذي ساد البحرين في أثناء ولاية ابن عمه الأمير محمد ابن أبي الحسين وكيف انفرط عقد هذا الأمن بعد موته:

كَانَتْ بِهِ البَحْرَينُ جَنَّةَ مَأْرِبٍ أَيَّامَ بَهْجَتِهَا وطِيب حَيَاتِهَا
حَتَّى إذا ما التُّرْبُ وَارَى شَخْصَه أَبْدَتْ يَدُ الأَيَام عَنْ سَوآتِهَا[1]

ثم يحدثنا عن دور ولده الفضل بن محمد الذي هبَّ للأخذ بثأر أبيه، وكيف حارب عُقَيلاً قرب نهر السيب، ثم انتصاره عليهم:

وَحَمَيْتَ دَارَ أَبِيكَ مِنْكَ بِهِمَّةٍ الجُودُ والإِقْدَامُ مِنْ هَامَاتِهَا
مِنْ بَعدِ مَا جَمَعَتْ عُقَيلٌ كَيْدَهَا بِالرَّأْيِ مِنْ عُقَّالِهَا وغُوَاتِهَا
وَدَعَتْ بِأَهْلِ السِّيبِ فَابْتَدَأَتْ بِهَا مِنْ شَطِّ دِجْلَتِها وشَطِّ فُرَاتِهَا
تَتْلُو المُعَلَّى حَيْثُ سَارَ وإِنَّهُ لَلْفَارِسُ الوَلَّاجُ فِي غَمَرَاتِهَا
فَتَكَنَّفَتْ أَهْلَ القَطِيفِ بِخَيْلِهَا ورِمَاحِهَا وقُسِيِّهَا ورُمَاتِهَا
فَصَبَرْتَ صَبْرَ الأَكْرَمِينَ وَلَمْ تَخِمْ عَنْ زَحْفِهَا يَوماً وَلَا غَارَاتِهَا
تُرِكَتْ نِسَاءُ السِّيبِ تَبْكِي حَسْرَةً لِوُلَاتِهَا وتُطِيلُ من وَيْلَاتِهَا[2]

وقد رأينا في الفصل الثاني من هذا الباب أمثلة كثيرة من شعره يبرز فيها التاريخ عنصراً مهما من العناصر التي ترتكز عليها معانيه، كما في حديثه عن المدد الذي بعث به الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى الفضل بن محمد عوناً له في حرب القطيف وملاحقة قَتَلَة أبيه، وكذلك بعض وقائع الأمير محمد بن أبي الحسين ومنها معركة صفوى التي انتصر فيها وبسط نفوذه بعدها على الأحساء وقام بجباية الخراج، ثم تنكيله بطيء وبني مالك على ماء الدجاني، وحمايته لطريق الحاج إلى مكة

(١) الديوان ص ١١٠.
(٢) الديوان ص ١١١ والسيب: نهر بالبصرة وآخر في ذنابة الفرات.

المكرمة، وتأمينه السبل وضربه على أيدي المفسدين وقطاع الطرق[1].

ولما ضعف أمر الدولة العيونية وعظم شأن البدو في التحكم بأمرائها، ودبَّ الوهن والعجز بين أهل الأحساء رأينا الشاعر يقرر هذه الحقيقة أكثر من مرة، ويسطرها في شكواه وعتابه وتحسره على حال عشيرته، وبكائه على دولة آبائه وقد آذنت شمسها بالمغيب. فهو لا ينفك يحذر قومه من مغبة الركون إلى المذلة والهوان، ويذكرهم بغدر عُقيل بعد أن أحسنوا إليها وحموا ذمارها:

سَلُوا عَنْ مُلُوكٍ منكُمُ هَلْ أَفَادَهَا ... قُعُودُ عُقَيلٍ بَعْدَهَا أو قِيَامُهَا
وَهَلْ دَفَعَتْ عن مَاجِدِ بْنُ مُحَمَّدٍ ... وَقَدْ كَانَ مِنهُ حِلُّهَا وَحَرَامُهَا
وَهَلْ طَلَبَتْ ثَأْرَ ابْنِ شُكْرٍ وَهَلْ حَمَى ... أَبَا مَاجِدٍ خَطِّيُّهَا وحُسَامُهَا
وَهَلْ عَنْ غُرَيرٍ طَاعَنَتْ وَبِهِ آحْتَوَتْ ... مُنَاهَا وبالبَحْرَينِ جَارَ احْتِكَامُهَا
وَهَلْ سَالَمَتْ مَنْ كَانَ يَحْمِي جَنَابَهَا ... وَتَرْعَى بِهِ في كُلِّ أَرضٍ سَوَامُهَا[2]

ولقد وصلت الحال ببني عمه وعشيرته إلى قدر عظيم من الاستكانة والمذلة في آخر حكمهم ليس على أيدي البدو من عُقَيل وغيرهم، بل على أيدي عبيدهم أيضاً حين استفحل أمرهم، وعجز سادتهم العيونيون عن السيطرة عليهم:

إلاَمَ تُقَاسُونَ الهَوَانَ أَذِلَّةً ... وأَنْتُمْ إذَا كُوثِرْتُمُ عَدَدُ النَّمْلِ
يَسُوقُكُمْ كَرْهاً إلَى ما يَسُؤُكُمْ ... عَبِيدُكُمُ سَوقَ الأُحَيْمِرَةِ الهُزْلِ
يَوَدُّ الفَتَى منكُمْ إذَا عَنَّ أَوْ بَدَا ... لَهُ مِنْ بَنِي القَيْنَاتِ أَسْوَدُ كالحِجْلِ
بأَنَّ حَضِيضَ الأَرضِ أَضْحَى بَقَعْرِهِ ... لَهُ نَفَقٌ مِمَّا اعْتَرَاهُ مِنَ الخَبْلِ
فَذُو القَدْرِ منكُمْ والجَلاَلَةِ يَحْتَوي ... صَفَايَاهُ منهُمْ بِالمَطَامِيرِ والحَبْلِ
وَسَائِرُكُمْ بالبَهْمِ يَرْعَى مُحَلِّقاً ... بأَثْوَابِهِ رُعْباً مِنَ الجِدِّ والهَزْلِ

---

(١) انظر الديوان ص ٢٢٣ و٦٢١ ومن ص ٣٥٣ إلى ٣٥٨ ومن ص ٤٩ إلى ٥١.

(٢) الديوان ص ٤٥٧. والسَّوَام: الإبل السائمة، ويعني بالبيت الأخير الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الله بن علي.

عَزيُزكُمْ يَرضَى مِنَ الدُّرِّ بالحَصَى ... وَيَقْنَعُ لَوْ يُعْطَى مِنَ الدَّرِّ بالمَصْلِ
فَقُبْحاً لَكُمْ مَاذَا تَعُدُّونَ فِي غَدٍ ... إذَا افْتَخَرَ الأَقْوَامُ يا أَخْلَفَ النَّسْلِ
فإنْ كَانَ خَوفُ القَتْلِ والأَسْرِ دَاءَكُمْ ... فَشَأْنُكُمْ أَدْهَى مِنَ الأَسْرِ والقَتْلِ
فَعَزْماً فَمَوتُ العِزِّ عِنْدَ ذَوِي النُّهَى ... حَيَاةٌ وعَيشُ الذُّلِّ مَوتٌ بِلاَ غُسْلِ[1]

إن هذه الأبيات ليست عرضاً تاريخياً يصور الحياة السياسية في عصر الشاعر فحسب. بل هي أيضاً تصوير للحالة الاجتماعية وما اعتراها من فوضى واضطراب بالإضافة إلى ذلك الثوب من العتاب والنصح الذي يكسو به الشاعر هذه المعاني التاريخية الاجتماعية. وهو في قصيدةٍ أخرى يؤكد هذه المعاني ويصور الحال السيئة لعشيرته وقومه تصويراً دقيقاً يوضح كيف راحوا نهباً بين البدو والعبيد في ذلة وصغار:

يَبِيتُ آمِنُهُمْ مِمَّا يُكَابِدُهُ ... فَوقَ الحَشِيَّةِ مثلَ الشَّارِبِ الثَّمِلِ
ولَيسَ يَأْمَنْ إلاّ مَنْ أَذمَّ لَهُ ... عَبْدٌ نَشَا مِن نِتَاجِ الزِّنْجِ كالعَجَلِ
أَوْ خِلْفُ سُوءٍ من الأَعْرَابِ هِمَّتُهُ ... ما أَسْخَطَ اللهَ من قَولٍ وَمِنْ عَمَلِ[2]

ولقد رأينا كيف كان ابن المقرب ينهج في مدائحه نهجاً مختلفاً عن غيره من الشعراء حينما يستخدم معاني التخصيص التي تُسمِّي ممدوحيه وتحددهم، وكيف يعتمد اعتماداً كبيراً على الحوادث التاريخية أو الإصلاحات التي ينفرد بها كل ممدوح. وهو في ذلك يهتم اهتماماً واضحاً بالجزئيات التاريخية الصغيرة حتى رأيناه في إحدى قصائده يحدد الساعة التي تولى فيها الأمير محمد بن محمد العيوني مقاليد الأمور في البحرين، كما يحدثنا ببراعة في معرض مديحه له عن قيام هذا الأمير على ابن أخيه وانتصاره عليه دون أن يجرح مشاعر الأمير أو يسيء إلى سلفه:

(١) الديوان ص ٣١٩ والصفايا: النوق، والمطامير: الحفائر تحت الأرض. ولعله يعني ما خبأه من المال ليفتدي به صفاياه، والبَهَم: صفار الغنم، والمصل ما سال من الأقط بعد طبخه وعصره.

(٢) الديوان ص ٣٨٥. والعجل: محركة الطين والحمأة وبكسر العين ولد البقرة. ويروى البيت الأخير: أو جلف سوء بالجيم، والخِلف: من لا خير فيه.

وَقَبْلَ أَذَانِ العَصْرِ نُـودي بِمُلْكِهِ نِـدَاءً أَرَانَا الـدَّهْـرَ يَفْتَـرُّ جَـاذِلَا
وَلَمْ يَـرْزَ منصُوراً فَتِيـلًا لمُلْكِـهِ عَليـهِ وَلَا أَوْلَاهُ إلَّا فَـوَاضِـلَا
وذُو المَجْدِ لا يَرْضَى عُقُوقاً وَلَا أَذىً لِذِي رَحِمٍ لَوْ لَمْ يَكُنْ قَبْلُ وَاصِلَا
وَلَوْ لَمْ يَخفْ أَنْ يَذْهَبَ المُلْكُ لَمْ يَرُحْ عَلَى ابْنِ أخِيهِ مُدَّةَ الدَّهْرِ صَائِلَا .
وَلَمْ يَبْغِ فِيهِ مُسْعِداً غيرَ نَفْسِـهِ ومِثْلُ عِمَادِ الدِّينِ يَكْفِي قَبَائِـلَا
سِوَى أَنَّ مِنْ نَسْلِ المُفَدَّى عِصَابَةً أَبَوْا أَنْ يُطِيعُوا فِي هَوَاهُ العَوَاذِلَا
وَمَا ذَاكَ إلَّا أَنْ رَأَوْا مِثْلَ مَا رَأَى وَقَدْ يَحْفَظُ الدُّولَاتِ مَنْ كَانَ عَاقِلَا[1]

وإذا كان تاريخ الدولة العيونية قد شغل حيّزاً كبيراً من شعر ابن المقرب واستحوذ على الكثير من معانيه فإن الشاعر لم يكن يغفل بعض الحوادث التي شهدها أو سمع عنها في أثناء رحلاته إلى العراق. فقد ظل وَلَعُه بالتاريخ يحدوه دائماً إلى تسجيلها في شعره، وإن كانت لا تمثل إلا القليل بجانب اهتمامه بتاريخ الدولة العيونية بوجه خاص. وقد رأينا تسجيله لبسالة الأمير الأشرف في حرب الصليبيين في دمياط وتفصيله لأحداث المعركة التي انتصر فيها المسلمون وانهزم الإفرنج[2]. كما نراه في مناسبة أخرى يسجل أحداث معركة دارت بين شمس الدين باتكين أمير البصرة وبني معروف وقد أوقع بهم، وما شهدته إمارته من إقامة العدل وسيادة الأمن حتى غدا الراكب يسير من بابل إلى الأهواز آمناً على نفسه وماله، وكأن سيوف شمس الدين تواكبه وتحميه :

سَلُوا عَنْ مَـوَاضِيهِ مَنِيعـاً وعَمَّـهُ فَقَـدْ خَبرَاهَـا بَعْـدَمَـا اخْتَبَـرَاهَـا
أَلَمْ يُخْلِ أَرْضَ السِّيبِ بالسَّيفِ منهُمَا وَكَـانَا بغَيـرِ الحَقِّ قَدْ عَمَـرَاهَـا
أَرَادَا يَكِيـدَانِ الخِـلَافَـةَ ضَلَّةً فَيَـالَكِ رُؤْيَـا ضِدَّ مَـا عَبَـرَاهَـا

(١) الديوان ص ٤٠٠، ويفتر جاذلا : يبتسم فرحاً ، ولم يرزأه فتيلا : لم يفقده ولم يكلفه حتى السحاة في شق النواة، والدُّولات: جمع دُولة وهو ما يتدوال بين الناس مرة لهذا ومرة لذاك.

(٢) انظر ما تقدم ص ١٥٠ .

أَحَلَّهُمَا بالسَّيفِ في أَرْضِ عَامِرٍ وَلَوْلَا سِطَامُ السَّيفِ ما اعْتَمَرَاهَا
إلَى هَجَرٍ سَاقَا المَطَايَا بِهِجْرَةٍ وغَيرُ اخْتِيَارٍ منهُمُ اهْتَجَرَاهَا
وأُقْسِمُ لَولاَ حَمْلُهُ واحْتِقَارُهُ لِشَأْنِهِمَا جِدّاً لَمَا حَضَرَاهَا
لَقَدْ جَرَّدَتْ مِنهُ الخِلاَفَةُ صَارِماً لَوَ آنَّ الرَّوَاسِي أَرْؤُسٌ لَفَرَاهَا
أَنَامَ بَنِي الأَسْفَارِ أَمْناً فَأَصْبَحَتْ سَوَاءً عَلَيهَا قَفْرُهَا وقُرَاهَا
تَسِيرُ إلى الأَهْوَازِ من أَرْضِ بَابِلٍ وَلَيسَ سِوَى أَسْيَافِهِ خُفَرَاهَا
تَبِيتُ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ عِيَابُهَا وَعَينُ ابْنِ غَبْرَاءِ السُّحُوقِ تَرَاهَا
وَيَا طَالَمَا قَدْ نُزِّعَتْ مِنْ رِقَابِهَا مَدَارِعُهَا شَدَّ الضُّحَى وَفِرَاهَا
لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْيَا لأُمَّةِ أَحْمَدٍ مِنَ العَدْلِ مَا أَوْصَى بِهِ عُمَرَاهَا[1]

وإذا كنا قد شاهدنا بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في عصره وهو يصورها تصويراً تاريخياً كما في وصفه لضعف الحكام العيونيين أو لإصلاحات شمس الدين باتكين في البصرة[2]، فإننا نجد بين أبياته من المعاني ما يعطينا صوراً اجتماعية دقيقة للحياة في عصره قلما نجدها في كتب التاريخ المتخصصة، كما ورد في إحدى مدائحه لشمس الدين باتكين من إشارة إلى بعض الأساليب التي يتبعها بعض أمراء عصره في تعذيب الناس واضطهادهم:

رَاشَ ذَوِي الفَقْرِ وَأَحْيَاهُمُ واحْتَرَمَ المُثْرِينَ أَيَّ احْتِرَامْ
وَغَيرُهُ لَمَّا تَوَلاَّهُمُ لَمْ يُبْقِ تَحْتَ الجِلْدِ غيرَ العِظَامْ
بالضَّرْبِ والصَّلْبِ وحَلْقِ اللِّحَى وَقَلْعِ الأظْفَارِ وَشَمِّ الأَيَامْ
لَمْ يَرْثِ لِلشَّيخِ حَيَاءً مِنَ الشَّـ ـيبِ وَلَمْ يَرحَمْ شَبَابَ الغُلاَمْ

(١) الديوان ص ٦٤٦ . ويعني بمنيع وعمّه: منيع بن المعلّى بن معروف وعمّه سعيد بن معروف وكانا قد قطعا الطريق مع قومهما فنكل بهم باتكين وهرب منيع وعمه إلى بني عامر في البحرين ولكنه قتلهما فيما بعد، وابن غبراء السُّحُوق: اللص الذي لا تجد أمه غير ثوب بالٍ فهو أحرص على السرقة، وعمراها: عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦٠ و ١٩٤ .

وَكَمْ حَصَانٍ أُبْرِزَتْ جَهْرَةً تُسَاقُ لِلْجَلْدِ بغَيرِ احْتِشَامْ
وَمَا أَتَتْ فَاحِشَةً تَقْتَضِي حَداً وَلَا تُوجِبُ سَلْبَ الخِدَام[1]

ومثل ذلك وصفه لقبيلة هُتَيْم بانحطاط القدر والمهانة بما يدلنا على أن هذه الصفات موجودة في هذه القبيلة منذ عصر متقدم، وهي صفات ما تزال توصم بها إلى يومنا هذا:

بَنِي عَمٍّ مَنْ أَمْسَى كَثِيراً سَوَامُهُ وإنْ كَانَ أَدْنَى مِنْ هُتَيمٍ وأَرْذَلَا[2]

. . . .

فإنَّ هُتَيْماً لَوْ حَوَتْ مَالَ هَاشِمٍ هُتَيمٌ فَلَا يَغْرُرْكَ طَيْفُ خَيَالِ
سَتَرْجِعُ فِيمَا عُوِّدَتْ مِنْ حَمِيرِهَا وَمِنْ حَرْقِ أَشْنَانٍ وخَصْفِ نِعَالِ[3]

ذلك هو ابن المقرب الشاعر المؤرخ الذي خصص للتاريخ حيزاً كبيراً من شعره، وشغل كثيراً من معانيه بقضايا تاريخية لم نكن نعرفها إلا من شعره حينما قدم لنا ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ[4] «وثائق تاريخية دقيقة عن دولة العيونيين لم تقدمها لنا كتب التاريخ، ولولا ديوانه لضاع تاريخ هذه الدولة فيما ضاع من تاريخ دولنا وإماراتنا الصغرى في العصور السابقة».

ولم يكتف ابن المقرب بذلك كله، وإنما أعطانا صوراً وملامح للحياة الاجتماعية في عصره، وهو حينما يؤرخ فإنه لا يرسم صوراً تاريخية جامدة وإنما يكسوها بأردية أدبية تخضعها لمقاييس الشعر ومعاييره حتى لا تصبح مملة لسامعها، بل تبقى مقبولة مستساغة تدل على مدى براعته وحذقه في مزج التاريخ بالشعر.

---

(١) الديوان ص ٥٧٥. وراش ذوي الفقر: يسَّر لهم رزقهم، والأيَام: الدخان والخِدام: جمع خدمة أي الخلخال.

(٢) الديوان ص ٣٦٤.

(٣) الديوان ص ٣٧٥.

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ جزء ٣٨ ـ ذو القعدة ١٣٩٦ هـ ص ٣٨.

٤ ـ مظاهر البيئة:

لقد عاش ابن المقرب في بيئة تجمع بين حياة المدينة وحياة البادية، فلم يكن ذلك الشاعر الذي قضى حياته كلها بين جدران المدينة وفي ظلال حياتها الرغيدة، ولا ذلك الشاعر الذي ظل في البادية بين صحرائها ووديانها وشظف عيشها. لقد عاش في البحرين وهي حاضرة لم تصل في مدنيّتها إلى ما شهدته بغداد ودمشق مثلا، ولكنّ الحياة فيها لم تكن أيضاً كالحياة في بعض نواحي الجزيرة العربية التي ظلت تحتفظ بالكثير من مظاهر الحياة البدوية. يضاف إلى ذلك أن رحلات الشاعر قد هيأت له التعرف على هذين النمطين في مجتمعي الحاضرة والبادية، ومن هنا استفاد ابن المقرب الشيء الكثير من مظاهر هذه الحياة المتنوعة حينما فتحت أمامه آفاقاً رحبة وساعدت على اتساع مداركه ووفرة معانيه وثرائها، وبالتالي فقد انعكست آثار هاتين البيئتين على شعره وسيطرت على الخط العام لمعانيه وأفكاره، يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري مشيراً إلى هذه الظاهرة في معاني شعره[1]: إنه كان «راضعاً لباني كل من شعر البداوة والحضارة، له من طبيعة وطنه ما يجعله ناجحاً في هذه الحالة الأدبية المزدوجة، وحق ما نقول إذا ادَّعينا أن ابن مقرب كان فارس هذه الطريقة الشعرية الجامعة بين بساطة البادية ونصاعة الحاضرة».

وهكذا تبدو مظاهر البيئة في شعر ابن المقرب موزعةً في مرآةٍ ذات وجهين، نرى في أحدهما صوراً من حياة البادية والصحراء، وفي الثاني صوراً أخرى من حياة الحاضرة، وكأن الشاعر يتردَّد في غدوِّه ورواحه بين المدينة والصحراء، أو يبيت في ربوع بلاده بين نخيلها وزروعها ودورها، ثم يخرج في نهاره إلى وهاد البحرين وصحرائها ووديانها، وربما وقف على ساحل البحر أو وصل إلى أطراف اليمامة ونجد والدهناء، أو امتطى ظهر ناقة أو سفينة في ذهابه إلى العراق وإيابه.

ولنبدأ باستعراض جوانب الحياة البدوية في شعره لأنها المعين الذي يستمد منه

---

(١) جريدة صوت الحجاز العدد ٢٢٣ جمادى الثانية ١٣٥٥هـ.

معانيه وصوره وأخيلته، ولأن الصحراء كانت البيئة الأولى للشعر العربي، فهي مهوى أفئدة الشعراء ومجَرُّ رماحهم، وهي في شعر ابن المقرب أبلغ أثراً من الحواضر التي أقام فيها أو تنقَّل بينها.

يستمد الشاعر الكثير من معانيه من مناظر الصحراء وما تضمه من جبال ووهاد وسهول وهضاب. بل إن حيوانات الصحراء ونباتاتها، ودوابَّها وحشراتها لتمثل في شعره ظاهرة متميزة في نظر بعض الأدباء حتى خصَّها بالبحث والدراسة[1]، وإذا كنت لا أميل إلى هذا الرأي الذي لا يخلو من المبالغة فإني أقرر أن الصحراء بكل ما فيها كانت رافداً هاماً من روافد معانيه وصوره. فهو غالباً ما يستمد تشبيهاته من مناظر الصحراء والبادية فإذا مدح فإنه يختار ما يناسب المديح من معاني القوة والجَلَد والفروسية والشجاعة، وحينما يلتفت إلى الصحراء يبحث عن مثل هذه المعاني فإنه يجد منها الصقر والبازي في قوتهما وانقضاضهما على فريستهما مثلما يفعل ممدوحه في اقتناص أعدائه أو يكرّ جواده في ملاحقتهم:

أَلِفَ الحُـرُوبَ جَـوَادُهُ فَكَـأَنَّـهُ ... مِنْ مَاءِ هَامَاتِ الفَوَارِسِ يَشْرَبُ
يَهْوِي انْقِضَاضاً فِي المكَرِّ كَمَا هَوَى ... لِقَنِيصَةٍ حَجْنُ المَخَالِبِ أَشْهَبُ[2]
تَفِـرُّ كُمَاةُ الحَـربِ منـهُ كَـأَنَّهَـا ... وإِيَّاهُ بَـازِي مَـرْقَبٍ وَحَمَـامُ[3]

كما يجد منها الناقة المستكينة لطاليها وهو يداويها من الجَرَب، فيشبِّه أعداء ممدوحه بها في خضوعهم وذلتهم له:

هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ شُوسُ الرِّجَالِ لَهُ ... ذُلّاً كَمَا تَخْضَعُ الجَرْبَا لِطَالِيْهَا[4]

وإذا أوقع ممدوحه بإحدى القبائل رأيت كماتها وشجعانها وهم أذلة جبناء أشبه بالصِّلال المروَّعة التي تحولت فجأة إلى نوع من الحيَّات التي يُسمع حفيفُها ولا

---

(١) هو الدكتور صلاح نيازي في دراسته لحياة ابن المقرب وشعره.

(٢) الديوان ص ٨٧. وحجن المخالب: معوَجُّها.

(٣) الديوان ص ٤٧٧.

(٤) الديوان ص ٦٥٥.

يخشى بأسها:

وَأَنْــزَلَهَـا دَارَ الأَعَــادِي بِسَيْفِـهِ فَأَضْحَتْ خَفَافِيثاً لَدَيْهَا صِلاَلُهَا(١)

وإذا جاد ممدوحه وكثرت هِباته فإن أكثر ما يسترعي انتباه الشاعر من هذه الهبات قطيع من الإبل مع فصلانها في السنين العِجاف:

وَالْوَاهِبُ الهَجَمَاتِ الحُمْرَ تَتْبَعُهَا فِصْلاَنُهَا في السِّنِينِ العُرَّمِ الشُّهُبِ(٢)

أمَّا الأمن فقد ساد في عهد ممدوحه وعمَّ البلاد حتى غدت المرأة تمشي الهوينى في الخلاء المخوف كما تمشي القطاة:

وَكَمْ خَلاَءٍ مَخُوفٍ قَلْبُ سَـالِكِهِ لِلْخَوفِ مِثلَ لِوَاءِ الجَيشِ يَضْطَرِبُ
أَضْحَى بِهِ آمِناً تَمْشِي الفَتَاةُ بِهِ مَشْيَ القَطَاةِ وحَلَّى صَدْرَهَا لَبَبُ(٣)

وأما في الهجاء فالشاعر بارع في انتقاء المعنى الذي يناسب أعداءه من الصور البدوية:

جَلَدُ الجِمَالِ عَلَى الهَوَانِ وفِيهِمُ ضَعْفُ الـدَّبَا وَتَلَوُّنُ الحِـرْبَاءِ(٤)

إنهم صُبُر على الهوان كصبر الجمل على حمله أو عطشه، وهم ضعاف الهمم خائرو العزائم كصغار الجراد في ضيق خطوها، منافقون يظهرون بمظاهر مختلفة كما تتلوّن الحرباء. وآخرون ممن يهجوهم لئام لايطفيء المديح لهيب حقدهم ولا يشفي غلَّ صدورهم، فسمومهم أشد من سموم العقارب لأن هذه تنفع معها الرُّقى،

---

(١) الديوان ص ٣٦١ والخفافيث: جمع خُفَّاث وهي حية عظيمة لها فحيح ولا تضر أحداً والصِّلال: جمع صِلّ وهي حية عظيمة سامة.

(٢) الديوان ص ٨١. الهجمات: جمع هجمة وهي من الإبل ما بين الأربعين أو السبعين إلى المائة، والسنين العُرَّم: الشديدة البرد، والشهب: لا مطر فيها ولا خضرة.

(٣) الديوان ص ٩٤ والقطاة: طائر يشبه الحمام، واللبب: موضع القلادة من الصدر.

(٤) الديوان ص ١٤.

إنهم كالحنظل على أقاربهم، وكالعسل في معاملة أعدائهم:

فَيَا عِزراً لا يَفْثَأُ المَدحُ شَرَّهُم ... وَقَدْ يَفْثَأُ الرَّاقُونَ سُمَّ العَقَارِب

أَشَرْياً عَلَى الأَدْنَى وأَرْياً عَلَى العِدَى ... وذُلًّا لِذِي صِدْقٍ وعِزّاً لِكَاذِبِ[1]

ويستمد ابن المقرب في الأغراض الأخرى أيضاً الكثير من معانيه من مناظر الصحراء التي أِلفَها فتراه يبتدع الحكمة من هذه البيئة البدوية ويستخلص العبرة دائماً من ظروف حياتها. فإذا رأى الغدر على وجوه بعض الناس تذكّر الذئب وهو يتربص بفريسته يبحث فيها عن مقتل:

لَا تَـرْكَنَنَّ إِلَى مَنْ لا وَفَـاءَ لَـهُ ... الذِّئبُ مِنْ طَبْعِهِ إن يَقْتَدِرْ يَثِبِ[2]

وإذا عاتب قومه وألح في نصحهم جرت الحكمة على لسانه من واقع هذه الحياة، فهو يضرب المثل لمملكة ابن عمه بالشياه وقد أحاطت بها الذئاب:

فَاحْفَظْ وَصَاتِي يا عَلِيُّ ولا تُضِعْ ... ما قَدْ وَلِيتَ فَحَوْلَ شَاتِكَ أَذْؤُبُ[3]

أو بالغنم وقد اهتدى الليث إليها بثغائها، ولكن الغنم هنا هم بنو عامر وقد تحالفوا على ابن عمه (الليث) محمد بن أبي الحسين:

فـإِيَّـاكُـمُ واللَّيـثَ لا يَبْعَثَـنَّـهُ ... عَـلَيكُـمْ ثُؤَاجٌ مِـنـكُـمُ ويُـعَـارُ

فَمَنْ هَيَّجَ الضِّرْغَـامَ ثَارَ بِحَتْفِـهِ ... إليـهِ ولَمْ يَمْنَعْـهُ مِنْـهُ فِـرَارُ[4]

كما يضرب المثل بالكلب وابن آوى، وهو يرى في بلاده من ينهض للأمر وهو ليس له بأهل حين عجز عنه أصحابه:

---

(١) الديوان ص ٧٠ و٧٣. والعِزر: من العَرّ وهو الجرب، ويفثأ شرهم: يطفيء ناره والشري: الحنظل، والأري: العسل.

(٢) الديوان ص ٨٣.

(٣) الديوان ص ٩١.

(٤) الديوان ص ٢٠٨. والثؤاج: صياح الغنم، واليعار: ثغاؤها الشديد.

وَشَـرُّ بِلَادِ اللهِ أَرْضٌ تَـرَى بِهَـا   كُلَيْبَاً مَسُوداً وابْنَ آوَى مُسَوَّدَا[1]

كما يضرب المثل لهذا المعنى أيضاً بالبزاة والبوم، ويصف الكرام في زمنه بالكلاء تنتفه الدواب وتأكله:

عَـدِمْتُ زَمَانَ السُّـوءِ أمَّا بُـزَاتُـهُ   فَعُـطْلٌ وأمَّـا بُـومُـهُ فَحَـوَالِ
أَرَاهُ وَلُـوعـاً بـالكِـرَامِ يَلُسُّهَـا   كَلَسِّ الكَلَا عَنْ يَمْنَةٍ وشِمَالِ[2]

أما الفقع (الكمأة) فهو في نظر الشاعر مثال للذلة والهوان تدوسه الأقدام فلا يمتنع منها، ويورد هذا المعنى في وصف استكانة بني عمه وركونهم للمذلة في أواخر أيامهم، وفي بث الحماسة في نفسه:

وَمَـنْ هَـابَ المَـنِيَّـةَ أَدْرَكَـتْـهُ   وَمَـاتَ أَذَلَّ مِنْ فَقْـعٍ بقَاعِ[3]
. . . .
وأَضْحَوْا كَفَقْعٍ أَوْ أَدَاحِيِّ قَفْـرَةٍ   تُقَلَّبُ بالمِنْسَاةِ واليَدِ والرِّجْـلِ[4]

وفي قصيدة أخرى ينصح قومه ويحثهم على النهوض والدفاع عن ملكهم والإقدام على المعارك بقلوب متلهفة إلى الحروب ترِد إلى ساحاتها كما ترِد الإبل العِطاش إلى حياض الماء وقد كادت أن تهلك فصلانها تحت أقدامها من شدة الظمأ:

رِدُوا الحَرْبَ وِرْدَ الظَّامِئَاتِ حِيَاضَهَا   خَوَامِسَ يَغْتَالُ الفِصَالَ ازْدِحَامُها[5]

---

(١) الديوان ص ١٥٠.

(٢) الديوان ص ٣٧٤. والبزاة: الصقور، والعُطْل: الخالية من الحلي. والحوال: المتحلية بها، واللسّ: اللحس أو النتف بالفم.

(٣) الديوان ص ٢٦٦. والفقع: البيضاء الرخوة من الكمأة.

(٤) الديوان ص ٣١٧. والأداحِي: بيض النعام في الرمل، والمنسأة: العصا.

(٥) الديوان ص ٤٥٧ . والخِمس : من أظماء الإبل وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد في اليوم الرابع، والفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

إن الصور المكتسبة من بيئة البادية لا تكاد تفارق ذهن الشاعر في أكثر قصائده فهو يتمثلها حتى في شكواه وعتابه وتصوير هوانه عند قومه وظلمهم له:

فَكَمْ أَتَحَسَّى الضَّيمَ مُرّاً وأَمْتَرِي عَقَابِيلَ خِلْفٍ قد أَزَى وَتَجَدَّدَا[١]

إنه يتجرع الضيم وهو لا يسيغه، ويحاول أن يصل ما انقطع بينه وبين بني عمه، ولكنه يظل كذلك الذي يستدر الحليب من ضرع ذهب لبنه وجفّ، أو كالبعير الهزيل الهائم على وجهه وقد أعياه طاعون الإبل:

كـأَنِّـي بَيـنَهُـم نِضْـوٌ يُـعَـانِي وَقَـدْ أَفْضَى بِـجـرَّتِـهِ ازْدِرَادَا
أَهِـيـمُ ولا أَرِيـمُ حِـذَارَ أَمْـرٍ يُهِـيجُ بِحَامِـلِ الدَّاءِ الغِـدَادَا[٢]

وهو لا يجد مثالاً لحاله مع ظالميه واستكانته لهم أحياناً إلا حال الضّبّ وهو يرى صائده يهم بذبحه وطبخه:

أَمْ أَنْتَ آمْرُؤٌ كَالضَّبِّ قَدْ عَلِقَتْ بِهِ حَبَائِلُ عَصٍّ حَالَفَ الفَقْرَ أَرْشَمَا
يَـرَى نَفْسَـهُ فِي كَفِّــهِ وشِفَـارُهُ تُحَـدُّ وجَزْلُ النَّـارِ يَعْلُو تَضَرُّمَـا
ويَرْجُو انْتِعَاشاً إذ يَقُـولُ لِحِسْلِهِ أَرَى أَنَّنَا في هذِهِ الحَالِ نُوَّمَا[٣]

وكلما مدح بني عمه ـ لعل قناتهم تلين ـ لم يزدهم ذلك إلا إعراضاً وصدوداً حتى عاد من مديحه بالخسران كالذي راح يجسُّ الأنعام فلم يجد فيها إلا الهزال والضعف:

---

(١) الديوان ص ١٥٢. والخلف: للناقة كالضرع للشاة، وأزى وتجدد: تقلّص وذهب لبنه.

(٢) الديوان ص ١٨٣. والنِّضو: البعير المهزول، والجرَّة: ما يجتره البعير من بطنه ويمضغه، والغِداد: طاعون الإبل، وأريم: أذهب.

(٣) الديوان ص ٤٦٦. والعَصّ: الشديد الصلب، والأرشم: من يتشمّم الطعام حرصاً عليه، والشفار: جمع شفرة وهي السكين، والحِسل: ولد الضب. وقوله: أرى أننا في هذه الحال نوماً: كناية عن انخداع الضب وظنه أنه بمنجاة عن الذبح.

فكُنْتُ وإهْـدَائِي المَدِيـحَ إليهِمُ كَغَابِطِ أَذْنَابِ المُهَلَّبَـةِ العُقْدِ(1)

كما يصور أولئك الذين يعرضون عن سماع نصيحته بضعاف الطير وقد ولّت خوفاً من الصقر في عتاب ممتزج بالفخر:

فَصُمَّتْ رِجَالٌ عن دُعَائِي وأَحَجَمَتْ كَمِثلِ بُغَاثِ الطَّيرِ عَايَنَّ أَجْدَلَا(2)

وهكذا نرى تأثير الصور البدوية في شعر ابن المقرب، حتى إنه أحياناً يعمد إلى تشبيه صورة من واقع الحياة في الصحراء بصورة أخرى مماثلة لها من البيئة نفسها:

وَنَصُّ القِلَاصِ القُودِ تَخْدِي كَأَنَّهَا نَعَامٌ بأَعْلَى قُلَّةِ الـدَّوِّ جَافِـلُ(3)

فقد شبّه الإبل بالنعام وهو تشبيه مطروق، ولكنه ينبىء عن ولع الشاعر وحبه لمناظر الصحراء والبادية، ويكفي أن نقرأ مقطعاً من شعره وهو يسدي النصح لبني عمه بالحكمة الصادقة لنرى كيف تستحوذ البيئة البدوية على معاني شعره وكأنه يصحبنا معه في رحلة إلى الدهناء، فنرى فيها الذئاب والثعالب والنسور والغربان والصَّعْو بين الكثبان الرملية وأغصان الدَّوح:

وَاعْلَمْ بـأَنَّ النَّسْـرَ يَسْقُطُ رِيشُـهُ حِينـاً فيُقْعِـدُهُ عَن الـطَّيَـرَانِ
والصَّعْـوُ يُنْهِضُـهُ وُفُـورُ جَنَـاحِـهِ حَتَّى يَحُـوزَ مَـوَاكِنَ الغِـرْبَـانِ
والدَّوحَةُ القَنْـوَاءُ أَشْيَنُ ما تُـرَى مَعْضُـودَةً وتَـزِينُ بـالأَغْصَـانِ
واحْذَرْ أُصَيْحَابَ النَّصَائِحِ واحْتَرِسْ مِـنهُـمْ فكُـلُّهُمُ أخُـو كَـيْسَـانِ
لا تَحْسَبَنَّ الكَلْبَ يَـوماً دَافِعـاً بـالنَّبْحِ صَـوْلَـةَ ضَيْغَمٍ غَضْبَـانِ

(1) الديوان ص ١٣٥: وانظر ما تقدم ص ١٢٧.

(2) الديوان ص ٣٦٦، والبغاث: الضعاف، والأجدل: الصقر.

(3) الديوان ص ٣٥١. ونَصّ القلاص: حث الإبل على السير بأقصى سرعتها، والقُود: المنقادة، وتخدي: تسرع، وقُلّة الشيء: رأسه، والدّوّ: المفازة والجافل: من جفل إذا نفر من الخوف.

فَثَعَالِبُ الدَّهْنَا لَوِ اجْتَمَعَتْ لَمَـا   مَنَعَتْ طَلاً بِالجَوِّ مِنْ سِرْحَانِ[١]

أما المظاهر الحضرية في شعر ابن المقرب فإنها تمثل وجوهاً كثيرة في معانيه، وقد رأينا منها اهتمامه بالتصوير الاجتماعي لبعض المدن في زمانه كالبصرة في عهد أميرها شمس الدين باتكين[٢]، وتصويره لجوانب الحياة الاجتماعية في عصره ومارسم فيها من صور للحياة في البحرين بأسواقها وبساتينها ونخيلها وعيونها، وعلاقة البادية بالحاضرة في الأحساء وبخاصة بعد ضعف الحكم العيوني، وتعامل منطقة البحرين مع البلدان الأخرى وتجارتها مع بغداد والبصرة، ونظام المكوس في عصره ولا سيما في واسط. وغير ذلك مما يلقي الضوء على وجوه البيئة الحضرية في عصره[٣].

ولعل أبرز ما يدل على أثر الحياة الحضرية في شعر ابن المقرب ذلك العدد الوفير من أسماء الأماكن والبلدان التي يذكرها في شعره والتي شهدت نوعاً من حياة الحاضرة. وهي وإن كانت قريبةً بعض الشيء من حياة البادية في الأخلاق والعادات إلا أنها تتميز عنها من وجوه أخرى وبخاصة في المهن والحِرف كالملاحة والزراعة. ويشير الأستاذ درويش المقدادي إلى كثرة أسماء الأماكن والبلدان في شعر ابن المقرب فيقول[٤]: «إن في ديوان ابن المقرب مادة غزيرة يجد فيها دارس جغرافية الخليج أسماء المدن والأماكن في زمانه، مما يساعد على تحقيق المواقع الجغرافية ومعرفة مدى تقدم العمران والحضارة في هذا الإقليم».

---

(١) الديوان ص ٦٤١. والصَّعْو: طائر أصغر من العصفور، والموكن: عش الطائر ومكان بيضه ويروى البيت: مواكر الغربان، والقنواء: الكثيرة الشجر المتفرعة الأغصان، ومعضودة: مقطوعة، وكيسان: اسم للغدر، والطلا: ولد الظبي وقت ولادته، والسرحان: الذئب.

(٢) انظر ما تقدم ص ١٦٠.

(٣) انظر ما تقدم ص ٤٧.

(٤) مجلة العربي عدد ١٧ شوال ١٣٧٩هـ.

وإن بقاء الكثير من الأماكن والمواضع معروفة حتى يومنا هذا بأسمائها التي ذكرها ابن المقرب في شعره منذ ثمانية قرون تقريباً ليضفي على هذه الظاهرة أهمية جغرافية كتلك التي رأيناها في شعره التاريخي التعليمي. ومن هذه المواضع الأحساء والقطيف وقد تكرر ذكرهما في شعره كثيراً، ومنها ثاج والجِشّ ونهر الجوهرية (عين الجوهرية) وصفوى والظهران ولينة ومحاديث العيون[1]- كما ورد في شعره الكثير من أسماء المواضع خارج منطقة البحرين وأغلبها معروف مشهور مثل إربل وبابل والبصرة وبغدا وحرّان وحلب ودمياط وعُمان وعمّان والموصل وواسط وغيرها.

(١) انظر ما تقدم ص ١٥.

ثانياً : الشّكل

١ ــ بناء القصيدة

يتبين أسلوب ابن المقرب في بناء قصيدته ورصف لبناتها بثلاثة عناصر يكمل بعضها بعضاً هي : موقفه من المقدمة التقليدية، وموقفه من الوحدة الموضوعية، والتزامه الخاتمة التقليدية في قصائده.

أما موقفه من المقدمة التقليدية فإنه يشبه موقف المتنبي وطريقته في الابتداء إلى حد بعيد. فالصفة الغالبة المميزة لمقدمات قصائد شاعرنا هي ابتداؤ ه بالشكوى والعتاب أو الحكمة المترابطة بواقع حياته ومعاناته الشخصية. وهو يخالف بذلك الشعراء المتقدمين في العصر الجاهلي وعصور الإسلام الأولى ممن اعتادوا بدء قصائدهم بالغزل التقليدي أو بكاء الأطلال والدِّمن وديار الأحبة، أو وصف الطريق إلى الممدوح والناقة التي حملت الشاعر إليه. وتلك طريقة اختارها ابن المقرب في الكثير من مطالع قصائده، يدفعه إليها إعجابه بطريقة أبي الطيب المتنبي ورغبته في تقليده، كما يدفعه إليها واقع الحال التي يعيشها، ولذلك جاءت هذه المقدمات أكثر صدقاً وذاتية في شعر ابن المقرب من تلك المقدمات التقليدية التي سار الشعراء القدامى على نهجها.

إن أبرز ما يميز هذه المقدمات الذاتية في شعره أنها جزء ملتحم بالقصيدة، ملائم لموضوعها، وكأنه يعرِّف القاريء سلفاً بما سيقوله فيها. بل إنه كثيراً ما يبدأ قصائد المديح بهذه المقدمات ولا يكتفي بها، وإنما تطغى شكواه على مديحه في أثناء القصيدة مما يدل على أن ابتداءه بهذه المقدمات كان بدافع عاطفي نفسي، ومن هنا فإن هذا النوع من المقدمات مفعم بالحرارة، متوقد بالمشاعر الجياشة،

يخفي وراءه نفساً ملتاعة مضطربة.

على أننا نجد الشاعر يختار أحياناً مقدمات حكمية لبعض قصائده وبخاصة في المديح لا تربطها بالقصيدة أي رابطة. بل تنفصل عنها حينما ينتقل سريعاً إلى موضوع قصيدته وهو المديح غالباً، وتدور هذه المقدمات الحكمية عادة حول تمجيد الشجاعة والإقدام، والتغني بالمفاخر والأمجاد، كما كان المتنبي يفعل في مقدمات قصائده التي يمدح بها سيف الدولة. ولا يكتفي ابن المقرب بمتابعة المتنبي في مطالعه الحكمية. بل ينحو منحاه في مقدماته الغزلية، فهو يعارضه في مطلع قصيدة له فيقول:

عَذْلُ المَشُوقِ يَهِيجُ في بُرَحَائِهِ ... ويُثِيرُ نَارَ الوَجْدِ في حَوْبَائِهِ[1]

وقد سمعنا المتنبي يقول قبله:

عَذْلُ العَوَاذِلِ حَولَ قَلبِ التَّائِهِ ... وَهَوَى الأَحِبَّةِ منهُ في سَوْدَائِهِ[2]

على أن ابن المقرب يشعر في حالات قليلة بانتمائه إلى المدرسة التقليدية وارتباطه بها وسيره على نهج شعرائها القدماء، فيحاكيهم ويقلدهم مبتدئاً قصائده ببكاء الأطلال والدمن والغزل التقليدي:

أَمِنْ دِمْنَةٍ بَينَ اللِّوَى والدَّكَادِكِ ... شُغِفْتَ بِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
عَفَتْ غَيرَ آرِيٍّ وأَوْرَقَ حَائِلٍ ... وأَشْعَثَ مَشْجُوجٍ وسُفْعٍ رَوَامِكِ
ونُؤْيٍ كَجِذْمِ الحَوضِ غَيَّرَ رَسْمَهُ ... وَجِيفُ الحَصَا بالمُوجِفَاتِ الحَوَاشِكِ[3]

---

(١) الديوان ص ١٩.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١/١ وانظر جريدة صوت الحجاز عدد ٢٢٣ سنة ١٣٥٥ هـ حيث أشار إلى هذا التشابه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

(٣) الديوان ص ٣٠٥. والأشعث المشجوج: الوتد، والسفع: الأثافي، والنؤى: حفائر حول الخِباء تمنع المطر، والموجفات الحواشك: الرياح الشديدة.

ثم يمضي حتى البيت التاسع والعشرين بهذه الروح، وكأن قصيدته قطعة من الشعر الجاهلي. إنها مقدمة تقليدية محضة نجد فيها الدمنة والأثافي والنؤي، وكأنها صورة مكرورة لابتداء زهير بن أبي سلمى في معلقته:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَـةٌ لَمْ تَـكَلَّمِ ... بِحَـوْمَـانَـةِ الـدَّرَّاجِ فَـالمُتَثَلَّمِ
وَقَفْتُ بِهَا من بعد عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَـلأْياً عَـرَفتُ الدَّارَ بعـد تَوَهُّمِ
أَثَافِيَّ سُفْعَاً في مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْياً كَحَوضِ الجُدِّ لَمْ يَتَثَلَّمِ[1]

إن ابتداء ابن المقرب بمثل هذه المقدمة الغزلية الطللية هو تقليد خالص لا نحس فيه حرارة الغزل وصدق العاطفة، ولكن الشاعر قليلاً ما يلجأ إليه، ومن ذلك قوله في مطلع إحدى مدائحه:

أَلَا رَحَلَتْ نُعْمٌ وأَقْفَـرَ نَعْمَـانُ ... فَبُحْ باسْمِهَا إن عَزَّ صَبْرٌ وسُلْوَانُ
شُـرَيْكِيَّةٌ مُـرِّيَّـةٌ حَـلَّ أَهْلُهَـا ... بِحَيثُ تَـلَاقَى بَـطْنُ مرٍّ ومَـرَّانُ
وَعَهْدِي بها إذْ ذَاكَ والشَّمْلُ جَامِعٌ ... وصَفْوُ التَّدَانِي لَمْ يُدَارِكْهُ هِجْرَانُ[2]

وقوله مبتدئاً إحدى مدائحه:

سَـائِـلْ دِيَـارَ الحَيِّ مِنْ مَـاوَانِ ... مـا أَحْدَثَتْ فِيهَـا يَدُ الحَـدَثَـانِ
وأَطِـلْ وُقُوفَـكَ يا أُخَيَّ بِـدِمْنَـةٍ ... قَـدْ طَـالَ في أَطْـلَالِهـا إدْمَـانِي
لَمَّا وَقَفْتُ العِيسَ في عَرَصَـاتِهَا ... ذَهَبَ العَـزَاءُ وأَقْبَلَتْ أَجْفَانِي[3]

وفي ثلاث قصائد فقط من مجموع قصائده التي تقارب المائة يتابع ابن المقرب شعراء الخمريات في حديثهم عن الخمر فيبدأ الأولى بقوله:

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب ص ٤.

(٢) الديوان ص ٥٨٦. ونعمان وادٍ قرب مكة طالما تغنى به الشعراء، ومر ومران موضعان أولهما قرب مكة والثاني إلى الشمال الغربي من حرة كشب على طريق الحاج إلى مكة في عالية نجد.

(٣) الديون ٦١٨. وماوان: اسم واد قرب الخرج بمنطقة الرباض واسم جبل ومنهل مشهور في عالية نجد.

دَعُــوهُ فَخَيرُ الــرَّأْيِ أن لا يُعَنَّفَا فَلَو كَانَ يَشْفِي دَاءَهُ اللَّومُ لاَشْتَفَى[1]

إلى أن قال في البيت الخامس:

خَلِيلَيَّ قُـومَا فـاسْقِيَـانِي رُعِيتُمَـا سُلاَفَةَ خَمْرٍ مُرَّةَ الـطَّعْمِ قَرْقَفَـا

بِكَفِّ نَـدِيمٍ لَوْ تَـرَاءَى بِحُسْنِـهِ لِيَعْقُوبَ لَمْ يَأْسَفْ لِفُقْدَانِ يُوسُفَا

ويبدأ الثانية بقوله:

قُمْ فَاسْقِنِيْهَا قَبْلَ صَوتِ الحَمَامْ كَـرْمِيَّـةً تَجْمَـعُ شَمْـلَ الكِـرَامْ

صَهْبَـاءَ مِمَّــا عَتَّـقَتْ بَـابِـلٌ مِـزَاجُهَـا الأَرْيُ ومـاءُ الغَمَـامْ

مِمَّــا أُدِيـرَ الكَــأْسُ مِنهَـا عَلَى كِسْرَى ونُمْرودَ بْن كُوش بْن حَامْ

لَوِ احْتَسَاهَـا ابْنُ الزُّبَيـرِ اغْتَدَى أَكْرَم من كَعْبٍ وأَوْسِ بْنِ لأَمْ[2]

كما يبدأ الثالثة بقوله:

تُخْفِي الصَّبَابَةَ والأَلْحَاظُ تُبْدِيهَـا وتُظْهِرُ الزُّهْدَ بَينَ النَّاسِ تَمْوِيهَا[3]

إلى أن قال في البيت السادس:

وبَـاكِرِ الـرَّاحَ فـاشْـرَبْهَـا مُعَتَّقَـةً صِرْفاً تُحَدِّثُ عَنْ حِجْرٍ وبَـانِيهَا

وداوِ نَفْسَكَ من دَاءِ الهُمُومِ بِهَا فَمَا سِوَى مَوْتَةٍ بالكَاسِ تُحْيِيهَـا

مِنْ كَفِّ خَـرْعَبَةٍ حُـوٍّ مَرَاشِفُهَـا بِيضٍ سَـوَالِفُهَـا سُـودٍ مَآقِيهَـا

أَوْ فَاتِرِ الطَّرْفِ مَعْسُولِ الرُّضَابِ لَهُ دَلٌّ يُنَبِّـهُ وَسْنى البَـاهِ تَنْبِيْهَـا[4]

---

(١) الديوان ص ٢٨٣.

(٢) الديوان ص ٥٧١. والأري: العسل، وكعب: هو كعب بن مامة الإيادي المشهور بكرمه وجوده، وأوس: هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي المشهور بذلك أيضاً، ويعني بابن الزبير عبد الله بن الزبير رضي الله عنه.

(٣) الديوان ص ٦٤٩.

(٤) الديوان ص ٦٥٠ والراح: الخمر: والصِّرف: غير الممزوجة، والخرعبة: الشابة البيضاء الحسنة، والشفة الحواء: الحمراء المائلة للسواد، والرضاب: اللعاب، ووسنى الباه: فاتره، والباه: شهوة الجماع.

ولا يخفى على القاريء مدى التكلف في حديثه عن الخمر في مقدمات قصائده الثلاث محاولاً تقليد الشعراء السابقين. فقد أقحم في الأولى حُسنَ يوسف عليه السلام وقارن حسنه بحسن النديم الذي يحمل بكفه الخمر، كما لم يجد في الثانية معنى مناسباً إلا أن يحشر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه في مقام لا يناسبه ويفترض شربه للخمر، ويصفه بالبخل؛ وفي الثالثة يورد معنى مغرقاً في الابتذال في البيت الأخير مما يتنافى مع ما عرفناه من رصانته.

من ذلك يتضح أن هذا النوع من المقدمات التقليدية ـ سواء منها ما يبدو عليه التكلف كمقدماته القليلة في حديثه عن الخمر، أو ما يبدو عليه الفتور العاطفي كبكائه على الأطلال والدمن ـ لا يناسب أسلوب ابن المقرب وطريقته التي اعتادها في أغلب قصائده، فالفرق كبير من حيث قوة الأسلوب وجزالته وتأثيره في النفوس بين هذه المقدمات التقليدية القليلة، وبين تلك المقدمات الغالبة على معظم نتاجه الشعري حينما يشكو من الظلم وقسوة الدهر وصروف الزمان ، أو يعاتب بني عمه ويلومهم ويحذرهم، أو يفتخر بأمجاده وأمجاد قومه بروح ثورية حماسية، أو يبدع الحكمة من واقع حياته. عند ذلك يتجلى أسلوبه الرائع مشرق الديباجة صادق المشاعر نافذاً إلى القلوب معبراً عن تجارب حية ومعاناة حقيقية .

أما الوحدة الموضوعية في شعر ابن المقرب فإنها تتمثل في بعض القصائد القليلة في ديوان الشاعر. كما في ميميته التي يفتخر فيها بأمجاد قومه في الجاهلية والإسلام والتي سبق الاستشهاد ببعض أبياتها في دراسة الظواهر التاريخية في شعره[1]. ومن قصائده التي تحققت فيها الوحدة الموضوعية ، وظهرت من خلالها وحدة الشعور والعاطفة نونياته الثلاث التي امتزجت فيها مشاعر الفخار والاعتزاز ومشاعر التحسر والشكوى والعتاب، وبرزت فيها عواطفه الصادقة وتجاربه من واقع حياته المُرَّة في البحرين أواخر الحكم العيوني[2]. ومنها قصيدتان يهجو فيها ابن

---

(١) انظر ما تقدم ص ٣٣٢ .

(٢) انظر الديوان ص ٦١١ و٦٢٣ و٦٣٢ .

الدبيثي ضامن المكوس في واسط، وقد أنشأهما الشاعر فيما يبدو في ساعة غضب وثورة على ابن الدبيثي ، فلم يكن في ذهنه غير استحضار أبشع معاني الهجاء وأكثرها بذاءة مما هيّأ لها وحدة موضوعية وشعرية واضحة(١) .

أما سائر قصائد ابن المقرب فإنها تفتقد الوحدة الموضوعية شأنها في ذلك شأن نظام القصيدة العربية التي تغلب عليها وحدة البيت لا وحدة القصيدة ، وابن المقرب كثيراً ما يجمع في القصيدة الواحدة بين المديح والشكوى والعتاب والفخر والحكمة بتأثير القلق النفسي الذي لازمة أكثر أوقاته تحت وطأة الظروف القاسية التي مرت به . فهو لا ينفك يتحدث في كل مناسبة عن المظالم التي لحقت به ، ويبين منزلته ومكانته العالية بين قومه بفخاره وحماسته مع إيراد الحكمة يستعين بها على دعم حججه وآرائه وهو يلحُّ على در مظلمته وإنصافه . فكان من أجل ذلك مضطراً أن يقحم في المديح أغراضاً أخرى تحقق هذه الأهداف كالشكوى والعتاب والفخر والحكمة .

ورغم انعدام الوحدة الموضوعية في الكثير من قصائده فإنه يحسن الانتقال من غرض إلى آخر في عفوية وبعد عن التكلف . فقد جمع في إحدى مدائحه لبني عمه بين الشكوى والعتاب والفخر والحكمة والهجاء، حيث بدأها بمزيج من الشكوى والفخر والحماسة :

أَتْعَبْتَ سَمْعِي بِطُولِ اللَّومِ فَاقْتَصِرِ ... مَاذَا أَهَمَّكَ من نَومِي وَمِنْ سَهَرِي
عَدِمْتَ رشْدَكَ كَمْ نَومٍ عَلَى ضَمَدٍ ... قُلْ لِي أَمِنْ حَجَرٍ صُوِّرت أَمْ بَشَرِ
يا جَاثِماً لِسِهَامِ الذُّلِّ تَرْشُقُهُ ... ما أَنتَ إلَّا قَتِيلُ العَجْزِ والخَوَرِ
ثِبْ قَائِماً وارْكَبِ الأَخْطَارَ مُقْتَحِماً ... فإنَّما يَرْكَبُ الأَخْطَارَ ذُو الخَطَرِ(٢)

ثم انتقل من الفخر والحماسة إلى الهجاء ومنه إلى المدح . فكان حاذقاً في انتقاله من غرض إلى آخر، مع محافظته على جمال أسلوبه وتسلسل أفكاره :

---

(١) انظر الديوان ص ٢٢٤ و٥٠٥.
(٢) الديوان ص ٢٤٠.

وكَيفَ أَرْهَبُ مَوتاً أو أَخَافُ رَدىً ... وحَامِلُ المَيْتِ مَحْمُولٌ عَلَى الأَثَرِ
ولَستُ مِمَّن إذَا نَـابَتْـهُ نَـائِبَـةٌ ... أَحَالَ عَجْزاً وإشْفَاقاً عَلَى القَدَرِ
يَا ضَيعَةَ العُمْر في قَومٍ تَخَالُهُمُ ... نَاساً ولا غَيرَ أَثْوَابٍ عَلَى صُوَرِ
لَوأَنَّ ذَا الحِلْمِ قَيساً حَلَّ بَينَهُمُ ... لَوَدَّ منهُمْ ذَهَابَ السَّمعِ والبَصَرِ
ولَـوْ يُعَمَّـرُ نُـوحٌ فيهِمُ سَنَـةً ... لَقَـالَ يَا رَبِّ هـذَا غَايَـةُ العُمُرِ
فَـآهِ منِّي بحَجَّـاجٍ يَـزُولُ بـهِ ... ما كَانَ مِنْ عُجَرٍ عندِي ومن بُجَرِ
أَدْنِ النَّجِيبَةَ لِلتِّرْحَالِ وارْخِ لَهَا ... زِمَـامَهَا واخْلِطِ الـرَّوحَاتِ بالبُكَرِ
وخَطِّهَا الخَطَّ إرْقَـالاً وأَوْلِ قِلىً ... أَوَالَ لا نَادِماً واهْجُرْ قُرَى هَجَرِ
أَمَـاكِناً لَعِبَتْ أَهْـلُ الفَسَـادِ بهَـا ... فَدَمَّرُوهَـا بِـلا فِكْـرٍ ولا نَـظَرِ
لَمْ يَبقَ في خَيرِهَا فَضْلٌ ولا سَعَةٌ ... عَن العَدوِّ لِذِي نَفـعٍ ولا ضَرَرِ
أَمَا وَلَولاَ ابْنُ عبدِ اللهِ لا كَذِبـاً ... لاسْتُهْلِكَتْ بينَ نَاب الشَّرِّ والظُّفُرِ
لَولاَ الهُمَامُ ابْنُ عبدِ اللهِ لأَنْقَلَبَتْ ... حَـصَّـاءَ نابٍ بلا هُلْبٍ وَلاَ وَبَـرِ
لكنَّـه لَمْ يَـزَلْ يَجْلُوا بِهِمَّتِـهِ ... عنهَا غَيَاهِبَ من ذُلٍّ ومِنْ قَتَرِ[1]

أما خاتمة الدعاء التقليدية فهو يجاري فيها شعراء العصر العباسي وبخاصة المتأخرين منهم الذين جعلوا هذه الخاتمة ملازمة لقصائد المديح، فقد اختتم ثلاثاً وأربعين قصيدة من قصائده التي تزيد على التسعين بهذه الخاتمة. وهي نسبة تقرب من نصف قصائده.

وإذا كانت الخاتمة الدعائية تبدو مناظرة للمقدمة التقليدية لدى شعراء عصره، فإنه يختلف عنهم حين نراه شاعراً ذاتياً في مطالع قصائده النابضة بالحياة، والزاخرة بالعواطف المتأججة، ولكنه ما يلبث أن يعود في الخاتمة الدعائية واحداً من شعراء

(١) الديوان ص ٢٤١. ويعني بالحجاج: الحجاج بن يوسف الثقفي لما عرف عنه من الشدة والقسوة، والعُجَر: الأحزان أو ما يبديه أو يخفيه، والبُجَر: الأمور العظيمة، والإرقال: الإسراع، وأوال: هي جزيرة البحرين في الوقت الحاضر، والخطّ: ساحل البحر وقاعدته القطيف، والحصّاء: النهم الأكول، والهُلب في الدابة: شعر ذنبها أو ما غلظ منه، والوَبَر: صوف الإبل.

عصره، يرفع يديه الضارعتين بالدعاء التقليدي للممدوح، في معان مكرورة، ورواسم محفوظة، وقوالب جامدة.

ولنستمع إلى أمثلة من تلك الخواتيم الدعائية كقوله:

فـالله يُسْعِـدُهُ ويُمْتـعُ خـلْقَـهُ بِـدَوَامِ دَولَتِـهِ وطُـولِ بَقَـائِـهِ[1]

ويقول في خاتمة أخرى:

بَقِيتَ وأُعطيتَ السَّعَادَةَ مـاشَدَا حَمَامٌ ومَا لاحَتْ بليلٍ كَوَاكِبُهْ[2]

ويقول في ختام قصيدة يمدح بها الناصر لدين الله:

فَعِشْ وابْقَ لِلإسلَامِ ماذَرَّ شَارِقٌ وَمَا سَجَعَتْ بالبَانِ وُرْقٌ صَوَادِحُ[3]

وربما ازداد التكلف والتصنع في الخاتمة الدعائية حتى يقع الشاعر في الابتذال والغثاثة وذلك كقوله:

وأَرَتْـنِـي الأَيَّـامُ خَـدَّ مُـنَـاوِيـ ـكَ ومنـهُ لأَخْمَصَيـكَ حِـذَاءُ
وأَرَاكَ المُهَيمِنُ ابْنَـكَ قَـدْ صَـا رَ لأَبْـنَـاءِ نَـسْـلِهِ أَبْـنَـاءُ[4]

٢ ـ الصورة الشعرية:

لو استقرأنا ديوان ابن المقرب نتلمس فيه الصور الشعرية ذات الشمول والبعد التصويري في تحديد الخطوط العامة للمنظر والحركة والصوت واللون وسواها من جوانب الصورة وأبعادها فإننا لن نجد فيها إلا مناظر جانبية لا يكمل الشاعر رسم جوانبها الأخرى إلا نادراً كما رأيناه يفعل في غرض الوصف.

---

(١) الديوان ص ٢٢.

(٢) الديوان ص ٦٤.

(٣) الديوان ص ١٢٩. وانظر الخواتيم الدعائية الأخرى في ديوانه ص ٥١ ـ ٦٤ ـ ٨٤ ـ ٩١ ـ ٩٩ ـ ١٠٤ ـ ١٤٨ ـ ١٩٠ ـ ١٩٦ ـ ٢٠٦ ـ ٢٢٤ ـ ٢٣٣ ـ ٢٤٦ ـ ٢٥١ ـ ٢٨٩ ـ ٣٠٤ ـ ٣٤٠ ـ ٣٤٩ ـ ٣٧٨ ـ ٣٩١ ـ ٣٩٣ ـ ٣٩٥ ـ ٤٠٥ ـ ٤١٢ ـ ٤٢٢ ـ ٤٢٦ ـ ٤٣٤ ـ ٤٣٩ ـ ٤٤٧ ـ ٥٠٤ ـ ٥٦٢ ـ ٥٦٨ ـ ٥٧١ ـ ٥٧٧ ـ ٥٨٤ ـ ٥٩٣ ـ ٦٢٣ ـ ٦٤٩ ـ ٦٥٦.

(٤) الديوان ص ٢٥.

وابن المقرب شاعر ذاتي في أغلب أغراضه يعبر في قصائده عن خواطره وأحاسيسه وآلامه وأحزانه في شكواه وعتابه وفخره وطموحه. وهذه الظاهرة عامل مهم في مساعدة الشاعر ودفعه إلى الإبداع في رسم الصورة الشعرية، واستكمال جوانبها لو استثمر هذا الاستعداد العاطفي في نفسه بالوقوف كثيراً عند تصوير واقعه مع بني عمه وحياته في الأحساء قبل سجنه ومصادرة أمواله وبعدهما، وفي أثناء رحلاته وغربته بعيداً عن أهله ووطنه.

والحقيقة أن ابن المقرب حينما يحدثنا عن خلجات نفسه وهمومه وأحزانه فإنه يتحفنا ببعض الصور الشعرية الجميلة، ولكنه لا يكثر من عرضها ورسمها لسامعيه، ولا يطيل الوقوف عندها إلا قليلاً حينما يبلغ به الهمُّ مبلغه، وتضيق الدنيا في عينيه على أثر حادثة معينة، أو موقف محدد يثير شجونه فتفيض كوامن نفسه، وتزداد لوعته ويتعاظم حزنه. ففي إحدى رحلاته إلى العراق كان يعبر نهر دجلة، فلما سمع سجع الحمام تذكر أهله ووطنه، وراح يخاطب الحمام وينكر عليهن نواحهن وهنَّ بين الأزهار والأشجار، فهو الأجدر بالبكاء والنواح، ولكنه الجَلْد الصَّبُور:

صَبَا شَوقاً فَحَنَّ إلى الدِّيَارِ ... ونَازَعَهُ الهَوَى ثَوبَ الوَقَارِ
وهَاجَ له الغَرامَ غِنَاءُ وُرْقٍ ... هَوَاتفُ في غُصُونٍ من نُضَارِ
صَدَحْنَ غُدَيَّةً فَتَركْنَ قَلْبِي ... وكَانَ الطَّودَ كالشَّيءِ الضِّمَارِ
رُوَيداً يا حَمَامُ بمُسْتَهَامٍ ... مَشُوقٍ مَنَّهُ طُولُ السِّفَارِ
بَرَاهُ الشَّوقُ بَرْيَ القِدْحِ جِدّاً ... فَغَادَرَهُ بِقَلبٍ مُسْتَطَارِ
فَوَاعَجَباً لَكُنَّ تَنُحْنَ خَوفَ الـ ... ـفِرَاقِ وما بَدَتْ خَيلُ المغَارِ
ولَمْ تُصْدَعْ لَكُنَّ عَصاً بِبَيْنٍ ... ولم تَعْبَثْ لَكُنَّ نَوىً بِعَارِ
وأَنْتُنَّ النَّوَاعِمُ بَينَ بَانٍ ... وخَيْرِيٍّ يَرِفُّ وجُلَّنَارِ
تَرِدْنَ نَميرَ دِجلَةَ لا لِغِبٍّ ... بِطَاناً من بَواكِيرِ الثِّمَارِ
لَدَى أوكَارِكُنَّ بحَيثُ تَاجُ الـ ... ـخَلِيفَةِ لا بأَجْوَازِ البَرَارِي
فَكَيفَ بِكُنَّ لو نِيطَتْ شُجُونِي ... بِكُنَّ ونَارُ وَجْدِي وادِّكَارِي

مُنيتُ من الـزَّمَـانِ بِعَنْقَفِيـرٍ   قَلِيـلٌ عِنـدَهَـا حَـزُّ الشِّفَـارِ
فِـراقُ أَحِـبَّـةٍ وذَهَـابُ مَـالٍ   وضَـيْـمُ أَقَـارِبٍ وأَذَاةُ جَـارِ
فَـلاَ واللهِ مـا وَجْـدٌ كَـوَجْـدِي   ولا عُرِفَ اصْطِبَارٌ كاصْطِبَارِي[1]

إن المناظر المحسوسة لهذه الصورة تقتصر على منظر الحمام ساجعاً على غصون الأشجار القائمة على ضفاف دجلة، مع بعض الأزهار المتناثرة من خيريٍّ وجُلَّنار، والحمام يتردد على أوكاره ريَّانَ ينتقي ما يشاء من الثمار، ومع ذلك فهو لا يكف عن النواح والهديل. ولكن براعة الشاعر تظهر في مزجه بين هذه المناظر المحسوسة وبين المشاعر النفسية من حزن وألم وشعور بالغربة، ومقارنتها بمشاعر الطير وإحساسه وافتراض حزنه وفراقه لأحبته، فهو يتخيل الحمام وهنَّ ينحن خوف الفراق، ويعجب لحالهن كيف ينحن وهن في ظل هذه الحياة الرغيدة الهانئة، وما الذي سيفعلنه لو حلَّ بهن ما حل به من مصائب ونوائب. وتتوقف ريشة الشاعر في النهاية بعدما رسم منظراً أخيراً لشخصيته المتمثلة بذلك الجَلَد والصبر الذي يعتصم به أمام أحزانه وآلامه.

إن مظاهر الألم والحزن والحرمان التي طغت على حياة ابن المقرب في العقود الثلاثة الأخيرة من عمره قد أعطته قدرة وحذقاً في تصوير هذه المظاهر، ولكنه يكسوها بثوب من الاعتزاز والطموح والحماسة والتطلع إلى معالي الأمور من واقع ذاتيته التي رأيناها في معانيه، فكما رسم صورة لمشاعر الطير وأحاسيسه من وحي ما يحس به من لوعة وأسىً وفراق وغربة، نراه يتخيل بعيره وفرسه يشاركانه أحاسيسه، ويتطلعان معه إلى رُبى المجد والشرف، ويقبلان عليه بالعتاب، ويحثَّانه على المسير والرحيل عن دار الهوان والمذهلة. فهذا بعيره قد اشتاق إلى البيداء ينطلق

---

(١) الديوان ص ٢١٤. والنُّضار: الأثل أو الطويل المستقيم منه، والغُدَيَّة: تصغير غداة، والطود: الجبل، والضمار: الشيء لا يرجى رجوعه، ومَنَّه: أضعفه وأعياه، والمِعَار: الفرس الذي يحيد براكبه عن الطريق، وصدع العصا: كناية عن التفرق، والخيري: معرب لنوع من النبات أو الزهر، والجلنار: زهر الرمان، وشربتْ غبّاً: شربتْ يوماً ويوماً لم تشرب، وبطاناً: ممتلئة، والعنقفير: الداهية، وشفرة السيف: حده.

في رحابها الواسعة بلا قيد ولا عقال، وهذا مهره قد حنَّ إلى الصحراء يعدو فيها بين طَرد وطِراد. وهو يصور احتجاجهما عليه بالحنين والصهيل، وكأن هذا الحنين والصهيل لغةُ تفاهُمٍ بين الشاعر وصاحبيه:

لَقَدْ مَلَّ جَنْبِي مَضْجَعِي من إقَامَتِي ... وَمَلَّ حُسَامِي من مُجَاوَرَةِ الغِمْدِ
ولَجَّ نَجِيبِي في الحَنِينِ تَشَوُّقاً ... إلى الرَّحْلِ والأَنْسَاعِ والبِيدِ والوَخْدِ
وأَقْبَلَ بالتَّصْهَالِ مُهْرِي يَقُولُ لِي ... أَأَبْقَى كَذَا لا في طِرَادٍ ولا طَرْدِ[1]

إن تمكن الأحزان في نفس الشاعر، وشعوره بالألم رفيقاً له في حلِّه وترحاله، مع استشرافه إلى مراتب العز والشرف دون أن يجد إليها سبيلاً هو الذي ساعده على رسم هذه الصور للطير والحيوان، وهو وإن لم يستكمل كل جوانب الصورة وأبعادها إلا أنه قد وفِّق إلى إبراز بعض جوانبها الهامة، والالتفاتِ إلى بعض جزئياتها النابضة بالحياة حينما جسَّدها وأظهرها صوراً متحركة حية كصورة الحمام، أو لوحات ناطقة حين نسمع فيها مناجاة البعير والمهر.

على أن هاتين الصورتين اللتين رسمهما الشاعر وهو يعبر نهر دجلة أو يسمع حنين بعيره وصهيل مهره هما من أبرز الصور التي اهتم الشاعر فيهما بالإحاطة نوعاً ما بالإطار العام للصورة وجوانبها المختلفة. وإلَّا فإن معظم الصور الشعرية في قصائده لا تبدو إلا كالومض الخاطف مقترنة في الغالب بالتشبيهات. وقد لا تدخل لهذا السبب في عداد الصور الشعرية المتكاملة، لولا ما تتضمنه من حركة أو صوت أو لون.

ولعلنا نحاول استجلاء بعض هذه الصور في غرضين أو ثلاثة لنرى كيف تَبرز الصورة في شعره. ففي المديح يختار الشاعر إحدى الصور التي تبدو فيها السنون المجدبة من شح المطر وقحط الأرض حتى لا يجد الناس إلا ممدوحه ينعم عليهم بفيض عطائه، مجسِّداً هذا المعنى في صورة شتاء قارس، ومنظر الناس يوحوحون

---

(١) الديوان ص ١٣٢. والأنساع: جمع نِسع وهو سَيرٌ عريض تشد به الرِّحال والوخد: الإسراع.

من شدة البرد، وقد أقعد الهزال أجود الإبل وأشدها، حتى سُدَّت الأبواب في وجوه الضيوف، وهنا تظهر صورة ممدوحه الذي يرحب بهم ويفتح لهم داره:

إذَا الشَّتْوَةُ الشَّهْبَاءُ هَبَّتْ رِيَاحُهَا ... بلَيلٍ ولَذَّتْ بالأَكُفِّ الوَحَاوِحُ
وأَلْقَتْ عَقَامٌ بَرْكَهَا وتَتَابَعَتْ ... حُسُوماً عَلَى المَالِ السِّنُونُ الجَوَائحُ
وأضحى بها المَجْدُوحُ قُوتاً وأَصْبَحَتْ ... سَوَاءً على الضَّيفِ القِرَى والقَوَارِحُ
ولَمْ يَبْقَ يلقىٰ الطَّارِقِينَ بوَجْهِهِ ... مِنَ الضُّرِّ إلَّا مُقْدَحِرٌّ مُكَاوِحُ
فَثَمَّ لِمُمْتَاحِي النَّدَى بِفِنَائِهِ ... مَرَاحٌ إلى آمَالِهِمْ ومَسَارِحُ(١)

فهذه الصورة غنية بالحركة رغم قلة أبياتها. فصرير الرياح، ووحوحة المقرورين، وجثوم الناقة القوية، والدم يفصد ليُتَّخذ قوتاً، والطارقون يترددون على الأبواب، وأصحاب البيوت يشيحون بوجوههم، ثم الممدوح الذي يهشُّ لهم ويسرّ وهم يدخلون فناء داره، كلها صور تعج بالحركة وقد أضفى الشاعر على جانب منها لوناً أشهب للشتاء رمزاً لشدة البرد ووطأة والسنين. وقريب من هذه الصورة منظر آخر ليس للفقير المحتاج إلى كرم الممدوح فحسب، وإنما للغني الذي أكثر من الخوف على ماله، حتى إذا تولى ممدوحه الحكم نام هذا الغني سعيداً مطمئناً:

نَامَ الغَنِيُّ وكَانَ قَبلَكَ لا يَنِي ... خَوفَ المَظَالِم سَاهِراً يَتَقَلَّبُ
وَمَشَى الفَقِيرُ ضُحىً وهَوَّنَ آمِناً ... بالإِلْتِفَاتِ وأَسْفَرَ المُتَنَقِّبُ(٢)

إن امتياز هذه الصورة عن الأولى ـ رغم إطارها الضيق ـ ليبدو في الجمع بين الغني والفقير وكلاهما محتاج إلى رعاية ممدوحه، ثم منظر الأول وهو نائم مطمئن وكان من قبل ساهراً يتقلب على فراشه، ومنظر الثاني وهو يمشي في رابعة النهار

---

(١) الديوان ص ١٢٧، والشتوة الشهباء: الشديدة البرد، والوحاوح: النفخ في اليد من شدة البرد، والعَقَام: الناقة الشديدة، وبركها: صدرها، والحسوم: القاطعة للخير، والمجدوح: دم الفصد كانوا يستعملونه في الجدب، والقوارح: جمع القرح وهو عض السلاح، والمقدحر: المتهيىء للشر، وكاوحه: شاتمه.

(٢) الديوان ص ٨٩، ولا يني: لا يفتر.

عزيزاً شريفاً يلتفت يميناً وشمالاً، لا كما كان يمشي مُلثَّماً سريع الخطى. ومثلها صورة أخرى لممدوحه العادل العفيف المتواضع لا ينال غنياً أو فقيراً بسوء:

وعَفَّ فلَمْ يَمْدُدْ إلى مُسلمٍ يَداً بسُوءٍ ولا بَاتَتْ له عَقْرَبٌ تَسْرِي

ولا بَاتَ جُنْحَ اللَّيلِ يَشْكُوهُ شَابِحٌ إلى اللهِ مَقْتُورٌ عَلَيهِ ولا مُثْرِ[1]

وميزة هذه الصورة ـ رغم سرعتها ـ تبدو بتلميحه إلى من يسعون في أذى الناس والإساءة إليهم، وتصويرهم بالعقارب تسري في الليل. كما تبدو في صورة الغني أو الفقير وقد وقف في جنح الظلام يرفع يديه إلى الله يدعو على هؤلاء، أما ممدوحه فلا يخشى أن يدعو عليه أحد لعفَّته ومسالمته للناس.

وفي الهجاء تظهر براعة الشاعر في رسم صور مشوَّهة لقسمات وجوه أعدائه وعاداتهم وتصرفاتهم. ولعله قد اكتسب هذه البراعة من واقع مخالطته لهم وتعامله معهم، فهو يصور كراهيتهم له، ويكشف عن واقعهم السيىء الذي يعيشون فيه:

عَجبتُ لِقَومٍ أَصْبَحُوا وعُيُونُهُم تخَازَرُ لِي من تَحتِ تِلكَ الحَوَاجِبِ

إذَا ما بَدَا شَخْصِي لَهُم خِلْتَ عَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ قدثَارَتْ عَلَيهِم بِحَاصِبِ

ومـا مِنْهُمُ إلَّا مَهِينٌ رَمَتْ بِـهِ أُبُـوَّةُ سُوءٍ من إمَـاءٍ جَـلائِبِ[2]

إنها العيون التي تخفي الكراهية والحقد وهي تلحظ الشاعر بطرف خفي، مستترة تحت حواجبها، حتى إذا قرب منهم لوَّوْا رءوسهم واستداروا بأجسامهم وكأنهم يشيحون بوجوههم عن ريح عاصف هبَّت عليهم. فلقد ورثوا المخازي والمساوىء فكأنها تحيط بهم من كل جانب. إن عيون هؤلاء الحاقدين وحواجبهم هي أبرز ما يسترعي انتباه الشاعر. فهو يظهرها في الصورة واضحة أكثر من غيرها من الجوانب الأخرى لأن مشاعر الكراهية والحقد في نفوسهم عليه إنما تنعكس على العيون والحواجب بالدرجة الأولى:

---

(١) الديوان ص ٢٠٤. وشَبَحَ الرجل: مد يده للدعاء، والمقتور: المضيَّق عليه في الرزق.

(٢) الديوان ص ٦٧. والخزر: النظر بطرف العين.

وَلاَ تَحْسَبُوا ذَا التِّيهَ فيكُم فَضِيلةً　　فَمَا هُوَ إلاَّ صَرُّعَينٍ وحَاجب
فَرُصُّوا وصُرُّوا أَعْيُناً أو فَبَلِّقُوا　　فَمَا نَفْخُ حُفَّاثٍ لِصِلٍّ بِكَارِبِ(١)

إنهم كالحيات العظيمة التي لا تضر أحداً بل تكتفي بالنفخ والفحيح، ولهذا فهو لا يخاف منهم. بل يوضح أسباب كراهيتهم له بما يفتقدونه من مكارم الأخلاق وطيب المحتد وأصالة المعدن، وسوى ذلك من الخلال الحميدة التي يتصف بها(٢).

وتظل العيون الخُزر تلاحق الشاعر وهو يتحسر لبقائه بين هؤلاء الأعداء، فنراه يصور هذه العيون في موضع آخر، ويضيف إليها منظر هؤلاء الناس وكأنهم الشياطين لا يختلفون عنها إلا في أشكالهم ومنطقهم، وكأن دسائسهم وسعاياتهم سهام مصوَّبة نحوه، ولكنها سهام بلا ريش ولا أوتار:

وَاحَسْرَتَا لِتَقَضِّي العُمْرِ في نَفَرٍ　　هُمُ الشَّيَاطِينُ لَولاَ النُّطْقُ والصُّوَرُ
بُلِيتُ مِنْهُمْ بأَجْلافٍ سَوَاسِيَةٍ　　قَدْ صَعَّدُوا بِزِمَامِ اللُّؤْمِ وانْحَدَرُوا
خُزْرُ العُيُونِ إذا أَبْصَارُهُمْ نَظَرَتْ　　شَخْصِي فَلاَ زَالَ عنهَا ذٰلِكَ الخَزَرُ
لَهُمْ سِهَامٌ بِظَهْرِ الغَيْبِ نَافِذَةٌ　　لَمْ تُكْسَ رِيشاً ولم يَنْبِضْ لَهَا وَتَرُ(٣)

إن هذه الصورة وغيرها توضح اهتمام ابن المقرب بتصوير الملامح والسِّمات التي تتراءى له في وجوه أعدائه في لحظات حقدهم وكراهيتهم أو بخلهم وشحِّهم، وما يرتسم عليها من انفعالات وأحاسيس، كما يعنى بإبرازها في صور مجسمة كوصفه لبعض أعدائه في بخلهم، وكيف يضيقون ذرعاً بمن يسألهم، حتى يخيل له أن آنافهم وآذانهم قد عركت بالملح من فرط صرِّهم لوجوههم وتبرمهم بسائلهم، وكأن صوت هذا السائل سهام تحِنُّ عند آذانهم من شدة كراهيتهم له:

---

(١) الديوان ص ٦٨ والحُفَّاث: حية عظيمة تتهدد ولا تضر، والصِل: حية خبيثة سامة.
(٢) انظر الديوان ص ٦٧.
(٣) الديوان ص ٢٣٥.

يُخَالُ سَائِلُهُمْ من صَرٍّ أَوْجُهِهِمْ ... بالمِلْحِ يَعْرُكُ آنافاً وآذَانَا
كَأَنَّمَا نَغْمَةُ المُمْتَاحِ سَيْبَهُمُ ... سَهْمٌ أَحَنَّ بِهِ كَبْدَاءَ مِرْنَانَا[1]

وإن عنايته برسم الانفعالات والأحاسيس الإنسانية ومظاهرها على الوجوه والأجسام لا تقتصر على الهجاء، وإنما تظهر في أغراض أخرى كالفخر والحماسة حين نراه يقابل تكبر أعدائه بالترفع عنهم والتعالي عليهم، فيشمخ بأنفه كلما زمَّ أحدهم أنفه:

وكُنتُ إذَا مَا أَحْمَقٌ زَمَّ أَنْفَهُ ... شَمَخْتُ بِأَنْفِي عَنهُ وازْوَرَّ جَانِبِي[2]

ولهذا فهو يرسم لنفسه أيضاً صورة رائعة يَبرُز فيها سكونُه وهدوؤه، أما قلبه فينبض بالحيوية والحركة والطموح، ويضرب لحاله مثلاً بالحية المطرقة المترقبة للوثب على فريستها:

إنْ تَرَى شخصي لِأَمْرٍ سَاكِناً ... فَلَعَمْرِي إنَّ قَلْبِي فِي طِرَادِ
رُبَّ ذِي هَمٍّ تَراهُ مُطْرِقاً ... وَهْوَ فِي إطْرَاقِهِ حَيَّةُ وَادِ[3]

كما يرسم لنفسه صوراً أخرى وهو يُظهِر الغباء، أو يتظاهر بالعمى أو الصمم، مخادعاً أعداءه وهو بينهم ذلك الفِطن الذكي الدقيق اللحاظ المرهف السمع:

أُرِيهِمْ مَنْطِقاً عَيّاً وإنِّي ... لَأُفْحِمُ فِي بَلاغَتِهِ زِيَادَا
وأُغْضِي نَاظِرِي حَتَّى كَأَنِّي ... حَدِيثُ عَمًى يُحَرِّجُ أَنْ يُقَادَا
ونَارُ الزَّنْدِ تُدْرِكُهَا لِحَاظِي ... وإنْ لَمْ يُوْرِ قَادِحُهُ الزِّنَادَا
وأُبْدِي فِيهِمُ صَمَماً وسَمْعِي ... يُحِسُّ النَّمْلَ إذْ يُخْفِي السَّوَادَا[4]

---

(١) الديوان ص ٦٠٤. والكبداء المِرنان: القوس يملأ مقبضها الكف، والمرنان: القوس ذات الصوت.

(٢) الديوان ص ٦٩، وزم بأنفه: شمخ.

(٣) الديوان ص ١٨٠.

(٤) الديوان ص ١٨٣. ويعني بزياد زياد بن أبيه، ويحرِّج أن يقادا: يكره.

إنه يكره الجبناء الحمقى، ويصور أحدهم وهو يتلقى الأذى والظلم مستسلماً مطأطئاً رأسه، وكل همه أن يعيش في ظلال وارفة تدعو له النساء بالسلامة والأمن:

ولا خَيْرَ في هِلْبَاجَةٍ كُلَّمَا أَتَى إليهِ الأَذَى أَبْدَى خُضُوعاً وأَسْجَدَا
ومَالَ إلى بَرْدِ الظِّلَالِ وَرَاقَهُ مَقَالُ إمَاءِ الحَيِّ: لا غَالَكَ الرَّدَى[1]

وهكذا رأينا الصورة الشعرية في قصائد ابن المقرب تتكون من عدة مناظر محسوسة يمزج الشاعر معها غالباً الكثير من الصور المعنوية للأحاسيس والمشاعر الإنسانية من واقع مجتمعه وظروف حياته. كما أنها تتّسم بالسرعة والقِصَر وضيق الإطار، ولكنها كثيرة الحركة والصوت، متعددة الشخوص والأجزاء.

٣ - بين العفوية والصنعة:

يتردد أسلوب ابن المقرب بين العفوية الأخاذة والتكلف المقيت، ولعل سبب هذا التفاوت يعود إلى صميم التجربة الشعرية التي قد تكون صادقة وقد تكون متكلفة بين هذا الغرض أو ذاك، وبين هذه القصيدة وتلك.

إن أسلوبه القوي وشاعريته الحقيقة تبدو أكثر إشراقاً وصفاء في الأغراض التي تلامس مشاعره وأحاسيسه، وتعبر عن دخيلة نفسه كالشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة، وتبدو أقل بهاءً ورونقاً في بعض الأغراض الأخرى التي يتصنع فيها ويتكلف تحت ظروف خاصة كالمدح والهجاء. ولنأخذ مثالين مختلفين على ذلك لنرى مدى اختلاف أسلوبه بين غرض وآخر تبعاً لمدى صدقه أو تلكفه.

يقول من قصيدة يمدح بها أحد بني عمه أمراء الدولة العيونية ممّن تتسم علاقته بهم بالشك والحذر والريبة، وكأنه بهذه الأبيات وأمثالها يحاول دفع شرهم وكف أذاهم، فيبدو التكلف ظاهراً على أسلوبه الذي يختلف عن منهجه الشعري:

مَلِكٌ أَحْيَا بِمَوَاهِبِهِ قَتْلَى الإِمْلَاقِ من الرِّمَمِ

---

(١) الديوان ص ١٥١. والهلباجة: الأحمق الجامع لكل شر.

وأَنَـارَ بِسَاطِعِ سُؤْدَدِهِ ... لِذَوِي الأَمْلَاكِ دُجَى الظُّلَمِ
وأَقَامَ بِحُسْنِ سِيَاسَتِهِ ... شُوسَ الأَمْلَاكِ عَلَى النِّقَمِ
وأَذَمَّ لِمَنْ أَضْحَى بِحِبَا ... هُ عَلَى الأَيَّامِ فَلَمْ يَرِمِ
مَلِكٌ تَخْتَالُ قُرَى البَحْرَيْـ ... ـنِ بِهِ فِي الحُسْنِ عَلَى إِرَمِ
نَدِسٌ رَدِسٌ شَكِسٌ مَكِسٌ ... شَرِسٌ مَرِسٌ وَافِي الذِّمَمِ
لَهِجٌ بَهِجٌ بِفَوَاضِلِهِ ... سَمْحٌ طَمْحٌ عَالِي الهِمَمِ
يَسِرٌ عَسِرٌ فَرِحٌ تَرِحٌ ... والخَيلُ تَعَثَّرُ بِاللِّمَمِ (١)

إلى أن يقول وكأنه يستشعر ضعف العلاقة التي تربطه بهذا الأمير فيحاول إزالة الشك وتعميق أواصر القربى:

فَإِلَيكَ أَبَا المَنصُورِ عُقُو ... دَ لآلِي الدُّرِّ المُنْتَظِمِ
جَاءَتْ بِكْراً من نَظْمِ فَتًى ... فِي وُدِّكَ لَيسَ بِمُتَّهَمِ
يُثْنِي بلِسَانِ الصِّدْقِ عَلَيـ ... ـكَ ثَنَاءَ الوَامِقِ ذِي اللَّزِمِ
وَيَمُتُّ بِأَرْحَامٍ وَشَجَتْ ... من عِيصِكَ ذِي لَحْمٍ ودَمِ
فَبَقِيتَ بَقَاءَ الدَّهْرِ وَرُحْـ ... ـنَ لَكَ الأَيامُ من الخَدَمِ (٢)

أرأيت كيف بدا أسلوبُه هنا ضعيفاً ركيكاً مبتذلاً، فالمبالغة ظاهرة في وصفه لممدوحه بأوصاف مبتذلة غير متجانسة كما في الأبيات الخمسة الأولى، والتنافر بين الكلمات وتشابه مخارجها وثقلها واضح في الأبيات الثلاثة التي اشتملت على الألفاظ (نَدِس ورَدِس، وشَكِس ومَكِس، وشَرِس، ومَرِس، ولَهِج وبَهِج، وسَمْح وطَمْح، ويِسر وعَسِر، وفَرِح وتَرِح)، وفي الأبيات الأخيرة يبدو تكلف الشاعر في محاولة إقناع ممدوحه بصدق مشاعره نحوه، والأمر ليس كذلك كما نعرف من

(١) الديوان ص ٥٨٢. والنَّدِس: الرجل الفطن، وردِس: يجيد الرماية، ومكِس: من المماكسة أي المشاحة، واللهِج: المثابر على الشيء، والطمح: من طمح أي ارتفع بصره وكل ما ارتفع فهو طامح، والترِح: الحزين.

(٢) الديوان ص ٥٨٤. والوامق: المحبّ، واللزم: الملازم جداً والعيص: الأصل.

علاقته بهذا الأمير ولسان حاله في أبياته.

ويقابل هذا الأسلوبَ المتكلف أسلوبٌ آخر يبدع الشاعر فيه حينما تكون مشاعره نابعة من حسه وذاته، معبرة عن شئونه وشجونه وتطلعه وطموحه كما في الأبيات التالية التي تجمع بين الشكوى والفخر والحماسة والحكمة:

وقَائِلَةٍ والعِيسُ تُحْدَجُ لِلنَّوَى ... ودَمعُ الجَوَى قد جَالَ في الخَدِّ جَائِلُه
عَلَيكَ بِصَبْرٍ واحْتِسَابٍ فإنَّمَا ... يَفُوتُ الثَّنَا مَنْ رَاحَ والصَّبْرُ خَاذِلُهْ
وَلَا تَرْمِ بالأَهْوَالِ نَفْساً عَزِيزَةً ... فَذَا الدَّهرُ قد أَوْدَى وقَامَتْ زَلَازِلُهْ
فَكَم كُرْبَةٍ فِي غُرْبَةٍ ومَنِيَّةٍ ... بأُمْنِيَّةٍ والرِّزقُ ذُو العَرشِ كَافِلُهْ
فقُلتُ لَهَا والعَينُ سَكْرَى بزَفْرَةٍ ... أُرَدِّدُهَا والصَّدرُ جَمٌّ بَلَابِلُهْ
أبالموتِ مثلِي تُرْهِبينَ وبالنَّوَى ... وعَاجِلُهُ عندي سَوَاءٌ وآجِلُهْ
ولَلْمَوتُ أَحْيَا مِنْ حَيَاةٍ ببَلْدَةٍ ... يُري الحُرَّ فيها الغَبْنَ مَنْ لا يُشَاكِلُهْ
وما غُربَةٌ عَنْ دَارِ ذُلٍّ بغُربَةٍ ... لَوَ آنَّ الفَتى أَكْدَى وغَثَّتْ مَآكِلُهْ
ورُبَّ غَريبٍ نَاعِمٍ وابْنِ بَلْدَةٍ ... تُبَكِّيهِ قَبلَ المَوتِ فيها ثَوَاكِلُهْ
وإنَّ مُقَامي يا ابْنَةَ القَومِ لِلْقِلَى ... ولِلضَّيمِ لِلْعَجْزُ الَّذِي لا أُزَامِلُهْ[1]

أرأيت كيف كان محلقاً في أسلوبه، مبدعاً في صياغة معانيه، مشرقاً في ديباجته، موفَّقاً في اختيار موسيقاه الشعرية التي تحكي تحفزه للرحيل وعزمه على السفر، وهو يهيىء العيس بحماسة واندفاع وتصميم. وإن إشراق أسلوبه في هذه الأبيات لا يظهر في انسجام الأفكار وتسلسل الحوار فحسب، بل يظهر في بعض الجمل التي قد تتضمن بعض جوانب الضعف فيكسوها بأسلوبه العفوي الصادق ما يجعلها تتناسب مع سياق الأبيات، فإن تكراره لحرف الجيم في البيت الأول مدعاة لثقل الكلمات، ولكن الموسيقى الداخليـة الـي توافرت من الموازنة بين النَّوَى

(١) الديوان ص ٣٢٩. وتُحدَج: تُشدُّ عليها الأحمال، والبلابل: ما يتردد من الصدر من همٍّ وحزن، ولا أزامله: لا أتخذه رديفاً ولا رفيقاً.

والجَوَى، ومن جناس الاشتقاق (جال جائله)، مع حسن اختيار هذه الكلمات التي تعبر عن الرحيل وعدم الاستقرار (تُحدَج، الجَوَى، جال، جائلُه) كل ذلك جعلنا لا نحس بثقل الجيم المكررة كما أضفى على الأسلوب بهاء وحسناً، ومثل ذلك المحسنات البديعية في البيت الرابع، فقد تعتبر تكلفاً لو لم تصدر عن عفوية وصدق.

وإذا كنا قد عرفنا في معاني شعره أن ذاتيته قد غلبت على نتاجه الشعري فإننا سندرك أن التكلف والتصنع في أسلوبه ليس صفة غالبة على شعره، بل هو قليل إذا قيس بشعره الذاتي الغزير.

ولعل أبرز الأغراض التي يبدو فيها الشاعر متكلِّفاً هو المديح، وذلك أمر غير مستغرب لما عرفنا من اضطراره إلى المديح، وهو يرى أنه الأمير المترفع عن الاستجداء أو طلب العطاء، وعندما قسر نفسه على المديح جاءت معظم مدائحه فاترة متكلفة. ثم إن كثرة مدائحه التي بلغت نصف قصائده تقريباً هي التي كانت توقعه في التكلف حينما تنضب أفكاره وتنفد معانيه. وبما أن مدائحه ليست خالصة للمديح وإنما هي مزيج من المدح والشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة وربما الهجاء فإننا سنجد بين مقاطع هذه المدائح أمثلة من العفوية والتكلف متقاربة أو متباعدة، وربما جمعتها قصيدة واحدة أو مجموعة أبيات. ففي قصيدة يمدح بها ابن عمه الأمير محمد بن مسعود نجده يفتخر بأبيات تغلب على أسلوبها البساطة والعفوية:

قَدْ أَحْمِلُ العِبْءَ الثَّقِيلَ وبَعْضُهُمْ ... فِيهِ يُصَوِّبُ طَرْفَهُ ويُصَعِّدُ
وأَذُبُّ عن أَحْسَابِ قَومِي جَاهِداً ... إنْ نَابَ خَطْبٌ أو عَرَا مُسْتَرْفِدُ
وإذَا تَشَاجَرَتِ الخُصُومُ فإنَّنِي ... سَيفٌ عَلَى الخَصْمِ الأَلَدِّ مُجَرَّدُ
وفَضِيلَةُ الأَدَبِ الذِي فَاقَ الوَرَى ... لِي دُونَهُمْ والشَّمسُ مَا لَا يُجْحَدُ[1]

---

(١) الديوان ص ١٦٢.

ثم ينتقل بعد هذه الأبيات مباشرة إلى مديح ابن عمه بأبيات لا يخفى تكلفه فيها وكأنه قد دُفع إلى المديح دفعاً:

وَلِيَ الأميرُ أَبُو عَلِيٍّ ذُو العُلاَ ... مَولىً بِهِ أَرِدُ الخُطُوبَ وأُورِدُ
المَاجِدُ النَّدْبُ الأَغَرُّ الأَرْوَعُ اللَّـ ... ـيثُ الهِزَبْرُ النَّاسِكُ المُتَهَجِّدُ
الوَاهِبُ الأَمْوالَ تَأْبَى كَثْرَةً ... مِنْ أَنْ يُعَدَّ لُجَيْنُهَا والعَسْجَدُ
لاَ مَنَّ يَتْبَعُ ذَاكَ منهُ ولا أَذًى ... بَلْ تَتْبَعُ اليَدَ من فَوَاضِلِهِ اليَدُ
تُعْطِي عَلَى الغَضَبِ المُعَلِّهِ والرِّضَا ... وبِذَاكُمُ يَقْضِي العُلاَ والسُّؤْدَدُ(١)

ثم نلاحظ عودة أسلوبه إلى عفويته وقوته حين يعود إلى حديثه عن نفسه:

أَصْبَحْتُ من أَكْنَافِهِ في بَاذِخٍ ... لا يُرْتَقَى ومُمَرَّدٍ لا يُصْعَدُ
تَرنُو إليَّ الحَادِثَاتُ كَمَا رَنَا ... ظُهْراً إلى الشَّمسِ المُنِيرَةِ أَرْمَدُ(٢)

فقد ارتفع بأسلوبه في البيت الأخير وأبدع في التشبيه لكنه لا يلبث بعد هذا البيت مباشرة أن يسِفَّ ويبالغ:

بَيتُ الرِّئَاسَةِ في نِزَارٍ كُلِّهَا ... آبَاؤُهُ ومُلُوكُ مَنْ يَتَمَعْدَدُ
مَا مِنهُمُ إِلاَّ هُمَامٌ مَاجِدٌ ... صَمَدٌ إليه في الحَوادِثِ يُصْمَدُ
وأَعَزُّ حَيٍّ في رَبِيعَةَ حَيُّهُ ... كُلٌّ يُقِرُّ لَهُ بِذَاكَ وَيَشْهَدُ
يَمِنُوا لأَنْ رَاحُوا ولَيسَ قَبِيلَةٌ ... إلاَّ لَهَا منهُمْ صَبَاحٌ أَنْكَدُ
وَلِذُلِّ ذَاكَ يَعِزُّ ذَا وكَذَاكُمُ ... لِنُحُوسِ قَومٍ جَدُّ قَومٍ يَسْعَدُ
يا طَالِباً في النَّاسِ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... أَقْصِرْ فَمِثْلُ مُحَمَّدٍ لا يُوجَدُ
سَبَقَ المُلُوكَ وفَاتَ سَبْقَ مُقَلَّدٍ ... بِمُقَلَّدٍ طِرْفٍ نَمَاهُ مُقَلَّدُ(٣)

---

(١) الديوان ص ١٦٢. والغضب المُعَلِّه: المحيِّر المدهش الموقع في الملامة.

(٢) الديوان ص ١٦٢. والباذخ: العالي، والممرد: الأملس.

(٣) الديوان ص ١٦٣، ١٦٤. ويتمعدد: ينتسب إلى معدّ، ويمِنوا: بكسر الميم حلت بهم البركة واليُمن، والمقلد الطرْف: السابق من الخيل، ومقلد الأخيرة: أبو بطن من العرب.

فهو لم يوفق هنا إلى صياغة أسلوب المديح. بل وقع في التفكك وسوء اختيار الكلمات (يَتَمَعْدَد، صَمَدَ ويُصْمَد) كما وقع في التشابه والتكرار في الأبيات الثلاثة الأخيرة. كما قرب أسلوبه من الأسلوب النثري في قوله (فمثل محمد لا يوجد). ولعل طول قصائد الشاعر هو الذي يهبط بأسلوبه وينزل به أحياناً إلى الأسلوب النثري حينما تضعف قريحته مع رغبته في الإطالة. ومن أمثلة ذلك قوله يوصي ابن عمه خيراً بأحد المقربين منه:

وغَزْوَانَ فاحْفَظْ وُدَّهُ واحْتَفِظْ بِـهِ ... تَجِدْ سَيفَ عَزْمٍ في مَرَاضِيكَ فَاصِلاَ
وقَابِلْ بِهِ كَيدَ العَـدُوِّ وصِلْ بِـهِ ... جَنَـاحَكَ واجْعَلْهُ لِعَلْيَـاكَ حَائِـلاَ
فَمَا فيهِ تَضْييعٌ عَلَيكَ ولا تَرَى ... لَهُ في مَرَاضِي مَنْ تُصَافِي مُشَاكِلاَ[1]

وقوله مرحِّباً بمقدم ممدوحه:

أَهْلاً بِسَيِّدِ أَهْـلِ الأَرضِ قَاطِبَـةً ... وخَيرُ أَمْلاَكِ أَهْلِ الحِلِّ والحَرَمِ
أَهْلاً وسَهْلاً بِمَنْ في نُورِ غُرَّتِهِ ... غِنًى عَنِ البَدْرِ للسَّارِينَ في الظُّلَمِ
أَهْـلاً بِـهِ وبِهَـذا اليَـومِ إِنَّهُمَـا ... إنْ فُوضِلاَ أَفْضَلُ الأَيامِ والأُمَمِ[2]

وقوله في معرض العتاب:

لأَنَّ مَنْ يَتَـوَلَّى الأَمْـرَ بَعْـدَهُمُ ... لَيْسُوا بِمَأمُونِ شَرٍّ في نَواحِينَا[3]

وقوله في الهجاء:

يَخَـافُ الضَّيفَ يَقْرِض حَـاجِبَيهِ ... ولا سِيْمَـا إذَا حَضَرَ الـطَّعَامُ[4]

وبالإضافة إلى نثرية الأسلوب في الأبيات السابقة فقد ورد فيها تكرار لفظ (أهلاً). وتكرار الكلمات أو الجمل عيب آخر يقع فيه الشاعر في المديح غالباً

---

(١) الديوان ص ٤٠٣.
(٢) الديوان ص ٥٥٥.
(٣) الديوان ص ٦١٢.
(٤) الديوان ص ٥٦٧. ويروى البيت: يخال الضيف يفرص حاجبيه.

وينبىء عن تكلفه، كتكرار (هذا هو) ثلاث مرات ، و (هذا الذي) ثلاث مرات أيضاً[1]، وتكرار أداة الاستفهام (أم) خمس عشرة مرة في مطالع الأبيات من قصيدة يمدح بها شمس الدين باتكين أمير البصرة[2]، وتكرار لفظ (ونِعْمَ) خمس مرات في قصيدة مدح أيضاً[3]، وتكرارها أربع مرات في قصيدة مدح أخرى[4]، وتكرار (لِذَا اليوم) ست مرات في بداية مديحه لابن عمه الأمير محمد بن محمد[5].

إن ترديد الكلمات وتكرارها وتشابهها علَّة يقع فيها الكثير من الشعراء حين يدفعهم إلى ذلك تكلفهم الإطالة، وبخاصة في غرض المديح، فعندما يحس الشاعر بينه وبين نفسه أنه ليس صادقاً فإنه يعمد إلى التعويض بكثرة الأبيات بدلاً من الإجادة والمشاعر الصادقة.

وقد يدفع التلكف شاعرنا إلى تقليد المتنبي في بعض أبياته التي يتكلف فيها وكأنه يهزأ بالممدوح في مثل قوله:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِعِ احْمِلْ عَلّ سَلّ أَعِدْ ... زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ[6]

فيقلده ابن المقرب في هذا التكرار الممل ويقول:

وارْفَعْ وضَعْ واعْتَزِمْ وانْفَعْ وضُرَّ وصِلْ ... واقْطَعْ وقُمْ وانْتَقِمْ واصْفَحْ وخُذْ وهَبِ[7]

كما يقول أيضاً:

وارْفَعْ وضَعْ واقْطَعْ وصِلْ وامْنَعْ وهَبْ ... وانْفَعْ وضُرَّ وقُمْ وسَامِ ورَامِ[8]

---

(١) انظر الديوان ص ٥٥٥.
(٢) انظر الديوان ص ١٩٢.
(٣) انظر الديوان ص ٣٤٤.
(٤) انظر الديوان ص ٣٦٢.
(٥) انظر الديوان ص ٣٩٥.
(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ٣ / ٨٥.
(٧) الديوان ص ٨٣.
(٨) الديوان ص ٥٠٣.

ولعل التكلف والتصنع وتشابه الأسلوب وتكرار بعض الكلمات كانت من المآخذ التي أخذها ياقوت الحموي على ابن المقرب في قصيدته التي مدح فيها بدر الدين لؤلؤاً أمير الموصل فقال : « وليست بالطائل عندي »[1] . فلو قرأنا بعض أبيات هذه القصيدة لأدركنا ما يعنيه ياقوت . فضعف الأسلوب وركاكته ظاهران في البيت الثامن :

النَّــاسُ كُلُّهُمُ هـــذَا وَلاَ عَجَبٌ ... الخَلْقُ أَفْضَلُ منهُمْ كُلِّهِمْ رَجُلُ

ومثله البيت الثاني عشر:

الشُّكْرُ في ذَا لِمَولىً أَنْتَ لا كَذِباً ... عَبـدٌ لَهُ كُـلُّ مَنْ يَهْـوَاهُ يَمْتَثِـلُ

فقوله (لا كذباً) حشو مبتذل، وقوله (كل من يهواه يمتثل) انتقال سريع مخل. كما أن ابتذال الأسلوب ظاهر في البيت الرابع عشر:

أَبُو الفَضَائِـلِ أَوْلَى النَّاسِ كُلِّهِمُ ... بِمَـا يُكَنَّى بِـهِ فَلْيُتْــرَكِ الجَـدَلُ

والجناس المتكلف واضح في آخر البيت الخامس عشر:

الخَيلُ تَعرِفُ يَومَ الرَّوعِ صَولَتَهُ ... بِحَيثُ في مُلْتَقَاهَا يَبْـطُلُ البَطَلُ

وإضافة إلى ضعف هذه الأبيات فإن الروح العامة لمديحه في هذه القصيدة تغلب عليها الصنعة والمبالغة كما في قوله:

أَمَا دَرَوْا أَنَّ بَدْرَ الدِّينِ لو رُدِيَتْ ... بِهِ الشَّواهِقُ لَمْ يَعْقِلْ بها وَعِـلُ
وكَيفَ يُخْشَى عَلَى مَلْكٍ وقد ضُرِبَتْ ... لِمجْـدِهِ في ذُرَاهُ الخِيمُ والكِلَلُ
مَلك تَحَمَّـلَ مَالاَ يَسْتَـطِيـعُ لَـهُ ... حَمْــلاً ثَبِيـرٌ وثَهْــلاَنٌ فَيَحْتَمِـلُ
جَـوَادُهُ بَارِقٌ والعَـزْمُ صَـاعِقَــةٌ ... وسَيفُـهُ قَـدَرٌ في لَحْـظِهِ أَجَـلُ
غَدَا بِهِ المُلْكُ بالجَوْزَاءِ مُنْتَطِقاً ... وَرَاحَ وَهْوَ بِظَهْرِ الحُوتِ مُنْتَعِـلُ
إذَا شُمُوسُ مَواضِيـهِ طَلَعْنَ فَمَا ... لَهُنَّ إلَّا بِهَـامَـاتِ العِـدَى أَفَـلُ

(١) معجم البلدان ٤ / ١٨١ والقصيدة في ديوانه ص ٤٣٩ .

طَابَتْ بِهِ المَوصِلُ الحَدْبَاءُ واتَّسَعَتْ لِسَاكِنِيَهَا بِهَا الأَرْزَاقُ والسُّبُلُ
وأَصْبَحَتْ جَنَّةً لا يَبْتَغِي حِوَلاً قُطَّانُهَا لَوْ إلى دَارِ البَقَا نُقِلُوا[1]

على أن هذه القصيدة في ضعف بعض أبياتها وغلبة التكلف والصنعة على أسلوبها ليست مقياساً لكل مدائحه أو قصائده. فقد كان الشاعر مضطراً إلى مدح بدر الدين بهذه القصيدة في وقت بلغت فيه حاجته وفقره وعوزه حدّاً لم يحتمله حتى نفق فأرفده الموصليون وأكرموه كما يقول ياقوت[2]. فليس غريباً أن يشوب بعض أبياتها التكلف وضعف الأسلوب، ورغم ذلك فإننا لو ألقينا نظرة أخرى على مقاطع أخرى من أبياتهاالظهرتلنا الحقيقة التي ذهبنا إليها وهي جمعه بين العفوية والتكلف ليس بين قصيدة وأخرى وإنما بين مقاطع القصيدة الواحدة، ففي البيت التاسع وما بعده يظهر أسلوبه العفوي الصادق الذي لا يشوبه أي تكلف ولا تصنع، ولكن ليس في مجال المديح، بل في حديثه عن نفسه ومشاعره وأحاسيسه:

اللهُ أَكْبَرُ جَاءَ الدَّهْرُ مُعْتَذِراً إليَّ يَسْأَلُنِي العُتْبَى وَيَبْتَهِلُ
وقَبْلُ كَمْ سَامَنِي خَسْفاً وأَلْزَمَنِي ما لَيسَ لِي نَاقَةٌ فِيهِ وَلاَ جَمَلُ
فآهٍ يَا دَهْرُ هَلاَّ كَانَ عُذْرُكَ ذَا وَلَمْ يَغِبْ عَنْ عِيانِي الجِشُّ والجَبَلُ[3]

وفي البيت السابع والخمسين يعود الشاعر إلى شكواه وتحسره فيبدو في أسلوبه الصدق والعفوية من جديد:

إليكَ مِنْ بَلَدِ البَحْرَينِ أَنْهَضَنِي هَمٌّ لَهُ أَنْفُسُ الأَشْرَافِ تُبْتَذَلُ
كَمْ جُبْتُ دونَكَ مِنْ مَجْهُولَةٍ قَذَفٍ تيهٍ قَلِيلٌ بَهَا حِلٌّ ومُرْتَحَلُ
ومُزْبِدٍ لا يَلَذُّ النَّومَ رَاكِبُهُ لَهُ إذا اضْطَرَبَتْ أَمْوَاجُهُ زَجَلُ
أَفْنَيتُ زَادِي وَمَرْكُوبِي وشَيَّبَنِي عَلَى عُتُوٍّ جَنَانِي الخوفُ والوَجَلُ[4]

---

(١) الديوان ص ٤٤٣. ورُدِيَت: ضربت، والكلل: الأستار الرقيقة.
(٢) معجم البلدان ٤ / ١٨١.
(٣) الديوان ص ٤٤٠ وانظر ما تقدم ص ٢١٤.
(٤) الديوان ص ٤٤٦، ومجهولة قَذَف: صحراء غير مطروقة تقذف بسالكها إلى الهلاك، والمزبد: البحر.

إن الحالة النفسية القلقة التي مرت بالشاعر في عقود عمره الثلاثة الأخيرة، وما انتابه من تردد بين اليأس والصبر كما رأينا في شكواه وعتابه، واضطراره إلى المديح مع اعتزازه وانتمائه إلى أسرة حاكمة ومكانة اجتماعية تدفعه إلى الترفع عن الاستجداء، وشعوره بالحرمان والظلم، وتشرده وغربته، كلها أمور خلقت منه ذلك الشاعر العفوي الأسلوب، الصادق المشاعر في أغلب نتاجه الشعري حينما يتحدث عن معاناته وهمومه وأحزانه، كما خلقت منه أيضاً ذلك الشاعر المتكلِّف المتصنع أحياناً حينما تدفعه ظروف حياته إلى شحذ شاعريته وحث قريحته على صياغة معان يمدح بها من لا يراه أهلاً لها.

وهكذا يتردد أسلوب الشاعر بين العفوية والتكلف، وبين الطبع والصنعة، ونحن نحس بضعف أسلوبه وكثرة المآخذ عليه حين لا يترك نفسه على سجيتها، وحين لا يواتيه طبعه ولا تسعفه قريحته. وعندئذ تظهر الركاكة وتكثر الضرورات وتتعدد السقطات، وشواهد ذلك كثيرة في شعره. ولعل من الملائم أن نستعرض بعضها، ففي قوله:

حَذَارَ مُعَاوِدِ الهَيْجَا لَجُوجٍ ... يَعُدُّ لَجَاجَةَ السَّرَفِ اقْتِصَادَا[1]

تكرار لحرف الجيم خمس مرات في ثلاث كلمات متقاربة.

وفي قوله:

إذَا رَأَى مَا نَالَ إخْوَانَهُ ... مِنَ البَلاَيَا صَاحَ صِمِّي صَمَامْ[2]

تكرار لحرفي الصاد والميم في ثلاث كلمات متجاورة.

وفي قوله:

وَلاَ لِيَ في أَنْ أَصْحَبَ النَّذْلَ حَاجَةٌ ... لِصِحَّةِ عِلْمِي أَنَّهُ جَرَبٌ يُعْدِي[3]

(١) الديوان ص ١٨٧.

(٢) الديوان ص ٥٧٥. ويقال: صِمِّي صَمَام أي زيدي يا داهية.

(٣) الديوان ص ١٣٨.

حشوٌ لا محل له في قوله (لصحة علمي) فالأولى أن يقول (لعلمي).

وفي قوله:

يَـابَا عَليٍّ أَجِبْ من غَيـرِ نَأْنَـأَةٍ صَوتَ امْرِيءٍ في عُلاكُمْ غيرِ مُتَّهَمِ [1]

تعبير غير مناسب عن الإبطاء والتأخير بالنأناة.

وفي قوله:

وَهَا أَنَا اليوَمَ يا خَيرَ المُلُوكِ أَنَا وأَنْتَ أَنْتَ وشَيءٌ قَطُّ لَمْ يَدُمِ [2]

تكرار مخل وابتذال وغموض في المعنى.

وفي قوله:

أَخُو الطَّعْنَةِ النَّجْلاءِ تَحْسَبُهَا فَماً تَثَاءبَ في حيثُ الكَلاَم كِلاَمُ [3]

ثناءٌ لا بأس به على شجاعة ممدوحه ولكنه لم يوفق في اختيار صورة للتشبيه أفضل من تصوير الطعنة بالفم المتثاءب في أثناء الكلام، مع التعقيد في قوله: (حيث الكلام كلام).

وفي قوله:

كَمْ رَدَّ مِنْ حَـالِ مَخِيفٍ وَقَـدْ صَارَ مِنَ الهَمِّ كَذَاتِ الوِحَامْ [4]

تشبيه مبتذل بتصوير حال الخائف وهمِّه بحال الحبلى في وحمها لبعض أنواع الطعام.

وفي قوله:

---

(١) الديوان ص ٥٦١، ويقال: نأنأ في الرأي إذا ضعف فيه فلم يبرمه.

(٢) الديوان ص ٥٦٢.

(٣) الديوان ص ٤٧٧.

(٤) الديوان ص ٥٧٥.

كَانَتْ جِنَانـاً كَالجِنَـانِ فَأَصْبَحَتْ ... لِلْوَحْشِ مُــوحِشَـةً ولِلْجِنَّـانِ[1]

جناس متكلف في الشطرين بالإضافة إلى التكرار وركاكة الأسلوب،

ومثل ذلك قوله:

يَا ابْنَ مَحْمُودٍ الَّذِي اسْتَوجَبَ الـ ... ـحَمْدَ عَلَى كُلِّ مَنْ تُظِلُّ السَّمَاءُ[2]

وقوله:

زُمَّيْلَةٌ فـإِذَا المَـظَالِمُ أُسْنِـدَتْ ... يَـومـاً إليـهِ رَأَيْتَـهُ إِزْمِيـلَا[3]

ومن مظاهر تكلف ابن المقرب في كثير من أبياته وقوعه في الضرورات الشعرية وبعض التجاوزات اللغوية، فكثيراً ما عمد إلى صرف ما لا ينصرف كصرفه اسم (أحمد) في قوله:

وَجَلَّى عَنِ البَحْرَينِ يَومَ ابْنِ أَحْمَدٍ ... صَوَاعِقَ شَرٍّ قَدْ تَدَلَّى سَحَابُهَا[4]

واسم (ربيعة) في قوله:

قَــومِي سَـرَاةُ رَبِيعَـةٍ ومُلُوكُهَـا ... وإذا نُسِبْتُ وُجِدْتُ مِنْ سَرَوَاتِهَا[5]

ولفظ (أخرس) في قوله:

يَـا عَاذِلِي لا عِشْتَ إِلَّا أَخْـرَساً ... أَعْمَى أَصَمَّ تَرَى بقَلْبٍ تَائِـهِ[6]

ولفظ (خزائن) في قوله:

وأَمَــدَّهُ بِخَــزَائِنٍ لَـوْ صَبَّحَـتْ ... ذَاتَ العِمَـادِ لآذَنَتْ بِتَـدَعْثُـرِ[7]

---

(١) الديوان ص ٦١٨.

(٢) الديوان ص ٢٤.

(٣) الديوان ص ٤١١. والزُّمَيلة: الجبان الضعيف، والإزميل: الشديد والضعيف (من أسماء الأضداد) أي أنه جبان وضعيف فإذا أسندت إليه المظالم اشتد فيها.

(٤) الديوان ص ٤٤. وانظر أيضاً ص ٤٧٤ و ٦٤٨.

(٥) الديوان ص ١٠٧ وانظر أيضاً ص ٣٥٨ و ٦٣٥.

(٦) الديوان ص ٢٠.

(٧) الديوان ص ٣٢٣.

وصرفه لفظ (قواعد) في قوله:

أَحْيَا أَبَاهُ لَعَمْـرِي والبُيُوتَ عَلَى ... قَـوَاعِدٍ بُنِيتَ قِـدْمـاً وآسـاسِ[1]

ولفظ (يزيد) في قوله:

وأَمْنَـعُ جَاراً مِنْ يَـزِيدٍ وهَـانِيءٍ ... وجَسَّاسٍ السَّاقِي حَسَا المَوتِ وَائِلاَ[2]

وصرفه لفظ (صهاميم) في قوله:

أَبَـى لِي ذَاكَ أَنِّـي مِنْ قُـرُومٍ ... صَهَـامِيـمٍ تُسِـمُ ولا تُسَـامُ[3]

ومن التجاوزات التي تطبع أسلوبه بالتكلف أيضاً ربطه الضمير المتصل بأداة الاستثناء في عدد من الأبيات كقوله:

فـأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَبْقَ إلاَّهُ سَيِّـدٌ ... نُنَاجِيهِ في حَاجَاتِنَـا ونُخَاطِبُـهْ[4]

ومثل ذلك إيراد (ربَّما) بعد (قد) في بعض الأبيات كقوله:

عَلَى أنَّ حَدَّ السَّيفِ قَدْ رُبَّمَا نَبَا ... وفُـلَّ وهٰذَا لا يُفَـلُّ ولا يَنْبُو[5]

ومن هذه التجاوزات اللغوية أيضاً اشتقاق (صُوْيِدَ) من صاد للمفاضلة في الصيد في قوله:

وتُلُوَّ خَمْسَةِ أَكْلُبٍ لَوْ صُـوْيِدَتْ ... بِبَنَـاتِ آوَى كُنَّ مَنهَا أَصْيَـدَا[6]

وتعديةُ الفعل (تظفر) إلى ضمير المفعول مباشرة وهو لا يتعدى إلا بحرف الجر في قوله:

---

(١) الديوان ص ٢٥١.

(٢) الديوان ص ٤٠١.

(٣) الديوان ص ٥٦٧ والقَرم: السيّد، والصهميم: الشريف.

(٤) الديوان ص ٦٢ وانظر أبياتاً أخرى مماثلة ص ٨٢ و ٨٩ و ١٦٦ و ١٤٨ و ٣١٢ و ٥٦٢.

(٥) الديوان ص ٣٢ وانظر بيتين مماثلين ص ٣٤٧ و ٥٢٩.

(٦) الديوان ص ١٧٠.

نِصفُ البِضَاعَةِ حِينَ تَظْفَرُهَا   مَكْسٌ لَقَدْ بَالَغْتَ في النُّكْرِ[1]

إن هذه الضرورات الشعرية والتجاوزات اللغوية ـ على قلتها إذا قيست بوفرة شعره وغزارته ـ لتُستكثر على شاعر في مقدرة ابن المقرب وتمكنه من لغته، وبالتالي فهي تعد مظهراً من مظاهر تعسُّفه وتكلفه في بعض أبياته.

وإذا انتقلنا من هذه الأساليب المتكلفة الركيكة وجدنا ابن المقرب في الكثير من أبياته عفويَّ الأسلوب سلس العبارة بعيداً عن الصنعة، لا يورد من التشبيهات والمجازات والاستعارات إلا ما يتطلبه المقام ويستسيغه الذوق ويطابق واقع الحال. فإذا كان قد تكلف الجناس في بعض أبياته السابقة في مقام المديح فإنه يحسن اختيار الجناس ويبدع في صياغته حينما يتحدث عن طموحه وتطلعه لمعالي الأمور، وعدم ركونه إلى المذلة والهوان، وهو يردُّ على امرأته التي تقول له:

أَتَقْنَعُ بِالعَلَاةِ مِنَ العَلَالِي   بَدِيلاً والمُثَارِ مِن الوِثَارِ

فيجيبها بقوله:

فقُلْتُ لَهَا غِشَاشاً والمَطَايَا   إلى التَّجْلِيحِ حَاضِرَةُ الحَضَارِ
ذَرِينِي لا أَبَالَكِ كَيفَ يَرْضَى   بِدَارِ الهُونِ ذُو الحَسَبِ النُّضَارِ
فَظِلُّ السِّدْرِ عِندَ الذُّلِّ أَوْلَى   بِأَهْلِ المَجْدِ من ظِلِّ السِّدَارِ[2]

فكم هو جميل ذلك التجانس بين العَلَاة والعَلالي والمُثار والوِثار والسِّدر والسِّدار، مع تباين المدلولات واختلاف المعاني. ومثل ذلك الجناس الذي أورده الشاعر بين الحَمَامِ والحِمَام في معرض شوقه وحنينه وهو يخاطب الحَمَام:

---

(١) الديوان ص ٢٢٧.

(٢) الديوان ص ٢١٦. والعَلاة: حجر يجعل عليه الأقط، والعَلالي: الغرف والمثار: الغبار، والوثار: الفراش الوطيىء، وغشاشاً: على عجلة، والتجليح: الإقدام، والسدر: شجر النبق، والسدار: ما يشبه الخدر.

هَتَفْتَ فَهِجْتَ لي شَوقاً فقُلْ لِي   حَمَامٌ أَنْتَ وَيْحَكَ أَمْ حِمَـامُ(1)

أو في معرض شكواه وعتابه وهو يناجي نفسه ويحثها على الصبر والجلد:

فـاسْتَبْقِ دَمْعَكَ والحَنِينَ لِسَـاعَةٍ   تَذَرُ الوَبِيلَ مِنَ الرِّجَـالِ أَبِيْلاَ(2)

كما نراه يُوفَّق أيضاً في فخره واعتزازه إلى حسن اختيار الجناس وهو يزهو بشاعريته وموهبته:

إليـكَ جَوهَـرَةً مِنْ طَبْعِ قَـائِلِهَا   تَبْقَى عَلَى غَابِرِ الأَزْمَانِ والحِقَبِ
يُقَـالُ لِلْمُـدَّعِي شِعْـراً يُعَـادِلُهَـا   كَذَبْتَ ما الضَّرَبُ الطَّلْحِيُّ كالضَّرَبِ(3)

ومثل ذلك قوله في باب المديح:

نَهْدٌ عَلَى نَهْدِ المَـرَاكِلِ سَـابِحٍ   رَحْبِ اللَّبَابِ مُحَجَّلٍ لِلأَرْجُلِ(4)

وقوله:

وإنْ سَلِمَتْ نَفْسُ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ   شَكَتْ مِنْ سَرَايَاهُ عُمَانُ وعَمَّانُ(5)

وقوله:

هــذَا يَـرُومُ قِــرىً وذَاكَ قِـرَاءَةً   سُمِعَتْ عَنِ المُخْتَارِ عَنْ جِبْرِيلاَ(6)

ومن الصيغ البلاغية الأخرى التي يزين بها الشاعر أسلوبه دون تكلف أو شطط التشبيهات والاستعارات والكنايات وسواها يوردها في محلها ومناسباتها. ففي قوله:

---

(1) الديوان ص ٥٦٣. والحِمام بكسر الحاء: الموت.

(2) الديوان ص ٤٠٦. والعجز الثاني في الديوان هكذا: تذر الأبيل من الرجال وبيلا، والأنسب للمعنى ما ذكر أعلاه. والأبيل: الحزين، والوبيل. الشديد.

(3) الديوان ص ٨٤ والضَّرَب الأولى: صمغ الطلح، والضرب الثانية: العسل الأبيض.

(٤) الديوان ص ٤١٦. ونهد الأولى: الأسد أو مِن نهد الرجل لعدوِّه إذا صمد له، ونهد الثانية: فرس جميل جسيم، ومراكل الدابة، ما تصيبه أقدام راكبها.

(5) الديوان ص ٥٩١.

(6) الديوان ص ٤٠٩. والقِرى: إكرام الضيف.

أَشْبَهْتَ وَالِـدَكَ الهُمَـامَ وإنَّمَـا عُرِفَتْ بنو الآسَادِ من أَصْوَاتِهَا(١)

تصوير بديع لأصالة معدن ممدوحه، لم يكتف فيه الشاعر بمدح ابن عمه الأمير فضل بن محمد بل امتدح والده الأمير محمد بن أبي الحسين وشبَّه الاثنين معاً بالأسد وشبله مستعيناً بذلك الاستدلال البارع في الشطر الثاني. ولقد اختلف أسلوبه هنا عن التكلف الذي رأيناه يطغى على بعض مدائحه. والسِّرُّ في ذلك صدق مشاعره وعاطفته نحو ابني عمه، ومثل ذلك عفوية أسلوبه في مدح شمس الذين باتكين بعد أن توثقت صلته به، فراح يمدحه بأسلوب سهل يضمنه مثل هذه التورية الحسنة:

فَتِيْهِي أَيُّهَـا الـرَّعْنَـاءُ عُـجْبـاً بِـهِ وتَنَـاوَلِي السَّبْـعَ الشِّـدَادَا
فَقَدْ صَارَتْ شُهُـورُكِ مُذْ تَـوَلَّى رَبِيعـاً لا تَمُـرُّ بِـهِ جُمَـادَى(٢)

وفي الأغراض الأخرى غير المديح، وبخاصة تلك التي يعبر بها عن آلامه وأحزانه وفيض وجدانه، وعن طموحه وإبائه وشموخه نجد المحسنات اللفظية متآلفة مع سياق الأسلوب يُحسِن استخدامها لتصوير واقعه الذي يعيش فيه حتى يكاد المرء أن يشاركه في ألمه وحسرته:

كَمْ أَشْرَبُ الغَيْظَ صِرْفاً من أَكُفِّكُمُ ولا يُـرَجَّى لِشَـرٍّ منكُمُ غِيَـرُ(٣)

فتلك استعاره جيدة تصور حال الشاعر وهو يتحسَّى الألم والعذاب والظلم على أيدي بني عمه تكملها صورة أخرى رائعة يرسمها لمقدار هوانه عند بني عمـه وسوء حظه في بلده:

تَرِدُ الكِلاَبُ الوَاسِعِيَّةُ حَـوْضَكُمْ وأُذَادُ عَنـهُ كَمَـا يُـذَادُ الأَجْـرَبُ

---

(١) الديوان ص ١١١.
(٢) الديوان ص ١٨٩. والرَّعناء: البصرة سميت بذلك لتقلب جوِّها، والسبع الشداد: السموات
(٣) الديوان ص ٢٣٨.

وتُجِلُّنِي أُسْدُ الشَّرَى في أَرْضِهَا وبِأَرْضِكُمْ يَسْطُو عَلَيَّ الثَّعْلَبُ[1]

إنه القوي العزيز الجانب في غربته وبُعدِه عن وطنه، أما بين أهله وفي بلده فهو الذليل المهان، تُقام دونه الحُجب وكأنه ذلك البعير الأجرب وقد حِيل بينه وبين الورد في سربه خوف العدوى بمرضه، إنه الشجاع المرهوب في المهامه والمفازات، أما في الأحساء فهو الخائف الوجل، لا يكاد يدرأ عن نفسه الأذى والشر. ولكن الشاعر يرسم هذه الحال في بيتين آخرين بصورة أخرى تظهر شجاعته وتصديه للنوائب والخطوب ولو بدا في مظهره مستكيناً مستسلماً لأعدائه، وتوضح مدى احتقاره لهم واستهانته بهم مستعيناً بالتشبيهات الجميلة:

فـإنَّ بـأَرْضِنَـا بَقَـراً شِبَـاعـاً ولكِنْ بينَ آسَـادٍ جِـيَـاعِ
وثَـوبُ اللَّيْثِ فِـيَّ إذا تَبَـدَّتْ فَـرِيسَتُـهُ وإطْـرَاقُ الشُّجَـاعِ[2]

إن الشاعر ليبدع كثيراً حين تستجيب له قريحته إلى أساليب طريفة يفاجأ بها السامع كوصفه الدهر بالغلام للتعبير عن تقادُم العهد:

أَتَـذْكُرُ هَـالِكـاً مِنْ عَهْـدِ نُـوحٍ مَضَى والـدَّهْـرُ حِينَئِـذٍ غُـلَامُ[3]

أو وصفه لفعل أسياف قومه في رءوس أعدائهم بأنه شفاء لهذه رءوس من الصداع، وكأن الصداع الذي تشكو منه هو ذلك الحقد والضغينة ولا دواء لهما إلا سيوف قومه:

فـإنَّ سُيُـوفَنَـا مـا زَالَ فِيهَـا شِفَـاءٌ للرءوس من الصُّدَاعِ[4]

---

(١) الديوان ص ٩٠. ولم يتبيّن لي ما يعنيه بالكلاب الواسعيَّة. ويروى البيت: ترد الكلاب الراقشيّة. والرقش كالنقش والرقشاء من الحيات المنقّطة بسواد وبياض، ولعل الشاعر يعني معنى قريباً من ذلك. والشَّرى: المأسدة.

(٢) الديوان ص ٢٦٨ و ٢٦٩. والشجاع: ضرب من الحيّات.

(٣) الديوان ص ٥٦٣.

(٤) الديوان ص ٢٧٢.

أو تصويره لواقعه المؤلم مع قومه وعشيرته مع قلة ذات يده، فكلما سعى خاب سعيه دون عون أهله . فهو كالسهم لا يصيب مقتلاً دون ريشه وعقبه :

وَالمَرءُ يَسْعَى بِلاَ رَهْطٍ وَلاَ جِدَةٍ كالسَّهْمِ يُرمَى بلا رِيشٍ وَلاَ عَقَبِ (١)

إن عفوية أسلوبه وسلاسة عبارته لا تظهر في مثل هذه المحسنات وكيفية سبكها في شعره فحسب وإنما أوردناها مثالاً لخلوِّ شعره الذاتي من الصنعة والتكلف لأن المحسنات البديعية مظنة الوقوع في التكلف في الغالب، ولمقارنتها بتلك المحسنات التي رأيناه يتجشم وعورة الأساليب في سبيل صياغتها واقتناصها. وإلاَّ فإن سهولة أسلوبه وعفويته ظاهرة عامة في الكثير من أغراض شعره، ولا سيما الأغراض الذاتية التي يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره، والأمثلة على ذلك كثيرة، وقد رأينا في أغراض شعره ضروباً مختلفة منها في تنوُّع أساليب الشكوى والعتاب، وفي روائع حماسته وفخره، وفي حكمته المعبرة عن تجاربه الخاصة في حياته وفي أحوال عشيرته ودولته ومجتمعه بكل واقعية وصدق، بعيداً عن الزيف والتكلف واصطناع العواطف.

٤ ـ بين السهولة والغرابة:

يمتاز أسلوب ابن المقرب في بعض قصائده بالسهولة والبساطة في التركيب والصياغة وقرب تناول المفردات اللغوية، واختيار البحور الخفيفة السريعة الجرس:

مـا انْتِـظَارِي بِرُءُوسٍ أَيْنَعَتْ لَيسَ هـذَا اليَنْـعُ إلَّا لِلْحَصَـادِ
يـا جُفُونِي طَلِّقِي عَنكِ الكَرَى إنَّمَـا طِيبُ الكَرَى بَعـدَ السُّهَادِ
مـا الَّـذِي يُقْعِـدُنِي عن هِمَّتِي والمَنَـايَـا رَائِـحَـاتٌ وغَـوَادِي

(١) الديوان ص ٧٧. والجِدة: الغنى، والعقب: العصب تعمل منه الأوتار.

لأُقِيمَنَّ لأَبنَاءِ الوَغَى ... سُوقَ إقْدَامٍ وطَعْنٍ وجِلَادِ
إن يكُنْ عِزّاً وإلَّا فَرَدًى ... لَستُ من دُونِ شَبيبٍ ومَصَادِ
ما اعْتِذَارِي والوَغَى تَعْرِفُنِي ... والعَوَالِي والمَوَاضِي والهَوَادِي
قَدْ تَسَاوَى في مَضَاءٍ صَارِمِي ... وسِنَانِي ولِسَانِي وفُؤَادِي[١]

ويختلف أسلوبه في بعض قصائده الأخرى اختلافاً بيّنا عن هذا الأسلوب، حيث ينحو فيه إلى جزالة الأسلوب ومتانته وإلى انتقاء المفردات الغريبة التي يحتاج فهمها إلى مراجعة المعاجم اللغوية حتى بدت قصائده على هذه الطريقة وكأنها شعر جاهلي صِرف في جزالتها وغرابتها وقوة معناها:

فَيَا عَرَصَاتِ الدَّارِ من حَيثُ تَلْتَقِي ... شَقَائِقُ أَجْزَاعِ اللِّوَى والأَبَاطِحُ
سَقَاكُنَّ مِنْ نَوءِ السِّمَاكَين عَارِضٌ ... مِنَ المُزْنِ مَحْلُولُ النِّطَاقَينِ دَالِحُ
مُلِثٌّ يَظَلُّ الجَأْبُ في عُنْفُوَانِهِ ... عَلَى النَّشْزِ وَهْوَ السَّحْسَحُ المُتَمَايحُ
كَمُسْتَرْعِفٍ أَحْذَى ودَنَّحَ بَعْدَمَا ... غَدَا طَلْقاً واسْتَبْدَهَتْهُ المَطَاوِحُ
وتُمْسِي الرِّعَانُ القُودُ فِيهِ كَأَنَّهَا ... يَعَالِيلُ في آذِيِّ بَحْرٍ طَوَافِحُ
لِتَرْوِي مَغَانِيكِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ بِهَا ... عَلَينَا مِنَ النَّعْمَاءِ غَادٍ وَرَائِحُ[٢]

أرأيت كيف صاغ الشاعر أسلوبه بقوة وجزالة وكأنه يقدُّ كلماته من صخر متعمداً اختيار الغريب (مُلِثّ، الجَأْب، السَّحْسَحُ المُتَمَايِح، مُسْتَرْعِف، أَحْذَى، دَنَّحَ، اسْتَبْدَهَتْهُ المَطَاوِحُ، الرِّعَانُ القُود، اليَعَالِيل، آذِيّ البحر)، فتلك ألفاظ غريبة لا تناسب في كثرتها عدد الأبيات التي وردت في سياقها. وإن القارىء ليعجب وهو

---

(١) الديوان ص ١٨٠ وقد تقدم ذكر شبيب ومصاد ص ٣٣٠.

(٢) الديوان ص ١٢١. والأجزاع: منعطفات الوديان، ومحلول النطاقين: كناية عن تدفق السيل، والمطر المُلِثّ: الدائم، والجَأْب: الحمار الوحشي والأسد، والسَّحْسَح المتمايح: المطر الشديد المتمايل، أي أن المطر يحبسه في مكان مرتفع، والمُسْتَرعِف: السابق من الخيل، وأحْذَى التراب: حثاه: ودنَّح: ذلَّ، واسْتَبْدَهَتْه المَطَاوِح: فَجَأته المهالك، والرّعن، أنف الجبل، واليعاليل: حباب الماء، وآذيّ البحر: موجه.

يرى الشاعر يميل بعد هذه الأبيات مباشرة إلى انسياب الأسلوب وانصبابه وسهولة ألفاظه، وكأنه يقدم لنا مثالا يجمع فيه بين طريقتيه في سهولة الأسلوب وغرابته:

وقَـائِلَةٍ شِبْـهَ المَـلَامِ وراعَهَـا بَيَـاضُ مَشِيبٍ جَلَّلَتْهُ المَسَـائِـحُ
أَبَعْدَ اشْتِعَالِ الرَّأسِ شَيباً تَعَرُّضٌ لِوَصْلِ الحِسَانِ البِيضِ أَمْ أَنتَ مَازِحُ
فقُلتُ: أَلَيسَ الصُّبْحُ أَحْسَنَ مَنظَراً وأَبْهَى من الظَّلْمَاءِ واللَّيلُ جَانِحُ
فَمَالَتْ لَهَزْلِ القَولِ ثُمَّ تَضَاحَكَتْ وقَالَتْ: لِهذَا فَلْتَنُحْـكَ النَّوَائِـحُ
إذا كَانَ شَيبُ الرَّأسِ مِمَّا يَزِينُهُ فَيَا حُسْنَ ثَغْرٍ سَوَّدَتْهُ القَوَادِحُ[1]

وهنا نتساءل: أي الطريقتين هي الصفة الغالبة على أسلوبه، وأيهما أقرب إلى سجيته وطبيعته وحقيقة شاعريته؟ إن المتتبع لقصائد ابن المقرب سيدرك أنه قد جمع بين سهولة الأسلوب وبساطته، وبين غرابته وجزالته وقوته بدرجة واحدة تقريباً، بتأثير عوامل مختلفة تشدّه إلى الأسلوبين معاً. فهو يعيش في عصر متأخر قد ضعفت فيه الملكات اللغوية عند كثير من الناس، فلم يعد يستهويهم ذلك الأسلوب الشعري الجزل، بل يميلون إلى الأسلوب السهل القريب من مداركهم وثقافتهم، وهو في الوقت نفسه شاعر موهوب متمكن من لغته مشدود إليها، تعجبه قوتها ومتانتها وجزالة ألفاظها، وقد اكتسب ثقافة لغوية وأدبية واسعة يحرص على جني ثمارها فلا يسعه إلا أن يسير على طريقة سابقيه من قدامى الشعراء. لذلك فإن الشاعر يحاول الجمع بين سهولة الأسلوب حتى يقرب من مستوى ثقافة معاصريه، وبين إشباع رغبته في الظهور بمظهر الشاعر المتمكّن الذي لا يجاريه شاعر آخر في عصره. ومن هنا فقد ظهر الكثير من قصائده مزيجاً بين هاتين الطريقتين حيث يبدو أسلوبه في مسحته العامة سهلاً قريباً إلى الأذهان، ولكنه يشتمل في بعض أبياته ومقاطعه على مفردات غريبة لا تنقاد معانيها إلا لأرباب اللغة. وإلى هذه الظاهرة

(١) الديوان ص ١٢٢ والمسائح: جمع مسيحة وهي الذُّؤابة حين يخالط سوادها بياض شيبه، والقوادح: الدّود يقدح في الأسنان.

يشير الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بقوله[1]: إنه «يقتنص الكلمات اللغوية العويصة فيدمجها إدماجاً لطيفاً في أبياته، فيسوغها القرآء وإن كانت جمهرتهم تحتاج إلى مراجعة القواميس لفهم المعاني المقصودة من هاتيك الكلمات، وتلك ميزة نبيلة تدل على ملكة أصيلة وثقافة لغوية ناضجة قلما تتسنى إلا للعباقرة الموهوبين» .

إننا لو استقرأنا ديوان ابن المقرب لوجدنا في شعره الكثير من هذه المفردات الغريبة التي يستخدمها في قصائده وتنمّ عن ثقافة لغوية عميقة مثل: صَهَاميم ومُمُاذِق[2]، ومُقْذَحِرَّة[3]، وشَنَاخِبه[4]، ورَنَونَات[5]، ويُمَاغِث والهَثَاهِث[6]، والكَثاكِث والأَباغِث[7]، والهَنَابث[8]، وذآليل والمُجَالح وآضَ[9]، وشُكمْ وشُكْد[10]، ومُحْبَنطِيء[11] والمُكَشَّم[12]، ومُعَلْهَج[13]، والبُعْصُوص ووَاشِل والهُرْطُمان[14]، والطِّيخ[15]، وعَنْقَفِير[16]، والدَّسَائِع[17] والأَبْلَخ وكُرسُف[18]،

---

(1) جريدة صوت الحجاز العدد ٢٢٥ الصادر في ٦ / ٧ / ١٣٥٥ هـ.
(2) انظر الديوان ص ٤٤ .
(3) انظر الديوان ص ٤٦ .
(4) انظر الديوان ص ٥٦ .
(5) انظر الديوان ص ٨١.
(6) انظر الديوان ص ١١٦ .
(7) انظر الديوان ص ١١٧ .
(8) انظر الديوان ص ١١٨ .
(9) انظر الديوان ص ١٢٣ .
(10) انظر الديوان ص ١٣٦ .
(11) انظر الديوان ص ١٥٢ .
(12) انظر الديوان ص ١٥٧ .
(13) انظر الديوان ص ١٧١ و ٢٠٦ .
(14) انظر الديوان ص ٢٠٥ .
(15) انظر الديوان ص ٢٠٩ .
(16) انظر الديوان ص ٢١٥ .
(17) انظر الديوان ص ٢٧٩ .
(18) انظر الديوان ص ٢٨٨ .

واسْجَهَرَّت [1] ، ومُصْمِئلَّة [2] ، وعَيْدَ هِيّة [3] ، ورِهَام [4] ، وأَزْفِلَة [5] . ،

ولعل من أسباب تعلّق ابن المقرب بالغريب حبه لتقليد سابقيه ومحاولته الظهور بمظهرهم ، وهو نوع من التعالي والتعاظم في إبراز مقدرته وقوة شاعريته . يدلنا على ذلك قصيدته الكافية الوحيدة على هذه القافية :

أَمِنْ دِمْنَـةٍ بَينَ اللِّوَى والدَّكَـادِكِ ... شُغِفْتَ بِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ [6]

فبالإضافة إلى تشابه أبياتها الأولى بقصيدة زهير بن أبي سلمى المشهورة كما رأينا فيما سبق [7] فإن بعض أبياتها تشبه إلى حد كبير أبياتاً لذي الرمة من قصيدته :

أَمَـا اسْتَحْلَبَتْ عَينَيكَ إلاَّ مَحَلَّةٌ ... بِجُمْهُورِ حُزْوَى أو بِجَرْعَاءِ مَالِكِ [8]

ففي هذه القصيدة يقول ذو الرمة مذكِّراً صاحبته بتلك المحلة التي استدرت دمع عينيه :

لَنَا ولَكُم يَامَيُّ أَضْحَتْ نِعَـاجُهَا ... يُمَاشِينَ أُمَّاتِ الرِّئَالِ الحَواتِكِ [9]

وابن المقرب أيضاً يخاطب صحبه بأسلوب ذي الرمة ذاته فيقول :

أَقُـولُ لَهُمْ والعِيسُ تَشْدُو كَـأَنَّهَا ... مَعَ الآلِ أُمَّاتُ الرِّئَالِ الرَّوَاتِكِ [10]

---

(١) انظر الديوان ص ٣٣٠ .

(٢) انظر الديوان ص ٤٦٨ .

(٣) انظر الديوان ص ٤٧١ .

(٤) انظر الديوان ص ٥٧١

(٥) انظر الديوان ص ٦٠١ .

(٦) الديوان ص ٣٠٥ .

(٧) انظر ما تقدم ص ٣٥١ .

(٨) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧١٠ ، تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٣٩٣ هـ .

(٩) المصدر السابق ٣ / ١٧١٤ وأمات الرئال الحواتك : النعام اللواتي يقاربن الخطو والرأل : فرخ النعام .

(١٠) الديوان ص ٣٠٨ ، والآل : السراب : والرواتك : القريبة الخطو .

وإن حذق ابن المقرب وتمكنه من مفردات اللغة ـ وهو ما يغريه بالاعتزاز والافتخار ـ ليدل عليه استخدامه للفظ (الرَّواتِك) بدلا من (الحَواتِك) الذي استخدمه ذو الرمة، فكلا اللفظين يدلان على معنى واحد، ولكن ابن المقرب استعمل هذا اللفظ ليحاول الابتعاد عن أسلوب ذي الرمة على ما يبدو، ولكن أبياتاً أخرى من قصيدته تظهر في أسلوبها أكثر تأثراً بأبيات ذي الرمة الذي يقول:

فَيَـامَنْ لِقَلبٍ لا يَـزَالُ كَـأَنَّـهُ   مِنَ الوَجْدِ شَكَّتهُ صُدُورُ النَّيَازِكِ[1]

فيقول ابن المقرب:

كَـأَنَّ فُؤَادِي نَـاطَـهُ ذُو سَخِيمـةٍ   قَلِيلُ التَّحَنِّي في صُدُورِ النَّيَازِكِ[2]

ويصف ذو الرمة الجمل في سيره بقوله:

عَلَى كُـلِّ مَـوَّارٍ أَفَـانِينُ سَيْـرِهِ   شَؤُوٌ لأَبَوَاعِ الجَوَاذِي الـرَّوَاتِكِ
عَبَنَّى القَرَا ضَخْمِ العَثَانِينِ أَنْبَتَتْ   مَنَاكِبُهُ أَمثَـالَ هُدْبِ الـدَّرَانِكِ[3]

فيقول ابن المقرب:

وَقَـدْ قَرَّبُـوا لِلْبَيْنِ كُلَّ هَمَـرْجَـلٍ   أُمُونِ القَرَا ضَخْمِ العَثَانِينِ تَامِكِ
قِمَـطْرٍ دَرَفْسٍ قَيْسَـرِيٍّ كَـأَنَّمَـا   مَنَـاكِبُهُ جُلِّلْنَ وَشْيَ الـدَّرَانِكِ[4]

ولعل قول ابن المقرب:

وفي الجِيْرَةِ الغَادِينَ لا عَنْ مَلاَلَةٍ   ظِبَاءٌ عَلَى تِلكَ الهِجَانِ البَوَائِكِ[5]

---

(١) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧١٥. وشكَّته: طعنته، والنيازك: الرماح القصار.
(٢) الديوان ص ٣٠٦. وناطه: علقه، والسخيمة: الضغينة والحقد، والتحنّي: التعطّف.
(٣) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧١٦. والموّار: البعير يمور من النجابة، وشؤوٌ: سبوق، وأبواع الجواذي: التي تتبوع في سيرها وتأخذ في الأرض شيئاً كثيراً، وعبنّى القرا: ضخم الظهر، والعثانين: شعرات تحت الحنك، والدرانك: البُسُط.
(٤) الديوان ص ٣٠٦. والهَمَرجل: السريع، وأُمون القَرَا: وثيق الظهر، والتامك: العظيم السنام، والقِمطر: الجمل القوي الضخم، والدّرفس: العظيم من الإبل ومثله القيسري.
(٥) الديوان ص ٣٠٧. والهِجان: البيض، والبوائك: النوق التوامُّ السِّمان.

هو تقليد خالص لذي الرمة أو لِنقُل: إنه معارضة واضحة لقول ذي الرمة:

وفي الجِيرَةِ الغَادِينَ من غَيرِ بِغْضَةٍ
مَبَاهِيجُ أمثَالُ الهِجَانِ البَوَائِكِ[1]

ولا شك أن ابن المقرب قد قرأ شعر ذي الرمة. بل درسه دراسة المتمعن، ويدل على ذلك قوله:

دُجَيْلِيَّةُ لَوْ حَطَّ غَيلَانُ رَحْلَهُ ... بِهَا سَاعَةً أَنْسَتْهُ حُزْوَى ومُشْرِفَا[2]

وفي قصيدة ابن المقرب بيتان آخران يظهر فيهما تأثره أيضاً بأسلوب ذي الرمة في جزالة الأسلوب وغرابة الألفاظ وهما:

كَأَنَّ عَلَى فِيهَا سُلَافَةَ قَرْقَفٍ ... وَقَدْ غَوَّرَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ
أَقُولُ لَهَا سِرّاً وقَد غَابَ كَاشِحٌ ... رَقِيبٌ مَقَالَ العَاشِقِ المُتَهَالِكِ[3]

فليس بخاف قرب هذين البيتين من قول ذي الرمة:

كَأَنَّ عَلَى فِيهَا إذا رَدَّ رُوْحَهَا ... إلى الرَّأسِ رُوحُ العَاشِقِ المُتَهَالِكِ[4]

وقوله:

وشُعْثٍ يَشُجُّونَ الفَلَا في رُءوسِهِ ... إذا حوَّلَتْ أُمُّ النَّجُومِ الشَّوَابِكِ[5]

وما عدا هذه الأبيات فإن الاستقلال في أسلوب ابن المقرب ظاهر في قصيدته التي بلغت سبعين بيتاً وكأنه يحاول التفوق بها على ذي الرمة في قصيدته التي بلغت واحداً وستين بيتاً.

---

(١) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧٢٠ ويعني بالمباهيج: النساء.

(٢) الديوان ص ٢٨٤. ودجيلية: نسبة إلى دجيل وهو نهر بالعراق.

(٣) الديوان ص ٣٠٧. والسُّلافة: ما سال من العنب قبل أن يعصر، والقرقف: الخمر، وغوّرت أم النجوم الشوابك: أي شربت الخمر بحبابها المتشابك وكأن الحباب نجوم السماء.

(٤) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧٢٦. والمتهالك: المندفع الذي لا يمنع نفسه.

(٥) ديوان ذي الرمة ٣ / ١٧٢٧. ويشجون : يعلون، وأم النجوم: المجرّة.

إن وقوفنا عند هاتين القصيدتين لذي الرمة وابن المقرب والمقارنة بين أسلوبهما لا يعني أننا ندرس وجوه الشبه والاختلاف في الأسلوب بين ابن المقرب وذي الرمة دون غيره من الشعراء، ولكن ظهور هذه السمة التقليدية في شعره، وبخاصة في اختيار الغريب وعمق الأسلوب ومتانته على طريقة ذي الرمة في كافيته يدل على صدق ما ذهبنا إليه من شغف ابن المقرب وولعه بإبراز موهبته وحذقه في اللغة العربية، وتضمين المفردات الغريبة في أسلوبه، متابعةً وتقليداً لسابقيه من فحول الشعراء، وغالباً ما يكون ذلك في المدائح والمقدمات الطللية والغزل التقليدي، أما في أغراضه الذاتية التي يعبر فيها عن مشاعره وأحاسيسه الصادقة بعيداً عن التكلف والتقليد فإن أسلوبه فيها يميل في الغالب إلى الواقعية والبساطة والسهولة دون إغراب أو تقعُّر، كما في الشكوى والعتاب والحماسة والفخر والحكمة ومن ذلك قوله:

عَفَاءٌ عَلَى البَحْرَين لو قِيلَ أَيْنَعَتْ ... زَنَابيرُ وَادِيهَا وجَادَتْ زُرُوعُهَا
فَهَلْ ذَاكَ إلاَّ لِلعَدُوِّ وعُصْبَةٍ ... سَيَشْقَى بهَا مَتْبُوعُها وتَبُوعُهَا
لَقَدْ صَدَّعُوا عَمْداً عَصَاهَا فَلاَ الْتَقَتْ ... وَلاَ الْتَأَمَتْ إلاَّ عَلَيهِمْ صُدُوعُهَا
فإن رَضِيَتْ قَومي بِنَقْصِي فَلِي غِنىً ... بِنَفْسِي وجَلاَّبُ المَنَايَا دَفُوعُهَا
عَلَيَّ لَهَا سَعْيُ الكِرَامِ فإنْ أَمُتْ ... فَوَهَّابُهَا سَلاَّبُهَا ونَزُوعُهَا[1]

(1) الديوان ص ٢٥٧ والزنابير: نوع من الشجر جمع زنبار، ويروى البيت: دنانير واديها. وفي حاشية الطبعة الهندية: والدنانير وقد يقولون الزنابير: نخل من بواكير نخل الأحساء واحدها دينور.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

مكانته بين الشعراء

لقد شهد الشعر في عصر ابن المقرب فتوراً وضعفاً إذا قيس بفترة ازدهاره وقوته في القرون الأولى من العصر العباسي في عصر أبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم . فقد اتجه الشعراء في عصر الشاعر إلى تغليب المحسنات اللفظية والغلو في المبالغات، مع تحلل بعضهم من أوزان الشعر القديم إلى أشكال متحررة كالموشحات والأزجال، واتجهت القرائح إلى المدائح النبوية والأدعية وشعر التصوف[1] .

ولو ذهبنا نقوِّم شعر ابن المقرب على ضوء هذه الظواهر التي طغت في عصره لوجدناه أقرب إلى نهج فحول الشعراء الأوائل، وأبعد عن طريقة شعراء عصره، وأكثر التزاماً بمذهب المتقدمين كما شهد له بذلك معاصروه كابن الشعَّار الموصلي وغيره.

ولعل ظهور ابن المقرب في منطقة البحرين البعيدة عن تأثيرات الحياة الاجتماعية في العراق والشام ومصر، ونشأته في مجتمع أقرب ما يكون إلى المجتمع البدوي المتمسك بعاداته وتقاليده الأصلية هو سبب التزامه بمذهب المتقدمين وسيره على نهجهم من حيث الصبغة العامة لأساليبه ومعانيه، وإلّا

(١) انظر ما تقدم ص ٥٥.

فإن رحلاته إلى العراق قد جرَّته إلى متابعة شعراء عصره نوعاً ما وبخاصة في مظاهر المبالغة والإسراف في المديح مع أن هذه ظاهرة عامة في العصر العباسي كله.

ولكي يتضح لنا مكان ابن المقرب بين شعراء عصره فسنقارن بينه وبين ثلاثة شعراء يمثل اثنان منهم شعراء العراق والشام ومصر، ويمثل الثالث شعراء الجزيرة العربية. وقد وقع الاختيار على هؤلاء الثلاثة دون غيرهم لما يتوافر فيهم من مظاهر التشابه والتوافق مع شاعرنا بوجه أو بآخر، مع التركيز كذلك على وجوه الاختلاف بينهم وبينه حتى تكون الصورة واضحة قدر المستطاع.

١ ـ ابن عُنين:

هو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن علي بن محمد بن غالب المعروف بابن عُنين. ويتصل نسبه بالأنصار، وكان آباؤه الأولون قد رحلوا من المدينة إلى الكوفة ثم إلى حوران بالشام حيث عرفوا هناك ببني غالب.[1]

ولد ابن عنين بدمشق سنة **٥٤٩** هـ، ونشأ بها وتتلمذ على شيوخها في الجامع الأموي، وظهرت شاعريته وهو ابن ست عشرة سنة في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وكان والده فقيراً فحاول كسب العيش بمدح الأمراء والسلاطين، ولكن الملك العادل كان يقرب العلماء الأتقياء ولا يقبل من الشعراء، فكان ذلك عاملاً مهماً في توجيهه إلى الهجاء والسخرية من الناس والسلاطين والحكام. ولما توفي الملك العادل واستقام الأمر بعده

---

(١) انظر ديوان ابن عنين ص ٣ من المقدمة تحقيق خليل مردم بك مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ مطبعة دمشق ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م.

للسلطان صلاح الدين الأيوبي لم يحاول الشاعر التقرب إليه أو إلى رجال دولته بل راح يسخر منهم، حتى بلغ به الأمر أن سخر من السلطان صلاح الدين نفسه ومن بعض أعوانه الذين أقنعوا السلطان بنفيه، فأمر بإخراجه إلى حيث يشاء من البلاد، فذهب هائماً على وجهه في بلاد الشام والعراق، ثم رحل إلى أذربيجان وخراسان وخوارزم، ثم إلى الهند فمكث بها فترة، لكنه مل المقام بهاورحل إلى اليمن، وكان واليها يومئذ الأمير سيف الإسلام أخو صلاح الدين فأكرم وفادته وأجزل له العطاء، فمدحه بقصائد ضمّنها شوقه وحنينه إلى دمشق، وكان في هذه الفترة يتردد بين اليمن والحجاز ومصر، ثم استقر به المقام في مصر إلى أن توفي السلطان صلاح الدين سنة **٥٨٩**هـ، فلما استقرت الأمور للملك العادل أخي صلاح الدين عزم على العودة إلى بلده، فكتب قصيدة للعادل يستعطفه ويستأذنه في الرجوع إلى دمشق، فرقّ لحاله وأذن له وكان يمدح الملك العادل وأولاده من بعده حتى بلغ منزلة عالية عند الملك المعظم بن العادل، وتوفي في دمشق على عهد الملك الأشرف ابن العادل سنة ٦٣٠هـ.

أما مكانته الأدبية فقد علت في الآفاق حتى سماه المصريون شاعر الشام.[١]. وكان الشعراء يحتكمون إليه في أي خصام أدبي أو خلاف نقدي[٢]. ويتسم شعره بالجزالة والقوة وحسن السبك وسلامة اللغة بشكل عام. كان بارعاً في الهجاء والسخرية وقحاً بذيئاً لا يتورع عن نهش الأعراض، ويضم ديوانه مدائح للأيوبيين، أجودها مدائحه للعادل وأضعفها مدائحه للأشرف، وأجمل شعره شوقه وحنينه إلى دمشق وشكواه من الغربة **والبعد عن وطنه ، كما يضم ديوانه بعض الوقائع والحوادث التي ترسم صورة للحياة**

(١) انظر ديوان ابن عنين ص ١٢ من المقدمة.

(٢) انظر أدب الدول المتتابعة للدكتور عمر موسى باشا ص ٣٧٢ دار الفكر الحديث الطبعة الأولى - ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧م.

في عصره بالإضافة إلى بعض الأحاجي والألغاز(١).

وبعد هذا التعريف بابن عنين وشعره فسنحاول التعرف على وجوه التشابه والتقارب بينه وبين ابن المقرب، وهي تتمثل فيما يلي:

١ ـ كل منهما شديد العصبية للعرب، يرفع مقام العرب الخُلَّص ولا يرى لغيرهم مجداً أو رفعة، ويعيب أبناء الإماء والمولدين، وقد ضمَّن كل منهما شعره بيتاً يدل على هذه العصبية. حيث يقول ابن عنين(٢):

فـفـألْفَيْتُهُ يَهْـوَى النَّـدَى فَتَـرُدُّهُ عُروقٌ إلى أَخْوَالِهِ الزُّرْقِ تَنْتَمي
إذَا أَيْقَـظَتْـهُ نَخْـوَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ إلى المَجدِ قَالَتْ أَرْمَنِيَّتُـهُ: نَمِ

ويقول ابن المقرب:(٣)

تَسَلْطَنَ بـالحَـدْبَـاءِ عَبـدٌ بلُؤْمِـهِ بَصِير بلاَ عَنْ نَيل مَكْرُمَـةٍ عَمِ
إذَا أَيْقَـظَتْـهُ لَفْـظَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ إلى المَجـدِ قَـالَتْ أَرْمِنَيَّتُهُ: نَمِ

٢ ـ كل منهما متمكن من اللغة العربية بارع في الغوص على دررها رغم ما يقعان فيه من بعض التجاوزات سواء كانت ألفاظاً عامية كما في شعر ابن عنين، أو ضرورات شعرية كثيرة كما في شعر ابن المقرب.(٤)

٣ ـ كل منهما كثير المدح، ويؤخذ على مديحهما ترديد بعض المعاني والوقوع في التشابه والتكرار(٥).

٤ ـ كل منهما مدح الملك الأشرف بن العادل وأشار إلى وقائعه مع

(١) انظر ديوان ابن عنين ص ٢٤ من المقدمة.

(٢) ديوان ابن عنين ص ٢١٦.

(٣) الديوان ص ٥٠٥ وهما مسبوقان إلى معنى البيت الثاني فقد قيل في خالد بن عبد الله القسري (انظر ديوان ابن عنين ص ٢١٦).

(٤) انظر ديوان ابن عنين ص ٢٥ و٢٦ من المقدمة وانظر ما تقدم ص ٣٧٥.

(٥) انظر ديوان ابن عنين ص ٣١ من المقدمة وانظر ما تقدم ص ٣١٦.

الإفرنج وأثنى على شجاعته وإقدامه(١).

٥ ـ كلاهما مقلٌ في الرثاء فليس للأول سوى ثلاث قصائد وللثاني مثلها(٢).

٦ ـ كل منهما ذاق مرارة الغربة وشفَّه الحنين إلى بلده ومرابع صباه .

وتبعاً لهذه المظاهر التي يتشابهان فيها فإن كثيراً من المعاني التي تطرقا إليها تتقارب بصورة أو بأخرى، وبخاصة فيما يتعلق بالسفر والترحال والشوق إلى الأهل والديار، والتجلد والصبر على حياة التشرد والبعد عن الأوطان . وسنقف عند بعض الأبيات للشاعرين في هذا المقام لنرى من خلالها ملامح الاتفاق والاختلاف.

يعجب ابن عنين وهو يخاطب الملك العادل في قصيدته التي يستعطفه فيها من حرمانه وإبعاده دون الناس جميعاً ممن يتمتعون بقربه وعطفه:

ومِنَ العَجَـائِبِ أَنْ تَفَيَّـأَ ظِلَّكُمْ　　　كُلُّ الوَرَى ونُبِذْتُ وَحْدِي بالعَرَا(٣)

وها هو ابن المقرب يخاطب ابن عمه ويبدع في التعبير عن هذا المعنى والتعجب من هذا الواقع المرِّ التعيس:

تَرِدُ الكِلابُ الوَاسِعِيَّةُ حَـوْضَكُمْ　　　وأُذَادُ عنـهُ كَمَـا يُـذَادُ الأَجْـرَبُ
وتُجلِّنِي أُسْدُ الشَّرَى في أَرْضِها　　　وبأَرضِكُمْ يَسْطُو عَلَيَّ الثَّعْلَبُ(٤)

وغير خاف أن ابن المقرب قد وفِّق في تصوير حاله في بلده بهذا المعنى أكثر من ابن عنين حين استخدم التشبيهات والاستعارات المقبولة المناسبة،

---

(١) انظر ديوان ابن عنين ص ٣٣ من المقدمة وانظر ما تقدم ص ٢٨٨ .
(٢) انظر ديوان ابن عنين ص ٣١ من المقدمة وانظر ما تقدم ص ٢٩١ .
(٣) ديوان ابن عنين ص ٨.
(٤) الديوان ص ٩٠ وانظر ما تقدم ص ٣٨٠.

وهو ما يترك أثره السريع في نفس السامع ويدفعه إلى التعاطف مع الشاعر.

وبما أن الشاعرين قد اشتركا في مصير واحد ، وهو التشرد والبعد عن الوطن فإن حديثهما عن الدهر ظاهرة بارزة في شعرهما، ولكنها في شعر ابن المقرب أكثر ظهوراً حتى غدت سمة من سمات الشكوى والعتاب في شعره كما رأينا[١]. وهما يجتمعان في الفخر بتجاربهما مع صروف الزمان ولا ينفكان يزهوان بصبرهما على نوائب الدهر وخطوبه. فابن عنين يذكر تجربته مع الدهر واغترابه في الليل البهيم تحدوه همته وعزمه الذي لا يلين:

حَلَبتُ شُطُورَ الدَّهْرِ يُسْراً وعُسْرةً ... وجَرَّبتُ حَتَّى حَنَّكَتْنِي التَّجَارِبُ
فَكَمْ لَيلَةٍ قَدْ بِتُّ لا البَدْرُ مُشْرِقٌ ... يُضِيءُ لِرَائِيهِ ولا النَّجْمُ غَارِبُ
شَقَقْتُ دُجَاهَا لا أَرَى غَيرَ هِمَّتِي ... أَنِيساً ولا لي غَيرُ عَزْمِيَ صَاحِبُ[٢]

كما يفخر بصموده في وجه المصاعب والمحن حتى يخرج منتصراً:

كَمْ مَدَّ صَرْفُ الدَّهْرِ نَحْوِي كَفَّهُ ... لِـظُلاَمَةٍ فَثَنَاهُ عَنِّي أَجْـذَمَـا
وَرَنَـا إِليَّ بِعينِـهِ شَـزْراً فَمَـا ... أَغْضَى بِهَا إلاّ وإِثْمِدُهَا العَمَى[٣]

وابن المقرب هو الآخر قد حلب الدهر أشطره ، وعرف حلوه ومرَّه:

ولَقَدْ حَلَبْتُ الدَّهْـرَ أَشْطُرَ نَـابِهِ ... وعَرَفْتُ ما يُبْـدِي وَمَا يَتغَيَّبُ[٤]

وإذا كان ابن عنين قد شق دُجَى الليل لا يرى له أنيساً إلا عزمه فإن ابن المقرب يستقبل الخطوب بعزم ثاقب ورأي صائب.

وأَسْتَقْبِلُ الخَطْبَ الجَلِيلَ بِثَاقِبٍ ... مِنَ العَزْمِ يَعْلُو لاَهِبَ النَّارِ لاهِبُهْ

---

(١) انظر ما تقدم ص ٢١٣ .
(٢) ديوان ابن عنين ص ٣٥.
(٣) الديوان ابن عنين ص ٧٩.
(٤) الديوان ص ٨٦.

ورأيٍ مَتى جَـرَّدْتُـهْ وانْتَضيتُـهُ   وَجَدْتُ حُساماً لم تُفَلَّلْ مَضارِبُهْ[1]

وإذا كان الدهر قد رنا إلى ابن عنين فكحّل عينه بالعمى كما يقول فإن الحادثات تنظر إلى ابن المقرب كما ينظر الأرمد إلى الشمس في رابعة النهار:

تَـرْنُو إليَّ الحَـادِثَـاتُ كَمَـا رَنَـا   ظُهْراً إلى الشَّمسِ المُنِيرَةِ أَرْمَدُ[2]

ويقف الشاعران موقفاً واحداً وهما يصوران اعتذار الدهر منهما، وهو مظهر من مظاهر الشكوى والاستعطاف بين يدي الممدوح فيقول ابن عنين:

فأَصْبَحَ الدَّهْرُ ممَّـا كَانَ أَسْلَفَـهُ   إليَّ في سَـالِفِ الأَيَّامِ مُعْتَـذِرَا
وَذَادَ عَنِّي الرَّزَايَا حِينَ أَبْصَـرَنِي   بِعِزَّةِ الأَمْجَدِ السُّلطَانِ مُنتَصِرَا[3]

ويقول ابن المقرب:

اللهُ أَكْبَـرُ جَـاءَ الـدَّهْـرُ مُعْتَـذِراً   إلَيَّ يَسْـأَلُنِي العُـتْبَـى ويَبْـتَهِــلُ
وقَبْلُ كَمْ سَامَنِي خَسْفاً وأَلْزَمَنِي   ما لَيسَ لي نَاقَةٌ فِيهِ وَلَا جَمَلُ[4]

كما يشكران الحوادث والأسباب التي أوصلتهما إلى رحاب ممدوحيهما فيقول ابن عنين:

وَلَأَشْكُـرَنَّ حَـوَادِثـاً قَـذَفَتْ بِـآ   مَالِي إلى المَلكِ الهُمَامِ الأَرْوَعِ[5]

ويقول ابن المقرب:

(١) الديوان ص ٥٢.

(٢) الديوان ص ١٦٣.

(٣) الديوان ابن عنين ص ٥٦.

(٤) الديوان ص ٤٤٠.

(٥) ديوان ابن عنين ص ١٣.

وَشَكَـرْتُ حَادِثَـةً أَرَتْنِي وَجْهَهُ ... لَو كَانَ نَزْعُ الرُّوحِ مِنْهَا أَسْهَلاَ[1]

والفارق بين هذين التعبيرين هو ذلك الأسف والشعور بالخجل الذي يبديه ابن المقرب وهو يشكر الحادثة التي كانت سبباً في مجيئه لممدوحه، حتى بدا مبالغاً في تقدير ندمه وأسفه، أما ابن عنين فإن شكره للحوادث مطلق دون حياء أو ندم.

وإن عزة النفس وإباء الضيم ظاهرة بارزة أيضاً في شعر ابن المقرب كما رأينا في أغراض شعره، ولو ذهبنا نتلمس هذه الظاهرة في شعر ابن عنين لوجدناها مرتبطة بالحنين والشوق إلى الديار. فها هو يذكر رحيله عن بلاده وأهله وقد برح به الحنين إلى دمشق ، ولكنه يستسهل الغربة والترحال حفاظاً على كرامته وبُعداً عن مرتع المذلة :

حَنِينٌ إلى الأَوْطَـانِ لَيسَ يَزُولُ ... وقَلبٌ عَنِ الأَشْوَاقِ لَيسَ يَحُولُ
دِمَشْقُ فَبِي شَـوقٌ إليهـا مُبَـرِّحٌ ... وإن لَـجَّ وَاشٍ أَوْ أَلَـحَّ عَـذُولُ
وفي كَبِـدِي مِنْ قَاسِيُـونَ حَزَازَةٌ ... تَـزُولُ رَوَاسِيــهِ ولَيسَ تَــزُولُ
وَوَاللهِ مـا فَـارَقْتُهَـا عَنْ مَـلاَلَـةٍ ... سِوَايَ عَنِ العَهْدِ القَدِيمِ يَحُولُ
وَلَكن أبت أنْ تَحْمل الضيمِ هِمَّتِي ... وَنَفْسٌ لَهَا فَوْقَ السِّمَـاكِ حُلُولُ
فإنَّ الفَتَى يَلْقَى المَنَايَـا مُكَرَّمـاً ... وَيَكْرَهُ طُولَ العُمْرِ وَهْوَ ذَلِيـلُ[2]

وأما في شعر ابن المقرب فإن ظاهرة الاعتزاز بالنفس وإباء الضيم تبدو أكثر اندفاعاً وقوة في رفض الظلم والهوان ، حتى يبدو الشاعر وكأنه مستعد للتخلي عن وطنه في سبيلها، وقد ترتبط أحياناً بالبراءة من الديار والإصرار على هجرها والبعد عنها كما في قوله:

لِي عَنْ دِيَارِ الأَذَى والهُونِ مُتَّسَعٌ ... ما كُلُّ دَارٍ مَنَاخُ الوَيلِ والحَرَبِ

---

(١) الديوان ص ٤٢٣.

(٢) ديوان ابن عنين ص ٦٨. وقاسيون: جبل دمشق المطل عليها من الجهة الشمالية.

لا تَنْسِبُونِي إلى مَنْشَايَ بينَكُمُ التُّرْبُ تُرْبٌ وفِيهِ مَنْبتُ الذَّهَبِ
لا تَحْسَبُوا بُغْضِيَ الأَوْطَانَ عَنْ مَلَلٍ لا بُدَّ لِلْوُدِّ والبِغْضَاءِ مِنْ سَبَبِ
قُلٌ وذُلٌّ وخِذْلاَنٌ وضَيْمُ عِدىً مُقَامُ مِثلِي عَلَى هَذَا مِنَ العَجَبِ
إذا الدِّيَارُ تَغَشَّاكَ الهَوَانُ بِهَا فَخَلِّهَا لِضَعِيفِ العَزْمِ واغْتَرِبِ[1]

كما نلاحظ أيضاً أن هذه الظاهرة في شعر ابن المقرب ترتبط كثيراً بمعاني الطموح والحماسة والتوثب لنيل العلا:

مَتى لَمْ أَضِقْ ذَرْعاً بأَرْضٍ فإنَّنِي لَدَى الهم جَوَّابُ المَوَامِي ذَرُوعُها
يُشَيِّعُنِي قَلبٌ إلى العِزِّ تَائِقٌ وَنَفْسٌ إلى العَلْيَا شَدِيدٌ نُزُوعُهَا
سَأُنْزِلُهَا المَلْحُودَ أو رَأْسَ هَضْبَةٍ من العِزِّ يُعْيِي كُلَّ رَاقٍ طُلُوعُهَا[2]

وهي مشاعر جياشة قوية لا نجد ابن عنين يصل إليها في مثل هذا التدفق والاندفاع، وبمثل هذه الغزارة التي نجدها في ديوان ابن المقرب رغم الظروف المشتركة التي جمعت بينهما من غربة وتشرد ، ورغم تشابه تصرفاتهما في رحلاتهما، فكل منهما زار العراق ولم يطب له المقام فيه فلم يُخفِ ملله من العيش فيه بعيداً عن وطنه. يقول ابن عنين:

سَقَى اللهُ دَوْحَ الغُوْطَتينِ وَلا ارْتَوَى مِنَ المَوصِلِ الحَدْباءِ إلاّ قُبُورُهَا[3]

ويقول ابن المقرب يعاتب بني عمه:

فَلَولاَ هُمُ واللهُ يَعْلَمُ ذلِكُمْ لَمَا فَاهَ لِي بالمَدْحِ في النَّاسِ مِقْوَلُ
وَلاَ حُطَّ بالفَيْحَاءِ رَحْلِي ولا رَأَتْ قُرَى ظَاهِرِ الزَّوراءِ شَخْصِي وإرْبلُ[4]

(١) الديوان ص ٧٥.

(٢) الديوان ص ٢٥٨.

(٣) ديوان ابن عنين ص ١٦ وورد في حاشيتها أن ابن عنين سئل عن سبب استثنائه قبور الموصل فقال: لأجل أبي تمام، وذلك لأنه مدفون بها.

(٤) الديوان ص ٤٢٨. والفيحاء: البصرة، والزوراء: بغداد، وإربل: بلدة قرب الموصل تعرف الآن باسم أربيل.

ومهما أظهر الشاعران من ملل وضيق بحياة الغربة والتشرد فإننا نستطيع أن نستخلص من قصة حياتهما وشعرهما أن ابن المقرب كان أكثر صبراً وتحملاً للمشاق والصعاب. فقد علّمته المصائب في الأحساء من سجن ومصادرة أموال وأملاك وهوان في نفوس أبناء عمه كيف يقف في وجهها بجلد وصبر عظيمين:

فِـرَاقُ أَحِـبَّـةٍ وَذَهَـابُ مَـالٍ   وضَـيْـمُ أَقَـارِبٍ جَـارِ
فـلا واللهِ مَـا وَجْـدٌ كَـوَجْـدِي   ولا عُرِفَ اصْطِبَارٌ كاصْطِبَارِي[1]

ولذلك فإننا نراه كثير الترحال إلى العراق رغم ما لقي فيه أيضاً من عناء ومشقة ولكن طموحه كان يحدوه دائماً إلى الرحيل:

آلَيْتُ أَنْفَكُّ مِنْ حِلٍّ ومُرْتَحَلٍ   أَوْ أَنْ تَقُولَ لِيَ الآمَالُ خُذْ وَدَع
لا صَاحَبَتْنِي نَفْسٌ لا تُبَلِّغُنِي   مَرَاتِبَ العِزِّ لَوْ في نَاظِرِ السَّبُعِ[2]

أما ابن عنين فإننا لا نجد له هذا الصبر والعناد والإصرار والحماسة، بل نراه يَمَلّ كل بلادٍ حل بها، ويسأم من المقام فيها وهو يعبّر عن ذلك بقوله:

غَرِيبٌ إذَا مَا حَلَّ مِصْراً أَبَى لَهُ   وَشِيكُ النَّوَى إلاّ ارْتِحَالاً إلى مِصْرِ[3]

فقد مر ابن عنين ببلاد كثيرة في العراق وفارس وما وراء النهر ثم الهند واليمن ومصر فكان دائم الشكوى والضجر من هذه البلاد، وها هو يدعو على بلاد الهند بما ينم عن كرهه لها:

وإِذَا سَقَى اللهُ البِلَادَ فَلَا سَقَى   بَلَدَ الهُنُودِ سِوَى الصَّواعِقَ والدِّمَا[4]

ولما رحل إلى صنعاء ضاق بها ذرعاً واشتاق إلى بلده رغم إكرام واليها له:

---

(١) الديوان ص ٢١٥.
(٢) الديوان ص ٢٧٣.
(٣) ديوان ابن عنين ص ٢٩.
(٤) ديوان ابن عنين ص ٧٩.

وَهَلْ نَـافِعِي أنَّ البِـلَادَ كَثِيـرَةٌ　　أُطُوفُ بِها والْقَلْبُ بالشَّامِ مُرْتَهَنْ
وَمَا كُنْتُ بالرَّاضِي بِصَنْعاءَ منزلاً　　وَلَوْ نِلْتُ مِنْ غُمْدَانَ مُلْكَ ابْنِ ذِي يَزَنْ(١)

وأخيراً فإننا نقف عند ظاهرة المطالع الحماسية التي نجدها في قصائد ابن المقرب صورة لما يفعله المتنبي. فكثيراً ما يبتدىء ابن المقرب مدائحه بالحماسة أو الفخر، أما ابن عنين فإنه يبدأ قصائده وبخاصة المديح بالغزل والتشبيب غالباً ولا نجد له من المطالع الحماسية إلا القليل كقوله:

صَلِيلُ المَوَاضِي واهْتِزَازُ القَنَا السُّمْرِ　　بغَيرِهِمَا لا يُجْتَنَى ثَمَرُ النَّصْرِ(٢)

ونحن نجد في شعر ابن المقرب مقابل هذا المطلع مطالع كثيرة تنبىء عن روح الحماسة والفخر المتأصلة في نفسه كقوله:

لا عِزَّ إلاّ بِحَدِّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ　　وَضَرْبِكَ الصِّيدَ بَينَ الهَامَ والقَصَرِ(٣)

وقوله:

منالُ العُلاَ بالمُرْهَفَاتِ القَوَاضِبِ　　وسُمْرِ العَوَالِي والعِتَاقِ الشَّوَازِبِ(٤)

وقوله:

بِسُمْرِ القَنَا والمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ　　بِنَاءُ المَعَالِي واقْتِنَاءُ المَكَارِمِ(٥)

ولعلنا بعد هذه المقارنات العابرة قد أدركنا تكافؤهما من الناحية الفنية، فكلاهما جيد الشعر رصين الأسلوب جزل المعاني، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نرجح شعر ابن المقرب لوجود الفوارق التالية:-

---

(١) ديوان ابن عنين ص ٧٨ وغمدان: قصر في صنعاء وابن ذي يزن: هو سيف بن ذي يزن أحد ملوك اليمن، وهو الذي طرد الأحباش منها.

(٢) ديوان ابن عنين ص ٢٩.

(٣) الديوان ص ٢٢٩.

(٤) الديوان ص ٤٧.

(٥) الديوان ص ٥١١.

١ ـ ابن المقرب صاحب نتاج أدبي وفير، وذو نَفَسٍ شعري طويل لم يصل إليه ابن عنين[1]

٢ ـ ابن المقرب شاعر ذاتي في أكثر نتاجه الأدبي الذي يغلب عليه الشكوى والعتاب، أما ابن عنين فيمكن أن يعد شاعراً ذاتياً في شوقه وحنينه إلى دمشق ، وهو شعر لا يمثل نسبة كبيرة في ديوانه[2].

٣ ـ ابن المقرب شاعر مقِلٌّ في الغزل ، وإذا تغزل فإنه يلتزم بالمقدمات التقليدية مع السموِّ والترفع. أما ابن عنين فإن غزله فاحش مكشوف وبخاصة غزله في الغلمان[3].

٤ ـ ابن المقرب أمير شاعر كان يترفع عن التكسب بشعره حفاظاً على منزلته بين قومه وعشيرته، ولم يلجأ إلى طلب الرفد إلا نادراً تحت وطأة الحاجة والفاقة. أما ابن عنين فليست له هذه المنزلة، ومن ثمَّ فإنه لا يرى ما يمنعه من التكسب بالشعر.

٥ ـ رغم أن ابن المقرب بارع في الهجاء والسخرية فهو مُقلٌّ في هذا الغرض مترفع عنه، ولم يلجأ إلى الفاحش منه إلا في قصيدتين فقط في ظروف معينة[4]. أما ابن عنين فهو شاعر ماجن كثير الهجاء يشبه أبا نواس في مجونه وفسقه، ولا يتحرج عن الهجاء الوقح البذيء ونهش الأعراض بمعان لم يصل إليها الحطيئة ولا ابن الرومي ولا غيرهما من الهجّائين.[5].

---

(١) تبلغ أبيات ابن عنين في ديوانه ألفي بيت تقريباً في ٢٤٠ صفحة ، وكثير من قصائده لا يتعدى ٣٠ بيتاً ، أما ابن المقرب فتبلغ أبياته أكثر من خمسة آلاف ومائتي بيت وأكثر قصائده ما بين السبعين إلى الثمانين بيتاً .

(٢) تبلغ أبيات ابن عنين في الحنين إلى دمشق مائة وواحداً وتسعين بيتاً (انظر ديوانه من ص ٦٨ إلى ٩).

(٣) انظر ديوان ابن عنين ص ١١٠

(٤) انظر ما تقدم ص ٢٧٦ .

(٥) انظر ديوان ابن عنين ص ١٨ و٢٨ من المقدمة .

٢ ـ سبط ابن التعاويذي

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله. وكان أبوه مولى لبني المظفر، وهو سبط أبي محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الجوهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي ، ونسب إليه لأنه كفله وهو صغير . وقد ولد سبط ابن التعاويذي سنة ٥١٩ هـ ، وكان كاتبا بديوان المقاطعات ببغداد ، وقد عمِي في آخر عمرة فكان يندب حظه ويشكو زمانه ويرثي عينيه ، وقد التمس من الناصر لدين الله أن يجري راتبه لأولادت ففعل ، توفي ببغداد سنة ٥٨٤ هـ وقيل سنة ٥٨٣ هـ[١] .

جمع الشاعر ديوانه ، وأكثر شعره مديح للعباسيين ورجال دولتهم وسواهم من الأعيان، وله قصائد أخرى في الشكوى والتحسر بعد أن ذهب بصره، وله قصائد في الهجاء وأخرى في عتاب بعض أصدقائه وغيرها في أغراض متفرقة. وقد جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها كما يرى ابن خلكان الذي فضّله على غيره من الشعراء بعد المتنبي بقوله: « وفيما اعتقده لم يكن بمائتي سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذني من يقف على هذا الفصل فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل : وللناس فيما يعشقون مذاهب[٢] » .

ولعلنا بعد هذه الترجمة الموجزة لابن التعاويذي نتلمس وجوه الشبه بينه وبين شاعرنا ابن المقرب. وهي تتمثل في نظري بما يلي :

١ ـ لكل منهما شعر ذاتي يمثل صدق عواطفه وأحاسيسه. فقد ابتلي الأول بالعمى فراح يشكو زمانه ويندب حظه، كما ابتلي الثاني بالسجن ومصادرة الأموال والاغتراب عن الوطن، فراح يشكو صروف الدهر ويعاتب بني عمه وعشيرته.

٢ ـ كل منهما امتدح الخلفاء العباسيين وبخاصة الناصر لدين الله فكان الأول

---

(١) انظر ديوان سبط ابن التعاويذي بتصحيح مرجليوت الأستاذ بجامعة إكسفورد ـ مطبعة المقتطف بمصر ـ ١٩٠٣ ص ٨.

(٢) انظر المصدر السابق ص ٨.

يستعين بهم على حوائجه، وكان الثاني يستعين بهم على رد مظلمته وإنصافه وعونه.

٣ - كل منهما غزير الشعر طويل النَّفَس ولا سيما في المديح، ولكنهما وقعا في تكرار بعض المعاني وتشابه الأسلوب والرتابة.

واستكمالاً لوجوه التقارب هذه فسنختار من ديواني الشاعرين بعض الأبيات التي تنبع في معانيها وأسلوبها من نبع واحد تقريباً، مع المقارنة بينهما في بعض الأغراض والصور الشعرية.

يقول سبط ابن التعاويذي مبتدئاً قصيدة يمدح بها المستضيء بأمر الله سنة ٥٧٢ هـ.

خَجِلَتْ مِنْ عَطَائِكَ الأَنْوَاءُ   وَتَجَلَّتْ بِنُورِكَ الظَّلْمَاءُ
واسْتَجَابَتْ لَكَ المَمَالِكُ إذْعَا   ناً وفيهَا عَلَى سِوَاكَ إبَاءُ
وأَهَنْتَ المَالَ العَزِيزَ عَلَى غَيْـ   ـرِكَ حَتَّى اسْتَوَى الثَّرَى والثَّرَاءُ[1]

ويقول ابن المقرب مبتدئاً إحدى مدائحه:

بِمُعَادِيكَ لابِكَ الأَسْوَاءُ   ولِحُسَّادِكَ الثَّرَى لا الثَّرَاءُ
ولَكَ النَّاسُ والبِلَادُ ومَنْ   جَادَ وأَكْدَى مِنْ كُلِّ سُوءٍ فِدَاءُ[2]

فقد تشابه أسلوب الشاعرين هنا حتى بدا الثاني وكأنه قد أخذ من الأول، ولكن الاختلاف يبدو في تلميح الأول بطلب العطاء مع المبالغة في إطرائه وهما أمران لا نجدها في البيتين الأخيرين لابن المقرب.

ويقول سبط ابن التعاويذي في إحدى مدائحه شاكياً زمانه:

وأَسْلَمَنِي الزَّمَانُ إلى هُمُومٍ   يَشِيبُ لِحَمْلِ أَيْسَرِهَا الغُرَابُ

(١) المصدر السابق ص ١.
(٢) الديوان ص ٢٣.

وأَلْجَأَنِي إلى اسْتِعْطَافِ جَانٍ أُعَاتِبُهُ فيُغرِيهِ العِتَابُ
إلى كَمْ تَمْضَغُ الأَيَّامُ لَحْمِي ويَعْرُقُنِي لها ظُفرٌ ونَابُ
تُقَارِعُنِي خُطُوبٌ صَادقَاتٌ وتَخْدَعُنِي مَوَاعِيدٌ كِذَابُ[1]

ويقول ابن المقرب بهذا المعنى:

وأَسْلَمَنِي الشَّقَاءُ إلى زَمَانٍ مَصَائِبُهُ كَمَا انْهَلَّ الغَمَامُ
نَهَارٌ لا أُسَرُّ بِهِ ولَيلٌ يَنَامُ بِهِ السَّلِيمُ ولا أَنَامُ
تَلاَعَبُ بِي خَوَاطِرُ من هُمُومٍ كَمَا لَعِبَتْ بِشَارِبِهَا المُدَامُ[2]

ويقول ابن المقرب أيضاً:

تَمْضَغُ الأَيَّامُ لَحْمِي عَبَثاً لَيسَ بَعدَ المَضْغِ غَيرُ الازْدِرَادِ[3]

إنها صور جميلة أبدع الشاعران في صياغتها بسهولة وعفوية للتعبير عن حسرتهما وشكواهما. وفي ظني أن ابن المقرب أكثر إبداعاً وأصدق عاطفة وهو يصور الهموم تلعب بعقله كما تلعب الخمر بعقل مدمنها، أو يصف سهره في ليل نام فيه كل الناس حتى اللديغ الذي يقاسي الآلام.

ويقول ابن التعاويذي منكراً ركونه إلى المذلة وهو يحث نفسه على السعي في الأرض وطلب الرزق:

فكَيفَ رَضِيتُ دَارَ الهُونِ دَاراً ومِثْلِي لا يُرَوِّعُهُ اغْتِرَابُ
مُقِيماً لا تَخُبُّ بِيَ المَطَايَا ولا تَخْدِي بآمَالِي الرِّكَابُ
كأَنَّ الأَرضَ ما اتَّسَعَتْ لِسَاعٍ مَنَاكِبُهَا ولا لِلرِّزْقِ بَابُ
لَحَا اللهُ المَكَاسِبَ والمَسَاعِي إذَا أَفْضَى إلى الضَّرْعِ اكْتِسَابُ[4]

---

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٣٧.
(٢) الديوان ص ٥٦٤.
(٣) الديوان ص ١٧٩.
(٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٣٧.

ويقول ابن المقرب منكراً على نفسه المقام في دار الهوان:

كَـأَنِّي لأَحْـدَاثِ اللَّيَـالِي رَذِيَّـةٌ ... أُقِيمَتْ سَبِيلاً للخُطُوبِ الهَوَاجِمِ
وفِي الأَرضِ لي مَنْدُوحَةٌ ومُرَاغَمٌ ... تَقَـرُّ بِـهِ عَينِي وتَحْلُو مَـطَاعِمِي
بِحَيثُ يَرَانِي الدَّهْرُ سَعْداً وأَغْتَدِي ... وقَدْ حُذِيَتْ رِجْلاَيَ منهُ بِسَالِمِ[1]

ويقول:

لَحَا اللهُ دَهْرَاً أَلْجَـأَتْنِي صُرُوفُـهُ ... إلى حَيثُ يُلْغَى حَقُّ مِثلِي ويُهْمَلُ[2]

إن طموح ابن المقرب وتطلعه إلى المجد بروح حماسية متوقدة عزّزها بالاغتراب والارتحال رافضاً الظلم والمهانة هو أجود من ملل ابن التعاويذي وضيقه من واقعه الذي يعيش فيه، لأن هذا الملل والضيق لم يدفعاه إلى الغربة وهجر بلده كما فعل ابن المقرب. إن جل اهتمام ابن التعاويذي هو في الحصول على العيش الرغيد منتظراً ما يجود به ممدوحه مقابل كل مديح:

أَيَجُوزُ أَنْ أَغشَى حِمَاكَ فَـأَنْثَنِي ... صِفْراً يَدِي وَيَدَاكَ مَلأَى بالثَّنَا[3]؟

فشتّان بين هذا الموقف وموقف الإباء والترفع الذي يعبر عنه ابن المقرب بقوله:

فَعَزْ لِكَرِيمٍ لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ ... نُزُولٌ بأَبْوَابِ السَّلاطِينِ يَسْأَلُ[4]

إنها روح الاعتزاز التي لا تفارق ذهن ابن المقرب. يدل على ذلك معنى آخر تناوله الشاعران ولكن بصورتين مختلفتين، فقد استخدمه سبط ابن التعاويذي في المديح واستخدمه ابن المقرب في الفخر، فقال الأول:

---

(١) الديوان ص ٤٩٠.
(٢) الديوان ص ٤٢٨.
(٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٣٩.
(٤) الديوان ص ٤٣٣.

فَرَسَا رِهَانٍ رُكِّضَا في حَلْبَةٍ　　فَتَجَاوَزَا أَمَدَ العَلاَءِ وأَبْعَدَا (١)

وقال الثاني:

وإنّي والعُلاَ فَرَسَا رِهَانٍ　　كَمَا أَنَا والنَّدَى أَخَوا رَضَاعِ (٢)

كما يدل على ذلك دوافع المديح التي تختلف عند الشاعرين. فابن التعاويذي متكسّب بشعره ولا يجد بذلك غضاضة ولا جرحاً، أما ابن المقرب فهو يرى مديحه - وبخاصة في بني عمه - واجباً تمليه القرابة الرحم كما في قوله:

ولَوْلاَ ذَاكَ عَنْ قُرْبَى وَوُدٍّ　　لَكَانَ عَنِ المَدِيحِ لِيَ احْتِشَامُ (٣)

ولو ذهبنا نقارن بين الشاعرين في غرض آخر كالهجاء مثلاً فإننا سنجد تقارباً في الأسلوب مع ندرة الهجاء في ديوانيهما، وتشابها في المزاج والطبع وسرعة الغضب التي تولِّد الهجاء عند شاعر لم يكن من طبعه الهجاء، كما حدث لابن التعاويذي حين سخط من أحد أعيان بغداد فهجاه مبتدئاً بهجاء بغداد نفسها:

يا قَاصِداً بَغْدَادَ جُزْ عَنْ بَلْدَةٍ　　لِلْجَوْرِ فِيها زَخْرَةٌ وعُبَابُ (٤)

ويقف ابن المقرب الموقف نفسه في واسط غير بعيد من بغداد فيهجو ابن الدبيثي مبتدئاً بهجاء بلدته واسط:

بِعْ وَاسِطاً بالنَّأْيِ والهَجْرِ　　وَدَعِ المُرُورَ بِهَا إلى الحَشْرِ (٥)

ونحن نجد في هجائهما صورة صادقة للحياة في العراق آنذاك وبخاصة فيما يتعلق بالتجارة والمكوس. يقول ابن التعاويذي يصف طريقة فرض المكوس في واسط:

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٢٢.
(٢) الديوان ص ٢٦٨.
(٣) الديوان ص ٥٦٨.
(٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٧.
(٥) الديوان ص ٢٢٤.

مَـلَكْـتَ رِقِّـي وأَبُـو خَـالِـدٍ في وَاسِطٍ بَعْـدُ عَلَى المَـجْـرِ
في فَمِ سِرْيَا يُنْفِذُ الحُكْمَ في بَـضَـائِـعِ التُّـجَّـارِ والـسَّـفْـرِ
يـأخُذُ مِنها الرُّبْـعَ والمَكْسُ لا يَزِيدُ في الـدُّنْيَا عَلَى العُشْـرِ(١)

ويقول ابن المقرب في هجائه لابن الدبيثي ضامن المكوس في واسط:

أَسْـرَفتَ في ظُلْمِ العِبَادِ أَمَـا لِلْبَعْثِ في نَـادِيـكَ مِنْ ذِكْـرِ
وأَعَـنْتَ قُـطَّاعَ الـطَّرِيـقِ عَلَى فَقْـرِ التِّجـارِ وخَيْبَـةِ السَّـفْـرِ
نِصفُ البِضَـاعَةِ حِينَ تَظْفَـرُهَـا مَكْسٌ لَقَدْ بَالَغْتَ في النُّكْـرِ(٢)

ولئن كان ابن المقرب قد وقع في بعض التجاوزات التي تؤخذ عليه فإن ابن التعاويذي لم يسلم من بعض المآخذ مثل قوله:

شِعْـرٌ ولكِنْ إذَا أَحْقَقْتَـهُ حِكَمٌ نَـظْمٌ ولكِنْ إذَا أَقْـوَمْتَـهُ دُرَرُ(٣)

فالصواب (حقَّقته وقوَّمته) بدلاً من (أحققته وأقومته).

أما المبالغة فهي داء عصرهما، وقد رأينا بعض مظاهرها في شعر ابن المقرب، غير أنها ليست سمة غالبة على شعره، أما ابن التعاويذي فإن مبالغاته صفة عامة في أكثر مدائحه، ويمكن أن يعد شعره مثالاً لما وصلت إليه المبالغات في عصره من غلوٍّ وإسراف كقوله في مدح المستضيء بأمر الله وقد أشركه في صفات الله عز وجل:

لَـيسَ إلَّا للهِ أو لِأَمِـيـرِ الْـ ـمُؤمِنينَ الـعُلُوُّ والـكِبْـرِيَـاءُ(٤)

ومثل ذلك قوله يمدح الناصر لدين الله:

---

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٩٥.
(٢) الديوان ص ٢٢٧.
(٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٠١.
(٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٣.

فاحْكُمْ عَلَى الدَّهْـرِ قَادِراً فَبِمَـا		تَشَـاءُ يَجْرِي القَضَـاءُ والقَدَرُ(1)

وقوله:

لَولاَ وَلاَءُ بَنِي العَبَّاسِ ما ثَقُلَتْ		لِمُفْلِسٍ مُخْسِرٍ في الحَشْرِ مِيزَانُ(2)

وهكذا رأينا أن الشاعرين يقفان في حلبة واحدة كل منهما نِدٌّ للآخر في بعض ملامح شعرهما ولكن كفَّة ابن المقرب ترجح على كفة صاحبه أحياناً حين نقوِّم بعض الملامح الأخرى في شاعريتهما على ضوء وجوه الاختلاف التالية بينهما:

١ ـ تغلب على شعر ابن المقرب سمة الشكوى والعتاب بينما تغلب على شعر السبط المدائح الكثيرة التي يستجدي فيها ممدوحه. ومن ثَمَّ فإن الذاتية وصدق العاطفة أظهر في شعر ابن المقرب، بينما يبدو التكلف والتصنع واضحاً في شعر ابن التعاويذي. ولا يقلِّل من هذا الفارق المدائح الكثيرة لابن المقرب لأن معظمها في بني عمه، وقد خالطها الكثير من الشكوى والعتاب مما أضفى عليها ذاتية لا نجدها في مدائح ابن التعاويذي.

٢ ـ ابن المقرب شاعر طموح فخور متطلع إلى السيادة، وأثر ذلك ظاهر في شعره على طريقة أبي الطيب المتنبي. ولم يكن ابن التعاويذي كذلك، وليس بخاف أن مكانة ابن المقرب في بيت حكم وملك وانتماءه إلى أسرة عربية عريقة هو ما جعله يستشعر الفخار والاعتزاز وذلك ما لم يتهيأ لابن التعاويذي.

٣ ـ تحتل الحكمة في ديوان ابن المقرب حيزاً كبيراً ينمُّ عن طول باعه في هذا الباب معبراً بها عن تجاريه وخبرته الواسعة بإبداع وبراعة يضاهي بهما فحول الشعراء الأوائل كزهير وغيره. ولم يكن لابن التعاويذي مثل هذه المقدرة الفائقة في ابتداع الحكمة.

(١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٥٨ وقد قال ابن هانىء الأندلسي قبله:

مـا شئـتَ لا مـا شَـاءَتِ الأقـدارُ		فـاحْكُـم فـأنـتَ الـوَاحـدُ القَـهَّـارُ

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤١٦.

٣ ـ ابن هُتَيمِل:

هو القاسم بن علي بن هُتَيمِل الخزاعي الضَّمَدي. وليس لدينا ما يذكر عن نسبه وأسرته سوى أنه خزاعي، ولا يعرف أيضاً تاريخ مولده بالتحديد، ولكن يستدل من بعض قصائده أنه ولد في مستهل القرن السابع الهجري، وكانت نشأته في نجران من أعمال وادي ضَمَد في منطقة جازان جنوب الحجاز، وهي غير نجران المعروفة الآن في جنوب الجزيرة العربية[١].

كان ابن هتيمل يجوب النصف الجنوبي من جزيرة العرب يمدح أمراءها، ويتنقل بين مكة المكرمة وصنعاء وجازان وظفار، فقد كان عصره عصر اضطرابات وحروب بين أمراء هذه المناطق مما أوقعه في التناقض حين يمدح بعض الأمراء والولاة ويعرِّض بأعدائهم، ثم لا يلبث أن يمدح أعداء الأمس بعد انتصارهم وتسلُّمهم مقاليد الأمور[٢]. وقد نُكب الشاعر بعدة مصائب منها وفاة زوجته فاطمة بنت سَقْب، ووفاة أخ وأخت له في أسبوع واحد، ومقتل اثنين من أولاده، وله مراث فيهم[٣]. وكانت وفاته سنة ٦٩٦ هـ تقريباً[٤].

شعره متوسط الجودة من الناحية الفنية، وجلُّه مدائح تضم كثيراً من المعاني المكرورة المتكلفة وإن وصف محقق ديوانه شعره بأن عليه طلاوة الفن وروعة الأصالة وتماوج الظلال والأضواء ونبض الحياة[٥].

يلتزم ابن هتيمل المقدمة الغزلية التقليدية في مدائحه ولا يتخلى عنها إلا نادراً[٦]. أما مراثيه التي يفترض فيها أن تكون مثالاً لشعره الذاتي الصادق فإنها لم

---

(١) انظر ديوان ابن هتيمل بتحقيق الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي ص ٧ دار الكتاب العربي بمصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨١ هـ.
(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦.
(٣) انظر المصدر السابق ص ١٠.
(٤) انظر المصدر السابق ص ٧.
(٥) انظر المصدر السابق ص ٨.
(٦) انظر المصدر السابق ص ٣٩.

ترق - في نظري - إلى المستوى الفني الجيد الذي يتناسب مع ما حل بالشاعر من مصائب وأحزان. بل إنها تتضمن أحياناً بعض المعاني المبتذلة كما في رثاء زوجته[1]. ويضم ديوانه بالإضافة إلى المدائح والمراثي قليلاً من الغزل التقليدي وبعض الحكم المتناثرة بين قصائده. ولعل أهم ظاهرة تميز شعره هي ما يضمه من ذكر بعض الأماكن والقرى في المنطقة التي عاش فيها، وتسجيل بعض الحوادث والوقائع في عصره.

ولسنا نجد روابط هامة تربط بين شعر ابن المقرب وشعر ابن هتيمل كتلك الجوانب التي رأينا ابن المقرب يلتقي فيها مع شاعري الشام والعراق ابن عنين وسبط ابن التعاويذي. ولكن الشاعرين يلتقيان في ميدان واحد وهو أنهما عاشا في الجزيرة العربية، أحدهما في شرقها الشمالي والآخر في جنوبها الغربي في عصر واحد، وإن كان ابن هتيمل قد توفي بعد صاحبه بستين عاماً أو تزيد[2]. وهناك ظاهرة يجتمع فيها الشاعران وهي المصائب والمحن التي حلت بهما، ولكننا لا نجد في هذه الظاهرة مجالاً للمقارنة بينهما، لأنها لم تخرج بابن هتيمل عن إطار المراثي، ولم يظهر أثرها على شعره بمثل ما ظهر في شعر ابن المقرب من الأصالة والإبداع والصدق والذاتية. وظاهرة أخرى ربما تكون العامل المشترك في نتاجهما، وهي تلك المدائح التي يقوم عليها ديوان ابن هتيمل مثلما يقوم ديوان ابن المقرب على المدائح الكثيرة ولكن الفارق أن كثيراً من مدائح ابن المقرب يطغى عليها الشكوى والعتاب في الوقت الذي تخلص فيه مدائح ابن هتيمل للثناء والتكسب. ومع ذلك فسنقف عند بعض الأبيات للشاعرين حتى نتبين بعض الفوراق في أساليبهما، ونختمها بالجوانب التي ينفرد بها ابن المقرب عن ابن هتيمل.

يبتدىء ابن هتيمل إحدى قصائده بالعتاب قائلاً:

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٨٣.

(٢) ولقد كنت أود المقارنة بين ابن المقرب وشاعر آخر يضاهيه في الجزيرة العربية في زمنه، ولكني لم أجد في عصره شاعراً ظهر ديوانه وانتشر شعره أبرز من ابن هتيمل.

يُعَـاتِبُكُمْ فَمَـا نَفَـعَ العِتَـابُ   وَيَسْـأَلُكُمْ وليسَ لَـهُ جَـوَابُ[1]

ولكن هذا العتاب يختلف عن عتاب ابن المقرب فهو عتاب مصطنع يوجهه لأحبته كما يفعل في المطالع الغزلية لمدائحه. أما ابن المقرب فهو البارع في اختيار المطالع الشاكية المعاتبة، ليس لأحبته وإنما لبني عمه وعشيرته بكل صدق وعفوية من مثل قوله:

تَجَافَ عَنِ العُتْبَى فَمَا الذَّنْبُ وَاحِدُ   وَهَبْ لِصُرُوفِ الدَّهْرِ مَاأَنْتَ وَاجِدُ[2]

وقوله:

إلاَمَ أُورِدُ عُتْبـاً غيـرَ مُسْتَمَـعِ   وأُنْفِقُ العُمْرَ بَينَ اليَأْسِ والطَّمَعِ[3]

ويخاطب ابن هتيمل أحد ممدوحيه وقد مل نداءه وسئم رجاءه:

مَضَى زَمَنٌ أُعَلِّلُ مِنْـكَ نَفْسِي   بِعَـلَّ وغَيـرِهـا وعَسَى ولَيْتِي[4]

أما ابن المقرب فقد استخدم هذا المعنى لصياغة مطلع أجود من بيت ابن هتيمل منكراً على نفسه تعلُّلَها بالأماني في علاقته مع بني عمه:

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تَنْسَى عَسَى ولَعَلَّمَا   وتَتْـرُكَ لَيْتَـاً لِلْمُعَنَّى ورُبَّمَـا[5]

ومثل ذلك معنى آخر استخدمه ابن المقرب في الشكوى والتحسر في قوله:

فَكَمْ أَتَحَسَّى الضَّيمَ مُرّاً وأَمْتَرِي   عَقَابِيلَ خِلْفٍ قَدْ أَزَى وَتَجَدَّدَا[6]

أما ابن هتيمل فقد استخدم هذا المعنى مستجدياً ممدوحه في قوله:

---

(١) ديوان ابن هتيمل ص ٤٠.
(٢) الديوان ص ١٤٠.
(٣) الديوان ص ٢٧٢.
(٤) ديوان ابن هتيمل ص ٤١.
(٥) الديوان ص ٤٦٦.
(٦) الديوان ص ١٥٢ والخِلف للناقة كالضرع للشاة، وأزى وتجدد: تقلص وجف لبنه.

فـإنِّي لـو سَــأَلْتُ سِوَاكَ نَيْـلاً ... لَكُنتُ كَحَـالِبٍ ضَرْعـاً أَجَـدَّا [1]

ويتحدث ابن هتيمل عن الليالي وقد أفنت كل جديد ولكنه لم يوفق إلى صياغة فكرته فيقول:

واللَّيَـالِي تُبْلِي الجَـدِيـدَ وتَـرْمِي ... في قَوامِ القَوامِ بالاعْوِجَـاجِ [2]

فأين هذا البيت من قول ابن المقرب:

أَيدِي الحَوَادِثِ في الأَيَّامِ والأُمَمِ ... أَمْضَى مِنَ الذَّكَرِ الصَّمْصَامَةِ الخَذِمِ [3]

ويتحدث ابن هتيمل عن الهوى وكيف يكون شاهداً على صاحبه بادياً على جسمه فيقول في أسلوب مثقل بالضعف والتكلف:

تُخْفِي الهَوَى وكَفَى بِجِسْمِكَ شَاهِداً ... وأَبِيك لا كُنتَ المُقِرَّ الجَـاحِدَا
مُضَغُ القُلوبِ تُبِيدُهَا نَارُ الجَوَى ... عدماً ولو كُنَّ القُلوبُ جَلامِدَا [4]

وقد سبقه ابن المقرب إلى هذا المعنى بأسلوب أجود حيث يقول:

تُخْفِي الصَّبَابَةَ والأَلحَاظُ تُبْدِيَهـا ... وتُظْهِرُ الزُّهْدَ بَينَ النَّاسِ تَمْويهَا
يا عَاشِقاً تَلِفَتْ في العِشْقِ مُهْجَتُهُ ... كِتْمَانُكَ الحُبَّ في الأَحْشَاءِ يُؤْذِيهَا [5]

ويقول ابن هتيمل مخاطباً أحد ممدوحيه مصوراً منعة هذا الممدوح وعزة جانبه وانتصاره على أعدائه:

أَضْحَتْ حُصُونُ مُحَارِبيكَ بَلا قِعَا ... وسَقَيْتَ مَنْ عَـادَاكَ سُمًّا نَـاقِعـاً
وبَـرَقْتَ لِلْمُتَمَـرِّدِينَ صَـوَاعِقـاً ... مَطَرَتْ عَلَى المُتَمَرِّدِينَ صَوَاعِقَا [6]

---

(١) ديوان ابن هتيمل ص ٥٧.
(٢) ديوان ابن هتيمل ص ٤٤.
(٣) الديوان ص ٤٨٣. والصمصامة: السيف الذي لا ينثني، والخذم: القاطع.
(٤) ديوان ابن هتيمل ص ٥٥.
(٥) الديوان ص ٦٤٩.
(٦) ديوان ابن هتميل ص ١٢٥.

وقد سبقه ابن المقرب إلى مثل هذا المعنى بأسلوب خال من التكرار في قوله:

رِمَاحُ الأَعَادِي عَنْ حِمَاكَ قِصَارُ   وفي حَـدِّهَـا عَمَّا تَـرُومُ عِثَـارُ
وكُلُّ امْرِىءٍ لَيسَتْ لَهُ مِنكَ ذِمَّةٌ   يُضَـامُ عَلَى رَغمٍ لَـهُ ويُضَـارُ
وَمَا عَزَّ مَنْ أَمْسَى سِوَاكَ مَعَاذُهُ   ولَـوْ عَصَمَتْـهُ يُعْـرُبٌ ونِـزَارُ[1]

ولعلنا بعدما وقفنا على هذه المقارنات العابرة بين الشاعرين قد أدركنا جودة شعر ابن المقرب وسمَّوه على شعر ابن هتيمل، وبخاصة إذا عرفنا الفوارق الأخرى التي يمتاز بها ابن المقرب على صاحبه وهي:

١ ـ ابن المقرب أغزر شعراً وأوفر أغراضاً وأطول نَفَساً.

٢ ـ ابن المقرب أصدق عاطفة وأقرب إلى الذاتية والعفوية.

٣ ـ ابن المقرب شاعر حماسي تهزُّ حماسته وفخره النفوس بروائع لا نجد مثيلاً لها في شعر ابن هتيمل.

٤ ـ ابن المقرب أجزل أسلوباً وأجود معنىً وأكثر التزاماً بمذهب المتقدمين.

٥ ـ شعر ابن المقرب مليء بالحكم الرائعة التي يبتدع أكثرها من واقع تجاربه ومعاناته مما لا نجد في شعر ابن هتيمل ما يباريها.

٦ ـ يصوغ ابن المقرب مقدمات قصائده غالباً بما يتلاءم مع ظروف حياته متحرراً من المقدمات الطللية التقليدية التي يلتزم بها ابن هتيمل.

وبعد.. فلقد رأينا ابن المقرب يقف في مصاف شعراء عصره في الشام والعراق، بل يتقدم على الكثير منهم. ونخلص من ذلك كله إلى أن نقول: إن ابن المقرب من أكبر شعراء عصره، وهو يجسم في هذا العصر مثالاً فريداً لقلةٍ من الشعراء الذين كانوا يترسمون خطى الفحول السابقين، وربما لم يصل ابن المقرب إلى مستوى أولئك الفحول، ولكنه يظل أقدر شعراء عصره على ترسم خطاهم والسير على نهجهم.

---

(١) الديوان ص ٢٠٧.

ولعل هذه المنزلة العالية التي احتلها ابن المقرب بين شعراء عصره هي التي جعلت الملك الأشرف بن العادل مولعاً بذكره حريصاً على كسب مدائحه[1]، مع أن في بلاطه العديد من الشعراء المدَّاحين كابن عُنين وغيره. والأرجح أن الأشرف حين رغب في مديح ابن المقرب فإنه فلم يرد زيادة عدد مدَّاحيه وإنما لعلمه بمكانته الفذة وشاعريته الفريدة فقد كان ناقداً للشعر حافظاً له مميزاً بين جيِّده من رديئه كما يذكر بعض الأدباء[2]. تلك هي مكانة ابن المقرب بين شعراء عصره في الأمصار العربية كلها. أما في الجزيرة العربية ـ وهي موطنه ـ فهو شاعرها بلا منازع، ليس في عصره فحسب بل في العصور القريبة من عصره، ويكفيه أن هذه الجزيرة لم تشهد بعد رحيله حتى يومنا هذا شاعراً توافرت له هذه الشاعرية المبدعة والقريحة والخلَّاقة، وسيظل صدى فخره بسبقه وشاعريته يتردد في صحارى الجزيرة العربية ووهادها حتى يخرج فيها شاعر آخر في مثل مكانته ومنزلته، وستبقى شهادة أبي البقاء محب الدين العكبري لشاعرنا وساماً يعتز به حتى يأتي بعده من يسبقه أو يدرك شأوه :

لَقَـدْ تَقَدَمْتُ سَبْقـاً مَنْ تَقَـدَّمَنِي ... سِنّـاً وأَدْرَكَ شَأْوِي فَـارِطَ الأوَلِ

بذاك قُدْوَةُ أَهْـلِ العِلْمِ قَاطِبَـةً ... أَبُو البَقَاءِ مُحِبُّ الدِّينِ يَشْهَدُ لِي

وَلَمْ يَقُلْ وَحْدَهُ ما قَالَ بَلْ شَهِدتْ ... بِهِ الأَفَاضِلُ مِنْ بَغْدَادَ عَنْ كَمَلِ[3]

نعم . . فليس أبو البقاء وحده هو الذي شهد للشاعر بهذا السبق، بل لقد أقرَّ له بذلك كبار النقاد والأدباء في العراق في عصره، كما شهد له بذلك النقاد والأدباء المعاصرون.

---

(١) انظر الديوان ص ١٠ من المقدمة.

(٢) ذكر أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي أن الملك الأشرف قال لبعض الشعراء وقد مدحه بقصيدة فيها أبيات سلخ ألفاظها ومعانيها من شعر غيره: أما تستحي أن تنشدني لنفسك ما أحفظه لغيرك؟ فقال: يا سلطان، قد يقع الحافر على الحافر، فقال: نعم ولكن للميدان كله لا، فضحك جميع من حضر من أهل الأدب وصار ذلك الشخص عندهم يعرف بالميداني. (أنظر الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لأبي الحسن الأندلسي بتحقيق إبراهيم الإبياري ص ١٧ دار المعارف بمصر).

(٣) الديوان ص ٣٨٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

ابن المقرب بين ناقديه

أ ـ النقاد القدامى:

على الرغم من أن ابن المقرب قد التقى في أثناء رحلاته إلى العراق بعدد من الأدباء والكتاب ورجال الفكر، وحضر مجالسهم وأنشدهم شعره وشهدوا له بالحذق والتمكن والإجادة فإن هؤلاء الأدباء لم يكتبوا عنه إلا النزر القليل الذي لا يتناسب مع مكانته وشاعريته، ولعل ذلك يعود إلى عدم استقرار الشاعر في العراق، ثم إلى فتور الحركة الأدبية في مطلع القرن السابع الهجري، وانشغال المجتمع بالأحداث السياسية الهامة وأبرزها تهديد المغول لحاضرة الإسلام في بغداد.

إن أبرز النقاد والأدباء القدامى الذين كتبوا عن الشاعر هو ابن الشعار الموصلي، ومع ذلك فإنه لم يكتب عنه إلا لمحة موجزة، بدأها بذكر نسبه وتاريخ مولده ووفاته ومكانهما ثم قال[١]: «وكان شاعراً مجوداً منتجعاً، كثير المدح قليل الهجاء، جيد القول متينه، قوي اللفظ رصينه، وهو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين، أقر له بالحذق أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم، ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني، رحل إلى الملوك وامتدحهم فأحسن، ومدح الخلفاء الراشدين صلوات الله عليهم الناصر لدين الله والظاهر والمستنصر بالله رحمهم الله، شاهدته بمدينة

---

(١) قلائد الجمان في شعراء الزمان ٥ / ١٢٦ (مخطوط).

السلام سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأنشدني الكثير من قوله، ومعظم شعره يحفظه ويردده ولم يتوقف في إيراده ولا يجد بذلك سآمة ولا ضجراً» ثم استشهد ببعض أبياته في مدح بدر الدين صاحب الموصل وأبيات أخرى في الشكوى والعتاب.

وذكره زكي الدين عبد العظيم المنذري[1] في وفيات سنة **٦٢٩ هـ** فأثبت نسبه وتاريخ مولده بالأحساء، ورحيله إلى بغداد والموصل ثم قال: «وكان شاعراً مجيداً مليح الشعر».

وذكر ابن النجار قدومه بغداد وقال[2]: «وسمعنا كثيراً من شعره، وكان. . . . . جيد الشعر مليح المعاني فصيح العبارة من فحول الشعراء» ثم أورد طائفة من شعره.

وذكر ابن نقطة نسبه ثم قال[3]: «شاعر مجيد مليح الشعر، قدم علينا بغداد وأنشدنا قصائد من شعره» كما قال عنه أيضاً[3]: «قدم علينا بغداد، شاعر محسن سمعنا منه شيئاً من شعره».

وأثبت ياقوت الحموي نسبه وذكر قدومه الموصل سنة **٦١٧ هـ** ومديحه لبدر الدين أمير الموصل واستشهد بإحدى قصائده[4].

أما ابن الفُوَطي فقد ذكر نسبه أيضاً وقال:[5] «وكان شاعراً مسترفداً جزل الألفاظ» ثم ذكر تاريخ مولده ووفاته ومكانهما.

أما الصفدي فلم يذكر سوى نسبه وتاريخ مولده ووفاته مستشهداً بإحدى قصائده[6].

---

(١) التكملة لوفيات النقلة ٦ / ٤٤.
(٢) التكملة لوفيات النقلة ٦ / ٤٥.
(٣) الإكمال لابن ماكولا ٥ / ٢٠١.
(٤) انظر معجم البلدان ٤ / ١٨١.
(٥) الديوان ص ٩ من مقدمة المحقق.
(٦) المصدر السابق ص ٩.

هذا كل ما وصل إلينا في كتب التراجم والأدب القديمة عن ابن المقرب فيما اطلعت عليه ، وهي كما رأينا وقفات موجزة لا تتحدث عن حياته وشعره بالتفصيل .

ب ـ النقاد المعاصرون :

لقد كان اهتمام الأدباء والنقاد المعاصرين بابن المقرب في بحوثهم ومقالاتهم كبيراً إذا قُرن بما كتبه عنه النقاد القدامى، لكن آراء هؤلاء الأدباء المعاصرين وبحوثهم تبقى شحيحة لا تفي الشاعر حقه ولا تغني عن دراسة حياته وشعره دراسة مستفيضة وافية، إضافة إلى أن هذه الآراء والدراسات متناثرة بين كتب التراجم والأدب وبعض المجلات والصحف ، وليست قريبة التناول للدارسين والباحثين، فضلاً عما تتضمنه من أخطاء وهفوات.

وسنقف عند هذا الشتات من آراء النقاد والأدباء ودراساتهم وبحوثهم ومقالاتهم لنطلع على أحكامهم ونتائجهم التي توصلوا إليها عن حياة ابن المقرب وشعره.

لقد ترجم له بروكلمان[1] فذكر نسبه وأسرته، وخلافه مع بني عمه، ورحيله إلى العراق، ولكنه وقع في خطأ فاحش حينما وهم أن للشاعر ولداً اسمه محمد فترجم له ونسب إليه بعض مخطوطات الديوان[2]. كما أخطأ في مكان وفاته فقال: «عاش في بغداد ومات هناك».

وترجم له جرجي زيدان [3] فذكر مدائحه للناصر لدين الله ، ولأمير الموصل بدر الدين لؤلؤ ، ولكنه أخطأ في اسمه فقال: إنه جمال الدين أبو عبد الله محمد بن علي

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥ / ٦١.
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٥ / ٦٢.
(٣) انظر تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٣ / ٣٤. وقد نشأ وهم بروكلمان وزيدان حول اسمه من إحدى مخطوطات الديوان، انظر ما تقدم ص ٦٠ .

ابن المقرب، وفي مكان وفاته فقال: توفي ببغداد.

كما ترجم له خير الدين الزركلي[1] فذكر نسبه وقال: إنه «شاعر مجيد من بيت إمارة» ثم تحدث عن اضطهاده على أيدي أبناء عمه ورحلاته مستشهداً بما قاله ياقوت الحموي.

وكتب عنه عمر فروخ فقال[2]: إنه «شاعر مكثر مجيد فصيح الألفاظ حتى حينما تكثر الكلمات الغريبة أحياناً في بعض المقاطع من عدد من قصائده. وعلى قصائده عموماً أثر المتنبي خاصة وأثر أبي تمام. كما نرى عليها أيضاً أثر نفر من الجاهليين منهم زهير والنابغة».

وألقى الأستاذ عبد القدوس الأنصاري محاضرة عن ابن المقرب في حفل أدبي بالمدينة المنورة ونشرها في جريدة صوت الحجاز[3] ومجلة المنهل[4]. أشار فيها إلى جهل الناس بهذا الأمير الشاعر وقلة حظه من الشهرة فقال: «فليس معروفاً لدينا تاريخ ولادته ولا مكانها ولا تاريخ وفاته ولا مكانها. ولقد قلّبت كثيراً من صفحات أسفار الأدب وأسفار تاريخ حضارة العرب فلم أعثر لشاعرنا على ذكر». ولعل الأنصاري قد اعتمد في هذه المحاضرة على ديوان الشاعر فقط كما يدل على ذلك استظهاره أنه من مواليد القرن السادس، ومن متوفي القرن السابع. وإلاّ فإن تاريخ مولده ووفاته ومكانهما معروف كما ذكر ابن الشعار الموصلي وغيره[5].

ثم تحدث عن أسباب «خمول صيته مع ماله من غزة الأرومة» فذكر منها سقوط مستوى البيئة التي وجد فيها شارحاً ذلك بقوله: «إن شاعرنا كان ابن الجزيرة العربية

---

(١) انظر الأعلام ٥ / ١٧٥.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي ٣ / ٥٠٧.

(٣) الأعداد من ٢٢١ إلى ٢٢٦ الصادرة عام ١٣٥٥ هـ.

(٤) الجزء الثاني جلد ١٩ عام ١٣٧٨ هـ.

(٥) انظر ما تقدم ص ٦٨ و ٩٧.

وفي القرن السابع. وأنتم إذا قلبتم صفحات التاريخ باحثين عن مكان الجزيرة العربية في خريطة العالم حينئذ تجدونها أشبه شيء بالوهدة المنخفضة الجرداء القاحلة الواقعة بين جبال وآكام، كلها ناضر وكلها مزدهر وكلها فتان المنظر، أما هي فتبعث على الأسف وتدعو إلى الاعتبار، ذلك لأن هذه الجزيرة كانت في تلك الحقبة من الدهر عبارة عن بركان ثائر مصطخب مستعر بقبائله الظامئة إلى الطعان والنزال والحروب والفتن والقلاقل، خصوصاً في هذه الناحية التي يحيا فيها شاعرنا ابن مقرب». ثم تحدث عن أثر محنة الشاعر على حسه المرهف وشاعريته المتدفقة فقال: «وفي الحق أنه لولا هذه الصدمات التي فاجأت شاعرنا لما أرهف إحساسه، ولما جاء شعره بهذه النضارة وهذه النصاعة، وفي تاريخ حياة الإنسانية في مختلف الأجيال أمثلة شتى كلها ناطقة بالأثر المحمود الذي تخلقه الأشجان في الأنفس البشرية».

ثم أشار في محاضرته إلى شعر ابن المقرب التاريخي مقرراً أنه شاعر روائي لأنه خاض ميدان القصص الشعري، واستشهد على ذلك بقصيدته الميمية[1] التي أورد فيها أخبار القرامطة وتاريخ الدولة العيونية. وفي رأيي أننا لا نجد في شعر ابن المقرب شعراً روائياً تنطبق عليه هذه التسمية. أما قصيدته الميمية التي أشار إليها فإنها لا تدخل في عداد القصائد الروائية رغم طولها النسبي (١٥٠ بيتاً)، ورغم أن الشاعر قد نهج فيها نهجاً مختلفاً عن قصائده الأخرى، معتمداً على رواية بعض الحوادث التاريخية، ثم إن قصيدة واحدة للشاعر لا تكفي سنداً لوصفه بالشاعر الروائي، وليس له قصائد أخرى على منوالها اللهم إلا نونيته[2] التي يتحسر فيها على ضياع ملك آبائه بعد ضعف الدولة العيونية، وهي مع ذلك أقرب إلى شعر

(١) انظر الديوان ص ٥٢٦.
(٢) انظر الديوان ص ٦١١.

الشكوى والعتاب منها إلى الشعر القصصي الروائي. إن ما يمكن أن يوصف به شعر ابن المقرب في هذه القصيدة وما يشبهها هو أنه شعر تاريخي لا روائي.

وكتب الأستاذ محسن جمال الدين في مجلة الأديب البيروتية [1] تعريفاً بمخطوطة لديوان الشاعر عثر عليها في أسبانيا وصف فيه المخطوطة، وامتدح الشاعر، ولاحظ تأثرة بأبي الطيب في حكمته، وغلبة طابع التألم على شعره بدون استخذاء، «والشكوى المريرة من أحداث الزمن دون خنوع، والمطالبة بالحق دون مهادنة». وقال: إن أشعاره «تبعث في النفس الطموح، وتدعو إلى المجد، وتحرك سواكن القلب، وتهز العواطف بحرارة وقوة وإيمان، لم يسخر شعره إلا ليقظة إخوانه وتحرير قبيلته، ولما يطول به السير يناجي أرض وطنه ومرابع طفولته وأنسه، ويحن لها في غربته ويشكو جور الأحباب والأصحاب».

ووصف ديوان ابن المقرب بأنه «ثروة أدبية قومية عربية. لها قيمتها في التاريخ البحراني، ومن الحوادث السياسية التي مرت على ذلك القطر العزيز، الذي يجب على أبنائه اليوم من الأدباء والكتاب أن يبعثوا في مطويات أوراقه وسجلاته الحياة، وينشروا النور الذي أحاطته سحب الأيام، وحنادس الليالي، وهو المخفي عنا، في ملفات المحفوظات وفي عالم الذكريات».

وقد عقّب أحد الأدباء المغاربة وهو محمد عباس القباج [2] على ما نشره الأستاذ محسن جمال الدين فدعا أدباء البحرين إلى: «تجديد نشر الديوان، والترجمة لصاحبه ترجمة وافية، ودراسة شعره وبيئته والظروف التي أحاطت به وأملت عليه أن يرسلها قصائد نارية يدافع بها عن حقه المسلوب ويثأر بها لعزه المهان، فشاعر أمير

---

(١) الجزء السادس يونيو ١٩٥٥ م ص ٦٥.
(٢) انظر مجلة الأديب البيروتية الجزء العاشر أكتوبر ١٩٥٥ م ص ٦٥.

كابن المقرب يحمل تلك الروح الطموح والعزوف عن الاستخذاء لجدير بالتقدير والاحترام».

وكتب أحد أدباء القطيف وهو عبد الله الخنيزي في عدد آخر من المجلة مقالا بعنوان (ابن المقرب من شعره) [1] فأوضح كيف طغى تأثير حياته المضطربة على شاعريته «وصقلها الألمُ المبدع فأنتجت الشكوى والعتب، وتحولت إلى النقد والثورة»، ثم بيّن كيف تطور أسلوب النقمة لديه على قومه «حتى إنه ليتناسى ـ وهو الوطني ـ وطنه، وينكر النسبة بين المواطن والوطن إذا كان له الوطن على نكران والأهل على هجران».

ويستدرك قائلاً: «إنه إذا كان قد عرض هذه الفكرة فإنه لا يعرضها مسلوباً عن الوطنية، بل يعرضها بدافع الوطنية، ليبعث في النفوس العزيمة، فهو ينعى عليهم هذا السكوت وهذا الاستسلام».

وكتب الأستاذ درويش المقدادي مقالاً في مجلة العربي[2] بعنوان:

« ابن المقرب شاعر مجهول من أعظم شعراء الخليج العربي » ، بدأها بالاستشهاد بقول الشاعر :

سـأَطْلُبُ حَقَّ آبـائِي وحَقِّي ... ولـو مِنْ بَينِ أَنْيَابِ الأَفَاعِي[3]

ليدلل على ثورته وتمرده على ما أصابه من حرمان وهوان على أيدي بني عمه ومطالبته بحقه«**مستعطفاً** ناقماً». ثم يشير إلى بقاء بني عمه على حذر منه بعدما سمعوا قصائده ووشايات المقربين من حاشيتهم، ويشبهه من هذه الناحية بالمتنبي

---

(١) انظر مجلة الأديب فبراير ١٩٥٧ م الجزء السادس عشر ص ٣٨.
(٢) العدد ١٧ شوال ١٣٧٩ هـ ص ٦٧.
(٣) البيت في ديوانه ص ٢٦٩.

الذي «حاول بشعره وأسفاره واتصاله بأمراء مصر والشام أن يكون ذا ولاية وملك فلم يفلح، كذلك فعل ابن المقرب بالخليج العربي والعراق فلم يحقق أمنيته». أما شعره كما يراه المقدادي فهو دون شعر المتنبي «إلا أن الروح واحدة في قصائده بالفخر والحماسة والمطالبة بالحق».

وكتب الدكتور عبد الفتاح الحلو عن ابن المقرب في تقديمه لطبعة ديوانه فأوضح مكانته ومنزلته بين الشعراء فقال[1]: «شهد النصف الثاني من القرن السادس الهجري مولد شاعر عظيم من شعراء الأمة العربية، ونبوغ علم من أعلام القريض فيها، كما رددت السنون الأولى من القرن السابع الهجري نغمات رائعة وقصائد رصينة أعادت إلى الأدب العربي شبابه، وذكّرته بأيامه الخوالي»، كما تحدث عن تأثير شخصيته على شعره فقال[2]: إنه «غذي بلبان الشهامة والبطولة منذ نعومة أظفاره، فنشأ عزيز النفس شديد البأس، صلب القناة، حاد الطبع، ووهبه الله جناناً ثابتاً، وفؤاداً يقظاً، ونفساً تائقة إلى معالي الأمور، نأت به عن مواطن الريب ودفعت به إلى طريق المجد، فلا عجب أن نراه بعد ذلك شاعراً مفلقاً، توري كلماته نار الحرب، وتهز قصائده فؤاد الجبان، فإذا هو مقدم على الهول، صبور عند اللقاء، سباق إليه».

وكتب الأستاذ مقبل العيسى في مجلة البيان التي تصدر عن رابطة الأدباء في الكويت مقالة عن الشاعر بعنوان «أضواء على شاعر مغمور»[3] تساءل في بدايتها عن مدى تأثير حظ الشعراء على انتشار شعرهم في الآفاق ومعرفته بين الناس، ثم أجاب على تساؤله بقوله: «إذا كان في هذا التساؤل ظل من الحقيقة فإني اعتقد

---

(١) الديوان ص ٣ من مقدمة المحقق.

(٢) الديوان ص ٣ من مقدمة المحقق أيضاً.

(٣) العدد ٣٧ محرم ١٣٨٩ هـ إبرايل ١٩٦٩ م ص ٦٢.

أنها تنطبق على الشاعر الهَجَري (علي بن المقرب العيوني) الذي لم يلق العناية الكافية من المهتمين بشئـون الأدب قديماً وحديثاً بالرغم من وفرة إنتاجه الشعري وبلوغه المستوى الرفيع من الجودة التي تؤهله لأن يكون مشهوراً منذ زمن بعيد». ثم أشار الكاتب إلى سر الخلود الذي كتب لشعر ابن المقرب حيث «قدر له البقاء بعد وفاته فترة طويلة من الزمن دون أن ينقرض أو تمتد إليه يد النسيان، فأعماله الشعرية قد بقيت ثمانية قرون دون أن تطبع، وهذا بلا شك دليل على جودة شعره وأصالته، وإعجاب سكان المنطقة التي كان يعيش فيها بشعره، فهم قد حفظوه كتابة ونقلوه رواية جيلاً بعد جيل حتى قدر له أن يطبع لأول مرة عام ١٣٠٨ هـ».

ثم يذكر السمات البارزة في شعره كما يراها وهي: «صدق عاطفته في ثورته على الظلم الذي لحق به، وانتقاده لأخلاقيات مجتمعه الذي كان يعيش فيه، وتذمره من تدهور الوضع السياسي في وطنه». ثم يصف تعبيره الشعري بأنه «فريد من نوعه إذ يختار له المعنى الذي يكاد يكون حكمة أو مثلاً سائراً في عفوية محببة إلى نفس القارىء، دون تكلف أو افتعال»، ويشير إلى شعور ابن المقرب بالمرارة مما ألمّ به من حرمان وتشرد وغربة في أغلب قصائده «غير أنه بالرغم من إحساسه بالمرارة وشعوره بالاضطهاد فإن له عزماً يناوله الجوزاء وقوة إرادة لا تزعزعها النكبات».

وبعد أن عرض الكاتب بعض الأمثلة التي تدل على «معاناة نفسية حادة، وحساسية مفرطة تجاه قسوة الحياة» دعا إلى دراسة حياة ابن المقرب وشعره دراسة تلقي الضوء على الأحوال السياسية والاجتماعية في البحرين في عصره، وتوضح الأسباب التي أدت إلى تشرده ونزوحه عن وطنه «متشائماً في نفسه ثائراً على أخلاقيات مجتمعه»، فتلك موضوعات تصلح كما يقول «لأن تكون مادة لدراسة أدبية واسعة تسد نقصاً في المكتبة العربية عن الحياة الأدبية في منطقته التي كان يعيش فيها في القرن السادس الهجري».

ويصف الأستاذ محمد جابر الأنصاري ابن المقرب بأنه «شاعر الخليج الأكبر في الأعصر الإسلامية»[1] ويقدم للحديث عنه بمقدمة عن عصره الذي يمثل بداية انحطاط الحضارة العربية، وضعف الملكات الأدبية والفكرية، وفساد المجتمع وتدهور الأخلاق، «حتى لم يبق من ظواهر الأصالة في الحضارة العربية غير نفوس أبية حرة وفئات فكرية واعية تثور بين وقت وآخر، هنا أو هناك في أجزاء الوطن العربي الكبير محاولة مقاومة الظلم والانحطاط والعودة إلى حياة الخلق والإبداع والطهارة. وكانت هذه الظواهر الفردية المنعزلة بمثابة مشاعل تضيىء طريق الحياة العربية بعد أن طغت عليها عوامل الجمود والتخلف والزيف». وابن المقرب في نظر الكاتب هو من هذه الناحية ظاهرة فريدة تمثل «تمرد الأديب العربي في منطقة الخليج والجزيرة ضد الأوضاع السيئة المتحجرة التي أخذت تفرض نفسها على حياة المجتمع العربي فتقتل فيه كل بذرة من بذور الخير والخصب والإبداع والأصالة».

كما أشار الدكتور عبد الله المبارك إلى أصالة شعر ابن المقرب وصدوره عن الينابيع الأولى للشعر العربي فقال[2]: «والحق أن شعر ابن المقرب يمثل بقيمته الفكرية والنفسية الشعر العربي المتين، وهو من الوجهة الفنية يصدر عن التقاليد الموروثة ، ويتأثر بالينابيع الأولى النقية لفن القول العربى » .

وبالرغم من أن ما كتبه الدكتور المبارك عن ابن المقرب لا يتجاوز أربع صفحات فقد وقع في أخطاء فاحشة نستغرب أن يقع فيها وهو ابن الأحساء (موطن الشاعر)، فقد ذكر أن الشاعر قد عاش ما بين سنة ٥٧٦ هـ وسنة ٦٧٩ هـ[3] أي أن

---

(١) لمحات من الخليج العربي ص ٢٩ الطبعة الأولى ١٩٧٠.

(٢) الأدب العربي المعاصر في الجزيرة العربية للدكتور عبد الله المبارك ـ القسم الأول ص ١٩ مطبعة الجبلاوي بالقاهرة ١٩٧٣ م.

(٣) المصدر السابق ص ١٦.

عمره قد امتد أكثر من مائه عام. ولقد تواترت الروايات بأنه قد ولد عام **٥٧٢** هـ وتوفي عام **٦٣٠** هـ عن عمر لم يتجاوز الستين عاماً. كما وقع في خطأ مركب حين قال[(١)]: «فعلي بن عبد الله العيوني مؤسس الدولة العيونية جد للشاعر من ناحية أمه، أما أبوه فكان قائداً من قواد الدولة العيونية». ومعلوم أن مؤسس الدولة العيونية هو جد الشاعر لأبيه وليس من جهة أمه، وأن اسمه «عبد الله بن علي» وليس (علي ابن عبد الله)، بالإضافة إلى أن العبارة الأخيرة للدكتور المبارك توحي بأن والد الشاعر لم يكن من الأسرة العيونية وإنما هو قائد من قوادها.

ومما وهم فيه الدكتور المبارك أيضاً أن الشاعر قد هجا قومه وبلده لأنه لم ينل حظه منهم: «ولما وجد أنه لم ينل حظه من قومه سخط عليهم وذم أهله وهجا فيهم البلاد»[(٢)]. ولم يشر إلى سجنه ومصادرة أمواله وإعراض بني عمه عنه، وهي الأسباب الحقيقية التي دفعته إلى عتاب بني عمه والتعريض بهم، ثم الرحيل إلى العراق. وفيما يخص رحلاته فقد ظن الكاتب أن الشاعر قد رحل إلى مصر، وأن هدفه منها هو الحصول على الإمارة أو الملك: «ثم ذهب جوّاب آفاق يتصل بحكام الإمارات العربية في الخليج والعراق ومصر، ويمتدحهم راجياً نوعاً من الإمارة والملك»[(٢)]. ومن المعروف أن ابن المقرب لم يذهب إلى مصر، ولم يكن هدفه من رحلاته الإمارة أو الملك، وإنما محاولة رد أمواله وأملاكه المسلوبة، والاستعانة بالخلفاء العباسيين وأمراء العراق على قضاء حوائجه.

ولست أدري كيف وقع الدكتور عبد الله المبارك في هذه الأخطاء الفادحة دون أن يحقق فيها لاسيما وهو يكتب تاريخ الشعر العربي في شرق الجزيرة العربية. وليس هناك من تفسير لذلك إلا اعتماده على ذاكرته دون الرجوع إلى المصادر

---

(١) المصدر السابق ص ١٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٦.

التاريخية الموثوقة، وأهمها ديوان الشاعر وشهادات معاصريه[1].

وكتب غسان فواز هنيدي مقالاً في مجلة العربي[2] بعنوان «ابن المقرب الشاعر المناضل» استهلها بقوله: «إذا كان الأدب الحق هو الذي يصور نفس صاحبه في نعمائها وبأسائها، وينقل للناس تجاربها في صدق وأمانة، فشعر ابن مقرب أدب حق حريّ بالدراسة، خليق بالبقاء». وكأنه يقرر بهذه الكلمات ذاتية ابن المقرب وصدق عاطفته من واقع حياته ونكبته كما رواها الكاتب بأسلوب مشرق يجسد طبيعة حياة هذا الأمير الشاعر: «ولد في أوائل النصف الثاني من القرن السادس، في منطقة الأحساء الغارقة بين رمال الجزيرة، ودرج في تلك الصحراء المبدعة، فاستمد من أفقها الرحب حريته وانطلاقه، ومن حماها المنيع عزته وكبرياءه، ومن شمائلها النبيلة جرأته وإباءه».

ثم تحدث عن تنقلاته بين البحرين والعراق بعد خروجه من السجن، وكيف كان يحس بالخيبة ومرارة اليأس، وكيف أثرت في شعره، وفجرت كوامن نفسه: «تفاعلت هذه الحوادث المحضة مع نفس الشاعر الكبيرة، ففجرت ينابيع الشعر، ثرة غزيرة عنده، وانطلق يردد أصداء ثورته، ويغني أمجاده وأمجاد أسرته». ثم أشار إلى أن شعره يعد سجلاً صادقاً لحياته: «وأنت إذا قرأت ديوان ابن مقرب فلا عليك إذا لم تعرف تاريخ حياته، وذلك أن شعره صورة لحياته، وأن حياته مادة لشعره، فاستمع إلى أبياته لتعلم أية نفس كبيرة يحملها ذلك الشاعر المناضل بين جنبيه، فهو صلد كالصخرة التي لا تلين، قوي كالإرادة التي لا تتردد، عزوم لا يصده عن عزمه شيء».

(١) لم يذكر الدكتور المبارك المصادر التي اعتمد عليها فيما أورده عن الشاعر سوى كتاب (تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد لابن عبد القادر) تعليقاً على ما ذهب إليه من أن والد الشاعر كان قائداً من قواد الدولة العيونية.

(٢) العدد ١٩٨ ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ مايو ١٩٧٥ م ص ١٤٨.

وكتب إبراهيم عبد الله غلوم مقالة عن ابن المقرب في مجلة البيان[1] تحدث فيها عن نقد الشاعر لحالة مجتمعه، وثورته على الواقع السيىء في وطنه، ونزوحه وترحاله. وظاهرة الشكوى التي تغلب على شعره مستشهداً بإحدى مراثيه التي تظهر عليها مسحة الحزن، وتبدو من خلالها نزعته التشاؤمية[2]، وشبهه من هذه الناحية بطرفة بن العبد الذي عاش في ديار ابن المقرب، كما شبهه بزهير بن أبي سلمى في حكمته الصادقة المعبرة عن تجاربه في الحياة، وبأبي الطيب المتنبي في طموحه وتطلعه للإمارة والسيادة.

وكتب الدكتور رزوق فرج رزوق بحثاً عن ابن المقرب بعنوان: (ابن المقرب العيوني شاعر الخليج العربي في عراقياته) تناول فيه قصائد الشاعر التي أنشأها في العراق، وأغلبها مدائح للخلفاء العباسيين وولاتهم. وقد أثنى الدكتور رزوق في هذا البحث على الشاعر، وأكبر فيه إباءه وعزته وطموحه: «هو رجل حر شجاع تحدى بشخصيته التي تفيض إباء، وبشاعريته التي تتدفق سخاء ما كان في بيئته وزمانه من سمات الضعف والفساد». وأشار إلى إحياء ابن المقرب للمآثر والمفاخر العربية بروح الحماسة والنفس الطويل: «نقل هذا الشعر بحماسة وقوة ونفس طويل من الماضي السالف أخبار المجد، ورفع من جديد ألوية الأيام والحروب المظفرة، وأعاد ذكر المآثر والمفاخر، وسرد أنباء الأحرار والشجعان من رجالات العرب ومن ربيعة قبيلة العز والبأس التي ينتهي إليها نسب الشاعر ومن العيونيين أمراء البحرين وذوي قرباه، ليشحذ العزائم ويوقظ الهمم ويبعث القوى». كما أشار إلى شعره النضالي، وأصالته وإبداعه في زمن نضبت فيه القرائح وخمدت فيه جذوة الأدب العربي: «كان ابن المقرب من الشعراء العرب الملتزمين الذين أبدعوا الشعر

---

(١) العدد ١١٦ ذو القعدة ١٣٩٥ هـ نوفمبر ١٩٧٥ م ص ١٣.

(٢) انظر الديوان ص ٣٢٦.

النضالي، وأبرزوا شخصية الأديب العربي، وعمقوا الشعور القومي في وقت عصيب مست فيه حاجة الأمة العربية في كل أقطارها إلى شعراء من أهل الأصالة والإبداع، ومن أولي الشجاعة والإباء، يجلون في غمار الأحداث وجلبة الخطوب صورة الأمة الصادقة، ويعلون صوتها الصافي»، وبعد أن تحدث عن رحلاته إلى العراق ومدائحه لرجالاته أشار إلى الفائدة التي عادت على ابن المقرب من هذه الرحلات في انتشار شعره وتعميق شعوره نحو الوطن العربي مقرراً حقيقة الوحدة الأدبية بين الشعراء في كل العصور، وكأنه يُخرِج الشاعر من حدود وطنه الصغير (البحرين) إلى رحاب أوسع في دائرة العالم العربي الإسلامي الكبير شاعراً أصيلاً تجمعه بغيره وحدة الثقافة واللغة قبل أن تؤثر فيه عوامل اختلاف الوطن والديار، ومن ثمَّ فإنه لا مجال لدراسة شعر ابن المقرب في إطار أدب الخليج بصفة مستقلة، فالأدب العربي «في كل أزمنته وفي مختلف أقطاره وأمصاره، لا في منطقة البحرين وحدها، كان أدباً عربياً قبل أن يكون أدباً خليجياً أو عراقياً أو شاميا أو مصرياً أو مغربياً، فهو قد اتسم بطابع الوحدة، بحكم انبثاقه من وحدة الثقافة العربية التي شملت الأقطار العربية والأقطار الإسلامية التي استعربت، وبحكم اللغة التي هي أداة التعبير عن هذا الأدب، وقد حمل هذا الأدب من أشكال التقارب ومظاهر التشابه وصيغ الاشتراك أكثر مما حمل من عوامل الاختلاف والتميُّز».

وكتب الدكتور شوقي ضيف مقالة في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة[1] عن الجانب التاريخي في شعر ابن المقرب بعنوان «سجل شعري تاريخي فريد» قدم لها بالتنبيه إلى أهمية الشعر في رصد الحوادث التاريخية، وأن الشعر أحياناً يكمل التاريخ «فقد ينسى المؤرخون معركة كبرى ويذكرها بعض الشعراء[2]»، وأشار إلى

(١) الجزء ٣٨ ذو القعدة سنة ١٣٩٦ هـ.
(٢) المصدر السابق ص ٢٤.

أننا «حين نفتقد التاريخ الدقيق لدولة من دولنا في العصور الغابرة ينبغي أن نلجأ إلى دواوين الشعراء الذين عاصروها لعلنا نجد فيها ما افتقدناه[1]» . ومن هذه الناحية فإن شعر ابن المقرب يضم وثائق تاريخية هامة لأنه «لم يسجل ما عاصره من أحداث دولته فحسب، بل سجل أيضاً أحداثها منذ نشأت إلى عصره في تضاعيف مديحه لأمرائها وفخره بآبائه وأسلافه، وبذلك كان الديوان سجلاً شعرياً تاريخياً طريفاً» [1].

ويستشهد الدكتور شوقي ضيف بما يضمه ديوان الشاعر من تصوير للحياة في البحرين على عهد القرامطة، ثم تفاصيل التاريخ العيوني في هذه البلاد مشيراً إلى قيمة شعر ابن المقرب من هذه الناحية وبخاصة شعره في المديح والفخر: «وواضح أن ابن المقرب دوَّن لنا في شعره وديوانه تاريخ أسرته على مر السنين حين حكمت القطيف والأحساء والبحرين الحالية، ولم يترك حادثة مهمة دون تدوين. وفي هذا ما يدل بوضوح على قيمة هذا اللون من شعر المديح والفخر»[2].

وفي سنة ١٣٨٨ هـ صدرت دراسة عن حياة ابن المقرب وشعره أعدها الأستاذ عمران العمران في مائة وخمسين صفحة تقريباً. وعلى الرغم من أنها دراسة مختصرة موجزة إلا أنها تعتبر أول دراسة متخصصة لحياة ابن المقرب وشعره تعتمد على البحث والاستقصاء، مع أن المؤلف يقرر في بدايتها أنها دراسة «مبتورة الجوانب غير مستوفية لحياة الشاعر وشعره»[3].

ونحن لا نريد الاسترسال في الحديث عن هذه الدراسة فقد مرت بنا بعض الاستشهادات والمناقشات لبعض جوانبها فيما سبق، وإنما سنقف عند بعض النتائج التي انتهى إليها والتي تستحق الوقوف عندها سواء كانت إيجابية أو سلبية.

فقد تحدث عن قلة حظ الشاعر من الشهرة وأحقية شعره بالدرس والبحث، وما

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٨.

(٣) ابن مقرب حياته وشعره ص ٨.

لقيه «من الجحود والنكران والنسيان»[١].

ثم بيّن مكانته الأدبية في عصره، وأشار إلى أهمية ظهوره في الجزيرة العربية وهي ـ كما يقول: «أرض كان الشعر الجيد الرصين قد هجرها منذ أمد بعيد، فلم تعد صعيداً لفحول الشعر. ولهذا فإن عصر ابن مقرب القرن السابع الهجري عصر أقفر من الشعراء الحقيقيين، فلم يكن هناك يومذاك شاعر يلفت النظر ويسترعي الانتباه مثل ابن مقرب. وإن خروج شاعر من هذه الجزيرة ونبوغه في شاعريته بعد أن تسلمت بغداد والأندلس ودمشق والقاهرة والحواضر الكبرى رسالة الشعر من موطنه الأول. إن ذلك لمما يزيد من مكانة ابن مقرب الشعرية، وفي أهمية الدور الذي لعبه شعره في تاريخ الأدب العربي»[٢].

ثم يمضي في الحديث عن أغراض شعره: المديح ـ الفخر والحماسة ـ الشكوى والأنين ـ العتاب والنصح ـ الرثاء ـ الحكمة ـ الهجاء ـ الشوق والحنين ـ الغـزل والنسيب ـ الوصف. ولكن الكاتب يمر بهذه الأغراض مرّاً سريعاً وباختصار مخل لا يتناسب واهتمامه بتفاصيل حياته. ولعله قد عوّض عن ذلك نوعاً ما حين ألقى الضوء على تأثره بغيره من الشعراء في معانيه وأسلوبه، متلمساً له الموقع الذي يلائم شاعريته بينهم «إننا لا نجد حرجاً في القول بأنه يسمو في قوة عباراته وخصب تصوره وجودة معانيه وعلو أغراضه على متوسطي شعراء العربية ولكنه ـ على أية حال ـ لا يسمو إلى مرتبة الفحول. وهو بالنسبة إلى عصره الذي عاش فيه يمثل ـ دون مواراة ـ الذروة في الشعر»[٣].

ويتحدث الكاتب عن أسباب جهل الناس بابن المقرب مع براعته وجودة شعره[٤]. ويتساءل: لماذا ظل مغموراً خامل الصيت؟ فيعزو ذلك إلى تخلف بيئته

(١) المصدر السابق ص ٥.
(٢) المصدر السابق ص ٩١.
(٣) المصدر السابق ص ١٥٠.
(٤) المصدر السابق ص ١٦٥.

وسقوطها ، وعدم اهتمام الناس بشعره ومكانته[1] . وإلى موقف أبناء عمه منه بالإعراض عنه والاستخفاف به ، ثم بُعد البحرين عن حواضر الخلافة ومراكز الثقافة والمعرفـة مما نتج عنه إهمال المؤ رخين لتاريخ البحرين السياسي فضلاً عن تاريخ حركتها الأدبية . ثم عوامل الوهن والجمود والجهل التي ظهرت في زمن الشاعر بعد ضعف الوعي الفكري والثقافي عند العرب . أما رحلات ابن المقرب ـ في نظر الكاتب ـ فلم تؤ ثر في ذيوع صيته وانتشار شعره بمقدار ما أثرت في شعره ، فصقلته ووسعت أفقه .

وبصفة عامة فإن دراسة عمران العمران لحياة ابن المقرب وشعره عمل جيد يستحق الثناء والتقدير. فقد أسهم إسهاماً كبيراً في تعريف القراء بالشاعر، وألقى الأضواء على عصره وحياته وشعره، ولكنها دراسة لا تخلو ـ في نظري ـ من بعض المآخذ. فالكاتب نفسه يقرُّ بهذا ـ كما رأينا ـ ويسجل ذلك في ختام مقدمته: «وإن تكن هذه المحاولة قاصرة ومهزوزة الصورة ـ وما أقربها من ذلك ـ فلا ينس القاريء أنها مجرد (محاولة) يجوز عليها الفشل والنجاح[2]». ومن هنا فقد ظهرت لي بعض الملاحظات التي يحسن الإشارة إليها:

١ ـ قدم الكاتب تعريفاً بطبعتي الديوان المكية والهندية[3]، بالإضافة إلى تعريفه بمخطوطاته. ولكنه لم يحفل بالطبعة القطرية ولا بطبعة الدكتور عبد الفتاح الحلو مع أن الأخيرة صدرت سنة ١٣٨٣هـ، ودراسته هذه صدرت سنة ١٣٨٨هـ. وقد اكتفى بالإشارة إلى هاتين الطبعتين في الحاشية فقط[4]، والحق أنهما أفضل بكثير من سابقتيهما ولا يستغني عنهما أي دارس لحياة الشاعر وشعره.

---

(١) وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عبد القدوس الأنصاري انظر ما تقدم ص ٤١٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق ص ٣١.

٢ ـ يقرر الكاتب أن ابن المقرب قد تعلم في نشأته على يد علماء بلدِهِ (الأحساء) وأخذ عنهم اللغة العربية والأدب والشعر والتاريخ. ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك. ونحن لا نعرف سنداً تاريخياً يعتمد عليه في تفاصيل حياة الشاعر المبكرة سوى مقدمة ديوانه المقتضبة التي لا تدل على مكان دراسته أهو الأحساء أم غيرها مما لا يتيح للمرء الجزم بمكانها. ولكن بلده يظل الاحتمال الغالب لذلك دون القطع بأنه الأحساء.

٣ ـ يعتقد الكاتب أن الشاعر لم يكن صاحب قضية سياسية[١]، ولم يكن يتطلع إلى الحكم[٢]، وتلك مسألة فيها نظر، إذ يتطرق الشك إلى أن أسباب محنته في مصادرة أمواله وأملاكه ثم سجنه وإهانته هي فقط نتيجة استماع أبناء عمه إلى الوشاة والحاسدين، أو مدائحه لبني عمه أبناء الفضل بن عبد الله بن علي مما أوغر صدور أبناء عمه الآخرين عليه، وهم أبناء الفرع الثاني (علي بن عبد الله بن علي). ثم ما الذي يمنع الشاعر من التطلع إلى الحكم وإنقاذ ملك آبائه من الضياع بعد ضعف الحكام العيونيين وهو سليل الفرع الثالث للأسرة العيونية (ضبَّار بن عبد الله ابن علي)؟. إن ذلك مما يتفق مع طموحه وغيرته على بلده ووطنه ودولته وإلحاحه في العتاب والنصح وتلميحه إلى مقدرته على التصدي للأمر.[٣]

٤ ـ يرجح الكاتب أن وفاة ابن المقرب كانت بقرية طيوي بعمان استناداً إلى مخطوطة كتبت في القرن العاشر الهجري.[٤] ولم يشر إلى قول ابن الشعار الموصلي (معاصر للشاعر): «وتوفي به» يعني بلدَهُ العيون من الأحساء[٥]. وهو ما

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ص ٤٥.

(٣) انظر ما تقدم ص ٢٤٦.

(٤) انظر ابن مقرب ـ حياته وشعره لعمران العمران ص ٢٣. وقد سبق الإشارة إلى هذه المخطوطة في تاريخ الدولة العيونية وهي برقم ٦٣٧ بدار الكتب المصرية انظر ص ٨و ٣٠.

(٥) انظر ما تقدم ص ٩٧.

أميل إليه، ويتفق مع عتاب الشاعر لبني عمه في أواخر سنوات دولتهم، ومديحه لآخر أمرائهم (محمد بن محمد) حتى وإن كانت قصائده التي أنشأها بعد عام ٦٢٣هـ لا تحمل أي تاريخ حتى وفاته سنة ٦٣٠هـ.

٥ ـ وضع الكاتب شجرة تبين تسلسل الأمراء العيونيين أحفاد مؤسس دولتهم (عبد الله بن علي العيوني) دون أن يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك. وهو تسلسل يحتاج إلى كثير من الدقة والتحري لأنه يختلف عما ورد في مخطوطة دار الكتب المصرية الآنفة الذكر، والتي يذكر الكاتب أنه ضرب صفحاً عنها فيما يتعلق ببعض أمراء الدولة العيونية وتاريخها[١]. وبالتالي فإن عرضه لتاريخ الدولة العيونية وتسلسل أمرائها بحاجة إلى التحليل والتحقيق بالمقارنة بين المصادر جميعها بما فيها المخطوطة المذكورة، فهي مصدر هام في تاريخ الدولة العيونية يجب الاهتمام به وإن لم يكن وافياً بهدف الوصول إلى نتائج محددة تصحح بعض ما التبس عليه كقوله: إن الفضل بن محمد بن مسعود كان آخر الأمراء العيونيين[٢]. والأرجح أنه الأمير محمد بن محمد الذي قتل وهو يدافع عن القطيف سنة ٦٣٦هـ.[٣].

٦ ـ قدم الكاتب دراسة موجزة عن الأغراض الشعرية، وهي ـ أعني الأغراض ـ لب الموضوع وجوهره، وكان الأحرى به أن يقف عندها ويستجلي خفاياها، ويسلسلها حسب كثرتها أو أهميتها، وأن لا يقف دائماً موقف المدافع عن الشاعر بل يسجل ما له وما عليه. فقد تحدث عن المديح في سبع صفحات[٤] مع أنه يمثل نصف شعره تقريباً، وركز في حديثه عنه على الجوانب الحسنة كمديحه لبني عمه وما يمثله من ترفع وعزة نفس معرِضاً عن الجوانب السلبية في مدائحه مثل مبالغاته وتكلفه وتعسفه في بعض مدائحه التي اضطر إلى إنشائها في العراق. وأما الفخر

(١) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ٤٩ (الحاشية).

(٢) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ٤٨.

(٣) انظر ما تقدم ص ٤٥ .

(٤) انظر ابن مقرب حساته وشعره ص ٩٦.

والحماسة[1] فقد كان اهتمامه بهما منصبّاً على ميمية الشاعر في الفخر بقومه وأسرته، وما ورد فيها من إشارات لبعض القصص والحوادث التي يفتخر بها. ولقد كان الأولى أن يستقريء الحماسة والفخر في قصائده الأخرى أيضاً فهي أكثر تأثيراً وصدقاً، وهي أبعد عن السرد التاريخي الممل الذي نحسه في الميمية المذكورة.

وأما فن الشكوى والأنين ـ كما يسميه ـ فقد تحدث عنه في صفحتين فقط[2] مع أنه يمثل عماد شعره الذاتي الحي، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الكثرة بعد المديح، وفي المرتبة الأولى من حيث الجودة والصدق والتعبير النفسي الذي يحمل الأصالة والعمق والانفعالات الجياشة المؤثرة.

وقد تحدث عن الرثاء في صفحتين أيضاً[3] بمقدار حديثه عن الشكوى والأنين مع أن رثاءه لا يتعدى ثلاث قصائد. أما العتاب والنصح، والشوق والحنين فقد تحدث عنهما في أربع صفحات[4]، وفصلهما عن الشكوى والأنين، وهما غرضان لا يقومان بذاتهما في شعره، وكان الأولى دراستهما ضمن الشكوى والأنين. أما الهجاء[5] فلم يتطرق فيه إلى الأسباب التي دفعت الشاعر إلى هجاء ابن الدبيثي هجاء مقذعاً يتنافى مع ترفعه ووقاره[6]. كما اعتبر هجاءه لبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل هجاء خالصاً في قوله:

تَسَلطَنَ بالحَدْبَاءِ عَبـدٌ بلُؤْمِـهِ بَصِيرٌ بِلاَ عَنْ كُـلِّ مَكْرُمَـةِ عَمِ
إذَا أَيْقَـظَتْـهُ لَفْظَـةٌ عَـرَبِيَّـةٌ إلى المَجدِ قَالَتْ أَرْمَنِيتُهُ: نَمِ[7]

---

(1) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ١٠٣.

(2) انظر المصدر السابق ص ١١٥.

(3) انظر المصدر السابق ص ١٢١.

(4) انظر المصدر السابق ص ١١٧ و١١٨.

(5) انظر المصدر السابق ص ١٢٦.

(6) انظر ما تقدم ص ٢٧٦.

(7) الديوان ص ٥٠٥.

وعاب على الشاعر وقوعه في التناقض بهجاء من كان بالأمس يمدحه كما وقع بذلك المتنبي[1]. ولعله لم يرجع إلى النص الذي ورد في التقديم لهذين البيتين: «وله يهجو بدر الدين صاحب الموصل وقد سأله أن يهجوه فقال[2]». ومن الواضح أن هذين البيتين أقرب إلى المزاح البغيض، فلا ينبغي الاعتداد بهما في مجال الهجاء أو مؤاخذة الشاعر بهما.

وقد تحدث عن الحكمة في صفحتين أو تزيد[3]، مع أن الحكمة من الأغراض المهمة في شعر ابن المقرب لا من حيث كثرتها فسحب، بل من حيث تعبيرها عن أحاسيسه ومشاعره، وواقع مجتمعه وأسرته ودولته، وصدورها عن تجارب صادقة في حياته بالإضافة إلى ما أفاده من تجارب غيره.

٧ ــ وضع الكاتب عنواناً هو «مكانة شعر ابن مقرب التاريخية»[4]. وهي ظاهرة هامة في شعره تستحق الدراسة والبحث. ولكنه لم يتحدث فيها إلا عن موضوعين ثانويين هما: ذكره لقبيلة هُتيم وعاداتها (لم يذكر الشاعر هذه القبيلة إلا مرتين فقط)[5]، وذكره للأمكنة والمواضع في البحرين وخارجها. وهما موضوعان لا يمثلان أهمية كبيرة بجانب شعره التاريخي المتمثل في تاريخ الدولة العيونية، وتصوير المجتمع في عصره، وفي اهتمامه بأيام العرب وأخبارهم ومشاهيرهم في الجاهلية والإسلام[6].

٨ ــ لم ينهج الكاتب في دراسته منهجاً نقدياً حديثاً، ولم يصل إلى نتائج تتجلى فيها شخصيته وإبداعه. ولعل ذلك ما يشير إليه مقبل العيسى في نقده لدراسة

---

(١) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ١٢٨ و٥٩.

(٢) الديوان ص ٥٠٥.

(٣) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ١٢٣.

(٤) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ١٥١.

(٥) انظر الديوان ص ٣٦٤ وص ٣٧٥.

(٦) انظر ما تقدم ص ٣٢٥.

عمران حين يرى أنه «قد اعتمد في دراسة الأثر الشعري منهجاً تقليدياً كنت أتمنى أن يتحرر منه، وأن يسلك في هذه الدراسة المذهب الحديث في دراسة ونقد الأثر الأدبي[1]»، وحين يرى أنها «دراسة تقريرية لا أثر فيها لشخصية المؤلف ومعطياته وانطباعاته الذاتية وأفكاره. ومعلوم أن الدراسة الأدبية لا تشد ذهن القاريء ولا تستحوذ على إعجابه إذا كانت تقريرية لا إبداع فيها ولا تجريد»[2].

٩ ـ لم يكن الكاتب يهتم كثيراً بالعزو إلى المصادر والمراجع أو التدقيق في نسبة الأقوال والأبيات. فهو لا يشير إلى أرقام الصفحات في الديوان عند استشهاده بأبيات الشاعر أو لدى إشارته إلى بعض المصادر[3]، ولا يحدد أحياناً أسماء من يعنيهم بقوله: «وقال بعض آخر من المؤرخين»[4]، ويعتمد أحياناً على ذاكرته في نسبة بعض الأبيات لبعض الشعراء كتوهُّمه أن المتنبي هو الذي يقول:

إذَا ما سَرَوا بالجَيشِ حلَّقَ فَوقَهُم   عَصَائِبُ طَيرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ[5]

والصحيح أنه للنابغة الذبياني[6]. وهو لا يشير أحياناً إلى سبق غيره إلى الوصول إلى بعض الاستنتاجات مثل بعض (الهنات والهنِّات) ـ كما يسميها ـ والتي أورد بعضها عبد القدوس الأنصاري في جريدة صوت الحجاز[7] ووصفها بالهنات والهنّات .وهي مآخذ أورد عمران بعضها، ولم يقف الأمر عند إهماله الإشارة إلى

(١) مجلة العرب جزء ١٢ جمادى الآخرة. ١٣٩٠ هـ ص ١٠٩٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩٩

(٣) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ٦٧.

(٤) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ٣٨.

(٥) انظر ابن مقرب حياته وشعره ص ١٤٧.

(٦) انظر ديوان النابغة الذبياني جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر بن عاشور ص ٤٦.

(٧) انظر العدد رقم ٢٢٦ الصادر في ١٣/٧/١٣٥٥هـ.

مقال الأنصاري. بل علق على بعضها بنص عبارته تقريباً[1].

ومهما يكن من أمر فلعل الجوانب الحسنة الكثيرة في هذه الدراسة ـ وأهمها بعث الشاعر من رقدته الطويلة وتقديمه للخاصة قبل العامة ـ تغطي على هذه المآخذ، وتقدم الدليل على الجهد الواضح الذي بذله في دراسته «ذلك لأن القارىء يحس بأنه قد بذل جهوداً كبيرة في تحقيق ترجمة الشاعر والاطلاع على المصادر التاريخية والأدبية التي تحدثت عنه، فقدم لنا دراسة عن حياة الشاعر وأثره الشعري، وعن الجوانب المرتبطة بحياته والحياة الاجتماعية والسياسية في عصره»[2].

وقام الدكتور صلاح نيازي سنة **١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥** م بتقديم نشرة عن ديوان ابن المقرب مصحوبة بدراسة نقدية لشعره إلى كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن. وهي دراسة باللغة الإنجليزية[3] لم تطبع ولم تنشر بعد، كما لم تترجم إلى العربية. ولما كانت غير متوافرة لمن يريد الاطلاع عليها، فسنحاول التعرف على بعض النتائج التي توصل إليها الكاتب مع الوقوف عند بعض المآخذ والهفوات التي وقع فيها نتيجة بعده عن بيئة البحرين. وتقديمه الدراسة إلى مجتمع غربي تتفاوت مفاهيمه ومقاييسه للحياة الأدبية العربية وللمجتمع الإسلامي.

قدم الكاتب لدراسته بمقدمة تحدث فيها عن مكانة ابن المقرب مستشهداً بآراء معاصريه الذين أقروا له بالنبوغ والشاعرية الأصلية، ثم أشار إلى الأهمية التاريخية لشعره، فهو المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه في معرفة أحداث عصره في البحرين: «ولإعطاء فكرة عن مثل هذه الأهمية لشعر ابن المقرب فإن بوسع المرء

---

(١) انظر العدد رقم ٢٢٦ الصادر في ١٣٥٥/٧/١٣ هـ وابن مقرب حياته وشعره لعمران العمران ص ١٥٩.

(٢) مجلة العرب جزء ١٢ جمادى الآخرة ١٣٩٠ هـ ص ١٠٩٨ بقلم مقبل العيسى.

(٣) يوجد منها نسختان فقط بالإنجليزية إحداهما بحوزة الكاتب وقد حصلت على نسخة مصورة منها من الدكتور صلاح نفسه، والأخرى بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بلندن.

أن يذكر بأن جميع الكتب تقريباً قديمة وجديدة والتي كتبت عن البحرين تستخدم شعر الشاعر كمصدرها الوحيد للمعلومات، وعلى الأخص عندما تبحث عن سلالة العيوني أو القرامطة»[1].

ثم تحدث عن قيامه بنشر الديوان بأسلوب السابق إلى نشره دون أن يشير إلى طبعات الديوان السابقة: «ونظراً للأهمية الأدبية والتاريخية لشعر ابن المقرب، ولأهمية هذه الفترة، وأخطاء المؤرخين، والفوضى الواسعة فيما نشر بالفعل من شعر ابن المقرب فقد تقرر نشر ديوانه[2]». ثم يعرِّف بنشرته هذه موضحاً أنه استعان بأربع مخطوطات استخدمت لأول مرة[3].

ويتحدث عن شعر الشكوى والعتاب عند ابن المقرب ويصف الشاعر من خلاله بأنه «لم يولد متذمراً، وأنه ليس متشائماً ولا متفائلاً. إنه ببساطة شاعر يغوص في الأعماق ويضع أصبعه على سبب المرض، مبيناً الأعراض وواصفاً الدواء[4]». كما يرى أن شعر ابن المقرب يظهره وكأن لديه حزب معارضة سياسية إلا أنه يشق طريقه وحيداً، وهو لا يطالب بالزعامة لنفسه. فهو لا يريد الإطاحة بالحكام ولا إضعافهم. وهمه الوحيد أن يرى الأشياء في مكانها الصحيح[5] ويلخص ما يشتكي منه الشاعر بثلاثة أمور: فساد المجتمع، وعجز قادة البحرين في ذلك الزمان، والفساد الخلقي الذي عم الناس ولم ينج منه أصدقاؤه الخلص[6].

ويتحدث عن مدائح ابن المقرب فيشير إلى رغبته في الترفع عن المديح، ويرى أن مدائحه ـ من هذه الناحية ـ قد مرت بأربع مراحل: فهو يبدو في المرحلة

---

(١) ص ١١ من دراسة الدكتور نيازي.
(٢) المصدر السابق ص ١٢.
(٣) المصدر السابق ص ١٣ وانظر توثيق شعره فيما تقدم ص ١١٠.
(٤) المصر السابق ص ١٥٧.
(٥) المصدر السابق ص ١٥٨.
(٦) المصدر السابق ص ١٥٩.

الأولى ذا إباء عظيم لا يرى أحداً يستحق المديح سوى بني عمه، وفي المرحلة الثانية يبدو مؤمِّلاً أو يائساً مهدداً بمغادرة وطنه ومدح رجالات العراق وغيرهم لاستمالة بني عمه، وفي المرحلة الثالثة ييأس ويرحل عن وطنه، ويضطر إلى المديح لحاجته إلى المال، ويبدو في المرحلة الرابعة وهو يعاني من صعوبات مالية عظيمة، وهي مرحلة حاسمة حرجة في حياته، وفيها يصرح بحاجته ويشتد في لوم بني عمه لاستيلائهم على أمواله.[1].

ويصل الدكتور نيازي في خاتمة دارسته إلى بعض النتائج وأهمها:

١ ـ أن معاصريه من العلماء والأدباء كالمنذري والموصلي والعكبري قد وضعوه في المقام الأول بين الشعراء خلال المائتي عام الأخيرتين، وبالرغم من أنهم لا يبدون أسباب إعجابهم فإن بوسع المرء أن يستنتج بأن عذوبة تعبيرات ابن المقرب الشعرية وسلاستها هي السبب وراء هذا الإعجاب.

٢ ـ أن من الجلي أنه يعبر عن أفكاره بفصاحة عظيمة لتمكنه من اللغة العربية.

٣ ـ أنه أول شاعر أدخل ما يمكن وصفه بالشعر العقلي أو الوثائقي معتمداً على معرفته الواسعة بالتاريخ وسواه من أبواب الثقافة.

إن دراسة الدكتور نيازي لشعر ابن المقرب تبدو مبنية على استقراء ديوان الشاعر بشمول وتمحيص واهتمام بالجزئيات الدقيقة، ووقوف عند خواطره وأفكاره وما وراءها من أسباب، كما تعتمد في بعض جوانبها على المصادر التاريخية، ومقارنتها بشعر ابن المقرب فيما يتعلق بالحياة العامة في عصره. ولكن رغم ذلك فإن الكاتب كان بعيداً عن تصور الحياة الاجتماعية على حقيقتها في منطقة البحرين في الماضي والحاضر إلى حد ما، كما أنه قد هيأ دراسته ليقرأها المجتمع الغربي ذو المفاهيم البعيدة عن المجتمع الإسلامي. ولعل ذلك ما أوقعه في بعض المآخذ والهفوات بالإضافة إلى الملاحظات المتعلقة بالطريقة المنهجية لهذه الدارسة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

وأبرز هذه المآخذ والملاحظات ـ في نظري ـ ما يلي:

١ ـ تفقد هذه الدراسة عنصر التوازن بين موضوعاتها وفصولها. ففي المقدمة مثلاً إشارة إلى أهمية ديوانه في التعريف بسيرة شمس الدين باتكين أمير البصرة ثم يستطرد بعد ذلك إلى شرح سيرة باتكين مستشهداً بأقوال المؤرخين حتى يخرج عن موضوعه الأصلي أو يكاد. ومثل ذلك إطنابه في دراسة الحياة العامة في عصر الشاعر والتركيز على موضوعات لا علاقة لها بالدراسة الأدبية، كالحركة التجارية العالمية والطرق البحرية والبرية. ثم نراه يختصر اختصاراً مخلاً في بعض الجوانب المهمة التي تدخل في صلب الدراسة كالإيجاز في دارسة الحياة العامة في البحرين في عصره، وكالاختصار في تاريخ الدولة العيونية. ومع أنه يشير إلى أهمية ديوانه كمصدر هام لتاريخ هذه الدولة فإنه قد اكتفى بتقديم لمحة موجزة عنها خلال مائة وسبعين عاماً من حكمها للبحرين دون أن يقف عند التعريف بحكامها وأمرائها وفترات قوتهم وضعفهم، كما لم يتحدث عن تاريخ القرامطة في البحرين مع ما له من صلة قوية بقيام الدولة العيونية، وما يمثله من أهمية بالغة في تاريخ هذه المنطقة لا من الناحية السياسية فحسب. بل من الناحية الفكرية والاجتماعية. ومثل ذلك اختصاره الحديث عن نسب الشاعر ونشأته وعدم التحقيق في ذلك حتى وقع ـ مع هذا الاختصار ـ في الخطأ كقوله: «ومن أسمائه النعماني»[1].

٢ ـ يبدو الكاتب أحياناً بعيداً عن المحيط الذي نشأ فيه الشاعر غريباً عن بيئة البحرين ومجتمعه كما يتضح ذلك من بعض أحكامه واستنتاجاته كقوله: إن الجشّ جبل صغير في الحجاز[2]. وكاستغرابه زواج الرجال في البحرين في سن السادسة عشرة: «ويقال إنه إلى عهد قريب (وربما حتى الآن) يتزوج الرجال في البحرين لدى بلوغ سن السادسة عشرة»[3]. ومعلوم أن الزواج المبكر في مثل هذه السن في

(١) المصدر السابق ص ٨٦.
(٢) المصدر السابق ص ١١٧ والجش: قرية قرب القطيف لا تزال تعرف بهذا الاسم.
(٣) المصدر السابق ص ١٨٨.

الجزيرة العربية غير مستغرب إلى يومنا هذا فكيف به في عصر الشاعر.

٣ ـ يظهر الكاتب وكأنه ينطلق من مفهوم غربي يختلف عن المجتمع العربي المسلم وبخاصة في شئون الأسرة وما يرتبط بها كالأنساب والشرف وعلاقة النساء بالرجال كفهمه أن الشاعر يعني أمَّهُ بعينها حين يلقبها بأم المجد في قوله:

فَلَستُ ابْنَ أُمِّ المَجْدِ إن لَمْ تَزُرْكُمُ　　مُسوَّمةً بَينَ القَنَا والقَواضِب (١)

فقد استشهد بهذا البيت في مجال حديثه عن والدته معتقداً أنه يعني بذلك أمه. وذلك خطأ فادح في فهم المعنى. فالشاعر لا يعني والدته نفسها، وإنما قوله «ابن أم المجد» كناية نسبة، يعني بها أنه ليس من المجد في شيء إن لم يقد كتائب الحرب. ومثل ذلك تفسيره لقول ابن المقرب:

فَمَا وَلَدَتْنِي حَاضِنٌ حَنَفِيَّةٌ　　عُبَيدِيَّةٌ تَسْمُو إلى الحَسَبِ الجَزْلِ (٢)

على أنه دليل على مذهبه السني ما دامت أمُّه حنفية المذهب(٣). وذلك خطأ مضحك في فهم البيت. فالشاعر يفتخر هنا بنسب أمه وانتمائها إلى (بني حنيفة) وهو يؤكد ذلك في بيت آخر مشيراً إلى أنها من بني وائل، وبنو حنيفة منهم:

إذَنْ لَمْ تَلِدْنِي حَاضِنٌ وَائِليَّةٌ　　مُقَابَلَةُ الآبَاءِ مُنْجِبةُ الوُلْدِ (٤)

ولعل هذا الفهم المستغرب سرى إلى الدكتور نيازي من توجيه المشرف على رسالته، وهو مستشرق إنجليزي لا يستطيع الإحاطة بأسرار العربية ولا التمكن منها، على أننا نعجب لطالب عربي يتخصص في الأدب العربي ولا يعرف كناية النسبة ولم يسمع بقبيلة بني حنيفة ليميز بين الانتساب إليها وبين التمذهب بالحنفية.

(١) المصدر السابق ص ٨٨ والبيت في ديوانه ص ٧٢.
(٢) الديوان ص ٣٢٣.
(٣) ص ٩٠ و ١٥٦ من دراسة الدكتور نيازي.
(٤) الديوان ص ١٣٣.

ومثل هذا الفهم وصفه النساء في عصر الشاعر بأنهن قابعات وراء الأبواب لا يخرجن من بيوتهن إلا إذا اضطهدن كما حدث لبناته، أما اللاتي يخرجن فهن المغنيات اللائي يحملن آلات موسيقية: «إذا ما وضعنا جانباً المغنيات اللواتي يعزفن على آلات موسيقية فيما يشبه حفلة خاصة، وبعض الفتيات الأخريات الجميلات اللواتي كنَّ يَمثُلنَ له خلال أحلام يقظته فإن نساء ابن المقرب كن دائماً وراء الأبواب، وإذا ما حدث وأن شوهدن خارج الأبواب فلأنهن اضطهدن بطريقة أو بأخرى. وهناك منظر لا يستطيع ابن مقرب أن يمحوه من ذاكرته وهو منظر بناته يُلقى بهن مرغمات إلى الصحراء المكشوفة»[1]. إن بنات الشاعر لم يرغمن على الخروج إلى الصحراء المكشوفة كما يقول[2]، بالإضافة إلى أن مجتمع البحرين لم يكن بهذه الصورة التي صورها الكاتب. فالنساء كن يخرجن إلى شئونهن ويشاركن في الحياة العامة في الأسواق والمزارع والمراعي وسواها. أما الغناء فهو عمل مستهجن في نظر النساء العربيات حتى يومنا هذا، وكان مقتصراً على بعض القيان والجواري. ثم إن الشاعر لم يُعرف عنه أنه كان يحضر حفلات خاصة أو عامة تعزف فيها المغنيات على الآلات الموسيقية. بل كان يعتز ببعده عن هذه المجالس.

وأكْبَرتُ نَفْسِي أن أُجَالِسَ قَيْنَةً ودُفًّا ومِزْمَاراً وعُوداً وأعْبُدَا[3]

ومثل هذا الفهم الخاطيء تصويره لنظرة العربي إلى محارمه وصيانته لشرفه بصورة مطابقة للمفهوم الغربي عن العرب: «وعلى سبيل المثال لم يجد ابن مقرب أية وسائل أخرى لإقناع أبي القاسم بمقاتلة البدو سوى مصير النساء إذا ما انتصر هؤلاء المهاجمون[4]». إن ابن المقرب لم يقل في هذا الباب أكثر مما قال غيره، فتلك طريقة الشعراء وسواهم في استثارة غَيرةِ العربي على محارمه. ويقرب من

---

(١) ص ١٢٠ من دراسة الدكتور نيازي.
(٢) انظر ما تقدم ص ١٩١
(٣) الديوان ص ١٥٨.
(٤) ص ١٢١ من دراسة الدكتور نيازي.

ذلك ظنه أن الشاعر يعني (طاسات الخمر[1])بقوله:

لا تَحْسَبُــوا شَــرَّ العَــدُوِّ تَكُفُّهُ   عَنكُمْ مُصَــانَعَةٌ وحَمْــلُ جِفَانِ[2]

٤ ـ تمتاز دراسة الدكتور نيازي بالتركيز على الجزئيات الدقيقة، والبحث عما وراء أفكار الشاعر وأحاسيسه وخواطره، ولكن هذا النهج قد حدا به في بعض الفصول إلى الدخول في مناقشات فلسفية عميقة تُحمِّل النصوص الأدبية أحياناً أكثر مما تحتمله معانيها أو تتسع لها أهداف الشاعر ومقاصده. ففي الفصل السابع مثلا يتحدث عن النباتات والحيوانات في شعر ابن المقرب فيرى أن الحيوانات في شعره «إذا نظرنا إلى الأمور على ما هي عليه تشبه الناس والعكس بالعكس، وهي تساعد على تصوير مواقف محددة، أو على الأقل لمقارنة سلوك الإنسان بسلوكها[3]». إن هذه النظرة قد تنطبق على بعض الأبيات في الشكوى والحكمة والهجاء حينما يشبِّه الشاعر أعداءه ببعض الحيوانات في غدرها أو ضعفها وهوانها، ولكنها لا تنطبق على الكثير من أشعاره في المديح والشكوى والحماسة، حيث تظهر الحيوانات فيها بصور لا علاقة لها بالمقارنة في السلوكِ الإنساني كالإبل والخيل في رحلاته ووصفه للشجاعة والحرب، ولو كان الكاتب يقف عند هذه النتائج وأمثالها لأمكن قبولها إلى حد ما، ولكنه يفسر بعض الأبيات بمعان تتعدى هدف الشاعر. فهو يقول في تعليقه على مديح الشاعر للناصر لدين الله لقيامه بقتل الأسود التي كانت تهدد بعض الطرقات في بغداد: «وبالتأكيد فإن الشاعر يشير إلى طبقات معينة من الناس لا إلى حيوانات حقيقية، وعلى الأخص لأنه من المعروف أن الناصر كان قاسياً على أعدائه، يبث عيونه بين الناس[4]». إن ذلك احتمال ضعيف فربما كان الشاعر يشير

---

(١) ص ١٢٢ من دراسة الدكتور نيازي.

(٢) الديوان ص ٦٣٨. والجفان: جمع جفنة وهي القصعة أي أن العدو لا يكفه عنكم حمل الطعام إليه ومصانعته ومداراته.

(٣) ص ١٣٣ من دراسة الدكتور نيازي.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٩.

بطريق غير مباشر إلى شدة الناصر وقسوته على الخارجين على سلطان الخلافة، ولكنه يعني بالدرجة الأولى تلك الحادثة المعينة بقتل أسود حقيقية وإبادتها حين قال: (١)

وَمَنْ أَلْزَمَ الأُسْدَ القِصَاصَ فَهَلْ تَرَى ... أُوَيساً عَلَى شاءٍ بِوَادِيهِ يُقْدِمُ
جَنَتْ ما جَنَتْهُ وهْيَ تَحْسبُ أنَّهَا ... مِنَ العُجْبِ إذ كَانَتْ سِمَاكٌ ومِرْزَمُ
فَلمَّا رَمَاهَا بالعُقُوبَةِ لَمْ تَرُحْ ... مِنَ الغَابِ إلَّا وهْيَ لَحْمٌ مُوَضَّمُ

إن الكاتب يبالغ في فلسفة آرء الشاعر نحو الحيوانات حتى يصل إلى التهويل في نظرة ابن المقرب لها كقوله: «وعلى أي حال فابن المقرب يعود من العراق بخبرتين مذهلتين: الأولى عن الجواميس والأخرى عن طيور معينة، وهاتان الخبرتان تستطيعان أن تثبتا أصالتهما وحدهما(٢)». وهو يشير هنا إلى قول ابن المقرب: (٣)

يـا حَبَّـذَا بَقَـرُ العِـرَاقِ فـإنَّهَـا ... لأَشَـدُّ مَحْمِيَـةً وخَيـرُ وَفَـاءِ
بَـلْ حَبَّـذَا طَيـرٌ يَعُـومُ بِمَـائِهَـا ... طَـوراً ويَرعَى النَّجْمَ بـالصَّحْرَاءِ

وفي مناقشته للغزل عند ابن المقرب يقرر أنه يستعين بالنساء في شعره بدهاء لثلاثة أهداف(٤): لتزيين وزخرفة شعره، وباعتبارهن ملاذاً له، ثم التعبير بهن من باب الرمز. ويتبين الغزل في الهدف الأول بعدة مظاهر هي أن جميع المشاهد التي ظهرت فيها النساء هي في النهار؛ وكأنه يعمد إلى عرض جمالهن لمن يريد

---

(١) الديوان ص ٤٥٤ وقد علق شارح الديوان على هذه الأبيات بقوله: «وكان الإمام الناصر لدين الله لما قطعت الأسود طريق بغداد جمع لها خلقاً كثيراً وطلبوها في غاباتها وقتلوها فأمنت الطريق». وأويس: الذئب، والموضّم: المقطع.

(٢) ص ١٤٩ من دراسة الدكتور نيازي.

(٣) الديوان ص ١٧.

(٤) انظر ص ١٨٨ من دراسة الدكتور نيازي.

الاستمتاع، وأنه لا يمكن زيارتهن ولا زيارة منازلهن، وأن الفتيات في شعره هي غالباً صور ساكنة لا تتحرك. أما الهدف الثاني فإن الشاعر يلوذ بالنساء حين يكون الحاضر مظلماً والمستقبل مجهولاً فيعود إلى ذكرياته الماضية مع النساء. وفي الهدف الثالث يستخدم النساء من باب الرمز كالتعبير بهن في المديح في ظل ظروف معينة كما في مديحه لأحد بني عمه حينما يتحدث عن زينب التي قطعت علاقتها معه لأنها أصبحت مغرورة بجمالها[1].

إن هذه الطريقة ـ في نظري ـ ما هي إلا مجرد افتراضات نظرية لا طائل تحتها بل تجانبها الحقيقة في معظم أجزائها. فالغزل عند ابن المقرب ليس كما يتوهم الكاتب. فهو ـ على قلته ـ غزل تقليدي بحت لا مكان فيه لعواطف الحب الجياشة، ولا أثر فيه للحالات القليلة «التي أحب فيها وكانت مفعمة بالحب ومثيرة[2]» كما يقول، ولا مجال فيه للقول: إن الشاعر «يعطي بشكل بارع الوصف التالي لأثر سحره على النساء:

ولَطَالَمَا أَبْصَرْنَنِي فَعَثَرْنَ في ... أَذْ يَا لِهِنَّ القَانِتَاتُ العُبَّدُ[3]»

إن هذا البيت وأمثاله لا يعدو كونه تقليداً محضاً لسابقيه من الشعراء أمثال عمر ابن أبي ربيعة وعبد الله العرجي وغيرهما.

---

(١) يعني بذلك قوله:
صدَّتْ فجَذَّتْ حَبلَ وصلِكَ زَينَبُ ... تِيهاً وأَعْجَبَهَا الشَّبَابُ المُعْجِبُ
الديوان ص ٨٤

(٢) ص ١٨٧ من دراسة الدكتور نيازي.

(٣) ص ١٨٧ من دراسة الدكتور نيازي والديوان ص ١٦١ ويروى عجز البيت هكذا: أذيالهن الفاتنات النهّد.

رقمه
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الخاتمة

حينما ضعف حكم القرامطة في البحرين في منتصف القرن الخامس الهجري ظهر في الأحساء رجل مغامر جريء هو عبد الله بن علي العيوني فانتزع الحكم فيها من بقايا القرامطة، ثم ضم إلى ملكه القطيف وما جاورها وجزيرة أَوَال (البحرين الآن) بعدما تغلب على أمراء هذه البلاد، ثم دانت له سائر المناطق شرقيَّ الجزيرة العربية فأسس بذلك ملكاً تعاقب عليه أبناؤه وأحفاده من بعده، وعُرف بالدولة العيونية واستمر حتى منتصف العقد الرابع من القرن السابع الهجري.

ومن سلالة هذا الأمير ظهر شاعر مجيد موهوب هو علي بن المُقرَّب العيوني (٥٧٢ هـ - ٦٣٠هـ). وقد نشأ في ربوع بلده الأحساء، وفي ظل البيت العيوني الحاكم، ولكن حياة هذا الأمير الشاعر تغيرت منذ أن اتهمه أبناء عمه بالتطلع إلى الحكم واستمعوا فيه للوشاة والحاسدين، فصادروا أمواله وأملاكه وزجُّوا به في السجن، إلى أن خرج منه يائساً حزيناً كسير القلب، ورحل من بلده إلى العراق، وظل يتنقل بينه وبين الأحساء عدة سنوات وهو لا يجد عزاءه وسلوته إلا في فيض قريحته يشكو ما حل به من ضيم وظلم واضطهاد، ويعاتب بني عمه الذين أذلوه وأبعدوه وتنكروا لقرابته ومكانته في الأسرة العيونية. وكان في أثناء رحلاته يمدح الخلفاء العباسيين وبعض رجالات العراق الذين قدَّروا مواهبه، وأعجبوا بفنِّه، كما يمدح بعض أمراء عشيرته حين يعود إلى بلده فيستعطفهم ويشيد بمناقبهم مفتخراً بمآثر دولتهم، ومسجلاً بشعره تاريخها في حكم البحرين في فترة لا يعرف عنها المؤرخون إلا الشيء القليل.

وإلى جانب مدائحه وشكواه وعتابه وفخره كان شاعراً حكيماً يصوغ بروائع شعره الحكمة الصادقة المعبرة عن واقع حياته المؤلم وتجربته القاسية، كما كان يرثي أو يتغزل أو يهجو أو يصف ولكن بأبيات قليلة لا تتناسب مع وفور شعره في الأغراض الأخرى التي تشكل معظم ديوانه الكبير، ولم تكن قصائده تأخذ في الغالب صفة الاستقلال والوحدة الموضوعية، بل هي مزيج من المديح والشكوى

والعتاب والفخر والحكمة بتأثير قلقه واضطرابه النفسي وعدم استقراره وكثرة رحلاته وتنقلاته وشعوره الدائم بالوحدة والغربة.

ولقد نهج ابن المقرب في معانيه وأسلوبه نهج المتقدمين من شعراء الجاهلية والإسلام، وكان متأثراً بهم إلى حد كبير، ولكن هذا التأثر لم يطغ على شاعريته أو يفقده الإبداع والتجديد، فقد رسم لنفسه من خلال الشكوى والعتاب والفخر والحماسة والحكمة شخصية متميزة نلمح معالمها في ذاتيته وعفويته وصدقه، وفي جمعه بين معاني الكآبة والحزن والتحسر واليأس وبين معاني التجلد والصبر والاعتزاز والطموح والتطلع إلى معالي الأمور، والتباهي بقدراته ومواهبه وقوة شكيمته وشدة احتماله للنوائب والخطوب، كما نلمح مظاهر شاعريته المتميزة في حرصه على تدوين الحوادث التاريخية وتسجيل الوقائع في زمنه، والاستشهاد بما سلف منها في عصور خلت، وتصوير الحياة الاجتماعية في عصره وبخاصة في بلده، مما أكسب شعره أهمية تاريخية فضلاً عن قيمته الفنية والأدبية. وكل هذه المعاني وما يعضدها من ظروف حياة الشاعر واضطراب الحياة في عصره هي التي هيأت هذه الوفرة في العطاء والعزارة في النتاج.

وتبعاً لتعدد الأغراض في ديوانه وتزاحم المعاني في شعره فقد كان يعطي لكل حالة لبوسها بأسلوب جزل متين وصيغ مناسبة لكل معنى أو فكرة يطرحها، وبألفاظ فصيحة سهلة التناول في الغالب لولا تلك المسحة من الغرابة التي تظهر أحياناً على ألفاظ شعره وتراكيب أسلوبه، وكأنه ذلك الشاعر الجاهلي الذي يقدُّ ألفاظه من الصخر، مظهراً لنا أنه الشاعر الحاذق البارع في لغته، والواسع المدارك في ثقافته.

ورغم جودة معانيه ومتانة أسلوبه فلم يسلم شعره من بعض المآخذ والتجاوزات ـ شأن أي شاعر مكثر وفير الشعر ـ إذ نجد بين مقاطع أبياته بعض التكلف والمبالغة والتكرار وبخاصة في المديح، وذلك بتأثير عوامل متعددة منها كثرة ممدوحيه واضطراره إلى التقرب إليهم في سبيل رد مظلمته أو عونه على ضائقته، كما نجد إلى جانب ذلك بعض الضرورات الشعرية والتجاوزات اللغوية، ولعل له من أصالة

فنِّه وإبداعه فيه وتمكنه من اللغة العربية ما يشفع له في الوقوع في مثل هذه الهفوات.

ذلك هو علي بن المقرب العيوني الشاعر الذي غفلت عنه أجيال متلاحقة، وظل ديوانه طيَّ النسيان إلى عهد قريب، وكأن الظلم الذي لقيه في حياته قد بقي يلاحقه حتى بعد موته. ولقد آن لرجال الفكر والأدب والعلم أن يعرفوا لهذا الشاعر حقه، وأن يدركوا مكانته ومنزلته ليس بين شعراء عصره فحسب، بل بين شعراء العربية الكبار حين أعاد بشعره أصداء العصور الأدبية الزاهرة في العصر الجاهلي والعصور الإسلامية الأولى بما أنتجته قريحته من شعر جزل أصيل يذكِّرنا بروائع زهير بن أبي سلمى في الحكمة الصادقة المعبرة، وروائع أبي الطيب المتنبي في الحماسة والفخر والطموح، ومقطوعات أبي فراس الحمداني والشريف الرضي في الشكوى والعتاب، ويقدم لنا مثالاً فريداً لشاعر الجزيرة العربية الفحل الذي لا يباريه فيها شاعر آخر على مدى ألف عام تقريباً.



المصادر والمراجع

أ ـ الكتب:

١ ـ ابن المقرب العيوني ـ شاعر الخليج العربي في عراقياته بحث للدكتور رزوق فرج رزوق الأستاذ بجامعة البصرة.

٢ ـ ابن مقرب ـ حياته وشعره لعمران محمد العمران ـ مطابع الرياض ١٣٨٨ هـ.

٣ ـ أدب الدول المتتابعة للدكتور عمر موسى باشا ـ دار الفكر الحديث الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ ١٩٦٧ م.

٤ ـ الأدب العربي المعاصر في الجزيرة العربية للدكتور عبد الله المبارك ـ القسم الأول ـ مطبعة الجبلاوي بالقاهرة ـ ١٩٧٣م.

٥ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني المطبعة الشرفية بمصر ١٩٠٧ م.

٦ ـ أعجب العجب في شرح لامية العرب لأبي القاسم الزمخشري مطبعة الجوائب بالقسطنطينية ـ الطبعة الأولى ١٣٠٠ هـ.

٧ ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ـ الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.

٨ ـ الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب لابن ماكولا ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م.

٩ ـ الأمالي لأبي علي القالي ـ مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.

١٠ ــ أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين لعلي البلادي البحراني ـ مطبعة النعمان ـ النجف بالعراق ١٣٧٧ هـ.

١١ ــ البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ بن كثير ـ الطبعة الأولى ١٩٦٦ م.

١٢ ــ تاج العروس للإمام محمد مرتضى الزبيدي ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٦ هـ . ١٩٦٦ م.

١٣ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ـ راجعها وعلق عليها الدكتور شوقي ضيف ـ دار الهلال ـ ١٩٥٧م.

١٤ ــ تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني لعمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٧٢ م.

١٥ ــ تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ـ ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٥ م.

١٦ ــ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي ـ دار التراث ـ بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م.

١٧ ــ تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية ـ سنة؟.

١٨ ــ تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ـ القسم السياسي بغداد ـ ١٩٥١ م.

١٩ ــ تاريخ الولاة العيونيين ـ مخطوط بدار الكتب المصرية (المكتبة التيمورية) برقم ٦٣٧ (جزء من كتاب زهر الرياض وزلال الحياض للحسن بن شدقم).

٢٠ ــ تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد لمحمد بن عبد الله ابن عبد المحسن آل عبد القادر مع ملحقاته ـ أشرف على طبعه وعلق عليه حمد

الجاسر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٧٩ هـ.

٢١ ــ تحقيق ديوان ابن المقرب مع دارسة نقدية للدكتور صلاح نيازي مقدمة لجامعة لندن (لم تطبع بعد).

٢٢ ــ تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني تحقيق وتعليق الدكتور مصطفى جواد مطبعة المجمع العلمي العراقي ـ ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

٢٣ ــ التكملة لوفيات النقلة لزكي الدين عبد العظيم المنذري تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م.

٢٤ ــ التنبيه والإشراف لأبي الحسن المسعودي ـ مطبعة خياط بيروت ـ ١٩٦٥م.

٢٥ ــ تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ـ ترتيب وتصحيح عبد القادر أفندي بدران مطبعة روضة الشام ـ ١٣٣٢ هـ.

٢٦ ــ الحماسة في شعر الشريف الرضي لمحمد جميل شلش ـ منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهورية العراقية ـ ١٩٧٤ م.

٢٧ ــ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب ـ قسم شعراء الشام ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ـ المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

٢٨ ــ دليل الخليج ـ القسم الجغرافي تأليف ج، ج لوريمر ـ مطابع علي بن علي بالدوحة ـ سنة؟.

٢٩ ــ ديوان ابن الرومي ـ اختيار وتصنيف كامل كيلاني ـ مطبعة التوفيق الأدبية ـ سنة؟.

٣٠ ــ ديوان ابن عُنين ـ تحقيق خليل مردم بك ـ مطبوعات المجمع العلمي

العربي بدمشق ـ مطبعة دمشق ـ ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م.

٣١ ـ ديوان ابن المقرب ـ المطبعة الميرية بمكة المكرمة ـ ملتزم الطبع عبد الله ابن سعيد باخطمة ـ ١٣٠٧ هـ.

٣٢ ـ ديوان ابن المقرب ـ مطبعة دير ساد في بومباي بالهند ـ ملتزم الطبع عبد العزيز بن أحمد بن محمد العويصي الأحسائي ـ ١٣١٠ هـ.

٣٣ ـ ديوان ابن المقرب ـ تحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو ـ نشر مكتبة التعاون الثقافي بالأحساء ـ مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

٣٤ ـ ديوان ابن هُتيمل ـ تحقيق محمد بن أحمد العقيلي ـ دار الكتاب العربي بمصر ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٨١ هـ.

٣٥ ـ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٧ م.

٣٦ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري مطبعة البابي الحلبي بمصر ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م.

٣٧ ـ ديوان أبي فراس الحمداني ـ رواية أبي عبد الله الحسن بن خالويه ـ دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ـ ١٣٧٩ هـ.

٣٨ ـ ديوان امرىء القيس ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م.

٣٩ ـ ديوان بشار بن برد ـ تقديم وشرح محمد الطاهر بن عاشور ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م.

٤٠ ـ ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ـ مطبعة السعادة بمصر الطبعة الثالثة ـ ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٧ م.

٤١ ـ ديوان ذي الرمة ـ تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٣٩٣ هـ.

٤٢ ــ ديوان سبط ابن التعاويذي بتصحيح مرجليوث الأستاذ بجامعة إكسفورد مطبعة المقتطف بمصر ـ ١٩٠٣ م.

٤٣ ــ ديوان الشريف الرضي بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو ـ الطبعة الأولى ١٩٧٧ م.

٤٤ ــ ديوان العرجي ـ شرح وتحقيق خضر الطائي ورشيد العبيدي ـ الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ـ بغداد ـ الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م.

٤٥ ــ ديوان علي بن المقرب العيوني ـ منشورات المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م.

٤٦ ــ ديوان النابغة الذبياني ـ جمع وتحقيق وشرح محمد الطاهر بن عاشور ١٩٦٧ م.

٤٧ ــ السيرة النبوية لابن هشام ـ دار إحياء التراث العربي ـ الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ.

٤٨ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ سنة؟

٤٩ ــ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لأبي العباس ثعلب ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م.

٥٠ ــ شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي لمحمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر ـ الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.

٥١ ــ شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة للدكتور زكي المحاسني ـ دار المعارف بمصر ١٩٦١ م.

٥٢ ــ صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار لمحمد بن عبد الله بن بليهد الطبعة الثانية ـ ١٣٩٢ هـ.

٥٣ ــ صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني ـ تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ـ أشرف على طبعه حمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة بالرياض ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م.

٥٤ ــ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ الطبعة الأولى ـ ١٣٢٤ هـ.

٥٥ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد ـ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

٥٦ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب العجم والبربر لابن خلدون دار الطباعة الخديوية بمصر ــ ١٢٨٤ هـ.

٥٧ ــ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة لأبي الحسن الأندلسي تحقيق إبراهيم الإبياري ـ دار المعارف بمصر. سنة؟.

٥٨ ــ قلائد الجمان في شعراء الزمان لابن الشعار الموصلي ـ المخطوطة رقم ٣٣٩ تاريخ ـ معهد المخطوطات بالقاهرة.

٥٩ ــ الكامل في التاريخ لأبي الحسن الشيباني المعروف بابن الأثير ـ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م.

٦٠ ــ كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة لابن مالك الحمادي اليماني ـ الطبعة الثانية ـ ١٣٧٥ هـ.

٦١ ــ لمحات من الخليج العربي لمحمد جابر الأنصاري ـ الطبعة الأولى ١٩٧٠ م.

٦٢ ــ مخطوطات الموصل للدكتور داود الحلبي الموصلي ـ مطبعة الفرات ببغداد ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م.

٦٣ ــ مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ لحمد الجاسر ـ منشورات دار اليمامة بالرياض ـ الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ ١٩٦٦ م.

٦٤ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي ـ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م.

٦٥ ــ المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ـ القسم الثاني من المقدمة لحمد الجاسر ـ مطبعة نهضة مصر ـ الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ.

٦٦ ــ معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية لعمر رضا كحالة ـ مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م.

٦٧ ـ ملوك العرب لأمين الريحاني ـ المطبعة العلمية ـ بيروت ـ ١٩٢٥ م.

٦٨ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ـ دار الثقافة بيروت سنة؟.

٦٩ ــ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي تحقيق وتعليق علي الخاقاني ــ مطبعة النجاح ببغداد ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م.

ب ـ الصحف والمجلات:

١ ــ جريدة صوت الحجاز ـ الأعداد من ٢٢١ إلى ٢٢٦ سنة ١٣٥٥ هـ.

٢ ــ مجلة الأديب البيروتية ـ يونيو وأكتوبر ١٩٥٥ م وفبراير ١٩٥٧ م الأجزاء ٦ و ١٠ و ١٦.

٣ ــ مجلة البيان الكويتية ـ عدد ٣٧ عام ١٣٨٩ هـ وعدد ١١٦ عام ١٣٩٥ هـ

٤ ــ مجلة العرب ـ جزء ٧ عام ١٣٨٨ هـ وجزء ١٢ عام ١٣٩٠ هـ.

٥ ــ مجلة العربي ــ عدد ١٧ عام ١٣٧٩ هـ وعدد ١٩٨ عام ١٣٩٥ هـ.

٦ ــ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ جزء ٣٨ ذو القعدة عام ١٣٩٦ هـ.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المحتوى

● لو سألني سائل كما سأل ابن المقفع عن الخليل بن أحمد فقال: إن علمه أكثر من عقله لقلت؛ إن أدب علي الخضيري أكثر من أكاديميته. في هذه الرسالة

دكتور ناصر بن سعد الرشيد

مدير مركز البحث العلمي بجامعة

الملك عبد العزيز بجده وعضو المناقشة

● إن المناهج الثلاثة المعروفة في تاريخ الأدب وهي المنهج التاريخي والمنهج النقدي والمنهج النفسي مطبقة في هذا البحث تطبيقاً حسناً حتى لا يكاد يستوعبها.

دكتور محمد محمد حسين

رئيس قسم الأدب بكلية اللغة

العربية بجامعة الإمام محمد بن

سعود الإسلامية وعضو المناقشة

● لقد اشترطت على صاحب الرسالة يوم أن رغب إليّ أن أشرف على رسالته شرطاً واحداً وهو أن يكون ممن يبتغون العلم لا اللقب وحده، وأشهد أنه وفّى هذا الشرط وفاء الرجال الصادقين. وإذا كانت الدراسات العليا تهدف إلى صياغة شخصية الطالب من الوجهة العلمية ووضع قدميه في درب العلم الطويل وعلى هُدى المنهج العلمي القويم فإن هذه الأمور قد توافرت لصاحب الرسالة في صورة ملائمة مرضية. ولقد لمست فيه أدبه وحياءه وجهده ودأبه وجعلني هذا كله أعتز بإشرافي على رسالته.

دكتور عبد القدوس أبو صالح

المشرف على الرسالة

ورئيس لجنة مناقشتها

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(تصـــويبات)

الصفحة	السطر	الخطــأ	الصـــواب
٣	١٥	سرقي	شرقي
٤	١٣	من زمانها	في زمانها
٥	١٠	مَجاورة	مُجاورة
١٨	(٦) الحاشية	فوهتا	فوهتها
٢٢	١٤	فأجابهوه	فأجابوه
٢٧	الأخير	قيام العيونية	قيام الدولة العيونية
٣٠	٦	استعداد	استعداداً
٥٩	٧	الفوطَيُ	الفُوَطي
٦٦	٩	غَنىً	غِنىً
٦٨	١	مفاخرة	مفاخره
٨٣	(١) الحاشية	انظلا الأعلام	انظر الأعلام
٩١	٢	الفُوادح	الفَوادح
٩١	٣	لَعشرين	لِعشرين
٩١	١٣	إليكَ	إليك
٩٢	٦	عهدً	عهداً
٩٥	١١	آرء	آراء
١١٩	٣	والعصبة	والعصبية
١٢٣	١٠	عفٌ الإزاد	عفُّ الإزار
١٢٨	٤	لَمَ يبق	لم يبق
١٢٨	١١	دافاع	دفّاع
١٣٣	١	النجم	فالنجم
١٥٠	١	الحال وصل	الحال التي وصل
١٦١	٧	بَنَاهُ	بِنَاهُ
١٦٢	١٤	داعيَها	داعيها
١٦٦	٤	سنة	سمة
١٧٧	١٠	عزمتُه	عزمتَه
١٨٢	الأخير	وضم عدى	وضيم عدى

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
١٨٥	(١) الحاشية	السلفى	السفلى
١٩٨	١٣	والربية	والريبة
٢١٣	(١) الحاشية		(١)الديوان ص ٣٧١،والشكال
٢٢٠	١٣	تناضح	وتناضح
٢٢١	آخر الحاشية	المشهور بالخطيئة	المشهور بالحطيئة
٢٤٤	١٧	اليث	الليث
٢٤٥	١	سيلاقي في أعداءه	سيلاقي فيه أعداءه
٢٤٥	١٠	يرى بيه	يرى فيه
٢٦٣	١٦	بالرجل الخامس	بالرجل الخامل
٢٩٥	٤	كما كان رثائه	كما كان رثاؤه
٢٩٩	١٠	فيذيهه	فيذيعه
٣٠٥			يحذف عنوان(أولا :المضمون)
٣٠٨	١٥	لاينفعك	لاينفك
٣٣٣	٨	عن ماجد بنُ	عن ماجد بن
٣٣٩	الأخير	حفيفها	فحيحها
٣٥٢	١٠	در مظلمته	رد مظلمته
٣٥٨	١٢	ووطأة والسنين	ووطأة السنين
٣٦٠	١٧	انفعلات	انفعالات
٣٦٤	١٤	لِلْعجزُ	لَلْعجزُ
٣٧٤	٦	تسم	تسيم
٣٧٨	١٤	لهذه رءوس	لهذه الرءوس
٣٩٠	٧	ففالفيته	فألفيته
٣٩٤	١٤	القديم ي يحول	القديم يحول
٣٩٦	٥	أقارب جار	أقارب وأذاة جار
٣٩٩	٦	عمرة	عمره
٣٩٩	٧	لأولادت	لأولاده
٤٠٣	٦	القرابة الرحم	القرابة والرحم
٤١١	١٠	والخلّاقة	الخلّاقة
٤٣١	(٤) الحاشية	حساته	حياته
٤٣٤	الثلاثة الأخيرة	الهنات والهيّنات	الهنات الهيّنات
٤٤٥	١٤	والعزارة	والغزارة

رَفْعُ
عبد الرَّحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com